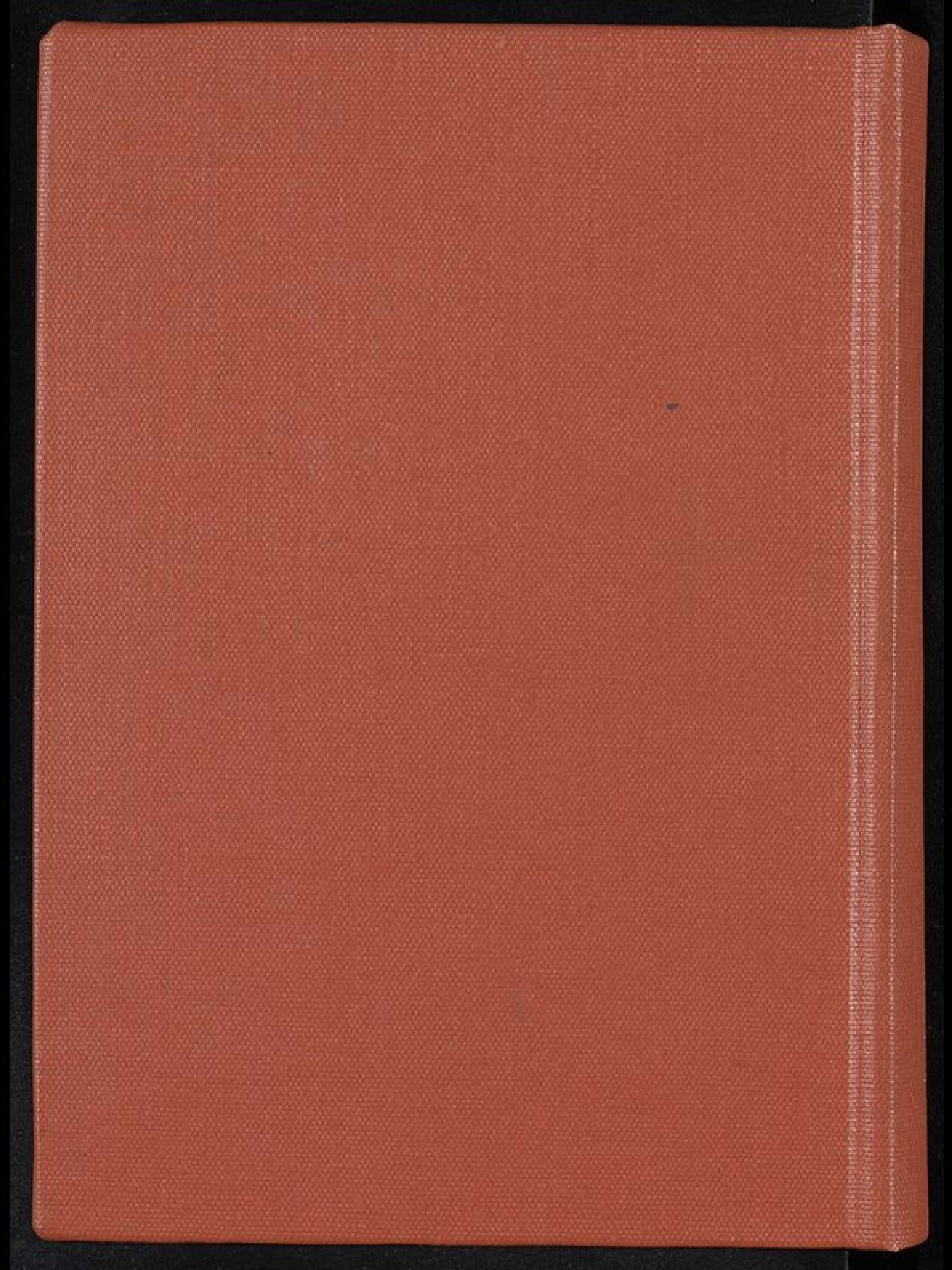
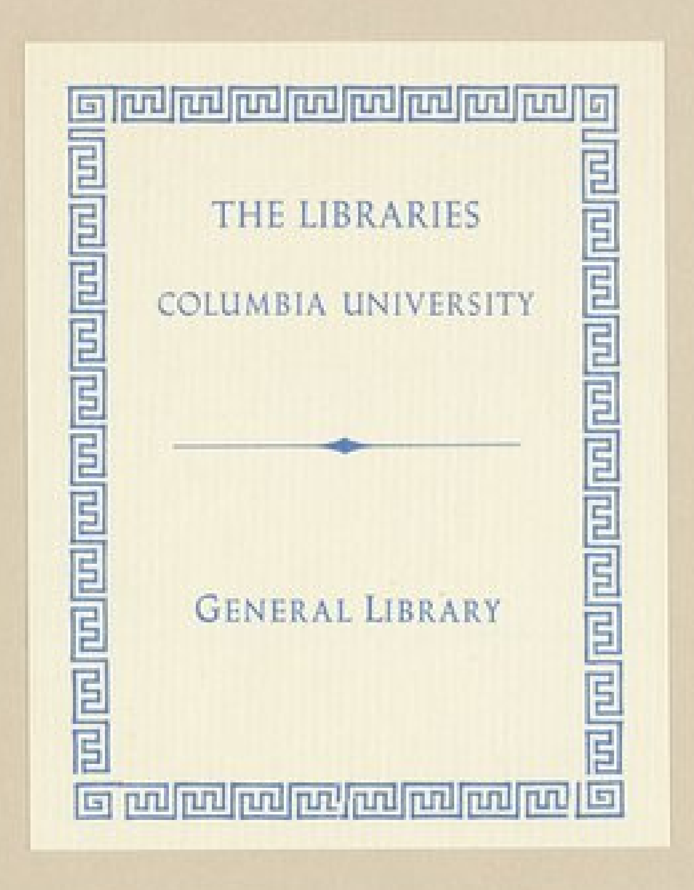
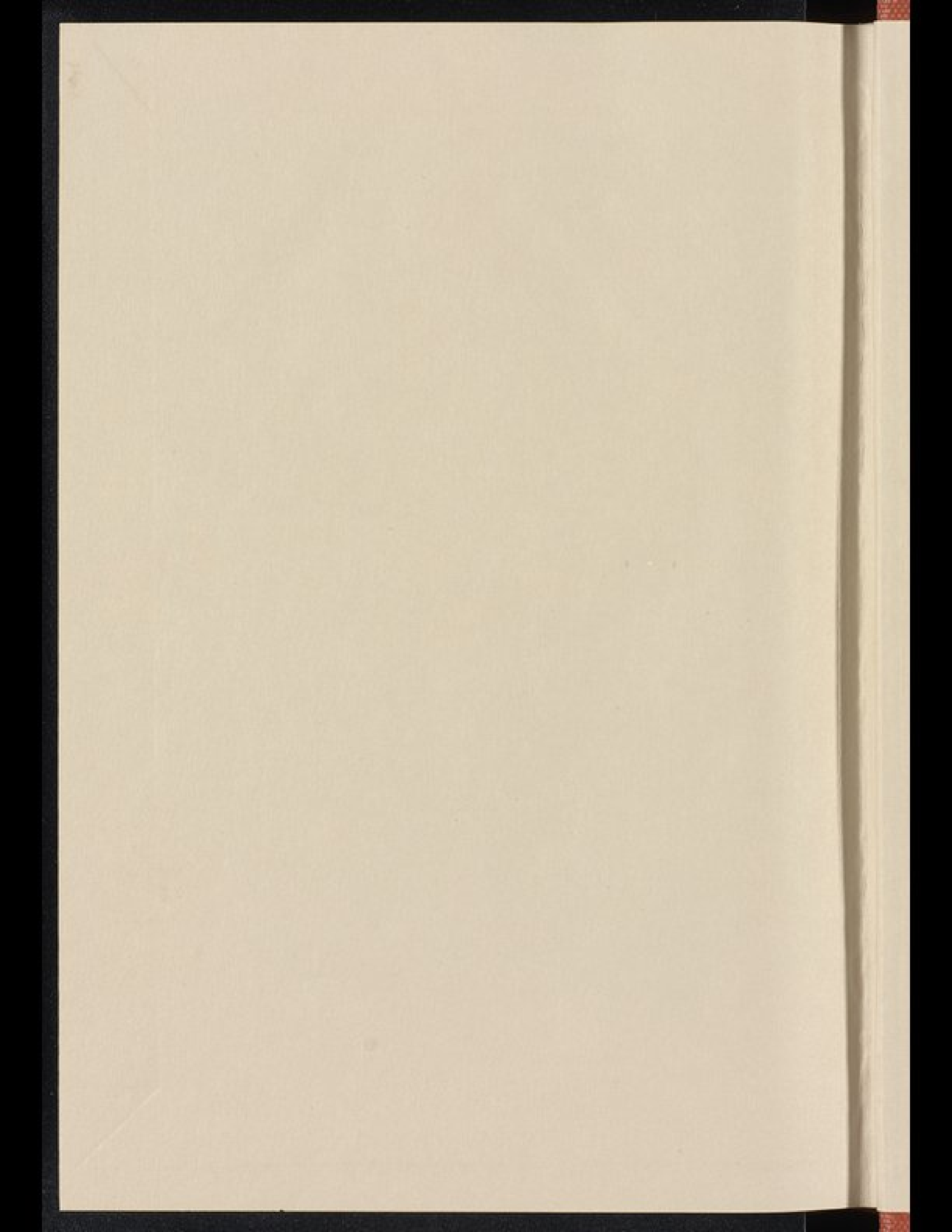
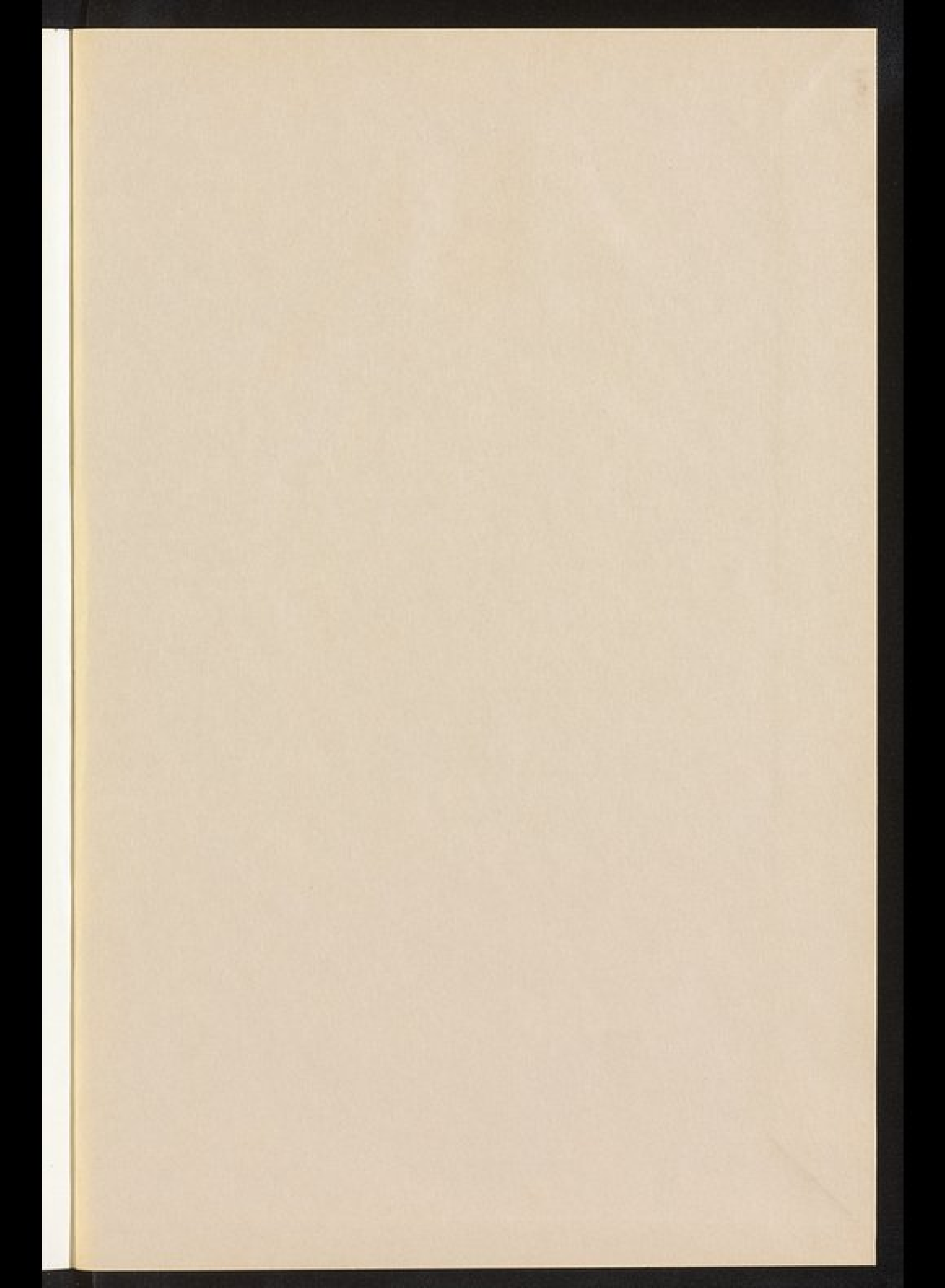
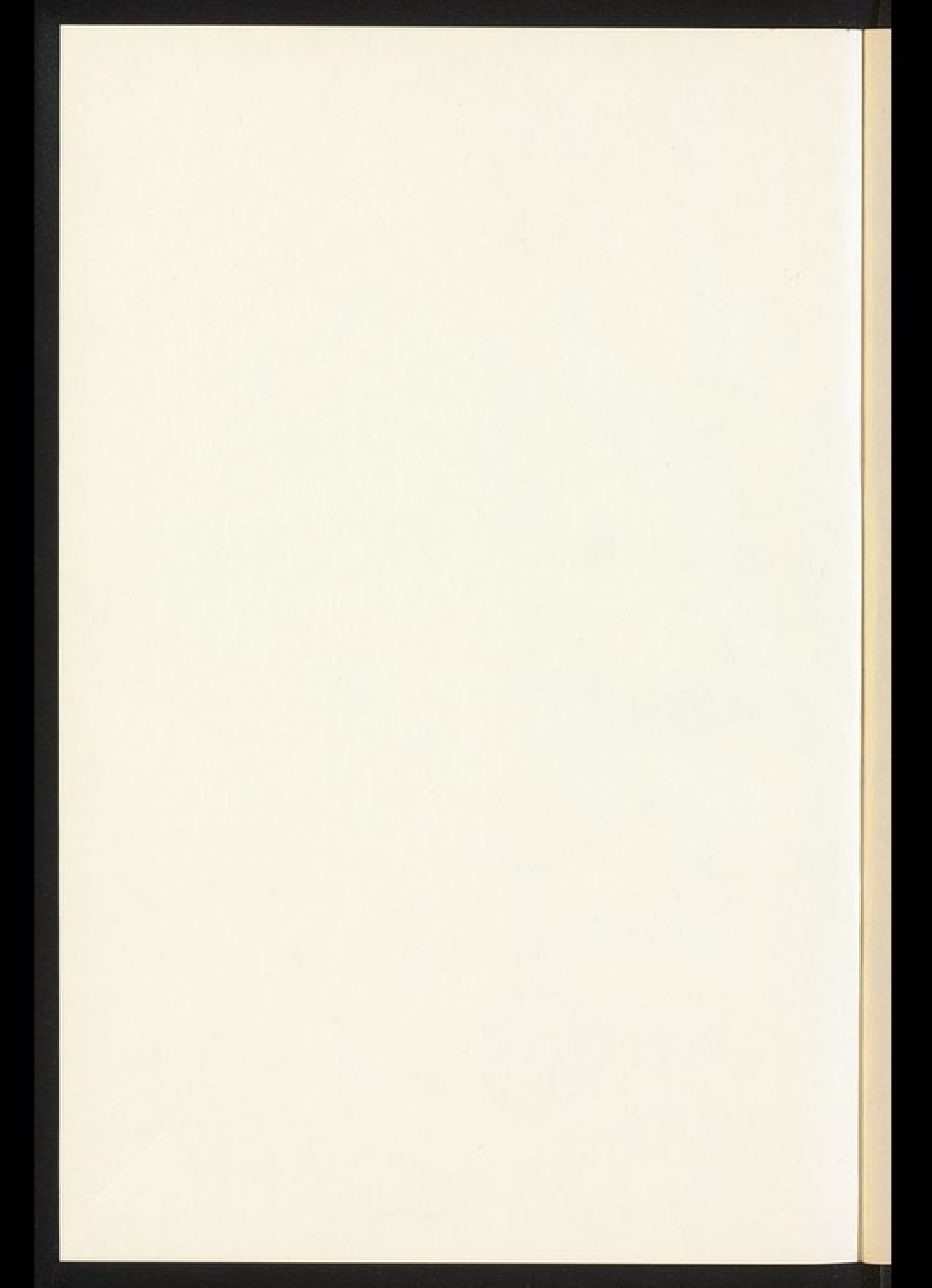
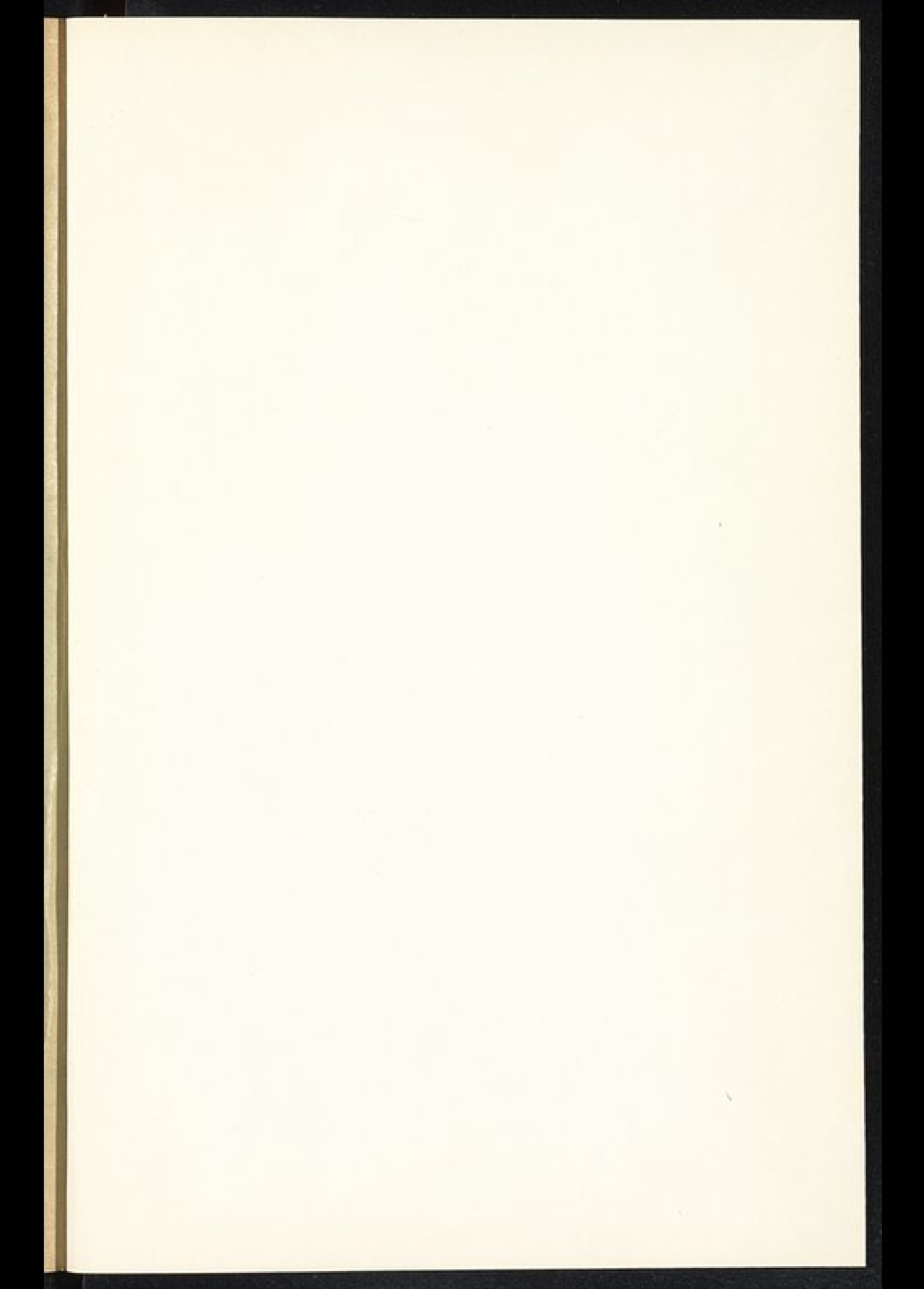












من مطبوعات دار المعلمين العالية

مقدمة
في تاريخ الحضارات القديمة

القسم الاول
تاريخ العراق القديم

تأليف

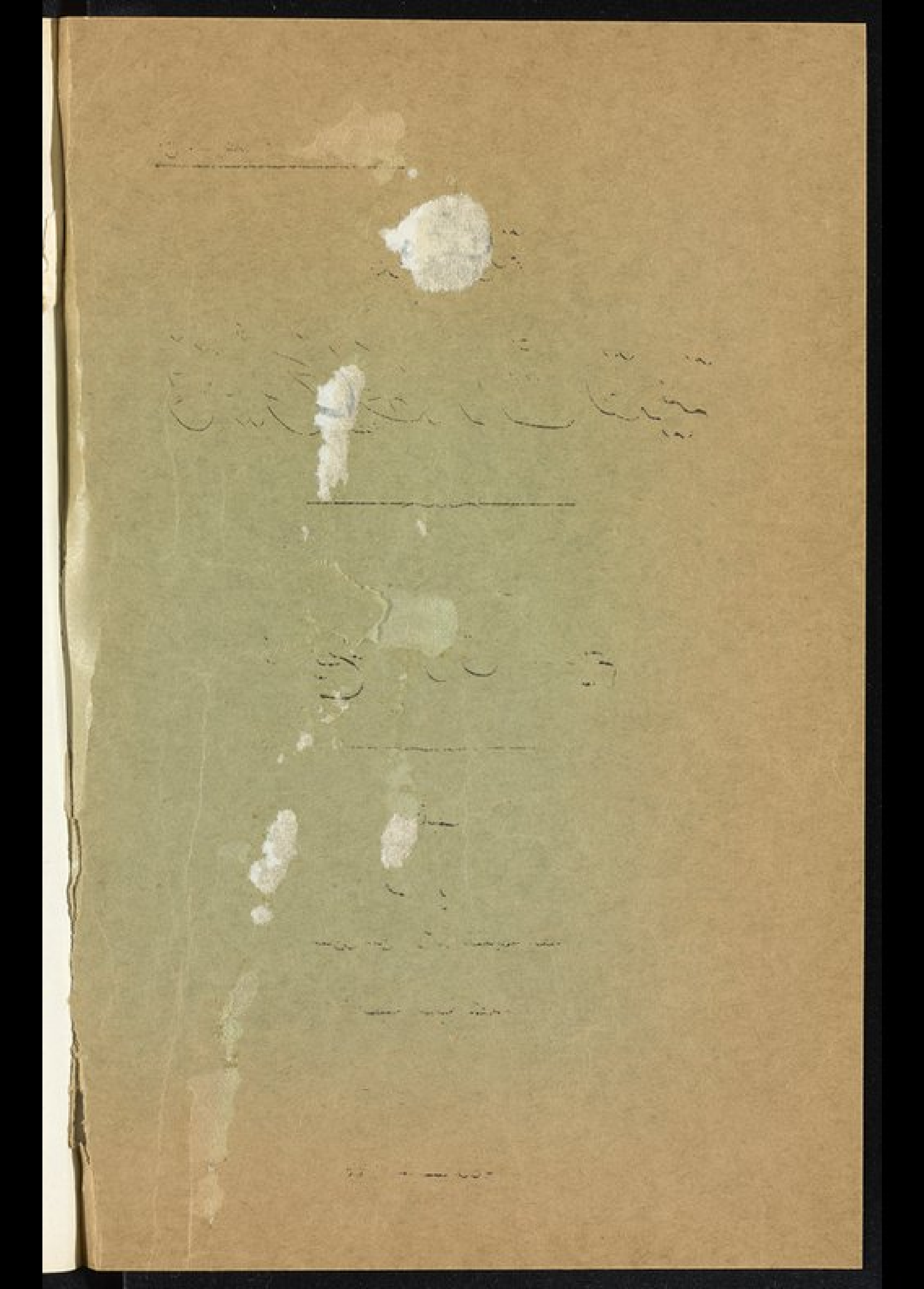
طه باقر

معاون مدير الآثار القديمة العام

(الطبعة الثانية منقحة)

شركة التجارة والطباعة المحدودة

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م



من مطبوعات دار ال[illegible]الية

مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة

القسم الاول
تاريخ العراق القديم

تأليف

طه باقر

معاون مدير الآثار القديمة العام

(الطبعة الثانية منقحة)

شركة التجارة والطباعة المحدودة

[illegible]

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م

مقدمة الطبعة الاولى

لعل احسن ما ابدأ به فی تقدیم هذا الكتاب الى ابناءالعربیة ان اذكر بوجه خاص ما كنت اعانيه وانا احاضر فى التأريخ القديم فى دار المعلمين العالية منذ عام ١٩٤١ من صعوبة ومشقة من ناحية المراجع التى يمكن اختيارها ليعتمد عليها الطلاب فى دروسهم • فالمعروف لدى الملمين بموضوع الحضارات القديمة انه لا يوجد حتى فى اللغات الاجنبية ، بله اللغة العربية ، مرجع تتوفر فيه ان يكون كتابا مدرسيا محتويا على احدث ما استجد من البحوث فى حضارات الشرق القديم • نعم هناك بحوث وتقارير علمية لا تحصى عن نتائج التنقيبات والدراسات الآثارية وهناك كتب متنوعة لا يمكن انتخابها لتكون مراجع للدارسين المبتدئين لانها عدا كونها وضعت لذوى الاختصاص فانها تقتصر على مباحث خاصة كأن تتناول تأريخ حقبة معينة كعصور ما قبل التأريخ او عصر الحضارة السومرية او أدوار خاصة فى العهود التأريخية او انها كتب مركزة الاختصاص تبحث فى بعض العلوم والمعارف التى وصلت اليها الحضارات القديمة • واذا علمنا ان هذا هو الحال فى تأريخ كل موطن من مواطن الحضارات القديمة ادركنا تعذر وجود كتاب واحد او عدة كتب مبسطة تجمع بين دفتيها تأريخ الحضارات القديمة • على اننا لا ننكر وجود بعض الكتب المدرسية من هذا الصنف مثل كتاب «بريستد» فى تأريخ العصور القديمة ، ولكن مثل هذه الكتب ينقصها أمران خطيران يجعلان استعمالها من جانب الطلاب أمرا فيه كثير من الضرر والخطر ، فأولا انها كتب قديمة التأليف مضى على تأليفها سنون كثيرة استجدت من بعدها اكتشافات خطيرة غيرت كثيرا من الحقائق والقت ضوءا كاشفا على تطور

الحضارات البشرية وأسسها وعلومها ومعارفها[1] ، وثانيا مع قدم تأليفها فانها وضعت للطلاب الغربيين في اوربة وامريكة ولذلك اسهبت في تاريخ الحضارة اليونانية والرومانية اما حضارات الشرق القديم فقد جعلت فيها كأنها مقدمة لفهم الحضارة اليونانية الرومانية ، في حين ان الحال يجب ان يكون معكوسا بالنسبة الى طلاب الشرق العربي حيث ينبغي التأكيد على الحضارات الاصلية الكبرى التي قامت في وادي الرافدين ووادي النيل وربط ذلك بدرس الحضارة العربية الاسلامية وايجاز تاريخ اليونان والرومان ليكون مقدمة لدرس تلك الحضارة ودرس التاريخ الاوربي • وهذه هي الخطة التي اتبعتها في هذا الكتاب •

فوجدتني ازاء هذه الصعوبات مضطرا على طبع ما القيه على الطلاب من المحاضرات بهيئة كراسات كنت اجمع فيها موجز المسائل المهمة في تاريخ الحضارات القديمة ، فأخذت هذه الكراسات تنمو وكنت كلما اعدت طبعها لطلاب الدورات الجديدة اتناولها بالتنقيح وادرج فيها ما يستجد من التحريات والاكتشافات ، ولكن صعوبة الطبع بالرونيو كانت تحول دون اكمال جميع المادة التي القيها على الطلاب فعزمت على تقديم ما تجمع لدي الى دار المعلمين العالية فوافق مجلس اساتذتها على طبعها بهيئة كتاب ، والفضل في تحقيق ذلك يعود الى دار المعلمين العالية ، اساتذتها وجميع موظفيها ، وينبغي لي هنا ان اخص بالشكر الدكتور عبدالحميد كاظم عميد الدار

---

(١) مع ان هذا القول يصدق على أكثر النواحي المختلفة من الحضارات القديمة الا أنه يتجلى بوجه خاص في أصول هذه الحضارات وبداياتها في عصور ما قبل التاريخ ، وفي علومها ومعارفها • وللمثل على ذلك نقول اننا لم نكن لنعرف قبل ١٩٣٠ شيئا يعتد به عن عصور ما قبل التاريخ المهمة في حضارات وادي الرافدين • وكان ما نعرفه عن العلوم الرياضية قبل عام ١٩٢٩ أمورا تافهة ، ولكن ما كشف عن هذه العلوم منذ هذا التاريخ قد قلب الحقائق في تاريخ المعارف البشرية رأسا على عقب (راجع بوجه خاص عصور ما قبل التاريخ والفصل الخاص بالعلوم الرياضية في حضارات العراق في القسم الاول من هذا الكتاب) •

والدكتور جابر عمر وكيل العميد والدكتور زكي صالح رئيس قسم العلوم الاجتماعية للمساعدة القيمة التي اولوني بها في تحقيق طبع الكتاب .

وها اني سعيد ان اقدم هذه الجهود المتواضعة وهي ثمرة دراسة الموضوع والتخصص به واشتغالي بالتحريات الآثارية في مديرية الآثار العراقية مدة اربعة عشر عاما وتدريس الموضوع زهاء ثماني سنين ، فأرجو ان يكون هذا العمل المتواضع حافزا لغيري للانتاج في مثل هذه الحقول التي تفتقر اليها المكتبة العربية افتقارا شديدا . وارجو ان لا يحمل مني ذلك محمل الاعتزاز فانني شاعر بما قد يجده المختصون من عيوب ونقائص واخص بالذكر منها ما نشأ عن وسائل الطبع المتوفرة في بلادنا . ثم ان كون الكتاب كتابا مدرسيا بالدرجة الاولى حال دون تحميله بالنصوص والمراجع والوثائق في الهوامش بل اكتفيت بوضع ثبت مختار بالمراجع التي يستطيع ان يرجع اليها الطلاب والاساتذة غير المختصين ، ولما أبنا ان ادرج في هذا الثبت الوثائق العلمية التي لا تحصى مما كتب من البحوث الاختصاصية لان مجرد ذكر عناوين هذه البحوث ومراجعها يؤلف بنفسه كتابا خاصا . والى هذا كله قد لا يبدو الكتاب متناسبا في حجم مادته فبينا خصصت القسم الاول منه لتأريخ العراق والاوجه المختارة من حضاراته اوجزت في القسم الثاني حضارة وادي النيل وموجز تأريخ أمم اخرى كالفرس واليونان والرومان ، اما سبب ذلك فليس ما نعتقده في اهمية حضارات وادي الرافدين في التأريخ البشري فحسب بل لان حقيقة كون الكتاب وضع للطلاب العراقيين حتمت التأكيد على الحضارات التي قامت في وادي الرافدين بوجه خاص والاقتصار في الحضارات الاخرى على الالمام والايجاز . ثم ان عدم توفر الصور الموضحة ونفقات الطبع حالت دون توضيح القسم الثاني بالصور باستثناء بعض الصور والخرائط . والواقع ان الكتاب بأجمعه ما هو الا مقدمة لمن يروم التخصص في الحضارات القديمة وان بدا للبعض ضخما مفصلا ولكن لا يظهر كذلك اذا تذكرنا انه محاولة للالمام بتأريخ القسم

الاعظم من قصة الانسان على هذه الارض منذ ان صار انسانا الى مطلع العصور الحديثة التي لا تؤلف من « عمر الانسان الا بضع دقائق بالنسبة الى ساعتين وهي عمر الحضارة البشرية ، بالنسبة الى شهر واحد وهو عمر الانسان منذ ان وجد على الارض»[١] .

وبالختام ارجو ان اكون قد سددت فراغا في المكتبة العربية وحققت حاجة ماسة لا يشعر بها الا من مارس تدريس هذا الموضوع . ومن الله التوفيـق .

بغداد ١٩٥١ طه باقر

(١) أنظر مقدمة القسم الاول من هذا الجزء من الكتاب .

مقدمة الطبعة الثانية

لقد مضى على الطبعة الاولى نحو خمس سنوات وبعد نفاذ النسخ التى طبعت منها دعت الحاجة الى اعادة طبعه من جانب كلية دار المعلمين العالية ، وها انى يسرنى ان اقدم الكتاب مرة اخرى الى القراء وليس لدى ما اضيفه الى ما ذكرته فى مقدمة الطبعة الاولى سوى اننى مغتبط جد الاغتباط لما لمسته من الاقبال الشديد والطلب المتزايد على الكتاب فى العراق وفى خارج العراق • فانتهزت فرصة اعادة طبعه وبذلت ما وسعنى من الجهد على تنقيحه باضافة مواد جديدة اساسية الى فصوله المختلفة واعادة النظر فى بعض ما جاء فيه على ضوء التحريات والاكتشافات التى تمت فى عالم البحوث الآثاريه ، كما انى تلافيت بوجه اساسى النقائص الموجودة فى الجزء الثانى فى اتمام النواحى المهمة من حضارات الشرق القديم الاخرى وبوجه خاص حضارة وادى النيل ، وافردت بحثا خاصا بموجز تأريخ بلاد الشام القديم • وعملت جهدى على ذكر المراجع الاصلية فى المسائل المهمة فى متن الكتاب بالاضافة الى تخصيص اثبات بالمراجع الاساسية فى آخر كل جزء بحسب فصول الكتاب المختلفة ، واضفت ايضا الى الكتاب بكلا جزئيه صورا موضحة اخرى على قدر ما استطعت • واكرر ما ذكرته فى مقدمة الطبعه الاولى عن عدم تناسب الكتاب فى حجمه من ناحية تخصيص جزء كامل لحضارات وادى الرافدين فى حين اننى خصصت الجزء الثانى للكلام على اكثر من حضارة واحدة • فالى الاسباب التى بينتها من اهمية حضارات وادى الرافدين فى التأريخ البشرى وكون الكتاب وضع خصيصا للطلاب فى العراق ، فان فى الجزء الاول مواد عامة لا تخص تأريخ العراق وحده وانما هى بحوث عامة فى الحضارات البشرية القديمة كمقدمة فى موضوع التأريخ والكلام على

عصور ما قبل التأريخ وما ذكرته فيه من مقارنات بين أدوار تأريخ العـراق القديم وبين ما يضاهيها من الاطوار الحضارية في تأريخ الشرق الادنى ٠

وبالختام أود ان أسجل تقديري وشكري لهيئة دار المعلمين في تمكيني من اعادة طبع الكتاب واخص بالشـكر عميد دار المعلمين العـالية الاستاذ الدكتور خالد الهاشمي ورئيس قسم العلوم الاجتماعية الاسـتاذ الدكتور زكي صالح ٠

بغداد ١٩٥٥　　　　طه باقر

فهرست القسم الاول

القسم الاول

صفحة

القسم الثاني

بعض الاوجه المختلفة من حضارة وادي الرافدين

٢

صفحة

الفصل الاول

مقدمة في التاريخ والتاريخ القديم

١ ـ علم التاريخ ومنهجه

يحسن بنا ونحن نبحث في الحضارات القديمة والتاريخ القديم أن نعرف الى أي صنف من أصناف المعرفة يرجع موضوع التاريخ • وقد كان هذا الامر فيما سبق قضيـة خلاف بين العلمـاء • ولكن الذى عليه نفات الباحثين الآن ، ان التاريخ ، استنادا الى مفهوم العلم[1] ، علم من العلوم • بيد أنه ليس من صنف العلوم التى تعتمد على الملاحظة المباشرة كالفلك أو على التجربة والمختبر كأكثر العلوم الطبيعية ، وانمـا هو علـم بحث ونقد ونظر • فهو أقرب ما يكون الى «الجيولوجيا» فكما ان الجيولوجي يبحث فى أحوال الارض فيعرف تاريخها وكيف وصلت الى ما هي عليه الآن ، كذلك يبحث المؤرخ فى بقايا الماضى وآثاره ليستعين بها على معرفـة الحـاضر • والتاريخ مثل العلوم الاخرى له غرض وموضوع • وموضوعه البحث فى

---

(١) من التعاريف المتفق عليها للعلم انه «معرفة منظمة أو مجموعة من الحقائق أمكن الوصول اليها بالبحث والتحرى والنقد والتحقيق» والواقع من الامر أن كلمة التاريخ فى اللغات الافرنجية (History) تعنى فى أصل ما وضعت له باليونانية كما استعملها هيرودوتس لاول مرة «بحث وتحقيق أو معرفة يحصل عليها بالبحث والتحرى» ولكن استعملت هذه الكلمة كذلك فى معان أخرى منها سير الحوادث الماضية وتستعمل أحيانا بمعنى طريقة تدوين تلك الحوادث • وتستـعمل كلمة تاريخ كذلـك بمعنى زمن وقوع الحوادث • ومن الجدير ذكره بهذا الصدد ان العلامة ابن خلدون أول باحث أشار الى ان التاريخ بحث ونظر ونقد (أنظر المقدمة لمقدمته)

أعمال البشر التى وقعت فى الماضى • أو هو درس المجتمعات البشرية فى المكان والزمان •

واذا كان التأريخ علما فينبغى أن يكون له مثل العلوم الاخرى منهج أو طريقة للبحث (Method) [١] يستطيع بها الوصول الى مادته وحقائقه • ولكى نعرف شيئا عن منهج التأريخ بصفته علمـا نؤكد ما أشرنا اليه من اختلافه عن بعض العلوم الاخرى ولا سيما العلوم الطبيعية أو العلوم المضبوطة من حيث انه لا يعتمد على التجربة لانها مستحيلة فى التأريخ ، ولا يستفيد من الملاحظة المباشرة ولا من الدليل العقلى المجرد كمـا فى الرياضيات بل انه يبحث فيما خلفه الانسان لمعرفة حاضر الانسان • وان مصادره ومادته الاولى بوجه العموم جميع ما خلفه البشر ممـا يمكن الاستفادة منهـا كالوثائق والسجلات والآثار المادية مما يعيننا على فهم حضارات الامـم وتقاليدهـا وأديانها ولغاتها وتفكيرها وغير ذلك من مقومات تلك الحضـارات وبعبـارة موجزة معرفة البشـرية والنفس البشـرية ، ولكن ليس النفس الفردية أو الشخصية التى هى موضوع علم النفس بل الطبيعة البشرية وامكانياتهـا وحدودها ، وماذا استطاع الانسان أن يفعل وبالنتيجة ما هو الانسان •

واذا كـان منهج البحث العلمى الذى أوجده البـاحثون فى العصور الحديثة قد أكسب التأريخ أهلية ليكون علما الا انه لا يزال أمام المعترضين على كون التأريخ علما مجال للاعتراض بان التأريخ لا يستطيع أن يجـارى العلوم المضبوطة (Exact Sciences) فى قدرتها على استنباط القوانين والنواميس من درس العلاقات بين الاشياء ومقارنتها ، بحيث تستطيع أن تتنبأ بها عن المستقبل تحت شروط وأحوال معينة • أما مسألةالتنبؤ (Prediction) فلا تقتصر على كونهـا غير ممكنـة فى التـأريخ بل انهـا خارج اختصاص بحثه ، لان دائرة البحث الخاصة بالمؤرخ كما قلنا حوادث البشر وتجاربهم فى الماضى • وقد يحاول المؤرخ استنادا الى خبرته التأريخية أن يقيس عليها

---

(١) ويسمى منهج التاريخ بالالمانية (Die Historik) وبالانجليزية (Methodology) أو (Historical Method)

فيحدس ما يقع في المستقبل ولكنه حتى لو صدق في حدسه الا ان محاولته هذه ينبغي أن لا تكون بصفته مؤرخا بحسب مفهوم موضوع التأريخ • أما عن وجود القوانين في التأريخ فيجيب عنه الباحثون المحدثون بان التأريخ بصفته علما من العلوم الاجتماعية يحاول جاهدا أن يكتشف القوانين والقواعد الكلية لتفسير حوادث التأريخ ، ولكن لما تبلغ هذه القواعد مرتبة قوانين العلوم الطبيعية من الدقة والاطراد ، ذلك لان قانون العلية أو السببية (Law of Causality) في حوادث التأريخ متناه في التعقيد • فان الحادثة الاجتماعية مهما بلغت من البساطة انما تقع بفعل سلسلة متشابكة من العلل بخلاف الوقائع الطبيعية التي يبحث فيها علماء الطبيعة حيث يكون واجبهم في درسها والعلاقات فيما بينها أمرا يسيرا لو قيس بواجب المؤرخ الذي يكون موضوعه ليس أشياء جامدة بل أفعالا صادرة من فاعلين يتصفون بالفكر والقصدوالحوافز المعقدة • ولكن مع ذلك فمعظم حوادث التأريخ وأسبابها ليست فوضى أو حوادث فردية لا ضابط لها ، وانما تنشأ من معيشة الانسان في مجتمعات أو أنظمة اجتماعية تسيطر على أفعالها قواعد الضرورة الاجتماعية والنواميس الاجتماعية العامة ، والا لما أمكن وجود ما نسميه بعلم الاجتماع أو العمران الذي يدرس المؤسسات والانظمة الاجتماعية دراسة مقارنة ، ويستخرج لها القواعد الكلية التي يستفيد منها المؤرخ •

ثم اننا لعلى أمل وطيد من ان هذا النوع البشري الذي يسمى «بالانسان العاقل» سيبرر أهليته لهذا اللقب فيجد في البحث عن نفسه والكشف عن أسرار المجتمعات البشرية بالدرس العلمي المقارن • وعندئذ فستوطد قوانين التأريخ والعمران البشري على وجه ليس كما يتطرف البعض في تفسير حوادث التأريخ وليس كما يرتأي البعض الآخر من انكار لامكان استخراج القوانين في التأريخ •

وبحسب المصادر التي يعتمد عليها التأريخ في جمع مادته تكون أولى خطوة منطقية في منهج البحث التأريخي هي جمع المصادر والاصول المتعلقة

بحثه . ويصح أن نطلق على هذه الخطوة اسم «جمع الاصول» (١) ومع أن هذه خطوة من خطوات المؤرخ غير انها المرحلة الاساسية اذ ، كما قيل ، «لا تأريخ بلا وثائق» . فاذا جمع المؤرخ ما يستطيع جمعه من مصادر بحثه وأصول مادته وكان على معرفة تامة بمادته وخبيرا بمصادره كخطوط الوثائق واللغات المكتوبة بها أو أطرزتها وأوصافها ان كانت من الآثار الفنية وبالاستعانة بالعلوم الموصلة(٢) ، فانه يبدأ بخطوة ثانية من بحثه وهي مرحلة النقد(٣) ، أي نقد ما جمعه في الخطوة الاولى وتمحيص المصادر والوثائق التي جمعها وتحقيقها لمعرفة اصالتها وصحتها من خطئها وتزويرها ومعرفة مؤلفها وزمان كتابتها ومكانها ، ثم تحري مدى ما جاء فيها من معلومات ومطابقته الى الحقيقة والواقع ، فان كانت من الوثائق المدونة ، كالكتب ، فيلزم معرفة تاريخها ومؤلفها ومبلغ امانته وأوهامه . وقد يلزم تصحيح متن الوثائق التأريخية باصلاح خطئها اللغوي وتكميل ما نقص منها ، وذلك بمضاهاة الاصول المختلفة لهذه الوثائق . ويلي ذلك تمحيص مادة الوثائق بتحليل الحقائق الواردة فيها وترتيب موضوعاتها وتصنيف حوادثها .

---

(١) وتدعى بالالمانية (Die Heuristik).

(٢) العلوم الموصلة أو المساعدة وتسمى (Auxiliary Sciences) مجموعة من الطرق العلمية الفنية (Techniques) يستعين به الباحث التأريخي في فهم مصادره وتقدير قيمتها تمهيدا لنقدها ، واشهر هذه الطرق علم الخطوط القديمة على الورق وما شابهه (Palaeograpy) كأشكال الخطوط المختلفة قبل اختراع الطباعة وأنواع الورق والحبر . والكتابة على الحجر والطين وما شاكل ذلك (Epigraphy) ومعرفة اللغات والتقويم (Chronology) ومن العلوم الموصلة علم النقود أو النميات (Numismatics) وعلم الاختام والطمغات (Sphragistics) . وهناك علوم عامة تعتبر مساعدة للباحث التاريخي من حيث ثقافته العامة وسعة اطلاعه ، نذكر من ذلك علم الآثار (Archaeology) وعلم الانسان (Anthropology) وعلم الاقتصاد والجغرافية والاجتماع .

(انظر (Langlois and Seignbos, **Introduction to the Study of History**, English Trans. 1912).

Vncent, **Historical Research** (1929).

(٣) Die Kritik أو Criticism

وبالاجمال لا تعدو المصادر المكتوبة أن تكون مثل شهادة الغير . ولذلك وجب على المؤرخ الباحث تمحيص هذه الشهادة وعدم قبولها على علاتها . وبما ان الحوادث التأريخية وقائع حقيقية والحقيقة واحدة لا تتعدد فلا بد أن يصل الباحث ، هو بنفسه أو من يستدرك عليه ، الى تلك الحقيقة أو ما يقاربها على الاقل . وجل اعتماده فى ذلك سبيل التحليل وتقصى الحوادث وموازنتها ومضاهاتها ، وبوجه الاجمال يمكننا تحليل عملية النقد ، التى هى عماد البحث التأريخى ، الى مرحلتين كثيرا ما تكونان متداخلتين ، وهما مرحلة النقد الخارجى (External criticism) وتدور على البحث فى المصادر للتأكد من اصالتها وصحتها ومعرفة مؤلفها وزمانه ومكانه ، فليس كل الوثائق التأريخية صحيحة بل كثيرا ما يتطرق الشك الى صحتها واصالتها ومنشأ ذلك قد يكون التزوير المتعمد أو الاخطاء والاوهام الناشئة من النقلة والنساخ وكذلك من انعدام الخبرة والممارسة التأريخية ومن التسرع والسطحية ، كما ان كثيرا من الوثائق تكون مخرومة غير معلوم مؤلفها أو زمان تأليفها فنستعين بطرق النقد الخارجى لتعيين المؤلف وزمانه ومكانه[١] .

أما المرحلة الثانية من النقد فتسمى النقد الباطنى أو الداخلى (Internal criticism) ومدار هذا النقد على وزن علاقة الوثيقة أو الدلالة التأريخية التى جمعناها بالحقيقة وواقع الحال ، وقد تقسم هذه المرحلة ايضا الى شطرين يسمى أحدهما وأولهما بالنقد الباطنى الايجابى والثانى لنقد الباطنى السالب ، والاول يتعلق بفهم نصوص الوثائق أى فهم لغتها وأساليبها وادراك أغراض المؤلف وآراءه ثم ننتقل الى الشطر الثانى من النقد وهو اثبات صحة المعلومات الواردة فى تلك الوثائق أى تجريح المؤلف أو تعديله

(١) ونذكر من طرق تعيين زمن الوثيقة على سبيل المثال طريقة تعيين الحدين الادنى والاعلى فى زمن الوثيقة بالنظر فى الحوادث المذكورة فى الوثيقة . فالحد الاعلى هو الزمن الذى لا يمكن أن تكون الوثيقة قد كتبت قبله (Terminus Post Quem) والحد الثانى (Terminus ante quem) اى الزمن الذى لا يمكن أن تكون الوثيقة قد كتبت بعده . ومن ذلك نحصل بين هذين الحدين على تاريخ تقريبى للوثيقة المجهول زمن تأليفها .

(الجرح والتعديل) من حيث صدقه وكذبه او انخداعه وأوهامه وتحليل الظروف والاحوال التى كتبت فيها الوثيقة . والنقد الباطنى بكلا نوعيه يسمى بالمصطلح اليونانى (Hermeneutic) ومعناه النقد التفسيرى أى التفسير والتحليل .

فاذا ما تم تحقيق الوثائق ونقدها نقدا ايجابيا وسالبا (التعديل والجرح) فان الباحث يخطو الخطوة الثالثة من خطوات البحث التأريخى ومدار هذه المرحلة على التأليف بين الحقائق وتركيبها . وتؤلف طرق التركيب والتأليف (Historical Construction) [١] ، وتكون طرق التركيب والتأليف شطرا مهما من منهج البحث التأريخى ، فان عمليات النقد التى أوجزناها لا تنتج لنا الا حقائق منعزلة منفصلة بعضها عن بعض ، فلكى نؤلف من هذه الحقائق المنفصلة المنعزلة مجموعة كاملة مفهومة من العلم والمعرفة فيلزم على المؤرخ أن يقوم بجهود أخرى لتركيب هذه الحقائق المنفصلة والتأليف فيما بينها بتصنيف الحقائق والمعلومات الواردة فى الوثائق الى أصناف وموضوعات متجانسة .

والذى يمكن قوله بوجه عام بصدد قواعد التأليف التأريخى انه لا يمكن وضع خطة مثلى (ideal) على غرار مناهج العلوم المضبوطة التى نأمل أن يكون التأريخ مثلها ، بل ان خطة عملنا تتوقف الى حد كبير على المادة التأريخية التى تتوفر لدينا بعد جمع المصادر ونقدها . ولكى نفهم حدود خطة التأليف التأريخى يلزم علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار طبيعة الحقائق التأريخية المستخرجة من الوثائق ، وطريقة استخراجها فبحسب منهج البحث الذى أوجزناه تستخرج الحقائق التأريخية بتحليل الوثائق تحليلا نقديا (Critical analysis of documents) فتخرج لنا هذه الحقائق بعد عملية النقد وهى مغربلة منقاة ولكنها بهيئة معلومات مجزأة

---

(١) وتسمى ايضا (Synthetic Operations)

فردية لا يجمعها نظام أو تأليف ما • فقد تؤدينا طرق النقد التاريخي الى تجزئة الجملة الواحدة من الوثيقة الى أجزاء نرفض بعضها ونقبل البعض الآخر • كما ان الوثيقة الواحدة ، ولو كانت صغيرة ، أو ان نصا تاريخيا واحدا ، قد يزودنا بمعلومات متنوعة مختلفة • فتكون الحقائق التاريخية المستخرجة من الوثائق خليطة مزيجة ، وهذا أحد الامور التي تميز التاريخ من العلوم الاخرى ، فمثلا ان العلوم التي تعتمد على الملاحظة المباشرة (direct observation) تنتخب الحقائق التي تدرسها وتحصر همها في البحث المنظم في حقائق متجانسة • أما العلوم المعتمدة على النصوص والوثائق (documentary sciences) ، والتاريخ واحد منها ، فانها تأخذ حقائقها وقد سبقت مشاهدتها وملاحظتها عن طريق آخر غير طريقها ، أي عن طريق مؤلفي الوثائق • فمن الضروري تصفية هذه الحقائق وتصنيفها تحت أصناف وأنواع مختلفة بحسب المواضيع التي يعالجها المؤرخ وبحسب القضايا والمسائل التي يبحث المؤرخ عن حلولها •

ولعل أقرب العلوم التي يمكن للتاريخ أن يسير على خطا منهجها من ناحية جمع الحقائق وتصنيفها هو علم الحيوان الوصفي (Descriptive Zoology) الذي يبدأ بحثه بملاحظة الحيوان بكامله بالمشاهدة المباشرة ثم يشرح هذا الحيوان الى أجزائه المختلفة • والتشريح هنا يقابل التحليل في طريقة التاريخ (أي Analysis) ثم يعمد الى جمع الاجزاء المشرحة وتركيبها بحيث تكوّن الشكل الاصلي وهذا هو التركيب الحقيقي (Synthesis) ، وبوسع علم الحيوان ايضا في مرحلة ثالثة أن يقارن هذا الشكل الذي كونه بعد التشريح مع أفراد أخرى من نوعه فيدرس أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها ويصنفها • فتكون خطوات علم الحيوان في استخراجه للحقائق : (١) الملاحظة والتحليل • (٢) التركيب • (٣) المقارنة والتصنيف وبوسع التاريخ أن يسير على هذا المنهج الى حد ما على الوجه الآتي

بوسعنا أن نوجز تصميم التأليف أو التركيب التأريخي بجملة مراحل تركيبية (Synthetic) :

أ ـ تخيل الحقائق وتصورها في العقل :ـ يجهزنا تحليل الوثائق النقدي بالمادة اللازمة للبناء التأريخي • وهذه المادة عبارة عن حقائق تأريخية مضت وهي متفرقة ومنعزلة بعضها عن بعض • وبما ان المؤرخ ، بخلاف عالم الحيوان ، لا يرى شيئا ملموسا سوى «الورق المكتوب» ، وفي بعض الاحايين الآثار القائمة ونتاج الفنون والصناعة ، فيعمد المؤرخ لادراك هذه الحوادث التي مضت الى تخيلها مفترضا انها تشبه حقائق الحاضر بوجه عام ، محاولا تكوين صورة عقلية تشبه بقدر الامكان الحوادث الماضية التي استخرجها من الوثائق •

ب ـ جمع الحقائق وتنظيمها : وبعد أن نتخيل الحقائق ونكون عنها في أذهاننا صورا عقلية نجمع فيما بينها ونضعها بموجب خطة نضعها بحسب موضوع بحثنا • ونعمد أيضا في هذه المرحلة من التأليف التأريخي الى تقسيم الحقائق الى مجاميع وأجزاء متشابهة بحسب مواضيعها •

جـ ـ الاجتهاد (Reasoning) : أو الاستنتاج التأريخي بطريق الاجتهاد ، فان الباحث كثيرا ما يجد انه بالرغم عما جمعه من الحقائق فانه لا يزال يجد أمامه فجوات عن وقائع الماضي لم تستطع الحقائق التي جمعها ان تزوده بها بصورة مباشرة ، فعليه في مثل هذه الحال أن يحاول ملأ بعض هذه الفجوات عن طريق الاجتهاد العقلي أو المنطقي بالاستناد الى الحقائق التأريخية المعروفة لديه •

د ـ مرحلة الاستنتاج واستخراج القواعد العامة •

تساعدنا المراحل الثلاث السابقة على استخراج مجموعة من الحقائق أو المعرفة المصنفة بموجب خطة منظمة من التصنيف • فيبقى على الباحث أن يركز هذه الحقائق المصنفة ويعبر عنها بقواعد أو دساتير (formulae) لاستنتاج خصائصها وميزاتها العامة وعلاقاتها بعضها ببعض ، وخلاصة هذه المرحلة انها تؤدينا الى الاستنتاجات النهائية ، وتجعل من بحثنا التأريخي بحثا

علميا • وتدخل فى هـذه المرحلة من مراحل التركيب التـاريخى أو يأتى بعدها تفسير الحوادث التاريخية أى تعليل الحوادث التاريخية والبحث عن أسباب وقوعها • ويجدر بنا أن نشير هنا الى أن منشأ الاختلاف بين المؤرخين ونشوء المذاهب المختلفة فى تفسير التاريخ مرده الى اختلاف وجهات النظر بين الباحثين فى هذه المرحلة من منهج البحث التاريخى •

وبعد أن يتم الباحث جميع المراحل التى لخصناها فيما سبق يبدأ فى المرحلة النهائية من مراحل بحثه وهى مرحلة التأليف والتدوين أى تبويب مادته وعرضها عرضا فنيا صحيحا مستساغا[١] • ولان هذه المرحلة الاخيرة

(١) يسمى فن التدوين التاريخى بـ (Historiography) وطرق التدوين الشائعة عند المؤرخين محصورة فى ثلاثة أساليب :ـ أولها نظام الحوليات (annals) وهى أشبه ما تكون بمـا كـان عند البابليين وكذلك المصريين القدماء • واستعملها مؤرخو العصور الوسطى فى أوربة وهى ذكر الحوادث المعاصرة عاما بعد عام وكانت فى أول أمرها تافهة لا تعدو مجرد مذكرات لتقييد الحوادث المعاصرة تدون بهيئة تعليقات على التقاويم الدينية الخاصة بالاعيـاد • وأغلب هذه الحوادث لا تعدو الحوادث الدينيـة كالخوارق ، وحدوث الزلازل الى غير ذلك ، ولكن ترقت الحوليـات فى أواخر العصور الوسطى وأصبحت سجلات سنوية مهمة • ومما لا شك فيه ان التحسن الذى طرأ على هذه الطريقة من التدوين كان بتأثير مؤرخى العرب•والطريقة الثانية هى التأريخ التى يصطلح عليهـا اسـم(Chronicles)وهى أرقى من سابقتها اذ أنها تدور على عرض الحوادث عرضا أتم وأوفى مما فى الحوليات بيـد أنهـا احتفظت بالترتيب المتبع فى الحوليـات أى ترتيب الحوادث وعرضها على السنين ويبدأ بهـا عادة منذ الخليقـة حتى وقت الكتابة وقد تأثرت أوربة بمؤرخى العرب المسلمين فترقى عندها هذا الفن من التاليف التأريخى • ويظن ان أول من بدأ هذا النمط فى عرض مادة التأريخ الهيثم بن عدى المتوفى عـام ٢٠٧ للهجرة ثم جرى عليهـا الطبرى وابن مسكويه وابن الاثير وابو الفدا • أما الطريقة الثالثة وهى التى عليها معظم المؤرخين الآن فهى عرض الحوادث وسـوقها مسـاق القصـة المرتبـة على العهـود التأريخية دون السـنين • وقد جرى على هذه الطريقة من مؤرخى العرب اليعقوبى والدينورى والمسعودى وابن خلدون وغيرهم وانتهى أمر التأريخ عند العرب بأن أوصله المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون الى مرتبة العلـم والى مفهومه فى الوقت الحاضر فهو بذلك كمـا لقبه بعض العلمـاء «يعد واضع علم التأريخ» أنظر •

R. Flint, **History of the Philosophy of History** (1893) pp. 157-171.

تعتمدُ على الادب والفن كثيرا عدَّ الناس التأريخ فنا أو فرعا من فروع الادب ولسنا بحاجة الى التأكيد على خطل هذا الرأى لان الادب فى الواقع انما اتخذ وسيلة للعرض والتدوين التأريخى وانه حتى فى هذه المرحلة التى يدخل فيها الادب يجب على مؤلف التأريخ أن يستعين بالاسلوب المنطقى فى طريقة عرض مادته • ولعل خير ما يقال بهذا الصدد «ان أحسن تأريخ يكتب للناس هو ذلك التأريخ الذى اعتمد على الطرق العلمية من البحث التأريخى فى جمع مادته وعلى الادب والفن فى عرض تلك المادة» •

ومن الملاحظات المهمة التى يجدر بكم أن تعرفوها عن التأريخ ومنهجه، وقد سبق التنويه بها ، ان التأريخ يشارك العلوم الاخرى بوجه عام •فالعلوم كلها تقريبا لا تقتصر فى بحثها على جمع المعلومات التى تصل اليها بالبحث والتحرى وجمعها وتنظيمها بموجب طراز أو شكل خاص وانما تتعدى ذلك الى الكشف عن الشىء المجهول • أى الاشياء التى نجهلها • والتأريخ من هذا النوع • واذا كان التأريخ يشارك العلوم الاخرى فى هذا الامر فانه يفترق عنها ولا سيما عن العلوم الطبيعية فى مسألة مهمة • فوظيفة العالم الطبيعى درس حوادث الطبيعة ومظاهرها ، وهذه ليست أعمالا صادرة من فاعلين كالحوادث التأريخية ، يحاول العالم الطبيعى فهم قصدهم وفكرهم على نحو ما يفعل المؤرخ الذى يجهد فى الكشف عن الفكر والقصد من وراء أعمال البشر التى حدثت فيما مضى • وهذا فرق جوهرى بين المؤرخ وبين العالم الطبيعى ، بين التأريخ وبين العلم الطبيعى • وثمة فرق آخر هو ان العالم الطبيعى مع عدم محاولته لفهم القصد والفكر وراء الظواهر الطبيعية التى يدرسها الا انه يدرس علاقات هذه الظواهر بعضها ببعض ويستطيع من بحثه المقارن أن يضع الاشياء التى يبحث فيها فى قانون أو دستور هو القانون العلمى ، أى وجود القوانين والدساتير فى العلم ولكن التأريخ لم يستطع بعد ان يضع لاعمال البشر قوانين ودساتير مضبوطة مطردة عامة تسير بموجبها • وكل ما استطاع أن يفعل هو محاولات لوضع قواعد عامة لما تبلغ درجة

الضبط والدقة والاطراد مما تمتاز به دساتير العلوم المضبوطة كما ذكرنا ذلك من قبل ٠

٢ ــ التاريخ القديم : فوائده ومصادره

جرى المؤرخون ولا سيما القدماء منهم على تقسيم تأريخ الانسان أى الحوادث والوقائع البشرية منذ أقدم الازمان الى عصور وأطوار أطلقوا على أقدمها الى سقوط رومه (٤٧٦ للميلاد) اسم التأريخ القديم ويصح أن نعد الفتح الاسلامى نهاية العصور القديمة فى الشرق الادنى ٠ وهذه أزمان طويلة بالغة فى القدم اذ ينبغى أن تبدأ منذ أقدم وجود الانسان على هذه الارض وبداية معرفته بصنع الآلات الساذجة (قبل نحو المليون أو نصف المليون من السنين) ولذلك فانه من المفيد لتسهيل العرض والبحث أن يقسم التأريخ القديم نفسه الى أطوار وعصور ، وقد تواضع المؤرخون على تقسيمه الى عصور ما قبل التأريخ والعصور التأريخية ٠ أما عصور ما قبل التأريخ فهى الازمان الطويلة التى مرت على الانسان قبل أن يهتدى الى اختراع وسيلة للتدوين (أى الكتابة) وقبل أن ينشأ الحضارة الراقية فى الشرق الادنى بانتقاله من عهد الفطرة والبداوة ٠ وتدعى أقدم أزمان ما قبل التأريخ بالعصور الحجرية التى تقسم بدورها الى العصور الحجرية القديمة والعصور الحجرية الحديثة أو المتأخرة وقد استغرقت القديمة منها زهاء الـ ٩٨ ٪ من عمر الانسان على هذه الارض[١] ٠ ويصح أن نعد بداية

---

(١) بوسعنا أن نقدر عمر حضارة الانسان على الوجه الآتى :ــ اذا حسبنا (١٢٠٠) مليون سنة لعمر الحياة على الارض (عمر الارض ٢٠٠٠ مليون سنة) وقدرنا زهاء المليون سنة لعمر الانسان ، وعمر حضارته ٣٠٠٠ ق ٠ م ٠ ثم خفضنا المقياس وحسبنا ١٠٠ سنة لعمر الحياة على الارض فيكون عمر الانسان «شهرا واحدا وعمر حضارته نحو ساعتين» ٠

عن (C.E.M. Joad) فى مقالة له فى الموسوعة Encyclopaedia of Modern Knowledge; Vol. 1; p. 18.

وبالوسع تقدير عصور ما قبل التاريخ بنحو ٢٢٥٠٠ جيلا بالنسبة الى =

الالف الثالث ق . م . أول عصور التأريخ في الشرق الادنى . أما في بقاع الارض الاخرى فقد تأخرت بداية التأريخ ألوفا أخرى من السنين .

وعلى هذا فان مصطلح عصور ما قبل التأريخ (Prehistory) والعصور التأريخية يختلف بحسب المواضع المختلفة من الارض ، ولكن الذي عليه جمهور الباحثين ان بداية العصور التأريخية في الشرق الادنى كانت في بداية الالف الثالث ق . م ، ويرادف مصطلح العصور التأريخية هنا عهد الحضارة الراقية . وقد تأخرت بداية العصور التأريخية في بعض الاقطار عدة آلاف من السنين من بعد الشرق الادنى ، فمثلا تقدر بداية العصور التأريخية في اليونان في حدود ٧٠٠ ق . م . وفي أوربة الشمالية حتى القرن الاول ق . م ، وظلت شعوب كثيرة همجية حتى العصور الحديثة وهي تعيش في أطوار عصور ما قبل التأريخ وبعضها في عهود الهمجية الاولى أي العصر الحجري القديم .

وهناك اختلاف أيضا بين العراق ومصر في مسألة عصور ما قبل التأريخ، ففي العراق ظهرت الكتابة وبدأت الحضارة تأخذ شكلها الواضح قبل بداية الالف الثالث ق . م . وقبل أن تدون بالكتابة أمور تأريخية مهمة . أما في مصر فقد ظهرت الكتابة بعد زهاء ثلاثة قرون وحين ظهرت دونت بها حوادث تأريخية فيكون ظهور الكتابة في مصر مرادفا لمصطلح العصور التأريخية .

(H. Frankfort, Birth of Civilization in the Near East (1951), P. 32).

لماذا ندرس التاريخ :ـ

والتأريخ القديم بوجه عام (ما قبل التأريخ والعهد التأريخي منه) قصة تطور الانسان منذ أقدم عهوده . فهو يحدثنا كيف كانت حياة الانسان الاولى عندما كان في عهد الفطرة والتوحش ، ثم كيف استطاع بعد الوف كثيرة من

= ٢٥٠ جيلا تمثل العصور التاريخية (بفرض ان معدل الجيل الواحد نحو ٢٠ عاما) .

السنين أن ينتقل من ذلك العهد فينشأ أولى الحضارات الناضجة ولا سيما في وادي الرافدين ووادي النيل ، ويحدثنا كذلك عن الحضارات الاخرى التي أخذت معظمها من هاتين الحضارتين ولا سيما حضارات العراق القديم ، ويدلنا على تراث هذه الحضارات في حضارة الانسان الراهنة •

وخلاصة القول يعيننا التأريخ القديم على فهم حاضر الانسان وكيف وصل الى ما هو عليه ويكشف لنا عن الاصول الاساسية لتراث البشرية منذ أقدم العصور وبذلك تكون دراسة التأريخ القديم ضرورة لازمة لفهم التأريخ الحديث وفهم حاضر الانسان وسيتضح لنا من الكلام على حضارات الشرق القديم ان أسس حضارة الانسان الحاضرة تمتد الى تلك الحضارات •

وبوسعنا أن نقرب الى مداركنا الفوائد التي تجنيها البشرية من معرفة ماضيها (أي تأريخها) بقولنا ان التأريخ بمثابة الذاكرة للجنس البشري • أو كما قال «درويسن» «التأريخ (اعرف نفسك) مضافا الى البشرية وهو ذاكرتها وشعورها» [١] فكما ان ماضي الفرد منا بتجاربه واختباراته يؤثر في سيره في حاضره ، كذلك يؤثر ماضي البشرية في حاضرها • واذا لم يكن للبشرية ذاكرة كما للفرد فان التأريخ هو «ذاكرتها وضميرها» •

وعندما كثرت معلومات الباحثين ومعرفتهم بحضارات البشر الغابرة بعد ان كشفت التنقيبات الاثرية عن عدد كبير منها ، تمكن هؤلاء الباحثون في العمران البشري بفضل هذه المادة الكاثرة من البحث في سنن نشوء الحضارات وعلل نموها وأسباب توقفها عن النمو وركودها ثم عوامل انحلالها وزوالها • فنشأ فرع من فروع المعرفة على قدر عظيم من الاهمية ، هو فلسفة التأريخ ، أو علم الحضارات والعمران بدرس الحضارات درسا مقارنا• وقد تكونت من الباحثين مدارس فكرية مختلفة اختصت كل منها بفلسفة خاصة

---

(١) انظر An Outline of Modern Knowledge (1932); P. 807.

أو بنظرية وآراء لتعليل نشوء الحضارات والعمران البشرى وحياة ذلك العمران وأحواله • ومن البديهى أن يكون التأريخ القديم المصدر الاساسى، تستمد منه هذه البحوث والدراسات مادتها الاولية • وبوسعنا أن نؤكد القول ان المادة المتكاثرة عن الحضارات البشرية الدارسة قد مكنت فلاسفة التأريخ والباحثين فى العمران من أن يصلوا الى نتائج خطيرة ، وذلك بما أمدتهم هذه المادة الجديدة من كثرة الامثلة للموازنة والمقارنة ، مما جعل هذا الفرع من المعرفة يقوم على أساس جديد من الدقة والشمول ومقاربة الصواب فى الاستنتاج • ومما لا شك فيه ان الفارق بين الاوائل من فلاسفة التأريخ وأولهم المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، والمتأخرين منهم ينحصر ، بغض النظر عن التفاوت فى القابليات والمدارك ، فى كثرة المادة التى صارت فى متناول أيدى المتأخرين منهم وقلتها عند الاوائل منهم • فعندما بحث المؤرخ العربى ابن خلدون فى سنن العمران لم يكن فى متناول يده غير مادة قليلة ، لان الحضارات التى استعملها مادة لبحثه كانت مقتصرة على الحضارة العربية الاسلامية وحضارات أمم أخرى قليلة لم يكن على معرفة تامة بها • ولكن عندما بحث المتأخرون أمثال «شبنكلر» و «توينبى» فى الموضوع نفسه كان لديهم قدر كبير من المادة التأريخية لا يصح مقارنتها مع ما كان متوفرا لابن خلدون • فقد استعمل «توينبى» مثلا فى مادة بحثه تواريخ أمم وشعوب كثيرة صنفها الى حضارات أو مجتمعات عددها ست وعشرون حضارة من حضارات البشر وكان الفضل فى معرفة القسم الاعظم من هذه الحضارات يرجع الى التنقيبات الاثرية التى بدأها العلماء منذ القرن الماضى أى يرجع الفضل بتعبير آخر الى التأريخ القديم •

٣ ـ مصادر التاريخ القديم

مادة التأريخ بوجه عام ، والتأريخ القديم بوجه خاص مستمدة من كل ما خلفه الانسان • وهذا كثير متنوع اذ يشمل جميع آثار الماضى وبقاياه

مما يساعدنا على فهم ذلك الماضى لتوضيح الحاضر وفهمه • وقبل ان يهتدى الانسان فى العراق ومصر الى اختراع الكتابة ، تقتصر مصادرنا على آثار الانسان المادية ، وهى التى خلفها لنا فى المواضع التى حل وسكن فيها كأدواته المصنوعة من الحجارة والخشب ، وبيوته وحلاه والنقوش والتصاوير التى نقشها فى سقوف الكهوف التى عاش فيها فى العصور الحجرية القديمة وكذلك عظامه وعظام الحيوانات التى اصطادها ، وبقايا النبات والمعلومات الجيولوجية مما يتعلق بأحوال المناخ والبيئة التى عاش فيها • وعندما اهتدى الانسان الى استنباط الكتابة أضيف مصدر جديد الى الآثار المادية ونعنى بذلك السجلات والوثائق المدونة كسجلات الملوك والامراء التى خلفها لنا العراقيون والمصريون الاقدمون وكذلك المعاملات وشؤون الحياة المختلفة التى دونها الناس على ألواح الطين والحجر وورق البردى وعلى الجلود والمعادن • وقد جاءتنا من هذه الوثائق نماذج كثيرة من مختلف العهود • وكثرت المصادر المادية فى العصور التأريخية وتنوعت فشملت فن العمارة كالمبانى العامة من قصور ومعابد وبيوت وكذلك الآثار الفنية كالمنحوتات والصور الى ما هنالك من آثار الفن التى يجدها المنقبون فى مدن العراق القديمة الدارسة وغيره من اقطار الشرق الادنى •

ولكن لم يستطع الباحثون أن يقفوا على هذه الآثار والبقايا بيسر وسهولة ، كما قد يتبادر الى الذهن ، لان جميعها تقريبا كان مطمورا تحت التراب فى باطن التلول والاطلال الكثيرة التى نشاهدها الآن منبثة فى جميع أنحاء العراق والتى كانت مدنا ازدهرت فى الازمان الخوالى ، وفى باطن الكهوف ووديان الانهار فى حالة العصور الحجرية القديمة • وقد تطلب استخراج هذه الآثار جهودا مادية وعلمية كبيرة ، وتطلب فهمها ودرسها جهودا علمية أخرى • وصارت كيفية استخراج الآثار بالطرق العلمية علما خاصا هو التنقيب توفر على الاختصاص به جماعة مخصوصة من العلماء •

٤ ـ التنقيبـــات

واذن فالتنقيبات هي البحث عن مادة التأريخ الاولى أى عن أصوله ومصادره وهذه هي أولى وجائب المؤرخ الباحث اذ كما قلنا سابقا «لا تأريخ بلا وثائق» • والتنقيبات من الامور الحديثة في تأريخ الحضارة الراهنة حيث بدأت اول أطوارها منذ منتصف القرن التاسع عشر • والواقع من الامر اننا لم نكن لنعرف شيئا يعتد به عن مدنيات العراق القديم ومدنيات الشـرق بوجه عام قبل نحو قرن من الزمان ، وكان جل ما نعرفه نتفا وأخبارا موجزة ورد بعضها في الكتب المقدسة ، مثل التوراة وأخبارا يسيرة من بعض مؤرخي الاغريق والرومان أمثال هيرودوتس وزينفون وبطليموس وبلنى الرومانيين وغيرهم • وذلك لانه بعد أن تدهورت حضـارة العراق القديم في أواخر أيامها قضت عليها أقوام أخرى كانت تعيش في أطرافهـا ودمرت مدنهـا العامرة واندرس بعضها مثل بابل وغيرها واندثرت مآثرها وكتاباتها وخلاصة القول آلت المدن والمستوطنات القديمة الى الانقاض المحزنة التي نشاهدهـا الآن منتشرة في جميع أنحاء العراق وتكاد لا تخلو منها بقعة مما يشير الى ازدهار العمران واتساعه • وانطمرت معـارف القوم ومآثرهم تحت هـذه الاطلال ، وعفى عليها وعلى أهلها الزمان فلم يبق منها الا صدى في ذاكرة الاجيـال •

وظل الامر كذلك حتى منتصف القرن المـاضي (القرن التاسع عشر) حيث ولد منذ ذلك الحين علم التنقيب عن الماضي والتعرف على آثاره ، أى الحفر في الاطلال القديمة لاستخراج ما فيها من آثار ، هي مادة التـأريخ الاولى ولا شـك في ان هـذا العلم كان في بدايته في طور الطفولة • وقد بدأ التنقيب في العراق في العواصم الآشورية القديمة قرب الموصل مثـل نمرود ونينوى وخرسباد الا انه سبق مرحلة التنقيب الفعلي طور يصح أن ندعوه بطور الاستكشاف والرحلات تعرف في خلاله الرحالة الاوربيون على بلدان الشرق الادنى وسكانها ولعل أول رحالة أوربي جاء الى الشرق والى

العراق «بنيامين» الاندلسي التطيلي في القرن الثاني عشر للميلاد فوصف بعض مدن الشرق الادنى وأهله وعاداتهم وصفا موجزا ، وجاء من بعده عدد من الرواد والسياح شغفوا بآثار الشرق ومبانيه القديمة • ونقل بعضهم الى بلدانهم نماذج من آثار العراق القديمة ، بعضها منقوش بالخط المسماري ، فازدادت رغبة القوم في معرفة الشرق ذي الماضي المجيد ، ولا سيما ان كثيرا من مدنه القديمة ذات علاقة وثقى بأخبار العهد القديم (التوراة) وبالديانة العبرانية والمسيحية • فبدأ الغربيون بالتنقيب الفعلي في أطلال العراق منذ منتصف القرن التاسع عشر • وقد انحصر هم المنقبين الاوائل في جمع الآثار الكبيرة البارزة كالتماثيل ونحوها وتسابقت الدول الغربية وتنافست في هذا الشأن • وابتدأ التنقيب بهيئة نبش ضاعت بسببه دلائل تأريخية مهمة ، ولكن الزمن والممارسة وتقدم البحوث ، وحل الخطوط المسمارية ، كل ذلك عمل على تطور طرق التنقيب وتقدمها ، فأصبحت الآن علما خاصا له منهجه وأساليبه وتوفر على الاختصاص به جماعة من الباحثين وصار يدرس في مناهج الجامعات في أوربة وأمريكة •

موجز تطور التنقيبات :ـ

ولعله من المفيد لمعرفة هذه الاساليب التي تم بها أحياء ماضي العراق والشرق أن نقسم الاطوار التي مر فيها التنقيب الى ثلاث مراحل :ـ

فأول هذه الاطوار ، وقد سبق أن ذكرنا عنه شيئا ، يجوز أن نسميه بمرحلة الحفر والنبش لاستخراج الآثار الكبيرة بدون الالتفات الى طرق التنقيب الصحيحة والعناية بالآثار الدقيقة • ولم يهتم المنقبون الاوائل بضبط طبقات البناء المشيدة بعضها فوق انقاض البعض الآخر والادوار المختلفة التي تستخرج منها الآثار لمعرفة زمنها النسبي ، وأهملوا تخطيط المباني بل أزالوا أبنية برمتها لانهم لم يكونوا يميزون الجدران المبنية باللبن من الانقاض والتراب المطمورة فيها ولم يعرفوا كذلك أصول حفظ الآثار

الدقيقة واستخراجها سالمة • فكان همهم محصورا بالدرجة الاولى فى استخراج التماثيل والالواح الحجرية المنحوتة ونقلها الى المتاحف الشهيرة فى أوربة • واشتدت الحملة فى هذا العهد على مدن العراق الشمالية مثل نينوى وخرسباد ونمرود • وكان أغلب المنقبين من قناصل الدول الاجنبية والممثلين السياسيين • وكانت حصة المتحف البريطانى عظيمة جدا • وحفر الفرنسيون والالمان والامريكيون كذلك فى المدن الجنوبية مثل «لجش» و «بابل» و «نفر» •

وعندما قارب القرن التاسع عشر من الانتهاء بدأت المرحلة الثانية من أطوار التنقيب ، ولنسمها طور التنقيبات المنتظمة وابتدأ هذا العهد بتنقيبات الالمان فى بابل (١٨٩٩-١٩١٧) وفى «آشور» (١٩٠٤-١٩١٤) والتنقيبات الامريكية فى نفر (١٨٨٨-١٩٠٦) • وأكثر ما يمتاز به هذا الطور ان التنقيبات فيه لم تقتصر على مجرد استخراج الآثار بل اعتنى المنقبون بتسجيل طبقاتها البنائية أى أدوارها التأريخية ، وكذلك أخذوا تخطيط المبانى واعتنوا باستخراج الآثار • واقتضى ذلك توزيع أعمال الحفر بين ذوى الاختصاص ، وأصبحت بعثات التنقيب تتألف من أكثر من مختص واحد • منهم قارىء الخطوط المسمارية والمهندس المعمارى والمصور والرسام والمسجل والمؤرخ • وبفضل ذلك صرنا نعرف ما يمتاز به كل عصر من عصور العراق التأريخية ، وعرفنا أشياء ثمينة عن فن العمارة وخطط المدن والمعابد والقصور والدور مما أغفله المنقبون الاوائل • ولكن بقيت التنقيبات فى هذا الطور مقتصرة على المدن الكبيرة والعواصم وعلى الادوار التأريخية المتأخرة •

وبوسعنا أن نضع خاتمة هذا الطور فى انتهاء الحرب العالمية الاولى حيث ابتدأ من بعدها الطور الثالث الذى أتسعت فيه أعمال التنقيب وانتظمت أساليبها وطرقها أكثر من ذى قبل ، وشملت عدا المدن الكبيرة مواضع قديمة أخرى توضح الادوار القديمة فى تأريخ العراق ولا سيما عصور ما قبل

التأريخ والمراحل الاولى التى سبقت نشوء الحضارة الراقية فى العراق وكان من نتائج ذلك أن أصبحنا الآن نعرف أقدم العصور التأريخية وفجر الحضارة واستطعنا أن نتتبع أصول العمران الى جذوره الاولى ونتج من تنقيبات هذا الطور الآثار النفيسة التى وجدت فى أور ، ولا سيما من مقبرة الملوك والامراء فيها ، وهى الآن تزين ثلاثة متاحف من متاحف العالم المشهورة ، وهى المتحف العراقى والمتحف البريطانى ومتحف جامعة بنسلفانية فى أمريكة . وكان هذا الدور بوجه خاص أحفل عهود التنقيبات بمعرفة الحضارة السومرية ونشوئها فى العراق وعهد نضجها فى الالف الثالث ق . م . وهى الحضارة التى تعد أقدم الحضارات البشرية وأول حضارة أصلية لم تشتق من حضارة سابقة لها ، وانما نمت من الاطوار البدائية فى عصور ما قبل التأريخ فى العراق مما سيمر بحثه فى الفصول الآتية .

وقد ساهم العراق الحديث فى هذا الطور بالمجهودات العلمية الاثرية . فالى اشراف مديرية الآثار فيه على هيئات التنقيبات الاجنبية وسن القوانين لحفظ تراث البلد ، قامت هذه المديرية بنفسها منذ عام ١٩٣٦ فى التنقيب فى مواضع قديمة مهمة اسلامية وبابلية ، وفى مواضع يرجع عهدها الى عصور ما قبل التأريخ ، فنتج عن أعمالها صورة مفصلة عن حضارة العراق منذ أول نشوئها الى آخر عهودها ومما يعتز به ان مجهودات العراق العلمية هذه قد نالت ثناء العلماء الاجانب واستحسانهم[١] .

٥ ــ ضبط أدوار التاريخ القديم

لقد مر بنا فى الكلام على مصادر التأريخ القديم والتنقيبات الاثرية اننا أصبحنا نعرف من هذه التنقيبات الحضارات التى نشأت فى العراق القديم ،

---

(١) حول التنقيبات فى العراق وايجاز نتائجها انظر المرجع الحديث الآتى :ــ

André Parrot, **Archéologie Mesopotamiene** 2 Vols.

وأطوار هذه الحضارات وذلك بدرس ما خلفه لنا سكان العراق ومصر الاقدمون من وثائق مدونة عرفتنا بحياتهم السياسية والاجتماعية وأسماء سلالات ملوكهم وعلومهم ومعارفهم وكذلك بدرس الآثار المادية التي تمثل حياتهم الفنية واساليب عيشهم والآلات والادوات التي ابتدعوها واستعملوها للسيطرة على بيئتهم الطبيعية وتسخيرها واستثمار خيراتها ، الى ما هنالك من الآثار المختلفة التي تعيننا على معرفة النواحي المتنوعة • ولكن اذا كان بامكاننا بعد تقدم أساليب التنقيب وطرق البحث في الآثار المستخرجة من تلك التنقيبات ولا سيما بعد اتقان الخطوط واللغات القديمة التي دون بها الاقدمون تواريخهم وعلومهم ومعارفهم ـ نقولا اذا كان بامكاننا أن نقف على كل ذلك فكيف استطعنا أن نؤرخ هذه الحضارات ونضبط أدوارها وعهودها ؟ وكيف عرفنا مثلا ان السلالة الفلانية أو الملك الفلاني قد حكم في سنة معينة قبل الميلاد ؟ ومجمل القول كيف استطاع العلماء من ضبط أدوار التأريخ القديم بالنسبة الى عهد ثابت متخذ في تأريخ الحوادث مثل ميلاد المسيح أو الهجرة النبوية مثلا ؟ وهو ما يصطلح عليه بالتقويم أي تقويم الحوادث وتسلسلها وتأريخها بالنسبة الى عهد ثابت

واذا كانت الاجابة على هذا السؤال بالوجه الوافي تتطلب التفصيل والدخول في موضوع فني معقد فاننا سنحاول تبسيط هذا الامر وايجاز الجواب عليه ، فنقول ان معرفة عهود التأريخ القديم وتسلسلها الزمني بعضها بالنسبة الى بعض قد بينتها الآثار التي وجدت في مواضع العراق ومصر القديمة ، اذ انه باتباع أساليب التنقيب العلمي أمكن تمييز الادوار التأريخية وتسلسلها الزمني بوجه قريب من الصحة ، فاذا وجدنا مثلا ان آثار دور تحت آثار دور آخر من حيث وجدانها في باطن التلول فيعني ان الدور الاسفل أقدم زمنا من الثاني • ثم ان أدوار التأريخ المختلفة تتميز بعضها عن بعض بأطرزة فنونها وأشكال آلاتها وأدواتها وأوانيها الفخارية وأشكال الخطوط المستعملة فيها ، مما سهل على العلماء تمييز كل دور بمجرد

الحصول على بضعة آثار مميزة منه • والقاعدة في مواضع السكنى فى قرى العراق القديمة ومدنه ان الناس كانوا يعيشون فى الموضع الواحد عدة أجيال ، وسواء كانت دور السكنى مبنية بالطين أو اللبن أو الآجر ، فانها تنهدم بمرور الأزمان بعد استنفاد ترميمها فى أوقات مختلفة،وعند ذاك تبنى بيوت جديدة فوق بقايا جدران البيوت القديمة بعد تسويتها ، وهكذا بمرور الازمان ترتفع مواضع السكنى وتكون تلا اصطناعيا يمثل عدة أدوار من سكنى متعاقبة • وأحسن مثال على ذلك قلعة كركوك القديمة التى هى فى الواقع تل اصطناعى نشأ من تراكم طبقات أدوار السكنى لعله منذ منتصف الالف الثالث ق • م • الى الزمن الحاضر حيث بيوت السكنى الحديثة وتحتها مباشرة أسس وجدران بيوت من العهد التركى وهكذا ، وكذلك نشاهد الحال نفسه فى قلعة أربيل القديمة • والقاعدة ان موضع السكنى اذا ارتفع ارتفاعا كبيرا تركه السكان واختاروا موضعا غيره لبناء بيوتهم • وهناك عوامل أخرى لهجران مواضع السكنى منها تغيير موارد المياه أو الطرق التجارية المارة منها (مثل تدمر وبتراء والحضر) أو الحروب والغزوات المدمرة • وعلى هذا الوجه نشأت الاطلال المنتشرة الآن فى جميع أنحاء العراق • والمنقبون المختصون حين يحفرون فى مثل هذه الاطلال انما يشرحون هذه التلول فيكشفون عن طبقات الموضع وأدواره ابتداء من قمة التل ، فيزيحون الستار عن أدوار الموضع صفحة فصفحة وفصلا فصلا حتى يصلوا الى أعمق طبقاته حيث تمثل أول دور للسكنى تقوم فوق الارض الخالية البكر •
(Frankfort in Town Planning Revieve, XXI (1950), 100 ff).

وهناك عدة مواضع مهمة فى العراق مثل الوركاء ونفر وغيرهما ، استطاع المنقبون أن يكشفوا فيها عن أدوار تأريخ العراق منذ العهود الاسلامية المتأخرة الكائنة فى أعلى نقاط التل ثم تليها الى الاسفل الادوار الاخرى كالعهد الساسانى والفرثى والعهد البابلى المتأخر وهكذا بالتسلسل الى أقدم عصور ما قبل التأريخ فى الجنوب ، وهو طور العبيد •

والقاعدة ان كل دور حضاري أو تأريخي يمثل في الموضع بعد طبقات أو أدوار من السكنى (أو كما يسمى بأدوار بنائية) (building level) والى هذا كله فان القدماء أنفسهم ، المؤرخون منهم ، قد كتبوا في تأريخ أزمانهم ، ودونوا السلالات الحاكمة وملوكها وعدد السنين التي حكموها وأسماء المدن التي حكموا فيها • وخلفوا لنا من ذلك اثباتا (جداول) بأسماء سلالات الملوك وعلاقاتها الزمنية بعضها ببعض ودونوا كذلك طرفا من تواريخهم وحوادث عصورهم الماضية • مما جعلنا نلم بأسماء سلالات الملوك وعدد السنين التي حكموها وكذلك الازمان النسبية لهذه السلالات • ولكن بقي علينا أن نجد نقطة ثابتة من هذه العهود نقيسها بالنسبة الى عهد ثابت كميلاد المسيح •

ولحسن الحظ لدينا بعض هذه النقاط الثابتة التي مكنتنا من أن نؤرخ أدوار التأريخ القديم بالنسبة الى عهد الميلاد • فمن ذلك حادثة ذكرها جامعو جداول الملوك الآشوريين ، وهي كسوف الشمس الذي حدث في عهد الملك الآشوري «آشوردان الثالث» وقد تبين بالحساب الفلكي الدقيق ان ذلك حدث في ١٥ حزيران عام ٧٦٣ ق • م • وبالاستعانة بهذه النقطة الثابتة أمكن حساب تواريخ الملوك الذين حكموا قبله والذين حكموا بعده بحيث استطعنا أن نعين ملوك الآشوريين وأزمانهم الى عهد الملك «شمسي-ادد» الاول ، وبما ان هذا الملك كان معاصرا للملك البابلي حمورابي فنستطيع بالحساب أن نعين أزمان ملوك السلالة البابلية الاولى وكذلك السلالات البابلية الاخرى التي حكمت قبلها وبعدها • ومن الكتابات التأريخية التي خلفها الكتبة الاقدمون نوع من جداول الملوك تذكر في جانب الملوك البابليين وفي الجانب الثاني من كان يعاصرهم من الملوك الآشوريين وبذلك أمكن ضبط بعض العهود البابلية بالنسبة الى الملوك الآشوريين المعروفة عهودهم • وكذلك استعان الباحثون بالتعاصر الزمني بين ملوك مصر في بعض العهود (في العهد المسمى بعهد «العمارنة» من القرن الرابع عشر ق • م) من ضبط أزمان ملوك

آخرين • واستعين كذلك مؤخرا من الاكتشافات الكتابية التي وجدت حديثا في «ماري» ، ومن تعاصر بعض ملوكها مع حمورابي ومع بعض الملوك الآشوريين • ومن الحسابات الفلكية التي استعان بها العلماء في حساب أدوار تاريخ العراق القديم رصد لكوكب الزهرة ورد الينا من زمن سلالة بابل الاولى (سلالة حمورابي) اذ أمكن تحديد أزمان ملوك هذه السلالة بعد الحساب الفلكي الدقيق • ومن الجهة الاخرى بوسعنا أن نحسب من آخر العهود البابلية من زمن معلوم مثل عهد الاسكندر في العراق ، ثم منه نستنتج تواريخ الملوك البابليين المتأخرين بالنسبة الى ملوك الفرس الاخمينيين بعلاقة دارا الثالث بالاسكندر وعلاقة ملكهم كورش بقضائه على آخر ملك من ملوك الدولة الكلدانية • وقد مكنتنا اثبات الملوك التي وجدت في خورسباد من حساب تاريخ الملوك الآشوريين الى عهد الملك الآشوري المسمى «شمسي أدد» الاول الذي قلنا انه كان يعاصر حمورابي البابلي ومن ذلك استطعنا أن نؤرخ العهود البابلية من ذلك التقويم الآشوري[١] •

ومجمل القول انه باستثناء بعض الفترات بسبب فقدان أسماء بعض الملوك من جداول الملوك ، أمكننا أن نعين بوجه الضبط تقريبا تاريخ كل ملك وكل سلالة الى أول العصور التأريخية في بداية الالف الثالث • أما عصور ما قبل التأريخ فقد قررت أطوال أزمانها بالسنين بصور تقريبية ،

---

(١) ومع ذلك فلا يزال الباحثون غير مجمعين على السنين المخصصة للسلالات ولا سيما سلالة بابل الاولى وعهد حمورابي ، وهو عهد يعتبر أساس تاريخ التقويم في العراق القديم • ومما يقال بوجه الاجمال ان الباحثين على اختلافهم أوشكوا أن يقاربوا التأريخ الصحيح ويميل معظمهم الى خفض السنين العالية التي كان يخصصها الباحثون القدماء، فمثلا خفض تأريخ حمورابي الى ١٧٢٨ـ١٦٨٦ ق • م ، ولكن باحثين محدثين آخرين يخصصون تأريخا أعلى الى حمورابي •

أنظر أحدث البحوث في مسألة تاريخ أدوار العراق في المرجع الآتي :ـ
Toynbee, **A Study of History**, Vol. X (1954).

ولكنها لا تبعد عن الحقيقة كثيرا بالاستناد الى عـدد أدوار السـكنى أو ما يصطلح عليه بالطبقـات الاثرية التي يحتوى كـل طور من أطوار ما قبل التأريخ وأطوار العصور التأريخية أيضا على عدد من هذه الطبقات يختلف عددها وثخنها باختلاف هذه الاطوار وباختلاف مواد البناء المستعملة •

ويستعين العلماء في ضبط أزمان أدوار ما قبل التأريخ الاولى ولا سيما العصور الحجرية والعصور الحجرية المعدنية بطرق الجيولوجيا من معرفة عمر الصخور وطبقاتها الموجودة في الكهوف التي استوطنها الانسان، وكذلك من درس بقايا عظام الحيوانات التي يعثر عليهـا في تلك الطبقـات • واستنبط الباحثون في الذرة حديثا طريقة لضبط أدوار التأريخ القديم بتحليل المواد العضوية الكاربونية باسلوب فقدانها اشعاعها ، مما يعرف بـ **C - 14** ولا تزال هذه الطريقة تحت التجربة والبحث (انظر المراجع •) •

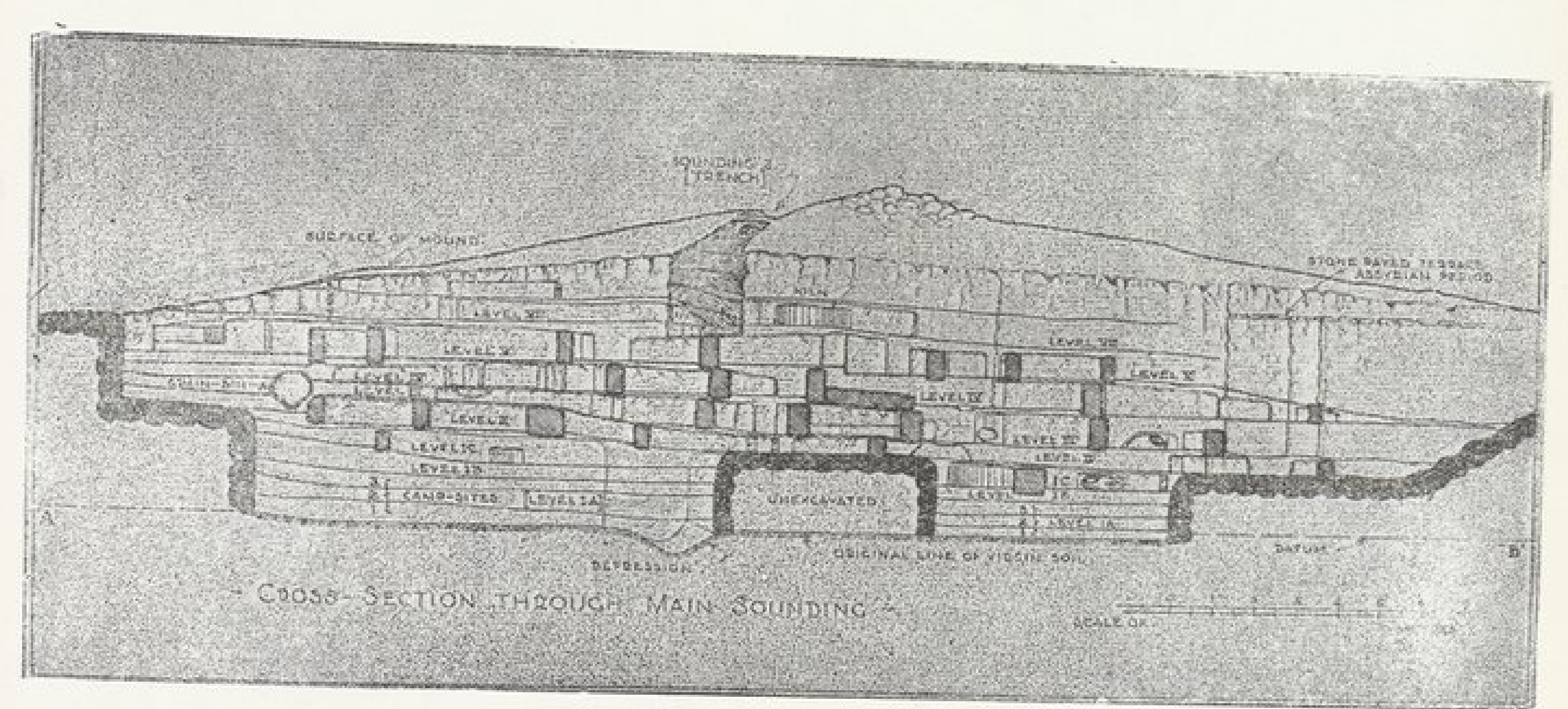
وفيما يأتي الادوار الاسـاسـية في تأريخ العـراق وضبط أزمانهـا بالنسبة الى ميلاد المسيح ، وستجد أسماء الادوار في تأريخ مصر في القسم الخاص بمصر •

(١) العصور الحجرية القديمة	٥٠٠,٠٠٠ – ٢٥٠,٠٠	قبل الآن
(٢) العصر الحجرى المتأخر	١٠,٠٠٠ – ٦,٠٠٠	ق•م•
(٣) العصور الحجرية ـ المعدنيـة أو عصور ما قبـل السـلالات ، أو فجر الحضارة	٦٠٠٠ – ٣٠٠٠	«
(٤) عصور فجر السلالات	٣٠٠٠ – ٢٣٥٠	«
(٥) عهد «سومر واكد»	٢٣٥٠ – ٢٠٠٠	«
أ ـ السلالة الاكدية	٢٣٥٠ – ٢١٨٠	«
ب ـ العهد الكوتى وسلالة لجش الاخيرة	٢١٨٠ – ٢٠٨٠	«
جـ ـ سلالة أور الثالثة	٢٠٨٠ – ١٩٩٨	«

(٦) العهد البابلى القديم ١٩٩٨ – ١٦٠٠ ق.م.
أ – سلالة ايسن ١٩٩٨ – ١٧٧٣ «
ب – سلالة لارسه ١٩٩٨ – ١٧٣٨ «
ج – سلالة بابل الاولى ١٨٨٠ – ١٥٨٠ «
(حمورابى) ١٧٢٨ – ١٦٨٦ «
(٧) العهد الكشى (سلالة بابل الثالثة) ١٦٠٠ – ١١٠٠ «
(٨) العهد البابلى الوسيط ١١٠٠ – ٧٠٠ «
(٩) العهد البابلى المتأخر ٧٠٠ – ٥٣٨ «
(الدولة الكلدانية ٦٢٦ – ٥٣٨ ق . م .)
(١٠) العهود الاجنبية فى العراق ٥٣٨ق.م – ٦٣٦ ب.م
أ – الفرس الاخمينيون ٥٣٨ – ٣٣٠ ق.م
ب – الاسكندر والعهد السلوقى ٣٣١ – ١٢٩ «
ج – الفرس الفرثيون ٢٤٧ق.م – ٢٢٦ ب.م
د – الفرس الساسانيون ٢٢٦ – ٦٣٧ «

الاشوريون

(١) تواريخ عصور ما قبل التأريخ كما مر فى الجدول الاول
(٢) العهد الاشورى القديم
أ – القسم الاول منه يشمل أطوار ماقبل التأريخ الى نهاية سلالة أور الثالثة
ب – القسم الثانى – نشوء المملكة الاشورية ٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق.م
(٣) العهد الاشورى الوسيط ١٦٠٠ – ٩١١ «
(٤) العهد الاشورى الحديث ٩١١ – ٦١٢ «
أ – الامبراطورية الاشورية الاولى ٩١١ – ٧٤٥ «
ب – الامبراطورية الاشورية الثانية ٧٤٥ – ٦١٢ «
ج – سقوط نينوى ٦١٢ «



صورة تبين أساليب التنقيب العلمية الحديثة ، حيث رسم مقطع لموضع التنقيب يبين الطبقات البنائية المختلفة من سطح التل الى أول دور لاستيطان البشر فيه (تل حسونة ، عن مديرية الآثار العراقية) ·

الفصل الثانى

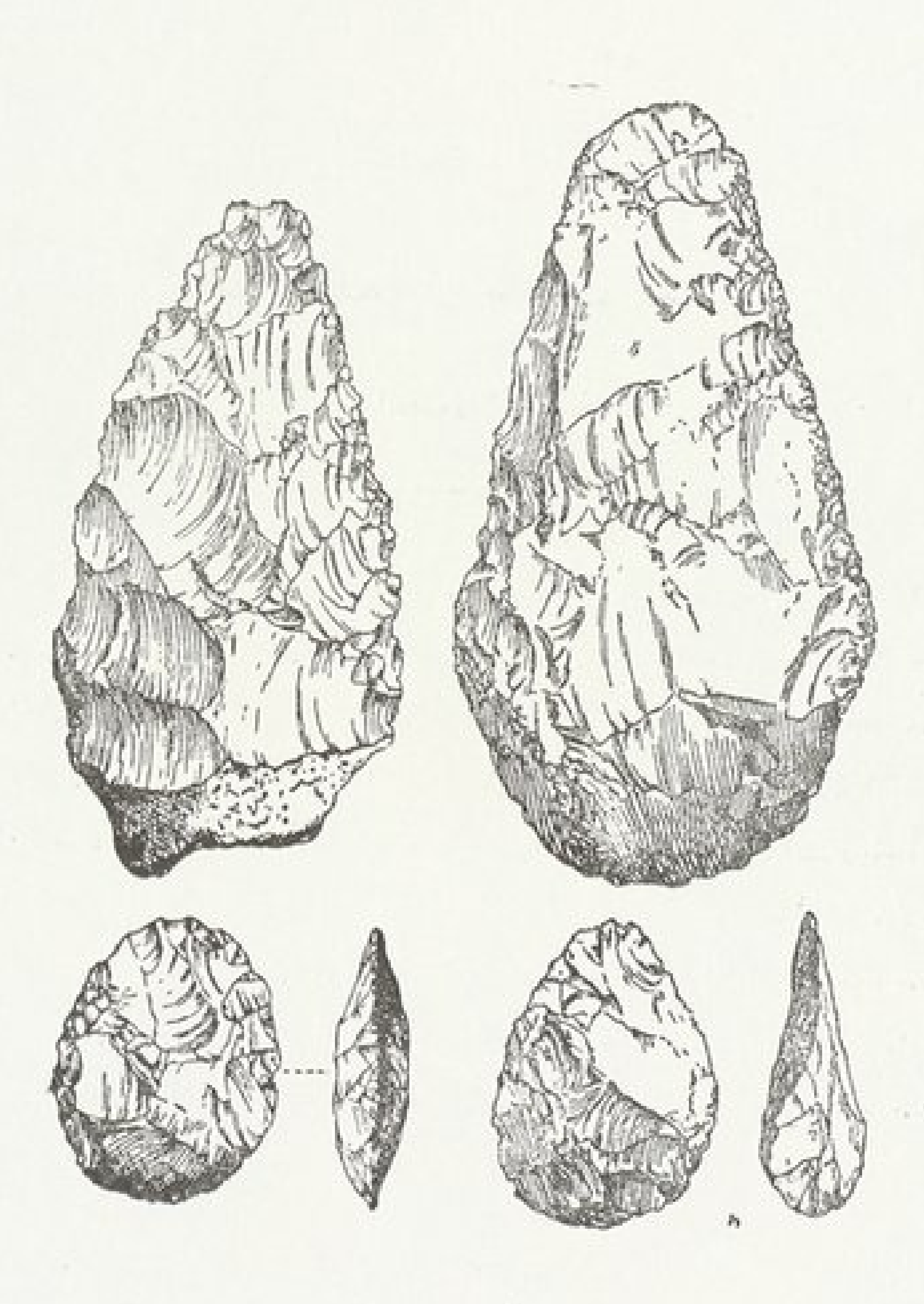
أقدم عصور ماقبل التاريخ

العصور الحجرية

لقد سبق أن نوهنا بالمقصود من عصور ما قبل التاريخ ، اذ قلنا انها العصور التى سبقت نشوء الكتابة ، وقلنا ان هذه العصور قد شغلت الجزء الاعظم من حياة الانسان ، اذ ان العصور الحجرية القديمة وحدها شغلت زهاء الـ ٩٨ ٠/٠ من حياة البشر ، فى حين ان عمر الحضارة الناضجة لا يتجاوز الـ ٥٠٠٠ أو ٦٠٠ عام • وشغلت عصور ما قبل التأريخ أكثر من ٩٩ ٠/٠ من حياة البشر ، ومع ذلك فان ما يكشفه لنا الباحثون عن حياة البشر فى تلك العصور وبوجه خاص من العصور الحجرية ان هو جزء ضئيل بالنسبة الى أقصر دور من العصور التأريخية ، والسبب فى ذلك ان ما بقى من عصور ما قبل التأريخ شىء ضئيل من أدوات الحجر وانه وليد صدفة الاكتشاف على الاكثر •

وقد سمينا أقدم أزمان ما قبل التأريخ بالعصور الحجرية ، ذلك لان الانسان اقتصر فيها فى صنع أدواته على الحجارة بالدرجة الاولى واستعمل العظام ولكنه لم يعرف المعادن • وقد أمكن تقسيم العصور الحجرية الى طورين يتميز كل منهما بأساليب خاصة من العيش وكذلك بنوع الآلات والادوات التى استعملها الانسان فى كل منهما • ويدعى أقدم هذين الطورين بالعصر الحجرى القديم (Palaeolithic) والثانى بالعصر الحجرى الحديث (Neolithic) • وقد كان الانسان فى القديم منهما يعتمد فى

٣٠



نماذج من آلات الصوان التى صنعها الانسان
فى العصر الحجرى القديم

عيشه على جمع قوته ولم ينتجه بيده • اذ لم يتعلم الزراعة ولا عرف تدجين الحيوان • فكان يعيش على الاعشاب والحشائش البرية ويستخرج جذور النبات ويجنى أثمارها ويصطاد الحيوان بآلاته الساذجة القليلة • ولذلك يصح أن نطلق على هذا الطور من العصور الحجرية اسم «طور جمع القوت» (Food Gathering Stage) أما فى العصر الحجرى الحديث فقد تبدلت حياة الانسان الاقتصادية تبدلا جوهريا اذ انه تعلم الزراعة ودجن الحيوانات وشيد أولى المساكن البدائية وصنع أوانى الفخار وأخترع القوس والسهم • وتعد هذه الاشياء فى الواقع انقلابا خطيرا فى حياة الانسان مهد له السبيل للانتقال الى طور الحضارة الناضجة • وملخص القول ان الانسان انتقل من طور جمع القوت السابق الى طور انتاج القوت بيده ولذلك فيسمى العصر الحجرى المتأخر بطور « انتاج القوت » (Food Producing Stage) وقد قدرت بداية هذا العصر بنحو ١٠٫٠٠٠ ق • م • وقد بدأ فى الشرق الادنى ولا سيما فى العراق وفى مصر قبل غيره من بقاع الارض •

دام العصر الحجرى القديم كما ذكرنا دهورا طويلة • ولعله بدأ قبل نحو ربع مليون أو نصف مليون سنة • وقد قسمت هذه الازمان الطويلة الى أدوار وعصور تتميز بنوع الآلات والادوات الحجرية التى صنعها الانسان • ومما يقال فى هذا الصدد بوجه الاجمال ان آلات الانسان بدأت ساذجة محدودة النوع • ولا شك فى ان دور استعمال الآلات المصنوعة قد سبق بدور طويل استعمل فيه الانسان الاحجار الطبيعية والعصى وغير ذلك • وأخذت الآلات الساذجة التى صنعها الانسان تتحسن وتتنوع بمرور الازمان • وفى زمن ما من العصر الحجرى القديم أهتدى الانسان الى اكتشاف النار واستعمالها ثم كيفية اضرامها بوسائل صناعية • وقد أفاده ذلك فوائد جلى فى تدفئته وطبخ طعامه وحمايته من الحيوانات الضارية التى نازعته على البقاء • وساعدته كذلك على نشوء الحياة الاجتماعية اذ كان

يجتمع حولها بهيئة جماعات أو عائلات ولا شك فى ان ذلك قد حسن من لغته البسيطة[١] ٠

وكانت حياة الانسان فى العصر الحجرى القديم شاقة صعبة وقد كافح كفاحا شديدا من أجل البقاء فالى بيئته الطبيعية القاسية كانت تهدد حياته الحيوانات الوحشية الضارية ٠ وكان الانسان يبدو فى هذه البيئة ضعيفا أعزل ولكنه كان مزودا بقابليات جسمية جعلت منه سيد الخلائق ٠ أبرزها دماغه العجيب وقدرته على الكلام ويداه الماهرتان وقابلية انضمام الابهام الى أصابع اليد،وانتصاب قامته ورؤيته المجسمة وانعدام وسائل الدفاع الطبيعية والعناية الطويلة بصغاره التى أول ما علمته أن يكون اجتماعيا يعيش ويتعاون مع غيره ٠ وكل

---

(١) ظهرت عدة آراء لتفسير نشوء لغة الانسان التى كانت قديمة كقدمه بخلاف الكتابة ٠ ولعل الفرضية الآتية أقربها الى الواقع ٠ من الممكن ارجاع مفردات اللغة البشرية الى ثلاثة أصول بعيدة :ـ أولا محاكاة الاصوات الطبيعية (Onomatopaeia) ثانيا :ـ أصوات مصحوبة بالاشارة أو اشارات مصحوبة بالاصوات (Gesture and Sound) وبهذين الاسلوبين نشأت المفردات المادية (Concrete) ٠ ثالثا :ـ أما المعانى والمفردات المجردة فيمكن ارجاع أصلها البعيد الى المفردات المادية ٠ أى انها مشتقة فى الاصل من هذه ، فمثلا ، ان الكلمة اللاتينية للامل (Spece) ذات علاقة اشتقاقية بكلمة (Space) المادية وكلمة (Anima) النفس من السنسكريتية (Aniti) (نفس) و (Anias) (ريح) ٠ ومثل كلمة النفس والروح فى العربية ٠ من النفس (أى الهواء والتنفس) والريح ٠ وكلمة انشراح وانقباض مثلا من انشراح الصدر وانقباضه وهكذا ٠

وقد يسأل البعض كيف ظهرت هذه اللغات البشرية المتنوعة ، وهل كانت لغة واحدة تفرعت الى عدة لغات ؟ أو أن لغات البشر ظهرت منذ البدء مختلفة ؟ ومع انه لا سبيل للجزم باحدى الفرضيتين الا ان باحثين غير قليلين يرون انه نشأت عدة لغات مختلفة نشأت عند الجماعات البشرية الاولى المنعزلة المتباعدة بعضها عن بعض منذ ظهور اللغة عند الانسان فى العصر الحجرى القديم،ومما يؤيد هذا الرأى اختلاف لغات البشر الآن ووجود ما يسمى بالعائلات اللغوية وكثرتها كثرة مستفيضة بين جماعات البشر المتأخرين ، فمثلا وجد ان سكان أوسترالية الاصليين يتكلمون بما لا يقل عن خمسمائة لغة مختلفة ، وقدر عدد العائلات اللغوية بين الهنود الحمر الساكنين فى كلفورنية فقط بنحو ٣١ عائلة لغوية ونحو ١٣٥ لهجة ٠

هذه القابليات جعلت من الانسان الكائن الوحيد الذى يعرف صنع الآلات • ولعل قدرته على صنع الآلة أهم خاصية تميزه عن الحيوان • اذ تمكن «الانسان صانع الآلات» أن يتغلب بآلاته وعدته (أى حضارته) على بيئته الطبيعية ويسخرها له • فى حين انه لا توجد واسطة بين الحيوان وبين بيئته سوى أعضاء جسمه • ولذلك أطلق على الآلات والادوات «أعضاء الانسان الاضافية» •

العصور الجليدية :ـ

ومما زاد فى صعوبة العيش فى العصور الحجرية القديمة حدوث أزمات جليدية قاسية أشتد فيها البرد وغطت طبقات الجليد الزاحفة شمالى أوربة الى ما بعد جبال الالب • فانهزم الانسان الى البقاع الجنوبية من الارض والتجأ الى الكهوف اتقاء الزمهرير القاسى • وكان يفصل بين عصر جليدى وآخر فترة يعتدل فيها المناخ ويتراجع الجليد الى الشمال • وكان كلما حل عصر جليدى فى أوربة وامريكة ظهر فى الشرق الادنى وفى افريقية وغيرها من البقاع الآسيوية الجنوبية زمن تكثر فيه الامطار والرطوبة وقد سميت مثل هذه الازمان بالعصور الممطرة (Pluvial Period) • وقد كثرت الامطار وعمت حتى جزيرة العرب ومنطقة الصحارى فى افريقية ، مما مكن الانسان والحيوان من أن يعيشا فيها • أما الفترات بين العصور الجليدية فى أوربة فكان يقابلها فى أنحاء الشرق الادنى عصور جفاف • ونحن نعيش الآن فى آخر فترة جليدية •

لقد قسم العصر الحجرى القديم الى أطوار وأدوار[١] فأولا يقسم

---

(١) سميت هذه الادوار بالدرجة الاولى بالنسبة الى مواضع فى فرنسة وجدت فيها بقاياه لاول مرة وهى :ـ

أ ــ الشطر الاول من العصر الحجرى القديم (Lower Palaeolithic)

١ ــ الدور الشيلى (Chellean)

٢ ــ الدور الاشولى (Acheulean)

٣ ــ الدور المستيرى (Mousterian)

العصر الحجرى القديم الى شطرين كبيرين . ففى الشطر الاول، وهو أقدم جزء من هذا العصر ، كانت آلات الانسان المصنوعة من حجر الصوان ساذجة محدودة الاشكال والانواع وقد استعمل نوعين من صناعة أدوات الحجر أحدهما استعمال لب حجر الصوان (Core) بعد تشظيته وهندمته والنوع الثانى صنع الشظايا دون اللب على هيئة آلات وأدوات مختلفة . وقد عاشت فى هذا الطور القديم من العصر الحجرى القديم أجناس من البشر بادت جميعها ووجدت منها هياكل عظمية فى مختلف بقاع الارض مثل «جاوة» وفى «النياندرتال» فى ألمانية وفى فلسطين . وتدل صفات هذه الاجناس الجسدية على انها لاتمت الى نوع الانسان الحاضر[١] بصلة وان

ب ـ الشطر الثانى من العصر الحجرى القديم (Upper Palaeolithic)

٤ ـ الدور الاورغنيشى (Aurignacian)

٥ ـ الدور السلوترى (Solutrean)

٦ ـ الدور المكدلينى (Magdalenian)

وتسمى هذه الادوار أيضا باسماء أخرى بالنسبة الى مواضع أخرى من العالم وجدت فيها آثار العصور الحجرية القديمة .

ومن الباحثين من يعين دورا حجريا بين نهاية العصر القديم وبداية الحجرى الحديث يسميه بالدور الحجرى الوسيط (Mesolithic) ، وقد وجد ممثلا فى بعض جهات سورية ولا سيما فلسطين حيث يعرف بالدور النطوفى كما وجدت بعض بقاياه فى شمالى العراق فى موضع يسمى بالى كوره (مجلة «سومر» ١٩٥١)

(١) ويسمى نوع الانسان الحديث بالانسان العاقل (Homo Sapiens) أما الانواع العتيقة التى ظهرت فى الشطر الاول من العصر الحجرى القديم فهى أجناس أو أنواع خاصة ، وانها من جنس الانسان (Homo) وليست من نوع الانسان الحديث وأشهر هذه الانواع الحديثة الانسان المسمى بالكرمانيون (Cro-Magnon) ويرجح البعض ان هذا أصل العرق الابيض أى العرق القوقازى ومن أنواعه أيضا انسان الكراملدى من جنوبى ايطالية ، وفيه شبه عظيم بالعرق الاسود ولعله أصل هذا العرق . ووجد فى موضع فى جاوة ما يرجح أن يكون أصل العرق الاوسترالى . أما العرق الاصفر أى العرق المغولى فيرجح أنه تحدر من انسان بكين الذى ظهر فى النصف الاول من العصر الحجرى القديم كما ذكرنا (Braidwood, **Prehistoric Men**)

فيها شبها بالقرود • ولذلك سمى العلماء الشطر الاول من العصر الحجرى القديم بعصر الانسان العتيق أو البائد[١] •

فقبل نحو نصف مليون عام ، بعد نهاية أول عصر جليدى ، ظهرت أنواع من جنس الانسان (Homo) وهى تصنع أدوات الحجر ، ولا نعرف مهد الانسان الاصلى وهل كان هناك مهد واحد أو عدة أماكن ظهرت فيها أنواع الانسان المنقرضة ؟ ولعل الرأى الثانى هو الراجح •

ونذكر أشهر هذه الانواع :ـ

١ ـ انسان بكين (Sinanthropus Pekinensis) قبل نحو نصف مليون ، وقد وجدت مع بقايا هذا الانسان أدوات حجر صنعها •

٢ ـ انسان جاوة (Pithecanthropus erectus) أى «الانسان القردى المنتصب» وهو ذو جمجمة صغيرة ثخينة ، ويقدر طوله بنحو ٥ أقدام وست عقد • وسعة جمجمته تقدر بنحو ⅔ سعة جمجمة الانسان الحديث • ولم يجد الباحثون مع هذا النوع من الانسان أدوات حتى الآن • وقد وجد نوع منه قبيل الحرب العالمية الماضية وهو ذو أسنان غريبة تقدر مساحة الضرس منها ست مرات من مساحة الأضراس الحديثة • وقد استنتج بعض العلماء ان هؤلاء البشر كانوا من جنس العمالقة ؟ ! فهل انقرضوا كما انقرضت الوحوش الجيولوجية ؟

٣ ـ انسان بلتدون (Piltdown, Eoanthropus) وجدت بقايا من عظامه فى انكلترة ، ولكن هذه مشكوك فيها •

٤ ـ انسان النياندرتال (Neanderthal Man) سمى نسبة الى موضع فى ألمانية قرب دسلدورف ، وقد وجدت منه نماذج كثيرة فى بقاع أخرى من العالم • ويرجع تأريخه الى العصر الجليدى الثانى (حوالى ٤٥٠٫٠٠٠ ـ ١٠٠٫٠٠٠) •

---

(١) أى (Palaeoanthropic)

٥ ـ ووجدت أنواع أخرى من الانسان سبقت ظهور نوع الانسان الحديث وجاءت بعد انسان النياندرتال مثل انسان فلسطين الذى وجد فى أحد كهوف جبل الكرمل (Braidwood, **Prehistoric Men**)

ولعل طفل الانسان الذى عثرت عليه مديرية الآثار العراقية حديثا فى كهف شاندر من هذا النوع ، ولكنه وجد مع آلات وأدوات من الدور المستيرى (انظر مجلة سومر ١٩٥١) •

أما فى الطور الثانى من العصر الحجرى القديم فقد تقدم الانسان فى جسمه وعقله وفى الآلات التى صنعها من الحجارة • اذ نشأ نوع الانسان الحديث الذى كان أقرب ما يكون الى نوع الانسان الحاضر بل انه جد له • ولذلك سمى العلماء هذا الشطر من العصر الحجرى القديم بزمن الانسان الحديث[1] وقد حسن هذا الانسان الحديث فى صنع آلاته وأضاف الى عدته آلات أخرى صنعها من العظام والخشب كالابر والمثاقب ومقابض الفؤوس • وقد كان هذا الانسان «فنانا» اذ انه تعلم الرسم والنحت فقد وجدت فى جدران الكهوف التى التجأ اليها صور ورسوم ملونة تدل على نصيب كبير من دقة التعبير والحيوية ، وكان أغلب هذه الصور تمثل الحيوانات التى كان الانسان يصطادها لاكلها لانه كان مدفوعا فى فنه بدوافع السحر ، حيث اعتقد انه برسم الحيوانات على سقف الكهف الذى يعيش فيه يتمكن من السيطرة عليها وهى حية • ونشأت عند الانسان فى هذا العصر بعض الافكار عن الحياة والموت وظهرت أولى بذور الدين على هيئة اعتقادات ورسوم بدائية وممارسة للسحر كما يظهر ذلك فى الدافع الذى دفع الانسان على عمل الرسوم والنقوش فى داخل الكهوف التى عاش فيها ، وكما يظهر فى طرق دفن الموتى • ويمكننا اعتبار السحر أول محاولة فاشلة للانسان للسيطرة على الطبيعة بأعمال السحر •

---

(١) أى (Neoanthropic)



نماذج من النقوش والرســوم التى تركها انسان العصر الحجرى القديم
(من شطره الثانى) فى الكهوف التى عاش فيها

وجدت آثار العصر الحجرى القديم بجميع أدواره فى بقاع مختلفة من العالم لا سيما فى نصف الكرة الشرقى . ووجدت كذلك فى الشرق الادنى ، فى مصر وفى فلسطين وشمالى افريقية وفى جزيرة العرب وفى سورية ووجد نموذج من الانسان العتيق أو البائد فى فلسطين . وقد وجدت آثار زمن العصر الحجرى القديم فى القسم الشمالى من العراق وذلك فى كهفين قرب السليمانية يسميان كهف «زرزى» وأقدم دور فيه الدور الاورغنشى وكهف «هزارمرد» . ووجدت حديثا آثار من العصر الحجرى القديم من نصفه الاول فى «بردابلكا» قرب جمجمال ، ولكن آثار العصر الحجرى القديم فى العراق ضئيلة بالنسبة الى أقطار الشرق الادنى الاخرى ، لقلة لاستكشافات والبحوث التى تمت فى هذا الموضوع[١] .

ومع ذلك فقد أظهرت تحريات السنوات الاخيرة التى قامت بها مديرية الآثار العراقية وبعض المعاهد الامريكية فى القسم الشمالى من

---

(١) لا يمكن أن نجد آثار العصر الحجرى القديم فى القسم الجنوبى من العراق لان هذا القسم من القطر كانت تغمره المياه حتى العصر الحجرى الحديث وكانت هذه المياه على ما يرجح تصل حتى موضع هيت وبغداد فى العصور الجيولوجية البعيدة لعله فى العهد المسمى بالبلايستوسين . وكان الرافدان العظيمان دجلة والفرات يحملان الكميات الكبيرة من الطمى والغرين ، فعملا بمرور الدهور على تكوين القسم الجنوبى من العراق بمساعدة نهرى الكرخا والقارون أيضا . وان كمية الارض التى تتكون سنويا من الطمى المجلوب بالنهرين غير معلومة بوجه التأكيد ولكنه يمكننا أن نقدر ذلك من الامارات التاريخية فمثلا نعرف أن بعض المدن القديمة التى كانت فيما مضى واقعة على ساحل البحر هى الآن بعيدة عنه فى داخل البر وبهذه الاعتبارات يقدر معدل تكوين اليابسة بنحو ١١٥ قدما فى السنة أو بنحو الميل ونصف الميل فى القرن الواحد . وان أقدم دور يمكن أن يجده المنقبون فى القسم الجنوبى من العراق لا يتعدى أواخر الالف الخامس ق . م . أى العهد المسمى بعهد العبيد وما قبل ذلك بقليل .

والجدير بالذكر عن نظرية تكوين اليابسة وتقدمها فى البحر أن بعض الباحثين الجيولوجيين من أهل النفط حديثا أخذوا يشكون فيها ويتحدونها . (أنظر مجلة

(The Geographical Journal, CXVIII, March, 1952).

العراق مراحل مهمة من تأريخ الانسان فى العصور الحجرية القديمة والحديثة ايضا • ففى موضع بردا بلكا السالف الذكر (ويبعد نحو ٣ كم شرق جمجمال) ، وجدت بقايا الدور الشيلي وربما الاشولي • وفى كهف يسمى «شاندر» وجدت فيه آثار الدور المستيري الشبيهة بما وجد فى كهف «هزار مرد» • ووجد فى هذا الدور هيكل طفل لعله فى عامه الثانى فيه شبه بالانسان الحديث • كما وجدت فى موضع يسمى «بالى كورا» آثار من نوع أدوات العصر الحجرى الوسيط (Mesolithic) (انظر مجلة سومر المجلد ١٩٥١)

وبوسعنان أن نوجز أهم الانقلابات التى حدثت فى تاريخ تطور الانسان فى العصور الحجرية القديمة بانه أولا كان خاضعا الى تطورات بيولوجية عظمى ، منها انتقاله من أنواع الانسان العتيقة البائدة الى الانواع الحديثة من نوع الانسان العاقل وذلك فى النصف الثانى من العصر الحجرى القديم وهو النوع الذى أشرنا اليه فيما سبق على أنه نوع الانسان الحديث أو انه جده ومن التطورات الخطيرة التى وقعت للانسان نشوء اللغة التى ظهرت عند الانسان فى زمن ما من العصور الحجرية القديمة • والامر الثالث فى تقدم حياة الانسان ما سبق ان أشرنا اليه من تعلم الانسان صنع الآلات والادوات • واللغة وصنع الآلات ركنان أساسيان من أركان الحضارة البشرية • أما الركن الثالث وهو الكتابة أو التدوين فقد تأخر اختراعه الى زمن نشوء الحضارة البشرية الاولى فى وادى الرافدين ووادى النيل •

العصر الحجري الحديث

بعد أن ظل الانسان طوال العصر الحجرى القديم يعتمد فى عيشه على جمع القوت ، أخذ ينتقل فى أواخر هذا العصر الى طور جديد من الحياة تبدلت فيه أساليب عيشه تبدلا أساسيا باهتدائه الى طور الزراعة وتدجين الحيوان وسمى هذا الطور الجديد بالعصر الحجرى الجديد أو طور انتاج

القوت الذي تعلم فيه الانسان انتاج قوته بيده بحرث الارض وزرعها بالحبوب البرية التي اعتاد أن يجمعها في العصر السابق • والذي عليه العلماء الآن ان فن الزراعة وتدجين الحيوان قد بدأ في الشرق الادنى (ولا سيما في العراق ومصر) قبل بقاع الارض الاخرى وقد أثر هذا التبدل في حياة الانسان تأثيرا بالغا ، ومهد له السبيل للانتقال الى طور الحضارة الناضجة فبعد أن اتسعت الزراعة استغنى الانسان عن التجول لمطاردة الحيوان وبدأ يعيش حياة مستقرة بهيئة جماعات بالقرب من الحقول • وتجمعت عائلات منه في بقعة واحدة وابتنت لها مقار ثابتة فنشأت القرى ومعها بذور الحياة الاجتماعية والمجتمع والعائلة بأبسط نظمه الاجتماعية والسياسية• ومما لاشك فيه ساعد هذا الانقلاب الجديد الانسان على تكاثر السكان وتكاثر المستوطنات البشرية ، كما يستبان من قلة البشر وضآلة مستوطناتهم في العصور الحجرية القديمة بالمقارنة مع تكاثرها وانتشارها في جميع بقاع الارض تقريبا ابتداء من العصر الحجري الحديث •

وكانت الزراعة التي تعلمها الانسان في العصر الحجري الحديث تمتاز بجملة أمور تميزها عن الزراعة في الادوار التي تلت العصر الحجري الحديث أهمها :ـ

١ ـ انها كانت زراعة محدودة أي في مساحات صغيرة من الارض بحيث يصح أن نطلق عليها اسم زراعة الحدائق (Garden Culture) أو (Hoe-Culture) فكانت حياة الانسان تتصف بالاكتفاء الذاتي في الانتاج أي ان العائلة الواحدة تنتج حاجتها من القوت وتصنع أدواتها البسيطة الساذجة فلم يبدأ التخصص •

٢ ـ كانت زراعته متنقلة ولا سيما في مبدأ أمرها أي أشبه ما تكون بزراعة الفلاحين البدو • فلم يبدأ الانسان بحياة الاستقرار الدائم في أول العصر الحجري الحديث ، ومن أسباب ذلك استنفاذ خصب الارض وعدم معرفة الانسان بالاسمدة ولعله ايضا لم يعرف طريقة زرع جزء من الارض

وتركه بورا في السنة الآتية على نحو ما يفعل فلاحو العراق الآن . ولا يزال المرء يجد في الوقت الحاضر في مناطق في أفريقية زراعة مثل زراعة العصر الحجري الحديث أي زراعة متنقلة محدودة .

(Childe, **What Happened in History,** P. 24)

وجدت آثار العصر الحجري الحديث في مواضع عديدة من الشرق الادنى ففي مصر وجدت مواضع وقرى من هذا العصر في «طاسه» و«الفيوم» و«مرمدة» . ووجدت كذلك في سورية في مواضع مثل «الجديدة» و«رأس شمرة» قرب خليج الاسكندرونة . وكشف عن آثاره في العراق في الطبقات السفلى من أماكن كثيرة في شمالي العراق ونقبت مديرية الآثار العراقية موضعا قرب الموصل يدعى «حسونه» وجدت فيه آثار قرية قديمة يعود زمنها الى العصر الحجري المتأخر ولا سيما أواخره . ووجدت بعثة أميركية لجامعة شيكاغو موضعا اسمه «جرمو» قرب «جمجمال» (لواء كركوك) (فوق وادي طوق جاي ، وهو احد روافد دجلة ، حوالى ٣٥ كم شرق كركوك) تمثل آثاره العصر الحجري الحديث من أطواره القديمة ولعلها مرحلة الانتقال من العصر الحجري القديم الى العصر الحجري الحديث حيث تعلم الانسان الزراعة لاول مرة .

ولنحاول وصف قرية جرمو السالفة الذكر التي يرى فيها الذي حفر فيها[١] انها تمثل أقدم قرية زراعية ، أي تمثل أول عهد الانسان بتعلم الزراعة . (انظر نتائج التنقيبات في مجلة سومر المجلد ١٩٥١) .

---

(١) وهو الاستاذ بريدوود بالنيابة عن جامعة شيكاغو منذ ١٩٥٠ أنظر .
(Braidwood, in Antiquity XXIV, 1950, 190 ff;
Amer. Journal of Archaeology, (1949), 50 ff.

فقد كانت هذه قرية صغيرة متوسطة الحجم ، تقدر مساحتها بزهاء ثلاثة دونمات (ايكرات) ، ويرجح ان عدد بيوتها في الاصل نحو ٥٠ بيتا ونفوسها زهاء ٣٠٠ نفس • وتشغل أنقاض القرية الآن ٧ أمتار عمقا اعتبارا من أقدم دور سكني في باطن التل ، وقد وجد في هذا السمك من الانقاض ١٥ طبقة بناء أي دور سكني، وهي مبنية من الطين، وصغيرة، ذات غرف مستطيلة، مع مطبخ محفور في الارض • ووجد في أنقاض القرية مجموعات كبيرة من عظام الحيوانات وقد قدر نحو ٩٠ ٠/٠ منها من الغنم والسخول والخنازير والبقر وأنواع صغيرة من الخيول • وكان نحو ٥ ٠/٠ من هذه الحيوانات وحشية غير مدجنة • كما وجد فيها نوعان من القمح • والجدير بالذكر انه لم توجد في أنقاض القرية آثار فخارية في الطبقات السطحية •

وهناك من يشك في ان جرمو تمثل أول زراعة ويحتمل كونها موضعا متأخرا من الناحية الحضارية من عهود ما بعد العصر الحجري المتأخر (Childe, **The Most Ancient East**, 1952, 105) ويرى ان حسونة تمثل في أولى طبقاتها السفلى أول زراعة في شمالي العراق وسنصف هذا الموضع في الفصول الآتية •

وقبل أن ننهي بحثنا عن العصر الحجري الحديث نذكر بعض الامور المفيدة عن هذا العهد المهم في حياة الانسان •

كانت عدة الانسان وحياته الاقتصادية في العصر الحجري الحديث محدودة ، فمن الآلات النموذجية الرحى البسيطة التي قوامها حجران بسيطان والاطباق الفخارية لفرك الحبوب واستعملت بعضها للعجن • وكذلك المحاريث البسيطة (hoe) والمناجل المكونة من أسنان الصوان، والادوات الصوانية كما كان الحال عليه في العصر الحجري القديم ، والمرجح ان الانسان عرف الغزل والحياكة كما تدل على ذلك اقراص المغازل الفخارية• ومما يقال في أواني الفخار من العصر الحجري الحديث أنها سمجة ساذجة

خالية من النقوش والاصباغ ومصنوعة باليد اذ لم يهتد الانسان الى دولاب الخزاف .

ومع أن التخصص الصحيح لم يبدأ الا انه من المحتمل جداً أن نوعا من تقسيم العمل البدائى كان موجوداً فى حياة انسان العصر الحجرى الحديث ولا سيما بين الرجل والمرأة . واذا كانت المرأة ، كما يظن بعض الباحثين ، هى التى اكتشفت زراعة الحبوب البرية (Childe, Op. Cit., 51 ff.) فان أعمالها كانت قياساً على المجتمعات البدائية البذر ، والطبخ والطحن ، والغزل وصنع الملابس ، أما أعمال الرجل فكانت على ما يرجح تهيئة الحقل للحرث ، وبناء البيوت والعناية بالحيوانات ورعيها ، والصيد وصناعة الادوات الضرورية وحماية البيت وصنع الأسلحة (ذات المصدر) .

واذ كنا قد تطرقنا الى المرأة والرجل فان ذلك يقتضينا أن نذكر شيئا عن المجتمع ونشوء العائلة ، والرأى الراجح عن نشوء المجتمع ان معالمه الواضحة يمكن تتبعها أصولها الى العصر الحجرى الحديث بعد نشوء الزراعة والمستوطنات المستقرة أما فى العصر الحجرى القديم فالراجح انه لم يكن هناك مجتمع بالمعنى الصحيح وانما كان نوع من «التجمع» . وكذلك يقال فى منشأ العائلة بمفهومها الاجتماعى الحديث . حيث انها لم تكن معروفة بهذا المفهوم فى العصر الحجرى القديم الذى يرجح ان الانسان لم يعرف فيه سوى المشاعية الجنسية[١] كما انه يشك فى ان الانسان كان يدرك العلاقة بين العملية الجنسية وعملية الانسال ، فالمحتمل ان العائلة نشأت نتيجة لظهور المجتمع فى العصر الحجرى الحديث . وانه حين أدرك هذه العلاقة فى العصر

---

(١) لا تزال فى العصور الحديثة بعض الاقوام الهمجية وهى لا تعرف نظام العائلة الاجتماعى .
(Will Durant, **The Story of Civilization,** 29 — 32).

الحجرى الحديث بدأت الديانة عنده بوجه واضح وان أول اله تصوره وعبده ، الهة الزراعة ، ورمز الخصب ، وهى عبادة «الام الارض» أو «الالهة الام» كما تدل على ذلك دمى الطين التى وجدت فى جرمو وحسونة وكثير من مستوطنات العصر الحجرى الحديث وهى تمثل امرأة بدينة مبالغ فى حجم ثدييها • والمرجح كثيرا ان عبادة الشمس بسبب أثرها فى الزراعة قد بدأت بعد عبادة الارض على هيئة الهة • ومن الصور الغريبة التى وجدت فى العصر الحجرى الحديث (فى جرمو مثلا والبلقان والاناضول) أشياء مصنوعة من الطين والفخار ترمز الى عضو الرجل (Pholus) ، ولعلها اتخذت للعبادة باعتبارها ترمز الى الخصب والحياة ايضا (Chiled, ibid), 57) ومع انتاج القوت فان الانسان لم ينبذ السحر كما تدل على ذلك التعاويذ المصنوعة من الحجر • والواقع ان الانسان ظل يمارس السحر حتى فى عهوده التأريخية من بعد نشوء الحضارة فانه اذا كان بحاجة اليه لضمان جمع قوته بالصيد فى طور جمع القوت فانه وجده ضروريا ايضا لضمان انتاج قوته باسترضاء القوى الطبيعية والعلوية التى صار الانسان يجسمها على هيئة آلهة •

ومن الانظمة المهمة التى ظهرت فى حياة الانسان فى هذا العصر الملكية الفردية ، ولعل نشوء هذا النظام أثر فى نشوء العائلة• كما ان زراعة الانسان المتنقلة كان تضطر الانسان الى التوسع والاصطدام بالجماعات البشرية التى لم تزل فى طور جمع القوت وكذلك الاتصال بالجماعات الاخرى المنتجة للقوت ، مما أدى الى النزاع على الارض وظهور نظام الحرب بأبسط أوجهها •

ومن المسائل المهمة التى يجدر التنويه بها قبل انهاء كلامنا على العصر الحجرى الحديث مسألة تدجين الحيوان ، وهل ظهر عند الانسان قبل الزراعة أو بعدها ، أو مع الزراعة ؟ فهناك طائفة من الانثروبولوجيين ترى

ان تدجين الحيوان نشأ بصورة مباشرة من الصيد بدون الزراعـة ، وان الزراعة الخليطة أى الزرع وتدجين الحيوان ظهر نتيجـة لغزو جماعات الرعاة للمجتمعات الزراعية • ولكن أقدم مجتمعات العصر الحجرى الحديث التى أظهرت آثارها التنقيبات مجتمعات تعرف الزراعة وتدجين الحيوان • ولعل الرأى الصحيح فى الموضوع ان تدجين الحيوان ظهر بسبب الزراعة لانجذاب قطيع الحيوان الى مزارع الانسان المضمون فيها القوت (Childe ibid, 42) والمرجح كثيرا أيضا ان نظام البداوة (Nomadism) نشأ أما فى العصر الحديث أو بعده عند حلول الجفاف فى المستوطنات التى تعتمد زراعتها على الامطار ، وحين كانت بعض الجماعات تهاجر الى أراضى كثيرة يتوفر فيها الارواء كانت بعض الجماعات الاخرى قد ظلت فى مواطنها محتفظة بشـق واحد من عـدة العصر الحجرى الحديث الا وهو تدجين الحيوانات ورعيها •

واذ كان العصر الحجرى الحديث يمتاز على العصر السابق بانقلابه العظيم الذى لخصناه ، الا انه كان يعيق تقدم الانسان فيه اتصاف انتاجه بالاكتفاء الذاتى ، وهى صفة لا تعمل على ظهور التخصص ولا تكاثر السكان• كما ان ما تنتجه القرية الواحدة لمعاشها السنوى كان أمرا غير مضمون لضمان حياتها عند الطوارىء فى المستقبل ، ولكن مع هـذه النقائص فان الاكتفاء الذاتى ومحدودية انتاج القوت المتصف بهما هذا العصر كانا فى الواقع يحملان امكانيات المستقبل ، امكانية توسيع الانتاج الزراعى وظهور طبقات من المجتمع القروى تتخصص بنواح أخرى من الانتاج • ولما تم تحقيق هذه الامكانيات بالفعل انتقل الانسان الى الاطوار التالية التى مهدت له الانتقال بدورها الى طور الحضارة ، وهو ما سندرسه فى الفصول الآتيـة •

وكانت وديان الانهار الكبرى فى الشرق الادنى خير ملجأ للانسان عندما أخذ الجفاف يحل فى الاماكن الاخرى من الشرق الادنى فى

آخر فترة جليدية في أواخر العصر الحجرى القديم فالتجأ الانسان أولا الى الواحات ثم الى وديان الانهار ، وهنا تم أعظم انقلاب في حياة البشر وهو انتقاله الى عهد الزراعة في العصر الحجرى الحديث ولا سيما في الواحات والمناطق التي تعتمد زراعتها على المطر في سفوح الجبال الشمالية ثم الى طور المدنية والحضارة من بعد ذلك ، عندما أخذت قرى العصر الحجرى الحديث الصغيرة تتسع وتتسع زراعته كذلك حيث بدأ يحل في وديان الانهار الكبرى في الشرق الادنى • وسنقص قصة هذا الانقلاب الخطير في الفصول الآتية •

ويقرن بعض المؤرخين أهمية الانقلاب الذى طرأ على حياة الانسان في العصر الحجرى المتأخر بأهمية الانقلاب الصناعى الذى حدث في الحضارة الغربية منذ القرن الثامن عشر للميلاد •

والرأى السائد ان أساليب هذا الانقلاب العظيم وبعض آلاته وأدواته انتقلت من الشرق الادنى الى أوربة ، وهكذا كان الحال بالنسبة الى النباتات والحيوانات المدجنة • ولكن عملية الانتقال استغرقت وقتا طويلا وانتقلت في مراحل مختلفة من جماعة الى أخرى • وقد انتقلت الى أوربة باتجاهين وطريقين : (١) عن طريق تركية الى اليونان أو الى جنوبى روسية ومن ثم الى وادى نهر الدانوب • (٢) من شمالى أفريقية ، وبطريق البحر الى ايطالية واسبانية وفرنسة ومن ثم الى بريطانية وأقطار شمالى أوربة • ومع هذا الانتشار فان مجتمعات بشرية عديدة ظلت في طور جمع القوت بعد مرور ألوف كثيرة على ظهور الزراعة في الشرق الادنى •

والثابت الآن ان الزراعة وتدجين الحيوان قد نشأتا بوجه مستقل في مركزين من العالم وهما الصين حيث بدأت زراعة الرز في حدود ٣٠٠٠ ق٠م وفي أمريكة في حدود ١٠٠٠ ق ٠ م (زراعة الذرة الامريكية بالدرجة الاولى) •

(حول العصور الحجرية في أجزاء الشرق الادنى بصورة خاصة ومفصلة أنظر الكلام على هذه الاجزاء في الجزء الثانى من الكتاب) •

٤٧

وبالامكان تقسيم تاريخ البشر بوجه عام الى ثلاثة عهود كبرى عامة :ـ

(١) عهد الهمجية (Savagary) وهو عهد العصر الحجرى القديم الذى قلنا انه شغل نحو ٩٨ ٪ من عمر الانسان •

(٢) عهد البربرية (Barbarism) وهو طور العصـــر الحجرى الحديث أو كما سميناه ، طور انتاج القوت •

(٣) عهد الحضارة أو المدنية (Civilization) ويبتدأ فى الشرق الادنى ولا سيما العراق ومصر فى أواخر الألف الرابع •

(Childe, **What Happened in History,** 17—18).



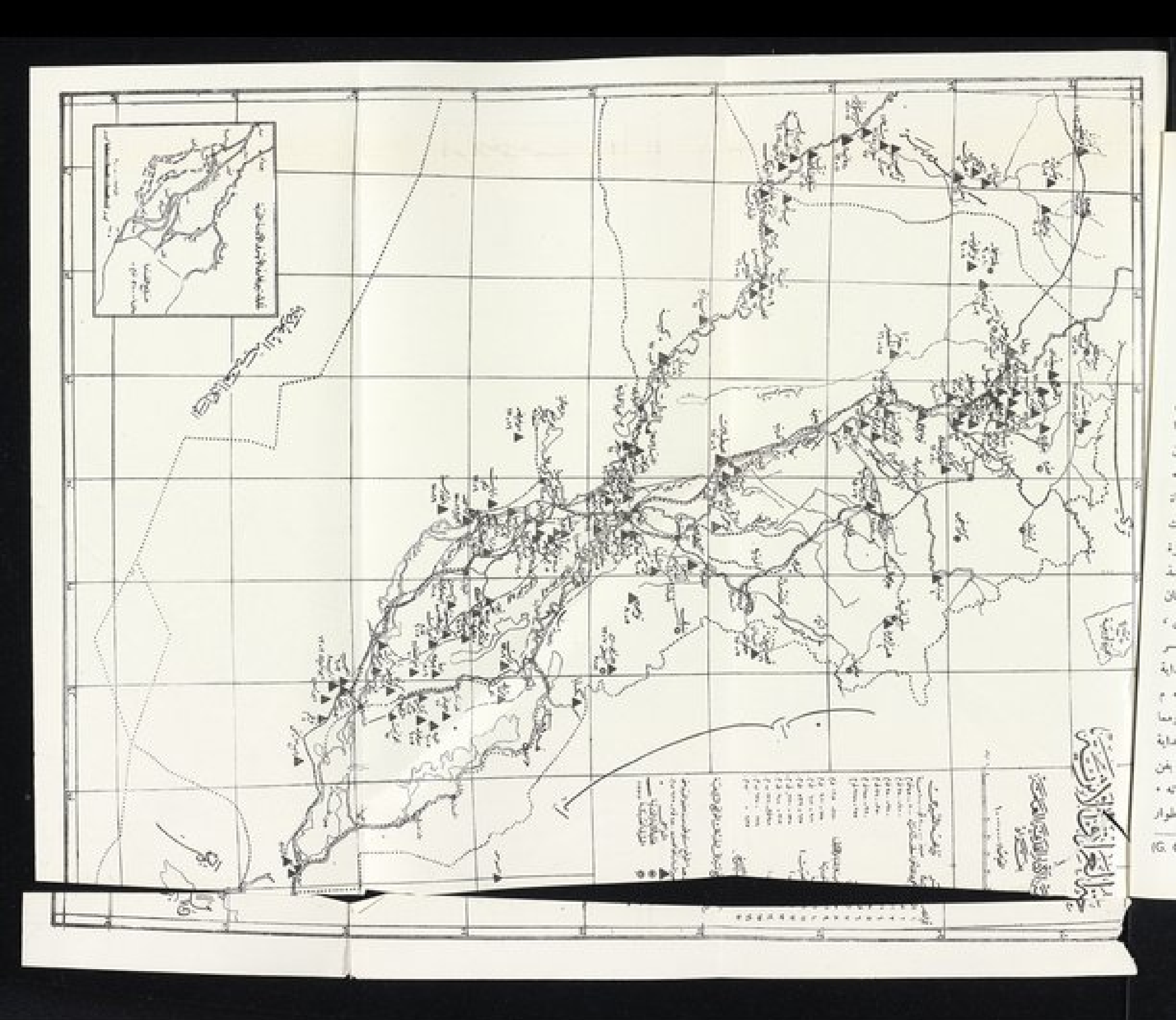
مجموعة من أوانى الفخار المتنوعة ، وجدت فى حسونة تمثل فخار العصر الحجرى المعدنى وبعضها من فخار العصر الحجرى الحديث

الفصل الثالث

فجر الحضارة او عصور ماقبل السلالات

ذكرنا في الفصل السابق شيئا عن حياة الانسان في الشرق الادنى في الازمان التي سميناها بالعصر الحجري الحديث ، وقلنا ان انقلابا خطيرا حدث في ذلك العصر في حياة الانسان باهتدائه الى الزراعة وتدجين الحيوان وقد تم هذا الانقلاب في الشرق الادنى ، في مصر والعراق بالدرجة الاولى . والحقيقة ان هذا الحادث الخطير وما قد نتج عنه من تطور في الحياة الاجتماعية قد مهد السبيل لنشوء الحضارة الناضجة في الاطوار التي عقبت العصر الحجري الحديث . ولكن نشوء الحضارة الناضجة لم يحصل طفرة واحدة في نهاية العصر الحديث . وانما حدث بخطوات تدريجية منذ أواخر ذلك العصر . فكانت هذه الخطوات أطوارا تمهيدية لبلوغ الانسان عهد الحضارة الناضجة ، يصح أن نعدها فجر الحضارة في الشرق الادنى ، وبوسعنا حصر هذه الاطوار التمهيدية بالازمان الواقعة بين نهاية العصر الحجري المتأخر في حدود ٦٠٠٠ ق . م أو ٥٠٠٠ ق . م وبين بداية العهد التأريخي وبداية الحضارة الناضجة في بداية الالف الثالث ق . م أي تحديد هذه الاطوار التمهيدية أو الانتقالية بحوالى ٢٠٠٠[١] سنة . ومما يمتاز به هذا العهد بوجه عام أن معرفة الانسان بالمعادن كانت فيه في بداية أمرها ، اذ استعمل الانسان كميات قليلة جدا في أول الامر لجهله بفن التعدين وظل يستعمل الحجر والمواد الاخرى في صنع أكثر آلاته وأدواته . ولكن كثر استعمال المعادن بالتدريج وتعلم الانسان فن التعدين في الاطوار

(١) (انظر G. Childe, **What Happened in History** (1946), P. 62.





الاخيرة من هذه الازمان وبوجه خاص في العهد المسمى بطور «العبيد» في حدود ٤٠٠٠ ق • م ، ولهذه الاسباب يسمي المؤرخون هذه الاطوار ، ولا سيما الادوار الاولى منها بالعهد «الحجري ـ المعدني» (Chalcolithic) وتسمى أيضا بعصور ما قبل السلالات أي الازمان التي سبقت نشوء السلالات الحاكمة بهيئة أمراء وملوك في كل من العراق ومصر • ولما كانت هذه الاطوار هي التي مهدت لنشوء الحضارة العراقية والحضارة المصرية فيصح أن نسميها أيضا بفجر الحضارة، فلنأخذ أبرز ما وصل اليه الانسان من اختراعات ولا سيما في العراق ومصر :

١ ـ أهم شيء حدث في هذه الازمان اتساع الانتاج في الزراعة التي تعلمها الانسان في العصر الحجري الحديث ، وانتقال المستوطنات والمقار الصغيرة التي كانت في ذلك العهد الى قرى كبيرة ومدن صغيرة كانت نواة المدن التي اتسعت فيما بعد في العهود التأريخية • وقد وجد المنقبون من هذه القرى نماذج كثيرة في العراق وفي مصر وفي سورية وسائر أنحاء الشرق الادنى • وقد رأينا فيما مر بنا ان الناس كانوا في العصر الحجري الحديث فلاحين بالدرجة الاولى ، ولا ينتجون الا مقادير محدودة من الحبوب لقوتهم ، أي انهم كانوا يتصفون «بالاكتفاء الذاتي» من ناحية الاقتصاد والانتاج وهو نقص خطير في حياة انسان العصر الحجري الحديث ولكن نشأت في عصور ما قبل السلالات أولى طلائع تقسيم العمل والتخصص ، ونشأت طبقة جديدة من الناس عاشت في القرى المتسعة حياة حضرية وتخصصت بالصناعات الابتدائية فكانت طلائع الاختصاص وبداية العمران البشري ، واقتصر أمر الفلاحين على الانتاج الزائد لمبادلته بالصناعات الجديدة ومن هؤلاء الحضر نشأت طبقات الصناع والتجار والموظفين والحكام وغير ذلك من الطبقات التي تكاثرت وتوضح نوع اختصاصها في زمن الحضارة الناضجة • ومن الامور المهمة التي يجدر ذكرها عن الزراعة في هذا العهد ان الانسان في وادي الرافدين ووادي النيل تعلم زراعة البساتين

منذ منتصف هذا العهد تقريبا مما زاد فى امكانياته الاقتصادية ومكن حياته المستقرة بجوار حقله وبستانه •

٢ ـ لقد أظهرت التنقيبات التى أجريت حديثا فى مواضع مختلفة من الشرق الادنى آثار هذا العهد بكثرة • وقد وجد ان هذه الآثار متشابهة بوجه عام فى جميع أنحاء الشرق الادنى وأبرز ما فيها نوع جميل من أوانى الفخار المصبوغ بالالوان والاشكال الزاهية • وتنقش هذه الاوانى عادة اما بلون واحد أو بألوان متعددة بنقوش هندسية ونباتية وبصور حيوانات ومناظر طبيعية وقد عمت صناعة الفخار هذه جميع أقطار الشرق الادنى حتى بداية العهد التأريخى فى أواخر الالف الرابع ق • م • ولعل هذا الطور (أى عصور ما قبل السلالات أو العهد الحجرى ـ المعدنى) كان المرحلة المشتركة التى بدأت منها حضارات الشرق الادنى ، ولكن سارت كل منها بعدئذبالطرق الخاصة بها فى العصور التأريخية • وقد وجدت تلك الآثار فى قرى لا تعرف أسماؤها القديمة ، فسميت الاطوار الحضارية التى جاءتنا منها آثارها بأسماء هذه القرى فى الوقت الحاضر • وقد وجد بعض هذه الآثار فى الطبقات السفلى من المواقع القديمة التأريخية التى قامت فى الاصل فوق قرى هذه الاطوار القديمة • ففى العراق تعرف تلك الاطوار بأطوار «حسونة» و «سامراء» و «حلف» و «العبيد» و «الوركاء» و«جمدة نصر» • ويمثلها فى مصر الطور «البدارى» و «الامارى» و «الجرزى» و «نقادة» ووجدت آثار هذا العهد فى سورية والبلاد الشامية الاخرى مثل وادى «العمق» وفى منطقة الخابور وفى الجديدة ورأس شمرة «أوغاريت القديمة» وفى تل حلف وفى «أريحا» فى فلسطين وغيرها • ووجد ما يضاهى هذه الآثار كذلك فى ايران فى (سلياك) وفى مواضع فى تركية مثل «مرسين» و «سكجى كوزى» [١] •

---

(١) حول وصف هذه الاطوار ولا سيما فى مصر وفى بلاد الشام أنظر البحث الخاص لكل منهما فى الجزء الثانى •

٣ ـ ومما يجدر ذكره عن هذه العصور ان آثار الاطوار الاولى منها قد نشأت ووجدت في مناطق الواحات ، وفي النجاد والمرتفعات في شمالي العراق حيث الري والزراعة بالاعتماد على الامطار بالدرجة الاولى ، وعلى الرغم من عدم الاطمئنان تماما الى هذا النوع من الري ، الا ان ضبط الزراعة في الواحات أسهل منه في وديان الانهار التي تتطلب جهودا وفنا في ضبط الفيضان وتنظيم شؤون الارواء واحكام السدود . ولعل الانسان قد تعلم مبادىء الري في مثل هذه المستوطنات أي في مناطق الواحات والمناطق الجبلية ، كما في موقع «جرمو» وتل حسونة ، والاربجية في شمالي العراق وذلك قبل أن ينتقل الى وديان الانهار الكبرى التي انشأ فيها الحضارة الراقية في وادي الرافدين ووادي النيل ، وقد حدث هذا الانتقال عندما أخذت اليابسة تتكون في القسم الجنوبي من العراق ، وصار صالحا لسكنى الانسان ، وكذلك الحال في دلتا النيل . ومما تمتاز به كل من البقعتين انها غنية بالامكانيات ولكنها صعبة تستلزم السكنى فيها واستغلالها والاستفادة منها جهودا وتنظيما ، ولا سيما تنظيم شؤون الارواء والسيطرة على مياه الانهار والا انقلبت امكانياتها ونعمها شرا ووبيلا كما حدث ذلك مرارا وتكرارا في فترات مظلمة من تأريخ العراق أهملت فيها شؤون الارواء ، مثل الفترة المظلمة التي عقبت سقوط الخلافة العباسية ، والفترة التي عقبت اضمحلال الحضارة البابلية منذ القرن الخامس ق . م . وكما يحدث في العصر الحاضر عندما تهمل السيطرة على الانهار وشؤون الارواء فيها . وان ما نشاهده من ألوف الاطلال المنتشرة في جميع سهول العراق المقفرة الآن وقيعان الانهر الجافة وما نشاهده من الاهوار والمستنقعات في منطقة البطائح بين الناصرية والبصرة ، كل ذلك من نتائج انقراض الحضارات القديمة التي انشأت وسائل العمران بسيطرتها على الطبيعة بالعمل والعلم والفن .

ولعل أهم سبب لانتقال الانسان الى وديان الانهار في وادي الرافدين تكاثر الجفاف الذي بدأ منذ أواخر العصر الحجري القديم في أنحاء الشرق

الادنى ، وبدأ يحل حتى فى مناطق الواحات ، فالتجأ الانسان في الازمان المتأخرة من عصور ما قبل السلالات الى وديان الانهار في وادى الرافدين فى القسم الجنوبى وفى دلتا النيل فىمصر ولقد جاءالانسان الىهاتين المنطقتين وهو مزود بمبادىء بسيطة من الاختراعات التى انتجها فى تلك العصور ، مثل المعرفة الابتدائية بالتعدين ومبادىء الرى البسيطة والفخار وكذلك أبسط أنواع العجلة فماذا وجد في بيئته الجديدة ؟ لقد وجد أرضا خصبة تكون وهي ملآى بالحيوان والنبات ، ووجد مياها دائمة ، ولكنها كانت بيئة صعبة تحتاج الى السيطرة والتنظيم • فكان نوع من التحدى أو امتحان فرضته البيئة الطبيعية على الانسان وهو في بداية مراحل الحضارة • فتفاعلت هذه البيئة الغنية الصعبة مع قابليات الانسان فعمل هذا التفاعل بينه وبين البيئة على ان حفزه لايجاد حلول لما جابهه من مشاكل ، فكانت هذه الحلول والاستجابة الى ذلك الامتحان العسير ما أنشأه الانسان الاول من حضارة راقية فى العراق وفى مصر ، سنأخذ عنها شيئا فى الفصول الآتية •

٤ ــ لقد توجت الاختراعات التى اهتدى اليها سكان وادى الرافدين فى عصور ما قبل السلالات بانقلابات خطيرة فى الاطوار الاخيرة منها ولا سيما بعد ان حل قرب الانهار فى العراق وفى مصر ، ومن ذلك ما ذكرناه من اتساع الزراعة وبداية الحياة الحضرية ونشوء أولى المدن والاختصاص وعرف بناة الحضارة الاوائل فى العراق ومصر فن التعدين أى صناعة النحاس والبرونز • فعرف العراقيون القدماء صنع النحاس فى العهد المسمى «بطور العبيد» (فى حدود ٤٠٠٠ ق • م) وعرفوا صنع البرونز فى عهد «جمدة نصر» (فى حدود ٣٢٠٠ ق • م) وابتدعوا دولاب الخزاف وصنعوا الآجر والاختام الاسطوانية والعربة ذات العجلة والمحراث الذى حل محل قطعة الحجر التى كانت تستعمل لنبش الارض فى العصور الحجريةالحديثة • واهتدى سكان العراق القدماء الى صنع السفن الشراعية فى عهد قديم جدا فى عهد العبيد السالف الذكر ، بدلالة ما وجد من النماذج فى أور المقير من

ذلك العهد وفى اريدو • وتوجت كل هذه الوسائل بابتداع وسيلة للتدوين أى الكتابة • وقد تم ذلك فى العراق قبل غيره من أقطار الدنيا كما عرف دولاب الخزاف وفن التعدين والعجلة فيه كذلك قبل الحضارات الاخرى • وبدأت فى الاطوار الاخيرة من عصور ما قبل السلالات الفنون الراقية كالنحت والتصوير والتطعيم (تطعيم أو تكفيت الاحجار بأحجار أخرى ثمينة) • وقد بدأ فن النحت منذ عصر الوركاء ولا سيما منذ نصفه الثانى (فى حدود ٣٥٠٠ ق • م •) • وظهرت كذلك المبانى العامة المهمة كالمعابد ، منذ عصر «العبيد» • وكثرت المعابد وازدادت أهميتها منذ عصر العبيد ، وظهرت فى طور الوركاء الابنية التذكارية الدينية ومن بين ذلك أولى الابنية الشاهقة التى سماها البابليون «زقورة» وهى الصرح أو البرج المدرج •

وقبل أن نذكر أطوار ما قبل السلالات فى العراق نؤكد هنا ما أشرنا اليه سابقا حول انتشار الحضارة فى هذه الاطوار فى جميع أنحاء الشرق الادنى فوجد ما يضاهى آثار العراق من حسونة وطور سامراء وطور حلف والعبيد والوركاء وجمدة نصر (وهى أسماء أطوار ما قبل السلالات فى العراق كما مر بنا سابقا) فى أنحاء سورية ولا سيما تل حلف (على رأس الخابور) وفى موضعين قريبين منه وهما تل «براك» و «شغربازار» مما يشير الى انشار الحضارة وتشابهها فى هذه الازمان القديمة • وقد كشف البحث الحديث فى الموازنة بين حضارات الشرق الادنى عن وجود صلات حضارية قوية بين العراق ومصر فى أواخر الطور الحجرى ـ المعدنى (أى عهد ما قبل السلالات) وكذلك فى بداية عهد السلالات أى فى المراحل الاولى من نشوء الحضارة الراقية فى كل من القطرين • وتتضمن هذه الصلات نواحى مهمة من مظاهر الحضارة كالآثار المادية والصناعات والاختراعات وبعض الاساليب والاطرزة الفنية وهى كلها خاصة بحضارة العراق واستمرت فيها ، ولكنها غريبة عن الحضارة المصرية اقتصر وجودها فيها زمنا محدودا ثم انقطعت • وهذه اعتبارات مهمة لا تدع مجالا للشك فى أصلها من حضارة العراق

القديم . وقد بدأت أولى هذه التأثيرات فى الحضارة المصرية فى حدود منتصف الالف الرابع ق . م . من عهد «الوركاء» فى العراق وفى نهاية طور «نقادة» الثالث فى مصر . فمنها الآثار التى وجدت فى جبل «العرق» وفى مقبرة «هيراكونبوليس» (أى مدينة الصقر) فى مصر واستمرت هذه التأثيرات من حضارة العراق القديم فى بداية السلالات المصرية الاولى مما يقابل عهد «جمدة نصر» وعهد فجر السلالات فى العراق وأبرزها رؤوس الدبابيس الحجر وأوانى الحجر المزينة بالنحت البارز وبعض الأطرزة الخاصة بالابنية السومرية التى وجد ما يضاهيها فى المقابر الملكية المصرية وفى المصاطب القديمة وفى تخطيط اللحود الملكية الاولى ولا سيما لحود ملوك السلالة الاولى وكذلك استعمال الأختام الأسطوانية الخاصة بحضارة العراق القديم[١] .

وأول ما تشير اليه هذه الاشياء وجود علاقات ثقافية وتجارية بين العراق ومصر بوجه خاص وبين أقطار الشرق الادنى بوجه عام وذلك منذ فجر التاريخ . وقد ذهب كثير من ثقات الباحثين فى أصول الحضارة الى استنتاج أمور هامة تتعلق باصول الحضارة المصرية فى أطوارها الاولى واقتباسها التأثيرات والحوافز الاولى من حضارة العراق القديم كاقتباس فكرة الكتابة أو الحافز عليها كما أظهرت البحوث حديثا[٢] . ومهما كان تأثر الحضارة المصرية فى أول أطوارها بحضارة العراق القديم الا انها أخذت فيما بعد منذ أواخر عصور ما قبل التاريخ تنمو مستقلة وتتصف بطابعها الخاص .

---

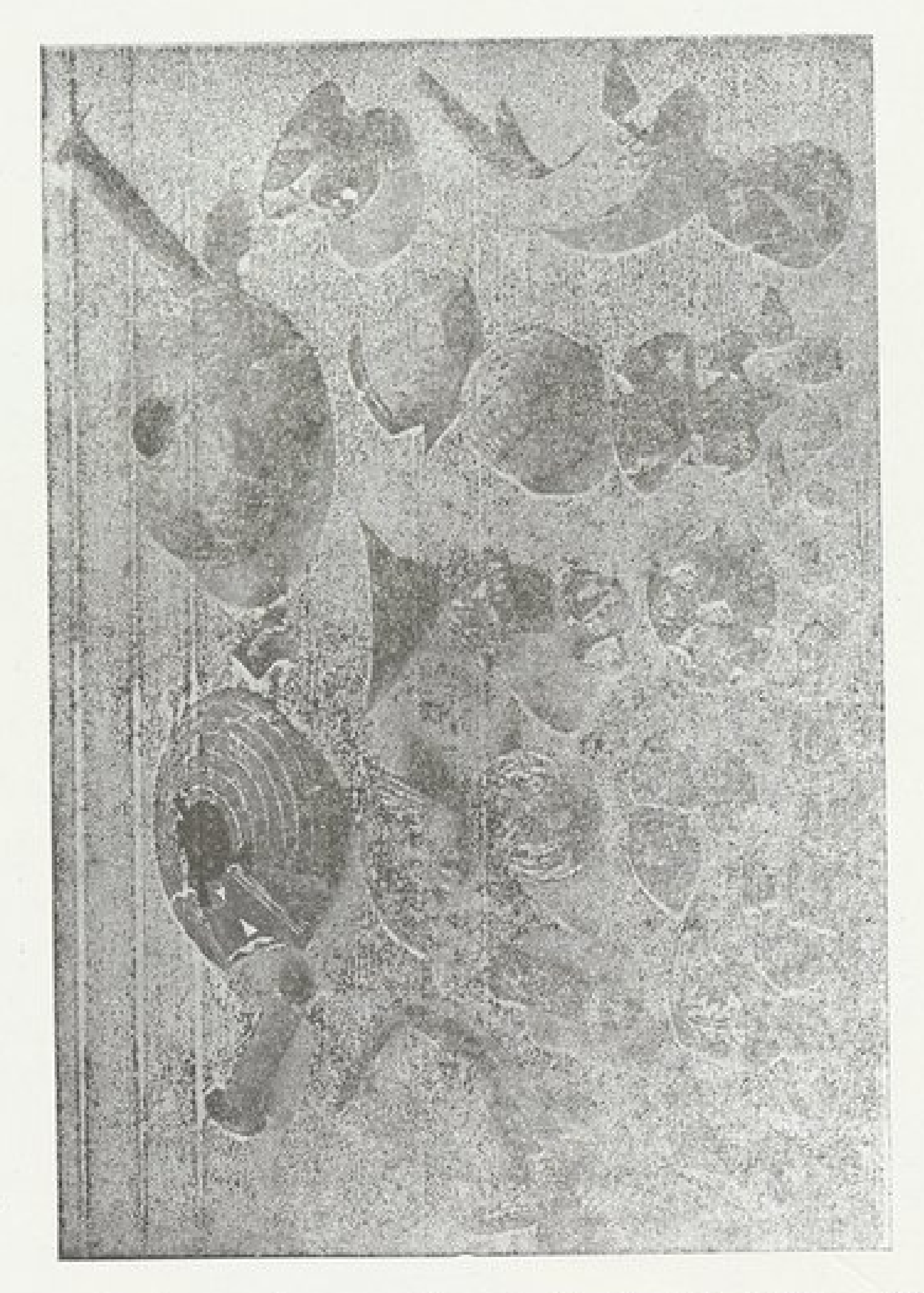
(١) حول هذه العلاقات الثقافية وتفسيرها انظر :ـ
(Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952) 77 ff.)
(2) J. A. Wilson, **The Burden of Egypt** (1950).
(3) H. Frankfort, **The Birth of Civilization (looff).**

(٢) أنظر كذلك المراجع المذكورة فى حاشية رقم ١ والمرجع الآتى :
The Legacy of Egyppt (1942).

ومن الامارات القوية على وجود الاتصال الثقافي والتجاري بين العراق وسائر أقطار الشرق الادنى فى هذه العهود السحيقة ان سكان العراق الاقدمين استعملوا فى حضاراتهم بعض أنواع الحجر والمعادن وأشياء أخرى لا توجد فى العراق بكثرة وبعضها لا يوجد بالمرة ولكنها استوردت من الاقطار المجاورة • وكان الجزء الجنوبى الشرقي من جزيرة العرب من أقدم المصادر التي جلب منها العراقيون القدماء معدن النحاس وقد بقي الحال كذلك فى العهود التأريخية القديمة كما تشير الى ذلك أخبار الملوك الاوائل مثل «نرام ـ سين» الاكدي و «جودية» حيث ذكرا أمكنة فى الجزء الشرقى الجنوبى من جزيرة العرب جلبا منها النحاس •

وقد وجدت آثار خاصة بحضارة العراق القديم من طور «جمدة نصر» وعصر فجر السلالات والعهد الاكدى فى سورية الشمالية فى منطقة الخابور والباليخ • ونشأت مراكز حضارية فى سورية ازدهرت فيها الحضارة السومرية مثل منطقة مدينة «ماري» (تل الحريرى الآن على الفرات قرب الحدود السورية العراقية) •

وانتشرت اختراعات العصر «الحجري ـ المعدني» من مراكز الحضارات فى العراق ومصر الى مناطق أخرى من العالم مثل جزر بحر «ايجة» والتركستان والهند • وانتشر تأثيرها فيما بعد الى أقطار أخرى بعيدة •



نماذج من أواني الفخار الجميلة من عهد العبيد (من «اريدو» ـ ابو شهرين)

الفصل الرابع

أقدم القرى من فجر الحضارة في العراق

لخصنا فيما سبق الخصائص العامة للاطوار التمهيدية لنشوء الحضارة وهي الاطوار التي سميناها بعصور ما قبل السلالات أو فجر الحضارة . وتتم بحثنا في هذه الاطوار بوصف أقدم القرى التي ظهرت في العراق في هذا العهد وكشف فيها عن آثار عصور ما قبل السلالات. وقد نوهنا فيما سلف بأنه يميز الباحثون هذه الاطوار في العراق وكذلك في أقطار الشرق الادنى بنوع أواني الفخار وبالآلات والادوات الخاصة بكل طور. وقدوجدت هذه الآثار في قرى قديمة لا تعرف اسماؤها التاريخية ولكن سميت الاطوار المختلفة التي وجدت آثارها فيها بأسماء هذه المواضع الحديثة ، وقد أطلق اسم الموضع التي وجدت فيه آثار الطور الخاص أول مرة (نقب قبل غيره من المواضع) على ذلك الطور . وبذلك حصلنا على الاطوار التي تسمى بحسب التسلسل الزمني الآتي : حسونة ، وسامراء ، وحلف ، والعبيد ، والوركاء ، وجمدة نصر .

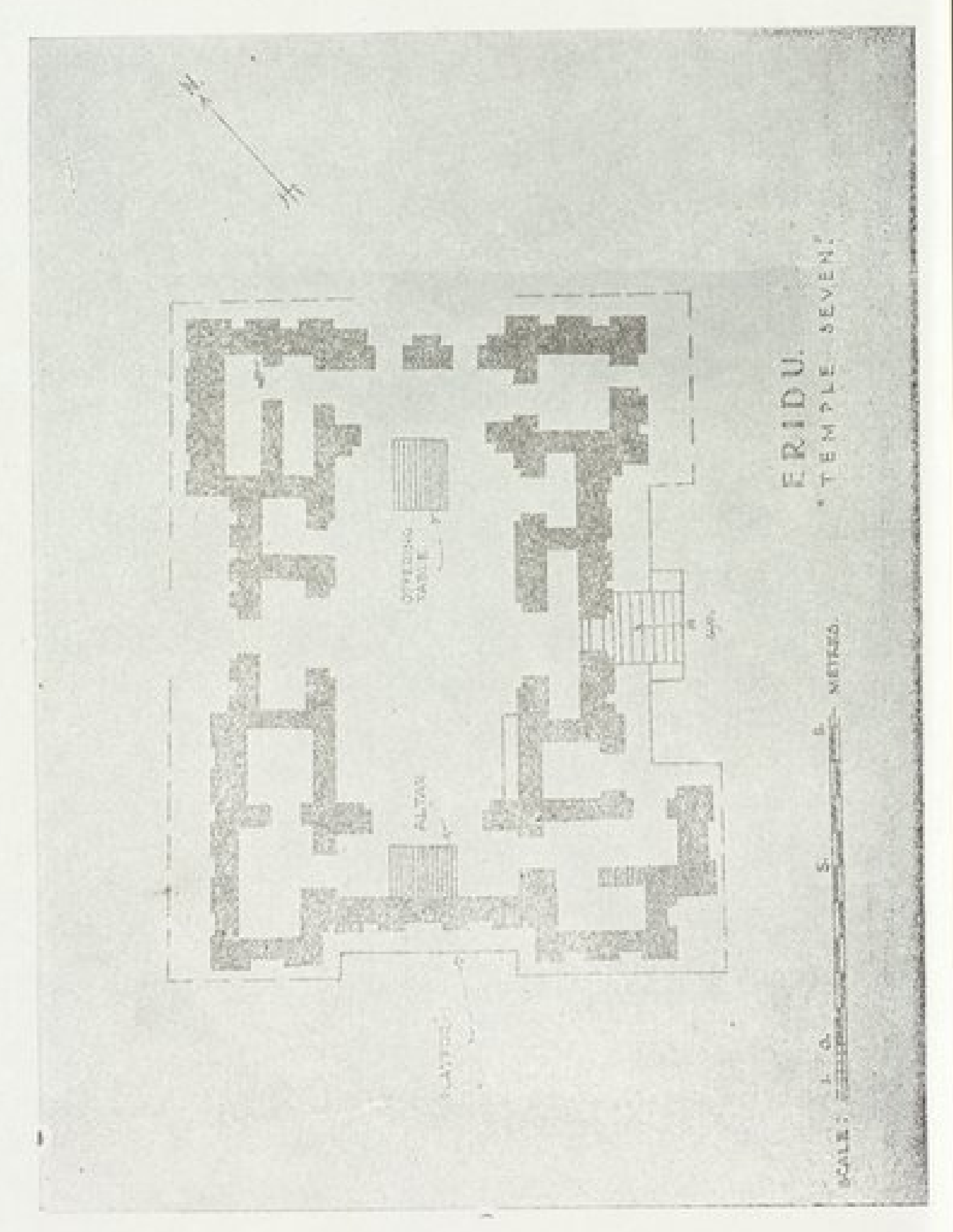
وقد عثر على بعض المواضع القديمة وهي تحتوي على آثار تلك الاطوار كلها أو بعضها وتسلسل فيها من حيث القدم بحسب الطبقات فآثار طور حسونة مثلا في أسفل هذه الطبقات ثم يلي ذلك آثار طور سامراء وهكذا الى سطح التل حيث توجد أحدث الادوار . ومما يلاحظ في آثار هذه الادوار بوجه عام اننا نستطيع أن نلمس من دراستها الخطوات التدريجية في تقدم الحضارة حتى نصل الى آخر هذه الاطوار وهي طور الوركاء وجمدة نصر فنشاهد ان التقدم الذي أحرزه سكان العراق قد بلغ

مرحلة يصح فيها ان نعد هذين الطورين ضمن عهد الحضارة الناضجة لولا اعتبارات منها اعتياد المؤرخين على حشرهما فى عصور ما قبل السلالات لعدم نضج الكتابة فيهما ولذلك فقد يدعى هذان الطوران بالعهد «الشبيهة بالعهد التاريخى أو الكتابى» (١) ولا يقتصر هذا التقدم المحسوس الذى نشاهده بانتقالنا من أقدم هذه العصور الى احدثها على الادوات والآلات الخاصة وانما يشمل عناصر هامة من حضارة العراق القديم ، كفن العمارة والنحت وبعض الفنون الاخرى مما سنشير اليه فى فصول خاصة • ومما يجلب انتباه الباحث فى أصول حضارة العراق القديم بوجه خاص ان أسس الحضارة الناضجة التى سنشاهد آثارها فيما بعد وهى الحضارة السومرية ترجع الى هذه الاطوار التمهيدية أى ان أصولها وجذورها نبتت فى تربة وادى الرافدين وكانت هذه الجذور تنمو حتى نبتت أشجارا واضحة المعالم فى عهد الحضارة السومرية اى عصور فجر السلالات ، مهما كان أصل أول الاقوام الذين تقترن باسمهم هذه الحضارة الاولى (وهم السومريون) • وهذه فى الواقع حقيقة على قدر عظيم من الاهمية بالنسبة الى أصل الحضارة السومرية وما دار حولها من افتراضات لا تستند الى الحقائق الثابتة •

لقد سبق أن ذكرنا أن أولى علائم الانتقال الى فجر الحضارة اتساع القرى والزراعة فى جميع انحاء الشرق الادنى • وقد قام أغلب هذه القرى فوق انقاض قرى قديمة عاشت فى أواخر العصرالحجرى المتأخر وقدوجدت نماذج من هذه القرى فى العراق وفى مصر وفى سورية وفلسطين وايران • ففى العراق عثرت مديرية الآثار العراقية

---

(١) (Proto-Literate) وقد أطلق حديثا على طور جمدة نصر والنصف الثانى من طور الوركاء حيث ظهرت الكتابة لاول مرة فى تاريخ الانسان •



أقدم معبد وجد فى العراق ، من عهد العبيد (فى اريدو) (٤٠٠٠ ق م) ،
وبذلك يكون أقدم بناية دينية فى تاريخ العالم

عام ١٩٤٢[١] على آثار قرية يسمى موضعها الآن «حسونة» جنوبى الموصل بحوالى الـ ٣٥ كيلو ونحو ٨ كم شمال شرقى قرية الشورة وقد عثر فيها على آثار أقدم فلاحين عاشوا فى منطقة الموصل فى حدود الالف السادس ق • م • وقد عاش أجداد هؤلاء فى بيوت الشعر اذ لم يعرفوا بناء البيوت • ولكن أحفادهم تقدموا بعد أجيال فبنوا بيوتهم من الطين (الطوف) وصنعوا أوانى الفخار المزينة بالاصباغ • وصنعوا أدواتهم وآلاتهم من الحجارة والعظام لانهم لم يهتدوا بعد الى استعمال المعادن • ويعد هذا الطور (٥٢٠٠-٥٠٠٠ ق • م) أول أطوار العصر الحجرى ـ المعدنى • وقد وجد ما يضاهى آثار حسونة فى مواضع أخرى فى شمالى العراق ، لان القسم الجنوبى منه كان غير صالح للسكنى وكان آخذا فى التكوين، وكذلك وجدت فى

---

(١) قامت بالحفر فيه فى موسمين ١٩٤٣ وعام ١٩٤٤ • وتل حسونة موضع صغير (٢٠٠ × ١٥٠ م) يرتفع نحو ٧ أمتار عن السهل المجاور وقد اظهرت التنقيبات فيه ستة عشر دورا أو طبقة بنائية تمثل خمسة أدوار حضارية فالطبقة الاولى من الاسفل تمثل أواخر العصر الحجرى الحديث • والطبقات (Ia-III) تمثل دور حسونة الذى يمتاز بنوع من الفخار المنقوش بحزوز وبحزوز وألوان • والطبقات (IV - VI) تمثل دور سامراء والطبقات (VI - X) دور حلف ، والطبقات (XI - XII) عهد العبيد ، والطبقات العليا من الادوار المتأخرة •

انظر المراجع الآتية : (Sumer, 1, 1945), No. 2,59 ff.);
ILN, 11 Agust (1945); Journal of the Near Eastern Studies, IV, 4 (1945), 255 ff. ;
Sumer, III 1 (1947), 26 ff. ; Sumer VI. (1950), 93 ff. ;
André. Parrat, Archéologie Mesopotamienne 11 (1953) 8 ff.

وفى موضع نقبت فيه بعثة من جامعة شيكاغو يدعى مطارة وجدت أدوار تضاهى أدوار حسونة ما عدا بقايا العصر الحجرى الحديث • ويبعد الموضع جنوب كركوك بنحو ٣٥ كيلو مترا •

(انظر تقرير نتائج الحفريات فى
(Braidwood et al, "Mattarah" in **Journal of the Near Eastern Studies,** XI (1952), 1 ff.)

مواضع أخرى في مصر مثل (البدارة) وفي (العمق) ورأس شمرة و «الجديدة» في بلاد الشام .

طور سامراء :ـ

وعقب زمن الفلاحين القدامى في «حسونة» طور آخر من أطوار ما قبل السلالات في العراق سمي بطور «سامراء» لانه اكتشفت آثاره أول مرة في منطقة مدينة سامراء[1] . وقد قدر زمنها في **أواخر الالف** السادس ق . م . ومع قلة الآثار التي وجدت من هذا الطور في سامراء وفي موضع حسونة ونينوى وغيرها من المواضع في شمالي العراق فانها تشير الى تقدم ملحوظ بالنسبة الى ما سبقها ، وفي المتحف العراقي نماذج من آثار هذا الطور ولا سيما أواني الفخار الجميلة التي تمتاز بنقوشها الهندسية وبأشكال حيوانات وبشر رسمت بصورة تقريبية . وتدل السكاكين الحجرية والاواني المنحوتة من حجر الزجاج البركاني (الحجر الاوبزيدي) التي جاءتنا من هذا الطور على تقدم في الصناعة واتساع التجارة والمواصلات وذلك لجلب هذا الحجر الموجود عادة في منطقة أرمينية وبعض بلاد العرب .

طور حلف :ـ

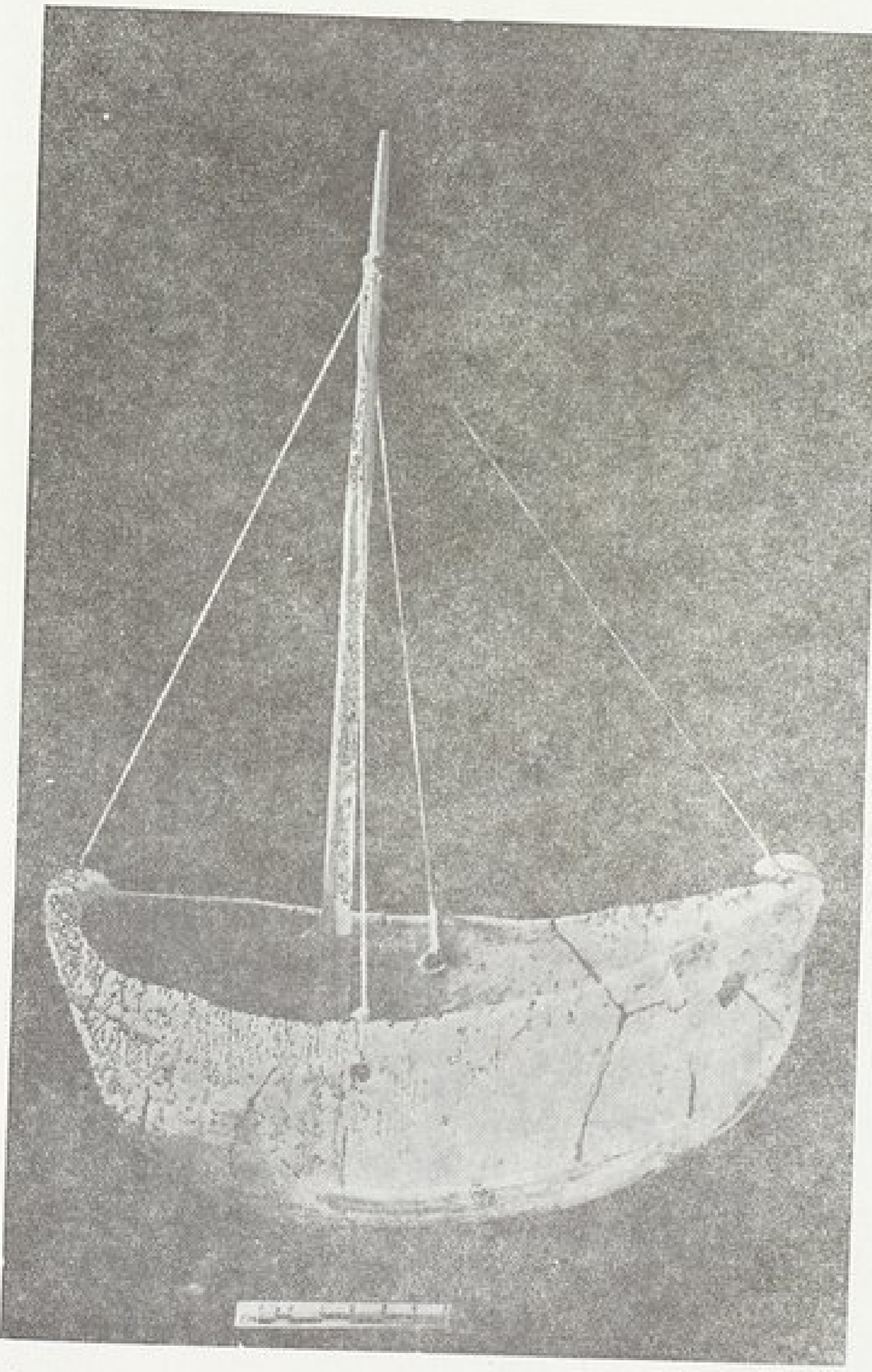
وعقب طور سامراء عصر من عصور ما قبل السلالات سمي باسم «حلف» نسبة الى تل حلف الواقع في أعلى نهر الخابور بمسافة ١٤٠ ميلا شمال غربي نينوى ثم اكتشفت آثار هذا الطور من بعد ذلك في مواقع متعددة في شمال العراق ويرجع زمن طور حلف الى حدود

---

(١) لقد عثر على بقايا طور سامراء في موضع سامراء العباسية في أثناء التحريات في قصور الخلفاء، وبقايا المدينة العباسية منذ عام ١٩١٢ـ١٩١٤ برآسة الاستاذ هرزفلد .

(انظر **E. Herzfeld, Die Ausgrabungen von Samarra. V. Die Vorgeschichtichen** Topfereien (Berlin 1930) ; André Parrot, Op. Cit., II, 126 ff.)

ثم وجدت آثار هذا الطور في مواضع أخرى في شمالي العراق . منها الموضع السابق حسونة ومطارة ، وتبه كورا والاربجية .



نموذج مصغر من الفخار يمثل أقدم قارب استعمله الانسان فى الملاحة
(من عهد العبيد فى اريدو)

(٤٥٠٠-٤٠٠٠ ق ٠ م ٠) ٠ ومما تمتاز به هذه الآثار بوجه خاص أواني الفخار النفيسة الجميلة ذات النقوش المصبوغة بألوان متعددة في الاناء الواحد ٠ وتتألف من ألوان زاهية من الاصفر والاحمر والبرتقالي والاسود على أرضية من الفخار مصقولة رقيقة ٠ وقد زينت هذه الاواني بنقوش تعد أحسن ما صنع الانسان القديم من الفخار ٠ وتشير احدى القرى التي كشف فيها عن آثار هذا الطور في شمالي العراق (في موضع يسمى الاربجية قرب الموصل) الى تقدم القرى في هذا الطور في العراق تقدما محسوسا بحيث أخذت تقرب من المدن المنظمة ٠ فقد كشف في القرية المذكورة ، أي قرية الاربجية ، عن شوارع مبلطة بالحجارة واحيطت القرية بأسوار ونشأت فيها مبان عامة كانت بمثابة المعابد الدينية مما يدل على تقدم في الحياة الاجتماعية ٠ واستمر سكان القرى في العراق الشمالي في اتصالاتهم التجارية كما تشير الى ذلك بعض المواد التي لا توجد في العراق ولا سيما حجر الزجاج البركاني ووجدت آثار طور حلف في سورية في رأس شمرة «اوغاريت القديمة» وفي غيرها من المواضع كما ان اسم هذا الطور مسمى بالنسبة الى موضع حلف في سورية[١] ومما يجدر ذكره ان آثار الاطوار السالفة الذكر (أي حسونة وسامراء وحلف) اقتصر وجودها في مواضع كلها في شمالي العراق ولما يعثر عليها في القسم الجنوبي منه ٠

ولكن اليابسة كانت تكون في القسم الجنوبي من العراق منذ العصور الحجرية بما كان يحمله النهران العظيمان على مر القرون من الطمي والغرين فظهرت في بادىء الامر جزر وسط أهوار تحولت بالتدريج الى سهول

---

(١) حول طور تل حلف والمواضع التي كشف فيها عن آثاره انظر المراجع الآتية :

(1) Von Oppenheim, **Tell Halaf, 1**, (Berlin, 1943). (أنظر

(2) M.E.L. Mallowan & C. Rose, **Prehistoric Assyria. the** Excavtions at Tall Arpachiyah (1933, Iraq, II, 1935, 1 ff.)

(3) André Parrot, Op. Cit., II, 136 ff.

(4) G. Childe, New Light, 110, 217 ff.

خصبة صالحة لسكنى الانسان • وقد أظهرت التنقيبات التى أجريت فى مواضع قديمة فى جنوبى العراق ان أول من استوطن هذه السهول الحديثة التكوين هم أصحاب حضارة عقبت حضارة حلف فى الزمن فى أواخر الالف الخامس ق • م • وقد خلف لنا أقدم هؤلاء نماذج من أوانى الفخار الجميلة الصنع عثر عليها فى «اريدو» (ابو شهرين) وهى تمثل أقدم مرحلة[١] من طور جديد عقب طور حلف فى الجنوب وسمى بطور «العبيد» •

طور العبيـــد :ـ

وبذلك يكون طور «العبيد» أقدم أطوار فجر الحضارة فى القسم الجنوبى من العراق • لانه لم يعثر على آثار أطوار أقدم منه فى جميع هذا القسم ، مما يدل على انه لم يكن صالحا لسكنى البشر الا فى أواخر عصر حلف أو فى حدود ذلك الزمن وقد سمى هذا الطور بطور العبيد نسبة الى تل على بضعة كيلو مترات من الناصرية قرب مدينة اريدو «ابو شهرين» • ومما يميز آثار هذا الطور انها منتشرة فى جميع أنحاء العراق ووجد ما يضاهى أوانى الفخار المنقوشة فى عيلام وتتصف أوانى الفخار بأنها مزينة بلون واحد قوامه خطوط سود أو سمر أو حمر فاتحة على سطح الاناء ذى اللون الاخضر • ووجدت من هذا العصر نماذج مهمة من المعابد فى القسم الشمالى والجنوبى من العراق وهى تتصف بالخصائص الاساسية لمعابد العراق القديمة فى العهود التأريخية • وقد وجدت كذلك نماذج من أبنية اللبن بدلا من «الطوف» فى العهود السابقة • وتحسنت الزراعة وكانت أساس

---

(٢) وجدت آثار هذا الطور أول مرة فى أقدم طبقات السكنى فى مدينة «اريدو» أبو شهرين الحالية ، أقدم المدن السومرية وأقدسها وقد قامت بهذه التنقيبات مديرية الآثار العراقية حديثا (١٩٤٧ـ١٩٤٩) والمرجح كثيرا ان نماذج الفخار المكتشفة فى أقدم أدوار السكنى فى «اريدو» لا تمثل طورا جديدا يقع بين حلف والعبيد وانما ذلك ، كما ذكرنا فى المتن ، المرحلة الاولى من طور العبيد ، وتشبه تلك النماذج الفخار الذى وجده منقبو الوركاء فى الموضع المسمى «قلعة حاج محمد» •
(A.L. Perkins, **The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia** (1949).

الحياة الاقتصادية • وانتشر استعمال المعدن ولا سيما النحاس في الشطر الثاني من عهد العبيد • فكان ذلك خطوة مهمة في تقدم الحضارة • وجاءتنا من هذا العصر نماذج من وسائل المواصلات التي استعملها سكان العراق الاقدمون أهمها العربة ذات العجلة ، ونماذج من سفن شراعية[١] لا تزال نشاهد ما يضاهيها في العراق الحديث • وقد وجدت قرية من قرى العبيد في موضع يسمى العقير وجدت فيها نماذج مهمة من بيوت هذا العهد وهي تقوم على جانبي شوارع صغيرة • ويدخل الى البيوت من أبواب من الخشب أو القصب تدور أعقابها على حجارة مجوفة • وكانت سطوح الدور مستوية ، وهي ذات ميازيب من الفخار تشبه شبها تاما ميازيب القصدير المستعملة اليوم في العراق • ويحتوي كل بيت على أربع أو ست حجرات منسقة التخطيط ويرقى الى السطوح بواسطة درج وقد عزلت احدى الحجرات لتكون مطبخا ووضع فيها التنور ووجدت منه نماذج لا تزال شائعة الاستعمال في الشرق ولا سيما في العراق ، وقد حرث الفلاحون الارض بمحاريث ذات رؤوس من الصوان • ويبدو ان المحراث الكبير لم يهتد الى صنعه • وكانوا يحصدون الغلة بمناجل من الفخار مطبوخة طبخا شديدا قبل أن ينتشر في ذلك العهد استعمال النحاس بكثرة ووجدت من هذا العهد ابر من العظم والمغازل تدل على وجود الحياكة • والمرجح كثيرا ان أهل طور العبيد هم الذين قاموا بتجفيف الاهوار في الجنوب ، وان انتشار فخار العبيد الى الشمال يشير الى انتشار طور العبيد أو تغلغل أهله في أكثر جهات العراق • وبدلالة أدوار المعابد التي وجدت في أريدو يمكن تقدير مدة هذا الطور بنحو ٤٠٠ عام •

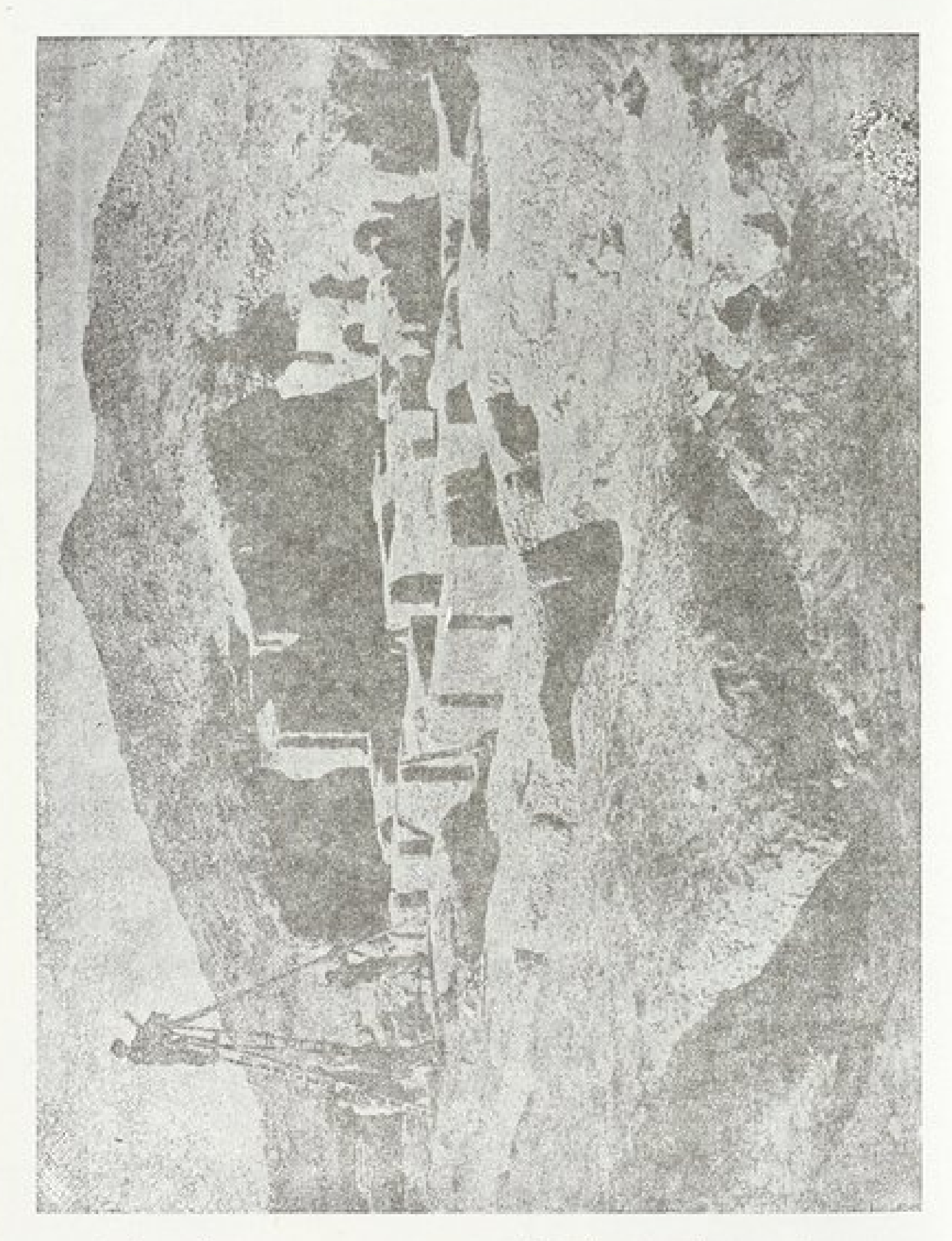
---

(١) وجد هذا النموذج في أثناء تنقيبات مديرية الآثار العراقية في تل «أبو شهرين» (اريدو) (حول نتائج التنقيبات في اريدو انظر المراجع السابقة) • وقد سبق أن أرخنا عهد العبيد في حدود ٤٠٠٠ ق • م • وبالامكان تاريخه أيضا بنحو ٤٥٠٠ ق • م ولا سيما في القسم الجنوبي من العراق ، وهذا زمن يضاهي طور «الفيوم» اي العصر الحجري الحديث في مصر بحسب نتائج طريقة تعيين أدوار التاريخ بالاشعاع الكربوني •
في مصر بحسب نتائج طريقة تعيين أدوار التاريخ بالاشعاع الكربوني (C14)
(Childe, New Light (1952), 171)

وبامكاننا أن نسمي أهل طور العبيد في القسم الجنوبي من العراق بالسومريين أو أوائل السومريين ، كما انه بوسعنا أن نستدل على كثرة السكان في هذا الطور من عدد المقابر التي وجدت في «اريدو» من أواخر عهد العبيد (حوالى الف قبر في موضع واحد أي في اريدو وحدها) • ونؤكد ما سبق ان ذكرناه من انتشار طور العبيد في جميع أنحاء العراق تقريبا ، حيث وجدت مواضع كثيرة تنتشر فيها آثاره •

العهد الشبيه بالكتابي (أو التاريخي) :ـ

وعلى الرغم مما لا حظناه من علامات التقدم في طور العبيد السالف الذكر فان سكان العراق الاقدمين لم يهتدوا في هذا الطور ولا في الاطوار التي سبقته الى طريقة للتدوين ـ أي بعبارة أخرى لم يعرفوا الكتابة • ولكن هذا النقص لم يستمر طويلا اذ اهتدى فيما بعد الى اختراع الكتابة • وقد بدأ هذا الانقلاب في تأريخ الحضارة البشرية أول مرة في العراق في منتصف العهد الذي أعقب طور العبيد ، ذلك العهد الذي أطلق عليه اسم «عصر الوركاء» (٣٥٠٠ـ٣٢٠٠) وقد سبق أن اصطلحنا على العهد المشتمل على النصف الثاني من عهد الوركاء وعلى طور جمدة نصر اسم «العهد الشبيه بالكتابي» • وبدأت الكتابة في أول أمرها بسيطة مبدؤها تدوين الاشياء المادية المألوفة برسم صورها وهذا ما يدعى بالكتابة الصورية • وقد اتخذوا ألواح الطين يكتبون عليها وهي طرية بقلم من القصب أو الخشب • وظل الطين أهم مواد الكتابة في جميع تأريخ العراق القديم ، ولكنهم اتخذوا مواداً أخرى للكتابة كالحجر والمعادن • وبعد مرور أجيال على ظهور الكتابة الصورية ، أخذت تتطور وتبتعد عن الشكل الصوري ، واستعملت مجموعة من العلامات للتعبير عن المعاني المجردة • وتطورت الصور شيئا فشيئا وبعد الشبه بين أشكالها وأشكال الاشياء التي كانت تمثلها في الاصل وصارت علامات مختصرة تنتهي بما يشبه المثلثات أو المسامير ولذلك سميت بالكتابة المسمارية • وصارت تستعمل بهيئة مقاطع صوتية لكتابة الكلمات والجمل بعد تقطيعها الى مقاطعها • وسنأخذ أشياء أخرى مفصلة عن الكتابة وتطورها في القسم الثاني من هذا



مشهد عام يبين التنقيبات الجارية في اريدو (ابو شهرين) في الجزء الخاص بمعابد المدينة حيث كشف عن أقدم معابد في تاريخ الانسان

الكتابة ، فنكتفي هنا بأن نذكر ان الكتابة قد بلغت بداية الطور الصوتي في أواخر عهد الوركاء (في الطبقة الرابعة من طبقات الوركاء) • ووجدت ايضا في الموضع نفسه ألواح من الطين بهيئة جداول بالعلامات المسمارية لتعلم الكتابة فهذه اذن أقدم أنواع المعاجم •

الوركاء :ـ

سمي هذا العصر الجديد «بالوركاء» نسبة الى مدينة «الوركاء» في شرق الفرات بالقرب من مركز ناحية الخضر (السماوة) • والوركاء من أقدم المدن السومرية • وورد ذكرها في التوراة باسم «ارك» واسمها السومري «اوروك» فاختير هذا الاسم ليطلق على هذا الطور من أطوار عصر ما قبل السلالات ، الذي يرتقي الى حدود ٣٥٠٠ قبل الميلاد •

وبالاضافة الى اختراع الكتابة في منتصف هذا الطور حدثت تطورات مهمة في حضارة العراق في هذا العصر • بحيث يصح أن نعتبر ابتداء الحضارة الناضجة من منتصف هذا العهد ، فقد تقدم فن البناء ولا سيما المباني العامة كالمعابد وقد وجدت في هذا العصر معابد مشيدة على مصاطب صناعية مكونة من عدة طبقات هي أصل (الزقورة) أو الصرح المدرج الذي امتازت به حضارة العراق القديم • والزقورة برج شاهق (كبرج بابل المشهور وبرج أور المقير وبرج بورسبا المسمى الآن برس نمرود وبرج عقرقوف) كان يشيد جوار معبد المدينة ويبنى بهيئة طبقات يتراوح عددها بين الثلاث والسبع طبقات تتدرج في السعة بالتناقص حيث تكون أسفل الطبقات أكبرها ثم تليها الطبقات الاخرى • وكانوا يشيدون فوق القمة معبدا لعبادة اله المدينة الخاص • ويرقى الى قمة البرج بسلالم ، سلم لكل طبقة ، وكان يقوم بجوار الزقورة معبد المدينة الكبير الارضي • وقد وجدت أوائل هذه الزقورات حيث شيدت لعبادة الاله «آنو» وقد سمي بالمعبد الابيض • وكذلك وجد نموذج للزقورة[١] في موضع يسمى العقير نقبت فيه مديرية الآثار العراقية ويرجع

---

(١) حول الآراء المختلفة عن الزقورة انظر
André Parrot, **Ziggurats et Tour de Babel** (Paris, 1949).

عهده الى طور الوركاء ، وقد زينت جدران المعبد المشيد فوق قمة الزقورة بصور ملونة تمثل بعض الحيوانات مثل النمر والفهد تعد أقدم صور جدارية •

فن النحت والاختام الاسطوانية :ـ

وخلف لنا فنانو هذا العهد نماذج جميلة من المنحوتات الحجرية تعد أقدم أنواع فن النحت فى تأريخ الفن • واخترع العراقيون القدماء فى هذا العصر أيضا شيئا مهما زاد فى فائدة الكتابة بتثبيت صحة الرسائل والسجلات المكتوبة ونعنى بذلك الختم الاسطوانى الذى اختصت به حضارات العراق القديم • وكان أداة لازمة من المقتنيات الشخصية • والختم الاسطوانى خرزة أو حجرة اسطوانية منقوشة بصور ورسوم مختلفة بهيئة معكوسة (كصورة المرآة) • فاذا دحرج على لوح الطين المكتوب وهو طرى يترك فيه طبعة الصور الاصلية • وكان بمثابة توقيع صاحب الختم وقد ينقش باسم صاحبه كما هى العادة فى العصور التى عقبت طور الوركاء • وقد سبق الختم الاسطوانى فى الاطوار السابقة نوع من الختوم المنبسطة على هيئة الختوم (الطمغات) المستعملة الا ن • ويجد المنقبون فى أطلال العراق القديمة ألوفاً من الاختام الاسطوانية وتعد هذه من المصادر والمآخذ المهمة لمعرفة أحوال العراق فى أدواره المختلفة التى يمتاز كل منها بنوع من الاختام المنقوشة بصور مختلفة تمثل مشاهد ومناظر من الحياة اليومية والعقائد الدينية والاساطير والحوادث المخلدة بالآداب •

جمدة نصر :ـ

وأعقب طور الوركاء الطور الاخير من العهود التى اصطلحنا على



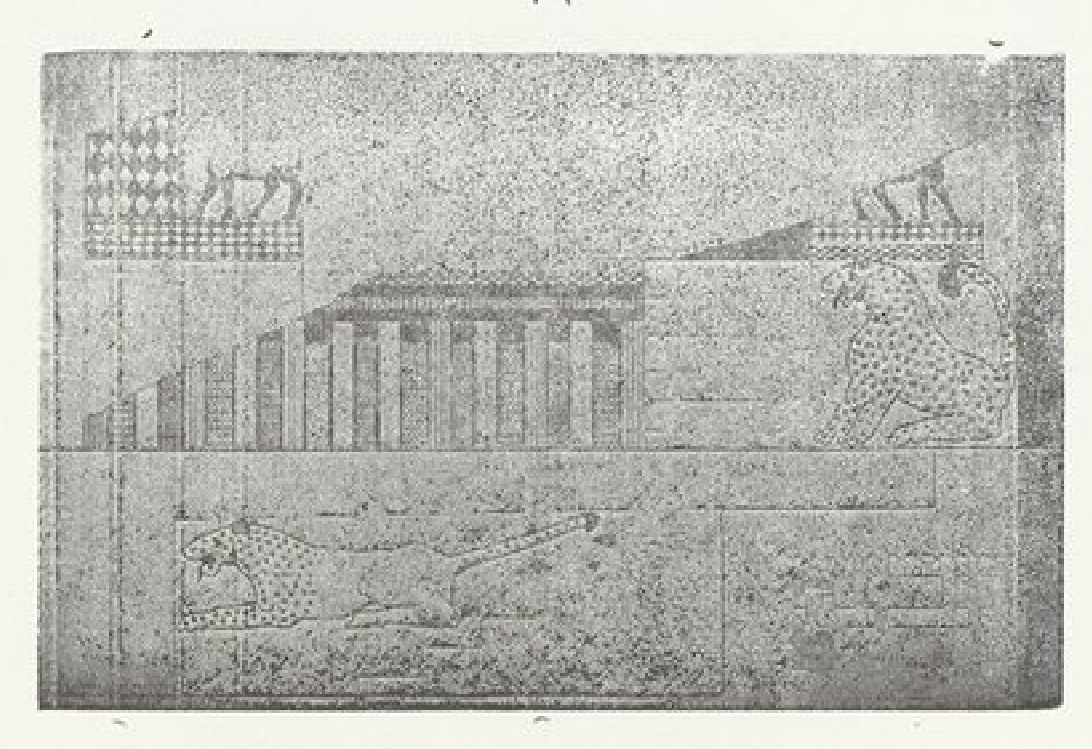
نموذج من الواح الطين المكتوبة باقدم أنواع الخط المسمارى حيث كان في طوره الصورى في العهد الشبيه بالكتابى

تسميتها بعصور ما قبل السلالات ٠ وقد أطلق عليه اسم «جمدة نصر» (٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق ٠ م) نسبة الى تل صغير يعرف بهذا الاسم قرب مدينة كيش القديمة ٠ كما وجدت في أماكن أخرى مثل كيش والوركاء والعقير وتل اسمر وفي مواضع أخرى ٠ وقد تقدمت الاشياء التي اهتدى الى اختراعها العراقيون القدماء وتنوعت في هذا العهد ٠ ولا سيما الكتابة وفن النحت ، والمباني بوجه عام ، وقد سبق أن أشرنا الى ان الشطر الثاني من طور الوركاء وهذا الطور الجديد أي « جمدة نصر » يؤلفان حقبة خاصة هي أقرب الى العهد التأريخي وعهد الحضارة الناضجة منها الى عصور ما قبل السلالات لا سيما وان الكتابة قد ظهرت في عصر الوركاء وتقدمت نوعا ما في عهد جمدة نصر ٠ ولكن مع ذلك كانت الكتابة لا تزال في مراحل تطورها الاولى ولم تستعمل لتدوين الحوادث والشؤون المهمة وسجلات الملوك بل اقتصرت على تدوين أمور بسيطة كواردات المعابد وتدوين المعاملات

البسيطة ولذلك حشرنا هذين العهدين في عصور قبل السلالات . وتمتاز الاواني الفخارية من عهد جمدة نصر بانها منقوشة بعدة الوان (Polychrome) ويغلب على الوانها اللون الاحمر القرمزي ، واشكال الاواني شبه كروية مفلطحة قصيرة الرقبة ، عريضة الحافات ولبعضها أربع عرى صغيرة عند الكتف . كما ان أبنية طور جمدة نصر تميز بنوع غريب من « اللبن » طويل ومقطعة يكاد يكون مربعا (يدعى بالالمانية Riemchen).

ويرجع الى طبقة تعود الى عهد جمدة نصر في الوركاء قطع فنية من المنحوتات تشير الى درجة راقية وصل اليها فن النحت ويمكن من يزور المتحف العراقي التأكد من ذلك اذ سيشاهد بعض هذه القطع الفنية ولا سيما اناء كبير قديم من المرمر نقش من الخارج بأربعة حقول مختلفة من منحوتات بالنحت البارز تمثل موكب أشخاص وكهنة عراة يحملون القرابين الى صورة منحوتة يرجح انها الهة . وبوسع الزائر أن يكون فكرة عن صور السومريين الاوائل الذين أوجدوا أقدم حضارة في العراق ، ونشاهد كذلك في المتحف العراقي نصبا من الحجر الاسود (حجر البازلت) منحوتا بالنحت البارز بمشهد يمثل صيد الاسود . ومع ان هذين الاثرين وجدا في الوركاء في طبقة بنائية تعود الى طور جمدة نصر الا ان المرجح انهما من بقايا الطور السابق أي طور الوركاء . ووجد منذ بضعة أعوام في مدينة الوركاء (وقد وجد فيها الاثران السابقان) رأس فتاة بالحجم الطبيعي منحوت نحتا دقيقا جميلا ، ويعد من أنفس الا ثار الفنية . وقد تفنن الناس في هذا العهد بصنع أواني الحجر الجميلة حيث كانوا يزينون خارجها بتطعيمها وترصيعها بأحجار جميلة بأطرزة بديعة .

ومما يقال في عهد جمدة نصر ظهور مدن جديدة مثل «جمدة نصر»



نماذج من الصور المنقوشة في جدران معبد العقير (من طور الوركاء)

«وفاره» (شروباك القديمة) وماري (تل الحريري) [١] وصارت مستوطنات أخرى مدنا مهمة مثل كيش وخفاجي • ويمتاز طور جمدة نصر من الناحية الآثارية بنوع خاص من أواني الفخار الملونة بعدة ألوان وهي ذوات أشكال وألوان جميلة تذكرنا بأواني الفخار من عهد حلف كما ذكرنا ذلك سابقا • ويتميز كذلك بأنواع خاصة من الخواتم الاسطوانية المنقوشة بصفوف من الحيوانات والاسماك والطيور ، وقد نقشت هذه المشاهد بطريقة تبدو فيها مختصرة جامدة على خلاف نقوش الخواتم الاسطوانية من عهد الوركاء التي تمتاز بنقشها الدقيق التعبير • وفي الكتابة اختزل في عدد العلامات المسمارية التي اخترعت في النصف الثاني من طور الوركاء من ٢٠٠٠ علامة الى نحو ٨٠٠ علامة ثم الى ٦٠٠ علامة في الاطوار التالية ، وكذلك توضح استعمال الطريقة الصوتية • وكثر استعمال أدوات

---

(١) انظر مجلة Syria, XVIII (1937), 6 ff.



نحت من المرمر يمثل رأس فتاة بالحجم الطبيعي ، وجد في الوركاء
ويرجح أنه يعود الى طور جمدة نصر

النحاس ، والمرجح انهم عرفوا البرونز ، وتقدم فن التعدين حتى انهم عرفوا طريقة فصل الفضة من الرصاص [1]
ووجد في جمدة نصر نفسها دكة اصطناعية (٣٠٠ × ٢٠٠م) أقيم فوقها بناء معقد (٩٢ × ٤٨ م) دعي بالقصر ، واذا صح ذلك فيكون هذا أقدم قصر من نوعه قبل ظهور قصور الأمراء والحاكمين بكثرة في عصر فجر السلالات (Langdon in **Der Alte Orient,** 26 (1928), 67)

ولكن الذي لا شك فيه ان نوعا من الحكم كان معروفا في العراق في العهد الشبيه بالكتابي ، كما ان ضبط الري واقامة السدود قد سار شوطا مهما .

---

(1) (Forbes, **Metallurgy in Antiquity** 1950, 210).

وملخص القول كان هـذا العهد (العهد الشبيه بالكتابى) ذا أهميـة خاصة فى ظهور الحضارة الناضجة فى القسم الجنوبى من العراق بحيث يمكن تسميته بطور تكوين الحضارة السومرية[١] وان عصر فجر السلالات عهد تبلور هذه الحضارة ، كما يتضح من الامور الهامة الآتية التى أنجزها سكان القدماء :ـ (١) رى منظم واسع (بمقياس كبير) ، واستتبع ذلك تكاثر السكان • (٢) تطور القرى الكبيرة الى المدن وظهور نظـام المدينـة ودول المدن (City - States) التى امتاز بها العصر التالى (عصر فجر السلالات)• (٣) نشوء نوع من نظام الحكم أهم ما يمتاز به الحكم الديمقراطى البدائى (الشورى) حيث يصرف شؤون مجتمع المدينة مجالس المشيخة وأهل المدينة (أنظر البحث الخاص بنظـام الحكم فى العـراق) • (٤) ظهور الكتـابة وتطورها • (٥) انتشار استعمال المعادن ولا سيما (النحاس) وبداية اتقان فن التعـديـن • (٦) ظهور الابنيـــة التذكارية (الفن التـــذكارى Monumental Architecture) كالمعابد والزقورات[٢] •

---

(١) Formative Period انظر
(H. Frankfort, **The Birth of Civilization,** 49 ff.)
(1) H. Frankfort, ibid.
(٢) حول ايجاز هذه الامور انظر
(2) Braidwood, **The Near East and the Foundations of Civilization.**

الفصل الخامس

الحضارة السومرية

وعصور فجر السلالات

١ – مقدمة في أبرز ميزات العراق الجغرافية :–

قبل ان نبدأ بالكلام على مظاهر الحضارة الناضجة التي نشأت في القسم الجنوبي من العراق من الاطوار التي بحثنا فيها سابقا يلزم علينا أن نمهد ذلك بمعرفة أبرز ما يمتاز به وادي الرافدين من الخصائص الجغرافية مما كان له أثر في سير تأريخه وتطور حضارته ، وسوف لا نتطرق الى التفاصيل الجغرافية الاخرى ، معتمدين في ذلك على معرفة الطالب بهذه التفاصيل .

ومع اننا لسنا من الذين يجعلون البيئة الجغرافية العامل الاول في نشوء الحضارات وتطورها وطبعها بطابع خاص ، الا انه لا يسعنا اهمال أثر الاوضاع الجغرافية في سير الحضارات والمجتمعات وأثر امكانيات البيئة الطبيعية اذا استغلها الانسان وسيطر عليها . كما انه لا يجوز اغفال حقيقة حضارية مهمة وهي ان أثر البيئة الطبيعية في حياة الانسان كان في الازمان القديمة أشد منه في الازمان الحديثة التي تقدم فيها الانسان في أساليبه العلمية الفنية بحيث نستطيع أن نضع لذلك قاعدة وهي ان أثر البيئة الطبيعية في حياة الانسان سار على أساس التضاؤل بالنسبة الى تقدم الانسان الحضاري . فحين كانت تتحكم في الانسان في عصوره الحجرية القديمة ، وكان طفيلياً عليها وخاضعا لاعظم التأثيرات صار مشاركا لها في الانتاج في العصر الحجري الحديث بأخذ المبادئة بيده حيث صار مثلها ينتج القوت والزراعة بيده ، وأخذ يقل أثر البيئة المطلق بانتقاله الى الحضارة حيث بدأ يسيطر عليها متنقلا

بذلك الى السيطرة على بيئته الاجتماعية بايجاد الحلول لمشاكل المجتمع الثاني، بعد تعقد الحياة الاجتماعية بظهور الحضارة .

١ ـ ولعل أول ما يجلب الانتباه في جغرافية وادي الرافدين ان هذه البلاد اقليم نهري عظيم ففيه نهران عظيمان يتبعهما عدد مهم من الروافد مما يجعل العراق[١] من الاقطار القلائل في الكرة الارضية التي تحوز على مثل هذه الانهار بهذا المقياس الكبير[٢] . ولما كان أكثر من نصف أراضي هذه البلاد تعتمد حياتها بالدرجة الاولى على زراعة الارواء لذلك صار تنظيم الري والسيطرة على الانهار من أبرز مقومات الحضارات القديمة في العراق .

٢ ـ يختلف العراق عن الاقاليم القليلة التي نشأت فيها الحضارات الاصلية الاولى مثل مصر بانه ذو امكانيات انتاجية عظمى وبانه من الممكن ان تنشأ فيه جماعات بشرية ودول منفصلة بعضها عن بعض ولها امكانيات

---

(١) لا يعلم بالضبط أصل اسم العراق ، والمرجح كثيرا انه كلمة فارسية (ولعلها الفارسية البهلوية) التي تعني السهل أو السواد أو البلاد السفلى ، ولعلها كما ذهب الباحث هرزفلد (أنظر لغة العرب ٤ : ٤٤١ فما بعد) معربة من «ايراك» (مثل ايران) ويوجد احتمال آخر هو أن لفظ العراق من الكلمات السومرية البائدة التي تعني «المستوطن» ، وهناك جملة مدن سومرية أشهرها «الوركاء» تكتب أسماؤها بعلامة تعني المستوطن . وذهب أكثر المفسرين العرب الى أن العراق يعني «الجرف» أو الساحل (أنظر تاج العروس وياقوت) . وكان العرب يطلقون على القسم الجنوبي من العراق اسم ارض السواد أو العراق ، والقسم الشمالي اسم الجزيرة وهو يطابق اسم ما بين النهرين اليوناني Mesopotamia وهو اسم صار يطلق أيضا على كل العراق . وصار اسم السواد والعراق مترادفين . والجدير بالذكر عن تاريخ استعمال اسم العراق أنه ورد في أواخر العهد الكشي (في حدود القرن الثاني عشر ق . م) اسم قطر على هيئة «أريقا» ، ويظن الاستاذ «أومستد» ان هذه أول اشارة الى اسم العراق الذي صار الاسم العربي لبلاد بابل .

(Olmstead, **History of Assyria,** P.60)

حول الاسماء الجغرافية الاخرى الخاصة بالعراق القديم أنظر الحاشية رقم (١) الص ٩٠ .

(٢) حول وصف دجلة والفرات والانهار التي شقها منهما ومن روافدهما سكان العراق راجع البحث الخاص بتاريخ الري في هذا الجزء وكذلك البحث الخاص بالزراعة .

اقتصادية تكفيها ، ولذلك امتاز وادي دجلة والفرات بانه أقل وحدة من وادي النيل من الناحية السياسية • فبلاد بابل مثلا أي من بغداد الى الجنوب ، يمكن أن تكون وحدة سياسية اقتصادية حيث تعتمد هذه المنطقة على الارواء النهري • وحتى في هذا الجزء أمكن لعدة دول مدن (City-states) أن تزدهر فيه جنبا الى جنب في عهد ازدهار الحضارة السومرية (٣٠٠٠-٢٤٠٠ ق • م) أي انه أمكن أن تقوم فيه وحدات اقتصادية وسياسية • ولكن بعض العوامل الاخرى التي سنذكرها عملت على اتحاد هذه الوحدات ودمجها في مملكة من بعد عهد دول المدن • واذا ما سرنا شمالا من بغداد نجد العراق تقطعه أنهار أخرى مهمة - ديالى والزابان والخابور والباليخ عدا امكان الارواء بالمطر - بحيث يمكن أن تنشأ وحدات اقتصادية وسياسية أخرى مستقلة ، والمثال على ذلك قيام الدولة الاشورية كدولة عظمى جنباً الى جنب مع دولة بلاد بابل في الجنوب • واذا قارنا العراق من هذه الناحية بمصر وجدنا فارقا عظيما ، فان وادي النيل المعتمدة حياته على نهر واحد يشق الوادي من الجنوب الى الشمال كان أميل الى الوحدة السياسية ، وفي الواقع بدأت هذه الوحدة فيه بمقياس مملكة القطر الموحد في عهد أقدم من العراق •

٣ - أما العوامل التي نوهنا بها من انها عملت على توحيد دول المدن السومرية في مملكة واحدة فتؤلف ميزة أخرى من ميزات جغرافية العراق التي أثرت في تأريخه تلك هي ان القسم الجنوبي من العراق والوسطى أيضا حديث التكوين من الناحية الجيولوجية[1] وتنقصه المواد اللازمة لبناء الحضارة الراقية كالخشب والحجر والمعادن الخ ، فعمدت دول المدن السومرية الى جلب هذه المواد بالتجارة الخارجية ، ولكن تضارب مصالحها وحاجة التجارة الخارجية الى تنظيم اجتماعي وسياسي أوسع والى سيطرة مركزية قد دعى الى جمع هذه الدول بوحدة قسرية بالحرب • وقد تم ذلك على يد سرجون الاكدي مؤسس السلالة الاكدية • كما ان تنظيم شؤون

(١) انظر الكلام على آثار العصور الحجرية •

الري بمقياس واسع استلزم أيضا قيام هذه الوحدة السياسية تعبيرا عن الوحدة الاقتصادية • وبالمقارنة مع وادي النيل نجد هذا القطر يتمتع بالاكتفاء الذاتي من ناحية الموارد أكثر من وادي الرافدين.•

٤ ـ تمتاز البيئة التي نشأت فيها حضارة وادي الرافدين بالعنف والشدة من ناحية تبدلات مواسمها وامتياز أنهارها ، واختلاف مناخها ونباتاتها باختلاف المناطق ، فالشتاء في بلاد سومر معتدل ويكون أقسى قليلا في بلاد أكد (بين بغداد والحلة تقريبا) ، ويسقط الصقيع في شمال العراق • فاذا قارنا مثلا النيل بدجلة أو الفرات وجدنا ان النيل يمتاز باطراد الفيضان والعودة عودة غير مصحوبة بالعنف والتدمير ، كما ان فيضان النيل (منذ حزيران تقريبا) يحدث في وقت يستفيد منه الناس للزرع ، والواقع ان زراعة القوم تبدأ من بعد الفيضان ، أما الحال في دجلة والفرات فان فيضانهما يقع في الوقت الذي يتهيأ فيه البشر الى الحصاد وجني الغلة • هذا الى عنف فيضانهما والحاجة للسيطرة عليهما الى قوى وجهود بشرية عظمى بحيث لا يسع المتتبع لحضارة العراق القديم الا أن يعجب بسكان العراق القديم ويحترم ما بذلوه من الجهود للسيطرة على نهرين من أعظم وأعنف انهار الدنيا •

لقد أدى هذا الحال الى أن تتصف الحضارة المصرية بالاعتداد والثقة بالنفس ، الاعتداد بانجازاتها وشعورها بسيطرتها على القوى الطبيعية بحيث انها جعلت رأس المجتمع الذي انجز هذه السيطرة الاها ، أي انها ألهت ملوكها الفراعنة (أنظر ولسون في Before Philosophy) • أما الملك في حضارة وادي الرافدين فلم يصر الهاً بل كان بشراً اعتيادياً يمتاز عن البشر الآخرين بان الآلهة التي بيدها كل شيء فوضته ليحكم البشر بالنيابة عنها • وسنجد انعكاس عنف الطبيعة في حضارة العراق القديم بصورة مفصلة أكثر في نظمها السياسية وشعائرها ومعتقداتها الدينية • فالانسان في العراق القديم لم يعتد بانجازاته ، وشغلته هذه الحياة بما تتطلبه من جهود عن التفكير

فى الحياة الاخرى والخلود فيها على نحو ما فعلت حضارة وادى النيل • كانت حضارة وادى الرافدين تمتاز بالحدة والتوتر وتوقع المفاجئات والفواجع • أما حضارة وادى النيل فكانت تتصف بالثقة والاطمئنان • وفى درسنا لاساطير الخليقة فى كل من الحضارتين نجد نظام الخلق فى حضارة وادى النيل وقد وجد منذ الازل من جانب الآلهة بدون كفاح ، أما الخلق فى حضارة وادى الرافدين فلم يتم الا بعد صراع واحتراب بين الآلهة التى تمثل قوى الكون المختلفة ، ويمتاز الكثير من هذه الآلهة بالعنف والقسوة والبطش مثل الاله انليل (اله الجو والهواء) ، على ما سيتضح لكم ذلك من دراسة حضارة وادى الرافدين فى الفصول الآتية •

٥ ـ ومن الظواهر البارزة فى جغرافية العراق مما كان لها أثر فى تأريخه ظاهرة تغيير الانهار مجاريها بمرور الازمان ، كما فعل الفرات ودجلة فى عصور مختلفة (انظر البحث الخاص فى تأريخ الرى) ، وكان هذا عاملا فى اندراس المدن وتحول المستوطنات وهجرانها بسبب تغير مجارى الانهار • فهناك جملة مدن مهمة كانت تقع على الفرات فى مجراه القديم وهى الآن فى بادية جرداء تتعذر فيها الحياة • وكانت واسط الى عهد قريب تقع على الدجيلة[١] ولكنها الآن مهجورة لرجوع مجرى دجلة الى مجراه الاصلى ، الى غير ذلك من الامثلة الكثيرة •

ونختتم كلامنا على خصائص العراق الجغرافية بذكر ميزة أخرى مهمة أثرت فى تأريخه وهى تعرض بلاد وادى الرافدين الى الخارج بالمقارنة مع مصر التى يمكن عدها اقليما مقفولا تقريبا من هذه الناحية • وقد جعلت هذه الميزة العراق معرضا الى هجرات الاقوام العنيفة والى غزواتها المتكررة واختلاط السكان والحضارات فيه الى درجة كبيرة • ففى الغرب لا يوجد بينه وبين جزيرة العرب حاجز مانع مما جعله محطاً لهجرات البدو

(١) حول تفسير النهر المندرس المسمى دجيلة وبتعيينه بأحد الانهار العظمى التى شقها أحد الملوك السومريين راجع الكلام على ملوك سلالة لجش فى عصور فجر السلالات •

الساميين منذ أقدم العهود ، وتعرض من الشرق والشمال الشرقية الى هجرات الاقوام الهندية الاوربية أيضاً •

٢ ـ عصور فجر السلالات :ـ

عرفنا فى الفصلين السابقين شيئاً عن الاطوار التى سميناها بعصور ما قبل السلالات • وسميت كذلك لانها سبقت ظهور السلالات الحاكمة • وقد سميناها أيضا بالطور «الحجرى ـ المعدنى» حيث بدأ الانسان فى العراق القديم يستعمل المعدن الى جانب الحجر • وقد اعتبرناها كذلك فجر الحضارة لان الانسان اهتدى فيها الى اختراعات وصناعات مهمة مكنته من الانتقال الى طور الحضارة الراقية • وقلنا ان أبرز هذه الاختراعات هى : (١) التعدين • (٢) وسائل للمواصلات سريعة مثل العربة ذات العجلة والسفينة الشراعية • (٣) دولاب الخزاف • (٤) اتساع الزراعة وانتقال القرى الى أوائل المدن الكبيرة • (٥) وقد تم فى الاطوار الاخيرة من هذا العهد اختراعات مهمة لا حضارة بدونها مثل الكتابة والمبانى العامة والفنون الجميلة كالنحت والتصوير • فعمل كل ذلك على نشوء الحضارة السومرية الراقية أو حضارة وادى الرافدين الاول فى جنوب العراق فى نهاية الالف الرابع قبل الميلاد فلنأخذ شيئا عن هذه الحضارة فى هذا الفصل من بحثنا •

تسمى الازمان التى عقبت آخر عهد من عصور ما قبل السلالات بعصور فجر السلالات[١] وبوسعنا أن نحدد هذه العهود من نهاية «جمدة نصر» وهو آخر طور من أطوار ما قبل السلالات فى بداية الالف الثالث ونهايتها فى قيام السلالة الاكدية فى منتصف الالف الثالث (فى حدود

---

(١) (Early Dynastic Periods) وهذه هى التسمية الشائعة لهذه العهود وقد تسمى فى بعض الكتب القديمة باسم عصر ما قبل سرجون (Pre-Sargonic) • وفى بعض المؤلفات الالمانية باسم عصر لجش الاول والثاني والثالث • كما نجد اسما آخر هو عصر «اللبن المستوى المحدب» اشارة الى شيوع هذه النوع من اللبن فى الابنية ولا سيما فى الطور الثانى من عصور فجر السلالات على ما سنذكر فى متن الكتاب •

٢٤٠٠ ق ٠ م) وهى السلالة التى اشتهرت بمؤسسها سرجون الاكدى الذى وحد البلاد فى مملكة واحدة كبيرة ٠ وعلى هذا فقد دامت عصور فجر السلالات زهاء ستة قرون ، نمت فيها حضارة العراق القديم ونضجت وازدهرت وهذه هى الحضارة التى أصطلح المؤرخون على تسميتها بالحضارة السومرية ٠

أما تسمية هذه الحقبة بعصور فجر السلالات فلأن العراق كان فى فجر حياته السياسية ، فلم تنشأ بعد الممالك الكبيرة والامبراطوريات المعظمة التى قامت فيما بعد هذه العصور ٠ وان البلاد بوجه عام لم تتوحد نهائيا تحت مملكة كبيرة واحدة الا فى أواخر عصر فجر السلالات بظهور سلالة سرجون الاكدى ٠ فانتقل العراق من عهد دويلات المدن التى امتازت بها عصور فجر السلالات الى طور المملكة الكبيرة والامبراطورية ٠ وعلى الرغم من عدنا هذه العصور بدء تكوين الممالك الا انها كانت عهد نمو الحضارة السومرية وازدهارها التى كانت أولى الحضارات البشرية الاصلية ، وأساسا لجميع حضارات العراق القديم فيما بعد ولحضارات أخرى نشأت فى أنحاء الشرق الادنى ، فمن الحضارات التى اشتقت من حضارة السومريين حضارتان نشأتا فى العراق ، وهما الحضارة البابلية والحضارة الآشورية ونشأت فى آسية الصغرى حضارة الحثيين التى اعتمدت فى أصولها على الحضارة السومرية بحيث يصح ان نعدها حضارة فرعية من حضارة العراق القديم الاولى ٠ ونشأت فى بلاد عيلام الى الشرق من دجلة حضارة قديمة اعتمدت كذلك فى أسسها ومقوماتها على الحضارة السومرية ٠ والى هذه الحضارات الفرعية التى اشتقت من حضارة العراق القديم الاولى تأثرت حضارات الشرق الاخرى بالعراق كما أثبتت نتائج التنقيبات الحديثة ٠

وقد تمكن الباحثون بدرسهم آثار عصر فجر السلالات التى عثر عليها فى مواضع متعددة من العراق من تقسيم ستة القرون التى يقدر بها زمن

تلك العهود الى ثلاثة أطوار أو ثلاث مراحل حضارية[١] يتميز كل منها بخصائص حضارية بارزة ويطلق عليها اسم عصر فجر السلالات الاول والثاني والثالث بحسب تسلسلها الزمني • وقد عقب الطور الاول منها عصر «جمدة نصر» ويعده بعض الباحثين بمثابة طور انتقال من الطور السابق له ومع ذلك فقد جاءتنا من هذا الطور آثار مميزة مثل الختوم الاسطوانية الخاصة به المنقوشة بزخارف تشبه زخرفة النسيج ، ووجدت معابد مهمة في منطقة ديالى مثل (تل أسمر) (اشنونا القديمة) وخفاجي شيدت لبعض الآلهة السومرية في هذا العهد • كما تميز هذا الطور بنوع من الاواني الفخارية مصبوغة بلون أحمر قرمزي (Scarlet-ware)

ولعل أبرز ما جاءنا من طور فجر السلالات الثاني (٢٨٠٠-٢٦٠٠ ق • م •) المنحوتات الجميلة المجسمة التي وجدت في المواضع القديمة في منطقةديالى (تل أسمر وتل أجرب وخفاجي) • وهذه أصنام أو أوثان وتماثيل أشخاص منحوتة نحتا مجسما يشير الى ازدهار الحضارة والفن وبلوغهما الذروة ، وتزين هذه التماثيل الآن احدى قاعات المتحف العراقي[٢] ، وكذلك متحف «المعهد الشرقي» في شيكاغو وهو المعهد الذي نقب في منطقة ديالى منذ ١٩٣٠ • ويمتاز فن النحت السومري في هذا العهد باننا نجد في التماثيل التي تصور البشر المسحة الهندسية التكعيبية (Geometric) ونلاحظ فيها اهتمام الفنان بالتناظر ما بين أجزاء التمثال الآدمي ولكنه جامد نوعا ما باستثناء ملامح الوجه الحية والسبب في ذلك ان معظم هذه التماثيل قد صنع لاغراض دينية مما قيد حرية الفنان بعرف خاص • ويشذ عن ذلك

---

(١) ان التسمية التي اقترحها الاستاذ «هنري فرنكفورت» لهذه العهود (أي عصور فجر السلالات) في عام ١٩٣٦ وكذلك التقسيمات التي اقترحها مستندة بالدرجة الاولى الى نتائج التنقيبات التي قامت بها تحت رئاسته جامعة شيكاغو في مواضع ديالى مثل تل اسمر وتل أجرب وخفاجي•

(٢) أنظر (H. Frankfort, **Sculpture from the Diyalah Region**).

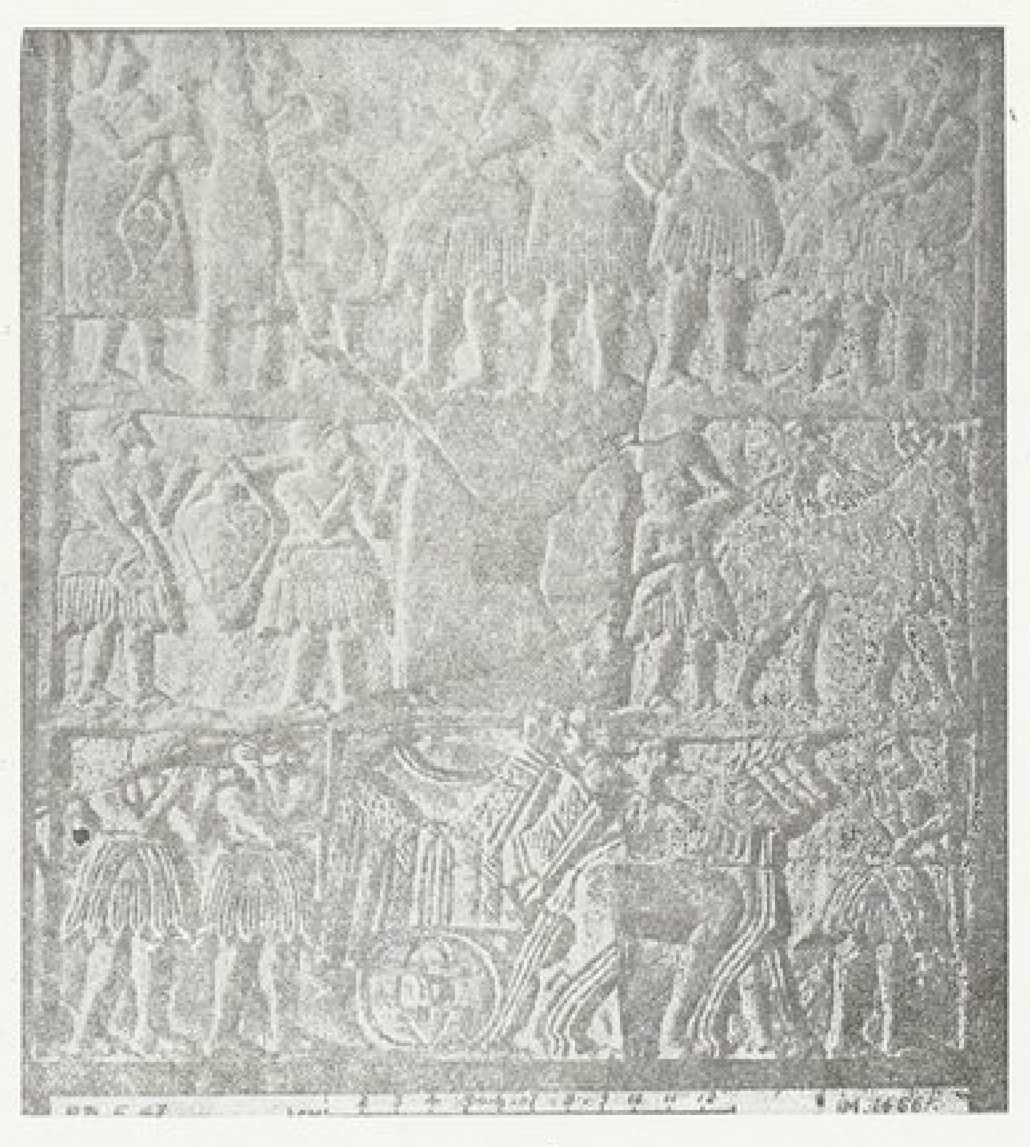
حرية الفنان التي أبدع بها في نحت الحيوانات حيث وفق الفنان الى اظهار اسمى التقاطيع والتمثيل الواقعي ، كما يشهد على ذلك قطع فنية نادرة جاءتنا من هذا العهد (انظر بعضهافي هذا الكتاب)ووجدت من هذا العهد نماذج من أولى القصور الملوكية كالقصر الذي وجد في كيش[1] وهو ذو صفوف من الاعمدة ووجد قصر من هذا العهد ايضا في «اريدو» (مجلة سومر ١٩٥٠ ، ٣١) .

وقد بلغت الحضارة السومرية في الطور الثالث من فجر السلالات نهاية نضجها كما تثبت ذلك الآثار النفيسة التي وجدها المنقبون في مدن العراق القديمة ، ولا سيما آثار المقبرة الملوكية التي وجدت في أور والتي تزين الآن ثلاثة متاحف من متاحف العالم الشهيرة ، وهي المتحف العراقي والمتحف البريطاني ومتحف جامعة بنسلفانية فقد زودتنا التنقيبات في أور بنماذج غنية نفيسة لحضارة السومريين في آخر أدوارها ومن بين ذلك أدوات الذهب الكثيرة كالخناجر والقيثارات ومن بين ذلك قيثارة تعود الى «شبعاد» ذات ١١ مفتاحا من الذهب لاتصال الاوتار ، والاكواب والخوذ وتماثيل الحيوانات وكثير منها من الذهب الخالص المسبوك والمصنوع صنعا دقيقا يشير الى فن رائع جميل ويمكن مشاهدة نماذج من هذه الآثار في المتحف العراقي من المقابر والجدير بالملاحظة بصدد ذكر هذه المقبرة الملوكية انه تم العثور على مجموعات من المقابر من أطوار فجر السلالات مما يصح تسميتها بالقبور الملوكية عدا المقبرة الملكية المشهورة التي وجدت في أور، ونعني بهذه المقابر انها تختلف عن القبور الاعتيادية بل تعود الى حكام وأمراء بما تحتويه من أثاث نفيسة . وان وجود مثل هذه المقابر هو الذي يبرر لنا تسمية هذا العهد بعصر فجر السلالات بالرغم من جهلنا بأخبار السلالات الحاكمة من أطواره الاولى واقتصار ذلك على الطور الثالث . وقد سرت عادة هذه القبور الملوكية الى

---

(١) انظر
Field Museum Antropology Memoirs, I (1929)

شمال العراق فقد وجدت نماذج منها فى مدينة «مارى» (تل الحريرى الآن • انظر مجلة (Syria XVIII, 1937, 60)) • والعادة فى مثل هذه القبور انها تكون معقودة اما بالآجر أو الحجر أو اللبن ايضا • وقد وجدت نماذج منها فى كيش من الطور الاول من عصر فجر السلالات (Watelin, **Kish,** IV (1924), 29, 30) حيث وجدت فى بعضها أثاث وأدوات ومن بين ذلك عربات ذات عجلات صلدة • وهذا يؤيد استعمال



الشكل ـ ١٠

لوحة من النحت البارز (من عصر فجر السلالات)

العربات كما وجدت نماذج لها في أور أيضا • ويوجد في المتحف العراقي نموذج لعربة من البرونز تجرهـا الحمر الوحشية (انظر مجلة (Antiquity, IX (1935) 133) وقد استعملوا نوعين من العربات • نوع للمواصلات ونوع للحرب • وبمناسبة ذكر العربات نقول ان استعمالها في ذلك العهد الواغل في القدم كان بالنسبة الى الاقوام المجاورة بمثابة استعمال المصفحات والدبابات • وقد تأخر استعمال العربات في حضارة مصر الى عهد الهكسوس (١٧٠٠ ق ٠ م) •

ومع وجود المقابر الملوكية في الطورين الاولين من عصر فجر السلالات الا انه غطت على تلك المقابر المقبرة الملكية الشهيرة التي وجدت في أور ، وارخ عهدها الى الطور الثالث من عصر فجر السلالات (Woolley, **Ur Excavations**, II, The Royal **Cemetery**) • وكانت هذه القبور كما وجدت في أور عبارة عن ابنية تحت الارض على غرار قبور الفراعنة في «ابيدوس» بعضها مؤلف من ثلاث حجرات متوازية ، مسقفة بعقادة تكون في قسم منها عقادة غير صحيحة من النوع المعروف بـ(Corbelled) وقد وجد ان بعضها مسقف بقبة من العقادة الصحيحة من حجر الرخام (**Childe, New Light,** 151) قد وجد في بعض تلك المقابر مقابر الامراء والحكام وهم مدفونون بكامل عدتهم ووجدمعهم جميع ما يحتاجون اليه من أثاث نفيسة حتى الحيوانات وسواق العربات واتباعهم المسلحين وموسيقيهم وسائهم وجواريهم • وقد وجد في أحد القبور الملكية في أور ما لا يقل عن ٥٩ شخصا بينهم ستة من العسكريين و٩ نساء مزينات بأحسن الجواهر والحلى • والمرجح في هذه القبور انهم كانوا يقيمون فوق القبر معبدا صغيرا يتصل بالقبر الى الاسفل بأنابيب من الفخار ، ولكن لم يعثر على بناء كامل من هذه المعابد •

وقد اختلف الباحثون في تفسير هذه المقابر والرأى القديم الشائع ان

الحكام السومريين كانوا يسيرون على عادة تضحية اتباعهم عند موتهم ويدفنون معهم أثاثهم لما لذلك من علاقة بالعالم الاسفل أو عالم الاموات • ومن الباحثين من يرى ان الملحودين في هذه المقابر لا يمثلون أمراء أو حكاما بل ان هذا النوع من الدفن له علاقة بطقوس وشعائر دينية أو «دراما» دينية تجرى فى السنة الجديدة للآلهة ولجلب الخصب ولا سيما ما يظن انه كان هناك نوع من الزواج الالهى المقدس يجرى بين كاهن وكاهنة يقتلان من بعد ذلك[١] ولكن الرأى الشائع المحتمل هو الرأي الاول الذى ذهب اليه «وولى» الذى كشف عن المقابر الملوكية في أور وقد وجدت مثل هذه العـــادة من الدفن فى الصين القديمة وبين الاقوام الهندية الاوربية[٢] •

وجائتنا آثار أخرى مهمة من مواضع فى جنوبى العـراق مثـل «تلو» (لجش القديمة) وتل العبيد قرب أور المقير ومن كيش وهى متنوعة تشمل مختلف الآلات والادوات ونتاج الفنون كالنحت والتطعيم بالحجر • وكلها تشير الى تنوع الحضارة وارتقائها فى جميع مظـاهر الحيـاة • والى الآثار المنقولة خلف لنا سكان العراق الاقدمون نماذج مهمة من أبنية هذا العهـد كالقصور والمعابد وكلها تدل على تقدم فن العمارة وذوق راق فيه • ووجدت بعض الاشياء العمارية مثل القوس الصحيح والقبة (أى العقادة) فى مدينة أور وكانت العقادة تعزى الى الادوار المتـأخرة والى أصـل خارجى ولكن ثبت الآن أصلها السومرى الاول فقد جائنا نموذج من القوس الصحيح من عصر الوركاء فى «اريدو» • وتقدم فن التعدين وسبك المعـادن والصيـاغة تقدما باهرا كما يلاحظ فى الآثار التى جائتنا من الاطوار الاخيرة من عصر

---

(١) انظر
F. Bohl in **ZA,** XXXIX (1930) 83 ff. ; S. Smith in Jour. of the Royal Asiatic Soc. (1928) 849 ff.

(٢) انظر
L.B. Paton, **Spiritisim and the Cult of the Dead in Antiquity** (New York, 1921), 47, ff.

فجر السلالات ويمكنكم رؤية نماذج منها في المتحف العراقي • ولعل أهم الاضافات التي أنجزها العراقيون في عصور فجر السلالات لتقدم الحضارة اتقانهم لفن التعدين وايجادهم أولى الاجهزة الصناعية واستغلال فن التعدين في الحروب والفنون العسكرية • وكذلك تقدم فن الكتابة بحيث صارت واسطة لكتابة مختلف شؤون الحياة وأثرت في شعوب الشرق الادنى القديم حيث اقتبسها الكثير منهم • وقد استعملوا نوعا من النحاس المخلوط بالقصدير بنسبة ٦-١٠ من القصدير • وكان مصدر النحاس السومري من عمان وايران والاناضول أما مصدر القصدير فمجهول لدينا[١] كما ان المعدنين اتقنوا فن السبك والصب وطريق اللحم بالاسلاك والظاهر ان انتاج المعدنين لم يكن لسواد الناس بل انه خصص بالدرجة الاولى لصنع الاسلحة وتزويد الدولة وأمراء دول المدن بالادوات والاثاث • وقد وجدت نماذج كثيرة من الاسلحة كالخناجر والسيوف والفؤوس وصنعوا أثاثا نفيسة من المعادن كالمرايا والاباريق والاواني الخ •

وقد أضيف مصدر جديد مهم منذ فجر السلالات الى مصادر معرفتنا بحضارة العراق القديم • فالى الآثار المادية الكثيرة التي مر بنا ايجاز وصفها بدأت الاخبار المدونة تأتينا من مدن العراق • فان الكتابة التي اهتدى اليها العراقيون في أواخر العهد (الحجري-المعدني) في منتصف عصر الوركاء أخذت تنضج وانتشر استعمالها ودونت بها في عصور فجر السلالات أعمال الملوك والامراء وسجلاتهم الرسمية وعلاقاتهم بغيرهم من الحكام ودونت بها كذلك شؤون الناس العامة كالمعاملات التجارية والاحوال الشخصية والمراسلات والآداب والشؤون الدينية كالاساطير والعادات • ولهذه الاسباب تعد بداية فجر السلالات بداية عهد التدوين أو عصر التأريخ ، ويرجع الفضل في اختراع الكتابة الى السومريين على ما يرجح كثيرا • فلذلك يغلب على اللغة التي دونت بها تلك الاشياء اللغة

Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952), 157.

السومرية • وكذلك كانت السلالات التي حكمت في العراق في هذا العصر من السومريين • وسنحاول معرفة شيء عن السومريين بعد قليل •

ويقابل عصر فجر السلالات في العراق النصف الاول من عهد المملكة القديمة في مصر «٣٢٠٠-٢٢٧٠ ق • م ••» وكان هذا العهد كذلك عهدا مزدهرا في تاريخ الحضارة المصرية • حيث نمت فيه تلك الحضارة ونضجت بعد ان نشأت من الاطوار البدائية التي تسمى كذلك بعصور ما قبل السلالات وقد أشرنا فيما سبق الى وجود علاقات حضارية بين العراق ومصر في الاطوار الاولى من نشوء الحضارة فيهما • وأشرنا كذلك الى وجود تأثيرات من الحضارة السومرية في اطوارها الاولى • وكانت مصر في بداية عهد المملكة القديمة كذلك في المراحل الاولى من تكوينها السياسي • وبعد أن توحد القطر في عصر الاهرام «٢٨١٥-٢٢٧٠» قبل الميلاد ازدهرت الحضارة المصرية وقد شمل عصر الاهرام عهد أربع سلالات من السلالة الثالثة الى السادسة وتقابل السلالات الثانية والثالثة والرابعة عصر فجر السلالات في العراق • أما زمن السلالة الخامسة وجزء من عهد السلالة السادسة فيقابل العهد الاكدي الذي عقب عصر فجر السلالات في العراق •

هذا ولم تقتصر حضارة عصور فجر السلالات على القسم الجنوبي من العراق بل وجدت فيمواضع اخرى فيجميع العراق وبوجه خاص فيمواضع مهمة في ديالى مثل خفاجي وتل أسمر وتل أجرب حيث وجدت فيها آثار فنية نفيسة من عصر فجر السلالات،ووجدت مراكزمنالحضارة السومريةمنعصر فجر السلالات في أنحاء أخرى من الشرق الادنى ففي منطقة الفرات الاوسط في منطقة «ماري» تل الحريري الآن على الفرات (قرب الحدود السورية) وجدت حضارة سومرية معادلة لحضارة السومريين في العراق • ووجد في منطقة الخابور في موضعين يدعيان «شغار بزار» «وبراك» على الخابور كذلك مستوطنات قديمة تبتدأ من عصور ما قبل السلالات ، وازدهرت فيها الحضارة السومرية من عصر فجر السلالات •

السومريون :ـ

ان سهولة متناول الآثار التي خلفها لنا السومريون وامكان درسها في قاعات المتحف العراقي تغنينا عن أن نسهب القول فيها أكثر مما ذكرنا[١] فيحسن بنا أن ننتقل الى ناحية أخرى من عصور فجر السلالات فنأخذ شيئا عن السومريين الذين يعزى اليهم القسط الاوفر في نشوء حضارة العراق القديم ٠

فمن هم هؤلاء السومريون ؟ وما أصلهم ؟ ومن أين أتو الى العراق ومتى كان ذلك ؟ والواقع انه ليس بالامكان أن نجيب جوابا قاطعا على هذه الاسئلة لانها من القضايا التأريخية التي لا يصل البحث الى حلها حلا نهائيا قاطعا ٠ وانما هناك فروض وآراء ارتآها الباحثون لحل هذه القضية ، فمن جملة الامور التي نعرفها ان الاكديين وغيرهم من الاقوام السامية التي نزحت الى العراق منذ أقدم الازمان جنبا الى جنب مع السومريين سموا جنوبي العراق ، وهو القسم الذي قطنه السومريون وانشأوا فيه مدنيتهم ، باسم «مات شوميريم» أي بلاد السومريين وكذلك سمي السومريون أنفسهم ٠ وهذا أول ما يعني انه كان يقطن في العراق قوم غير الاكديين الساميين لهم لغة وميزات خاصة بهم ٠

وبوسعنا ان نفترض ان هؤلاء القوم الذين سموا « بالسومريين » قد تحدروا من الاقوام التي قطنت العراق في عصور ما قبل التأريخ وهي العصور التي سبقت عصر فجر السلالات ، وانهم عرفوا باسم خاص وهو اسم السومريين في الازمنة التأريخية نسبة الى الجزء الخاص من العراق الذي تمركزوا فيه وهو القسم الجنوبي الذي سمي باسم

(١) انظر مع ذلك المباحث الخاصة بحضارة العراق ٠

«شومر» او «سومر»[١] . ولعل اقوى ما يجعل هذه الفرضية رأيا قريبا من الواقع ان أسس الحضارة التى سميناها بالحضارة السومرية والتى ازدهرت فى عصر فجر السلالات ، يمكن اقتفاؤها الى الاطوار الحضارية التى سميناها بعصور ما قبل السلالات مما يكون استمرارا حضاريا ، أى ان اصول الحضارة السومرية نشأت فى العراق ويمكن تتبع أسسها واصولها فيه منذ أقدم الازمان . فبامكاننا مثلا أن ندعو أهل طور العبيد من السومريين قياسا على ظهور أبرز مقومات الحضارات السومرية فيه كالمعابد والقرى على الرغم من اننا نجهل اللغة التى تكلم بها أهل العبيد[٢] .

ومن الباحثين من يذهب الى ان السومريين قوم أجانب نزحوا الى العراق من موضع ما فى شرق العراق او فى شماله الشرقى وذلك فى منتصف الالف الرابع ، منذ المنتصف الثانى من عصر الوركاء وسموا بالسومريين وانهم هم الذين ادخلوا الكتابة والخواتم الاسطوانية وفن النحت وفن

---

(١) وقد ورد فى الصيغة السومرية بمجموعة من العلامات المسمارية (KI - EN - GI) وتلفظ «شومر» ، وكثيرا ما ترد هذه التسمية مع تسمية أخرى هى «اكد» وتكتب بالعلامات المسمارية (KI - URI) وسنذكر فيما بعد أن لقب «ملك سومر واكد» قد بدأ استعماله من بعد العهد الاكدى . ومع انه لا توجد حدود واضحة بين ما يسمى «بلاد سومر» وبين «بلاد أكد» الا ان القسم الجنوبى بوجه عام هو بلاد سومر . وتتمركز الحضارة السومرية فى عصر فجر السلالات فى لوائى المنتفك والديوانية ، وأشهر مدنها : «نفر» و «أدب» (بسمى الآن) و «شروباك» (فاره الآن) و «اوما» (تل جوخة) و «لارسه» (السنكرة) و «الوركاء» و «أور» و «أريدو» و «لجش» وغيرها . أما بلاد أكد فتقع الى الشمال من بلاد سومر ويمكن تحديدها باشهر مدنها مثل «أكد» (فى منطقة اليوسفية والمحمودية) و «سبار» (ابو حبه الآن) و «اوبس» و «كوثى» (تل ابراهيم) و «كيش» (الاحيمر) و «بابل» و «دلبات» و «بورسبا» (برس نمرود) وغيرها . وقد يطلق على القسمين ولا سيما فى العصور المتأخرة اسم بلاد بابل (Babylonia) كما يطلق على القسم الشمالى أى موطن الآشوريين اسم بلاد آشور (Assyria)

(٢) انظر **Childe, New Light** . وكذلك انظر
H. Frankfort, **Archeology and the Sumerian Problem (1932),** 18 ff.

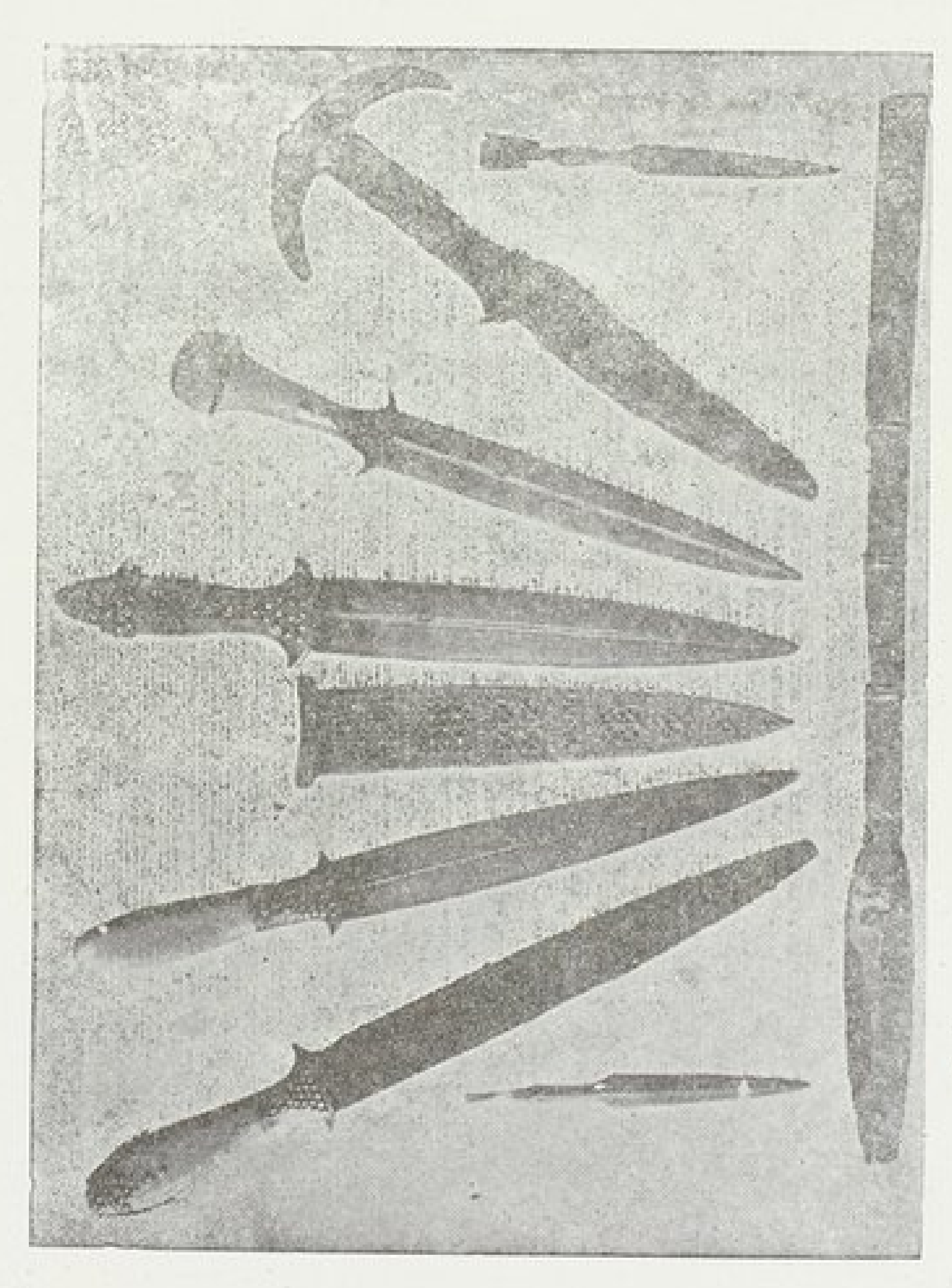
العمارة[١] ، ومما يلاحظ فى هذه الفرضية انها لا تثبت أمام النقد وأخذت تفقد كثيرا من وجاهتها في السنين الاخيرة • اذ انها تنهار أمام ما أسلفناه سابقا من العثور حديثا على آثار وأبنية في العراق من عصور ما قبل السلالات وهي تتصف بالخصائص الاساسية للحضارة السومرية في الاطوار التالية مما يشير الى استمرار الحضارة العراقية وامكان تتبع أصولها وأسسها الى عصور ما قبل التأريخ بدون أن نضطر الى هجرة قوم من الخـــارج لتعليل نشوء الحضارة السومرية في القسم الجنوبي من العراق أي انه مهما كان أصل السومريين والمهد الذي نزحوا منه فان ما نسميه بالحضارة السومرية قد نشأت في العراق كما رأينا • ومن الباحثين من يرى انه كان في العراق الوسطى والجنوبي قوم سبقوا السومريين وهم غير ساميين كما يستدل على ذلك من أسماء مدن غريبة مثل «شروباك» و «لراك» و «زمبر» و «اريدو» التي يبدو عليها وكأنها عيلامية •

هذا وليس بامكاننا أن نستعين بالانتروبولوجيا (علم الانسان) لمعرفة العرق أو الرس الذي يرجع اليه هؤلاء السومريون ، فأولا لانه لما تأتنا نماذج كثيرة من الهياكل العظمية تمكننا من معرفة الاوصاف الطبيعية بوجه شامل وثانيا لان ما جاءتنا من هذه الهياكل منذ أقدم العصور ، ولا سيما من عصور ما قبل السلالات وعصور فجر السلالات ، لا تشير الى وجود عرق أو رس واحد من البشر • وانما يصح ان نقول انه غلب على سكان العراق منذ أقدم العصور جنسان ، وهما جنس حوض البحر الابيض المتوسط الذي يمتاز بطول الرأس ، واليه ينتمي الساميون ، ثم جنس آخر يمتاز بانه عريض الرأس • وبوسعنا ان نستنتج شيئين من هذه الحقيقة وهما أولا لم يقتصر تأريخ الاقوام في العراق منذ أقدم العصور على عرق واحد وانما قطنه عدة أقوام أهمهم الساميون الذين طغوا على معظم أجزاء الشرق الادنى وقد ثبت

---

(٢) انظر Speiser in JAOS, Supplement 4 (1939), 29 ff.
أنظر كذلك المراجع الاخرى فى آخر كل فصل فى نهاية الكتاب •

وجود هؤلاء منذ أقدم الازمان وانهم عاشوا مع السومريين • وثانيا حتى لو فرض وجود عرق خاص بالسومريين فان هذا العرق لم يبق خالصا وانما اختلط بالاقوام الاخرى التي كانت هجراتها الى العـــراق والى الاجزاء



نماذج من خناجر الذهب الجميلة وجدت في المقبرة الملوكية في أور ويرجع زمنها الى أواخر عصور فجر السلالات

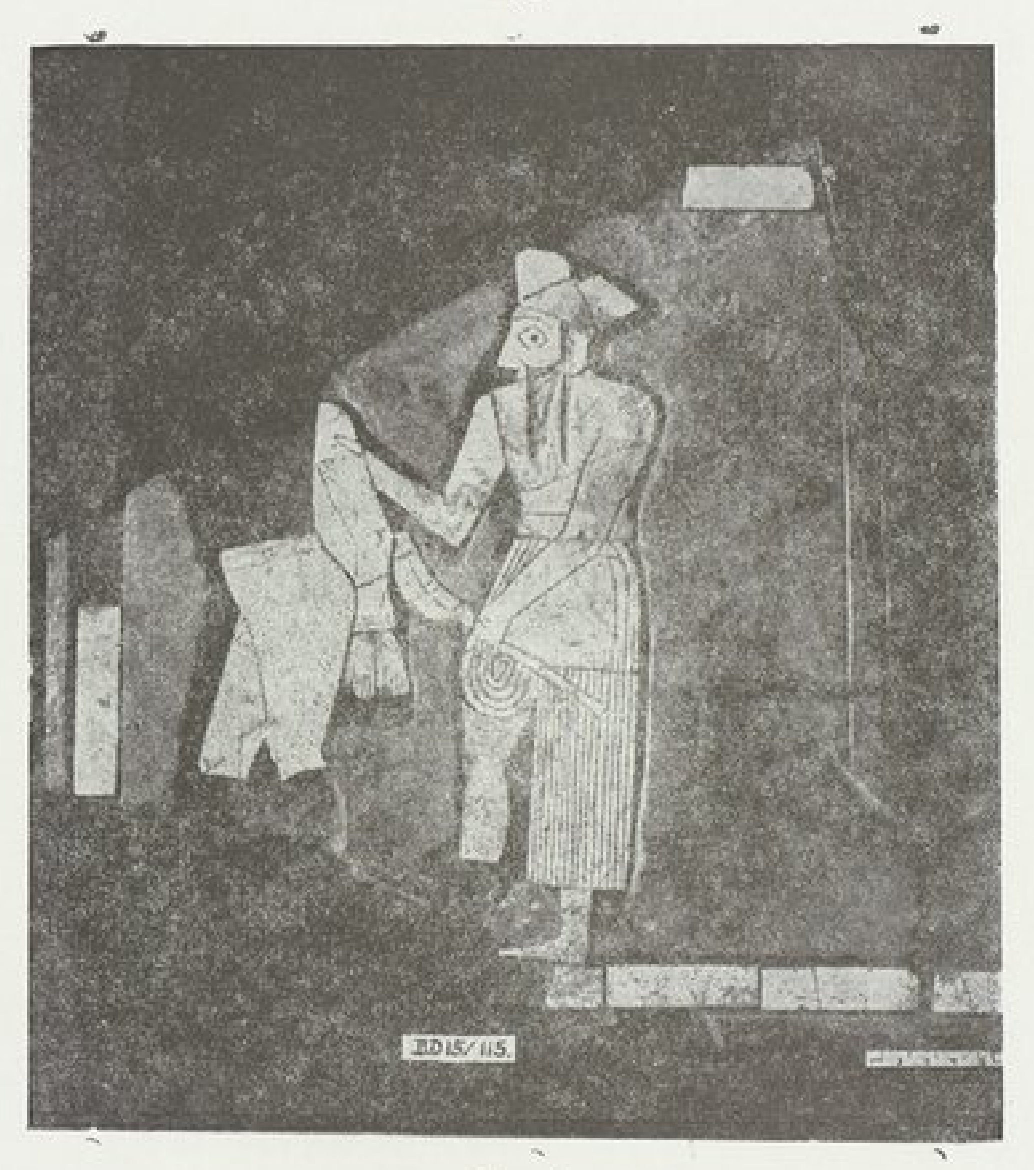
الاخرى من الشرق الادنى مستمرة منذ عصور ما قبل التأريخ • وكل ما يمكن قوله عن السومريين ان بحثنا عنهم ينبغي أن يكون من الناحية اللغوية لا العرقية (الرسية) فكل ما عندنا لغة سومرية تكلم بها قوم نسميهم بالسومريين لايؤلفون عرقا خالصا كما تشير الى ذلك الهياكل العظمية المكتشفة، فلم يوجد نوع خالص فبعض الهياكل من نوع عرق البحر المتوسط من أهل الرؤوس الطويلة ، كما ان النوع الآخر من الهياكل من شكل الرؤوس المدورة من أهل الجبال ومن الجهات الشمالية الشرقية (انظر مثلا نتائج درس الهياكل العظمية المكتشفة في حسونة واريدو) (مجلة سومر ١٩٤٩ ، ١٩٥٠) وكذلك الهياكل العظمية التي وجدت في مواضع مختلفة من عصر فجر السلالات (Frankfort, **The Birth of Civilization** (1950)

وخلاصة القول انه مهما كان أصل السومريين والمهد الذي نزحوا منه فالامر المهم من الناحية الحضارية اننا نعرف نشوء حضارتهم وتطورها ومراحل ذلك التطور وخصائصها وانها نشأت في القسم الجنوبي من العراق• كما ان البحث في أصلهم وعرقهم من الامور التي لا توصل الباحث الى شيء على فرض انه يستطيع ان يعرف ذلك في المستقبل •

أما اللغة السومرية فهي غريبة في مفرداتها وتراكيبها ولم يتمكن العلماء بعد من تصنيفها وارجاعها الى صنف من أصناف اللغات البشرية المعروفة • ولعل أقرب عائلة لغوية[١] تشبهها هي العائلة المسماة «الاورال ـ الطاي» التي تنتمي اليها اللغة المغولية والتركية والمجرية وغيرها • ومن الباحثين من يرى ان اللغة السومرية يمكن ارجاعها الى عائلة اللغات «اليافثية ـ القوقازية» التي ظهرت وانتشرت في أطراف القوقاز وفي شمال الهلال

---

(١) ويقصد بالعائلة اللغوية (Family of Languages) عدة لغات انحدرت من أصل واحد وتتشابه في مفرداتها ونحوها اى تركيبها ، كعائلة اللغات السامية (وتشمل العربية والبابلية والآشورية والعبرانية والفينيقية والكنعانية والآرامية والحبشية واللغات العربية الجنوبية) وعائلة اللغات الهندية الاوربية والعائلة المسماة بعائلة «الاورال ـ الطاي» •



نموذج من فن التكفيت (التطعيم)
من عصور فجر السلالات

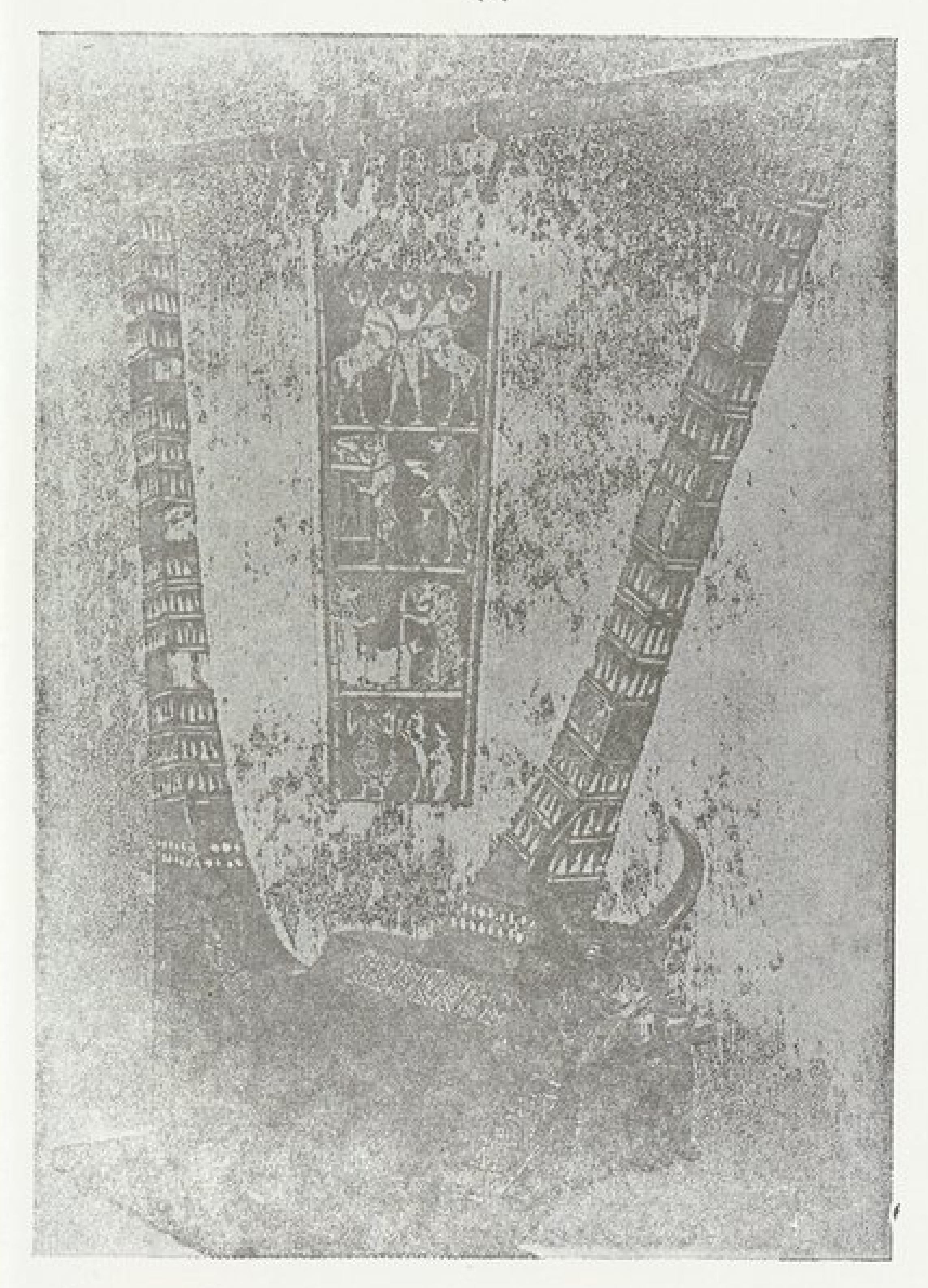
الخصيب • ومما يقال عن اللغة السومرية انها ليست من عائلة اللغات السامية ولا من عائلة اللغات الهندية ـ الاوربية • وهي من نوع اللغات التي تسمى باللغات الملصقة (Agglutinative) كاللغة التركية والهنغارية والفنلندية فمن خصائص الالصاق[١] في اللغة السومرية انها كثيرا ما تؤلف المفردات بادماج مفردتين او اكثر بعضها ببعض بحيث تصبح كلمة جديدة واحدة يستند معناها الى معاني الكلمات الداخلة في تركيبها مثل «لوكال» أي الملك المكونة من «لو» أي الرجل و «كال» اي العظيم و «أي ـ كال» أي القصر أو الهيكل المكونة من «اي» أي البيت و«كال» أي العظيم • ثم ان الجمل فيها تتألف كذلك بطريقة الصاق الضمائر والادوات الى جذر الفعل بحيث يصير الجميع كأنها كلمة واحدة • ومن خصائص اللغة السومرية أيضا ان كثيرا من مفرداتها مؤلفة من مقطع واحد مثل «لو» أي الرجل و«كا» أي الفم و «شو» أي اليد و «كي» أي الارض أو الموضع الخ • وتميل اللغة السومرية الى عدم التلفظ بالحروف الصحيحة في أواخر كثير من الكلمات الا اذا جاءت بعدها أدوات نحوية مبتدئة بحرف علة فيلفظ عندئذ الحرف الصحيح بدمجه بحرف علة تلك الاداة النحوية التالية • مثال ذلك «لوكال أوريم ـ آك» التي يلفظها السومريون لو كال أوريما أي ملك أور • ومثل العبارة الآتية: «في بيت ابن الملك» حيث تكون باللغة السومرية على الوجه الآتي: ـ «بيت،ملك،ابن ـ أك ـ في» و(وأك علامة الاضافة) وبالحروف اللاتينية e - dumu - lugal - ak - a

وعلى مبدأ دمج الحروف الصحيحة بحروف العلة للادوات التي تأتي بعدها تصبح العبارة : e - dumu luga - la - ka

وتفيدنا هذه العبارة في الوقوف على طريقة الخط المسماري الذي بعد

---

(١) وتستعمل طريقة الالصاق لغات أخرى من لغات البشر ولكن بدرجات متفاوتة ، ومثل ذلك اللغة الانكليزية مثل Careful و Careless ويتضح من الامثلة السومرية ومن هاتين الكلمتين الانكليزيتين ان العناصر التي تلصق لتكوين كلمة جديدة يجب أن يكون لها معنى قائم بنفسه ، لذلك فان «ضربت» و «ضربته» العربية ليست الصاقا ، ولعل أقرب شبه بالالصاق ما يسمى في العربية بالتركيب •



قيثارة من الذهب ، صنع صندوقها الصوتي من الخشب المرصع بالاحجار والصـدف ، وتنتهي براس ثور من الذهب الخـالص ، حيث زينت مقدمته بصور حيوانات بطريقـة التكفيت (الترصيع) · لاحظ الاقفال التي كانت تربط بها الاوتار (من عصـر فجر السلالات الثالث ، من المقبرة الملوكية في اور)

أن تطور عن اصله الصورى والرمزى صار فى أدوار نضجه خليطا من كتابة رمزية وصوتية مقطعية • ففى العبارة السالفة نجد العلامة (e) تقوم مقام البيت فى السومرية ، أى انها مستعملة لترمز الى البيت والعلامة (dumu) رمز للابن والعلامة (lugal) ترمز الى الملك أما العلامتان (la) , (ka) فهما هنا مستعملتان استعمالا صوتيا صرفا على هيئة مقطعين لمجرد تأدية صوت (la) , (ka) بغض النظر عن أصلهما الصورى وما يدلان عليه من معانى أو كلمات رمزية • وقد بقيت الكتابة المسمارية خليطة ، وهكذا استعملها الساميون فى كتابة لغتهم الى آخر عهود العراق القديم •

الفصل السادس

دول المدن السومرية واولى انظمة للحكم

عرفنا فيما سبق كيف انشأ الانسان الحضارة الاولى فى وادى الرافدين ووادى النيل وكيف بدأت هذه الحضارة منذ عصور ما قبل السلالات ونمت ونضجت وازدهرت فى العصور التى سميناها بعصور فجر السلالات • وقد رأينا فيما سبق كيف ان الانسان الذى كان فى فجر الحضارة فى عصور ما قبل التأريخ (عصور ما قبل السلالات) عندما جاء الى منطقة الانهار فى وادى الرافدين بعد حلول الجفاف فى المواضع التى كان يقطنها سابقا وجد فى هذه البيئة الجديدة امكانيات وخيرات لا يمكن استغلالها الا بالتغلب على الطبيعة الصعبة • فمن جملة تلك المشاكل الكثيرة السيطرة على الانهار وطرق الرى واحكام السدود وتجفيف المستنقعات والفيضان فبذل بناة الحضارة الاولى عملا وجهدا وفنا ، أى انهم انشأوا الحضارة مستجيبين لحوافز بيئتهم الغنية الصعبة ، ويجب أن تتوفر عوامل مهمة فى نمو الحضارة وازدهارها من بعد نشوئها وولادتها فان أول غلبة لبناة الحضارة فى وادى الرافدين لم تكفهم مشقة الاستمرار فى جهودهم واستعدادهم فى مقارعة البيئة الطبيعية وحل مشاكلها الكثيرة المستمرة ، وكذلك مشاكل البيئة الاجتماعية • فالواقع ان أقرب شبه بحال الانسان من بعد نشوء حضارته الحرب المستمرة الدائمة ، وان أى غفلة من جانب الانسان تؤدى بالتدريج الى ركود حضارته ثم تدهورها فزوالها • وبوسعنا أن نوضح هذه الصورة من تأريخ حضارة العراق • فقد أسفرت الجولة الاولى من غلبة العراقيين الاوائل على بيئتهم الطبيعية عن ولادة أولى الحضارات البشرية الاصلية ، ولكن ولادة الحضارة ، كما فى حياة الفرد من بنى الانسان ، لا تضمن نمو تلك الحضارة ، ولعل أولى شروط النمو فى الحضارات ان تستمر الحوافز

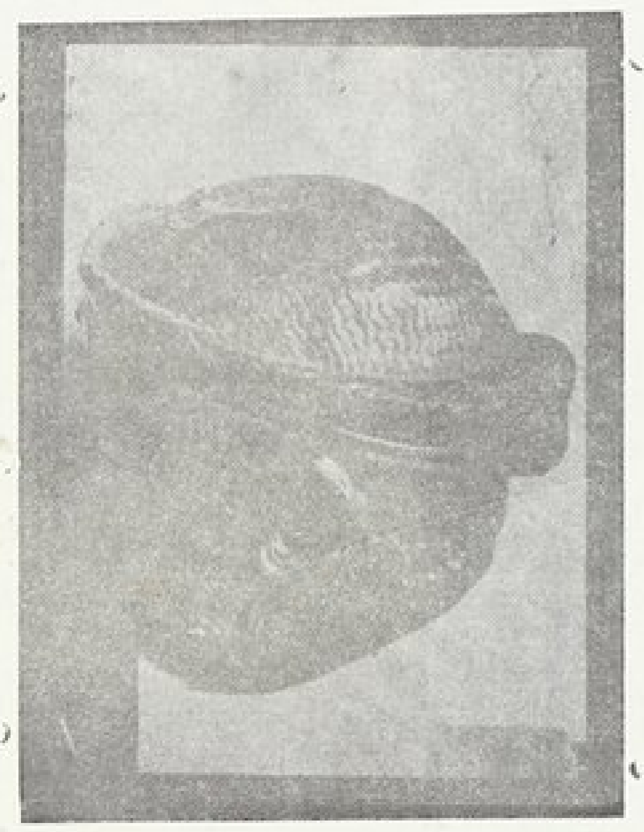
والمشاكل فتدفع الانسان الى الحركة والابداع والاختراع • وهذا هو معنى النمو والازدهار في الحضارات • ومن امارات النمو في الحضارات ان المشاكل والقضايا التي تحفز الانسان على الاختراع والابداع تأخذ بالانتقال في طور النمو من مشاكل البيئة الطبيعية الى المشاكل الناشئة عن البيئة الاجتماعية ، حيث تقل الاولى وتزداد الثانية بالاطراد بازدياد النمو •

فعندما ولدت حضارة العراق بنتيجة الجولة الاولى من تغلب الانسان على بيئته الطبيعية لم تنته أتعاب بناة الحضارة وجهودهم بل كان عليهم أن يستمروا في مقارعة الطبيعة ومغالبتها وان يسهروا على ما انشأوه من سدود وجداول وأبنية ، وان يحلوا بطريقة ما المشاكل الاجتماعية الكثيرة التي نشأت بعد ولادة الحضارة ، كتنظيم العلاقات الاجتماعية الناشئة ، والمحافظة على الجنة التي صنعوها بأيديهم من البيئة الوحشية الطبيعية • وكل ذلك يحتاج الى استمرار العمل والى الاختراع والابداع • فقد نشأت بعد ولادة الحضارة الاولى في العراق علاقات اجتماعية معقدة ، وقد اقتضى تنظيم هذه العلاقات على وجه ما والمحافظة على تلك الحضارة من الجيران الطامعين بذل الجهود المشتركة من جانب المجتمع ، ثم تنظيم هذه الجهود تحت قيادة وادارة منظمة • ومن مظاهر عهد النمو في الحضارات كثرة القادة من المخترعين والمبدعين الذين يفتحون الطريق الى الجماهير التي تقلدهم وتسير تحت ركابهم ويتبدل مستواها من حال الى حال آخر أرقى[١] •

ان هذه المقدمة القصيرة في نشوء حضارة العراق الاولى تفيدنا في فهم كيفية نشوء نظام الحكم فقد اقتضى تنظيم العلاقات الاجتماعية نشوء أولى انظمة للحكم في العراق ونشأت كذلك أولى الشرائع المدونة لتنظيم تلك العلاقات الاجتماعية • وقد وجد العراقيون الاقدمون انفسهم ولا سيما في القسم الجنوبي من العراق في أرض تنقصها المواد الخام الضرورية لحضارتهم

---

(١) هذه الفرضية المعقولة أوردها توينبي في بحثه التاريخي المشهور •
A Study of History VOL, 1



خوذة من الذهب دقيقة الصنع ، وجدت فى أحد القبور الملكية
فى أور (فى حدود ٢٦٠٠ ق ٠ م)

ونموها كالمعادن والاحجار المختلفة والاخشاب ، فالتجأوا للحصول عليها أولا الى التجارة الخارجية مع الاماكن التى تكثر فيها تلك المواد ، ولكن التجارة الخارجية تستلزم توفر عوامل كثيرة معقدة منها التنظيم الاجتماعى وابتداع وسائل المواصلات وحماية الطرق والتجارة وتنظيم وسائل المبادلة التجارية ، ثم توحيد مصالح المدن العراقية المختلفة التى كانت كل مدينة مهمة منها دولة قائمة بذاتها ، فنشأت المملكة الموحدة فى العراق بعد ان كان مجزءا الى دول المدن فى عصر فجر السلالات • وعندما اشتدت الحاجة الى المواد الخام وتعذر الحصول عليها بطرق التجارة الخارجية التجأ ملوك العراق الاقدمون الى الفتوح الخارجية ، فاستولوا على منابع المواد الخام

وضموها الى ممالكهم فنشأ أول نظام للامبراطوريات فى تأريخ البشر ٠ ونتج عن ذلك تعقد نظام الحرب والادارة فى نظام الحكم ، فكانت سلسلة من المشاكل الاجتماعية نشأت فى الحضارة نفسها أى من البيئة الاجتماعية ٠

كيف نشأ نظام الحكم :

ومما لا شك فيه ان تنظيم العمل والجهود فى ابان نمو الحضارات يتطلب ادارة وقيادة ، فكان أحزم الافراد وأبرزهم من حيث المواهب والقابليات والسيطرة أول الحكام والمديرين فى الهيئة البشرية ، هذا ولا نعلم بوجه التأكيد متى نشأ نظام الحكم فى العراق وانما الذى نعلمه ان هذا النظام أول ما نشأ فى العراق وفى مصر وهما القطران اللذان نشأت فيهما أولى الحضارات البشرية وان معرفتنا الكاملة بنظام الحكم فى العراق تبتدىء منذ عصور فجر السلالات ، ولكن مما لا شك فيه تمتد جذور هذا النظام الى الاطوار البدائية التى سميناها بعصور ما قبل السلالات ٠ وان لدينا من الاشارات التأريخية ما يدل على ان أمراء وملوكا حكموا فى دويلات صغيرة منذ نهاية عصر العبيد ، وبوجه الترجيح فى العهد الشبيه بالكتابى ولكن لانتفاء السجلات والوثائق المدونة لا نعرف شيئا من أخبارهم الا صدى تركوه فى العصور التأريخية القديمة التى عقبت عصور ما قبل التأريخ ٠

ومهما يكن من أمر فان نظام الحكم الذى جاءتنا أخباره من عصور فجر السلالات كان فى أولى مراحله ٠ فكان كل من العراق ومصر مجزءا الى دويلات وامارات قوام كل منها مدينة وما يجاورها من المدن والقرى يحكمها ملوك وأمراء لهم صفة دينية ، اذ انهم كانوا فى عرف المجتمع ينوبون عن الآله فى ادارة البلاد التى هى ملك للآلهة ٠ وقد تطور بعض هؤلاء الحكام ولا سيما فى مصر فصار له صفة الآلهة نفسها أى صار الها ٠ ولعل الاسم السومرى للملك (لوكال) أى «الرجل العظيم» يشير الى أصل الملك ، فقد صار هذا الرجل عظيما لمقدرته الجسمية وقابلياته التى مكنته

من ان يفرض قيادته على الجماعة التي عاش معها في مجتمع واحد[١] . ولقد ثبت من البحوث الحديثة ان اقدم نظام سياسي في العراق الجنوبي كان نوعا من الديمقراطية البدائية حيث كانت على هيئة مجلس لجميع الرجال الاحرار في المدينة ، وهناك مجلس آخر قوامه شيوخ المدينة وقد فوض لمعالجة شؤون مجتمع المدينة الاعتيادية ، ولكنهم كانوا في أزمان الازمات والشدائد كالحروب ينتخبون قائدا أو شخصا مهما للحكم زمنا محدودا وبمرور الازمان صار هذا الشخص المنتدب دائميا أي اخذ الحكم لنفسه فصار حاكم المدينة أو ملك المدينة على غرار تشوء الدكتاتور في تأريخ الرومان[٢] .

---

(١) تشير بداية الحضارة في العراق الى ان المعبد العام وادارته كانت تدور عليه الحياة الاجتماعية في أولى مراحلها وكان مركز أوائل المدن كذلك ، ويرجح ان الكهنة ، أي قوام المعبد كانوا أيضا يتولون ادارة المجتمع الخاص بالمعبد نيابة عن الاله ، صاحب المعبد ، فكانت «حكومة الكهنة» ولكن يبدو كما ذكرنا ان حكومة الكهنة لم تحقق متطلبات الازمات الحادثة في المجتمع ولا سيما عند الحروب المنظمة بين دويلات المدن والحروب المستمرة مع البدو الذين عاشوا في اطراف الحضارات في وادي الرافدين حيث ان «الحكام الكهنة» لا يستطيعون كسب الحرب فكان قائد الحرب المظفر أصل الملك في نظام الحكم . فالقائد الحازم المنتصر المدبر جعله الناس حاكما وملكا ؛ وهذا ما يشير اسم الملك بالسومرية «لوكال» الذي يعني «الرجل العظيم» وكذلك «المدير» . وانتقال الحكومة من حكومة الكهنة الى نظام الملوكية نستطيع أن نتلمسه فيما ورد في العهد القديم (ساموئيل الكتاب الاول الاصحاح ٨ والعاشر ١٧٥ فما بعد . والاصحاح الثاني عشر) ولعله قد نشأ نزاع بين طبقة الكهنة وطبقة الملوك في بادىء الامر ولكن الملك نفسه اكتسب صفة مقدسة وصار كاهن الاله الاعلى «اشاكر» (باتيسي) وممثله على هذه الارض كما سماه السومريون . حول الحالة الاقتصادية وعلاقتها بالمعبد في عصور فجر السلالات .

راجع : Frankfort, **The Birth of Civilization (1951)** 155 ff.

(٢) (سنتطرق في بحث الحكومة والملوكية في القسم الثاني من هذا الكتاب الى الموضوع فندرسه بوجه أوفى . أنظر حول ذلك البحث الطريف)

Thorkild Jacobsen "Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia" in JNES, II (1943), 159 ff.

ميزات عصر فجر السلالات السياسية :ـ

وكانت دويلات المدن هذه كثيرا ما تتنازع فيما بينها على السلطة السياسية وتوسيع حدودها وعلى مياه الارواء التى كان يقوم عليها كيانها الاقتصادى وقد يتسنى فى بعض الاحايين لبعض الدويلات أن تبسط سلطانها على دويلات مدن أخرى فيتوحد قسم من البلاد ولكن عملية التوحيد السياسية لم تكن لتدوم أمدا طويلا ، فلم يتسن للبلاد أن تتوحد وتنتقل من طور دويلات المدن الى طور حكومة المملكة الموحدة الا فى أواخر عصر فجر السلالات فى العراق • حيث تمكن سرجون الاكدى الشهير ، مؤسس السلالة الاكدية ،من القضاء على آخر دويلات المدن السومرية، ووحد القطر فى مملكة واحدة شملت جميع العراق ، ثم وسع هذه المملكة الى امبراطورية معظمة ضمت أقاليم أخرى غير العراق •

مصادرنا عن الاحوال السياسية فى دول المدن :

ان مصادرنا عن دويلات المدن فى العراق تنحصر فى ما خلفه لنا ملوك ذلك الزمان من أخبارهم المدونة التى وجدت فى أثناء التنقيبات فى المدن القديمة ولكن ما جاءنا من هذه المصادر قليل لا يمكننا من معرفة الحياة السياسية معرفة تامة ولكنها آخذة بالتكاثر والتكامل باستمرار التنقيبات والبحوث فى آثار هذا العهد • أما الآن فان ما نعرفه عن أقدم دويلات المدن فى العراق لا يعدو أن يكون مجرد أسماء ملوك تنتظم فى سلالات حاكمة وردت الينا فى جداول دونها الكتبة السومريون أنفسهم فى العهود المتأخرة (منذ الالف الثانى قبل الميلاد) [١] وقد وردت هذه السلالات مرتبة فى تلك الجداول بحسب تعاقبها الزمنى فى الحكم مع ذكر السنين التى حكمها كل ملك ومجموع السنين المخصصة لكل سلالة ، كما انها وردت وهى

---

(١) لقد أثبتت البحوث الحديثة فى اثبات السلالات التى جاءتنا وهى مدونة فى حدود بداية الالف الثانى ق • م • انها نسخ عن اثبات قديمة ، وان الاثبات الاصلية قد دونت فى آخر العهد الاكدى أو بداية سلالة أور الثالثة •

انظر Jacobsen, **The Sumerian King List** (1939).



تمثال منحوت من المرمر ، لعله يمثل كاهنا سومريا ماسكا كأس الماء المقدس (من عصر فجر الثاني – من خفاجي ٢٨٠٠ ق ٠ م)

مقسمة الى قسمين يفصل فيما بينهما حادث مشهور عند سكان العراق الاقدمين هو الطوفان • ومن الطريف ذكره ان المؤرخين القدماء فى العراق القديم اعتبروا الطوفان على ما يرجح حدا فاصلا بين تأريخهم القديم والتأريخ الحديث وقد ذكرت جداول الملوك أسماء ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان فى خمس مدن قديمة منها «سبار» و «شروباك» وتعرف خرائبها اليوم «أبو حبه» و «فاره» وقد خصص لهؤلاء الملوك عدد كبير من السنين لا يقبله العقل ، وهو رقم (٢٤١٠٠٠) سنة لمجموع حكمهم • ومن الامور الاخرى التى تنقد بها تلك الاثبات ان قسما من السلالات التى ذكرت وهى متعاقبة فى الزمن لم تكن فى الواقع كذلك وانما كانت متعاصرة اما جزئيا أو كليا •

السلالات الشهيرة :ـ

وتذكر جداول الملوك ان «الملوكية» هبطت من السماء من بعد الطوفان وحلت فى مدينة «كيش» (وهى تل الاحيمر الآن قرب الحلة) وخصصت لسلالة كيش ثلاثة وعشرين ملكا لا نعلم عنهم شيئا سوى بعض القصص والاساطير التى وردت عن عدد منهم • حيث عد بعضهم من الآلهة أو أبناء الآلهة • ومما يجدر ذكره عن هذه السلالة ان معظم أسماء ملوكها من الساميين • ثم تخبرنا تلك الجداول ان الملوكية انتقلت بعدئذ من مدينة كيش الى مدينة الوركاء ، وتذكر من ملوكها «جلجامش» صاحب الملحمة والقصة المشهورة باسمه التى ورد فيها ذكر الطوفان البابلى • ثم وردتنا قصص من الآداب والاساطير عن عدد آخر من ملوك هذه السلالة • وفيما عدا ذلك لم نعرف عن أخبارها التأريخية شيئا ، ولعل التنقيات فى المستقبل تكشف شيئا من أخبار ملوكها •

ويلى سلالة الوركاء فى جداول الملوك سلالة أور «الاولى» التى نعرف عنها أكثر من غيرها بفضل التنقيات الواسعة التى أجريت فى مدينة أور ، اذ عثر فى خلال التنقيات على وثائق تأريخية مدونة فيها أعمال ملوك من هذه السلالة فمنهم مثلا

«مس ـ آنيدا» مؤسس السلالة وقد خصص لحكمه فى اثبات الملوك ٨٠ عاما ولعل الصحيح ٤٠ عام • وقد وجدت له آثار مكتوبة فى «أور» و«العبيد» • كما انه شيد المعبد المشهور فى العبيد • وابنه «آنيدا» الذى جدد فى مدينة العبيد القريبة من أور بناء المعبد الخاص بالآلهة «نن ـ خرساك» وقد زين جبهات بنايته وجدرانه بتماثيل من النحاس وعمد من الفسيفساء المصنوعة بتطعيمها بالاحجار الجميلة الملونة • وفى المتحف العراقى نماذج مهمة من هذه الآثار • وعثر فى أور من زمن هذه السلالة على المقبرة الملكية المشهورة التى سبق أن قلنا انها انتجت أنفس الآثار الذهبية واغناها •

ويقع زمن سلالة أور الاولى وزمن المقبرة الملكية فى الطور الاخير من عصر فجر السلالات[1] • ومما يقال فى هذا العهد بوجه العموم ان جميع معلوماتنا عن التأريخ السياسى لسلالات الملوك ودويلات المدن الموثوق بها قد جاءتنا من هذا الطور ، فبالاضافة الى سلالة أور الاولى نعرف بعض الشىء عن ملوك آخرين تكونت منهم سلالة كبيرة حكمت فى «لجش» (المعروفة باسم تلو الآن قرب الشطرة) لم يرد لها ذكر فى اثبات الملوك ولعل السبب فى ذلك أن حكامها كانوا أمراء حرب زمنيين وليسوا حكام كهنة مما جعل رجال الدين فى المدن السومرية لا يعترفون بهم ، ولكن التنقيبات التى أجريت فى تلك المدينة أظهرت لنا نتائج باهرة عن ملوك تلك السلالة وأخبارها وقد بدأت حكمها فى الطور الاخير من عصر فجر السلالات فى حدود ٢٦٠٠ ق • م • وقد اشتهر حكام هذه السلالة بلقب «اشاكو» (وكان يقرؤ سابقا باتيسى) • وكان أولهم «أور ـ نانشه» من أوائل الملوك فى التأريخ البشرى • وقد وجدت لهذا الملك ولخلفائه من ملوك هذه السلالة آثار مكتوبة وتماثيل ومنحوتات وآثار فنية أخرى أمدتنا بمعلومات قيمة عن تأريخ عصر فجر السلالات ولا سيما الطور الاخير منه سواء من ناحية التأريخ

---

(١) لقد أظهرت التنقيبات فى المقبرة الملكية فى أور أسماء بعض الامراء والحكام والاميرات من السومريين مثل الاميرة «شبعاد» التى وجدت حلاها النفيسة والامير «مس كلام دك» وبوسعكم أن تشاهدوا بعض مخلفاتهم القيمة فى المتحف العراقى •

السياسي أو عن الناحية الحضارية • وقد عثر له على لوحة فريدة منحوتة فيها صورته وصورة وزيره وأولاده ، وفيها كتابة تذكر تشييده معابد مهمة للآلهة الخاصة بمدينة «لجش» مثل «ننجرسو» والالهة «نانشه» ، كما انه بنى سور المدينة وحفر أنهار الري • ولدينا معلومات عن الاسلحة وتنظيم الجيوش ، فنعرف مثلا استعمال العربات في الحروب وكذلك الرماح وخوذ النحاس والتروس وفؤوس القتال • وقد صورت بعض المنحوتات التي جاءتنا من هذه السلالة (وهو النصب العائد الى أحد ملوكها المسمى «اياناتم» وتعرف هذه باسم مسلة النسور (Stele of the Vulture) وهي محفوظة الآن في متحف اللوفر في باريس) ونشاهد فيها مشاهد تطور نظام القتال في ذلك الزمان • فنشاهد الجند وقد صفوا صفوفا على غرار ما عرف من نظام التعبية في زمن الاغريق (Phalanx) • وقد كان بين مدينة «لجش» ومدينة أخرى قريبة منها وهي «أوما» (وتعرف أنقاضها اليوم باسم «جوخي-جوخه») نزاع مستمر بسبب تحديد الحدود ومياه الارواء وقد خلدت تلك المسلة انتصار «اياناتم» على «اوما» وقد صور في المسلة الاله «ننجرسو» بهيئة شخص مسلح بيده اليمنى الدبوس للقتال وباليسرى شبكة اصطاد فيها الاعداء أسرى • وفي قفا المسلة صور الملك في عدته الحربية على رأس جيشه وقربه جثث الاعداء تأكلها العقبان أو النسور • وقد عمد أحد ملوك لجش المسمى «انتمينا» على حفر نهر لجلب المياه من دجلة الى لجش حسما للنزاع • ولا تزال آثار هذا النهر الى يومنا هذا ويرجح انه شط الدجيلة الذي اتخذ قاعه (عقيقة) دجلة عند تغيير مجراه ثم تحول أخيرا الى مجراه الحالي • ومن الطريف ذكره بصدد النزاع بين هاتين الدويلتين التحكيم الذي التجأتا اليه مرة وكان الحكم ملكا محايدا من ملوك كيش هو «مسيلم»[١] الذي قام بالوساطة في تحديد الحدود وتعليمها

---

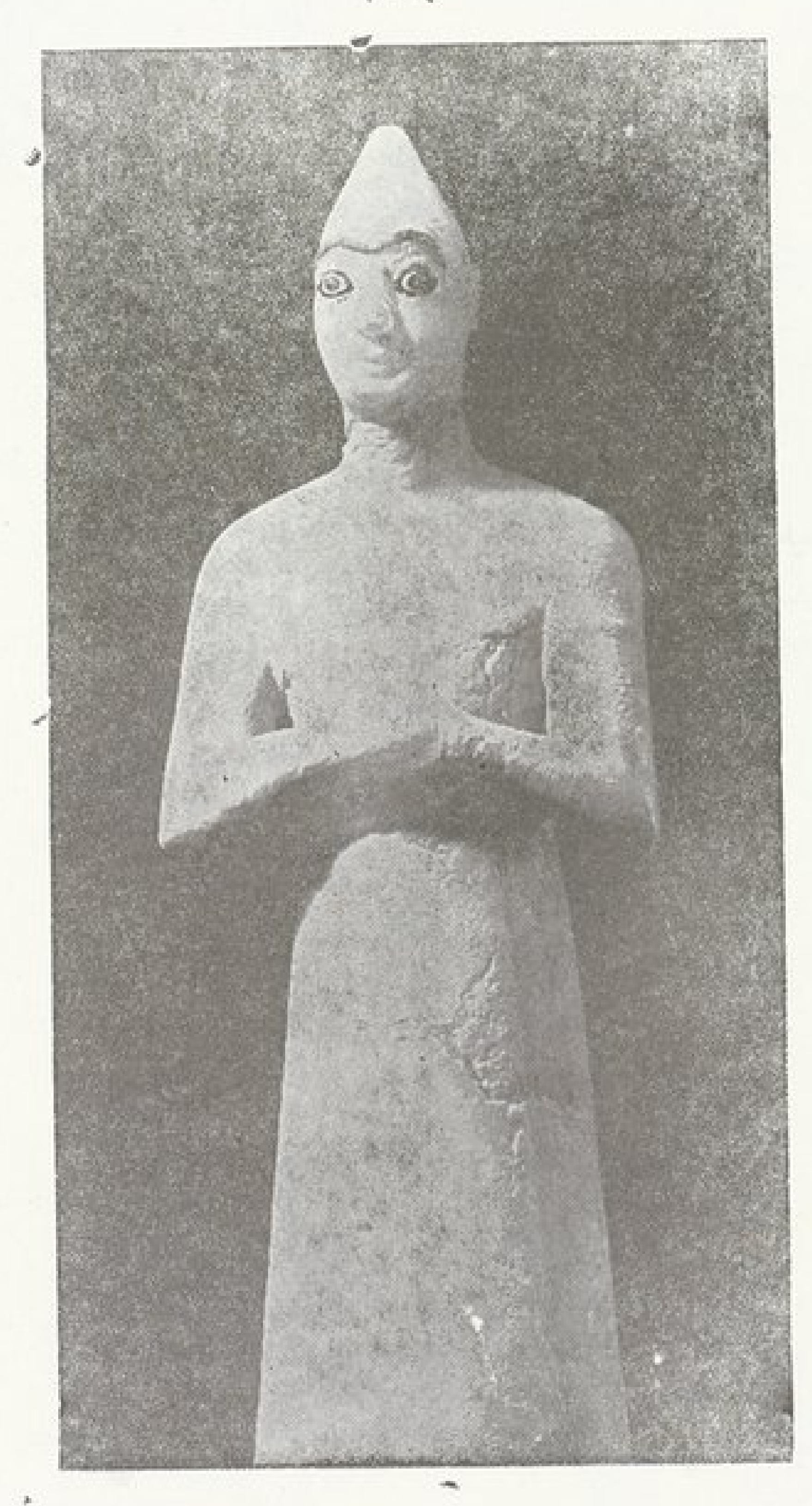
(١) زمن مسيلم غير معروف بالضبط ولعله حكم بين الطورين الاول والثاني من عصر فجر السلالات • وقد عثر في كيش على رأس دبوس من الحجر (mace-head) منقوش بصور أسود وبكتابة مسمارية رمزية تذكر اسم مسيلم • ولعل هذه الكتابة أقدم كتابة دونت بها حوادث تاريخية رسمية •

بنصب اقامه بين الدويلتين [١] . ومما لا شك فيه ان كتبت بنتيجة ذلك معاهدة هي أقدم أنواع المعاهدات في تأريخ العلاقات الدولية . وتشير أخبار سلالة لجش وأخبار الملوك الآخرين من مدن اخرى من عصر فجر السلالات ان ملوك ذلك الزمان لم يقتصروا على مدنهم الصغيرة وانما كان بعضهم يبلغ من القوة والبأس بحيث يقوم بحروب خارجية ولا سيما في بلاد عيلام التي غزيت أكثر من مرة . وتدل أخبار هذه الدويلات كذلك على وجود علاقات مهمة تجارية وحربية وثقافية بين العراق وبين بلاد الشام ، ولا سيما منطقة «ماري» في الفرات الاوسط وكذلك منطقة الخابور والباليخ حيث عثر فيهما على مراكز حضارية من عصور ما قبل السلالات العراقية وكذلك من عصور فجر السلالات وهي تشير الى ان نوع الحضارة فيهما كان نموذجا من حضارة العراق القديم .

لقد حكم من بعد انتمينا ابنه «اناتم» الثاني الذي بموته انقرضت سلالة «اور ـ نانشة» فتدخل الكهنة وعينوا أحد أفرادهم حاكما على لجش هو «انيتارزي» واعقبه حاكم كاهن آخر وكلاهما من كهنة معبد الاله «ننجرسو» وبعد حاكم آخر حكم في لجش «اورو ـ كاجينا» الذي كان آخر ملوك لجش حيث لقب نفسه ملكا وقد اشتهر باصلاحاته الاجتماعية التي تعد أخبارها أقدم وثائق تأريخية في محاولات الاصلاح الاجتماعي ، ويعد أول مشرع في تأريخ البشر ، قبل حمورابي بعدة قرون وان لم تأتنا بعد قوانينه المدونة ، ولكن أخباره التي خلفها لنا تشير الى انه قام بانقلاب اجتماعي يرمي الى الاصلاح وازالة الظلم ونشر العدل بين طبقات المجتمع ، ومنع الكهنة والموظفين من ابتزاز أموال عامة الشعب والفقراء قسرا ، ولكن اصلاحاته هذه لم يتمتع بها أمدا طويلا اذ غلبه على أمره ملك مدينة «اوما» المعادية وقضى على سلالته ، وقد حدث ذلك قبيل زمن سرجون الاكدي .

---

(١) انظر كتابة «انتمينا» حاكم لجش المنشورة في :ـ
de Sarzec, **Découvertes en Chaldée,** P. XIVII ; Gadd, **A Sumerian Reading - Book** (1924), 111 ff.



تمثال صغير من المرمر يمثل أميرا أو كاهنا سومريا من عصر فجر السلالات (من اريدو)

ويدعى ملك «اوما» هذا باسم «لوكال زاكيزى» وهو من مشـــاهير الأمراء السومريين وعهده نهاية عصر فجر السلالات[١] ، وبعد أن قضى على دولة مدينة لجش نجح فى ضم مدن أخرى مهمة الى دولته وكون منها دولة واحدة شملت أكثر العراق واتخذ الوركاء عاصمـة له ، وهو أول من اتخذ لقب «ملك سومر» وبالسومرية (لوكال كلاما) وهذا رمز للوحدة السياسية التى أنجزها بين دول المدن ، ولم يقتصر على ذلك بل ان أخباره تشير الى انه مدّ فتوحه خارج العراق ووصل حتى ساحل البحر المتوسط •

ولكن لم يتمتع هذا الملك القديم بحكمه زمنا طويلا اذ قضى عليه بطل آخر أصلب عودا وأقوى شكيمة ظهر فى العراق فى ذلك الزمن هو سرجون الاكدى ، مؤسس السلالة الاكدية وزعيم الساميين الذين ظهرت خطورتهم السياسية • وقد نازع سرجون «لوكال زاكيزى» ومعه المدن السومرية ، وبعد حرب طاحنة تغلب عليه • وبذلك انتهى عهد دويلات المدن وحل محله عهد المملكة الموحدة كما سيمر بنا بيان ذلك • ومع فشل «لوكال زاكيزى» فان تجربته السياسية قد مهدت السبيل لسرجون لتمكين الوحدة وتثبيتها •

والذى يلاحظ فى أحوال العراق فى عصر فجر السلالات انه مـــع انقسام القسم الجنوبى الى دول المدن فقد كانت تجرى محاولات مختلفـــة سياسية وثقافية للتوحيد على غرار ما كـــان يجرى فى مـدن دول المـدن اليونانية • فمثلا خصصوا كلمة لاطلاقها على بلاد سومر هى «كلام» لتميز السومريين عن غيرهم ، كما ظهر مصطلح خاص يطلق على سكان العراق الجنوبى هو مصطلح «ذوى الرؤس السود» ، كما ان دول المدن كلها كانت تشترك فى عبادة آلهة تأتى على رأس الآلهة السومرية مثل «آنو» وانليل ،

---

(١) حول أخبار النزاع بين «لجش» و «اوما» بوجـه خاص وبين دول المدن الاخرى بوجه عام انظر

Poebel, "Der Konflict zwischen Lagash und Umma ..., in **Paul Haupt Anniversary** volume (1926).

وجعلت نفر لكونها مركز عبادة «انليل» المركز الدينى لبلاد سومر وصارت بمثابة كعبة يحجون اليها • ولكن هذا الشعور والاتجاه الى التوحيد لم يجد له تعبيرا سياسيا بالاختيار وانما فرض بالقوة فى محاولة «لوكال زاكيزى» ومن بعده سرجون الاكدى وخلفاؤه •

وقبل أن ننهى كلامنا على دول المدن فى عصر فجر السلالات نذكر بعض الامور المفيدة عن ذلك العصر المهم الذى وضعت فيه أسس أولى الحضارات البشرية •

سعة دولة المدينة :ـ كانت دولة المدينة فى عصر فجر السلالات ، كما نعرفها من وثائق هذا العصر ، تتألف من جملة مجتمعات أو حارات معبدية (أى تتمركز حول معبد معين) ، فمثلا تذكر ألواح الطين من مدينة لجش ، زهاء عشرين معبدا[١] • واظهرت التنقيبات فى مدينة خفاجى معبدين كبيرين ومعبدا متوسط الحجم ومعبدين آخرين صغيرين[٢] • وقد قدر نفوس حارة أحد المعابد فى لجش بزهاء ١٠٠٠ـ١٢٠٠ نفس ونحو ٦٠٠٠ «ايكر» من الارض ، أما عدد سكان دولة تلك المدينة فيخمن بصورة تقريبية بـ ١٠٫٠٠٠ الى ٢٠٫٠٠٠ ، بالرغم من ان «انتمينا» يذكر ان نفوس لجش فى زمنه كان ٣٦٫٠٠٠ وكذلك اوركاجينا ويقدر «جودية» نفوسها بـ ٢١٦٫٠٠٠ نفسا • وقد حسب الاستاذ «فرنكفورت»[٣] عدد سكان دول المدن بالاستناد الى سعة خرائب المدن التى أجريت فيها التنقيبات الحديثة ، وهذا مقياس تقريبى غير مضبوط الا انه يمكن القارىء من تكوين فكرة عامة عن السكان فى ذلك العهد البعيد • فقد حسب محلات السكنى فى ثلاثة

---

(١) A. Deimel "Die Sumerische Tempel Wirtschaft" in **Analecta Orientalia**, II (1931), 71 ff.

(٢) Delougaz & S. L. Lloyd, **Pre-Sargonic Temles in the Diyalah Region** (Chicago, 1942).

(٣) H. Frankfort, **The Kingship and the Gods**



تمثال من الحجر الاسود يمثل كاهنا أو وزيرا اسمه (دودو) ، ويرجع عهده الى عصر فجر السلالات الثالث (٢٦٠٠ ق ٠ م)

مواضع قديمة معلومة من التنقيبات وهي «اور» و «اشنونا» (تل اسمر الآن) و«خفاجي» • ففي المدينة الاخيرة وجد نحو (٢٠٠) بيت سكني في الايكر الواحد (من تاريخ ١٩٠٠ ق • م) ومعدل مساحة البيت الواحد ٢٠٠ متر مربع وزهاء ٦-١٠ نفوس للبيت الواحد ، وبالقياس الى كثافة بعض المدن الحاضرة في الشرق الادنى (نحو ١٦٠ نفسا في الايكر) يكون نفوس كل من «اور» ومدينة «اشنونا» التي مساحة كل منهما (١٥٠) ايكرا نحو ٢٤٫٠٠٠ وذلك في الازمان المتأخرة • أما في عصور فجر السلالات فيلزم خفض هذا المقدار ، حيث يقدر لمدينة لجش نحو ١٩٫٠٠٠ نفسا ولمدينة «اوما» نحو ١٦٫٠٠٠ ولمدينة خفاجي نحو ١٢٫٠٠٠ ولمدينة اشنونا نحو ٩٠٠٠ نفس •

وكان للمعبد سلطة عظمى وأملاك واسعة • فان الاله الذي يعبد في معابد المدينة هو الحاكم الحقيقي والمالك الحقيقي للمدينة وللناس ، أما الحكام والكهنة فهم وكلاء عنه في حكمه على الناس • وكانت الاراضي العائدة لمجتمعات دول المدن تنتظم تحت ثلاثة أنواع: ١- نوع من الاراضي سموه «كور» وهذه تركت لافراد المجتمع ووزعت عليهم ، وكانت حصة الفرد لا بأس بها اذ أن أصغر حصة نصيبه كانت تبلغ نحو ايكر واحد (حوالي مشارة أو دونم واحد) (٢) - نوع آخر من الارض غلتها تعود الى المعبد (وتسمى هذه بالسومرية nigenna) وقد تبلغ $\frac{1}{4}$ أراضي دولة المدينة ، وكان على أفراد المجتمع أن يتولوا زراعتها والمحافظة عليها وحفر أنهارها وتكون غلتها الى المعبد الذي يجهز الفلاحين المسخرين بالبذور (٣) - نوع ثالث من الاراضي كانت بحوزة المعبد ايضا ولكن كان يؤجرها الى الافراد (وتسمى هذه بالسومرية Urula)

وقد أظهرت التنقيبات نماذج كثيرة لدور السكنى من مختلف عهود العراق القديم ، ومن بين ذلك عصور فجر السلالات • فكانت البيوت تبنى من اللبن ، وهي على الاغلب مؤلفة من طبقة واحدة ، ويحتوي كل بيت على جملة حجرات تتوسطها الساحة المكشوفة • وقد وجد أحد هذه البيوت في

خفاجی وهو ذو خمس حجرات صغيرة ، وتبلغ مساحته نحو ١٠ × ٦٫٥ مترا ، وآخر اكبر منه ذو عشر حجرات (مساحته ٣٠ × ٢٠ مترا) ، وقد عقد بعض أبوابه بالعقادة بأقواس صحيحة[١] . والعادة انه يوجد فی البيت شبابيك للنور .

هذا وسنذكر فی الاوجه الحضارية فی القسم الثانی من هذا الكتاب أمورا أخری مفصلة عن حياة العراق فی عصور فجر السلالات ، كنظام الحكم والديانة والحياة الاقتصادية والفنية . فنكتفی بما ذكرناه عن تلك العصور .

(١) Oriental Instit. Communications, 17, 10 ff.

الفصل السابع

سومر واكد

(١) الساميون والهجرات السامية

عرفنا شيئا عن أحوال العراق السياسية في عهد دول المدن الذى سميناه بعصور فجر السلالات ورأينا كيف انتهى هذا العهد بقيام سرجون الأكدى (في حدود ٢٣٥٠ ق ٠ م) وقضاءه على ذلك النظام السياسى وتكوينه مملكة واحدة صارت بعد الفتوحات الخارجية امبراطورية واسعة ٠ وسرجون من الأكديين وهم فرع من الاقوام السامية فينبغى لنا قبل الكلام على هذا العهد الجديد أن نعرف شيئا عن الساميين وعلاقتهم بالشرق الادنى وبجزيرة العرب ٠

جزيرة العرب مهد الساميين :

تنتهى جزيرة العرب (أى شبه الجزيرة) من الشرق والشمال والغرب بأقاليم غنية خصبة تحيط بشبه الجزيرة بهيئة نصف دائرة أو هلال أطلق عليه اسم الهلال الخصيب ٠ وجزيرة العرب[١] ، على ما يرى أكثر العلماء والباحثين ، مهد الاقوام السامية ، وقد نزحت منها أقوام وشعوب انتشرت من الجزيرة منذ أقدم الازمان بهيئة هجرات أو موجات متعاقبة فى أزمان مختلفة الى بقاع الهلال الخصيب حيث عاشت فيها وكونت دولا وحضارات ذات شأن كبير فى تاريخ العالم ٠ ومما لا شك فيه ان هذه الهجرات بدأت منذ أقدم الازمان فى عصور ما قبل التأريخ وكان العراق مفتوحا أمام هذه الهجرات وقد استوطن فيه الساميون مع الاقوام الاخرى جنبا الى جنب

---

(١) حول موجز أحوال الجزيرة الماضية أنظر الجزء الثانى ٠

منذ الاطوار البدائية وعاشوا مع السومريين منذ أقدم العهود التأريخية وطغوا على حياة العراق ومعظم الشرق الادنى ، منذ العهد الاكدى ، بعد أن تغلب زعيم منهم في العراق، وهو سرجون الاكدى، على دول المدن السومرية فى أواخر عصر فجر السلالات ، وأثر الساميون فى تكوين السكان فى مصر القديمة منذ أقدم العهود ويرى الباحثون ان هجرة سامية كبرى الى مصر فى حدود الالف الرابع قد تكون منها ومن السكان الاصليين المصريون الذين نعرفهم فى التأريخ •

ولدينا من الادلة ما يثبت اتصال العراق القديم بجزيرة العرب منذ العهود القديمة التى سميناها بعصور ما قبل السلالات (أو العهد الحجرى المعدنى) وكان القسم الشرقى الجنوبى من الجزيرة من المصادر المهمة التى جلب منها العراقيون القدماء معدن النحاس • وورد فى أخبار الملوك السومريين والاكديين ذكر مواضع فى جزيرة العرب مثل البحرين (وسموها دلمون وموضع آخر بهيئة مجان وهى عمان الآن) على انها مصدر النحاس •

وقد جرى المؤرخون على تعداد موجات متعاقبة من الساميين جاءت من الجزيرة واستوطنت أراضى الهلال الخصيب ، وكانت أولى هذه الموجات هجرة الاكديين الى العراق • ولا نعلم بوجه التأكيد متى جاء هؤلاء الى العراق ، ولكن مما لا شك فيه كما ذكرنا سابقاً، تغلغل الساميون فى العراق منذ أقدم العصور ولكن عرف منهم الاكديون فى العهود التأريخية لتوفر المصادر ولانهم سموا باسم خاص أى أكديين • وعلى كل حال عاش هؤلاء مع السومريين فى عصور فجر السلالات واقتبسوا من الحضارة الراقية التى ذكرنا عنها شيئاً فيما سبق ، ولا شك فى ان الساميين ومنهم الاكديون قد ساهموا فى نشوء تلك الحضارة• وكون الاكديون فى منتصف الالف الثالث ، فى نهاية عصر فجر السلالات دولة عظمى هى سلالة سرجون التى سنتكلم عنها ، واستوطن فرع آخر من الساميين فى حدود الالف الثالث القسم

الشمالى من العراق وتكون منه الآشوريون الذين جائتنا أخبار دولتهم فى العصور التأريخية ، ومن الساميين فرع يدعى «الاموريين» وقد طغى هؤلاء على ديار الشام والفرات الاوسط في منتصف الالف الثالث ق • م وكونوا هناك دولا واقتبسوا من حضارة العراق القديم الاولى • كان مركز الاموريين فى شمالى سورية وفي وسطها وأصل اسم الاموريين من اللغة السومرية (مارتو ـ أى الغرب) ، وصارت عبارة بلاد «آمورو» تطلق على سورية أى الغرب وكانت أقدم اشارة الى الاموريين من زمن سرجون الاكدى وبلغوا أوج سلطانهم السياسى فىالنصفالاول منالالفالثانى ق•م•وجاء فرع من الاموريين الى العراق ، فى نهاية سلالة أور الثالثة وكون سلالة شهيرة عرفت باسم سلالة بابل الاولى اشتهرت بملكها السادس حمورابى ، واستوطن فرع آخر من الساميين عرف بالكنعانيين وهؤلاء هم الشعبة الثانية الكبرى بعد الاموريين فى بلاد الشام وكانت مراكز استيطانهم فى السواحل السورية وكان تأثرهم بحضارة مصر القديمة أكثر من تأثرهم بحضارة وادى الرافدين بعكس الاموريين الذين اقتبسوا كثيرا من حضارة وادى الرافدين منذ أقدم الازمان • هذا وسنذكر فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أشياء أخرى عن تأريخ الساميين الذين استوطنوا فى بلاد الشام فى جهات سورية أيضا ومن هؤلاء الفينيقيون وان اليونان سموهم بالفينيقيين • ومن الهجرات السامية الكبرى نزوح القبائل الآرامية الى أعالى الرافدين ومنطقة الفرات الاوسط وبلاد الشام فى منتصف الالف الثانى ق • م ومن الآراميين قبيلة استوطنت فى جنوبى العراق عرف منها فيما بعد الكلدانيون الذين كونوا آخر امبراطورية فى تأريخ العراق القديم وكون الآراميون دولا وامارات مهمة فى سورية منها مملكة دمشق وحماة وحلب ، وقد نشبت بينهم وبين الآشوريين حروب طاحنة دامت أكثر من قرنين من الزمان بسبب النزاع والسيطرة على البلاد السورية • وجاء من بعد الآراميين العبرانيون وقبائل أخرى قريبة منهم مثل الموآبين واستوطنوا فىجهات فلسطين وشرقىالاردن• ومن القبائل السامية النبط والاقوام التى جاءت أخيراً مثل اللخميين والمناذرة



مسلة الملك الاكدى «نرام ــ سين» تمثله وهو منتصر فى حروبه
على القبائل الشمالية (متحف اللوفر)

فى العراق والغساسنة فى الشام • وكانت آخر هجرة للساميين من جزيرة العرب هجرة القبائل العربية والفتح الاسلامى للهلال الخصيب التى طردت الفرس الساسانيين والرومان ونشرت الدين الاسلامى وكونت الحضارة الاسلامية العربية •

واسم الساميين وكذلك اللغات السامية مشتق من اسم «سام» حيث ظن ان المتكلمين باللغات السامية هم من نسل سام بن نوح كما جاء فى جدول الانساب فى التوراة (سفر التكوين ، الاصحاح العاشر) • وتنتمى اللغات السامية جميعها الى عائلة لغوية واحدة لانها تحدرت من أصل واحد وتتشابه فى مفرداتها وفى تركيبها أى فى نحوها • وتعد عائلة اللغات السامية من أكبر العائلات اللغوية بين لغات البشر ومن أهمها من حيث كثرة المتكلمين بها وفروعها الكثيرة وقدمها ومن حيث الآثار الادبية التى جاءتنا منها ، وقد دون فى بعض فروعها ، وهى اللغة الاكدية ، آثار تعد من أقدم ما دون فى تأريخ الانسان • وعائلة اللغات السامية من أغنى لغات البشر فى التركيب والمفردات وأثراها من حيث الاشتقاق والتصريف • وتتشعب الى فروع ولهجات عديدة بوسعنا أن نصنفها بحسب خصائصها الى كتلتين عظيمتين اولاهما الكتلة الشرقية ومن فروعها المهمة اللغة الاكدية وفروعها البابلية والآشورية ولهجاتهما فى أطوارهما المختلفة ، ومن فروع الكتلة الشرقية اللغات العربية الجنوبية كالمعينية والسبئية والحميرية • والكتلة الثانية هى اللغات السامية الغربية ومن فروعها التأريخية المهمة الامورية والكنعانية والفينيقية والآرامية والعبرانية واللغة العربية الشمالية (الحجازية) التى تعد من اللغات السامية القديمة وان لم تأتنا منها آثار مدونة الا فى الازمان المتأخرة •

وتتميز اللغات السامية بصفتها عائلة واحدة بخصائص مشتركة تميزها عن غيرها من اللغات البشرية • وأبرز هذه الخصائص الامور الآتية :

١ ـ تعتمد اللغات السامية على الحروف الصحيحة ولا تعنى بحروف العلة مثل عنايتها بالحروف الصحيحة مع ان اللغات السامية تمتاز بكثرة التصريف وتغير حركات الكلمات فيها .

٢ ـ يرجع معظم المفردات فى اللغات السامية الى أصل أو جذر ذى ثلاثة أحرف وتشتق اللغات السامية من هذا الاصل البسيط صيغا وصورا مختلفة فيها معنى الاصل وزيادة ، وذلك بتحوير حركات الاصل البسيط أو باضافة زيادات الى أوله او وسطه أو آخره . وبهذه الوسيلة من الاشتقاق صار لدى اللغات السامية ثروة كبرى من المفردات فكان ذلك مصدر حياة ونمو فيها . ان هذا الاصل الثلاثى البسيط هو اما الفعل الماضى المسند الى الضمير المفرد المذكر الغائب (كما فى العربية) أو مصدر هذا الفعل ، أى ان أصل المشتقات من المصدر .

٣ ـ مما يميز الفعل فى اللغات السامية انه محدود الزمن ، فالاصل فى أزمان الحدث الماضى والحاضر واستعملت فى العربية بعض الادوات للدلالة على المستقبل من الزمان ، وأساس الفعل الماضى كمال الحدث بالنسبة الى المتكلم وعدم تمام الحدث فى الزمن الحاضر بالنسبة الى المتكلم ايضـ .

٤ ـ ليس فى اللغات السامية الا جنسان هما المذكر والمؤنث .

٥ ـ وفى اللغات السامية ظاهرة غريبة هى علاقة العدد بالمعدود العكسية من الثلاثة الى العشرة ، أى انه يذكر العدد مع المعدود المؤنث ويؤنث مع المذكر[١] .

---

(١) ويفسر بعضهم هذه الظاهرة بمبدأ الاستقطاب (Polarity) الجنسى أى تكميل المذكر بالمؤنث والعكس بالعكس .

٦ ـ ويندر فى اللغات السامية الكلمات المركبة[١] أى ادماج كلمة مع كلمة أخرى لتصير كلمة واحدة على طراز الالصاق فى اللغات الملصقة كاللغة السومرية ٠

٧ ـ ثم ان اللغات السامية تتشابه بوجه العموم بالاساليب النحوية ومن ذلك تصريف الأفعال وميزاتها واشتقاقها وتتشابه فى مفردات اللغة الاساسية ، وأقرب شبيه بعائلة اللغات السامية عائة اللغات الحامية التى من فروعها اللغة المصرية القديمة ٠ ومن الباحثين من يعد عائلة اللغات الحامية وعائلة اللغات السامية انهما كانتا بالاصل عائلة لغوية كبرى انقسمت فيما بعد الى فرعين ٠

(٢) الاكديون

وبعد أن عرفنا شيئا عن الساميين بوجه عام تنتقل بحثنا الى الكلام على أقدم الدول التى كونوها فى وادى الرافدين ٠ وقد عرفت هذه المملكة،كما سبق أن ذكرنا ، باسم السلالة الاكدية لعله نسبة الى بلاد أكد ، أو الى العاصمة التى ابتناها سرجون وسماها أكد ، ولكن يحتمل العكس ٠ وقد قلنا فيما سبق ان عصر فجر السلالات انتهى بقيام أحد الملوك السومريين المشهورين وهو «لوكال زاكيزى» الذى نجح بعد قضائه على سلالة مدينة «لجش» المجاورة لمدينة «أوما» فى توحيد دويلات المدن فى مملكة واحدة ٠ وقد جاء فى الاخبار انه وسع فتوحه الى سورية والى ساحل البحر المتوسط ٠ ولكن ذلك لم يدم زمنا طويلا حيث ظهر فى البلاد زعيم من الساميين هو سرجون الاكدى (ولفظه شروكين ـ أى الملك الصادق) الذى كون من العراق مملكة موحدة فى حدود ٢٣٥٠ ق ٠ م ٠ بعد أن قضى على (لوكال

---

(١) باستثناء أسماء الاعلام فى اللغات السامية فان الغالب فيها انها مركبة وبلغ من تركيب أسماء الاعلام عند البابليين والآشوريين والعبرانيين انها تؤلف جملة مفيدة من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل (أنظر مبحث الديانة حول الامثلة على ذلك) ٠

زاكيزي) ولم يقتصر أمر هذه المملكة على العراق بل انها شملت معظم أجزاء الشرق الادنى بنتيجة فتوح سرجون وخلفائه الخارجية وقد دامت السلالة الاكدية زهاءالقرنين (٢٣٥٠-٢٢١٠ ق٠ م٠) اتحد في عهدها القسم الاوسط من البلاد وهو منطقة بلاد أكد والقسم الجنوبي وهو بلاد سومر • ولهذا السبب سمينا العهود المبتدئة بقيام السلالة الاكدية الى نهاية سلالة أور الثالثة باسم «سومر واكد» كما فعلنا في عنوان هذا الفصل •

ومما يقال عن العهد الاكدي بوجه الاجمال انه لا يمثل فتحا جديدا كما كان يظن سابقا كما ان السلالة الاكدية لا تمثل لنا أول استيطان الساميين في العراق وانما كان الساميون موجودين في العراق منذ أقدم العهود وعاشوا جنب الى جنب مع السومريين ، هذا وقد سبق أن أشرنا الى ان أسماء ملوك سلالة كيش الاولى أسماء سامية ، والواقع ان سرجون مؤسس السلالة الاكدية كان موظفا كبيرا (لعله ساقيا) عند أحد ملوك كيش المسمى «أور-زبابا» ، والمرجح انه ثار عليه وقد وضعت الاجيال التالية حول اسمه كثيرا من القصص الطريفة، حول أصله الوضيع وكيفية تبوئه العرش ، ومن ذلك أسطورة شبيهة بقصة موسى[١] ، ورواية أخرى تصف حملة سرجون الى الاناضول لنجدة حلة (مستوطن) من التجار الاكديين ، متذرعا بحماية الرعايا الاكديين لبسط سلطانه على آسية الصغرى• وقد وجدت نسخة من هذه القصة

---

(١) وملخص القصة على لسان سرجون أن أمه كانت وضيعة (فقيرة) ولا يعرف أباه ، وكان عمه أو خاله من سكان الجبال (لعله في تلول بادية الشام) وكان مدينته المسماة «ازوفيراني» تقع على شاطئ الفرات • وقد حملت به أمه وولدته سرا ووضعته في سفط من القصب واحكمته بالقير ثم وضعته في النهر ، ولكن النهر لم يغرقه • فنشله الفلاح الساقي «آكي» ورباه مثل ولده وعلمه فن البستنه • وحين كان يعمل في البساتين فاذا بالالهة عشتار قد أحبته وجعلته ملكا ، وبقي في السلطان طوال أربعة وخمسين عاما •

حول الاخبار المتأخرة عن سرجون أنظر

(L.W. King, **Chronicles Concerning Early Babylonian Kings**, II, 5).

فى تل «العمارنة» فى مصر (فى حدود القرن الثالث‌عشر ق • م •) وعنوانها «ملك الحرب» •

ومع ان حكم سرجون وعهد السلالة الاكدية لا يمثلان فتحا ساميا جديدا الا انهما مع ذلك كانا عهدا جديدا متميزا فى تاريخ العراق القديم ، وأهم ما يتميز به هذا العهد الجديد نوجزه بالامور الآتية ، فمن ذلك نشوء روح جديدة فى الفن تتميز بالقوة والحيوية والحركة كما تدل على ذلك الآثار المنحوتة التى جاءتنا (انظر ص ١١٨) وكذلك رأس النحاس الاكدى الذى يرجح انه رأس سرجون أو رأس نرام ـ سين (انظر ص ١٢٥) وتلاحظ هذه الروح الجديدة فى فن الختوم الاسطوانية ايضا • وطرأ شيء جديد أيضا فى الكتابة والتدوين فقد صار أكثر الكتابات الملكية والوثائق التجارية يكتب باللغة السامية الاكدية • والواقع ان ذلك بدأ بدرجة قليلة فى عهد لوكال زاكيزى •

كما ان محاولة سرجون لخلق وحدة سياسية تضم دول المدن وتصهرها فى وحدة سياسية قد نجحت أكثر من محاولة خصمه (لوكال زاكيزى) • ولضمان هذه الوحدة السياسية ومن مظاهرها أيضا الامور الآتية :ـ

١ ـ تشير الاخبار المتأخرة عن سرجون انه لم يعتمد على ولاء دول المدن السومرية كثيرا بل انه كون له اتباعا خاصين واقطعهم قسما من الاراضى التى كانت تعود الى المعابد فيما سبق كما انه عين حكاما تابعين له ، والمرجح كثيرا انه أوجد نظام الجيش القائم • وصار حكام المدن فى عهد حفيده «نرام ـ سين» يلقبون أنفسهم بعبد الملك أو خادمه[١] واستمر اتباع هذا العرف الى العهود المتأخرة • ومن مظاهر التوحيد السياسى ان سرجون احتفظ باللقب السياسى الذى اخترعه «لوكال ـ زاجيزى» أى «ملك سومر»

---

(١) أنظر Frankfort, **The Birth of Civilization**, p. 74.

(لوكال كلا ما) وأضاف اليه لقبا مهما آخر لم يعرف من قبل هو لقب «ملك الجهات الاربع» ، ولهذا اللقب الجديد مدلول ديني للحكم عدا مدلوله السياسي ، فقد كان هذا اللقب خاصا ببعض الآلهة العظام ولا سيما «انو» و«انليل» و «شمش» (الاله الشمس) ، والمقصود به انهم كانوا أسياد الخليقة والكون،وباتخاذهذا اللقب صار الملك الحاكم الارضي للخليقة أوالكون. واستعمل الآشوريون لقبا ممـاثلا هو «ملك الكون» (شار كشتي) . ولا يعني لقب «ملك الجهات الاربع» ان سرجون قصد من ذلك تأليه نفسه أو جعل نفسه الها وانما هو ممثل الآلهة في حكم الكون (الجهات الاربع)[١] .

ومن الامور المهمة التي أوجدها سرجون ادخال اسم الملك في العقود مع أسماء الآلهة ، وكان هذا أمرا مهما من وجهين فأولا يعني طاعة الملك والتمسك بولائه وثانيا تثبيت حقوق المتعاقدين ، فان الذي يخل بشروط العقد بعد أن أقسم باسم الملك يسيء الى الملك نفسه ، ولذلك اتسعت صلاحية القضاة الذين كانوا قبل سرجون أشبه ما يكونون بالمحكمين ، ولكن صار حكمهم منذ العهد الاكدي الزاميا باسم الملك[٢] . وبموجب هذا العرف الجديد يكون سرجون قد أوجد بوجه عملي محكمة للاستئناف للبلاد حيث كان هو على رأسها وهي مستقلة عن المدن المختلفة ، وهذه خطوة مهمة في تطور العراق القديم وتطور شرائعه ، وكان حمورابي مثل ذلك أيضا .

ومن وسائل التوحيد المهمة التي أوجدها سرجون ادخاله أسلوبا موحدا للتقويم ، بخلاف عصر فجر السلالات السابق الذي كان فيه لكل مدينـة تقويمها الخاص وأسماء أشهرها وأعيادها الخاصة .

ونختتم كلامنا على سرجون انه ايضا بدأ بتحسين الجيش واسلحته ، فقد تطورت أساليب الحرب والسلاح في عهده فمثلا كانت الاسلحة السومرية

---

(١) ونص هذا اللقب الطريف باللغة السامية «شار كبرات اربعيم» وبالسومرية "lugal an - ub - da limmu - ba"

(٢) أنظر Frankfort, **ibid.** 75 ; **Kingship and the Gods,** 406.



راس دقيق الصنع مسبوك من النحاس (أو البرونز) يمثل ملكا أكديا
(لعله سرجون أو نرام ـ سين عن المتحف العراقى)

ثقيلة مما لا تسهل حركة الجنود فى المناورة فقد كانوا يستعملون التروس الثقيلة الكبيرة على هيئة نظام الصف (Phalanx) الذى سبق أن ذكرناه ، مع الرماح الطويلة والفؤوس الثقيلة ، ولكن الاكديين سهلوا من حركة الجنود فى المناورة مستعملين أسلحة خفيفة كالقوس والنبال كما أدخلوا حرب المبارزة رجل مع رجل •

وقد حكم سرجون زهاء ٥٥ عام وخلفه فى الحكم ابنه «رموش» ، الذى خلفه أخوه المسمى «مانشتوسو» بعد حكم ٩ سنوات • وقد كان هذا شجاعا قويا حكم زهاء ١٥ عاما ، وقد خلف لنا بعض الآثار المهمة منها «مسلته» المشهورة (وهى مسلة هرمية سوداء منقوشة بكتابة تدون أعماله الحربية والاقتصادية والسياسية) وخلفه فى الحكم أقوى ملوك السلالة الاكدية وهو «نرام سين» المشهور الذى حكم زهاء أربعين عاما • وكان هذا

عاهلا عظيما أشتهر بفتوحه الخارجية ، حيث دوخ أقاليم بعيدة ، وقد خلف لنا منحوتات فى القسم الشمالى من العراق مخلدا انتصاراته على القبائل الجبلية ، ومن حروبه التى خلدها فى النصب الذى خلفه لنا (المسمى نصب النصر) قهره للاقوام القاطنة فى جبال عيلام وهضبة ايران (وقد جاء اسمهم بهيئة لولوبى) • كما يحتمل أن يكون رأس النحاس النفيس الذى وجد فى نينوى يمثل هذا الملك الشهير (انظر ص ١٢٥) •

الفتوح الاكدية ونتائجها :

تنجت الفتوح الخارجية التى قام بها سرجون وخلفاؤه البارزون وأشهرهم «نرام ـ سين» تكوين امبراطورية واسعة شملت معظم أجزاء الهلال الخصيب وعيلام وقسما من آسيا الصغرى الى ساحل البحر المتوسط ، وقد التقى النفوذ المصرى فى عصر الاهرام والنفوذ الاكدى فى مدن الساحل الفينيقية مثل جبيل ولكن لم يحدث بين الحضارتين اصطدام مسلح • وتروى لنا الكتابات التاريخية القديمة غزو سرجون اقليم «كبدوكية» لنجدة مستعمرة من التجار الاكديين هناك تأسست للتجارة بالصوف والفضة وأبانت التحريات التى جرت فى منطقة الخابور وجود مستعمرة كبيرة وقصر بناه «نرام ـ سين» المشهور فى تل «براك» على الخابور ، مما يشير الى اتساع السيطرة الاكدية وعناية الملوك بالسيطرة على الطرق الرئيسية المهمة بين سورية الشمالية والعراق • واتسعت الامبراطورية الاكدية فى زمن «نرام ـ سين» حفيد سرجون الذى غزا آسية الصغرى وثبت نفوذه فى ايران وجميع سورية الشمالية ويروى عن سرجون انه وصل الى جزيرة كريت (وقد جاء اسمها فى المصادر المسمارية بهيئة كفتارة التى يرجح أن تكون كفتور الواردة فى التوراة) • وانه جلب السفن المحملة بالنحاس من «مجان» (عمان) ومن «ملوخا» (وهما فى الجزء الجنوبى الشرقى من جزيرة العرب) ومن «دلمون»

(جزر البحرين) وافرغ حمولتها في ميناء عاصمته «اكد» • وقد خلد حفيده «نرام ـ سين» انتصاره في منطقة ديار بكر في نصب من الحجر وجد في هذه المنطقة • وجاءنا منه نصب آخر يمثل فن النحت الراقي من هذا العصر يعرف بـ «نصب النصر» وقد مثل فيه الملك نرام سين وهو على رأس جيشه المنتصر في منطقة جبلية الى الشمال الشرقي من العراق •

كانت الفتوح الاكدية تهدف بالدرجة الاولى الى السيطرة على البقاع الغنية بالموارد والمواد الاولية • وكان الحصول على هذه الموارد الضرورية لحضارة العراق (كالمعادن والاحجار والخشب) غير مضمون دائما بالتجارة والتبادل كما في العصر السابق أي عهد دول المدن التي كانت في نزاع دائم فيما بينها • ولا شك في ان بعض ملوك ذلك العهد مثل «لوكال زاكيزي» قد حاول السيطرة على منابع الثروة في الشرق الادنى ، ولكن السلالة الاكدية بوجه عام قد حققت السيطرة الفعلية على موارد الثروة ويكون الفتح الاكدي بالاجمال أول نظام للامبراطورية في تأريخ البشر السياسي وطلائع الاستعمار الاقتصادي ، وقد درت هذه الفتوحات على الملوك الاكديين خيرات كثيرة ، ظهرت آثارها في تجميل المعابد والقصور في مدن العراق القديم ونتج استغلال هذه الخيرات اتساع الانتاج ورقي الصناعة •

والى المنافع الاقتصادية الكثيرة التي نتجت من هذه الفتوحات كان لها أثر بعيد في تأريخ الحضارة البشرية • فقد عملت على نشر حضارة العراق القديم في جميع أنحاء الشرق الادنى فانتشر استعمال الكتابة واتخذ الخط المسماري في أكثر أجزاء الشرق الادنى وفي آسية الصغرى ، وتحضرت الشعوب التي اتصل بها الاكديون واقتبسوا من حضارة العراق القديم واشتقت منها حضارات فرعية مثل الحضارة الحثية والحضارة العيلامية ، وانتشر كثير من عناصر الحضارة في ديار الشام كالمعتقدات الدينية وعبادة الآلهة • وبهذا السبيل انتقلت أساطير مهمة مثل قصة الطوفان البابلية اسطورة

الخليقة الى سورية وتوارثت روايتها الاجيال المختلفة حتى وجدت طريقها الى التوراة ٠

وقد أسفر الفتح الاكدى بوجه الاجمال عن توحيد أساليب الحياة والحضارة فى الشرق الادنى ، فالسالك فى ذلك العهد احدى الطرق التجارية من جنوبى الاناضول الى سورية الى التقاء الخابور بنهر الفرات ثم الى آشور فى أعالى دجلة واتجه من بعد ذلك الى «مارى» ونزل مع الفرات الى موطن الحضارة السومرية يجد فى أى مدينة يمر بها وحدة فى مظاهر الحضارة الاساسية ، فى الفن والعمارة واللغة والكتابة حيث الخط المسمارى الخط العام فى المصالح والمعاملات التجارية والسياسية ٠

نهاية العهد الاكدى و « الكوتيون »

لقد عم الاضطراب فى أحوال المملكة فى أواخر العهد الاكدى وقد حكم من بعد (نرام ـ سين) ملوك ضعفاء آخرهم «شار كليشارى» الذى حكم نحو ١٥ عاما وخلفه فى الحكم ستة ملوك حكموا زمنا قليلا ولا نعرف عنهم سوى أسمائهم المذكورة فى اثبات سلالات الملوك ، وقد استغلت بعض القبائل الجبلية من شمال العراق وشرقه ضعف الملوك الاكديين المتأخرين ٠ هذا وقد سبق أن نوهنا باتصال ملوك السلالة الاكدية (ولا سيما نرام ـ سين) بالاقوام الجبلية فى فتوحاتهم ، وكان هذا عاملا مهما لاحتكاك الاقوام الجبلية بحضارة القسم الجنوبى وتعلم أسلحتها واساليبها الحربية ٠ فغزت هذه الاقوام البلاد الاكدية وحطمت وحدتها السياسية واستحوذت على أقسام كبيرة منها ٠ ومما لا شك فيه ان عوامل انحلال داخلية هى التى ساعدت هؤلاء الاقوام على انهاء حياة السلالة الاكدية ٠ ومن عوامل انهيار هذه السلالة انه لم يكن من السهل على المدن السومرية أن تخضع الى الحكم الاكدى فتنسى حكمها الذاتى

هذا ولا نعرف أصل الكوتيين بالضبط ولعلهم من جبال لورستان أو من الاقاليم الشمالية الشرقية وقد دون ملوكهم أخبارهم النزرة التى جاءتنا باللغة الاكدية ولعلهم تكلموا بها ، كما انهم لقبو انفسهم بملك «الجهات الاربع» وانهم اتخذوا الحضارة الاكدية بوجه عام•وقد سمى أهل البلادهؤلاء البرابرة «كوتيين» وكان عهدهم عهدا مظلما فى تاريخ البلاد دام زهاء القرن الواحد ، وقد ذكرت اثبات الملوك لهؤلاء «الكوتيين» واحدا وعشرين ملكا لا نعرف عنهم سوى أسمائهم ولكن تشير المصادر الاخرى الى انهم قاموا فى بداية أمرهم بالتخريب والتدمير وكان نظام الحكم غريبا عنهم• والطريف ذكره بهذا الصدد ان جامع اثبات السلالات بعد أن ينهى السلالة الاكدية يعلق بجملة ساخرة «من هو الملك ومن هو غير الملك ؟» اشارة الى الفوضى السياسية التى عمت البلاد فى نهاية السلالة الاكدية • والمرجح انهم لم يبسطوا سلطانهم الا على جزء من البلاد ولا سيما القسم الشمالى منها[١] ومع ذلك فقد كان حكمهم عهدا مظلما كادت تنقطع فيه عنا أخبار العراق القديم لولا قيام سلالة من الامراء السومريين فى مدينة «لجش» (تلو) هى سلالتها الثانية وكانت تعاصرهم وقد عوض ازدهار الحضارة فى هذه المدينة وما يجاورها عن الخمود الثقافى ، وكان سببا فى استمرار سير الحضارة فى فترة القرن الواحد التى حكم فيه الكوتيون •

وقد اشتهر من بين الامراء السومريين الذين حكموا فى مدينة «لجش» فى أواخر هذا العهد أمير اسمه «جودية» [٢] وقد عمل هذا على احياء الآداب السومرية وشيد المعابد الفخمة ، وامتد النشاط التجارى فى عهده الى الاقطار المجاورة • وقد وردت فى كتاباته أسماء مواضع فى شمالى سورية

---

(١) ولعلهم اتخذوا كركوك (أرابخا القديمة) مركزا لهم •

(٢) توجد دلالة تاريخية جديدة فى قانون الملك «اور — نمو» مؤسس سلالة اور الثالثة المكتشف حديثا تشير الى أن زمن جودية ينبغى أن يقع فى عهد مؤسس أور الثالثة أو عهد خلفه «شولجى» •
(S.N. Kramer in **Bullt. of the University Museum** vol. 17 (1952), P. 22).

وفي عيلام وفي البحرين والجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب • وقد جلب منها الاخشاب والنحاس • ومن مآثر «جودية» ازدهار الفن في زمنه • وقد خلف لنا نفسه عددا مهما من تماثيله الجميلة المنحوتة من حجر «البازلت» و «الديوريت» وهي تزين قاعات متحف اللوفر في باريس • وفي المتحف العراقي تمثال واحد من تماثيله ، وجاءنا من «جودية» اكمل واطول نماذج من الآداب السومرية وكذلك من نقوشـه الكتـابية فيما يسمى باسطوانات جودية المكتوبة[1] •

أخذ الكوتيون أعداء الآلهة (كما سمتهم النصوص المسمارية القديمة) يضطهدون المدن العراقية في أواخر أيامهم ، فثارت عليهم مدينة الوركاء بقيادة أميرها السومري «اوتو ـ حيكال»[2] الذي اعلن نفسه ملكا واهاب بأهل البلاد لحرب الطغاة الاجانب فالتفت حوله المدن وبدأ ثورته على آخر ملوك الكوتيين المسمى «تريقان» فقضى على جموعه الكبيرة وخلص البلاد منها فأسس «اوتو ـ حيكال» سلالة في الوركاء هي سلالتها الخامسة ولقب نفسه بملك «سومر واكد» وحكم زهاء سبع سنوات • ولكن حكمه لم يدم زمنا طويلا بسبب ثورة قام بها حاكم مدينة «أور» التابع له • وانتهت الثورة بانتقال الحكم الى هذه المدينة ، وتكونت فيهـا سـلالة تعرف بسلالة «اور الثالثة» يعد عهدها من عهود العراق القديم المجيدة وآخر عهـد في حيـاة السومريين السياسية •

---

(١) حول كتابات جودية انظر
(Thureau-**Dangin, Sumerischen und Akkadischen Koingsin-schriften**))1907).

(٢) يوجد نص تاريخي طريف جاءنا من «اوتو ـ حيكال» دون فيه اخبار حربه مع الكوتيين وطرده اياهم من البلاد •
(انظر
(Thureau-Dangin in R.A., IX,III ff; Gadd, **Sumerian Reading Book** (1924), P. 64).

١٣١



تمثال من حجر «الديوريت» يمثل «جودية» حاكم مدينة لجش الشهيرة
(عن المتحف العراقي)

١٣٢

سلالة أور الثالثة ونهاية السومريين السياسية

عرفنا فيما سبق كيف انتهت الفترة المظلمة التي عقبت السلالة الاكدية وذلك بثورة المدن السومرية المهمة بزعامة أحد الامراء السومريين المسمى «اوتو ـ حيكال» على الكوتيين الاجانب وطردهم وتحرير البلاد منهم بعد أن دام عهدهم زهاء قرن واحد •

ولكن لم يتمتع البطل المحرر «اوتو ـ حيكال» بثمرة انتصاره زمنا طويلا كما ذكرنا من قبل اذ ثار عليه أحد أتباعه ، حاكم مدينة أور المسمى «أور ـ نمو» (وكان يقرؤ اسمه في السابق اور ـ انكر) وبعد نجاح هذا بالثورة بدأ عهد جديد هو عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٥ ـ ١٩٩٨ ق • م) التي يعد زمنها آخر عهود السومريين • وقد وجد حديثا لمؤسس هذه السلالة نسخة من شريعته التي وضعها فتكون بذلك أقدم من شريعة حمورابي بنحو ثلاثة قرون[١] • وقد استطاع ملوك هذه السلالة الخمسة أن يعيدوا انشاء امبراطورية واسعة على طراز الامبراطورية الاكدية شملت جزءا كبيرا من الشرق الادنى ، من ذلك عيلام وبلاد آشور وأجزاء مهمة من بلاد الشام الى حمص ودمشق ووادي الخابور والباليخ والبحرين والى آسية الصغرى ، وانتشرت مع التجارة والفتوح الخارجية حضارة العراق القديم كما كان الحال عليه في زمن الامبراطورية الاكدية •

ويعد عهد سلالة أور الثالثة نهاية حياة السومريين السياسية اذ انهم بصفتهم طبقة حاكمة لم تنشأ منهم سلالات حاكمة بعد ملوك سلالة أور الثالثة السومرية ولكنهم اندمجوا بالساميين الذين سنقرأ عن بعض سلالاتهم التي أقاموها فيما بعد • وعلى الرغم من موت السومريين السياسي ظلت لغتهم وآدابهم تؤثر في العراق القديم • وظلت اللغة السومرية لغة الآداب والدين

(انظر
(1) S.N. Kramer in **Bull. of Un. Museum** Vol. 17, No. 2 (1952).
(2) "Ur-Nammu Law Code" in **Orientalia**, (1954), P. 40 ff.

حتى أواخر أيام الحضارة فى العراق القديم • وخلف دولة السومريين دول جديدة تمثل حضارات جديدة فرعية اشتقت من حضارة وادى الرافدين الاولى أما هذه الحضارات الفرعية فهى الحضارة البابلية والحضارة الآشورية • وبدأت هذه الحضارات بالنشوء منذ العهد الاكدى حيث كانت الاقوام التى تمثل هاتين الحضارتين تتعلم من الحضارة السومرية وتتحين الفرص للانقضاض على سلطة الحضارة «الام» أى حضارة السومريين • ولعل سلالة أور الثالثة كانت آخر دولة عظمى أقامها السومريون للمحافظة على الحضارة السومرية بالقوة وفرضها على الاقوام التابعة لها فى الداخل والخارج بطريق الدولة الامبراطورية ولكن ذلك لم يدم أكثر من مائة عام حيث انهارت من بعد ذلك الحضارة السومرية وحل محلها حضارات فرعية اشتقت منها •

اشتهر ملوك هذه السلالة بأعمالهم العمرانية بالاضافة الى أعمالهم الحربية • فقد عمروا فى معظم مدن العراق القديمة وقد خصوا عاصمتهم أور بالقسط الاوفر من العناية حتى أصبحت فى زمنهم قبلة الشرق القديم • وامتاز عهدهم بازدياد السلطة المركزية ، ولم تقتصر حروبهم وادارتهم على ارجاع امبراطورية سرجون الاكدى حسب بل امتازت دولتهم بالتنظيم وحسن الادارة فى الداخل والخارج وتقدمت طريقة حكم الاقاليم الخارجية بعض الشىء عما كان عليه الحال فى زمن السلالة الاكدية ، وذلك بتقوية الحكم المركزى وتعيين حكام الاقاليم من ادن الملوك بدلا من الامراء الذين كانوا يحكمون بالوراثة • ومن الامور الجديرة بالذكر عن الادارة الداخلية فى هذا العهد توفر الاشارات التأريخية الى قيام ملوك هذه السلالة بتقنين الشرائع بحسب العرف الاجتماعى وتوحيد الاحوال القضائية فى البلاد •

ومن الملاحظات المفيدة عن عهد هذه السلالة ان مؤسسها اتخذ لنفسه لقبا سياسيا جديدا هو « ملك سومر واكد » الذى استعمله « أوتو ـ حيكال » بالاضافة الى لقب ملك « الجهات الاربع » الذى اوجده سرجون الاكدى وامتازت سياسة مؤسس السلالة وكذلك

سياسة خلفائه باتباع سياسة التخفيف من التمييز بين الاكديين (الساميين) وبين السومريين ومحاولة دمج العنصرين في الجيش والادارة ، وبامكاننا جعل عهد هذه السلالة عهد الامتزاج بين القومين ، ولعل ذلك يفسر لنا سبب تسمية أكثر من واحد من ملوك هذه السلالة بأسماء سامية نذكر منهم «شو - سين» وآخرهم «ابى - سين» .

دام عهد سلالة اور الثالثة نيفا ومائة عام (٢١١٥-١٩٩٨ ق . م) وقد انتهت في عهد آخر ملوكها المسمى «ابى - سين» حيث بدأت في أواخر عهد السلالة موجات أخرى من الساميين الغربيين تتغلغل في العراق من الفرات الاوسط من منطقة ماري ، وبالدرجة الاولى من الاموريين وقد استفحل أمر هؤلاء الاموريين في عهد «ابى - سين» الذي يخبرنا بأنه بنى سدا لصد هجومهم .

وهجم على العراق في الوقت نفسه العيلاميون من الشرق[١] وبعد سقوط العاصمة اور حكم في العراق سلالتان متعاصرتان تنازعتا السيادة على القطر زمنا طويلا وعرفتا بسلالتي «ايسن» و «لارسة» نسبة الى المدينتين المعروفتين بهذين الاسمين . فتعد بداية هذا العهد لذلك فترة انتكاس عادت البلاد فيه الى النظام القديم ، نظام دويلات المدن . ولكن بعد حين مر على تأسيس هاتين السلالتين حكمت في العراق في بابل سلالة ثالثة أخرى أصل ملوكها كذلك من الاموريين استطاعت في عهد ملكها السادس حمورابي الشهير أن تقضي على دويلات المدن جميعها فتوحد البلاد وتمد فتوحها الخارجية الى أقاليم الشرق الادنى .

وقبل أن ننهي الكلام على سقوط سلالة أور الثالثة ، نتمهل هنيهة متأملين في أسباب سقوط تلك السلالة التي امتازت بتنظيم الادارة وتماسك

---

(١) كانت نهاية أور الثالثة كارثة في حياة السومريين . وقد خلف شعراء ذلك العهد رثاء محزنا بعد سقوط أور ونهب العيلاميين للمدينة وانتهاك قبور ملوكها .

الحكم المركزى فيها • والواقع ان الاسباب أو الاحوال التى اكتنفت ذلك الانهيار مجهولة لدى المؤرخ الحديث • ومن الطريف ذكره بهذه المناسبة ان أهل اور ومنهم الملك «ابى – سين» يرجعون سبب تحطيم دولتهم وتدمير مدينتهم المعظمة أور الى غضب الآلهة ،ولا سيما غضب الاله «انليل» على أهل اور وعلى الهها (الاه القمر سين اوننا) • ولكن ذلك لا يقنع الباحث فعليه أن يبحث فى العلل التى حطمت تلك الامبراطورية التى لم تصطدم بدولة معظمة فى زمنها فى العالم القديم • واذا رجعنا الى الحوادث القليلة التى نستطيع استخراجها من ألواح الطين من ذلك العهد وجدنا امارات ولمحا على انهيار داخلى وقع فى جسم المملكة أولا فمهد للاقوام الخارجية غزوها للامبراطورية ومن ذلك نجد انه بعد السنين الاولى من حكم «ابى – سين» (السنة الثانية – الرابعة) ينقطع التأريخ بالحوادث الخاصة بحكم ذلك الملك فى مدن مهمة مثل وشنونا وسوسه ولجش (والاخيرة فى سنته الخامسة) وفى «اوما» (فى سنته السادسة) وفى «نفر» (فى سنته الحادية عشرة) • وكانت نفر رمز السلطة السومرية • ومعنى انقطاع ذلك فى عرف العراق القديم ان تلك المدن لم تعد تعترف بسلطة مدينة «اور» وبسلطة ملكها كما اننا نسمع ان حكام الاقاليم أخذوا يتهاونون فى ارسال القرابين الى اله اور (فى سنته السادسة) • ويستدل من كتب الفأل المتأخرة ان جملة ثورات وعصيان قد وقعت فى أجزاء الامبراطورية • وقد نشر حديثا بعض الوثائق التأريخية[١] ما يلقى ضوءا كاشفا على علاقة «اشبى – ايرا» بآخر ملوك السلالة ، أى «ابى – سين» • فالمرجح جدا ان «اشبى – ايرا» كان أولا حاكما على مدينة مارى من قبل الملك «ابى – سين» وانه صار حاكما أيضا على مدينة «ايسن» من بعد ذلك ، فان تلك الوثيقة المكتشفة حديثا فى نفر[١] كانت رسالة من الوالى «اشبى – ايرا» الى سيده ملك أور ، يطلب فيها من الملك الدفاع عن «ايسن» و «نفر» بسبب اندفاع البدو الاموريين وتدفقهم الى داخل

(١) انظر حول ذلك Jacobsen in **Journal of Cuneiform Studies**, VII 2, (1953, 39).

العراق ، ويرجح كثيرا ان ذلك وقع فى السنة السادسة من حكم الملك «ابى - سين» وانهم نهبوا محاصيل السنة وقطعوا موارد العيش عن العاصمة. وتدل ظواهر الاحوال على أن حاكم «ايسن» «اشبى - ايرا» كان مخلصا لملكه في أول الامر ولكنه بعدأن رأى تدهور السلطة المركزية أخذ يدافع عن «ايسن» لصالحه الشخصى ، حتى نجح فى ذلك وأسس سلالة خاصة به فى السنة الثانية عشرة من حكم ملك أور اذ بدأ يؤرخ بحكمه منذ هذه السنة . والى ذلك فان العيلاميين الذين كانوا يتحينون الفرص لغزو العراق هجموا على اور ودمروها بالاضافة الى النهب والسلب مما قام به الاموريون من الفرات الاوسط . ومن الباحثين من يرى ان «ابى - سين» لم يؤخذ أسيرا الى عيلام ، بل انه كان حليفا لها ضد الاموريين وانه ذهب الى حلفائه عندما اشتد ضغط الاموريين على البلاد[١] .

واذ كانت سلالة اور الثالثة نهاية سلطان السومريين السياسى فان عهدها وعهد سلالة لجش الثانية (التى اشتهرت بالملك جودية) كان احياءا أو انبعاثا جديدا للثقافة السومرية وتكاملها ، كما بلغ فيه فن العمارة أوجه ، بحيث نستطيع أن نعده من أعظم عهود العراق القديم فى العمارة ولا سيما فى كثرة المعابد . وما زالت بقايا المعابد التى شيدها «اور - نمو» أو جدد بناءها تشاهد فى كثير من المدن السومرية مثل اور واريدو والوركاء ونفر وغيرها . وقد أبانت لنا التنقيبات العلمية المنظمة فى أور عن أشياء كثيرة مهمة عن فن العمارة ، ويتجلى نشاط «اورنمو» فى البناء فى أور فى معبد الاله القمر (سين اوننا) وكذلك تشييده البرج المدرج الشاهق (الزقورة) التى تعد بقاياها الآن فى خرائب اور من أحسن النماذج لتلك المعابد العالية التى اشتهرت بها حضارة وادى الرافدين . وقد كان الهيكل الداخلى للزقورة مشيدا باللبن ثم غلف بطبقة سميكة من الآجر وقد بقى سالما من الزقورة الآن الطبقة السفلى (٦٢ × ٤٣ م) وارتفاعها ١١ مترا ، وتليها الطبقة الثانية

(١) انظر المرجع فى حاشية رقم ١ الص ١٣٥

(٣٦ × ٢٦ م) وارتفاعها ٦ أمتار وفوقها بقايا من الطبقة الثالثة (٢٠ × ١١م) وما بقى سالما من ارتفاعهـا يبلغ نحو ٣ أمتـــار فيكون مجموع ما بقى من الزقورة زهاء ٢٠ مترا • والمعتقد انه كانت توجد طبقة رابعة فوقهـا المعبـد العلوى الذى لم يبق منه شىء • ومن البقايا المهمة التى بقيت من ماثر ملوك سلالة أور الثالثة قبور ملوكها الفخمة المهمة لانها تبين لنا نواحى مهمة فى طرق الدفن وعقائدهم الدينية ومركز الحكام والملوك واقامة مزارات عنـد قبورهم وهى على طراز قبور المقبرة الملكية من عصر فجر السلالات حيث يتألف القبر من بناية المعبد واخرى تحتها للدفن[1] •

---

(1) Woolley, **Ur-Excavations** II (1934).



تمثال أسد منحوت من حجر البازلت وجد فى اريدو (ابو شهرين ،
ويرجع عهده الى سلالة أور الثالثة)

الفصل الثامن

العهد البابلي القديم

(١) عهد سلالتي «ايسن» و «لارسة»

رأينا فيما سبق كيف انتهت سلالة «اور» الثالثة بالغزو المزدوج الذي قام به «الاموريون» (الساميون الغربيون – أو العرب السوريون) من الفرات الاوسط والعيلاميون من شرق العراق فتكونت بنتيجة ذلك سلالتان متعاصرتان في جنوبي العراق وهما سلالة «ايسن» التي أسسها «اشبي – ايرا» وتقوم خرائب ايسن اليوم في تل يدعى «ايشان بحريات» الى جنوب عفك بنحو ١٤ ميلا والثانية في «لارسه» (نسبة الى مدينة لارسه التي تقوم خرائبها اليوم في التل المعروف بسنكره الى الشمال الغربي من الناصرية بنحو ٧٠ كيلو مترا) وكانت هذه السلالة على ما يبدو خاضعة الى نفوذ العيلاميين وقد حكمت هاتان السلالتان القسم الجنوبي من العراق ، وقد بدأ الآشوريون في حدود هذه الزمن في الشمال يكونون دولة مستقلة عن نفوذ الجنوب (وسيمر بنا بحث ذلك في موضع خاص) • وعلى ذلك فقد عادت البلاد من بعد نهاية «اور» الى نظام دويلات المدن كما كان الحال في عصر فجر السلالات قبل أن يوحد سرجون الاكدي دويلات المدن ويؤلف منها «دولة القطر» وبالاضافة الى هاتين السلالتين والدولة الآشورية استقل في هذا العهد ملوك حكموا في مملكة «اشنونا» في منطقة ديالى (وسيأتي ذكر ذلك) وقد تكونت في بابل بعد مدة على تكوين سلالتي «ايسن» و «لارسه» سلالة ثالثة عرفت باسم سلالة بابل الاولى • وقد تواضع المؤرخون على تسمية العهد الذي دام زهاء ثلاثة قرون (١٩٩٨–١٥٨٠) باسم العهد البابلي القديم ويشمل عهد سلالتي «ايسن» و «لارسه» وسلالة بابل الاولى • أما في مصر فقد تكون عهد جديد بعد الفترة المظلمة التي اعقبت زمن المملكة القديمة ، حيث قامت في

البلاد مملكة جديدة تعرف فى تاريخ مصر القديم باسم المملكة الوسطى التى شملت السلالتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٠٠–١٧٨٨ ق ٠ م) وهى تعاصر العهد البابلى القديم فى العراق وقد انتعشت فى زمنها المملكة المصرية فى الحضارة وفى الاحوال السياسية ٠

سلالة مارى

سلالة مارى

وقامت فى العهد البابلى القديم سلالة من الساميين الغربيين فى مدينة مارى فى الفرات الاوسط ٠ وقد كشفت التنقيبات الحديثة التى أجراها المنقبون الفرنسيون حديثا عن نتائج مهمة عن حضارة ما بين النهرين الشمالية فى مركزها مارى ، حيث قامت فيها ، كما سبق أن ذكرنا ، حضارة سومرية ازدهرت فى عصر فجر السلالات وكشف المنقبون عن قصور كبيرة لملك مارى من منتصف العهد البابلى القديم ، وكان بعض ملوكها يعاصرون حمورابى مما ساعد على ضبط أدوار التأريخ القديم ووجدت عشرات الالوف من ألواح الطين المهمة من بينها جملة رسائل ملكية[١] ٠

واستمر تأريخ «مارى» فى الازدهار من بعد ذلك وكانت كثيرا ما تضم الى الامبراطوريات التى تقوم فى العراق وتستقل عندما يضعف السلطان المركزى فيه ٠ وبدأ الاموريون يهاجرون الى العراق ويتغلغلون وقد رأينا فيما سبق انهم هجموا على العراق وكانوا من الاسباب المباشرة فى اسقاط أور الثالثة ٠

ليس لدينا ما يستحق الذكر عن سلالتى «ايسن» و «لارسه» سوى انهما بدأتا بالنزاع والاحتراب فيما بينهما على السلطة وذلك بعد تأسيسهما بزمن قصير ٠ وقد خصصت اثبات الملوك التى خلفها لنا البابليون انفسهم خمسة عشر ملكا لسلالة «ايسن» بلغ مجموع سنى حكمهم زهاء ٢٢٥ عاما أى ١٩٩٨–١٧٧٣ ق ٠ م وخصصت لسلالة «لارسه» أربعة عشر ملكا

---

(١) حول نتائج التنقيبات فى مارى انظر مجلة
"Syria" Vols. XVI—XXI.
وانظر كذلك المراجع العامة المفصلة فى آخر الكتاب ٠

مجموع سني حكمهم زهاء ٢٦٠ عاما في حدود ١٩٩٨-١٧٣٨ ق • م وقد تبين مما جاءنا من المآثر والمصادر التأريخية ان سلالة «ايسن» الامورية كانت أهم وأخطر من السلالات الاخرى التي قامت في هذا العهد لما قام به ملوكها من أعمال عمرانية في مدن العراق القديم وترميم ما تخرب من البلاد على أثر سقوط سلالة أور الثالثة وقد نشر الباحثون حديثا في عام ١٩٤٧ أجزاء من شريعة مدونة باللغة السومرية ثبت ان مقننها كـان «لبت عشتار» خامس ملوك سلالة «ايسن» وهي تسبق شريعة حمورابي الشهيرة بأكثر من قرن ونصف القرن ولا يخفى لما لهذا الاكتشاف من خطورة تأريخية في تأريخ الشرائع البشرية المدونة[١] • والطريف ذكره عن حوادث هذه السلالة ان الملك الذي خلف «لبت-عشتار» وهو «ايرا - ايمتي» تنازل تنازلا صوريا عن العرش لبستاني له بمناسبة القيام برسوم دينية خاصة لدرء اخطار جسيمة يخشى أن يشترك بها الملك بنفسه مخافة ان يصيبه الشر فيعين بديلا له فصادف ان الملك الاصلي توفي في اثناء الاحتفال (ولعله مات بالسم) فخلفه البستاني المسمى «انليل - باني» في عرش المدينة • أما سلالة «لارسه» فقد قام فيهـا ملوك من البابليين ولكنهـم كانوا على ما يبدو تحت نفوذ العيلاميين • وقـد تدخل الملوك العيلاميون بأنفسهم بشؤون سلالة لارسه ، حيث قضوا على آخر ملك من ملوكها • وقد حدث ذلك في زمن الملك العيلامي «كودر-مابك» الذي نصب ابنه «ورد - سين» ملكا على «لارسه» ومن بعـده ابنه الثـاني «ريم - سين» وقد استمر النزاع بين السلالتين فقضى «ريم - سين» العيلامي ملك «لارسه» على السلالة المنافسة «ايسن» وحكمها بنفسه • وقد حدث قبل هذا الزمن ، بعد تكوين السلالتين المذكورتين بنحو قرن واحد ، ان قامت

---

(١) راجع ذكر شريعة مملكة أشنونا في هذا الفصل ، أما عن قانون لبت عشتار فراجع
The American Journal of Archaeology (1947)
وترجمه المؤلف الى العربية في مجلة «سومر» المجلد الرابع (١٩٤٨) ، الص ٤ فيما بعد •

سلالة ثالثة فى بابل أصلها مثل سلالة «ايسن» من الاموريين وهذه هى سلالة بابل الاولى التى اشتهرت بملكها السادس «حمورابى» الذى صادف مجيئه الى العرش البابلى الزمن الذى قضى فيه الملك العيلامى «ريم ــ سين» على سلالة «ايسن» وقد تمكن حمورابى ، كما سنذكر فيما بعد ، من ان يقضى على العيلاميين بعد معارك طاحنة .

مملكة «اشـنونا» :

ومن دويلات المدن المهمة التى استقلت بعد سـلالة أور الثالثة مملكة عرفت بمملكة «اشنونا» نسبة الى عاصمتها (وتقوم الآن فى الخرائب المعروفة بتل أسمر فى منطقة ديالى) وقد كشفت التنقيبات المهمة التى قام بها المعهد الشرقى لجامعة «شيكاغو»[١] فى عاصمة هذه المملكة وكذلك فى المدن المهمة التابعة لها (مثل خفاجى وتل أجرب واشجالى) عن تأريخ هذه المملكة والمدن التابعة لها وما اعتورها من حوادث ومصائر . فقد نشأت فيها دولة مهمة فى عصر فجر السلالات (٣٠٠٠ــ٢٤٠٠ ق . م) ومن بعد ذلك فقدت استقلالها وصارت تابعة الى الامبراطورية التى أسسها سرجون الاكدى وبسطت سلالة أور الثالثة سلطانها عليها حتى ان حاكمها التابع أقام معبدا خاصا لملك أور المسمى «جميل ــ سين» ويقرأ «شو ــ سين» أيضا[٢] وعقب ذلك عهد استقلت فيه هذه المملكة دام القسم الاعظم من العهد البابلى القديم الى السـنة الثانية والثلاثين من حكم حمورابى حيث قضى على استقلالها فى هذا العام وضمها الى امبراطوريته بعد تغلبه على العيلاميين .

وكان من بين المواضع التابعة الى هذه المملكة جملة مدن ومقار وأراضى واسعة خصبـة فى المثلث الـكائن بين دجلة وديالى . وعثرت مديرية الآثار

---

(١) حول ذلك أنظر المراجع الآتية :
Oriental Institute Communications Nos. 13, 16, 17, 19, 20.
وانظر المرجع المذكور فى حاشية رقم (٢)

(٢) Frankfort et al, **The Gimilsin Temple and The Palace of The Rulers at Tell Asmar** (Chicago, 1940).



صورة المسلة الشهيرة التى نقش فيها حمورابى شريعته (نسخة جبسية عن المسلة الاصلية المحفوظة فى متحف اللوفر)

العراقية فى احدى هذه المدن القديمة (تل حرمل) على مجموعات كبيرة مهمة من الوثائق التأريخية من العهد البابلى القديم ، تخص بالذكر منها نسخة من شريعة ثبت انها شريعة أحد ملوك «اشنونا» الذى يرجح انه «بلالاما» وعلى ذلك تسبق شريعة حمورابى بنحو قرنين من الزمان وشريعة «لبت-عشتار» ملك «ايسن» بنحو نصف القرن ، وبذلك تكون أقدم شريعة معروفة فى تاريخ البشر اكتشفت حتى الآن • وتل حرمل موضع فريد فى بابه لما وجد فيه من الكتابات العلمية والمصنفات المدونة فى ألواح الطين ، وقد اتضح انه كان بمثابة مدرسة أو أكاديمية علمية (انظر المبحث الخاص بالعلوم فى قسم الرياضيات) •

وقد سبق أن أشرنا الى قيام سلالة من الملوك فى بلاد آشور استقلت من بعد سلالة أور الثالثة وظلت كذلك الى زمن حمورابى وأول هؤلاء الملوك ملك اسمه «ايلو - شوما» كان معاصرا لمؤسس سلالة بابل الاولى ومن ملوكهم ايضا «ايريشوم» وسرجون الاول • والذى يلاحظ فى هذه الاسماء أنها أسماء سامية ، فاسم «ايريشوم» مثل اسم «الحارث» بالعربية •

سلالة بابل الاولى :

لقد ذكرنا فيما سبق انه حينما كانت سلالة «ايسن» وسلالة «لارسة» تتنازعان على السلطة بعد تأسيسهما بزمن قصير ، قامت فى العراق سلالة جديدة ثالثة فى مدينة بابل عرفت بسلالة بابل الاولى واشتهرت بملكها السادس «حمورابى» وكانت مثل سلالة «ايسن» من أصل سامى غربى أى من الامورين الذين كانوا فى جهات سورية فى الفرات الاوسط • وكانت الاحوال مواتية لقيام هذه السلالة اذ لم تكن فى البلاد سلطة مركزية قوية بل كانت مجزأة بين دويلات المدن كما ذكرنا •

مدينة بابل :-

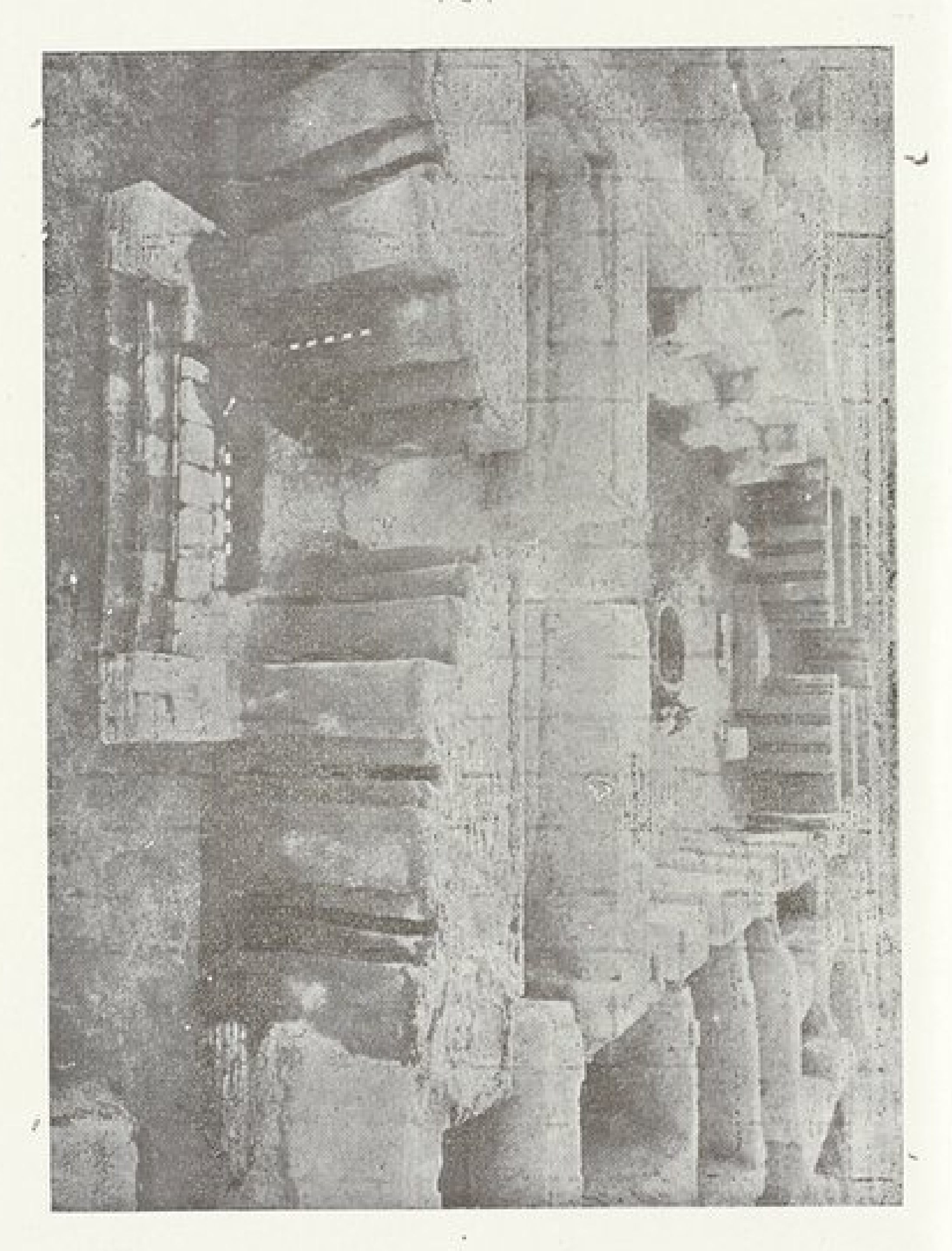
وقد اتخذ مؤسس هذه السلالة المسمى «سومو - آبوم» مدينة بابل عاصمة له • وكانت بابل من المدن الصغيرة التى نشأت فى أواخر عصر

فجر السلالات ولم تكن فى بادىء أمرها على شىء من النفوذ والسلطة السياسية • وقد ورد ذكرها فى أخبار بعض الملوك الاكديين وملوك سلالة أور الثالثة • وبدأ نجمها السياسى يتألق منذ قيام سلالة بابل الاولى فيها فصارت ذات شأن عظيم فى تأريخ البلاد حتى ان اسمها أطلق على أغلب سكان العراق القدماء (البابليين) وكذلك صارت كلمة بلاد بابل تطلق على القسم الوسطى والجنوبى من العراق وصارت عاصمة البلاد الوحيدة حتى نهاية حياة البابليين السياسية ، وعندما بنيت العاصمة الجديدة «سلوقية» على دجلة فى العهد السلوقى بدأ مركز بابل يضعف وهجرها الناس الى العاصمة الجديدة وعمها الخراب وآلت بمرور الزمان الى ما نشاهده الآن خرائب واطلالا •

كانت سلطة هذه السلالة فى أول أمرها محصورة فى عاصمتها بابل وما يجاورها من الاراضى والقرى والمدن الصغيرة • وقد شغل خمسة الملوك الاول من هذه السلالة أنفسهم فى توسيع المدينة واحكام أبنيتها وأسوارها ، وكانوا ينتهزون الفرص على الدوام لضم المدن المجاورة الى بابل وكذلك دويلات المدن القريبة مثل «كيش» و «سبار» (ابو حبه) و «كوثى» (تل ابراهيم الآن) و «نفر» وغيرها • وكان ملوك بابل فيما قبل حمورابى يرقبون النزاع الدائم بين دويلات المدن الاخرى ولا سيما بين السلالتين المهمتين «ايسن» و «لارسة» ويعملون فى الوقت نفسه على توطيد مملكتهم الصغيرة وتنظيم ادارتها والمحافظة على حدودها مستهدفين لا شك خوض المعمعة الحربية مع خصومهم العيلاميين فى لارسة • وقد حدث قبل ان يأتى حمورابى الى الحكم ان العيلاميين انفسهم قضوا على آخر ملك وطنى فى سلالة لارسة ونصب الملك العيلامى الذى انجز هذا الامر (وهو كودر مابك) ابنه «وردسين» ملكا على لارسة ، وأعقبه على العرش أخوه «ريم-سين» وقد بدأت بابل فى عهد هذا الملك بالتحرش بالعيلاميين وذلك فى عهد أبى حمورابى المسمى «سين-موبلط» وعندما تسنم حمورابى عرش بابل بعد ابيه (١٧٢٨ – ١٦٨٦ ق • م)

ورث مع العرش هذه العقبات والمصاعب حيث البلاد مقسمة بين السلالات المتنازعة ، والعيلاميون يهددون المملكة البابلية الفتية بالقضاء عليها • وقد كاد يقضى على حياة المملكة البابلية وهى لم تكتمل فى نموها السياسى ، ولكن حمورابى جمع فى شخصه خصالا فذة جعلت منه القائد والسياسى والمصلح والمشرع فتمكن من ان يخلص المملكة من اعدائها العيلاميين ثم وحد البلاد بعد ان قضى على السلالات الاخرى مثل مملكة اشنونا ومد فتوحه من بعد ذلك الى شمالى العراق والى جهات الهلال الخصيب الاخرى ولاسيما فى ديار الشام معيدا بذلك امبراطورية سرجون الاكدى وامبراطورية سلالة أور الثالثة • ولكن قبل ان يتسنى له انجاز ذلك بدأ بحربه مع العيلاميين حيث انحصر النزاع بينه وبينهم فى زمن ملكهم «ريم ـ سين» ملك «لارسة» الذى قضى فى بداية حكم حمورابى على السلالة الامورية فى «ايسن» فسيطر بذلك على قسم كبير من القسم الجنوبى من العراق • وبدأ حمورابى كفاحه بتقوية الادارة فى مملكته وتوطيد حكمه فى قسم البلاد التابع له واحكام وسائل الدفاع فى مدينته وفى المدن التابعة له • وبدأت فى السنة الثلاثين من حكمه الحرب بينه وبين جموع «ريم ـ سين» العيلامى • فكانت من اخطر الحروب التى شاهدها العراق القديم حيث عبأ كل من الخصمين القويين جموعه وقواه • وأظهر حمورابى من التدبير والحزم مامكنه من تمزيق جموع العيلاميين واحلافهم شر ممزق • وكان انتصار حمورابى هذا حدثا خطيرا فى حياة المملكة البابلية أرخ به الناس الحوادث وتبارى فيه الشعراء فى التغنى بمجد حمورابى البطل ورتلت به الجموع فى معابد بابل ورددت صداه المدن الاخرى •

أصبح «حمورابى» بانتهاء الخطر العيلامى فى وضع مكنه من القضاء على دويلات المدن الاخرى مثل مملكة «اشنونا» ثم تابع فتوحه ومدها الى الشمال فأخضع بلاد الآشوريين وكذلك المناطق الجبلية الى الشرق والشمال • وقد لاحق فلول جموع العيلاميين الى عقر دارهم فبسط سلطانه على بلاد عيلام • وقد اظهرت البحوث الحديثة انه ضم تحت نفوذه معظم الاراضى الشامية •



معبد من العهد البابلي القديم وجد في التنقيبات التي قامت بها مديرية
الآثار العراقية في تل حرمل (لاحظ أجزاء المعبد)

وتفرغ من بعد ذلك لاعمال السلم وتوطيد الامبراطورية واحكام ادارتها • فمن اعماله المهمة انه بعد توحيد البلاد قنن فى اواخر حكمه شريعة واحدة مطردة تسرى احكامها على جميع انحاء المملكة ، وسيأتى البحث فى هذه الشريعة فى مكان آخر • وخلف لنا حمورابى جملة من رسائله الرسمية الادارية التى كان يرسلها الى عماله وولاته فى الاقاليم التابعة له لتسيير شؤون مملكته الواسعة وهى تدل على ماكان عليه هذا الملك من حزم وحنكة وبعد نظر[١] • وامتاز حمورابى بجعل السلطة متمركزة بيده بحيث صار الملك كالهرم فى بناء الدولة •

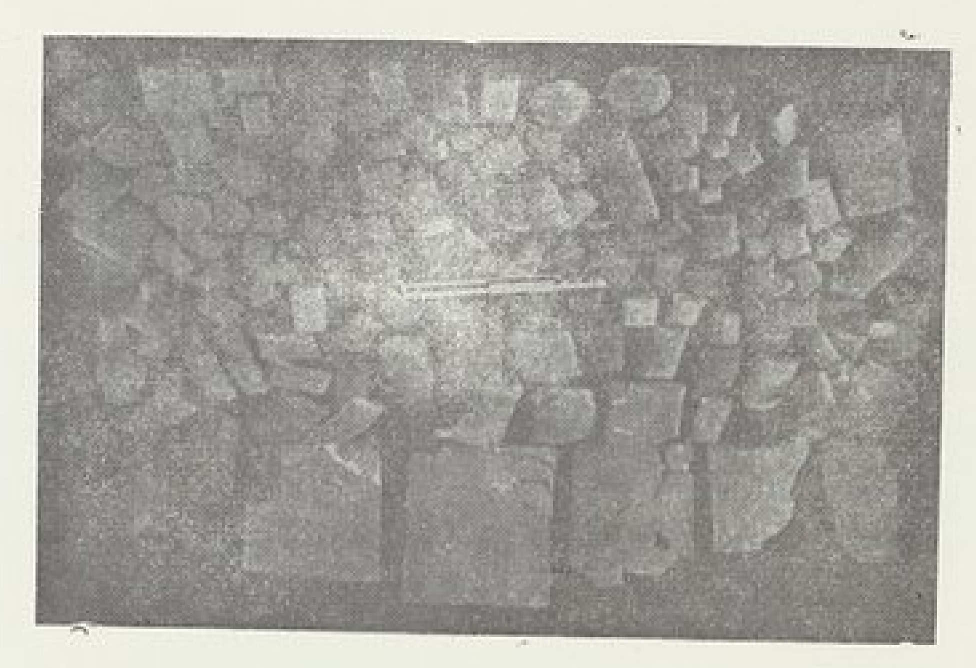
خلف حمورابى خمسة ملوك ورثوا عنه امبراطورية واسعة وقد عمل اوائل هؤلاء على المحافظة على المملكة الواسعة وشغلوا بالحروب الخارجية للمحافظة على ممتلكاتهم خارج العراق وكذلك فى صد الطامعين من الشعوب المجاورة ولكن اضطربت الامور فى عهد المتأخرين منهم • وقد غزا البلاد فى عهد آخرهم (وهو الملك الحادى عشر من السلالة) الحثيون ونهبوا بابل ودمروها واخذوا تمثال الاله «مردوخ» وزوجه الى بلادهم وتشير ظواهر الاحوال الى ان الحثيين لم يمكثوا فى البلاد زمنا طويلا بل انسحبوا بعد اخذ الاسلاب والغنائم وقد انتهت سلامة بابل الاولى بنحو ١٥٠ عاما من بعد حمورابى ولعل الكشيين الذين جاؤا الى العراق فى حدود هذا الزمن هم الذين طردوا الحثيين • وقد أسس الكشيون سلالة جديدة فى بابل عرفت بسلالة بابل الثالثة • أما سلالة بابل الاولى فهى كما ذكرنا سابقا سلالة حمورابى وسلالتها الثانية تكونت من جملة ملوك يرجح ان يكون أصلهم من السومريين ، ثاروا فى زمن ابن حمورابى وخليفته واستقلوا فى الاراضى المحيطة بخليج فارس ولذلك عرفوا بملوك القطر البحرى •

---

(١) انظر حول رسائل حمورابى المراجع الآتية :ـ

(1) Harper, **Letters and Inscriptions of Hammurabi.**

(2) Unagnad, **Briefe Konig Hammurapis.**



مجموعة من الواح الطين من العهد البابلي القديم (من تل حرمل) وهي مدونة بمختلف أنواع الوثائق ، كالمعاملات التجارية والرياضيات واثبات باسماء الحيوانات والنباتات الخ

لقد حكم من سلالة بابل الاولى أحد عشر ملكا كان مجموع حكمهم زهاء ثلاثة قرون (في حدود ١٨٨٠ – ١٥٨٠ ق م) وجاء من بعدهم الكشيون الذين سنأخذ عنهم شيئا في موضع آخر •

٤ – ميزات العهد البابلي القديم

وبعد ان عرفنا شيئا موجزا عن العهد الذي سميناه بالعهد البابلي نختتم كلامنا عنه بتقرير أبرز ميزاته واهميته في تأريخ الحضارات •

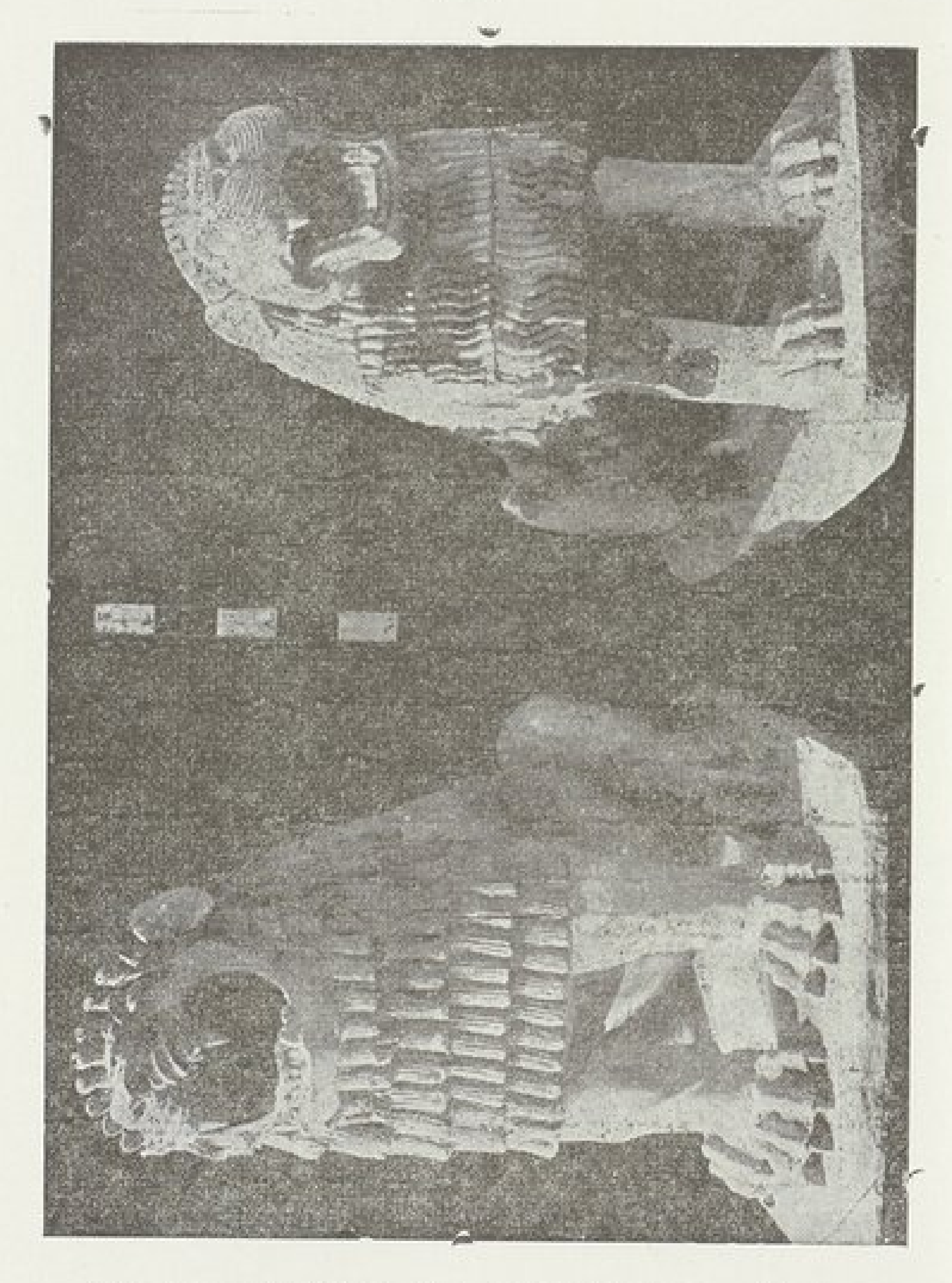
أ – نكرر ما ذكرناه عن هذا العهد سابقا من الناحية السياسية بانه يشمل الزمن الذي أعقب سلالة أور الثالثة الى نهاية سلالة بابل الاولى (أي من بداية الالف الثاني الى ١٥٨٠ق • م) فيكون قد استغرق نيفا واربعة قرون • وكان في بدايته ، كما رأينا فيما سبق ، زمن نزاع واحتراب بين السلالات المختلفة أو دويلات المدن التي تكونت أثر الانحلال السياسي بعد سقوط مملكة «اور» فكانت في بادىء الامر سلالتا «أيسن» و«لارسة» تتنازعان على السيطرة

ودخل الى ميدان الصراع سلالة ثالثة هي سلالة بابل الاولى التي تمكنت من القضاء على دويلات المدن واعادت نظام المملكة الموحدة وتوسيع هذه المملكة الى امبراطورية في عهد الملك الشهير حمورابي (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق ٠ م) فانتشر نفوذ حضارة العراق في الشرق الادنى ، وتمكن نفوذها السياسي في بلاد الشام بعد السلالة الثانية عشرة المصرية (عهد المملكة الوسطى) ٠

ب - لقد ألمحنا فيما سبق الى أن حياة السومريين السياسية قد انتهت بانقراض امبراطوريتهم في نهاية سلالة أور الثالثة ٠ وتفرد الساميون بالزعامة السياسية في جميع أنحاءالشرق الادنى منذذلك الزمن حتى نهاية تأريخ العراق القديم ٠ وكانت الزعامة في باديء الامر بايدي البابليين ثم اعقبهم الاشوريون الذين حكموا الشرق جميعه منذ اواخر الالف الثاني ق ٠م

ج - ولدت بعد سلالة اور الثالثة حضارات فرعية اشتقت من الحضارة السومرية التي كانت من اولى الحضارات البشرية الاصلية ٠ وقد ذكرنا أن من بين هذه الحضارات الفرعية حضارتان نشأتا في مهد الحضارة الاصلية اي في العراق وهما الحضارة البابلية والاشورية ٠ وسنذكر خبر قيام الحضارة الثانية في البحث الخاص بالاشوريين ٠ اما الحضارة البابلية فقد بلغت نموها وسلطانها السياسي في العهد البابلي القديم ، وتكونت منها امبراطورية واسعة منظمة هي امبراطورية حمورابي ٠

د - امتاز العهد البابلي القديم بحركة واتجاه في التأليف والنقل وجمع الشرائع وتقنينها وتدوينها وتنظيم الادارة ونشوء المحاكم المدنية بدلا من محاكم القضاة الكهنة وحدث انقلاب مهم في العلوم والمعارف البشرية حيث انتقلت من أطوارها العملية الى طور التدوين والبحث بحيث يصح ان نعد بداية العلوم البشرية منذ هذا العهد فكأن القوم قد شعروا بأن الحضارة السومرية آخذة في الزوال فبدأ المتطلعون بمعرفة العصر وعلومه بتدوين مآثر السومريين ونقل النصوص الادبية واللغوية والدينية وحورت بعض هذه النصوص والف منها نماذج جديدة من الآداب والتآليف وقد جاءنا



أسدان مصنوعان من الفخار وجدا فى مدخل المعبد فى تل حرمل
(انظر الشكل ص ١٤٧)

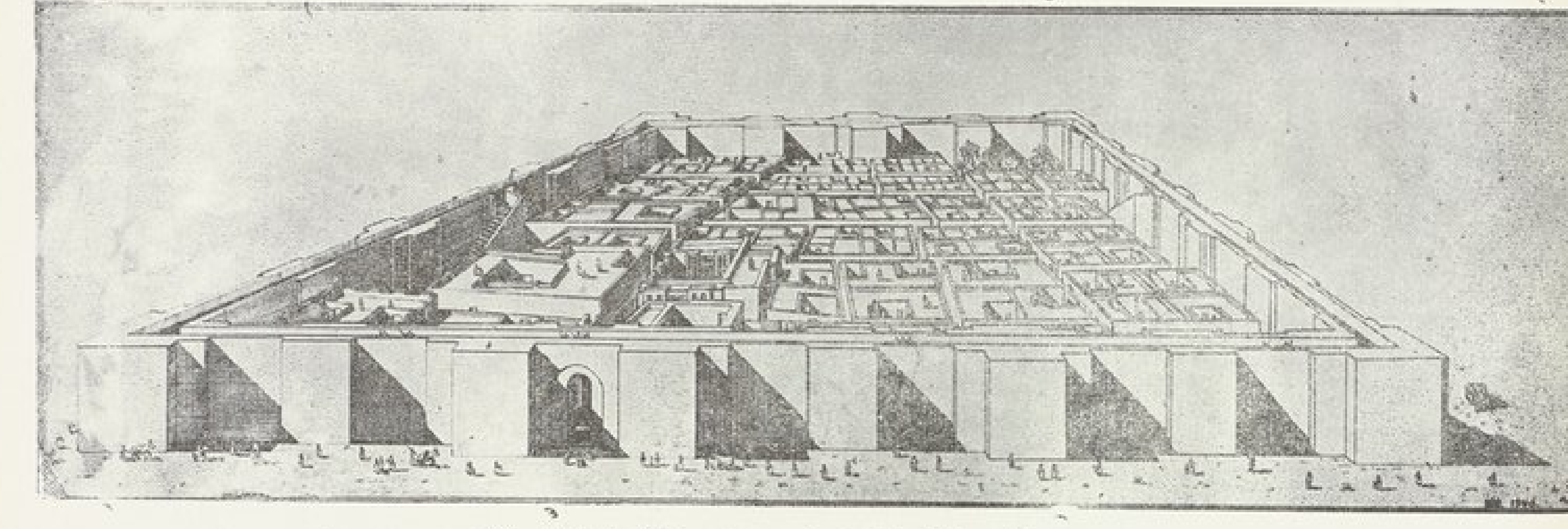
من هذا العهد مجموعات كبيرة من الآداب والمعاجم اللغوية وتدوين اسماء الحيوان والنباتات وغيرها من المواد والمفردات اللغوية فى ألواح كبيرة وكثيرة وجدت فى خزانات كتب معابد المدن المهمة مثل «نفر» و«كيش» واشور وغيرها من المدن القديمة ، ووجدت خزانة كتب مهمة من هذا العهد فى تل حرمل •

هـ ـ واشتهر هذا العهد كذلك بكثرة ماجائنا من الشرائع المدونة من ذلك قوانين سبقت زمن شريعة حمورابى الشهيرة فقد سبق ان ذكرنا شريعة مملكة «اشنونا» التى عثرت عليها مديرية الآثار العراقية فى تنقيباتها فى تل حرمل ، وهى تعود على مايرجح الى زمن أحد ملوك تلك المملكة المسمى «بلالاما»قبل حمورابى بنحو قرنين من الزمان ونوهنا كذلك بالشريعة التى أصدرها خامس ملوك سلالة ايسن المسمى (لبت ـ عشتار) باللغة السومرية وهى تسبق شريعة حمورابى بنحو ١٧٠ سنة ، وجائتنا من هذا العهد كذلك نماذج من القوانين السومرية • وان هذه الشرائع تشير الى اتجاه خطير فى الحياة الاجتماعية وتنظيم العلاقات الاجتماعية بقوانين مدونة تسرى احكامها على جميع الناس التابعين الى الدولة التى تعود اليها تلك القوانين وبلغ اطرادها مبلغا عظيما فى عهد حمورابى الذى وحد البلاد فى مملكة واحدة وأصدر لها شريعة عامة موحدة تسرى احكامها على جميع البلاد • [١]

و ـ ومما يقال عن تاريخ الحضارات فى العهد البابلى القديم اتساع البقاع والمواطن المتحضرة بانتشار الحضارة واتساع رقعتها من وادى الرافدين ووادى النيل الى جميع انحاء الشرق الادنى والى بقاع أخرى نائية لم تكن قد وصلت اليها تأثيرات الحضارات القديمة فيما قبل هذا الزمن • وانتشرت الحضارات القديمة الى اطراف العالم القاصية التى كان يقطن فيها اقوام همج وذلك بطريق الاسفار التجارية ، حتى وصلت تأثيرات الحضارة الى سواحل البحر الاطلسى والبحر الشمالى والى برارى آسية الوسطى وجنوبى

---

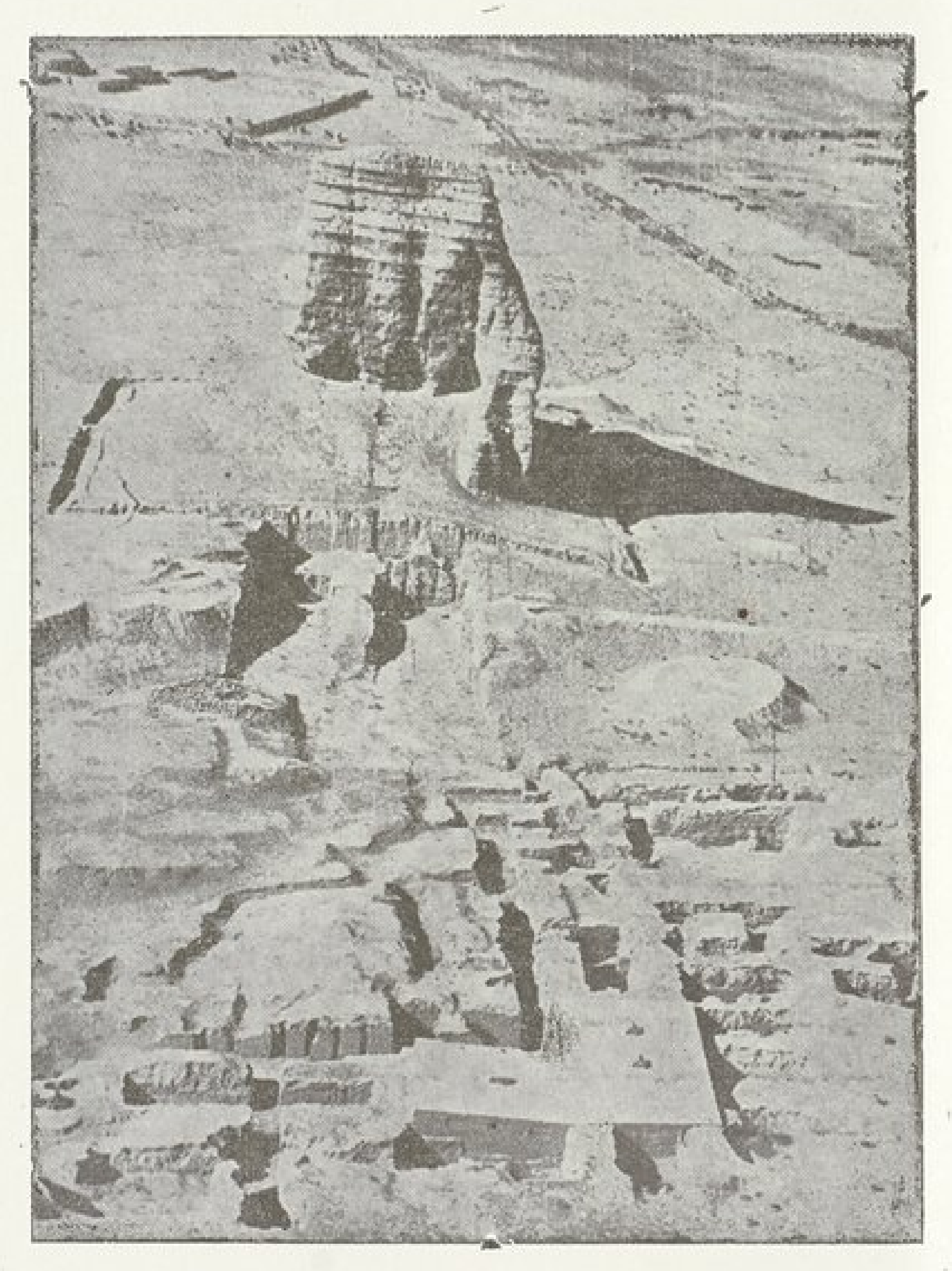
(١) انظر البحث الخاص بشرائع العراق القديم من هذا الكتاب •



نموذج مصغر للمدينة الصغيرة في تل حرمل ، من العهد البابلي القديم
(عن مديرية الآثار القديمة العامة)

الروسية • وكان من نتائج انتشار الحضارة تكاثر السكان وارتفاع مستوى المعيشة عند البشر واتساع الخبرة والمعارف البشرية •

ز ـ وعلى الرغم من الحروب والفترات المظلمة في مراكز الحضارات القديمة فقد اتسعت المدن وكثر سكانها منذ الالف الثاني ، ونشأت عواصم جديدة مثل العواصم الاشورية القديمة كآشور وكالح (نمرود الآن) ونينوى والعاصمة الحثية في آسية الصغرى واتسعت كذلك العواصم والمدن البابلية •وقد كشفت التنقيبات في مواقع العراق القديم عن نماذج مهمةلابنية العهد البابلي القديم من قصور ومعابد ودور سكنى وفيها الآثار الخاصة المثلة لحضارة العراق في العهد البابلي كالفخار والختوم الاسطوانية والكتابات المختلفة كالعقود والوثائق القانونية والرسائل والمؤلفات العلمية واللغوية التي المحنا اليها • فمن بين المواضع التي كشف فيها عن عمارات هذا العهد مواضع في منطقة ديالى كتل اسمر واشجالي وتل حرمل واور والوركاء ونفر • اما في بابل فان ارتفاع مستوى النهر في المدينة أعاقالمنقبين من الحفر والتحري في الطبقات البنائية التي تعود الى العهد البابلي القديم ولاسيما قسمه القديم • كما وجدت نماذج مهمة من القصور من هذا العهد في مدينة ماري «تل الحريري» ومن الاشياء المهمة في حضارة الانسان ان صناعة البرونز التي اهتدى اليها الانسان في العراق في بداية الالف الثالث قد تحسنت وترقت وكثر استعمال البرونز منذ نهاية الالف الثالث وتعلم الانسان في الشرق الادنى تعدين الحديد في حدود ١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ ق • م وصنع الاشوريون وأمم اخرى من الحديد آلاتهم الحربية وعجلاتهم السريعة • وكانت العجلات التي اهتدى الى صنعها السومريون في الالف الثالث من نوع العجلات الصلدة، تجرها الحمر الوحشية ولكن تطور هذا النوع من العجلات الى عجلة اخف واسرع وهي النوع المشبك (Spokedwheel) واستعملت لجرها الخيل بدل الحمير • ومن الامور الخطيرة في اتساع المواصلات وانتشار الحضار ارتقاء الفنون البحرية وانشاء



الزقورة (البرج المدرج) القائمة فى عقرقوف (دور ـ كوريكالزو) فى العهد الكشى (فى حدود ١٥٠٠ ـ ١٣٠٠ ق ٠ م)

السفن الشراعية الكبيرة وقد اتقنت هذا الفن امم مشهورة مثل الايجيين والفينيقيين بعد ان تسلمت اسس الملاحة وبناء السفن من حضارة مصر والعراق •

واتسعت الحضارة بين الشعوب والدول اتساعا نشر الحضارة وجعلها تميل الى التوحيد وقد ظهر ذلك جليا بعد ان تأسست الامبراطورية المصرية بعد طرد الهكسوس من مصر كما سيأتي بيان ذلك في فصل خاص •

الكشيون

ان الاضطراب الذى حل فى مواطن الاقوام الهمجية فى الالف الثانى ق • م وازاحة هذه الاقوام بعضها بعضا وهجرة اقسام منها الى انحاء الشرق الادنى كان السبب فى القضاء على المملكة المصرية الوسطى على ايدى الهكسوس • وبعد ان غزا الحثيون بابل فى اواخر سلالتها الاولى اى سلالة حمورابى جاء قوم جدد الى العراق نتيجة هجرات الاقوام التى ذكرناها [١] وهم الكشيون الذين حلوا محل الحثيين بعد غزوهم العراق ، وقد أسس الكشيون سلالة جديدة فى بابل عرفت باسم سلالة بابل الثالثة وكانت نهاية سلالة بابل الاولى فى حدود ١٦٠٠ ق • م (أو ١٥٨٠ ق • م) ويشير مجرى الحوادث الى ان الحثيين لم يبقوا زمنا طويلا فى البلاد بل كانت غايتهم النهب والسلب • ولعل الكشيين هم الذين طردوهم •

اما هؤلاء الكشيون فقد جاؤا من سرق العراق أو شماله الشرقى • ويظهر ان عددهم كان قليلا • وقد اسسوا سلالة حاكمة دام حكمها زهاء خمسة قرون (من بداية القرن السادس عشر ق • م الى القرن الحادى عشر ق • م) وعرفت سلالتهم باسم سلالة بابل الثالثة ، باعتبار ان سلالة حمورابى الشهيرة هى السلالة الاولى فى بابل ، أما سلالتها الثانية فكانت مؤلفة من ملوك يرجح انهم كانوا من الامراء السومريين استقلوا فى القسم

---

(1) Volkerwanderung

الجنوبي من العراق بالقرب من شواطىء الخليج ولذلك عرفت سلالتهم باسم سلالة القطر البحرى • وقد تكونت هذه السلالة واستقلت فى منتصف عهد سلالة بابل كما ذكرنا سابقا •

لقد اختلف فى اصل الكشيين والشائع انهم من القبائل الجبلية فى المنطقة الكائنة الى شرق دجلة وشمال شرقها ، وانهم فرع من الاقوام الهندية الاوربية واسم «الكشيين» مشتق من اسم الههم القومى على مايرجح• ولم يخلف لنا الكشيون وثائق وسجلات تأريخية مدونة بلغتهم القومية وانما استعملوا لغة البلاد الاصلية اى اللغة البابلية السامية واستعملوا كذلك اللغة السومرية فى بعض المآثر الدينية على نحو ما كان يفعل اهل البلاد وما ذلك الا لأن حضارة البلاد التى فتحوها قد طغت عليهم واندمجوا فيها لانهم كانوا دون هذه الحضارة فى المرتبة ، كما طغت الحضارة الاسلامية العربية على هولاكو واتباعه الفاتحين • ومع ذلك فيستدل من بعض المفردات التى جاءت فى بعض المعاجم البابلية وكذلك من اسماء ملوكهم واسماء الاعلام التى جاءتنا من هذا العهد على ان لغة الكشيين تعود الى عائلة اللغات الهندية الاوربية ، ولا يستبعد كثيرا انهم من القبائل الكردية القديمة •

ومما نعرفه عن الكشيين انهم ، كما ألمحنا فيما سبق ، لم يأتوا الى العراق ولاسيما القسم الجنوبي منه بعدد كبير جدا ، بل كانوا أقلية حاكمة • وقد كان منهم جماعة تعيش فى بابل بهيئة عمال وصناع فى زمن سلالة بابل الاولى قبل ان تأتى جماعتهم الفاتحة فى اواخر تلك السلالة • ومما يقال بوجه الاجمال ان الكشيين اندمجوا بالسكان الاصليين واسرتهم الحضارة التى فتحوها ، ومع ان ملوكهم حافظوا على عبادة بعض من آلهتهم الوطنية الا انهم اعتنقوا الديانة البابلية وقدسوا الآلهة البابلية كما ان عددا من ملوكهم قد سموا انفسهم باسماء بابلية ،وملخص القول استمرت الحضارة البابلية فى سيرها ولم يدخل عليها الكشيون اشياء وتغييرات مهمة الا بعض

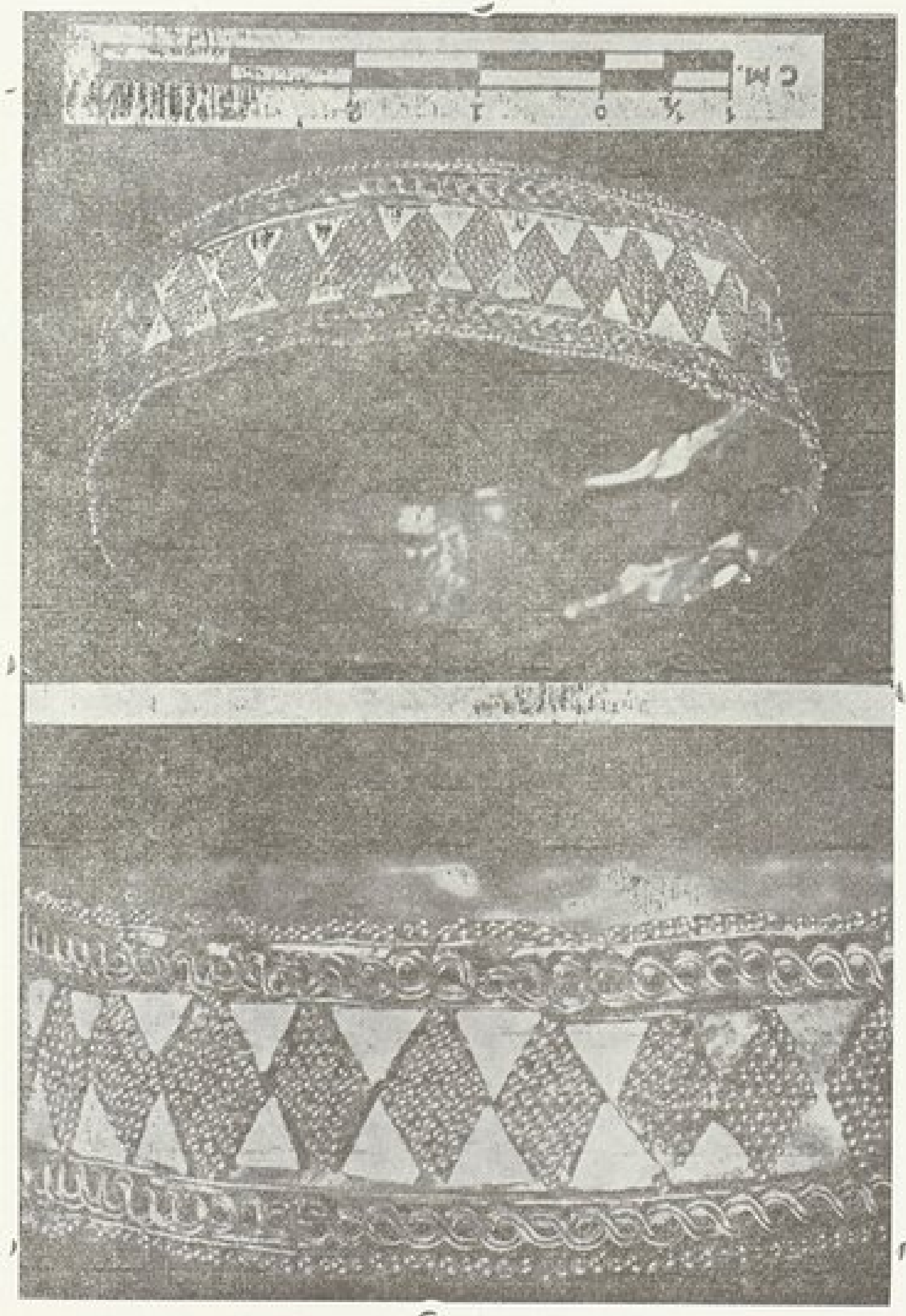
الامور القليلة مثل طريقة تاريخ الحوادث بسنى حكم الملك بدل الطريقة (السومرية ـ البابلية) القديمة الخاصة بالتأريخ من الحوادث المهمة • وبدأ فى عهد الكشيين استعمال وثائق جديدة تعرف عادة باسم احجار الحدود (كدرّو) التى كانت تدون فيها مساحات الاراضى واسماء مالكيها وحدودها •

حكم الملوك الكشيون فى بادىء امرهم فى عاصمة البلاد القديمة «بابل» ولكنهم أسسوا فى منتصف عهدهم مدينة جديدة ضخمة لتكون عاصمة لهم ، سميت باسم مشيدها الملك «كوريكالزو» فصارت تدعى «دور كوريكالزو» أى مدينة أو حصن «كوريكالزو» وقد كشفت التنقيبات التى اجرتها مديرية الآثار العراقية فى هذه المدينة عن آثار مهمة من قصور ملوكها ومعابدها الواسعة الضخمة وكذلك أظهرت نماذج من الاثار الفنية والسجلات التاريخية فانارت نتائج هذه التنقيبات جانبا مهما من تاريخ العراق فى العهد الكشى الذى كان يعد عهدا مظلما بسبب قلة المصادر والمآخذ التأريخيةالتى جاءتنا منه •

لقد صادف قيام السلالة الكشية نمو المملكة الاشورية فى القسم الشمالى من العراق ، وقد نشأت بين المملكتين علاقات حربية وسلمية • وكانت اليد العليا فى بادىء الامر للكشيين ولاسيما فى النزاع على الحدود بين المملكتين حتى انهم فرضوا سيطرتهم ونفوذهم على المملكة الاشورية فى اول الامر • وكانت المملكة الاشورية تعانى الامرين من الازمات والشدائد ولاسيما ضغط الحثيين والميتانيين كما سنبين فيما بعد • ولكن لم يدم هذا الحال زمناطويلا اذ أخذ الاشوريون يتدرجون فى البأس والقوة ، وتخلصوا من ضغط الميتانيين جيرانهم فى الشمال [١] فبدأوا ينازعون الكشيين زعامة العراق السياسية وتم لهم ذلك فى كثير من المرات ابتداء منذ القرن الرابع عشر ق •م حتى انهم كثيرا ماغزوا القسم الجنوبى من العراق وفرضوا على السلالات البابلية حمايتهم وسيطرتهم وعندما تخلصوا من الخطر الارامى فى

---

(١) انظر البحث الخاص بالحثيين والميتانيين وكذلك بحث الآشوريين •



سوار من الذهب المرصع بأحجار كريمة (وجد فى تنقيبات مديرية الآثار العراقية فى عقرقوف)

في نهاية القرن العاشر ، فقدت بابل قوتها وجاءت من بعد سلالة الكشيين سلالات بابلية ضعيفة لم تقو على صد الاشوريين الذين زاد بأسهم منذ القرن التاسع ق • م واسسوا امبراطورية معظمة ضمت جميع انحاء الشرق الادنى ومن بينها بلاد بابل •

بعد ان أسس الكشيون ملكهم في العراق بزمن قصير نشأت الامبراطورية المصرية في مصر بعد طرد الهكسوس فكان عهد من العهود المجيدة في تأريخ مصر ولا سيما في زمن السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة • وقد صاحب تكوين هذه الامبراطورية اتساع العلاقات بجميع اوجهها بين المملكة المصرية ودول الشرق الادنى الاخرى وبلغ اتساع العلاقات مبلغا دخلت فيه الحضارة في الشرق الادنى طورا أصح مايتميز به «الوحدة في الحضارة» ونشأت بين الدول ، بين المصريين والكشيين والاشوريين والحثيين والميتانيين ، علاقات دولية تعد الاولى من نوعها في تاريخ البشر كما سنبين ذلك في القسم الخاص بمصر وقد جائتنا تلك العلاقات كالرسائل المتبادلة بين ملوك ذلك الزمان والمعاهدات السياسية بين الدول والمصاهرات السياسية بين السلالات الحاكمة •

انتهى العهد الكشي في حدود القرن الحادي عشر ق • م على أثر غزوة قام بها العيلاميون من شرق العراق نقضوا على السلالة الكشية وبعد طرد العيلاميين بالحرب من جانب أهل العراق تأسست في بابل سلالات اخرى اولها سلالة عقبت نهاية الكشيين وكان اوائل ملوكها هم الذين طردوا العيلاميين من البلاد وحاربهم أحد ملوكها المسمى «نبوخذ نصر» الاول في عيلام نفسها ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة ان العيلاميين قد اخذوا من العراق بعد غزوهم اياه غنائم كثيرة كان من بينها وثائق تأريخية مهمة مثل مسلة قانون حمورابي ومسلة الملك الاكدي «نرام - سين» وغيرها وقد وجد تلك الآثار المنقبون الفرنسيون في عاصمة عيلام «السوس» •

كانت السلالات التي عقبت سلالة الكشيين ضعيفة بوجه عام وقد



نماذج من دمى الطين التى وجدت في تنقيبات مديرية الآثار العراقية في عقرقوف (لاحظ الفن القوى فى التعبير الدقيق)

صادف قيامها تعاظم الدولة الاشورية منذ القرن العاشر ق • م فصار الاشوريون يتدخلون بشؤون بابل ، وكثيرا مافرضوا سلطانهم ونفوذهم على السلالات الحاكمة ، ولكن كانت بابل من المشاكل المعقدة في سياسة الاشوريين الخارجية ولم يستطيعوا ان يضموها الى مملكتهم بالمصالحة فعمدوا الى غزوها والحاقها بالتاج الاشوري وقد عمد الملك الاشوري «سنحاريب» الى تدمير مدينة بابل تدميرا كاملا في القرن السابع ق • م وظلت بابل تحت حكم الاشوريين حتى نهاية القرن السابع ق • م حيث تخلص البابليون من الاشوريين في حدود ٦٢٦ق • م بان ثاروا عليهم وتحالفوا مع الماديين الفرس للقضاء على الدولة الاشورية • وقد دمرت نينوى وحرقت في العام ٦١٢ق • م على ايدي هؤلاء الاحلاف فزالت دولة الاشوريين كما سنفصل ذلك فيما بعد •

الاشوريون

الفصل التاسع

موطن الآشوريين وبدء تكوينهم السياسي

١ ـ موطن الآشوريين ومكانتهم في التاريخ

كان موطن الآشوريين يتألف من الاراضي الواقعة على جانبي نهر دجلة من خط العرض السابع والثلاثين شمالا تقريبا الى مصب نهر العظيم جنوبا ويحد بلاد الآشوريين من الشمال والشرق سفوح الجبال الشاهقة .

ويكاد يكون موطن الاشوريين على هيئة مثلث بين دجلة والزابين الاعلى والاسفل وبين مرتفعات الجبال الى الشمال والشمال الشرقي ، ومعظمه بهيئة تلال ونجاد واراضي متموجة . وتقع اشهر العواصم الاشورية وهي نينوى في مركز ذلك المثلث في شاطىء دجلة الشرقي . ويتألف من سهول زراعية عظيمة ولا سيما سهل اربيل وكركوك ويتمتع بأمطار كثيرة كما ان فيه انهارا تصلح للري ولم يكن لبلادهم تخوم طبيعية في الجنوب وانما كانت الحدود تتغير تبعا لقوة الاشوريين السياسية . وكذلك كان الحال في الغرب حيث لاتوجد عوارض طبيعية الى الفرات والخابور والباليخ . ولقد عاش الاشوريون في هذه المنطقة منذ العصور التاريخية القديمة وتدرج فيها كيانهم السياسي والعمراني واشتقوا حضارتهم من حضارة العراق الاولى اي الحضارة « السومرية » وكونوا منذ الالف الثاني قبل الميلاد دولة عسكرية اخذت تتدرج في القوة مع حدوث فترات من الضعف وآل امرها الى ان أصبحت امبراطورية معظمة فرضت سلطانها على جميع الشرق الادنى كما سيأتي بيان ذلك .

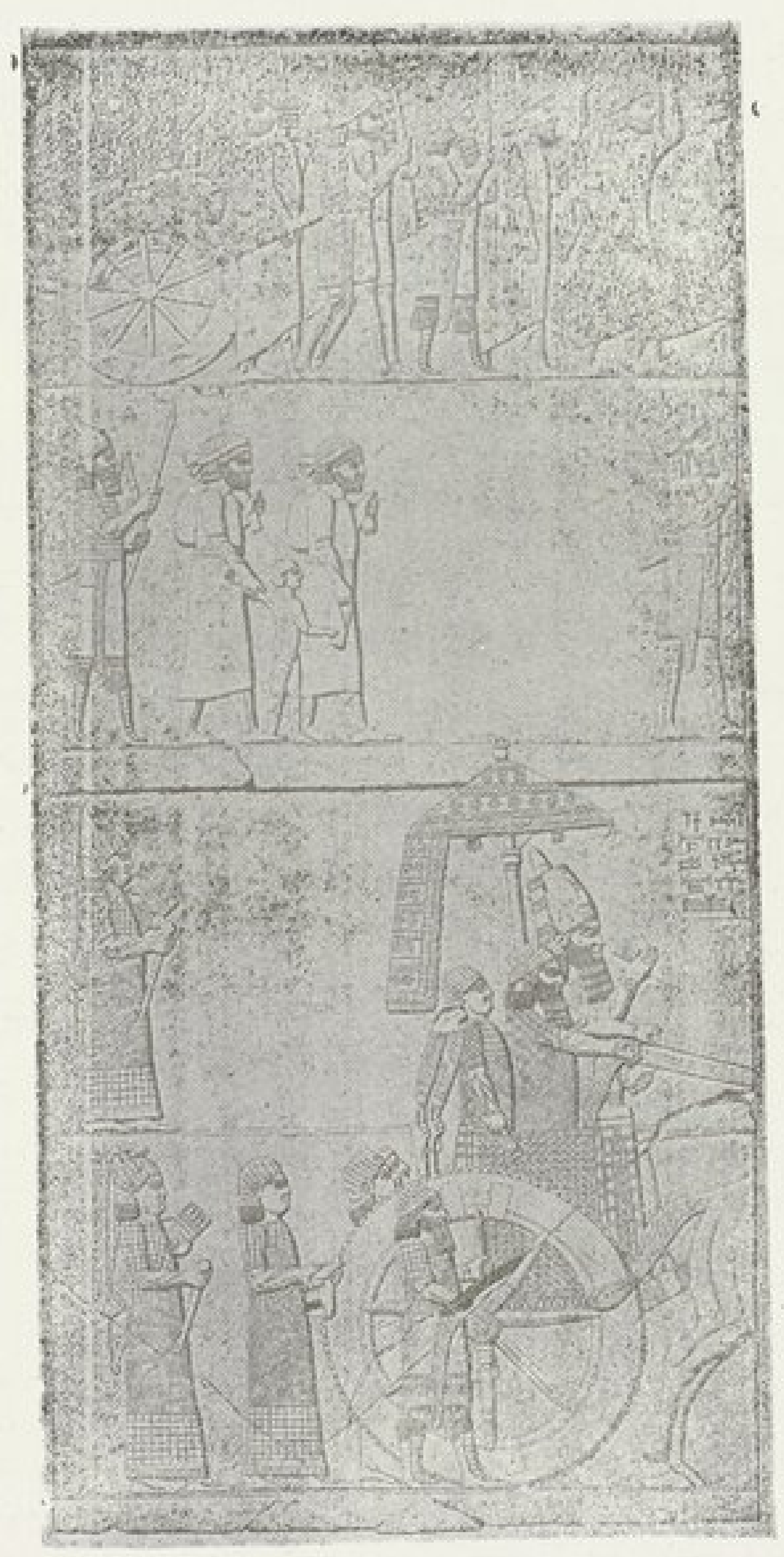
والمرجح كثيرا ان اسم الاشوريين مشتق من كلمة «آشور»[١] وهو اله الاشوريين القومي وكبير آلهتهم ، واطلقت الكلمة نفسها على اقدم مدنهم وهي «آشور» التي تقوم خرائبها الآن في (قلعة الشرقاط) • وللتعبير عن الشخص الاشوري أو الشعب الاشوري كانوا يضيفون ياء النسبة الاشورية (المشابهة لمثيلتها في العربية) الى كلمة آشور ، وجاء اسم الاشوريين في المصادر الآرامية والعربية على هيئة «آثور» • وذكر موطن الاشوريين في المصادر المسمارية بهيئة «بلاد آشور» (مات آشور) • وكذلك ذكر في المصادر المتأخرة مثل جغرافية «بطليموس» (في حدود ١٥٠ ب • م) •

والاشوريون في الاصل فرع من الاقوام السامية التي هاجرت من مهد الساميين الاصلي وهو جزيرة العرب على مايقول به جمهور من الباحثين • وتوجد فرضيات ونظريات أخرى حول اصل الاشوريين ، اذ المرجح ان الاشوريين لم يأتوا رأسا من جزيرة العرب الى شمالي العراق وهم بدوغزاة، وانما حلوا في موطن موقت بعد هجرة اجدادهم من الجزيرة وانتقلوا منه الى البلاد التي صارت فيما بعد موطنا ثابتا لهم ، فمن هذه الفرضيات فكرة ارتآها المستشرقون وهي ان الاشوريين جاؤا من الجنوب من ارض بابل وحلوا في شمال العراق في زمن لعله في العهد الاكدي وقد روت التوراة مايشير الى هذا الرأي (سفر التكوين الاصحاح الحادي عشر) ولعل اقوى مااستند اليه اصحاب هذا الرأي اعتقادهم بان اللغة الاشورية ماهي الا لهجة

---

(١) كانت كلمة «آشور» أو «آشر» تستعمل في العصور الآشورية القديمة في ثلاثة مفاهيم متميزة فتطلق كما ذكرنا على اسم أقدم مدنهم وعلى اسم الاله القومي وعلى اسم البلاد الخاصة بالآشوريين • ولا يعلم بوجه التأكيد معنى الكلمة ، فمن معاني الصيغة «آشر» (الرحمن) ، كما انه من المحتمل أن يكون من أصل سومري (من A. Usar) كما جاء ذلك في بعض النصوص القديمة • وقد يرجع ذلك أن اسم عاصمتهم الشهيرة «نينوى» يضاهي الكلمة السومرية (ننا (Nina) التي كانت تطلق على جزء مهم من دولة مدينة لجش السومرية ، وكلتا الصيغتين مشتقة من الهة خاصة بالماء تخيلوها بهيئة سمكة (نون ـ نينوى) •

(أنظر S. Smith, **History of Assyria** (1923).)



نموذج من المنحوتات الكثيرة التى كانت تزين جدران قصور الملوك الآشوريين (وتبين هذه الصورة الملك سرجون الثانى فى عربته الملكية)

من اللغة البابلية ولكن الواقع ان الفروق بين اللغتين لاتدل على ذلك ، وانما الذي نستطيع ان نستنتجه من التشابه الموجود بين اللغتين انهما منحدرتان من أصل واحد أي انهما من عائلة لغوية واحدة هي عائلة اللغات السامية كما المحنا الى ذلك من قبل • وكانت الفروق اللغوية بين اللغتين الاشورية والبابلية في العصور القديمة فروقا كبيرة أعظم منها في العهود المتأخرة من حدود ٧٠٠ ق • م حيث ان القرب الجغرافي والاتصال بين البابليين والاشوريين جعل الفروق بين البابلية والاشورية اقل منها في بقية فروع اللغات السامية • والى فروق اللغة توجد اختلافات بينة في اساليب الحضارة عند البابليين والاشوريين ، كالاختلافات بين القوانين وتنظيم المحاكم وطريقة تأريخ الحوادث (التقويم) الى غير ذلك من الاحوال الاجتماعية ، ولكن مع كل هذه الفروق فان اوجه الشبه بين الحضارتين الاشورية والبابلية منشؤها اشتقاق كل من الحضارتين من الحضارة السومرية ، ويذهب بعض الباحثين الى ان الاشوريين موجة جاءت من بلاد الاموريين أي من الساميين الغربيين من سورية • وملخص القول كان الاشوريون فرعا من الساميين استوطنوا في شمالي العراق في زمن لعله منذ العصر الاكدي او فيما قبل ذلك وانهم اختلطوا مع الاقوام التي كانت موجودة قبلهم ولا سيما السوباريين[1] ومع الاقوام المجاورة لهم •

---

(١) السوباريون أو السوبارتو وبلاد «سبارتو» • كان هذا الاسم يطلق على موطن الآشوريين قبل عهد تمكن الآشوريين وظهورهم فيه بوجه بارز • وقد ذكر السوباريون والحوريون في مواطن كثيرة في النقوش المسمارية وبحسب أحدث البحوث والتحريات ان المصطلحين ليسا كلمتين تطلقان على قوم واحد بل على قومين متميزين بعضهما عن بعض • فأما السوباريون فقد وردت اشارات عنهم في أقدم النصوص التأريخية وانهم كانوا يعيشون في شمال بلاد بابل ولا سيما في المناطق الجبلية شرقي دجلة في المنطقة الممتدة من دجلة الى جبال زجروس • ولعل المنطقة تمتد جنوبا الى ديالى ، فكانت على ذلك تتضمن بلاد آشور أيضا ، كما ان بعض النصوص تجعل مصطلح بلاد «سوبارتو» معادلا لبلاد آشور ولا سيما باستعمال البابليين ، وكذلك يتضمن بلاد الكوتيين في بعض النصوص ، أما بالنسبة الى =

ولقد مر بنا فيما سبق كيف نشأت في بلاد الاشوريين اقدم عهود ماقبل التأريخ وذلك قبل ان يصير القسم الجنوبي من العراق صالحا للسكنى بأزمان كثيرة ولكن ظهرت الحضارة الناضجة في الجنوب فصار الشمال تابعا الى الجنوب من الوجهة السياسية والحضارية ، ولم يتكون للاشوريين كيان سياسي قوي وينفصل عن الجنوب تماما الا منذ منتصف الالف الثاني ق ٠م ٠ أما ماقبل هذا الزمن فقد كانت تبدر من الاشوريين محاولات للاستقلال وتقوم منهم دويلات ولاسيما عندما يكون الجنوب في فترات سياسية مرتبكة ، مثل العهد الكوتي وعهد سلالتي «ايسن» و«لارسة» ولكن ذلك لم يكن ليدوم زمنا طويلا كما سيمر بنا ذلك في ملخص أدوار التاريخ الاشوري ، ويصح ان نشبه الازمان القديمة التي كانت فيها بلاد آشور تحت سلطان الجنوب السياسي بعهد التلمذة بالنسبة الى الاشوريين الذين كانوا يتعلمون من حضارة العراق الاولى (الحضارة السومرية) أساليب العمران والمدنية ، ويقتبسون منها اسباب الحياة والنمو لتنشئة حضاراتهم ونموها ٠ وبعد ان انتهى طور الاقتباس وعندما ضعف سلطان الجنوب قوى شأن الاشوريين من وجهة الحضارة والسياسة وكونوا من بعد المنتصف الثاني من الالف الثاني ٠ ق م دولة ذات كيان مستقل وتسلموا زعامة الشرق القديم عندما لم تقو بلاد بابل على حملها ٠ ويصح ان نعد الحضارتين البابلية والاشورية حضارتين «اختين» تحدرتا من

= الآشوريين فكانت بلاد سوبارتو بلاداجنبية معادية ٠ أما أصلهم فمن الاقوام الجبلية غير السامية مثل الكوتيين والكشيين ٠ أما الحوريون فهم قوم متميزون عن السوباريين ، وقد برزوا في التاريخ منذ منتصف الالف الثالث ق ٠ م منذ العهد الاكدي ٠ وأقرب لغة تشبه لغتهم اللغة الاورارطية في اقليم بحيرة وان ٠ وقد اتسعوا في انتشارهم في أنحاء الشرق الادنى في النصف الثاني من الالف الثاني ق ٠ م وتغلغلوا في القسم الشمالي من العراق وكانت من مراكزهم المهمة «نوزي» وكركوك ، وكذلك ظهروا في بلاد الشام ومنهم ظهرت دولة في شمالي بلاد ما بين النهرين سميت باسم مملكة «ميتاني» وكانت لغتهم من اللغات الهندية الاوربية ٠

(أنظر أحدث المراجع في الموضوع
(I. J. Gelb, **Hurrians and Subarians**, 1944).



نموذج من المنحوتات الآشورية ، وتمثل الصورة شكل اله حارس

«أم» واحدة هى حضارة «سومر واكد» . وكان بين الاختين تشابه ، ولكنهما لم يكونا نسخة مطابقة للام بل كان لكل منهما «شخصيتها» الخاصة المميزة وكان بين الحضارتين تشابه الاصل كما ان الحضارة الاشورية اعتمدت على الحضارة البابلية ، فاستفادت من تجاربها واساليبها ، وبوسعنا تمثيل علاقة الثقافة الاشورية بالثقافة البابلية انها كانت كعلاقة الثقافة الرومانية بالثقافة اليونانية

ولقد أثرت فى الاشوريين وهم فى موطنهم الذى حددناه قوى ومؤثرات خارجية فالى ضغط دول الجنوب التى تعلم الاشوريون منها

حضارتهم تعرض الاشوريون في الوقت نفسه الى ضغط مستمر من الاقوام التي كانت تعيش في جوارهم • وكان بعض هؤلاء من الاقوام الاشداء من سكان الجبال المجاورة وجاء بعضها بهيئة هجرات عنيفة كالاراميين وكان الارمن في جوار الاشوريين في منطقة بحيرة ارراط ووان ، والى كل هذا نشأت في جوار الاشوريين دول قوية كادت تقضي عليهم كالحثيين والميتانيين • وتعرض الاشوريون من بعد الميتانيين منذ القرن الثاني عشر ق • م الى ضغط القبائل الارامية الكثيرة ، فنشب بين الطرفين صراع رهيب شغل طوال القرنين الحادي عشر والعاشر ق • م لقد تعرض الاشوريون الى هذه المحن والشدائد فكانت امتحانا عسيرا ، ولكن الاشوريين خرجوا منه وهم اصلب مايكونون عودا واشد قوة ورهبة •

ان هذه الدول المجاورة والاقوام والقبائل التي تحمل الاشوريون ضغطها ونجحوا في تلقي ضرباتها لم تقتصر اطماعها على الاستيلاء على القسم الشمالي من العراق ، موطن الاشوريين ، بل كانت تطمع الى ذلك في الجنوب موطن الحضارات الاصلية ، وموطن «ام» الحضارة الاشورية وعندما كان في الجنوب دول معظمة كان باستطاعتها ان تدفع عن نفسها غائلة هذه الاقوام الطامحة • ولكن لم يكن الحال كذلك في جميع الازمان ، اذ ضعف الجنوب بعد سلالة حمورابي ، فوقعت على الاشوريين وهم يعيشون في طريق الطامعين بحضارات العراق وظيفة تاريخية[١] مهمة هي صد هذه الاقوام عنهم وعن الجنوب ، وسنرى من فتوحهم الواسعة ان التراث الحضاري الذي ورثوه عن حضارات الجنوب قد دافعوا عنه وعملوا على نشره في جميع انحاء الشرق الادنى •

ولعل فشل الاشوريين في ايامهم الاخيرة في تأدية هذا الواجب التاريخي كان سببا قويا في القضاء عليهم ، وذلك عندما وجهوا ضرباتهم

---

(١) من الممكن اعتبار موقع الآشوريين بالنسبة الى حضارات العراق القديمة ما يعرف باسم (Marches) اي أقوام التخوم والحدود •



نموذج من المنحوتات الآشورية يمثل ما يعرف باسم الثيران المجنحة (مركبة من جسم ثور مجنح ورأس انسان) التي كانت توضع في مداخل المباني العامة لتقيها الشر ، حيث كانت بمثابة الملاك الحارس

المميتة الى بلاد بابل بدلا من ان يصدوا الاقوام الطامعة كالسيثين والماديين وقبائل الفرس الاخرى التي بعد ان قضت على الاشوريين وجهت همها الى بلاد بابل فضربتها وهي بمفردها ضربة قاضية تقوضت على اثرها حضارة العراق القديم .

٢ - بدء تكوين الآشوريين الحضاري والعهد الآشوري القديم

لقد مرت على بلاد الاشوريين اطوار وادوار قديمة قبل ان يتكون لهم كيان سياسي ودول معظمة ، فقد رأينا في بحثنا في حضارة العراق القديم ان الجزء الشمالي من العراق كان أقدم تكوينا فظهرت فيه اطـوار من حضارات ماقبل التأريخ قبل ان تظهر علائم سكنى البشر في الجنوب ولذلك

فان قصة بلاد الاشوريين طويلة نسهل روايتها بتقسيمها الى فصول اى ادوار تاريخية بارزة • وبالامكان تقسيم تلك الاطوار ، وبضمنها عصور ماقبل التاريخ الى ثلاثة عهود (١)العهدالقديم (٢)العهد الوسيط (٣) العهدالحديث•

أما العهد الاشورى القديم فانه يكون حقبا طويلة ولا سيما اذا ادمجنا فيه اطوار ماقبل التاريخ الذى مر بنا بحثها فيما سبق من تأريخ العراق ، ويصح ان نصطلح على تقسيم العهد الاشورى القديم الى طورين نطلق على اقدمهما عنوان «التكوين الحضارى» لبلاد اشور ، وعنوان الطور الثانى «بدء التكوين السياسى» ولما كنا قد درسنا اطوار العهد الاول فيما مر بنا من عصور ماقبل التاريخ فسنقتصر بكلامنا هنا على موجز الطور الثانى ولاسيما الاحوال التأريخية لبلاد الاشوريين منذ عصر فجر السلالات حتى نهاية العهد البابلى القديم الذى مر بنا • ولقد ابانت التحريات فى بعض المدن الاشورية مثل آشور ونينوى ، وجود آثار من الحضار السومرية من عصر فجر السلالات ولا سيما الاخير منه • أما الحياةالسياسية فى بلاد اشور فى هذا العهد فلا سبيل الى معرفتها على وجه التأكيد لانه لما يأتنا من بلاد الاشوريين من ذلك العهد مصادر مكتوبة نستشف منها الاوضاع السياسية هناك • ولنا ان نفترض ان الشمال كالجنوب كان فى فجر حياته السياسية على طراز دويلات المدن فى الجنوب • ووقعت بلاد آشور ضمن الامبراطورية الاكدية بعد عصر فجر السلالات ولكن الاشوريين الذين خضعوا الىالاكديين وجدوا الفرصة مواتية فى نهاية العصر الاكدى فى زمن فترة الكوتيين المظلمة فى الجنوب ، فاستقلوا بعض الوقت ولقد وردت فى اثبات الملوك الاشورية اسماء ملوك لانعرف عنهم سوى اسمائهم التى تبدو انها غير سامية ولا نعرف زمنهم بوجه التأكيد ولكن لعلهم حكموا فى بلاد آشور فى فترة العهد الكوتى •

وقد ضمت بلاد الاشوريين الى الامبراطورية السومرية فى عهدسلالة أور الثالثة حيث كان ملوك اور يعينون ولاة على بلاد آشور فنعرف مثلا أن

الحاكم المسمى «زريقو» حاكم اشور قد شيد بناء ولعله معبدا لعشتار باسم سيده «بورسين» او «امارسين» ملك اور وفي نهاية هذه السلالة يبدأ العهد البابلي القديم في الجنوب ولقد رأينا فيما مر بنا من تاريخ العراق انه حدث بعد سلالة أور الثالثة زمن عادت فيه الاحوال السياسية في بلاد بابل الى ماكانت عليه في زمن دويلات المدن ، حيث حكمت في العراق سلالات متنازعة ومنها سلالتا «أيسن» و«لارسة» ثم تكونت من بعد ذلك سلالة ثالثة في بابل هي سلالة بابل الاولى دخلت كذلك في النزاع السياسي ،ولعل السوبارين انتهزوا فرصة الفوضى السياسية في الجنوب فكونوا مملكة في الشمال واستولوا ايضا على بلاد اشور .والمرجح ان بعض الملوك الواردة اسماؤهم في اثبات الملوك الاشورية هم من هؤلاء السوباريين مثل «ككيا» و«اوشيا» ولكن من بعد ذلك نجد الاشوريين انفسهم يؤسسون سلالة خاصة بهم ويبدأون بناء مملكة قوية موحدة مستقلة ، وظهر منهم ملوك وامراء أقوياء منهم الملك المسمى «ايلو - شوما» [١] الذي كان يعاصر مؤسس سلالة بابل الاولى «سومو آبوم» .وتشير الاخبار التاريخية الى انه كانت له علاقات مع الملك البابلي . فيخبرنا الملك الاشوري نفسه انه «حرر الاكديين ومدنهم» ولكن هذه لشارة غامضة قد تعني انه ساعدهم أو انه غزاهم . وبلغت المملكة الاشورية في زمن الملك الاشوري «شمسي - أدد» الاول مبلغا من القوة مكنها من فرض سلطانها على القسم الشمالي من بلاد بابل ولاسيما مملكة «اشنونا» وعلى سورية بل حتى على بابل نفسها زمنا قصيرا . وقد عاش هذا الملك قبل حمورابي وعاصره حمورابي في أواخر أيامه كما عاصره في مدينة ماري «زمري لم» قبل ان يستولي عليها وقد عين أحد ابنائه المسمى «يسمع أدد» على مدينة «ماري» كما تشير الى ذلك الرسائل التي وجدت في هذه المدينة . وجاء من بعد «شمسي - أدد» ابنه «يسمع - أدد» الذي يشير اسمه و كذلك

---

(١) وقبله ورد ملكان في اثبات الملوك وهم «بوزر - آشور» الاول الذي يرجح أنه هو الذي أسس السلالة الجديدة من بعد الملوك السوباريين ، ثم ابنه الوارد اسمه بهيئة «شالم-أخوم» ثم ابنه «ايلو-شوما» .

اسم ابيه الى انه من اصل سامى غربى أى من الاموريين • وقد استمرت المملكة الاشورية فى قوتها بعض الوقت وظلت كذلك حتى الجزء الاخيرمن حكم حمورابى ، حيث قضى هذا الملك على استقلال المملكة الاشورية بعد أن قضى على جموع العيلاميين فى عامه «الثلاثين والواحد والثلاثين» فخضعت بلاد آشور الى الجنوب ودخلت ضمن امبراطورية حمورابى ، ولكننا لا نعرف بوجه التأكيد كم استمر هذا الوضع من بعد حمورابى ، ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه انه قد قام فى بلاد آشور بعد نهاية سلالة بابل الاولى ملوك انتهزوا ضعف الجنوب بعد سلالة حمورابى فى عهد الكشيين فأعادوا كيان بلادهم السياسى بالتدريج ، وسنتتبع مصير بلاد آشور فى هذا العهد الذى اصطلحنا على أن نسميه بالعهد الآشورى الوسيط •

العهد الآشورى الوسيط :ــ

بوسعنا أن نحدد هذا العهد ، كما ذكرنا سابقا ، من نهاية العهد البابلى القديم فى حدود القرن السادس عشر ق • م • أى من نهاية سلالة بابل الاولى وينتهى ببداية حكم الملك الآشورى «أدد ــ نرارى» الثانى فى نهاية القرن العاشر وبداية القرن التاسع ق • م • حيث يبدأ تاريخ الآشوريين الحديث فيكون قد دام العهد الذى سميناه بالعهد الوسيط نيفا وخمسة قرون وهى حقبة طويلة دأب فيها الآشوريون على تنمية كيانهم السياسى بعد فترة السيطرة التى فرضها حمورابى عليهم ، وابرز ما يتميز به هذا العهد هو ان الآشوريين تعرضوا فيه الى سلسلة من الامتحانات والمصاعب بسبب ضغط الدول والاقوام التى كانت تجاورهم • وسنرى من بحثنا ان الآشوريين خرجوا من هذه الشدائد أشداء أقوياء اذ خلقت منهم هذه الشدائد التى امتحنوا بها قوة عسكرية رهيبة فرضت سلطانها على شعوب العالم القديم عدة قرون •

ولعل خير سبيل للوقوف على سير تاريخ الآشوريين في هذا العهد ان نوجز ما ذكرناه سابقا عن الدول التي نشأت في الشرق القديم بعد سلالة بابل الاولى وبعد حكم الهكسوس في مصر • فأولا تكونت في مصر امبراطورية معظمة بعد طرد الهكسوس منها ، دامت خمسة قرون (١٥٨٠–١٠٨٥) وبسطت نفوذها على جهات البلاد السورية حتى الفرات الاعلى ، وقد اصطدمت هذه الامبراطورية مع امبراطورية أخرى نشأت في حدود هذا الزمن وهي الامبراطورية الحثية التي بسطت كذلك نفوذها ونازعت المصريين في حروب دامية طوال قرن من الزمان • وقد منعت هاتان القوتان الحربيتان أي توسع للآشوريين فقبعوا في عقر دارهم يتربصون الفرص المواتية • والى هذا لم تكن العلاقات بين الآشوريين والكشيين في بابل تتميز بحسن الجوار على الدوام ، فقد نازع الكشيون المملكة الآشورية في تدرجها بالقوة وحدثت بين الطرفين حروب ومعاهدات • وتشير ظواهر الاحوال الى ان اليد العليا كانت للكشيين في بادىء الامر ، وتعرض الآشوريون الى اخطار اخرى اشد اتتهم من دولة اخرى تكونت كذلك في المنتصف الثاني من الالف الثاني ق • م • وهي دولة الميتانيين[1] التي تكونت بجوار الآشوريين من جهة الغرب • وقد بلغت هذه الدولة من البأس مبلغا تمكنت من السيطرة على البلاد الآشورية في القرن الخامس عشر ق • م • وظلت كذلك زهاء القرن الواحد • وتخلصت بلاد آشور من السيطرة الميتانية من بعد ذلك • وافاد الآشوريون من توازن القوى الدولية في ذلك العهد ، اذ كان الحثيون يرمون القضاء على المملكة الميتانية وادخالها ضمن امبراطوريتهم في منافستهم مع المصريين •

---

(١) لقد سبق ان نوهنا في الحاشية ١ الص ١٦٦ بدولة ميتاني وقلنا انها اسم سياسي لمملكة أنشأها الحوريون في المنتصف الثاني من الالف الثاني ق • م • وقد غزا ملكهم المسمى «سوشتار» المعاصر للفرعون المصري طوطمس الثالث بلاد «آشور» وكذلك فعل الملك «تشراتا» •

وقد بدأ الحثيون يتدخلون في شؤون هذه المملكة في زمن الملك الآشوري «آشور – اوبالط» الاول (١٣٦٢-١٣٣٧) الذي انتهز الفرصة فحارب الميتانيين في عهد ملكهم المسمى «ارتاتاما الثاني» (١٣٦٦-١٣٥٩) واستطاع أن يخلص البلاد الآشورية من النفوذ الميتاني بالمرة ويؤسس عهداً انتعشت فيه المملكة الآشورية حيث انه بعد التخلص من النفوذ الأجنبي أخذ في تحسين الاحوال الداخلية وتقوية الجيش الآشوري ، ونراه بعد نجاحه الباهر يلقب نفسه بالملك العظيم • وتشير الحوادث التاريخية الى أن هذا الملك كان على صلات ودية مع الحثيين ولعله اتفق معهم في ازالة الدولة الميتانية اذ انه حصل على جزء من تلك المملكة • وكان كذلك صديقاً للفرعون المصري «امنوفس» الرابع أو «اخناتون» وبعد تخلصه من الخطر الميتاني وتوطيده شؤون مملكته التي انشأ فيها جيشاً قائماً مدرباً صار يتدخل في شؤون البابليين حيث زوج ابنته من الملك الكشي ، وبفضل هذا الزواج السياسي صار الملك الآشوري يتدخل في شؤون بابل ويفرض نفوذه عليها مما حدا بالبابليين الى أن يثوروا ويقتلوا ملكهم الصنيعة الآشورية ونصبوا بدلا منه رجلا آخر فجرد الملك الآشوري حملة تأديبية على المناوئين للسياسة الآشورية ونصب على العرش البابلي ملكا كشيا آخر من أقرباء الملك المقتول •

خلفاء آشور – اوبالط :–

سارت الدولة الآشورية في نموها وتوطيدها ثم توسعها في عهد الملوك الذين خلفوا هذا العاهل الآشوري العظيم وكان اكثر هؤلاء الخلفاء من طراز مؤسس الدولة حيث التزموا السياسة الحكيمة في تقوية المملكة دون الدخول في مغامرات حربية وفتوحات جديدة تستنزف قوى الدولة ، فنهجوا على نهجه وعمل بعضهم على توسيع سلطان الآشوريين الى جهات الشرق الاوسط فنشأت بذرة الامبراطورية الآشورية التي نمت وأصبحت

فيما بعد منذ القرن التاسع قبل الميلاد • وكان اول هؤلاء الذين خلفوا «اشور – اوبالط» «انليل – نرارى» و «ادد – نرارى» الاول ثم شيلمنصر الاول •

كان «شيلمنصر الاول» (١٢٦٦–١٢٤٣ ق • م •) من مشاهير ملوك هذا العهد ويعد بحق من اعاظم الملوك الاشوريين ولا سيما فى حقل التوسع والفتوح الخارجية بعد ان توطدت شؤون المملكة وقد خلد شهرته وذكر اعماله المجيدة الملوك الآشوريون الذين أتوا من بعده • وعندما اتسعت رقعة المملكة ادرك هذا الملك تعذر ادارتها من العاصمة الاشورية القديمة «آشور» فابتنى له عاصمة جديدة هى «كالح» (وتسمى خرائبها الآن نمرود) •

ومما وطد أمر المملكة الآشورية ان جاء الى العرش الآشورى بعد شيلمنصر خليفة كفوء هو ابنه «توكلتى – ننورتا» الاول (١٢٤٣ – ١٢٢١ ق • م •) الذى نهج على سيرة أبيه فى نشر السيطرة الآشورية وتوسيع حدود المملكة وتوطيد شؤونها • وقد ضم المملكة البابلية الى التاج الآشورى بعد حرب ناجحة شنها على الملك البابلى «كاشتلياش» فصار بذلك يلقب نفسه بملك «سومر واكد» وقد خلد هذه الحادثة المهمة بان شيد مدينة جديدة قبال آشور سماها باسمه أى «كار – توكلتى ننورتا» • ولكن حدثت فترة انتكاس من بعد هذا الملك اذ اضطرب الامر فى البلاد الآشورية وثار عليه ابنه وقتله فابتدأ عهد انحطاط وركود تقلصت فيه حدود المملكة وجاء ملوك ضعاف دام عهدهم زهاء النصف قرن (١٢٣٢–١١٧٥ ق • م •) فانتهزت بابل هذه الفرصة وثارت على السلطة الآشورية ولم تكتف بأخذ استقلالها وتخلصها من النفوذ الآشورى بل انها عكست الآية وفرضت نفوذها على البلاد الآشورية زمنا ما •

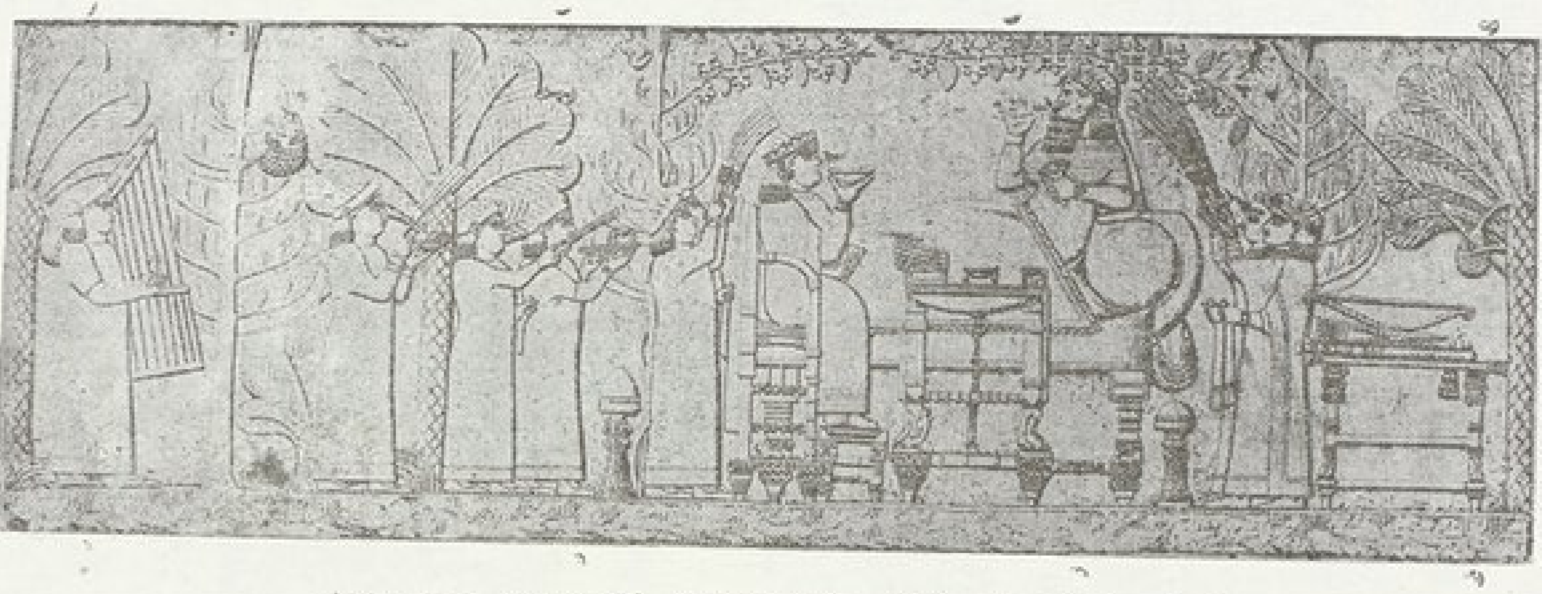
وبعد فترة الانتكاس هذه انتعشت أحوال المملكة الآشورية وجاء الى العرش ملوك أكفاء بدأوا يعيدون الى المملكة مجدها السالف أشهرهم

«تجلاثبليزر» الاول (١١١٧-١٠٨٠ ق ٠ م ٠) الذى كان فاتحا من الطراز الاول فأصبحت المملكة الآشورية فى زمنه ، بنتيجة فتوحه الخارجية من الدول المعظمة فى الشرق القديم فقد مد فتوحه فى جهة الشمال الى بحيرة «وان» وضم بلاد الارمن الى المملكة الآشورية ٠ وامتدت رقعة الامبراطورية فى جهة الغرب الى سواحل البحر المتوسط ٠ وقد خلف لنا هذا الملك الآشورى أخبار حروبه وفتوحه مدونة تدوينا مفصلا ، ولم تقتصر أعماله على الحروب بل شملت مشاريع عمرانية منها تعمير العاصمة الآشورية القديمة (آشور) التى انتقل اليها واتخذها مقر امبراطوريته ٠ وقد خلف لنا هذا الملك عن حكمه سجلات ملكية مفصلة ٠

ولكن لم يكد ينتهى عهد الملك «تجلاثبليزر» الاول حتى وجد الآشوريون أنفسهم ازاء أعظم ما مر عليهم من الاخطار الخارجية وهم فى دور البناء والتوسع السياسى ٠ وقد جاءهم هذا الخطر من القبائل الآرامية الكبيرة التى بدأت تغزو جهات الشرق الادنى وتثبت أقدامها وتؤسس لها دويلات فى الاقسام الشمالية من العراق وفى جهات سورية ، فاصطدموا بالتوسع الآشورى وهددوا كيان الآشوريين بالزوال فجرى بين المعسكرين نزاع رهيب شغل الآشوريين طوال قرنين من الزمان (القرن الحادى عشر والقرن العاشر) فعمل هذا الخطر على تدهور الدولة الاشورية وتقلص حدودها فى أولى أطوار النزاع وهو الذى شمل حكم أحد عشر ملكا خلفوا «تجلاثبليزر» الاول ، وقد دام هذا العهد المضطرب من حدود ١١٠٠ الى حكم آشوردان الثانى (٩٣٣-٩١١ ق ٠ م) ٠

اتجهت القبائل الآرامية فى استيطانها فى بقاع الهلال الخصيب ثلاثة اتجاهات ، فقد حل فرع منهم فى وسط البلاد الشامية وشرقها من دمشق الى حماة ، وقد كون هذا الفرع فيما بعد دويلات تجارية ازدهرت ولكنها اصطدمت بالتوسع الآشورى منذ القرن التاسع ق ٠ م كما سيمر بنا ٠ واستوطن فرع ثان من الآراميين جهات الفرات الاوسط والمراعى والاراضى

١٧٨



نموذج من المنحوتات الآشورية البارزة التى كانت تزين قصور الملوك الآشوريين • وتبين الصورة احد الملوك الآشوريين فى مجلس شراب عائلى مع زوجته ، وفوق رأسه تتدلى الكروم

في شمال ما بين النهرين وكان هذا الفرع هو الذى اصطدم به الا شوريون فى أول الامر بعد عهد «تجلاثبليزر» الاول فضيق على الآشوريين وهدد مملكتهم بالزوال • وبالاجمال كان هذا العهد من أخطر ما تعرض له الآشوريون فى تكوينهم السياسى ، وكان أول القرنين اللذين شغلا بالحروب والكفاح بين الآشوريين والآراميين أخطر واظلم عهد مر على الآشوريين وبدأوا فى القرن الثانى وهو القرن العاشر يتنفسون الصعداء قليلا • وما انتهى هذا القرن الا والآشوريون فى عهد من البأس والقوة مكنهم من صد هذا الخطر الجسيم وظهر منهم ملوك عظام تولوا هذا النزاع الرهيب وخرجوا منه ولهم امبراطورية معظمة تطلب تكوينها طوال القرن التاسع ق • م وهو القرن الذى انقلبت فيه الكفة على الدول الآرامية فى شمال العراق وعلى الدول التى انشأها الآراميون فى سورية • ويدخل هذا القسم من التأريخ الآشورى فى العهد الذى سميناه بالعهد الحديث الذى سيأتى الكلام عليه • وملخص ما يقال عن الصراع بين الآشوريين والآراميين انه بامكاننا تقسيمه الى دورين :ـ (١) ففى الدور الاول كان محصورا بين الآشوريين والآراميين الساكنين فىالفرات الاوسط وأراضى ما بينالنهرين،ويشمل هذا الطور العهد الآشورى الوسيط وبداية العهد الآشورى الحديث • (٢) وفى الدور الثانى : بعد قضاء الآشوريين على الخطر الآرامى الآتى من المجاورين لهم ، توجهوا الى ضرب الآراميين الذين استوطنوا ديار الشام وكونوا دويلات فى دمشق وحلب وحماة وغيرها ، وقد وقع النزاع منذ بداية العهد الآشورى الحديث الذى سنوجزه فى الفصل الآتى •

الفصل العاشر

العهد الاشوري الحديث

والامبراطورية الاولى

لقد رأينا كيف تفاقمت الاخطار فى أواخر العهد الآشورى الوسيط ولا سيما الفترة التى أعقبت زمن تجلاتبليزر الاول ، ومما زاد فى الطين بلة حلول القحط والجوع فى البلاد الآشورية علاوة على الاخطار التى كانت لا تزال تهددها من ضغط الدويلات الآرامية ، وفى وسط هذه الازمة المظلمة ظهر من الآشوريين رجل يصح أن نعده رجل الساعة . وكان هذا «آشور ـ دان» الذى كان على شىء من القوة والحكمة فتدارك انهيار المملكة الآشورية وبدأ بالجيش وجند الشعب الآشورى واستطاع أن يحتفظ بالبقية الباقية من المدن الآشورية الرئيسية ، فمهد هذا الملك لبدء عهد جديد وأسس سلالة جديدة ، وخلفه على العرش الآشورى ابنه «ادد ـ نرارى» الثانى (٩١١ ـ ٨٩٠ ق . م) الذى اعتبرنا حكمه نهاية العهد الوسيط وبداية عهد جديد فى تاريخ الآشوريين[١] . وقد دام هذا العهد حتى نهاية الآشوريين السياسية فى العام ٦١٢ وهو العام الذى سقطت فيه نينوى أى انه دام زهاء ثلاثة قرون من ٩١١ حتى ٦١٢ ق . م . وقد بلغ الآشوريون من القوة العسكرية درجة مكنتهم من ان يسيطروا على حياة الشرق طوال هذه القرون الثلاثة وكونوا امبراطورية معظمة كانت اعظم واوسع ما مر بنا

---

(١) ومما يذكر عن عهد هذا الملك بالنسبة الى التاريخ الآشورى والتقويم الآشورى ان الكتبة الآشوريين قد بدأوا منذ حكمه يدونون ما يعرف فى التاريخ الآشورى باسم «اثبات اللمو» أى تاريخ كل سنة بحكم موظف كبير ابتداء من تبوأ الملك الجديد عرش المملكة وهذا من جملة الاسباب الاخرى لجعل عهد هذا الملك بداية دور جديد فى التأريخ الآشورى .

من الامبراطوريات في تاريخ العراق والشرق القديم ، وقد شغل أوائل الملوك من هذا العهد في ازالة الخطر الآرامي من جوار الآشوريين فقضوا على الممالك الآرامية القريبة وضموها الى المملكة الآشورية • ولم يكتف الآشوريون في ذلك بل وسعوا في القرن التاسع فتوحهم وبدأوا بالقضاء على الدويلات الآرامية الاخرى في انحاء سورية وسيطروا على الأقوام والاراضي التي كانت تهددهم في الشمال والشرق • كما ان المملكة البابلية قد ضعف أمرها واصبحت اشبه ما تكون بالمحمية تحت نفوذ الملوك الآشوريين • ولم يكد ينتهي القرن التاسع ق • م الا والامبراطورية الآشورية تشمل جميع الشرق الادنى ودخلت بلاد مصر في حوزتها في القرن السابع • وقد عملت هذه الامبراطورية على نشر حضارة العراق ممثلة بالحضارة الآشورية •

ويمكننا تسهيلا للبحث ان تقسم العهد الآشوري الحديث الذي بدأه «ادد ـ نراري» الى حقبتين قامت في كل منهما امبراطورية آشورية معظمة • فالامبراطورية الاولى هي التي وضع أسسها «ادد ـ نراري» واستمر خلفاؤه في بنائها وتوطيدها وقد دامت من نحو ٩١١ الى ٧٤٥ ق•م• أي انها دامت زهاء القرن ونصف القرن ويمكن تحديدها بالنسبة الى الملوك من حكم «ادد ـ نراري» الثاني حتى بداية حكم «تجلاتبليزر» الثالث • وتشمل الامبراطورية الثانية البقية الباقية من التأريخ الآشوري أي من ٧٤٥ الى ٦١٢ ق • م • فلنترجم بايجاز الملوك المشهورين من زمن الامبراطورية الاولى وهم الملوك الذين خلفوا مؤسس الامبراطورية «ادد ـ نراري» الثاني •

(١) «توكلتي ننورتا» الثاني (٨٩٠ ـ ٨٨٤ ق • م •)

خلف أباه «ادد ـ نراري» الثاني على العرش الآشوري وسار على خطاه ووسع حدود المملكة ووطدها وقد عمل هو والملوك الذين خلفوه من ملوك الامبراطورية الاولى على فرض السيادة الآشورية الدائمة على ممالك

الشرق القديم المجاورة فصار من مستلزمات السياسة الآشورية الحربية اخضاع القبائل الجبلية في الشمال والشرق ضمانا لسلامة الامبراطورية فأقيمت حصون وحاميات عسكرية في النقط السوقية المهمة في الحدود وعني هؤلاء الملوك كذلك بالسيطرة على الطرق الحربية ـ التجارية المهمة التي كانت تربط أجزاء الشرق الادنى القديم منها الطرق المهمة المتجهة غربا المارة بمنطقة الخابور الى سورية الشمالية[١] • وكذلك الطريق المتجهة شمالا الى جبال طوروس والى كبدوية ، والطريق المارة ببادية الشام • وكانت المحافظة على هذه الطرق تستلزم اخضاع الاراضي والقبائل المحيطة بها ، وعلى هذه السياسة سار الملك «توكلتي ـ ننورتا» • ومن الطريف في أخبار هذا الملك الآشوري انه قام برحلة عسكرية لكي لا يبقى الجيش عاطلا ولايقاع الرعب في نفوس الاقوام المجاورة للآشوريين • وقد بدأ بسيره العسكري من عاصمته واتجه غربا لتمكين السلطان الآشوري بين القبائل الآرامية ثم رجع وسار الى جنوبي العراق معيدا فرض النفوذ الآشوري على البابليين • وقد دونت هذه الرحلة مفصلة في أخبار الملك الرسمية وهي على قدر كبير من الاهمية التأريخية ولا سيما ما يخص جغرافية الشرق القديم[٢] •

(٢) «آشور ناصر بال» الثاني (٨٨٤ – ٨٥٩ ق• م •)

وقد خلف اباه «توكلتي ـ ننورتا» الثاني على العرش الآشوري • واتسعت في عهده حدود المملكة الآشورية وتوطد سلطانها على الاقليم التابعة • وقد خلف لنا هذا الملك أخبار حملاته وغزواته الحربية واعماله

---

(١) لقد كانت هذه الطريق من الطرق المهمة الرئيسية منذ أقدم العصور التأريخية اذ كانت تربط كذلك القسم الجنوبي من العراق بسورية الشمالية وقد اسس الاكديون مواضع لحماية هذه الطريق كما أظهرت نتائج التنقيبات في الموضع المسمى تل براك •

(٢) انظر

Luckenbill, **Ancient Records of Babylonia and Assyria**).

الاخرى مدونة بالتفصيل فى كتاباته الرسمية وكان اشهر ما انجزه من حملات حربية تلك التي جردها على القبائل الجبلية الى شرق دجلة وحملاته الى جهة الغرب لتمكين السلطان الآشورى على القبائل الآرامية ، ولا سيما الدول الآرامية الممتدة على ضفة الفرات اليسرى • وقد جدد بناء العاصمة القديمة «كالح» وجعلها مركزا عسكريا مهما ، وقد كشف عن اعماله وبعض قصوره وآثاره المهمة فى التنقيبات الحديثة التى اجرتها البعثة البريطانية فى النمرود (كالح)[١] •

(٣) شيلمنصر الثالث ٨٥٩ – ٨٢٤ ق • م •

وهو ابن «آشور ناصربال» وخليفته على العرش الآشورى • وقد ورث عن ابيه امبراطورية واسعة برهن على انه كفوء للقيام بالمحافظة عليها وتوطيد أمورها بل واتساعها وكان حكمه الذى دام خمسة وثلاثين عاما سلسلة حملات حربية مهمة جعلته سيد آسية الغربية من خليج فارس حتى جبال أرمينية شمالا ومن تخوم الاراضى الماذية حتى سواحل البحر المتوسط • وقام كذلك بجملة حملات على الدويلات السورية • ولعل أهم حملاته تلك التى وجهها الى الشمال الى بلاد ارمينية[٢] نحو مرتين ومن أخبار هذا الملك المهمة انه قام برحلة الى ينابيع دجلة والفرات (٨٤٥ ق• م) • كما ان بلاد بابل صارت خاضعة للنفوذ الا شورى • وفى الموقعة الشهيرة التى وقعت فى القرقار (عام ٨٥٣) فى بلاد الشام تذكر اخبار هذا الملك اسم العرب لاول مرة فى التاريخ حيث انضم الى حلف الدويلات السورية بعض القبائل العربية فى

---

(١) انظر نتائج الحفريات منذ عام ١٩٥٠ فى مجلة Iraq).

(٢) كانت تتكون خلف جبال ارمينية قوة مهمة من السكان الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «هالديني» أو «خالدين» وسموا بلادهم «بيانا» • أما الآشوريون فقد سموها «أورارتو» ومنها كلمة «أراراط» الواردة فى التوراة بكونها الجبال التى استقرت فيها سفينة نوح (سفر التكوين ٨:٤)

حول تفصيل هذه الحرب والمصادر الرئيسية انظر
(Olmstead, **History of Assyria**, (1923), pp. 110 ff.)

بادية الشام . وقد دونت اخبار حملاته الحربية فى مسلته المشهورة بالمسلة السوداء حيث دون فيها حملاته الحربية منذ ان تولى العرش حتى السنة (٣١) من حكمه وقد نقشت عليها صور الملوك والامراء الذين أدوا للملك الجزية وخضعوا للنفوذ الآشورى وهى الآن من انفس الآثار فى المتحف البريطاني ، وصورت مشاهد من حروبه فى صفائح البرونز التى عثر عليها فى موضع «بلاوات» (وهى مدينة امكر ـ انليل القديمة) وكانت هذه الصفائح اغلفة لابواب المدينة .

ضعف الامبراطورية الآشورية الاولى

لقد حدث فى السنين الاخيرة من حكم شيلمنصر الثالث ما عكر عليه حياته فقد ثار عليه احد ابنائه الذى استطاع ان يستميل الى جانبه معظم المدن الاشورية فعرض المملكة الاشورية الى الانهيار اذ نشبت حرب اهلية دامت زهاء ست سنوات مات فى خلالها شيلمنصر والنزاع لا يزال مستمرا . فاستأنف الكفاح ابنه الآخر «شمسى ـ ادد» الخامس وارث العرش الاشورى ، فحارب هذا الثوار سنتين ووفق فى نهاية الامر الى القضاء عليهم ومع ذلك فقد سببت هذه الحروب الاهلية اضعاف الامبراطورية وضياع النفوذ الآشورى فى الاقاليم التابعة التى انتهزت فرصة الحرب الاهلية فانسلخت عن سلطان الدولة الآشورية فكان الزمن الواقع من بعد شيلمنصر الثالث الى تأسيس الامبراطورية الثانية فترة ضعف فى المملكة الآشورية دامت زهاء الثمانين سنة أى من ٨٢٤ الى ٧٤٥ ق . م .

لقد خلف الملك «شمسى ـ ادد» الخامس ابنه الصغير «ادد ـ نرارى» الثالث فصارت أمه الملكة وصية على العرش (٨١١-٨٠٨ ق . م) واشتهرت هذه الملكة فى المصادر الاغريقية باسم «سميراميس» المحرف عن اسمها الآشورى «سمو ـ رمات» أو «شميرام» وذكرتها الاساطير الواردة فى المصادر الاغريقية بانها كانت ابنة الهة نصفها سمكة ونصفها الآخر حمامة وان عبادتها كانت فى عسقلون . وبعد ان ولدت ابنتها «سميراميس» تركتها

فأخذها طير الحمام وصار يرعاها[١] فعثر عليها كبير رعاة الملك فرباها ولما كبرت تزوج بها حاكم مدينة نينوى المسمى «أونيس» غير ان الملك «نينوس» أحبها فأكره زوجها على ان يتخلى عنها فانتحر زوجها فتزوجها الملك واصبحت عنده ذات مقام رفيع وعظم نفوذها فى المملكة وتضيف القصص الاغريقية الى هذه الاسطورة ان هذه الملكة استعطفت زوجها فى أحد الايام بأن يتوجها عرش المملكة ولو مدة خمسة أيام ففعل زوجها ذلك ، ولكنها لم تكد تصير ملكة حتى أرسلت زوجها الى السجن أو انها قتلته بحسب رواية أخرى وبهذه الوسيلة استأثرت بالملك وحكمت أكثر من أربعين عاما • وقد عثر على بعض الآثار الآشورية فيها بعض الاخبار عن هذه الملكة •

وخلف الملك «أدد ـ نرارى» الثالث «شيلمنصر الرابع» (**٧٨٢-٧٧٣** ق • م) الذى ازداد فى عهده تدهور المملكة الآشورية • واستطاعت بلاد بابل أن تستقل وتجرأت القبائل الآرامية وبدأت تضغط على المملكة الآشورية من حدودها الشمالية فاتخذ الملك الآشورى موقف الدفاع • وتفاقم ضعف المملكة فى زمن الملك الذى خلفه وهو «آشور ـ دان» الثالث (**٧٧٢-٧٥٤** ق•م) ومما زاد فى اضطراب الامور ان تفشى فى زمنه طاعون عظيم فتك بسكان المملكة • وقد حدث فى حكمه كسوف الشمس وكان هذا من الحوادث المهمة التى يتطير منها الآشوريون ولا سيما حدوثها فى ابان طاعون وكانت هذه الحادثة من أهم الحوادث التأريخية التى قلنا انها اتخذت اساسا لضبط التقويم الآشورى اذ امكن بالحساب الفلكى الدقيق ارجاع هذا الكسوف الى حزيران عام **٧٦٣** ق • م فصارت نقطة يقاس منها تسلسل التأريخ الآشورى واستعين بها كذلك لضبط التقويم البابلى بالاستعانة بحوادث من التأريخ البابلى عاصرت ما يماثلها من التأريخ الآشورى •

---

(١) ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان الاسم «سمو ـ رمات» مركب من كلمتين الاولى «سمو» ومعناها (الحمامة) «ورمات» ومعناها (المحبوبة) فيكون معنى اسم الملكة «محبوبة الحمام» •

واستمر التدهور والضعف في جسم المملكة فثارت مدينة آشور على هذا الملك فخلع وصار بدله ابنه «ادد ـ نراري» الرابع وخلفه ملك آخر هو «آشور ـ نراري» الخامس وكان زمنهما من العهود المظلمة في تأريخ الآشوريين اذ استمر التدهور وتقلصت المملكة الى اصغر حدودها واقتطعت منها الدولة الارمينية في الشمال كثيرا من الاراضي • وسنتابع مصير المملكة الآشورية في العهد الجديد وهو عهد الامبراطورية الثانية •

الامبراطورية الاشوريه الثانية

(٧٤٥ ـ ٦١٢ ق • م)

تجلاثبليزر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق • م)

انتهت الايام السود التي حلت بالمملكة الآشورية بثورة أهلية قامت بها مدينة «كالح» (نمرود الآن) على الملك الآشوري «آشور ـ نراري» الخامس آخر ملوك العهد الاول ، أي عهد الامبراطورية الاولى ، فقتل الملك وتولى زمام الامر «تجلاثبليزر» الثالث الذي بدأ عهدا جديدا في تأريخ الآشوريين تكونت فيه آخر واعظم امبراطورية آشورية بلغت من اتساع الرقعة والعظمة مبلغا صارت فيه سيدة الشرق القديم نيفا ومائة عام • فكانت أوسع امبراطورية في تأريخ العراق القديم • وقد اصبحت بنظمها وادارتها نموذجا احتذته الامبراطوريات التي جاءت من بعدها ، ومن الجهة الاخرى كانت آخر حياة الآشوريين السياسية •

اننا لا نعرف شيئا مؤكدا عن أصل مؤسس هذا العهد الجديد أي «تجلاثبليزر» الثالث ، ولا سيما أمر نسبه وعلاقته بالملوك السابقين ولعله كان أحد القواد العسكريين أو حاكم أحد الاقاليم انتهز فرصة الثورة والاضطراب الداخلي فاضطلع بمهمة تخليص البلاد من التدهور والمملكة من الزوال ولا يبعد أن يكون قد اشترك في الثورة أو انه الثائر نفسه •

ومهما يكن من أصل هذا الملك فان ما انجزه من الاعمال المجيدة التى انقذت المملكة الاشورية من الانحلال والانقراض واعادتها الى سالف قوتها وعزتها جعلته فى بابة اعاظم الملوك الاشوريين • وقد يصح ان نتخذه نموذج العاهل الآشورى العظيم الذى طلع وسماء الآشوريين مظلمة فاتخذ من المحن حافزا لبنى قومه فاستحث فيهم القوى الكامنة ووجهم الى الفتح والقوة •ولقدوفق تجلاثبليزر فى خلال مدة حكمه التى لم تزد على الـ ١٨عاما ليس فى اعادة الامبراطورية الى حالها الاول فحسب بل فى جعلها اكبر مما كانت عليه واذا تذكرنا ما وصلت اليه من التدهور والانهيار ادركنا مبلغ مقدرة هذا العاهل العظيم ومكانته فى التأريخ الآشورى وقد خلفه فى الحكم ابنه «شيلمنصر» الخامس الذى لم يدم حكمه اكثر من خمس سنين (٧٢٧ – ٧٢٢ ق • م) وقد نحى منحى ابيه تجاه العرش البابلى حيث توج نفسه ملكا على بابل وعرفه البابليون باسم «اولولو» كما ورد فى اثبات ملوكهم ، وذكر المؤرخ اليهودى «يوسيفوس» ان شيلمنصر حاصر مدينةصور واخضعها بعد ان ثارت عليه • وفى حكمه حرض ملك مصر الملك الاسرائيلى «هوشع» الذى كان تابعا للآشوريين على الثورة فجرد عليه الملك الآشورى حملة لتأديبه • فحوصرت عاصمة مملكة اسرائيل «السامرة» مدة ثلاث سنين، حدثت فى نهايتها ثورة فى داخل المملكة الآشورية حول العرش ومات شيلمنصر ولم يتم فتح مدينة السامرة ، واكمل فتحها سرجون مؤسس السلالة السرجونية التى سيأتى الكلام عليها •

السلالة السرجونية

سميت هذه السلالة الجديدة بالسلالة السرجونية نسبة الى مؤسسها سرجون الثانى (شروكين ـ الملك الصادق) الذى جاء الى العرش الآشورى بعد شيلمنصر الخامس ولا نعرف شيئا مؤكدا عن أصل سرجون الثانى ، ولعله كان دعيا وغاصبا للعرش • حكم سرجون ثمانية عشر عاما تكاد تكون كلها سلسلة حروب وحملات عسكرية خارجية •

١٨٨

بابل وعيـــلام

لقد رأينا فيما سبق ما آل اليه أمر المملكـــة البـــابلية بعد أن ضعف مركزها الدولى منذ منتصف العهد الكشى وكيف ان الآشوريين بسطوا أولا نفوذهم عليها وازداد هذا النفوذ ودخل طور فرض السيطرة بعد نهاية العهد الكشى ثم ان السياسة الآشورية اتجهت من بعد ذلك الى دمج مملكة بابـل بالمملكة الآشورية وقد أخذ بعض الملوك الآشوريين التاج البابلى لانفسهم ، كما فعل تجلاتبليزر وشيلمنصر الخامس ، ولعل هذه السياسة الجديدة قد توخى منها الآشـوريون مصالحـة البابليين بجعل المملكتين مملكة واحدة يحكمها الملك الآشورى نفسه ولا يخفى ما لذلك من نفوذ يجنيه الآشوريون لماكانت تتمتع به بابل من مركز وامجاد فى جميع انحاء الشرق الادنى. ومع ذلك فلم توفق هذه السياسة الجديدة التوفيق كله فيما رمت اليه ، اذ لم يكن هينا على بابل ان تفقد شخصيتها واستقلالها وتنسى مركزها فى أيام سـرجون وحمورابى فظلت تترقب الفرص للانسلاخ من السلطة الآشورية ، فتعقدت المسألة البابلية من جديد وصار على الملوك الآشوريين ان يجدوا حلا آخر لها وقد تفاقم الامر عندما اصبحت بابل مركزا للثوار ومؤامرات الطامحين فى العرش من الكلدانيين ، ووراء كل ذلك بلاد عيلام الطامعة بالبلاد فكـــانت تساعد الثائرين مرة بالتحريض وحينا باشتراك جيوشها لمســاعدة البـابليين على السلطة الآشورية وعندما ضعفت المملكة الآشورية نوعا ما فى أواخر أيام شيلمنصر الخامس انتهز هذه الفرصة أحـد اولئك الطامعين بالعرش البابلى وهو «مردوخ بلادان» الكلدانى (المذكور فى التوراة) فتزعم القـــوم ووحد القبائل الكلدانية للثورة على الآشوريين . وقد نشط هذا الثائر فى بداية حكم سرجون فعاهد العيلاميين وحصل منهم على مساعدة عسـكرية فتحدى سلطة الآشوريين بان هجم على بابل نفسها فى السنة التى تتوج فيها سرجون وصار ملكا على بابل فى العام ٧٢١ ق . م فعزم سرجون على تأديب الثائر فقاد حملة بنفسه وسار لمنازلة العيلاميين فى مدينة «الدير» (القريبـة

من بدرة الآن) وقد جاؤا من ايران (اقليم خوزستان) لمساعدة حليفهم «مردوخ بلادان» الذى لم يحضر فى الوقت المناسب فالتحم الاشوريون بالعيلاميين . أما نتيجة المعركة فلا تتفق فيها المصادر البابلية والآشورية . فالاولى تؤكد اندحار سرجون والثانية انتصاره . ولعل الواقع من الامر ان سرجون فضل الانسحاب لمشاغل أخرى طرأت وان لم ينتصر أحد الخصمين على الآخر . ومهما يكن من أمر فالذى نعرفه بوجه التأكيد ان (مردوخ بلادان) قد ظفر بالتاج البابلى وتمتع بالسلطة فى مملكة بابل زهاء عشر سنين ولم يتسن لسرجون ان يعيد منازلته الا فى العام ٧١٠ ق . م وذلك بعد انتهاء حملاته فى الغرب أى فى ديار الشام . فالتجأ «مردوخ بلادان» فى هذه المرة الى حلفائه العيلاميين يستنجدهم ولكنه على ما يبدو لم يستطع ان يحصل من الملك العيلامى على مساعدة عسكرية ، وعندما اقترب الملك الاشورى من بابل انهزم «مردوخ بلادان» والتجأ الى منطقة الاهوار فى الجنوب . ومما يدعو الى العجب ان سرجون غفر للثائر ونصبه حاكما على احدى الولايات الجنوبية المسماة «بيت ياكينى» وقد توج سرجون نفسه ملكا على بابل محتذيا مثل تجلاثبليزر وشيلمنصر . وبذلك حلت المشكلة البابلية حلا وقتيا فى ايام سرجون واستتب الهدوء والسلام فى بلاد بابل طوال ايام حكمه الباقية .

وقد عنى سرجون بشؤون الاقاليم الشرقية والشمالية الشرقية وخصص لها قسما من نشاطه العسكرى . وكان يحكم فى ارمينية «اورارطو» فى زمنه ملك قوى الشكيمة اسمه «روساس» ولكى يأمن هذا شر تدخل الآشوريين اخذ يثير الاقوام المتاخمة الى المملكة الآشورية على الثورة وشق عصا الطاعة فحارب سرجون هذه الاقاليم وتمكن من اخضاعها وحارب الارمن واوقع الهزيمة فى جموعهم ونكل بهم تنكيلا شنيعا حتى انه سلخ جلود بعض أمرائهم وهم أحياء وعلى الرغم من الضربة القاصمة لم تخضع بلاد الارمن خضوعا دائما مما جعل الحرب بينها وبين الآشوريين سجالا زهاء خمس سنين انتهت بالقضاء على ملكهم المسمى «روساس» .

وجهز سرجون حملات حربية على القبائل الفريجية فى تخوم «كيليكية الغربية» التى كانت تدفع الجزية الى الآشوريين فبدأ باخضاع هذه القبائل منذ عام ٧١١ ق • م ويرجح كثيرا ان ملك جزيرة «قبرص» أرسل الى سرجون الجزية ، ولعل قسما من الجيش الآشورى قد دخل الجزيرة •

وقد سبق ان رأينا كيف ان الملك «شيلمنصر» الخامس قد مات ولم تستسلم له السامرة عاصمة مملكة اسرائيل فتولى أمر الفتح «سرجون» وبعد أن فتحها انهى حياة المملكة الاسرائيلية الشمالية وكان ذلك فى حدود (٧٢١ ق • م) ونقل كثيرا من سكانها أسرى ، وبعد ان فرغ سرجون من السامرة وجه همه الى الدويلات الغربية فى بلاد الشام ، وقد الفت هذه الدويلات فى زمن سرجون حلفا بتحريض ملوك مصر ومساعدتهم ، ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان مصر عندما ضعف أمرها منذ نهاية الامبراطورية فيها فى القرن الحادى عشر ق • م لم تستطع ان تتدخل فعليا فى بلاد الشام التى كانت تابعة الى الامبراطورية ، وعمدت بدلا من منازلة الآشوريين وجها لوجه الى تحريض البلاد السورية على الدوام اذ كانت تخشى كثيرا من تمكن نفوذ الآشوريين فى البحر المتوسط لان ذلك يهددها تهديدا مباشرا وبعد ان تألف هذا الحلف الجديد فى زمن سرجون من مدينة حماة وغزة ودمشق وغيرها من مدن الشام المهمة جهز سرجون حملة عسكرية قوية استطاع بها ان يدحر قوات المتحالفين ويقضى عليها واسر بعض الملوك المتحالفين • فازداد الخطر على الدولة المصرية فأرسلت جيشا لمساعدة ملك غزة ، ويرجح أن يكون الجيش بقيادة الفرعون نفسه فتصادم الجمعان قرب مدينة «رفح» (الذى ورد ذكرها بهيئة رفيحو فى المصادر الآشورية) على الحدود المصرية الفلسطينية فاندحر المصريون والغزيون واسر ملكهم وفر القائد المصرى وبعد أن قضى سرجون على تدخل المصريين فى شؤون سورية وفلسطين ، وجه حملات على بعض القبائل العربية ممن رفضت تأدية الجزية له ، وكانت هذه القبائل تقطن فى بادية الشام بالدرجة الاولى • وقد بدأت حملاته على

هذه القبائل منذ ٧١٥ ق • م ولعل الهدف الحقيقي من حملاته الحربيـــة هذه كانت تأمين طرق المواصلات التجارية والحربية المارة بسورية وكان بعض هذه الطرق يصل الى اليمن وحضرموت وقد ذكر سرجون بعض القبائل التى اخضعها مثل «ثمود» وموطنها شمالى الحجـاز بالحجر ووادى القرى وقبيلة وردت باسم «عباديدى» الساكنة فى البادية والتى كما وصفهـا سـرجون «لاتخضع لسلطان» فخافته القبائل حتى ان الملكة «شمسى» (شمس أو شمسية) فى البادية الشمالية أدت له الجزية •

خرسباد ــ مدينة سرجون

لم يستقر سرجون فى عاصمة واحدة • اذ اتخذ فى أول حكمه مدينة آشور عاصمة له ، ثم انتقل منها الى (كالح) «نمرود» وفى منتصف حكمـه اتخذ نينوى عاصمة له ، وأخيرا فى السنة التاسعة من حكمه أى عام ٧١٣ ق • م شرع بتأسيس عاصمة جديدة سماها «دورشروكين» أى مدينة سرجون وقد اختار لها موضعا فى قرية كانت تدعى «مكانبا» الى الشمال الشرقى من نينوى وهى «خرسباد» الحالية التى تبعد حوالى ١٦ كيلو مترا شمال نينوى • وقد بنيت هذه العاصمة على هيئة مربع يبلغ طول ضلعه حوالى ٢٠٠٠ ياردة أو ١٧٦٠ × ١٦٧٥ مترا • أى تبلغ مساحتها حوالى الميل المربع • وكـــان يدخل الى المدينة بطريق مبلط عرضه اربعون قدما • ويحيط بالمدينة سور ذو أبراج تنيف على ١٥٠ برجا ، وفيه ثمانية أبواب كل باب سمى باسـم اله آشورى وكان يزين مداخل المدينة ثيران مجنحة برؤوس بشرية كانت عند الآشوريين بمثابة الملاك الحارس لتقى المدينة من الشرور والمخاطر ، كما دفن قرب كل باب كثير من الحروز على هيئة دمى للغاية نفسها وكانت شوارع المدينة مستقيمة ومتعامدة •

لم يبق من المدينة الآن غير قصر سرجون وبعض الاقســام المجاورة له • وكان قصره يقوم على دكة باتجاه الضلع الغربى من المدينة وقد شيدت

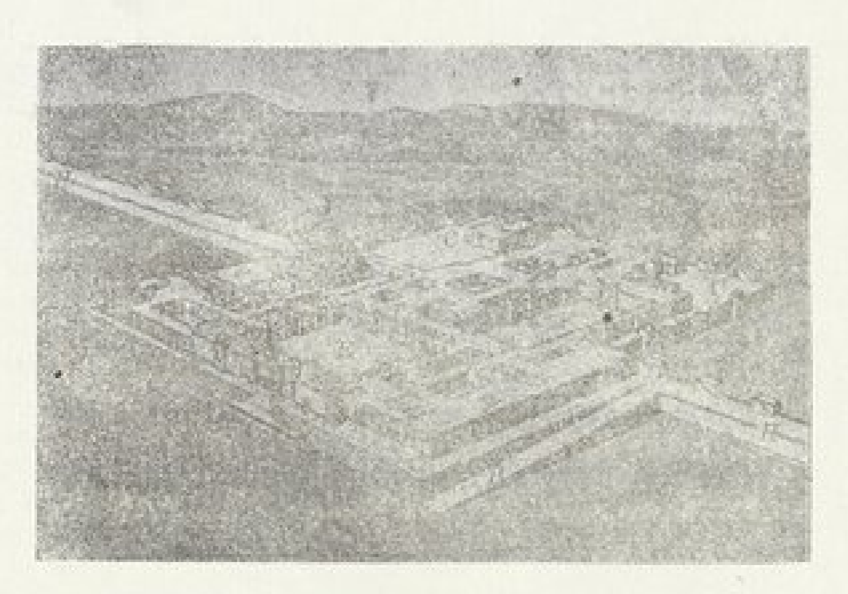
على غرار قصور بابل ، وله مدخلان أحدهما يواجه المدينة والآخر معقود على هيئة قوس وتزينه الثيران المجنحة . وان ما اكتشف في مدينة سرجون وقصره مكننا من معرفة مبلغ ما وصل اليه فن البناء والنحت وسبك المعادن وصناعة الزجاج وغير ذلك من فنون المدنية فقد زينت جدران القصر بألواح منحوتة من الحجر يبلغ مجموع طولها حوالى الميل الواحد . أما النحت المجسم فقد كان قليلا بالنسبة الى المنحوتات البارزة . ان ذلك باستثناء الثيران المجنحة التى عثر على ما يقارب الـ ٢٦ واحـــداً منها يزن كل منها حوالى الاربعين طنا . أما التصوير على الجدران فقد حفظت منه نمـاذج فى قصـر سرجون ، ووجدت نماذج من الزخارف المنقوشة على الآجر المزين بالميناء من بينها أشكال ثيران وأسود وصور لها شبه بالاشكال التى تزين شـــارع الموكب فى بابل فى عهد نبوخذ نصر الثانى . ومن الاشياء المهمة التى زودتنا به «دور ـ شروكين» المهارة الفائقة فى سبك المعادن ، ولا سيما سبك البرونز الذى صنعت منه أشكال مجسـمة كالاسود . وعثر فى مخزن القصـر على أدوات وآلات من الحديد تبلغ زنتها حوالى ٢٠٠ طنا .

أكمل سرجون بناء عاصمته الجديدة فى مدة سبع سنين (٧١٣ ـ ٧٠٦ ق . م) ولكن لم يتمتع بالعيش فيها زمنا طويلا اذ انه مات فى السنة التالية ٧٠٥ ق . م . وقد تركها وبعض أجزائها غير كاملة وبعد وفاته لم يكتف خلفاؤه بهجرها والانتقال الى نينوى ، بل انهم شوهوا كثيرا من المنحوتات التى كانت تزينها ، ونقلوا بعضها الى قصورهم ، فطمست معالمها ، ولكن اسمها ظل فى ذاكرة الاجيال المتأخرة ، فقد عرف العرب اسم «سرغون» وشـوه الساسانيون اسم المدينة وأطلقوا عليها «خسرو آباد» أو مدينة «خسرو» ومن هنا جاء اسمها المحرف الحالى أى «خرسباد» أو «خورصباد» .

خلفاء سرجون

١ ـ سـنحاريب

يرجح ان سرجون قد مات غيلة فخلفه على العرش الآشورى ابنـه



قصر سرجون الثاني في خرسباد كما يجب
أن يكون عليه في الاصل

الشهير «سنحاريب» (سين ـ آخي ـ اربا) (٧٠٥ - ٦٨١ ق ٠م) ولم يسر هذا على خطة أبيه تجاه عاصمة المملكة اذ انه ارجع مركز المملكة الى العاصمة المقدسة «نينوى» فجدد ابنيتها وشيد فيها قصوره ، وجعلها مركز الامبراطورية وقبلة الشرق القديم وجملها بالمنحوتات الكثيرة وغرس فيها الرياض والبساتين وجلب لها ماء عذبا من موضع قريب من منبع نهر «الكومل» من مجاز جبلي في «بافيان» وبنى لذلك قناة مبلطة مبنية بالحجر طولها خمسون ميلا لتمر فيها المياه الى نينوى وقد نحت عند صدر القناة على وجه حجرة شاهقة صورا كبيرة للآلهة وسجل على الحجر بعض أعماله ومآثره ٠

سار سنحاريب على سنة الملوك الآشوريين السابقين في اعادة اخضاع قسم من الاقاليم التابعة الى الامبراطورية ولا سيما تلك التي ثارت في بداية حكمه ٠ فأخضع مدن كيليكية وفتح المستعمرات الاغريقية في سواحل آسية الصغرى ، واتصل بالاغريق الابونيين ، وهذا حدث مهم بالنسبة الى

وسائل نشر حضارة العراق القديم • وقد بنى فى طرسوس مدينة آشورية ليحكم منها مستعمراته الجديدة • وكذلك أعاد فتح المدن الفينيقية والسورية ومملكة يهوذا • اذ بدت فى سورية وفلسطين فى أوائل حكمه بوادر العصيان بتحريض المصريين • وكان يحكم فى مملكة يهوذا الصغيرة الملك «حزقيا» وكان يعيش فى زمنه النبى العبرانى «اشعيا» فاستطاع سنحاريب أن يخضع هذه المملكة الصغيرة ولكن العاصمة «اورشليم» أبت التسليم ، وعول الملك «حزقيا» على حصار طويل واعد العدة وقد صادف أن اعلنت بعض المدن والدويلات السورية العصيان مثل مدينة صور وعسقلون ولكن سنحاريب عاجل الثوار فى العام ٧٠٠ ق • م وابتدأ بتأديب المدن الساحلية فى جنوبى فلسطين ثم التفت الى «اورشليم» وترك على حصارها جيشا مع كبير قواده الذى ورد ذكره فى التوراة باسم «الرابشاقة» (كبير السقاة) وقد ورد وصف ممتع فى التوراة لاخبار الحصار ، وسجلت المحاورة الطريفة التى جرت بين رسول ملك اليهود والـ «رابشاقة» الذى تكلم بالعبرية وقد صرخ من اسفل السور قائلا : «ما هذه الثقة التى اعتمدت عليها • ولعلك تقول وما قولك الا كلمات فارغة انه عندى رأى وقوة فى الحرب • فعلى من اعتمدت الآن حتى عصيتنى ؟ فلتحذر انك اعتمدت على عصا هذه القصبة المرضوضة التى لو اعتمد عليها رجل لذهبت فى يده وثقبتها •• وهكذا هو الفرعون ملك مصر الذى اعتمدت عليه • فهل استطاعت أى من آلهة الشعوب ان تخلص أرضها من يد ملك آشور ؟ فأين آلهة حماة وارفاد ؟ وأين آلهة السامرة • فهل نجت السامرة من يدى ؟ فأى من آلهة الاقطار من خلصت بلدها من يدى حتى يستطيع «يهوه»[1] أن يخلص اور شليم من يدى» ولم يخف على رسل ملك اورشليم ما كان يرمى اليه القائد الآشورى من كلامه هذا لا سيما وقد تكلم به بصوت عال باللغة العبرية ليسمع من فى داخل السور من الناس فيهلعوا ويستسلموا • والحقيقة ان الملك كان يتردد فى التسليم ولكن

---

(١) «يهوه» الاسم المقدس لاله العبرانيين •

النبى «اشعياء» كان يشجعه ويحرضه على المقاومة • وبعد أن انهى الرابشاقة كلامه توسل اليه رسل اليهود أن يكلمهم باللغة الآرامية وليس بلغة اليهود على مسمع من الناس • أما نهاية الحصار فتذكر التوراة ان الجيش الآشورى حل فيه الموت الآلهى ، ويرجح كثيرا ان الجيش انسحب بسبب تفشى الوباء •

ومما كان يشغل بال سنحاريب فى أوائل حكمه ان الثائر البابلى الكلدانى «مردوخ بلادان» الذى أخضعه أبوه سرجون وعفى عنه بعد القضاء على حركته ثار فى عهد سنحاريب واستفحل أمره والتجأ كما فعل فى عهد سرجون الى مساعدة العيلاميين ، وتفاوض مع القبائل العربية ومع «حزقيا» ملك يهوذا ابتغاء اشغال الجيوش الآشورية • ولذلك فقد كلف القضاء على حركته جهودا • غير ان الثائر هرب الى المناطق الجنوبية ، فاضطر سنحاريب الى ارسال اسطول انشأه لهذه الغاية فقضى على البقية الباقية من اتباع الثائر • ومع كل ذلك لم ترضخ بابل ، بل استمرت فى اقلاق «سنحاريب» بالثورات ، الامر الذى جعله يحاصرها ما يقرب من سنة كاملة وقد كان غضبه فى هذه المرة عظيما ففتحها عنوة فى سنة ٦٨٩ ق • م ودمر قصورها ودك حصونها وسلط ماء الفرات على أنقاضها • وعين من بعد ذلك ابنه «أسر حدون» واليا على القسم الجنوبى من العراق •

٢ ـ أسر حدون

كانت نهاية سنحاريب نهاية محزنة اذ تشير السجلات الرسمية الى أن أحد أبنائه قد اغتاله • ولقد جاء ذكر هذه الحادثة فى التوراة (٢ملوك١٩: ٣٦-٣٧) وقد سبب اغتياله شبه ثورة داخلية ولكن ابنه الذى خلفه وهو «أسر حدون» لم يجد صعوبة فى اخمادها • ومما يمتاز به حكم اسر حدون ان الحالة فى بابل كانت هادئة باستثناء بعض القلاقل التى قام بها بعض الثوار مثل ابن الثائر المشهور « مردوخ بلادان » أما الاقاليم الشرقية فقد استتب الامر فيها للآشوريين وخضع لهم أكثر ملوك خراسان على أثر حملات آشورية

موفقة • ومما يذكر به اسر حدون السياسة الحكيمة التى سلكها تجاه بابل ، اذ انه استعمل المصالحة والدبلوماسية الحكيمة فحصل على نتائج لو سار فى الحصول عليها على خطة أبيه لكلفه ذلك حروبا وهدر دماء كثيرة • فأعاد بناء مدينة بابل ، فرضى البابليون وكفاه رضاهم ضرورة الدفاع بنفسه عن بلادهم تجاه طمع العلاميين والكلدانيين •

ومن غزواته غزوة قام بها فى شمالى جزيرة العرب على موضع عربى ورد ذكره فى الاخبار الآشورية باسم «أدومو» الواقعة فى الواحات ، ولعلها دومة الجندل المذكورة فى أخبار الفتوحات الاسلامية • وقد سبق لابيه أن حاربها لتأمين حدود الامبراطورية والمحافظة على طرق مواصلاتها البرية •

بلغ طموح اسر حدون فى حقل الفتوح الخارجية مدى واسعا ، فالمعروف ان اسلافه فشلوا فى غزو مصر • أما هو فقد وجه همه لتحقيق ذلك المشروع الخطير لذلك كان غزوه مصر أهم حروبه كلها ، فاستولى على الدلتا وأكثر مصر العليا وذلك فى زمن ملكها «ترهاقة» أو «طهراقا» الحبشى[١] • وقد تم له ذلك فى ثلاث حملات ولعل أهم الاسباب التى دعته الى هذه المغامرة الحربية انه بالاضافة الى ما قد يحصل عليه من شهرة وغنائم وثروة فان مصر كانت منذ أزمان أقوى دولة فى الشرق القديم نازعت توسع الآشوريين فى سورية وفلسطين ، وكانت فى أيام ضعفها تعتمد على تحريض الدويلات السورية على الثورة والانسلاخ عن الامبراطورية الآشورية فكان هذا التدخل المستمر يقلق بال الملوك الآشوريين ، لان اخماد الثورات كان يكلفهم ثمنا غاليا فى الجيوش والاموال • ولذلك فمن المرجح كثيرا ان أسلاف اسر حدون قد فكروا فى تحطيم قوة مصر العسكرية • ولكن لم

---

(١) ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد أن دائرة الآثار العراقية قد وجدت حديثا (١٩٥٥) كسرا من تماثيل فرعونية بعضها يعود الى هذا الملك كما تدل على ذلك الكتابة الهيروغليفية فيه ، وقد وجدت هذه التماثيل فى تل النبى يونس الذى هو جزء مهم من العاصمة الآشورية نينوى (أنظر مجلة سومر ، الجزء الاول ١٩٥٥) •

يوفق أحد منهم في تحقيق تلك الامنية الا «اسر حدون» وخليفته «آشور بانيبال» • اما نتائج الغزو فقد نجح الآشوريون في ضم مصر موقتا الى الامبراطورية الآشورية ، ولكن ذلك لم يكن دائما • ولعل أهم فائدة هي ان مصر شعرت بوطأة الجيوش الآشورية فكفت عن اطماعها في سورية وفلسطين وعن تدخلها في شؤون هذا القسم من الامبراطورية الآشورية ، وتشير ظواهر الاحوال الى حلول عهد من الصداقة بين المصريين والآشوريين، وان المصريين ساعدوا الآشوريين في حربهم مع الماذيين وهي الحرب التي قضت على نينوى وعلى كيان الدولة الآشورية •

لقد كان من الضروري على «اسر حدون» قبل ان يبدأ في غزو مصر ان يقمع الثورات التي قامت بها بعض المدن الفينيقية • فاستولى على صور ودمرها تدميرا كاملا ، وبدأ بأول هجوم على مصر في عام ٦٧٤ ق • م ففشل فيه بسبب العواصف في الحدود الفلسطينية المصرية • واعد حملة ثانية بعد ثلاث سنوات استولى فيها على «منف» (منفس) عاصمة الفراعنة المعظمة • وثارت مصر واستأنف الكفاح ملكها «ترهاقة» فجهز اسر حدون حملة ثالثة رجعت قبل ان تجتاز الدلتا بسبب مرض اسر حدون الفجائي •

٣ ـ آشور بانيبال

حدث في بلاط اسر حدون خلاف على وراثة العرش الآشوري فقد كان لاسر حدون ثلاثة أبناء أكبرهم كان يدعى «شمش-شوم-اوكن» ولكنه لم يعين خلفا لابيه ، ولا الابن الثاني • وبعد الشورى حلت مشكلة ولاية العهد بجعل «آشور بانيبال» وهو الابن الثالث وليا للعهد ليخلف أباه على العرش الآشوري وجعل الابن الاكبر أي « شمش-شوم-اوكن» ولياً للعهد على العرش البابلي على أن يعترف بسيادة أخيه «آشور بانيبال» وعلى هذا فقد خلف «آشور بانيبال» أباه على عرش المملكة الآشورية (٦٦٨-٦٢٦ ق • م) وكان قد نال تهذيبا وتربية في صغره فاق بهما سواه من الملوك الآشوريين

فأغرم بالادب والمعرفة ، وجمع الآثار الادبية وكتب المعرفة من أنحاء البلاد وخزنها فى دار كتب شيدها فى قصره ، وهى التى عثر عليها المنقبون فى نينوى وتحتوى على الالوف الكثيرة من ألواح الطين المكتوبة التى عرفتنا بنواحى الحضارة العراقية القديمة • لانه جمع فيها مختلف أصناف العلوم والمعارف التى بلغتها حضارات العراق القديم حيث استنسخ الالواح القديمة التى بحث عنها فى مدن العراق المختلفة •

لقد بدأ آشور بانيبال حكمه بحملة تأديبية صغيرة الى منطقة الكشيين فى شرقى دجلة ، وقد نجح فى ذلك •

وكان الملك الحبشى «ترهاقة» قد انتهز فرصة موت اسر حدون ، واعاد الحكم الوطنى فى مصر ، فجرد آشور بانيبال حملة كبيرة عليه فى سنة ٦٦٧ ق • م وجرت معركة فى محل ما فى شرقى الدلتا انتهت بانهزام جيش «ترهاقة» (طهراقا) بعد ان هلك اكثره • وبعد ذلك سار الجيش وفتح «منف» وبعد أن استتب له الامر أقام حاميات دائمية فى أمهات المدن المصرية • ومع هذا فقد استمرت الثورات الوطنية فاضطر «آشور بانيبال» على التخلى عن فكرة جعل مصر ولاية آشورية تحكم حكما مباشرا فاكتفى بابرام معاهدة مع أحد الامراء الثوار المسمى «بسمانيك» تضمن اعتراف مصر بزعامة الآشوريين وخاصة فى الاقاليم الغربية ، وكفلت تضامن مصر مع الملك الآشورى من الوجهة العسكرية فى الدفاع والهجوم ، وعلى هذا فان فقدان مصر لم يكن فى الحقيقة خسارة بل كان أمر المحافظة عليها كأقليم تابع يكلف الآشوريين كثيرا •

وبعد وفاة اسر حدون نفذ وصيته ابنه آشور بانيبال ، بان عين أخاه « شمش-شوم - اوكن » على العرش البابلى فرضخ هذا لسيادة أخيه سنين عديدة ، غير ان وجود ملكين أخوين جعل الخلاف والتصادم أمرا لا بد منه وقد بدت بوادر ذلك بعد فراغ «آشور بانيبال» من حروب له فى عيلام ،

ومما شجع ملك بابل على تحدى سلطة أخيه ، انحياز الزعماء الكلدانيين اليه بعد أن عرفوا حقيقة ما بين الاخوين ، وعلى هذا فقد أخذ ملك بابل يتهيأ للتصادم فبدأ بالمفاوضات السرية مع ملك عيلام واتصل بأمراء العرب وبكثير من أمراء فلسطين وبـ «نيخو» ملك مصر ، وفى سنة ٦٥٢ ق ٠ م نشبت بين الاخوين حرب قاسية طويلة لعلها كانت أخطر الحروب الاهلية فى تاريخ الآشوريين ، وقد أظهر فيها «شمش-شوم-اوكن» مزايا عسكرية فذة ونصره البابليون بحرارة وانضم اليه بعض أمراء الآشوريين وحكام المناطق ، واشترك معه العيلاميون ضد أخيه ، ولكن كل ذلك لم يجد نفعا تجاه جيوش أخيه المتفوقة ، فاضطر الى الانحصار فى عاصمته بابل حوالى السنتين فعملت المجاعة والحصار الشديد فعلهما فى سقوط المدينة بيد الجيش الآشورى بعد أن لحقها كثير من التخريب والتدمير وقضى « شمش-شوم-اوكن» نحبه وسط النيران التى شبت فى قصره ، وهكذا ختمت حوادث النزاع بين الاخوين فى سنة ٦٤٨ ق ٠ م وتلا ذلك ان وجهه «آشور بانيبال» همه لتأديب القبائل العربية التى اشتركت فى مساعدة أخيه ضده ثم التفت الى عيلام وكان غضبه شديدا ، فقضى على المدن العيلامية ودمر عاصمة البلاد «سوسة» ونبشت قبور الموتى ، وارسلت عظام ملوك عيلام وأمرائها الى نينوى ، وبهذا انتهت حياة مملكة عيلام ٠

سقوط نينوى ونهاية الآشوريين

حكم «آشور بانيبال» حتى سنة ٦٢٦ ق‌م ولكن أخباره الرسمية انقطعت عنا قبل ما يزيد عن عشر سنين من هذا التاريخ ، وكانت ظواهر الامور جميعها تدل على ان الامبراطورية كانت وطيدة الاركان فى سائر أنحائها ، ولكن مع كل هذا فقد أخبرنا الملك «آشور بانيبال» نفسه ان اياما سودا حلت فى أرجاء مملكته ، وانه كان يقاسى آلاما جسمية وروحية سلبت راحته ، وحدثت بعد وفاته مشاكل واضطرابات حول وراثة العرش فكان على ابنه وخلفه «آشور-اطل-ايلانى» ان يحارب أحد الطامعين فى عرش أبيه ،

فانتهزت بابل هذا الاضطراب الداخلي وانفصلت عن الامبراطورية الآشورية تحت قيادة زعيم الكلدانيين «نبوبولاسر» سنة ٦٢٥ ق ٠ م وقد حذت فلسطين حذو بابل ، فطرحت عنها النير الآشوري وكذلك فعلت معظم المدن الفينيقية ، وقد اتحد الماذيون فقويت شوكتهم تحت قيادة ملكهم «كي اخسار» وقد انتهى حكم «آشور-اطل-ايلاني» بقلاقل أيضا وفي هذه الاثناء تحالف الملك الكلداني «نبوبولاسر» مع الملك الماذي ، واتفقا على تقويض المملكة الآشورية واقتسام أراضيها وقد انحاز ملك مصر «بسماتيك» الى جانب الآشوريين ، كما ان الملك الآشوري حصل على صداقة القبائل المعروفة بالصيثيين[1] ولكن ذلك لم يجده نفعا تجاه الهجمات التي قام بها أعداء الآشوريين ومما زاد في الطين بلة ان الصيثيين خانوه فانحازوا الى أعدائه في هجومهم الاخير على نينوى عام ٦١٢ ق ٠ م وعلى الرغم من الدفاع المجيد سقطت العاصمة العظيمة في السنة نفسها فنهبت ودمرت ومات الملك وسط النيران التي شبت في قصره والتهمت المدينة ٠ ومع هذا فان الآشوريين ظلوا على عنادهم واستطاعت فلول من جيشهم ان تهرب تحت قيادة آشور أوبالط الى مدينة حران حيث نصب هناك ملكا على البقية الباقية من الآشوريين ٠ ولكن الاعداء لاحقوه في سنة (٦١٠) ق ٠ م فجرت حروب انتهت في القضاء على آخر محاولة لاعادة المجد الآشوري الآفل ٠ هذا ولا يسعنا ان نبحث بالاسهاب عن الاسباب التي أدت الى سقوط الدولة الآشورية ، والذي يمكن قوله بهذا الصدد ان طبيعة مثل هذه العوامل انها معقدة متعددة ٠ والذي يبدو في حالة سقوط الدولة الآشورية ان المتتبع لتأريخ الآشوريين لابد وان تؤثر فيه حقيقة بارزة في تأريخ الدولة الآشورية تلك هي تطرف ملوكها في سياسة الغزو والهجوم التي لم تكن لتنقطع ، والاغراق في الروح العسكرية

---

(١) أو «الاسكيثيون» (Scythian) وهم القبائل البربرية التي كانت تتكلم لغة «هندية - أوربية» وكانت تقطن في جنوبي روسية وفي الاقليم الواقع شرق بحر «الارال» ومن المؤرخين من يعين الصيثيين بجوج وماجوج المذكورين في التوراة وفي القرآن ٠

بحيث انهم وسعوا مشاريعهم الحربية وفتوحاتهم الخارجية فوق ما كانوا يستطيعون الاحتفاظ به ، وفوق طاقة مواردهم • وكان ذلك جليا فى عهد الامبراطورية الآشورية الاخيرة حيث أقدم الملوك الآشوريون (اسر حدون وآشور بانيبال) على فتح مصر ، ومع ان الجيوش الآشورية استطاعت أن تدحر الجيوش المصرية الا انها لم تقو على الاستمرار فى ضبط مصر مع التزاماتها العسكرية الاخرى فى جميع انحاء الشرق الادنى ، ولا سيما تدخلها فى بلاد بابل وضمها اليها بالقوة • والى ذلك فان سياسة العنف والتدمير التى اتبعها أمراء الحرب الآشوريون ازاء البلدان التى كانوا يغزونها قد جرت عليهم سخط الشعوب وتكرر ثوراتها ، ومع ان ماكنة الحرب الآشورية قد استطاعت أن تمحو شعوبا وامما برمتها وتدك المدن والحصون وتهجر الشعوب وتأسرها الا أن تلك المظالم قد برهنت على صحة الحكمة القائلة «الظلم اذا دام دمر» ، وملخص القول كان التطرف فى فنون الحرب دون فنون السلم الاخرى ، واهمال موارد البلاد وتحميل الدولة فوق طاقتها من مشاريع الفتح العسكرية كل ذلك وغيره كان من الاسباب المهمة التى عملت على محو الدولة الآشورية من الوجود •

ولما كنا سنذكر النواحى المختلفة التى تميز الحضارة الآشورية فى كلامنا على أوجه الحضارة المختلفة فى العراق القديم فاننا نكتفى هنا بذكر بعض الامور العامة عن مكانة الآشوريين فى تأريخ الحضارات • فمن ذلك ما تمتاز به الثقافة الآشورية بكونها عدا عن صلتها بالحضارة السومرية والبابلية وتأثرها بهما انها تأثرت أيضا بثقافات شعوب كثيرة اتصلت بها بالحرب والسلم بحيث يصح أن نسمى الآشوريين بانهم «ورثاء العصور»[1]، فكانت ثقافتهم مركبة خليطة • فقد رأينا سابقا من تأريخهم كيف انهم اتصلوا بشعوب وامم كثيرة متحضرة وبدائية كالاراميين والمصريين والحثيين والسوريين والفينيقيين واليونان والارمن ، فكان ذلك عاملا مهما فى التقاء

---

(1) Olmstead, **History of Assyria,** PP. 504 ff.

الثقافات واختلاطها . كما ان اتصال الآشوريين بالشعوب المتعددة وما امتاز به ملوكهم من تدوين أخبارهم الحربية والسلمية بالتفصيل قد زودنا بمصادر مهمة لتأريخ شعوب وامم لا نملك عنها السجلات والوثائق ، لا سيما وان بعضها كان متأخرا من الناحية الثقافية وأميا ، ونذكر على سبيل المثال المصادر المهمة التى جاءت فى أخبار ملوكهم عن الارمن والقبائل العربية والعبرانيين والقبائل الايرانية ، مما يجعل هذه الاخبار اهم المصادر التأريخية لاحوال تلك الشعوب . ومن الناحية الاخرى فان اتصال الآشوريين ببعض هذه الشعوب ، وبوجه خاص بالعبرانيين ، قد جعل الآشوريين يشتهرون شهرة واسعة فى العالم الحديث ، ولا سيما العالم المسيحى ، ذلك ان علاقاتهم العدائية مع اليهود فى فلسطين قد جعلت لهم محلا بارزا فى أخبار العهد القديم (التوراة ولا سيما فى سفر الملوك) ، ومن الطبيعى أن تكون أخبارهم مقرونة بالتشهير مما جعل اسم الآشوريين مرادفا للظلم والقسوة ، ومع انهم كانوا قساة الا ان المبالغة وذكرهم فى التوراة هما اللذان جعلا الآشوريين يشتهرون من دون الامم العسكرية التى كانت تضاهيهم فى العالم القديم .

ومما يجدر ذكره ان الآشوريين رغم زوال ملكهم وسقوطهم السياسى اندمج عدد كبير منهم بالشعوب المجاورة واستخدم الفرس كثيرا من اصحاب الحرف والفنانين فى تشييد مدنهم وتجميلها واستمر تراث الحضارة الآشورية بعد انحلال الآشوريين العسكرى اذ أخذت عنهم الاقوام الاخرى الشيء الكثير من النظم السياسية والادارية فنسجت بابل على منوالهم فى الامبراطورية وكذلك فعل الفرس . هذا ويجب الا ننسى ماقام به الآشوريون ابان نفوذهم السياسى وعزهم العسكرى فى نشر الحضارة العراقية القديمة ، ونقلها الى أقاليم الشرق القديم واذا علمنا انهم فى بعض فتوحاتهم اصطدموا مع الجاليات اليونانية ادركنا اهميتهم كحلقة الاتصال بين الماضى والحاضر .

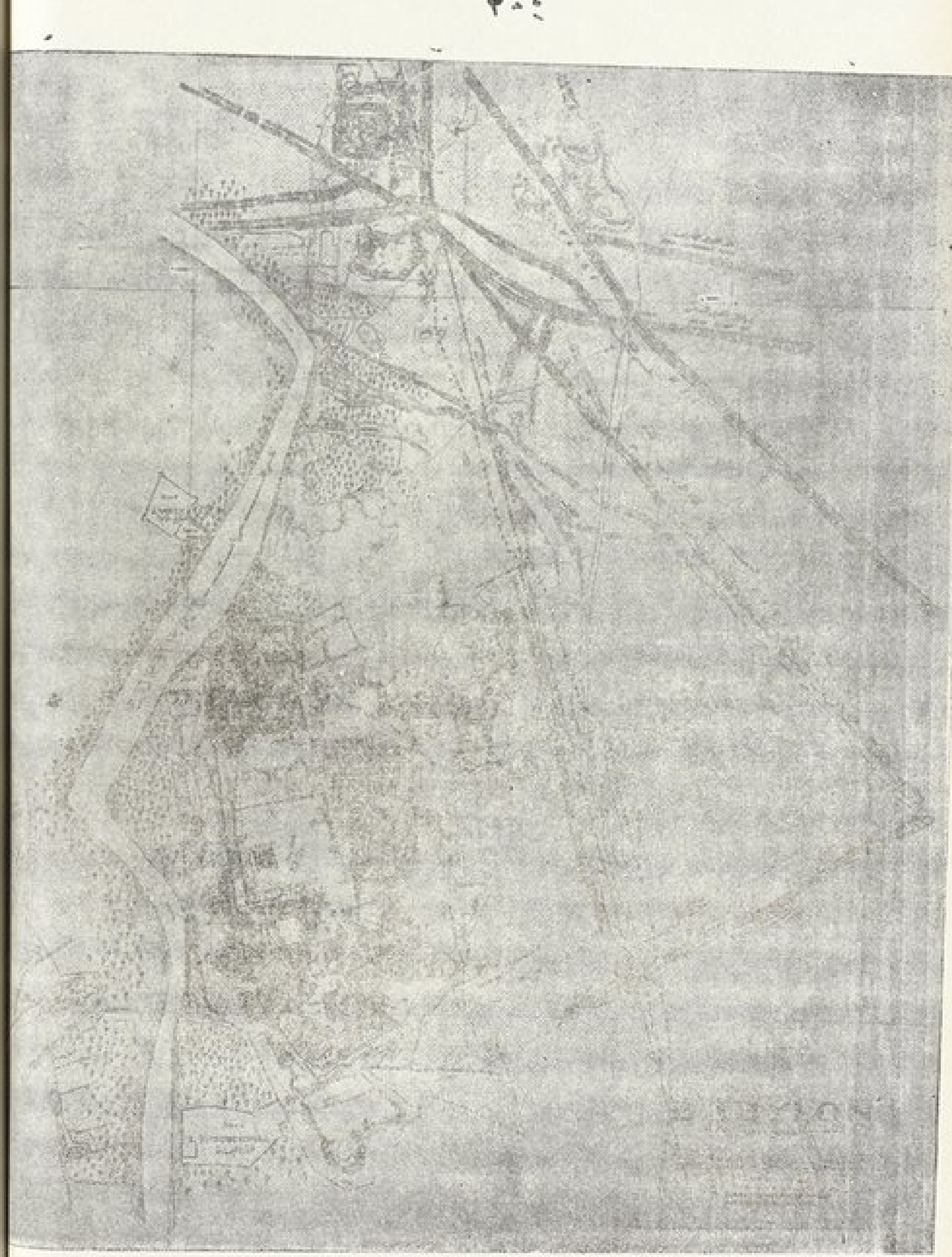
الفصل الحادي عشر

الامبراطورية الكلدانية

والعهد البابلي الاخير

وقفنا في بحثنا السالف على نشوء الحضارة الآشورية ونموها وتدرجها في هذا النمو ثم تدهورها وانحلالها وانهيارها الاخير . ورأينا كذلك ان من جملة الاقوام التي كانت تعيش في تخومها وتتحين فرصة ضعفها للانقضاض عليها الماذيون الفرس الى الشرق والى الشمال الشرقي من موطن الدولة الآشورية وقد انحاز الى الماذيين في الانقضاض على الدولة الآشورية في ساعتها الاخيرة الكلدانيون وهم فرع من الآراميين استوطنوا العراق الجنوبي منذ المنتصف الثاني من الالف الثاني ق . م وعرفوا بالكلدانيين . وقد رأينا كذلك فيما مر بنا سابقا كيف انهار كيان البابليين السياسي منذ أواخر الالف الثاني ق . م وصاروا مرة تحت النفوذ الآشوري ومرة تابعين الى الدولة الآشورية ولكن البابليين كانوا يثورون ويتحينون الفرص للتخلص من تدخل الآشوريين ، فجاءت هذه الفرصة في أواخر أيام الدولة الآشورية . وكان يحكم في بابل في حدود ٦٢٦ باسم الدولة الآشورية على ما يبدو أمير كلداني هو «نبوبولاسر» فرأى الفرصة سانحة للانسلاخ عن تبعية الآشوريين فحالف الماذيين وساهم في الحرب التي قوضت الدولة الآشورية واشترك في حصار نينوى وتخريبها ، واستقل في بابل وكون له ملكا جديدا وبدأ كذلك عهدا جديدا في تأريخ العراق يعرف بالعهد البابلي الاخير أو الحديث . ولان نبوخذنصر كون امبراطورية ، عرف هذا العهد كذلك باسم الامبراطورية الكلدانية ، وسماه جامعو اثبات الملوك بسلالة بابل الحادية عشرة .

وتسمية هذا العهد بالعهد البابلي الاخير يعني كما هو الواقع انه كان آخر



عهود البابليين في العراق وانه يمثل آخر دولة في حضارات العراق القديم اذ أعقب ذلك عهود اجنبية صار بها العراق ولاية تابعة مرة الى الفرس الاخمينيين ومرة الى الاغريق السلوقيين والى الفرس الفرثيين ثم الى الفرس الساسانيين الى العهد العربي الاسلامي وكان العهد البابلي الاخير على ما يبدو صحوة وانتعاشة للحضارة البابلية وهي في طريقها الى الافول والزوال • ولكنه كان انتعاشا قويا اذ انه مع قصر مدته يعد من العهود المجيدة لا في تأريخ حضارات العراق القديم حسب بل في تأريخ الحضارات البشرية •

لقد دام هذا العهد ، كما قلنا سلفا ، زمنا قصيرا أقل من القرن الواحد (٦٢٦–٥٣٨ ق • م) ولم يكن جميعه عهد قوة وازدهار وانما يقتصر دوره المجيد على الحقبة التي حكم فيها أشهر ملوكه «نبوخذنصر» الثاني(٦٠٤–٥٦٢ ق • م) وقد بدأ «نبوبولاسر» مؤسس هذا العهد سلطته في بابل وفي المدن المجاورة لها • وعندما سقطت نينوى في العام ٦١٢ ق • م تقاسم الامبراطورية الآشورية الماذيون والكلدانيون فصارت حصة الكلدانيين المملكة البابلية من وسط العراق حتى جنوبه وقد انتهز هذا الملك وكذلك ابنه انشغال الماذيين في البلاد الآشورية التي صارت حصتهم فقاما بالغزو والتوسع الى الغرب فنشأ في زمن قصير ما يعرف بالامبراطورية البابلية الاخيرة •

وقد انتهزت مصر هجمات الماذيين على الامبراطورية الآشورية وأخذت تستولي على الاقاليم التابعة لها ولا سيما البلاد الشامية فقد أرسل الملك المصري في العام ٦٢٢ ق • م جيشا مصريا ليحصل على حصته من الغنائم وانه لو لم يتوقف قائد الفرعون «نيخو» في نهر الكلب مثل الكثيرين من الفاتحين ليسجل مروره على حافة الصخور هناك[١] لوصل ذلك الجيش في الوقت

---

(١) نذكر هذه النقوش الشهيرة بحسب تسلسلها التاريخي :ـ (١) كتابة الفرعون «رعمسيس الثاني» (١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ ق • م) وهي مكونة من ثلاثة نقوش مشوهة غير واضحة • (٢) ستة نقوش آشورية أوضحها نقش «أسرحدون» (٦٧١ ق • م) • (٣) نقش نبوخذنصر الكلداني • (٤) آثار نقش يوناني ممسوح • (٥) عدة نقوش رومانية للامبراطورية «كره كالا» =

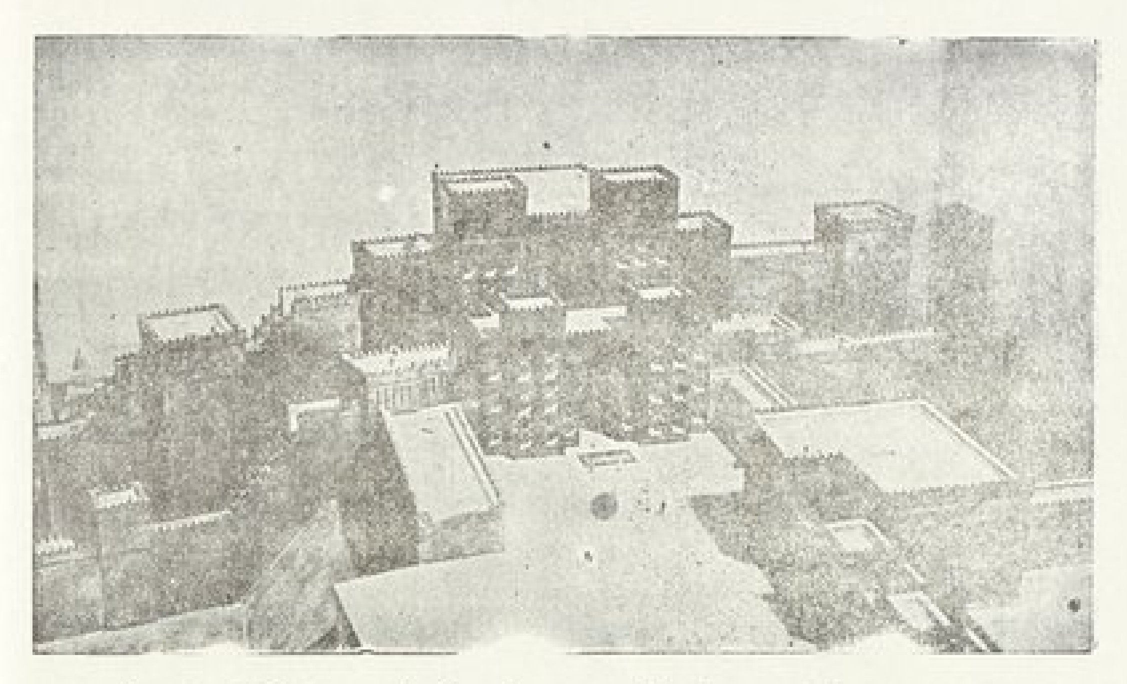
المناسب وعندما بدأ الجيش بالتوجه الى غرضه وجد المصريون انفسهم ينازعهم عدو شديد المراس • وكان هذا العدو «نبوخذنصر» الثانى بن «نبوبولاسر» ذلك انه بعدما استولى الجيش المصرى على أجزاء من سورية وفلسطين استأنف زحفه الى الفرات الاعلى للاستيلاء على الطرف المهمة بين العراق وسورية فلم يرق ذلك لدولة بابل الفتية لان ذلك يهدد مصالحها التجارية فأرسل الملك «نبوبولاسر» حملة كبيرة بقيادة ابنه وولى عهده «نبوخذنصر» فسار هذا سالكا طريق الفرات وصعد الى اعاليه متجها الى الجهة الشمالية الغربية فالتقى بجموع المصريين فى «كركميش» فى حدود ٦٠٤ ق • م فنشبت فيها معركة تمزقت بنتيجتها جموع الملك «نيخو» شر ممزق وولت الادبار ، فسار نبوخذنصر مكتسحا سواحل سورية وفلسطين ولم يتوقف الا عند حدود مصر اذ جائته الانباء بموت أبيه وتوريثه عرش المملكة البابلية •

نبوخذنصر الثانى (٦٠٤ – ٥٦٢ ق • م)

حكم نبوخذنصر الثانى ثلاثا واربعين سنة ، وهو عهد يعد بحق من العهود المجيدة فى التاريخ البشرى وفترة الانتعاش القوية التى عاشتها الحضارة البابلية قبل ان يعفى عليها وتطمر علومها وامجادها فى الطلول والتراب • ومما يمتاز به هذا الملك انه على الرغم من كثرة الحروب الموفقة التى خاضها كان من اعاظم الملوك المعمرين البنائين ولعله كان أعظم ملوك العراق القديم من هذه الناحية • ولذلك لم تسجل الكتابات والاخبار التى خلفها الا البناء والتشييد والتعمير فى بابل وفى جميع مدن العراق المهمة • ويرينا الآجر المختوم باسمه الذى يجده المنقبون منتشرا فى كل مكان من المملكة البابلية انه جدد بناء المعابد والقصور فى كل مدينة ذات شأن فى البلاد •

= (Caracalla) (٦) نقش عربى غير معروف • (٧) أزال الفرنسيون احدى الكتابات المصرية ونقشوا بدلا منها خبر احتلالهم لبنان (١٨٦٠ – ١٨٦٢) • (٨) نقش الجنرال غورو وبقربه نقش الجنرال «النبى» • (٩) نقش يسجل تذكار جيوش الحلفاء (١٩٤٢) • (١٠) نقش لبنانى تذكارا لخروج الجيوش الفرنسية (١٩٤٦) (P. Hitti, **History of Syria**)

ولكنه خصص جهوده فوق كل شيء لاعادة بناء العاصمة بابل وتوسيعها وتجميلها ، وهي المدينة التي قاست على أيدي الفاتحين المتتابعين . وكان آخرهم الملك الآشوري سنحاريب الذي أزالها من الوجود تقريبا كما مر بنا ذلك ، لذلك يصح ان نقول ان نبوخذنصر الثاني قد بناها من جديد وان ما وجده المنقبون الالمان في بابل وما يشاهده الزائر من اطلال في الوقت الحاضر انما هو من اعمال نبوخذنصر بالدرجة الاولى ، أما المدينة القديمة فبعضها تحت التراب تحت مستوى مياه النهر لا سبيل للتنقيب فيه وبعضها قد أزيل من الوجود بأعمال التخريب ولا سيما من زمن سنحاريب . ولقد استطاع نبوخذنصر باقتباسه عن تراث الحضارة البابلية والآشورية ان يفوق أسلافه في تجميل المباني العظيمة التي شيدها فجدد في جنوبي بابل في منطقة المعابد الكبيرة معابد الآلهة البابلية التي قدسها سكان العراق الاقدمون أزمانا طويلة . ولكي يصل بين منطقة المعابد ومنطقة القصور شيد شارعا مهيبا لمواسم الاعياد الدينية يمر في مدخل ضخم مهيب يدعى باب «عشتار» لانه خصص الى هذه الالهة . ويقع وراء هذا الباب قصر نبوخذنصر الفخم ودواوين الحكومة ويعلو الجميع المعبد الشاهق أي «زقورة» معبد «مردوخ» وقد خصص جزءا من قصره لزرع الاشجار المخضرة النظرة طبقة فوق طبقة مكونة جنة باسقة تطل على باب عشتار فتزيده بهاء ورونقا . وكانت هذه الحدائق التي غرسها على السطوح في قصر الملك هي الجنائن المعلقة التي عدها الاغريق من بين عجائب الدنيا السبع . وهنا تحت ظلال النخيل والاوراد كان الملك العظيم يجتمع في راحة وسرور وافرين مع نساء قصره مطلا على ابهاء مدينته ولسان حاله يقول (كما جاء في التوراة) «أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبيت الملك باقتداري ولجلال مجدي ؟» ، وقد أصبحت بابل في عهده أعظم مدينة في العالم آنذاك اذ وسعها كثيرا وصار محيطها زهاء الـ ١٨ كيلو مترا وقد دهش مؤرخ الاغريق هيرودوتس بسعتها وضخامة أسوارها فبالغ في سعتها أربع مرات ، وقد بنى الملك أسوارها الداخلية والخارجية . ولم يكتف بذلك بل انه بنى لها خطين من الدفاع الخارجي



نموذج مصغر لباب عشتار الشهير فی بابل كما يجب ان يكون عليه في الاصل من زمن الملك نبوخذ نصر الثانی

أولهما يدعى بالجدار المادى ، ويعد من اعظم واعجب الاسوار المحصنة في تاريخ البشر فانه يمر بوجه التقريب من الشمال الى الجنوب قاطعا بالضبط ارض ما بين النهرين من بلد الحديثة على دجلة الى مدينة «سبار» التي كانت آنذاك على الفرات قرب المحمودية والآن قرب قنال اللطيفية . والخط الثاني يمر بوجه التقريب من خان الناصرية على الفرات حتى كيش على الفرات (فرع النيل) . وبنى للمدينة سورين سور خارجی وسور داخلی تتخللهما أبراج ضخمة للدفاع وهما من أضخم الاعمال البنائية وقد وصفت في الكتابات التي جاءت الينا من الملك نفسه ومن روايات الاغريق وكذلك اوضحتها نتائج التنقيبات وكلها تشير الى الجهود الجبارة التي بذلها هذا الملك العجيب في مشاريعه العمرانية[١] .

(١) يتالف السور الخارجي من ثلاثة جدران ضخمة : أولها جدار من اللبن ثخنه ٧ أمتار ويليه بمسافة ١٢ مترا جدار ثان بنى بالآجر ثخنه حوالی ٨ أمتار ثم جدار ثالث من الآجر ثخنه ٣٫٥ مترا . ويتخلل الجدار الاول بين كل ٥٢ مترا أبراج شاهقة للدفاع . ويتالف السور الداخلی من جدارين ضخمين يؤلفان الاستحكامات الداخلية .

علاقة نبوخذنصر باليهود (مملكة يهودا)

ومع كل هذه الاعمال السلمية الانشائية فى داخل المملكة ، لم تعوز نبوخذنصر المقدرة العسكرية فبفضل حملاته الحربية يوم كان وليا للعهد فى عهد ابيه وكذلك فى عهده اعترفت الديار الشامية معظمها بالسيادة البابلية وأدت الجزية الى بابل واستمر الحال كذلك ولكن مملكة يهوذا الصغيرة رفضت تأدية الجزية بعد زمن قصير بسبب تحريض الملوك المصريين على ما يبدو • ولم تكتف بذلك بل ثارت على السيادة البابلية غير آبهة لنصائح النبى «ارميا» وتحذيره ملكها «يهوياقين» بوخامة العاقبة ، فجرد «نبوخذنصر» حملة تأديبية لم تقو المملكة الصغيرة على مقاومتها فسقطت العاصمة «اورشليم» (القدس) فى عام ٥٩٦ ق • م • وأخذت عنوة ونقل قسم من سكانها اسرى ، سبعة آلاف رجل مسلح والف عامل مكبلين بالحديد ومعهم الملك «يهوياقين» نفسه فكان هذا السبى البابلى الاول • وكأنما كل ذلك لم يؤدب المملكة الصغيرة حيث انضمت بعد بضع سنين الى جملة المدن التى ثارت على بابل بتحريض مصر التى حاولت استرجاع مكانتها فى سورية وفلسطين فحرضت كثيرا من المدن على الثورة من بينها صور وصيدا • واشتركت يهوذا فى العصيان ايضا • وكادت الثورة تنجح لولا ان نبوخذنصر قد عاجل الثائرين بحملة كبيرة جاء بها الى سورية الشمالية وعسكر فى مدينة «ربلا» على نهر العاصى واتخذها قاعدة لحركاته العسكرية ، فأرسل أولا قوة لحصار عاصمة يهوذا «اورشليم» فى العام ٥٨٧ ق • م • وعبثا حاول الفرعون «افريز» ملك مصر «القصبة المرضوضة» فى عهد سنحاريب نجدة الملك «صدقيا» فسقطت المدينة فى السنة التالية (٥٨٦ ق • م •) وكان غضب الملك البابلى فى هذه المرة عظيما ، فدمر المدينة وحرق هيكل سليمان وسلب خزائن المدينة ونقلها الى بابل وقتل من سكانها خلقا عظيما ، واخذ من اليهود ٤٠٫٠٠٠ أسير (اربعين الف اسير) «لينوحوا عند مياه الفرات فى بابل» كما جاء فى التوراة • وكان هذا هو الاسر البابلى الثانى وقبض على الملك اليهودى صدقيا واخذ الى معسكر الملك فى «ربلا» فذبح أولاده أمام عينيه ، ثم فقئت عيناه وهو حى



نموذج من الاسود المعمولة من الآجر المزين بالمينا مما كان يزين باب عشتار

واخذ مكبلا مع الاسرى الى بابل . وقد حدث تطور مهم فى الديانة العبرانية فى بابل حتى انه ليقال ان اليهودية وتطور فكرة الوحدانية وتساميها الروحى كل ذلك لم يتمثل الا فى اثناء الاسر البابلى .ومن ذلك ان التلمود نشأ عند اليهود وهم فى بلاد بابل[١] .

وبعد ذلك وجه الملك عنايته الحربية الى المدن الفينيقية التى شقت عصا الطاعة أيضا وحرضت مملكة يهوذا على الثورة فاستطاع ان يخضع المدن الفينيقية الا مدينة صور التى كانت قائمة على جزيرة منيعة الجانب لا يمكن الوصول اليها بالسفن فحاصرها نبوخذنصر زمنا طويلا قيل انه دام ثلاث عشرة سنة (٥٨٥ ـ ٥٧٣ ق . م .) ولا يعلم بوجه التأكيد هل فتحت عنوة ولكن الظواهر تشير الى ان صلحا قد تم بين الطرفين قبلت بموجبه صور بتجديد ولائها لبابل ودفع الجزية . وهكذا تم توطيد الامبراطورية البابلية الاخيرة واصبحت حدودها تمتد من خليج فارس جنوبا حتى تخوم مصر . ويرجح كثيرا ان نبوخذنصر اعتزم فى أواخر أيامه على غزو مصر . اذ انه

(١) أنظر البحث الخاص بالعبرانيين فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

بعد حربه مع صور بسنين قليلة نجده فى حرب مع الفرعون المصرى «اماسيس» ويحتمل كثيرا ان الملك البابلى قد وفق فى حربه وانه وصل الى الدلتا ، وقد اخبرنا المؤرخ اليهودى «يوسيفوس» ان نبوخذنصر قد جعل مصر تابعة الى الامبراطورية البابلية • ولكن أخبار الملك الرسمية غفل من هذه الحادثة • وقد ترك لنا نبوخذنصر طرفا من اخباره الحربية فى سورية منقوشة على صخور نهر الكلب •

وكان نبوخذنصر صديقا للماذيين طوال ايام حكمه والماذيون حلفاء المملكة القدماء وقد تزوج نفسه من ابنة الملك الماذى فى حياة ابيه • وقد اشترك فى ابان حكمه مع الماذيين فى حربهم مع الليديين الذين انشأوا مملكتهم فى آسية الصغرى فى القسم الغربى منها •

خلفاء نبوخذنصر وسقوط بابل

بعد أن حكم «نبوخذنصر» زهاء الثلاثة والاربعين عاما (٦٠٤ – ٥٦٢ ق • م) خلفه على عرش بابل بضعة ملوك لم يكونوا بالخلفاء الجديرين بالمملكة التى أسسها نبوبولاسر ووسعها ووطدها ابنه نبوخذنصر ، فكان حكمهم فى الواقع فترة قصيرة سبقت انهيار المملكة البابلية • فأول هؤلاء الملوك ابنه المسمى «امبل – مردوخ» أو «اويل – مردوخ» (٧ اكتوبر ٥٦٢ ق • م) وكان هذا خلفا غير صالح عاش حياة تفسخ ، فلم يكد يمضى على حكمه ثلاث سنوات حتى تدخل الكهان فى شؤون الملك وقتلوه غيلة ونصبوا مكانه أحد قواد «نبوخذنصر» وصهره (زوج ابنته) المسمى «نرجال – شار – اوصر» (١٣ آب ٥٦٠ ق • م) أو «نرجلسار» ولم يقم هذا بأعمال تستحق الذكر سوى بعض الاعمال البنائية • وقد خلفه بعد موته ابنه الصغير «لباشى– مردوخ» (٢٢ أيار ٥٥٦ ق • م) الذى لم يحكم سوى تسعة اشهر ، وعندئذ تدخلت طبقة الكهنة فى شؤون المملكة للمرة الثانية فنحوه عن الحكم ونصبوا

مكانه ملكا منهم تهواه قلوبهم هو «نبونهيد» التقى الورع المولع بجمع الاخبار القديمة فاهتم هذا بشؤون الدين ومصالح الكهنة وجمع الاخبار وترك أمور المملكة على الغارب ، فلم يكن فى طاقته ادارة الامبراطورية الواسعة التى ورثها عن نبوخذنصر • ولعل الشيء الوحيد الذى يذكر عنه بخير انه اقتفى آثار نبوخذنصر فى البناء فقام بتجديد بعض الابنية فى بابل وفى المدن الاخرى • وأولع فى الوقت نفسه فى حوادث الماضى[١] ودراسة التأريخ والتنقيب عن احجار الاسس المنقوشة العائدة الى بناة المعابد من الملوك الاقدمين ، فوجد فى مدينة «سبار» مثلا عندما كان يجدد بناء معبد اله الشمس «شمش» أخبار التأسيس الاصلية مطمورة فى أسس المعبد وهى تعود الى الملك الاكدى العظيم «نرام ـ سين» الذى كان أول من شيد معبدا هنا قبل نحو الفى سنة • فاحتفل باكتشافه هذا احتفالا عظيما •

ومن الامور المفيدة التى يجدر ذكرها عن اخبار سقوط بابل والظروف التى سقطت فيها الامور الآتية :ـ لم يكن نبو نهيد من السلالة الكلدانية ، تلك السلالة الغريبة عن البابليين ، ولعل الوطنيين البابليين ساعدوه فى خلع الملك الصغير ، وقتله بثورة مدبرة فى القصر • وكان نبو نهيد ابن كاهن فى معبد الاله القمر فى حران • (٢) حالف نبو نهيد الملك الفارسى «كورش» ضد الماذيين فى ثورة الملك الفارسى عليهم ، وكان ملك الماذيين «استياجس» (Astyages) وقد ذكر لنا نبونهيد ذلك فى كتاباته حيث يخبرنا بان الاله مردوخ ظهر له فى

---

(١) لعل هذا الولع مظهر من مظاهر عبادة «الماضى الذهبى» الذى يصح أن نقرنه بأزمان انحلال الحضارات وانهيارها •

(Olmstead, **Hist. of the Pers. Empire** I ff.)

وهذه ايضا نظرية «توينى» فى كتابه

(A study of History)

الحلم ، حيث أمره بتجديد معبد حران ، ولما ان اخبر بتسلط الماذيين على حران اجاز له الاله حربهم (بقوله انهم سيسقطون) •

فقاد جيشا بنفسه ضد الحامية الماذية فى حران واستولى عليها فى الوقت الذى كان الملك الماذى «استياجس» (Astyages) منشغلا بثورة الفرس بقيادة كورش • ثم جدد معبد حران الخاص بالاله «سين» •

(انظر الاسطوانة المكتشفة فى تل ابو حبه (سبار) العمود ١ : ١–٣٠ والعمود ٢ : ١–٨ المنشورة فى

(S. Smith, **Babylonian Historical Texts** (1924), PP. 27 ff.

وبعد ان اخذ نبو نهيد حران وجدد ابنيتها غزا سورية وكان فى حماة فى كانون الثانى عام ٥٥٣ ق • م وغزا جبال «امانوس» فى آب وقتل ملك



نموذج من الحيوانات المطلية بالمينا التى كانت تزين جدران باب عشتار فى بابل (والصور تمثل حيوانا اسطوريا يمثل التنين المقدس الخاص باله بابل مردوخ)

«ادوم» في كانون الاول ، وقد وصل جيشه الى غزة في حدود المملكة المصرية •

وبعد غزو كورش للامبراطورية الماذية ، صار يدعي ايضا بحقه في أملاكها في بلاد آشور وشمالي العراق وفي سورية وارمينية وكبدوكيه ،فكان ذلك يعارض مصالح الدولة البابلية الحديثة وايذانا بنقض الحلف ، حيث اختل توازن القوى باستحواذ كورش على الامبراطورية الماذية فكانت الحرب بين الدول القائمة آنذاك لا بد منها وهي : (١) مملكة كورش (٢) دولة بابل (٣) دولة ليدية (٤) دولة مصر •

وعندما كان الوضع الدولي على هذا الوجه ، كان نبو نهيد يقود جيشه تاركا «ادوم» ليغزو شمالي بلاد العرب ، فحارب «تيماء» ، الواحة الجميلة وقتل ملكها وبنى فيها قصرا وسكن فيه • وتدل الوثائق من هذه السنين على سير القوافل من الابل الى تيماء لتنقل المؤن الى نبو نهيد في تيماء • وفي ذلك الاثناء كان «بيل شاصر» ملكا على بابل بالنيابة عن ابيه • وتدل ألواح الطين على ان نبو نهيد كان في تيماء من سنة حكمه السابعة حتى سنته الحادية عشرة على أقل تقدير ، ومما يقال في سياسة هذا الملك وابنه اهمال الطقوس الدينية في اعياد رأس السنة البابلية واذا أضفنا الى ذلك اهتمام الملك بمعبد حران ادركنا سبب غضب الكهنة البابليين ولا سيما كهنة مردوخ لما في سلوك الملك من خسائر مادية تلحق بهم •

وبعد انتهاء كورش من القضاء على «سارديس» عاصمة مملكة ليدية رجع نبو نهيد الى بابل في عام ٥٤٥ ق • م ، لعل ذلك كان بسبب تهديد كورش لسورية ولتيماء •

ومما يقال في أحوال بلاد بابل في عهد الملك «بيل ـ شاصر» تفسخ الادارة ، تلك الادارة القوية الحازمة التي أسسها نبوخذنصر ، فساء الحكم

وعمت الرشوة وازداد الظلم على السواد الاعظم ولا سيما الفلاحين فبارت الحقول • حتى ان بلاد بابل قد هددها القحط والجوع فى عام ٥٤٦ •

(Dougherty, **Records from Erech** (1920) No. 154.

وقد ثار حاكم سوسة «كوبرياس» التابع الى بابل وانحـاز الى جانب الفرس وبعد قضاء كورش على ملكة ليدية حارب فى شرقى ايران ثم هاجم بلاد بابل • وقد حدثت قبل ذلك حوادث كانت من اسباب انهيار الدولة البابلية الحديثة ، ومن ذلك قيام نبو نهيد بجمع تماثيل الآلهة البابلية المهمة ووضعها فى بابل لحمايتها •

وبعد سقوط اوبس ، سقطت سبار فى ١١ تشرين الاول عـام ٥٣٩ ق • م ودخل «كوبرياس» بابل فى ١٣ تشرين الثـانى عام ٥٣٩ واخـذ نبو نهيد أسيرا • وقد دخل كورش بابل فى ٢٩ تشرين الاول وبدأ التأريخ الرسمى باسم الملك الجديد فى ٢٦ من تشرين الاول •

ومما يذكر عن اسلوب الدعاية الفارسية ان كورش ادعى بعد دخوله الى بابل بانه جاء بصفته محررا للبابليين ونجده يخاطبهم بلغتهم : «انا كورش، ملك العالم ، الملك العظيم ، الملك القوى ، ملك بابل ، ملك سومر واكد ، ملك جهات العالم الاربع ••• نسل الملوكية منذ القدم ، الذى يحب حكمه الاله بيل (مردوخ) والاله «نبو» ، الذى سر قلبيهما سلطانه» •

(انظر اسطوانة كورش الحقل الثانى ، ٢٠ فما بعد) •

وقد جازى الكهنة الذين خانوا نبو نهيد ، وارجعت الالهة الخـاصة بالمعابد فى المدن المختلفة • واصدر كورش الاوامر فى اعادة تعمير المعـابد المختلفة كما تدل على ذلك أختام الآجر المكتوب مثل آجر الوركاء : «كورش»

بانى ايساكلا ، وايزيدا ، بن قمبيز ، الملك العظيم ، اناء • وهكذا يستعمل نفس التعابير الدينية المستعملة فى آجر نبوخذنصر العظيم •

أما بالنسبة الى اليهود فقد رحبوا هم وانبياؤهم بعهد كورش وعدوه «المسيح المنتظر» الذى سيعيد مملكة صهيون (انظر اشعيا ٤٤) والمهم بهذا الصدد ان الذين رجعوا من اليهود لم يكونوا بأعداد كبيرة ، وعلى كل حال فان اليهود الذين عادوا الى فلسطين أخذوا معهم الاثاث والادوات الخاصة بالهيكل ، مما سلبه نبوخذنصر وقد اخذت هذه الاشياء من معبد بابل (ايساكلا ؟) وسلمت الى حاكم يهوذا الجديد الذى ورد اسمه بصيغة «شيشبصر» (Sheshbazzar) وهذا اسم بابلى لعله محرف من « شمش ـ ابال ـ اوصر » Shamsh-apal-usur ، ولكن مع ذلك فيرجح أن يكون من اليهود البارزين ، وبدأ هذا فى تأسيس الهيكل •

(انظر سفر عزرا ٦ : ٣ ـ ٥ر١ : ٨)

وعندما كان «الملك نبو نهيد» منشغلا ببحوثه التأريخية افلت شمس الحضارة البابلية • وكان لانشغاله بهواياته قد اودع الى ابنه «بيلشاصر» ادارة المملكة • وكان هذا هو الذى رأى «الكتابة على الحائط» بحسب التوراة[١] •

جاءت الضربة القاضية على المملكة البابلية الاخيرة من قوم جدد هم الفرس الاخمينيون الذين ظهروا فى عيلام فى خلال ضعف الامبراطورية

---

(١) جاء فى التوراة (دانيال ١٠٥ ـ ٩) انه عندما كان الملك بيلشاصر فى وليمة خمر فى قصره اذ «ظهرت أصابع يد انسان وكتبت بازاء النبراس على مكلس حائط قصر الملك والملك ينظر الى طرف اليد الكاتبة» فخاف الملك ولما لم يستطع أحد من كهنته ومنجميه أن يفسر الكتابة التى نصها «منامنا تقيل وفرسين» احضر اليه دانيال الذى فسرها على الوجه الآتى : «منا ـ أحصى الله ملكوتك وانهاه، وتقيل ـ وزنت بالموازين فوجدت ناقصا وفرسين قسمت مملكتك وأعطيت لماذى وفارس» ومما تجدر ملاحظته ان دانيال قد عاش فى بابل من السبى اليهودى فى هذا الزمن وانه نال حظوة فى البلاط البابلى •

البابلية وكانوا في أول امرهم تابعين الى الملوك الماذيين • وقد ثار احد زعمائهم المسمى كورش على سيده الماذي «استياكس» وخلعه ونصب نفسه ملكا على جميع الفرس • وبعد ذلك هجم على المملكة الليدية وانتصر على ملكها قارون في عام ٥٤٦ ق • م • ثم وجه جهوده الى المملكة البابلية التي كان اخضاعها وضم أقاليمها الغنية الى مملكته أولى أهدافه ، فتم له ذلك في العام ٥٣٨ أو ٥٣٩ ق • م • بدون مقاومة تذكر[١] كما لخصنا ذلك من قبل •

وليس لدينا ما نذكره من أخبار سقوط بابل سوى روايات من مؤرخي الاغريق الاوائل وبخاصة هيرودوتس وزينفون • فقد مر كورش في اثناء زحفه على بابل بنهر ديالى (الذي سماه هيرودوتس بالجندز) فحدثت له حادثة طريفة رواها هيردوتس كما يأتي «عندما وصل كورش هذا المجرى الذي لا يمكن عبوره الا بالقوارب خاض أحد أفراسه البيض المقدسة التي رافقت زحفه في الماء وكان هذا الفرس جموعا حاول أن يعبر النهر بنفسه ، الا ان التيار جرفه فأغرقه في أعماق النهر • فأغاض كورش ذلك واقسم على تأديب النهر حتى يصبح في حالة تعبره حتى النساء لذلك أجل هجومه على بابل وبعد ان قسم جيشه قسمين علم بالحبال مائة وثمانين خندقا على كل جانب من نهر «الجندز» تتفرع منه الى كل الجهات واقام قسما من جيشه في جانب من النهر والقسم الثاني في الجانب الآخر لحفر الخنادق وتحويل مياه النهر اليها • وقد انجز ما هدد به بمعونة الايدي الكثيرة ، ولكنه خسر فصل الصيف بكامله» •

وبعد ان شتت كورش مياه «الجندز» (ديالى) زحف على بابل والتقى بجيوش نبو نهيد في مدينة «أوبس» وكانت الجيوش على ما يرجح بقيادة ابنه «بيلشاصر» فنشبت معركة قرب الموضع الذي صار فيما بعد يعرف بموقع «سلوقية ـ طيسفون» فاندحر الجيش البابلي وانسحب الى بابل وتحصن في

---

(١) حول أخبار سقوط بابل وحالة العراق الاقتصادية والاجتماعية في العهد البابلي الاخير وفي العهد الاخميني أنظر
(Olmstead, **Hist. of the Pers. Empire** (1946).

داخلها • اما عن سقوط المدينة الذى اعقب ذلك فتوجد روايات مختلفة فيخبرنا كورش نفسه فى احدى كتاباته «ان الاله البابلى مردوخ هو الذى حبذ الحملة فى جميع مراحلها وانه امره أن يذهب بنفسه الى مدينة بابل وسيره فى الطريق اليها ماشيا معه كالصديق ، وانه اذن له ان يدخل مدينته بابل بدون كفاح او نزال •• فطأطأت له رؤوس جميع سكان بابل وكل سومر واكد وعظماء القوم وحكام المدن • وقبلوا قدميه مبتهجين بسلطانه وبشت له وجوههم» ومهما كان الحال فيبدو ان المدينة لم تبد مقاومة عنيفة وان كورش بعد حصار لم يدم زمنا طويلا استطاع ان يفتحها •

وهكذا سقطت عاصمة العراق المعظمة الثانية من بعد «آشور» وكان ذلك رمز نهاية الحضارة البابلية والمجد البابلى • وقد أخذ الاسكندر على نفسه احياء المدينة مدفوعا باحترام ماضيها ، الا ان خلفاءه ابتنوا لهم عواصم جديدة على شواطىء دجلة والعاصى ، فانهارت بعد زمن قصير معابد بابل وقصورها وآلت الى الخرائب المحزنة التى تشاهدها اليوم • واصبح العراق لأول مرة فى تأريخه ولاية تابعة الى دولة اجنبية • واذ كنا سنفرد فصولا خاصة الى هذه العهود فاننا نذكر هنا اسماء هذه العهود ودوامها وتسلسلها الزمنى فأول هذه العهود حكم الاخمينيين (٥٣٨ ـ ٣٣٠ ق • م) وقد رأينا فيما سبق كيف ان ملكهم كورش قد أخذ بابل وأزال آخر سلالة بابلية • وقد اتخذ الفرس بابل عاصمتهم الشتوية • وقد حاول كورش وخلفاؤه ابقاء مآثر البلاد وصاروا يلقبون انفسهم «بملك بابل» • وقد دام العهد الفارسى الاخمينى الى فتح الاسكندر للعراق فى العام ٣٣١ ق • م فى عهد آخر ملوك الفرس وهو «دارا» الثالث • وقد ارتأى الاسكندر آراء جسيمة فى مشاريعه منها فكرة توحيد الغرب والشرق وقد صمم على ان يجعل بابل مركز امبراطوريته وجعلها مركزا بحريا يربطها بطرق تجارية بالهند وبمصر حتى انه شرع فى بناء ميناء فى بابل واخذ على نفسه تعمير معابدها ومن ذلك

برجها المدرج • وفيما كان في بابل أخذ يعد العدة لتجهيز حملة على جزيرة العرب ولكن مرض ومات بالحمى في عام ٣٢٣ ق • م • وخلفه في حكم العراق وسورية احد قواده المسمى سلوقس وعرف هذا العهد في العراق بالعهد السلوقي ، كما خلفه في مصر البطالسة • وقد نتجت فتوح الاسكندر للشرق التقاء الحضارة اليونانية بالحضارة الشرقية ومنها حضارة وادي النيل ووادي الرافدين ونتج عن ذلك ثقافة جديدة عرفت باسم الحضارة «الهلنستية» وقد شملت ثلاثة قرون من بعد الاسكندر • ودام العهد السلوقي في العراق اكثر من قرن ونصف القرن (٣١٢ – ١٣٥ ق • م •) وقد شيد مؤسس السلالة عاصمة جديدة له في العراق عرفت باسمه وهي «سلوقية» على دجلة ، وتعرف خرائبها الآن بتل عمر على دجلة مقابل طيسفون (طاق كسرى) • فكان ذلك ضربة قاضية على بابل حيث هجرها الناس واخذ يعمها الخراب منذ ذلك الحين •

وقد انتهى العهد السلوقي في العراق على أيدي قوم اصلهم من الفرس عرفوا بالفرثيين الذين ظهروا في اقليم خراسان • وقد بقي الفرثيون في العراق الى ان حل محلهم قوم آخرون من الفرس في عام ٢٢٦ للميلاد وهم الفرس الساسانيون وقد امتاز العهدان الفارسيان ، أي العهد الفرثي والساساني بكثرة الحروب بين هؤلاء الفرس والرومان وكان العراق مسرحا لكثير من هذه الحروب ، وذلك للاستيلاء على الشرق • ونقل الفرس الفرثيون عاصمة البلاد من سلوقية وابتنوا لهم عاصمة جديدة هي «طيفسون» ، مقابل سلوقية على دجلة ايضا ، واتسعت في زمن الفرس الساسانيين وصارت عاصمة معظمة وظلت عاصمة المملكة حتى فتحها العرب المسلمون في فتوح العراق ، وبوسعنا أن نجعل نهاية العهد الفارسي الساساني في موقعة القادسية ٦٣٧ للميلاد • وسيمر بكم الكلام على هذه العهود في القسم الثاني من الكتاب •

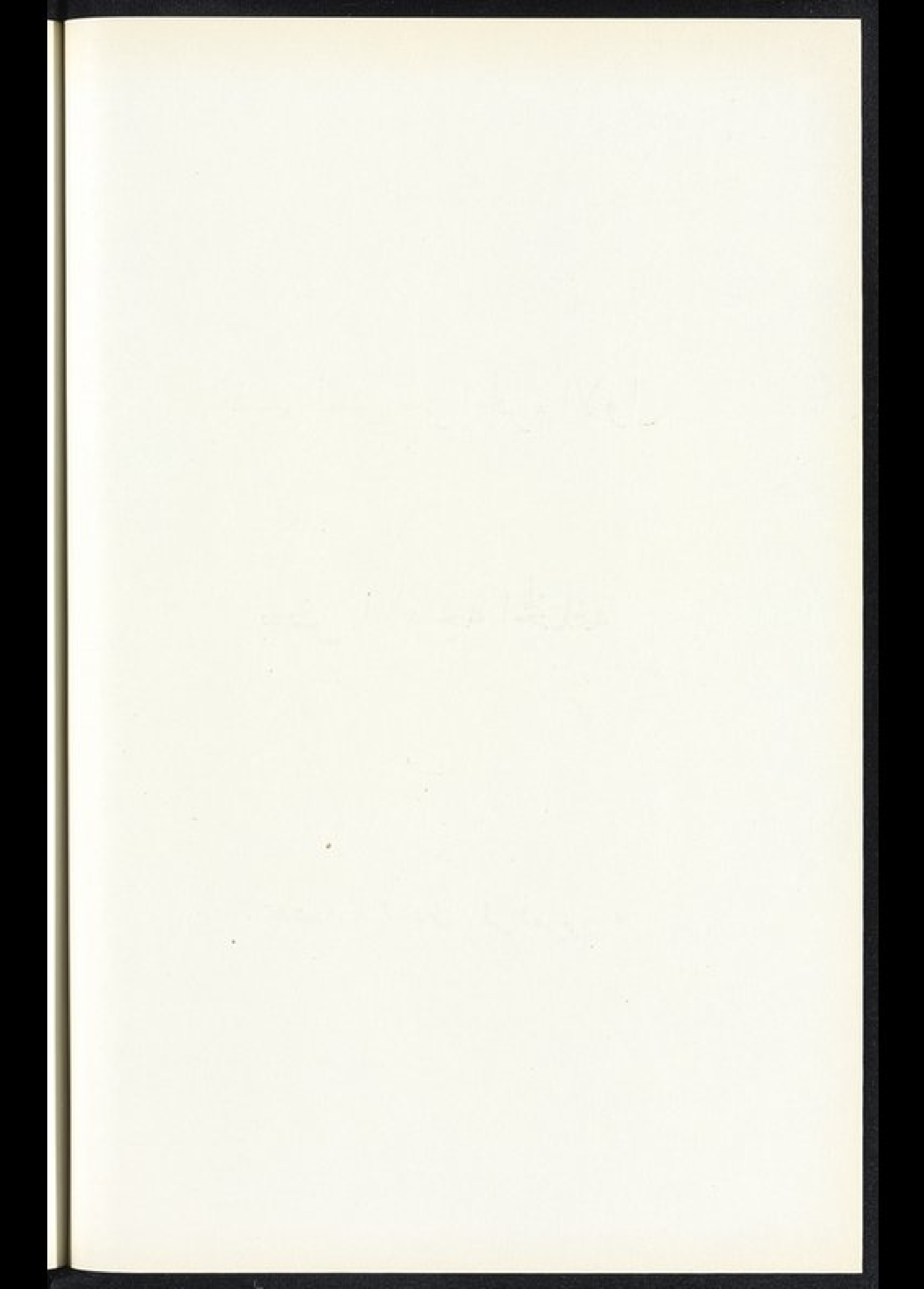


القسم الثاني من الجزء الاول

بعض الاوجه المختلفة

من

حضارة وادى الرافدين



الفصل الثاني عشر

الديانة

١ ــ المعتقدات والخصائص العامة

بعد أن وقفنا على العهود المختلفة من تأريخ وادي الرافدين واستعرضنا نشوء الحضارة فيه وأطوار نموها ونضجها ونهايتها نبدأ بدرس مقومات تلك الحضارة وبعض عناصرها المهمة ونبدأ ببحث الديانة لتأثير الدين في جميع نواحي تلك الحضارة • اذ كان للدين عند العراقيين الاقدمين ، السومريين منهم والبابليين والآشوريين ، المكان الاول في حياتهم العامة والخاصة فالدين البابلي من هذه الناحية خير مثـــال ينتخب لدرس تأثير الديانات في حيـــاة الجماعات والافراد • والواقع ان تأريخ العـراق القديـم وتأريخ حضاراته يتعذر فهمهما ما لم يمهد لدرسها بفهم ديانة القوم وعقائدهم • ونحن لو حللنا مفهوم الدين بحيث يكون شاملا يصدق على جميع أشكال الاديان لوجدناه يدور على ركنين أساسين هما أولا اعتقاد بوجود كائن أو كوائن أو قوى فوق البشر والطبيعة وثانيا الاعتقاد بانه من الممكن للبشر ومن الواجب عليهم أن تكون لهم علاقات بتلك الكوائن والقوى • وعلى ضوء هذا التعريف بوسعنا ان نقسم مبحث الديانة الى المواضيع الآتية : ١ ــ عقائد • ٢ ــ عبادات • ٣ ــ نظم وقواعد للسلوك والاخلاق • ٤ ــ منظمات ومؤسسات دينية •

ومما يقال في تأريخ الديانة ان معرفتنا بالنظم الدينية والمعتقدات التي نشأت في العراق القديم لا تتعدى العصور التأريخية التي نجد فيها منذ أقدم عهودها نظاما دينيا ناضجا ، أما بداية هذا النظام وأطواره البدائية التي مر فيها قبل ان يتطور فيصبح في الحال التي نعرفه فيها في العصور التأريخيـــة فلا سبيل لنا لمعرفتها معرفة تأريخية أكيدة لمرور حقب طويلة مجهولة على تلك البداية في عصور ما قبل التأريخ الطويلة • فلا نستطيع ان نجزم مثلا

في هل بني الدين القديم على السحر أو هل كان اصله في الاعتقاد بوجود روح أو قوى في جميع الاشياء والظواهر الطبيعية وهو ما يعرف بمبدأ الحيوية[١] ومهما كان الحال فانا نجد ان الديانات التي نشأت في وادي الرافدين قد ابتعدت عن اصناف الديانات البدائية التي عليها بعض الشعوب الهمجية في الوقت الحاضر مثل الطوطمية[٢] و «الفتيشية»[٣] ومما يزيد في صعوبة الباحث ان اجناسا وأقواما مختلفة ، كالسومريين والساميين قد ساهموا في نشوء الحضارة بوجه عام والديانات بوجه خاص في العراق • فلا نستطيع أن نخصص بالضبط الاشياء التي ادخلها في الديانة كل من هذه الاقوام •

وقد سبق ان ذكرنا في كلامنا على العصر الحجري المتأخر احتمال ان اول ديانة واضحة للانسان قد ظهرت في ذلك العصر وان اول معبود تصورته المجتمعات مما له علاقة بزراعة الانسان التي تعلمها في ذلك العصر ، كان على هيئة الهة عامة تمثل الارض والخصب والقوى المولدة في الطبيعة ، ثم اخذ البشر يرون في قوى الطبيعة الاخرى كوائن علوية جسموها بهيئة آلهة ، وقد كان هذا هو الحال في الديانة في حضارة وادي الرافدين حيث انتخب القوم أهم الظواهر الطبيعية التي كان لها أثر قوي في كونهم وحياتهم وجسموها من بعدئذ أي شخصوها على هيئة آلهة • وكانت صفة الظواهر الطبيعية بارزة في آلهة حضارة وادي الرافدين حتى بعد ان تطورت وابتعدت عن أطوار نشوئها الاولى ، كما ان خصائصها تعكس لنا ميزات بيئة وادي الرافدين الطبيعية ولا سيما ناحية العنف والتقلب ، ثم ان تصورات القوم عن آلهتهم تعكس لنا الكثير عن أحوال العراق الاجتماعية منذ اقدم العهود حيث انهم شخصوا آلهتهم التي كانت بالاصل قوى طبيعية ونسبوا اليها أحوال البشر •

---

(١) Animism (٢) Totemism والكلمة أصلها من احدى لغات الهنود الحمر في أمريكة ، ومعناها الاصطلاحي حيوان أو نبات يعتقد فيه أنه ذو صلة بالقبيلة وقد يعد أصلها فيحرم أكله واليه تنتمي تلك القبيلة وتميز عن غيرها وتنشأ عنه نظم اجتماعية معقدة •

(٣) Fetishism

ولتوضيح كون اصل الآلهة من الظواهر الطبيعية نذكر اهم القوى التى اتخذت آلهة • فمثلا كانت السماء بوجه عام على رأس الظواهر الطبيعية ، فالسماء والارض عندهم تؤلفان الكون (كما يشير الى ذلك اسم الكون بالسومرية «آن ـ كى» فكان الاله «آنو» الممثل للسماء على رأس الآلهة البابلية • ويمثل «آنو» اصل السلطة فى الكون ويأتى بعده فى الدرجة الاله الذى يمثل الجو والهواء ، وهو «انليل» ، ويمثل هذا القوة ، واذا كانت السماء اصل السلطة فان الجو والهواء القوة المنفذة • وبعد ذلك يأتى العنصر الثالث المرئى ، وهو الارض وما فيها من قوى مولدة ، فجسمت بهيئة الهة سميت بأسماء كثيرة لا تحصى على ما سنبين فيما بعد • والارض عدا انها مصدر الخصب والانبات فانها مصدر الماء ، فكان الماء عنصرا مهما من قوى الطبيعية التى جسمت على هيئة آلهة ، وقد دعى «انكى» (اى سيد الارض) ، أى انه العنصر المذكر فى قوى الارض المولدة ، ووصف انكى بالحكمة والدهاء وقوة الخلق ، مما هى صفات الماء التى يشعر بها من يمارس شؤون الارواء مثل سكان العراق القدماء •

وأول ما نذكره عن الديانة فى حضارات وادى الرافدين وفرة المصادر الاصلية التى جاءتنا عنها وتنوعها مما نتج عن التنقيبات والبحوث الآثارية الكثيرة ، ولا تقتصر مصادرنا عن الديانة على الكتابات والآداب الدينية بل تشمل كذلك فنون العمارة الدينية كالمعابد ، وفنون النحت المخصصة للاغراض الدينية لتماثيل الآلهة والكهنة والمشاهد الدينية المنحوتة كمشاهد الصلوات وتقديم القرابين وكذلك الآلات والادوات الخاصة بالديانة مما لا حصر لها ، والاختام الاسطوانية التى تمثل كثيرا من المشاهد الدينية وصور الآلهة والاساطير المتعلقة بها • أما الكتابات الدينية فهى وافرة متنوعة ايضا نذكر منها الاصناف الآتية على سبيل المثال :ـ (١) الاساطير والقصص ، وقد كانت بعض الاساطير ذات علاقة وثقى باقامة الشعائر والرسوم الدينية وبعضها أساطير وقصص أدبية دينية صرفة مثل اسطورة الخليقة وقصة جلجامش ،

واساطير كثيرة حول اصل الاشياء والوجود والآلهة مما سنذكره في مبحث الآداب • (٢) مجاميع من الارشادات في كيفية اقامة الشعائر الدينية المختلفة، كالصلوات ، وكيفية بناء المعابد وتطهيرها وما يجب ان يقام من الشعائر في حالات بعض الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف الخ والى ذلك فتوجد مجموعات من الصلوات والتراتيل الدينية المخصصة الى الآلهة المختلفة • (٣) التعاويذ والرقى ، مما يدخل في باب النصوص السحرية • (٤) نصوص الفأل والتنبؤ وطرق الكهانة والعرافة • (٥) نصوص خاصة بالتنجيم ، أي رصد الكواكب والاجرام السماوية لمعرفة اثرها في شؤون الناس • (٦) وهناك مؤلفات عن الآلهة جاءت على هيئة اثبات بالآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض • (٧) الوثائق الادارية الخاصة بالمعابد واملاكها وموظفيها وطبقات كهنتها والى هذه الكتابات الدينية الصرفة فهناك المصادر الكتابية الاخرى التي تعيننا بصورة غير مباشرة على فهم النواحي الدينية ، كالشرائع ، والرسائل واسماء الاشخاص والعقود وغير ذلك من الكتابات[1] •

ومن الصفات البارزة في ديانة وادي الرافدين صفة الاستمرار التأريخي ، فانه عندما بلغت طور النضج في العصور التأريخية في الالف الثالث ق • م لم يطرأ عليها من حيث اسسها واصولها تغيير كبير في جميع العصور التأريخية الطويلة التي مر بها العراق القديم حتى زوال البابليين السياسي فالآلهة التي قدسها سكان العراق في العصور التأريخية المتأخرة هي بوجه التقريب الآلهة القديمة نفسها التي قدسوها في الادوار القديمة وكذلك يقال في الطقوس والشعائر والتراتيل الدينية الاساسية • أما التغيرات التي نجدها فهي في علاقة الآلهة بعضها ببعض • اذ كانت تلك العلاقات وكذلك مكانة الآلهة واهميتها تتغير تبعا للتبدلات السياسية • فعندما تبلغ مدينة قوة سياسية وتبسط سلطانها على المدن الاخرى يعظم عند

S. H. Hooke, **Babylonian and Assyrian Religion** (1953), 13 ff.

ذلك شأن الهها فيعمد الكهنة على تحوير علاقة هذا الاله بغيره من الآلهة • وهذا ما حدث عندما عظم شأن بابل فى زمن سلالة حمورابى فارتفع شأن الهها مردوخ وصار سيد الآلهة ، وكثيرا ما يعمد الكهنة الى تحوير المعتقدات الدينية لتتفق مع التغيير الحاصل فى مكانة الآلهة • كما ان المدن المختلفة قد تنفرد بعبادة اله أو جملة آلهة حيث تخصها بالتعظيم ، ولكنها لا تترك تقديس الآلهة الاخرى أو على الاقل لا تنكر وجودها • وهذا ما يعرف بمبدأ التفريد (henotheism) اى خص اله أو جملة آلهة بالتعظيم والعبادة دون ترك الآلهة الاخرى •

الشرك والتشبيه

ويطغى على الدين البابلى مبدأ الشرك أى تعدد الآلهة[١] وقد بلغ عدد الآلهة مبلغا بحيث تملأ معجما كبيرا[٢] ، ووضع البابليون أنفسهم اثباتا (جداول) بأسماء آلهتهم الكثيرة ، ونضمت الى مجاميع وذكرت علاقاتها بعضها ببعض • وقد قسموا الكون الى مناطق يحكم فى كل منها اله أو مجموعة من الآلهة • وكذلك خصصوا لشؤون الحياة المختلفة ولظواهر الطبيعة آلهة بيدها نظامها واسبابها ، ولم يصل البابليون فى كل ما نعرفه من أطوار تأريخهم الى طور التوحيد • وانما ، كما ذكرنا ، قد يفردون بعض الآلهة ويفضلونها على الآلهة الاخرى •

ومن الخصائص البارزة فى الدين البابلى طغيان صفة التشبيه على الآلهة البابلية ، ويقصد بالتشبيه[٣] ان البابليين نسبوا الى آلهتهم صفات البشر الروحية والمادية كالصورة والاعضاء والفكر والرأى والعواطف كما عند الانسان ، فقد تصور البابليون آلهتهم على صورتهم وشبههم • ومن مظاهر

---

(١) Polytheism

(٢) أنظر أشهر المعاجم المؤلفة حديثا بهذا الخصوص •
(Tallqvist, **Akkadische Götterepitheta** 1938).

(٣) أو مذهب المشبهة (Anthropomorphism)

التشبيه انهم نسبوا الى الآلهة حتى الاوضاع السياسية التى كانت فى بلاد الرافدين منذ فجر التأريخ مثل عزوهم الى الآلهة مجالس الشورى المقدسة حيث تجتمع الآلهة فيها وتقرر شؤون الكون بالمداولة والشورى على غرار ما ذكرناه من الديمقراطية البدائية فى العصر الذى سميناه بالعصر الشبيه بالكتابى وفى مفتتح عصور فجر السلالات ، وكان لكل اله حاشية كثيرة وزوجة وسرارى واولاد فهى تعيش وتأكل وتسكن فى المعابد التى شيدها لها البشر ومع ذلك فقد ميزوا الآلهة عن البشر بصفة فارقة وهى الخلود ، فهى لا تموت بعكس الانسان الذى قرن به الموت منذ ان خلقته الآلهة حيث «استأثرت لنفسها بالخلود» كما جاء فى قصة جلجامش • واذا كان بعض الآلهة يموت فانما ذلك لامد محدود ، وان رجوع الاله الذى يموت وقيامته من عالم الاموات الى عالم الاحياء أمر ممكن ، كما هو الحال فى الاله «تموز» الذى يمثل حياة الربيع والخضار والربيع • ومساكن الآلهة فى السماء واذا شاءت ان تنزل الى الارض فانها تعيش فى بيوت ضخمة هى المعابد التى يشيدها لها الانسان وكانت المعابد احسن العمارات فى المدينة وافخمها • وبيد الآلهة مصير البشر والكون ، وتدير شؤون العالم وتقدر أقداره • وقد مثلوا آلهتهم بصور آدمية تختلف قليلا عن البشر العاديين كالمبالغة فى سعة اعينهم وآذانهم الخ أو وجود اربع عيون ، وقد مثلت الآلهة البابلية وهى تلبس تيجانا ذات قرون وهذه سمة الآلهة المميزة فى الاصنام التى تمثلها منذ اقدم العهود • ومما يجدر التنويه به بهذا الصدد الفرق البارز بين تمثيل قدماء المصريين لآلهتهم وبين تمثيل سكان وادى الرافدين الذى اسلفنا ذكره ، فنجد الآلهة المصرية كثيرا ما تمثل بهيئة كائنات مركبة • مثلا من جسم انسان ورأس حيوان ، فالاله «خنوم» بهيئة كبش ، و «هورس» بهيئة صقر و «انوبيس» ابن آوى و «سوبك» ، التمساح و «هاتور» البقرة • وقد يكون لبعض الآلهة البابلية حيوانات مقدسة خاصة بها ، ولكن الآلهة لا تمثل بصورها على غرار الطريقة المصرية ، وانما تكون رمزا لها • كما

ان الآلهة البـابلية قد تشبه فى بعض صفاتهـا بالحيوانات كأن يقال للاله الفلانى قوة الثور أو انه عجل الاله الفلانى وللالهة الفلانية خصب البقرة •

ولما كانت الآلهة تتصف بصفات البشر المادية والروحية وتحتاج الى جميع ما يحتاج اليه البشر من طعام ومسكن وعناية تحتم على الناس العناية بعبادة الآلهة أى العمل لهـا واقامة بيوتهـا (أى معابدها) وتقديـم القرابين والمناسك وتقديم التماثيل الى غير ذلك من اشكال العبادة• وقد جاء فى اسطورة الخليقة البابلية ان الآلهة «خلقت الانسان ليعبدها» • واذا قصر البشر فى واجبهم تجاه الآلهة فانهم يجازون بعقاب شديد فى هذه الحياة حيث يكون العقاب والثواب ، ومن مظاهر تغلغل الدين فى حياة البابليين ان لكل فرد منهم الها خاصا هو الهه الحامى الشفيع عدا تعلقه بالآلهة الاخرى • وكان الملوك والامراء كل منهم ينتسب الى اله أو آلهة وقد تكون هذه العلاقة عن طريق التبنى أى تبنى الآلهة الملوك ابناء لها، وقد بلغ الملوك العظام مرتبة التقديس والتأليه ولكنهم لم يصيروا آلهة على غرار فراعنة مصر • وتغلب على أسماء القوم دخول اسماء الآلهة فى تركيبها، وهى ذات معان تدل على تعلق الفرد بالآلهة، مثل «ايلى ـ دورى» (أى الهى حصنى) و «اليما ـ ابى» أى الهى ابى و«ايليشو ـ ابو شو» أى الهه ابوه و«مانوم ـ بالو ـ ايلشو» أى من يكن بلا اله • واسماء ملوك مثل «نرام ـ سين» أى محبوب (الاله) سين ، و «أدد ـ نرارى» أى الاله (ادد) مسـاعدى و «نبو ـ كدورى ـ أوصر» (نبوخذنصر) أى اله «نبو» يحمى الحدود ، الى غير ذلك من اسـماء الاعلام الكثيرة • وكانت أولى الواجبات الدينية عند البابليين الخوف من الآلهة ، فغالبا ما يصف الملوك انفسهم بانهم يخشون الآلهة ، وويل لمن لا يخاف الآلهة ، فالملك الذى لا يفعل ذلك يعرض نفسه ومملكته الى الخراب والدمار • وسخط الآلهة مجلبة للويلات والدمار فى هذه الحياة اذ يتخلى عن الفرد الهه الحامى فتحل فى جسـمه الشياطين والارواح الخبيثة • ومن الطريف ذكره فى مثـل هذه الآلهـة الحامية او الشخصية انهم كانوا اذا اصابت الفرد مصيبـة يكتبون رسـائل

اليها ، فهناك مثلا رسالة يخاطب بها شخص الهه الحامي مختصرها : «الى الاله ابى قل : هكذا يقول «آبل ـ أدد» خادمك • لماذا اهملتني هكذا ؟ فمن سيزودك شخصا آخر يحل محلى ؟ اكتب الى الاله مردوخ ، الذى يحبك ، لكى يزيل عنى عبوديتى (علتى) وعندئذ سأرى وجهك واقبل قدميك ' راع أيضا عائلتى ، الكبار والاطفال • فارحمنى من اجلهم ، ودع عونك يصلنى»[١]

فيتضح من هذه الرسالة عقائد القوم فى آلهتهم بوجه عام ومنازل هذه الآلهة ودرجاتها ، فان الاله الحامى لا يستطيع ان يخلص الشخص المتعلق به وحده بل انه يشفع له عند اله عظيم مثل مردوخ • وكما ان العقاب على الذنوب يكون فى هذه الحياة كذلك يكون الثواب على الاعمال الصالحة ، وأنواع الجزاء فى هذه الحياة كثيرة أبرزها منح العبد الصالح العمر الطويل ، وكانت هذه الامنية أعز ما يتمناه البابليون وتحقيقها من اقوى البواعث على الاعمال الصالحة ومن البديهى أن تكون امنية العمر الطويل مقرونة برغد العيش وسعده • والملوك الذين لا يقصرون بواجباتهم الدينية تمنحهم الآلهة النصر على الاعداء فتمكنهم من بسط سلطانهم على دول اخرى •

أبرز العقائد الدينية

١ ـ الموت وعالم ما بعد الموت

لم يشك البابليون فى حتمية الموت وفرضه على البشر وجميع الاحياء • وكان الاله الموكل بالموت موجودا قبل خلق الانسان كما جاء فى اسطورة الخليقة البابلية (انظر موجزها فى بحث الادب) • وكان الموت عندهم من طبيعة الانسان وتركيبه اى انه خلق ومعه حياته وموته وهو قانون طبيعى قدرته الآلهة عندما خلقت البشر • وعندما خاب جلجامش فى الحصول على الخلود واسته «صاحبة الحانة المقدسة» ونصحت له ان يكف عن طلب الخلود لان «الآلهة عندما خلقت البشر قدرت عليهم الموت واستأثرت هى

(Before Philosophy, 1948, 221)

بالحياة»[١] . والواقع من الامر ان فكرة ملحمة جلجامش (انظرها في مبحث الآداب) ، اي موضوع القصة الاساسي التأمل في مسألة الموت والخلود اذ انها تبرهن برهانا مؤثرا على حتمية الموت على البشر ، فان بطل الرواية جلجامش بالرغم من قوته وجبروته ومع ان ثلثي مادته من مادة الآلهة فانه لم يستطع ان ينال الخلود بل وحتى خاب في الحصول على وسيلة لتجديد الشباب .

ولكن البابليين لم يتصوروا ان الموت غاية تنتهي عندها الحياة وتنعدم انعداما كليا ، أي انهم لم يعتقدوا بالفناء المطلق . وانما الموت عندهم انقسام الكائن الحي الى جزئين وانفصال احدهما عن الآخر ، وهما الجسد والروح فبالموت تنفصل الروح عن الجسم وتنتقل الى طور جديد من الوجود . اذ تنحدر الروح بعد وضع الجسم في القبر الى عالم الارواح وهو العالم الاسفل وتعيش هناك الى أبد الآبدين حيث لا قيامة ولا رجعة عندهم بخلاف بعض الاديان الاخرى ومع هذا الانفصال بين الجسم والروح فتبقى بعض الصلة بين الاثنين بعد الموت[٢] . فمثلا تتوقف راحة الروح في عالم الارواح على العناية التي يبذلها الاحياء في دفن الجسم وفق الطرق والسنن الدينية

---

(١) ولم يعرف البابليون الا بشرا واحدا قد وصل الى مرتبة الخلود اي صار في مصاف الآلهة وهو «اوتو ـ نبشتم» نوح الطوفان عندهم (أنظر موجز قصة جلجامش) .

(٢) لا توجد عندنا أدلة كتابية صريحة تثبت أن البابليين كانوا يعتقدون برجوع الروح الى الجسم في القبر كما كان يعتقد المصريون القدماء ، ولكن مع ذلك هناك أدلة أخرى تشير الى ما يقارب هذا الاعتقاد اذ لا يمكن تفسير ما نجده في قبور موتاهم من أثاث ومتاع خاصة بالموتى الا بما يضاهي عقيدة رجوع الروح الى الجسم . وان عادة وضع ما يحتاج اليه الميت في قبره انتشرت في جميع عهود العراق ، وهي ترجع في أسسها الى الاطوار الهمجية من حياة البشرية ، الى العصور الحجرية القديمة .

(أنظر بحث الموضوع باسهاب ولا سيما مقارنة ذلك بالمعتقدات العبرانية) في المرجع

Alexander Heidel, **The Gilgamesh Epic**



تمثالان سومريان يمثلان الها والهة (اله الخصب وزوجته) من عصر فجر السلالات الثاني ـ من تل اسمر (عن مديرية الآثار) (لاحظ المبالغة في سعة العيون مما تتصف به الآلهة)

وعلى ما يودع في القبر من زاد وأثـاث وعلى ما يقرب الى الميت بمناسـبات مختلفة • ويمكن تفسير طرق الدفن وما نجده في قبورهم من الاثاث واللوازم الخاصة بالميت منذ أقدم العهود بأنهم على ماذكرنا اعتقدوا برجوع الروح الى الجسم وهو في القبر[1] • واذا أهمل الاحياء العناية بدفن الميت وفق السنن الدينية أو لم يدفن أو ينبش قبره فان روحه لا تستقر في عالم الاموات وانما تخرج بهيئة شبح يحدث بالاحياء الاذى والضرر •

وقد تصور البابليون موطن الارواح الذي تذهب اليه بعد الموت انه يقع ضمن هذه الارض ، تحت سـطحها القاهر ، وهو العـالم الاسفل • وقد وصفوه بانه عالم مخيف بهيئة مدينة مسـورة بسبعة أسـوار يحرسها مردة الشياطين وسموه بأسماء مختلفة منها «كيجال» و «الارض التي لا رجعة منها» (ارصة لاتارى) وبالسومرية (كورنوجى) وتسـكن في هـذه المدينـة وتحكم فيها الهة شديدة قاسية هي «ايرش كيجال» (اى ملكة العالم الاسفل) التي عرفت بأسماء اخرى مثل «اللاتو» و «بعلة ارصيتم» اى سـيدة الارض ويساعد هذه الا لهة في حكمها الاموات مجموعة من الآلهـة والشـياطين والكتاب لتسجيل الموتى • وقد اضطربت آراء القوم عن حالة الموتى في هذا العالم ، ولكنهم اعتقدوا بوجه عام انه عالم مخيف يكاد يتساوى فيه الموتى ولا قيامة او رجعة منه اى انهم لم يعتقدوا بعالم آخر للثواب والعقاب اى لا جنة ولا نار عندهم كما في الاديان الاخرى ، ولكنهـم كانوا يلطفون في بعض الاحايين من هذه الصورة القاتمة حيث وردت في بعض مآثرهم ولا سيما في اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش ان بعض الموتى من خلفوا الحسنات والمآثر الصالحة او ممن مات عن اولاد ولا سيما الذكور او من قدمت له القرابين على الدوام يعيش في هذا العالم عيشا فيه بعض الراحة حيث يمنح

---

(١) حول استعراض طرق الدفن والقبور من عهود العراق المختلفة كما وجدت في التنقيبات أنظر المرجع الآتي :—

Alexander Heidel, **The Gilgamesh Epic**

الماء والطعام ، وتشير مآثرهم الى انهم اعتقدوا بنوع من الحساب عندما تدخل الارواح في عالم الاموات •

ويجدر بنا هنا ان نشير الى ان عقائد العبرانيين في موطن الاموات تشبه من وجوه كثيرة ما أوجزناه عن عقائد البابليين ، وفيها اوجه اختلاف أيضا • فيسمى العبرانيون عالم الاموات باسم «شيؤل» وهي كلمة لا يعرف اشتقاقها ومعناها بوجه التأكيد وهي عندهم عالم الارواح الاسفل وتعني ايضا القبر[١] والموت بوجه عام • وشبيه بما ذكرناه عن عقائد البابليين في حالة الموتى في عالم الارواح ان العبرانيين لم يتصوروا هذا العالم بصورة مسرة وانما كان عالما مظلما مخيفا[٢] • واستعملوا لعالم الاموات ايضا كلمة «موث» (موت) • وقد اكتشف حديثا في ألواح الطين من (رأس شمرة) (اوغاريت القديمة) اسم اله الموت بهيئة «موت» وهو «موتو» البابلي[٣] • ويرجح ان العبرانيين اخذوا المصطلح من الكنعانيين ، أهل «اوغاريت» • ويستنتج من التوراة ان عالم الارواح أو عالم الموتى في اعمق أجزاء الارض السفلى ، تحت البحر[٤] • وان لهذا العالم مدخل او أبواب كما اعتقد البابليون ، ومن الباحثين من يذهب الى ان جهة مدخل هذا العالم عند العبرانيين من المغرب ايضا • ومما يقال بوجه الاجمال ان الآراء المستخلصة من التوراة عن عالم الارواح فيها تضارب بحسب المفسرين ، فهناك حالات لم تذهب فيها أرواح بعض الموتى الى «شيؤل» بل الى السماء ، ولا سيما أرواح الصالحين (مثل حزقيا) وبعضهم مثل «الياهو» قد صعد الى السما ، وتستطيع ان نجد الحيرة

---

(١) واسم القبر المعتاد في العبرانية «قبر» مثل العربية ، ولعل «شيؤل» هي الكلمة الشعرية للقبر •

(٢) أنظر الاشارات الواردة في التوراة عن «شيؤل» في (Alexander Heidel **Op. Cit.**, P. 174—175).

(٣) (**Zeitschrift für Assyrriologie,** vol. 43, 16:43)

(٤) انظر مثلا (التثنية ٣٢ : ٢٢) والمزامير ١٣٩ : ٨ واشعيا ١ : ١٣ ـ ٥ وعموس ٩ : ٢ ، وأيوب ٢٦ : ٥

التى استولت على الافراد الصالحين فى محاولتهم تفسير مصير الشريرين والصلحاء وهل يذهبون الى مصير وموضع واحد هو «الشيئول» ؟ والحقيقة ان هذه قضية معقدة مختلف فيها بالنظر لعدم وجود نصوص صريحة فى التوراة حول موضع العقاب والثواب أو دار النعيم والجحيم وهناك بعض المواطن فى التوراة (المزامير رقم ٧٣) تشير الى ان نفوس البشر لا تذهب جميعها الى موضع واحد • واذا اختلفت النصوص الصريحة فى التوراة حول «شيؤل» فان بعضها (مثل المزامير رقم ٤٩) ما يشير الى ان هذا الموضع خصص للاشرار فقط ، وان الصلحاء اذا ذهبوا الى «شيؤل» فانهم يخلصون منها بمشيئة الله ، فيكون معنى هذا الموضع مرادفا «لجهنم»[١] ، ولكن هذه الامور كلها استنتاجات مختلف فيها مأخوذة بالدرجة من «المزامير» ، ولعل هذا التضارب فى الدلالات المستخلصة من التوراة حول عالم الارواح والعالم الآخر يمكن تفسيره بما طرأ من التطورات على افكار العبرانيين كما تعكسه لنا التوراة ، ففى الكتب القديمة منها نجد ان مصير أرواح البشر جميعهم الى العالم الاسفل ، ولكن ظهرت فى الكتابات المتأخرة فكرة موطن سماوى للارواح الصالحين تذهب اليه من بعد الموت •

٢ ـ الخليقة وأصل الوجود

شغل سكان العراق الاقدمون بقضية اصل الوجود والاشياء كما شغل غيرهم من البشر فى جميع الأزمان • وقد نشأ عن الكهنة فى العراق القديم واصحاب الرأى والمعرفة منهم مذاهب وعقائد مختلفة حول اصل الوجود ،

---

(١) والجدير بالذكر عن اشتقاق اسم «جهنم» انه من الكلمة العبرانية «جيهنوم» (بلفظ الجيم كالفارسية) أى «وادى هنوم» القريب من القدس وهو موضع كان العبرانيون القدماء يمارسون فيه عادة الضحايا البشرية لاحد آلهة النار «مولك» ثم صاروا يرمون فيه أجسام المجرمين والقاذورات ويشعلون فيه نارا دائمية منعا من انتشار العفونة منه ، فصار بذلك مرادفا لموضع العذاب أى النار أى جهنم •

وقد خلفوا لنا هذه الآراء بهيئة ملاحم شعرية وقصص واساطير دونوها على ألواح الطين • وكانت هذه القصص والاساطير متعددة تختلف من حيث المادة والعهد وتتضارب الآراء المستنتجة منها فى بعض الاحايين ولكنها تتفق فى الفكرة الاساسية • وقد جاءتنا من السومريين والبابليين نماذج من هذه الآداب الدينية وسنذكر بعضها فى فصل خاص ، وبالاستناد الى هذه الآداب والقصص الدينية نستطيع ان نلخص عقائد القوم فى اصل الوجود والاشياء بالامور الآتية :

(١) يستدل من قصة الخليقة البابلية (انظر ملخصها فى موضع آخر) ان المياه الاولى كانت المادة الاولى التى ولدت منها جميع الاشياء • وكانت هذه المياه الاولى مضطربة مشوشة ومؤلفة من عنصرين من الماء مختلطين ، الماء العذب (وهو العنصر الذكر) والماء المالح (العنصر المؤنث) • وقد جسم البابليون هذين العنصرين من الماء وعدوهما الاها والهة وهما «ابسو» و «تيامة» ومن هذين الآلهين الابوين ولدت جميع الآلهة • (٢) وقد فصل الاله «مردوخ» جسم «تيامة» وكون من نصف منه السماء ومن نصفه الثانى الارض ثم خلق الكواكب والنجوم وخلق بالاشتراك مع ابيه الاله «ايا» الانسان من دم احد الآلهة • وفى روايات اخرى عن الخليقة ان الانسان خلق من دم اله ومن تراب الارض والظاهر ان خلق الانسان قد جاء بعد خلق الكون والحيوان والنبات ، ثم خلقت الاشياء الاخرى الخاصة بالعمران البشرى من فلح وزرع ومدن الخ • فكان اصل الاشياء بموجب اسطورة الخليقة البابلية ينطوى على شطرين أو عمليتين من الخلق متداخلتين ، فالاولى مجىء الآلهة والاشياء الاساسية فى الكون والثانية كيفية ظهور نظام المجتمع والحضارة • وسيتضح من تلخيص هذه الاسطورة وتحليلها فى مبحث الآداب ان اسسها مبنية على مشاهدة الاحوال الطبيعية والجغرافية فى وادى الرافدين الاسفل ، كما يلاحظ فيها ان عملية الخلق وايجاد نظام الكون لم يتم بعملية هادئة سلمية ، كما هو الحال فى أساطير الخلق المصرية وانما كان

ذلك فى كفاح وصراع بين الآلهة التى قلنا انها تمثل عناصر الطبيعة الاساسية .

وجاءت آراء اخرى فى القصص السومرية القديمة حول اصل الوجود والاشياء ، ولكنها وردت بما نسميه نحن اساطير دينية اى انها وردت بلغة الاساطير والدين ولكننا مع ذلك نستطيع ان نستخلصها من غلافها الاسطورى الدينى ، واذا ما فعلنا ذلك وجدنا ان الآراء التى خلفها لنا اولئك المفكرون الاولون لم تكن بالبدائية الساذجة بل كانت فى الواقع محاولات فلسفية جريئة فى التفكير فى هذا الكون واصل الوجود والاشياء . وبوسعنا ان نقول ان السومريين سبقوا فلاسفة الاغريق بقولهم بمبدأ العناصر الاربعة الاولية التى عدت اصل جميع الاشياء ، واليك هذه الآراء مستنتجة من القصص والاساطير السومرية .

١ ـ كان فى البدء عنصر الماء الذى كان ازليا والها فى الوقت نفسه .

٢ ـ تولد من عنصر الماء عنصر آخر هو عنصر الارض والسماء متحدتين، وكانت الارض والسماء الهين كذلك .

٣ ـ وتولد من السماء والارض المتحدتين عنصر غازى هو الهواء المتمدد الذى فصل بتمدده السماء عن الارض ، وجسموا الهواء وجعلوه الها هو الاله «انليل» .

٤ ـ وتولد من الهواء القمر،ومن القمر ولدت الشمس ،وجسموا كلا من القمر والشمس وعدوهما الهين[١] .

٥ ـ وبعد انفصال الارض عن السماء نشأت أنواع الحياة الاخرى من نبات وحيوان وانسان على الارض ، وقد تصوروا ان اصل الحياة والاشياء

---

(١) انظر
(S.N. Kramer, **The Sumerian Mythology,** 1944)

من اتحاد الهواء والتراب «الارض» والماء بمساعدة الشمس ، وهذه هى نظرية العناصر الاربعة •

٣ ـ السلوك والاخلاق والحياة الصالحة

لعل منشأ تأثير الدين فى أخلاق الافراد وسلوكهم من الاعتقاد بوجود دار للعقاب ودار للثواب سواء أكانتا فى هذا العالم أم فى عالم آخر فيما بعد الموت أم فى كليهما يحاسب فيهما الانسان عن أعماله • فوضعت فى الاديان القواعد لتحديد أعمال الخير واعمال الشر ليسير بموجبها البشر فى هذه الحياة • وقد سبق ان علمنا ان البابليين لم تتولد عندهم فكرة دار العقاب ودار الثواب فيما بعد الموت ، اى انه لم يكن عندهم جنة ونار او نعيم وجحيم بل ان العقاب والثواب زمنيان اى يكونان فى هذه الحياة • ونشأ عن هذا الاعتقاد تمسك القوم بالسلوك والاخلاق التى فرضتها عليهم دياناتهم وقد فرضت عليهم الآلهة عدا العبادات والشعائر التى يقيمونها للآلهة ان يتمسكوا بشرائع الآلهة اى القوانين المستمدة من الآلهة ، ونستطيع ان نلمس تأثير الدين فى أخلاق القوم فى معاملاتهم التجارية مثلا،حيث نجد الآلهة تدخل فى العقود والصكوك فى القسم من جانب المتعاقدين لئلا ينقض نص العقد • وتذكر لعنات الآلهة فى الشرائع على من يبدل نصوصها ويحرفها كما ورد ذلك جليا فى شريعة حمورابى • ونجد أثر الدين جليا فى اعمال الملوك وسلوكهم ، كما تدل على ذلك أخبارهم وسجلاتهم الرسمية • فمن الصفات المحببة التى ينعتون بها انفسهم انهم ملوك عدل يخشون الآلهة ويطبقون شرائعها وينشرون العدل بين الخلق وينفذون ارادة الآلهة •

ومن آثار الاعتقاد بالثواب والعقاب فى هذه الحياة وانتفاء فكرة البعث والنشور فى حياة اخرى ان البابليين اقبلوا على الدنيا وعملوا لها بخلاف الحضارة المصرية القديمة التى خصصت معظم جهودها لشؤون الموت ، فى حين ان الصفة المادية والنعم والمتعة فى هذه الحياة قد ظهرت فى حضارات

العراق القديم واضحة في مقوماتها وخصائصها ويبدو ان ملوك العراق الاقدمين قد دفعهم انتفاء الخلود في عالم آخر الى تخليد انفسهم للاجيال القادمة بالاعمال العمرانية ، ونراهم يشيرون الى هذه المحاولة صراحة في كثير من سجلاتهم ومآثرهم • وقد وردت في بعض مآثرهم وفي قصصهم ان بعض ابطالهم ومنهم «جلجامش» قد قام باسفار ومغامرات الى موضع قصي ليكتب اسمه في موضع خصص لاسماء الآلهة • ومغزى ذلك ان يخلد ذكره واسمه ولسان حاله يقول «والذكر للانسان عمر ثاني» •

وقد تصور سكان العراق الاقدمون الكون على هيئة دولة او مملكة تحكم فيها الآلهة وتدير شؤونها وتتدرج السلطة فيما بينها وتتوزع الاعمال ، ويتجلى فيها مبدأ الطاعة والا لما امكن وجود المجتمع والدولة ، فصارت الطاعة أي اطاعة القوانين والسير بموجب انظمة المجتمع على رأس الفضائل المتطلبة من الفرد[١] ، وتتدرج الطاعة وتتنوع من طاعة الفرد الى رأس عائلته الى طاعته الى رأس المجتمع والآلهة وبلغ من تقديرهم لفضيلة الطاعة انهم تخيلوا ظهور عهد ذهبي بين البشر تسود فيه الطاعة كما جاء في احد التراتيل الدينية :ـ

«ستأتي أزمان لا يهين فيها شخص شخصا آخر ، والولد يبجل اباه ، أيام سيسود فيها الاحترام والطاعة في البلاد ، حين يمجد المتواضعون العظماء ••• الخ»[٢] وتكون السلطة والحكومة من أسس المجتمع وبدونهما لا يمكن تصور مجتمع ما ، واليهما توجه الطاعة والخضوع وقد ورد في امثالهم الكثير مما يعكس لنا نظرهم في استحالة وجود المجتمع البشري بدون سلطة او حكومة وملك : «الجنود بلا ملك خراف بلا راع» [٣] و «العمال

---

(١) أنظر Jacobsen, **Before Philosophy** (1951), ch. VII.

(٢) ذات المصدر

(٣) أنظر مجلة **R A. XVII**, P. 123.

بلا رئيس مياه بدون جدول ولا مراقب»[١] و «الفلاحون بدون رئيس (سركال) كحقل بلا حارث»[١] وقد فرض على أفراد المجتمع ان يشعروا ان السلطة هي على الدوام على الصواب مهما عملت «أوامر القصر مثل امر آنو لا يمكن ان ترد . كلمة الملك هى الحق الصحيح . وكلمته مثل كلمة الاله لا يمكن تحديها»[١] .

واذا ما تساءلنا عن البواعث التى تحفز أفراد المجتمع البابلى على الطاعة الى الآلهة والسلطة وعما سيصيبه الفرد من وراء ذلك فان جواب ذلك يكمن فى نظر سكان وادى الرافدين الى مركز الانسان ومكانه فى النظام الكونى وعلاقته بالآلهة وسبب خلقه ، فقد المحنا فيما سبق ان العلة من خلق الانسان انما كانت ليعبد الآلهة اى ليكون عبدا لها . فكما ان العبد المطيع لسيده ينتظر جزاء طاعته الحماية من سيده والجزاء والثواب منه ، فكانت هذه الامور هى التى ينشدها العبد من الآلهة ، ولكن فى هذه الحياة ، وقد رأينا فيما سبق كيف انه كان لكل فرد اله شخصى هو الهه الحامى الذى كان يلازمه ويشفع له عند الآلهة الاخرى وتتوقف علاقة الاله الحامى بالفرد وملازمته له على طاعة الفرد الى الآلهة والسلطة وكل ما تقتضيه قواعد السلوك والاخلاق ، ولكن الجزاء وما ينتظره الفرد من خير جزاء طاعته ليست من الحقوق الواجبة الاكيدة التى يتوقعها الفرد دائما ، بل انها مع طاعة الفرد فضل تتفضل به الآلهة والسلطة على الفرد[٢] . ولكن بتطور المجتمع البشرى فى وادى الرافدين بمرور القرون أخذت آراء الناس تتغير فى نظرهم الى مفهوم العدالة وهل هى حق من حقوق الفرد على الدولة أو هل هى شيء تتفضل به السلطة على الفرد ، وتبلورت الفكرة الاولى وظهرت جليا فى شريعة حمورابى العظيمة حيث نجد فكرة العدالة كحق من حقوق الفرد واضحة فيها .

---

(١) المصدر رقم (٣) الص ٢٣٨ .
(٢) المصدر رقم (١) الص ٢٣٨ .

ولكن يلزم علينا ألا نتصور ان آراء القوم فى قيم الحياة وسلوكهم بموجب ذلك قد بقيت ثابتة ، أو ان القوم لم يتطرق اليهم الشك فى قيم الحياة والسلوك والاخلاق • فاذا ما رجعنا الى آدابهم وقصصهم واساطيرهم وجدنا ذلك جليا • فمثلا فكروا وشكوا فى مسألة الموت ومصير الانسان بعد الموت ، وكان هذا أمرا شغل عقولهم بحيث يمكننا عد اعظم قطعهم الادبية ، وهى ملحمة جلجامش ، قد اوحتها لهم مسألة التفكر فى مصير الانسان فى هذه الحياة (وسنلخص القصة فى مبحث الآداب) ، كما ان فكرة اصل الخير والشر قد شغلت عقولهم فانعكست فى آدابهم • واذا نظرنا الى ملحمة جلجامش على ضوء ذلك وجدناها انها لم توفق الى حل تلك المشكلة الكبرى فى حياة البشر ، تلك هى مشكلة الخلود ومصير الانسان بعد الحياة ، فبعد أن تبرهن الملحمة باسلوب مؤثر على حتمية الموت واستحالة الخلود للانسان نجدها تتضارب فى آرائها فى نوع السلوك الذى يجب أن يسلكه الانسان فى هذه الحياة • هل هو سلوك اللذة والتنعم فى هذه الحياة كما جاء على لسان صاحبة الحانة ، أو هل هو سلوك ينطوى على الاذعان لما لا بد منه وضبط النفس والقيام بما يترتب على الانسان من أعمال لتخليد نفسه فى هذه الحياة كما فعل بطل الرواية جلجامش فى آخر حياته ؟ والجواب على ذلك اننا نجد كلا النوعين من السلوك فى تلك الملحمة الخالدة •

واذا كانت هذه الملحمة لم توفق التوفيق كله فى الجواب على اصل الخير والشر ونوع السلوك الفردى ، فان قطعا ادبية أخرى من بعدها عالجت الموضوع نفسه ووجدت له حلولا مختلفة • فأولا ظهر الشك عند القوم فى ارادات الآلهة نفسها وفى اعمالها، واذا كان مايصيب العبد المطيع من الخير فى العصور القديمة يتم باستعطاف الآلهة والسلطة على مجازاته خيرا ، فقد تغيرت القيم فى العصور التالية ، فأولا اصبح العدل ، كما ذكرنا ، حقا من حقوق الفرد ، وثانيا اذا لم ينل الفرد الجزاء الذى يستحقه من سلوكه الصحيح تجاه الآلهة فانه بدأ يشكك فى ارادة الآلهة ويتجرأ فى السؤال عن اعمالها •

ولعل خير ما يعكس لنا هذا الاتجاه الجديد من التشكك في قيم الحياة والسلوك قطعتان أدبيتان تعدان من القطع الادبية الخالدة • اولهما تسمى بعنوان «لامجدن رب الحكمة»(١) التي تضاهي كتاب أيوب في التوراة في موضوعها وفي المشكلة التي عالجتها ، ويمكن ايجاز موضوعها مثل قصة أيوب بأنها تدور على «العبد الصالح المعذب» • أما القطعة الثانية فهي فريدة في بابها اذ انها تدور على التشكك والسخرية بقيم الحياة والسلوك •

ولما كانت هاتان القطعتان على قدر عظيم من الاهمية في تأريخ الفكر البشري وتعكسان لنا عقائد سكان وادي الرافدين في موضوع السلوك والحياة الفاضلة وخير نموذجين على أدب وادي الرافدين القديم فاننا نوجزهما هنا • فالبطل في القطعة الاولى ، ولنسمه «ايوب البابلي» ، عبد صالح اطاع الآلهة وسار بموجب سننها واطاع السلطة فلم يذنب كما يعتقد هو بذلك كما جاء على لسانه :ـ

«لم اعرف سوى الصلوة والعبادة • وكانت افكاري مشغولة بالتضرع الى الآلهة ، والتضحية لها ، وكانت ايام عبادة الآلهة أيام سرور قلبي ، والايام التي اسير فيها في مواكب الآلهة ايام نصري وكسبي في الحياة • وكان تمجيد الملك سرورا لقلبي ، والموسيقى التي تعزف له مصدر حبوري وغبطتي • أوصيت اهلي وتبعي ان يراعوا رسوم الآلهة وشعائرها • وعلمت الجند ليطيعوا القصر ، عارفا بذلك ان هذه الاشياء مما تسر الآلهة •• الخ»•

ولكن على الرغم من صلاحه وتقواه يجد نفسه وقد حلت بساحته المصائب والشرور اذ يقول : «لقد اتى مرض «آتو» على جسمي وغطاه كالرداء • واصبح النوم كالشبكة التي تصطادني • اذناي مفتوحتان ولكنهما

---

(١) وبالبابلية **(ludlul bel nemeqi)** انظر النص الاصلي في :ـ

(1) Langdon, **Babylonian Wisdom,** PP. 35—66).

(2) Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (1950).

وانظر تحليلها القيم في (Jacobsen, **Before Philosophy,** 228)

لا تسمعان . لقد استولى على جسمى الضعف . واصبح السوط الواقع على يرعبنى ويخيفنى . يطاردنى معذبى فى النهار ، ولا يترك لى الراحة فى الليل . لقد خذلنى الاله . لم يأت اله لمساعدتى ، ولم تعطف على الهتى فتخلصنى من مصائبى» . وقد حسبه الجميع انه ميت فأخذ المتعلقون به يعملون بموجب ذلك : «كأن القبر مفتوح حين نهبوا كنوزى ، وحينما لم اكن قد مت فانهم انقطعوا عن البكاء ، وفرح بى حسادى ومبغضوى» .

فهذه حالة واضحة على عبد صالح ولكنه يقاسى العذاب والآلام مما يناقض تعاليم الكهنة من ان العبد المطيع تحسن اليه الآلهة . فما هو الجواب على هذا التناقض ؟ واذا رجعنا الى النص الاصلى وجدناه يقدم حلين لهذه المشكلة الاخلاقية . حل عقلى موجه الى الفهم والفكر الذى يحاول فهم المشكلة وحل عاطفى موجه الى القلب الذى جاشت فيه العواطف من جراء ما أصاب ذلك العبد الصالح من عذاب وآلام لا يستحقها فى الظاهر [١] . فالحل العقلى ان مؤلف القطعة الادبية ينكر امكان تطبيق مقاييس القيم البشرية على أعمال الآلهة . فالانسان ضئيل حقير ، قاصر النظر ، لا يستطيع استكناه الحكمة فى اعمال الآلهة وتصرفاتها فيحكم عليها بموجب مقاييسه وقيمه القاصرة فقد جاء على لسان ذلك المعذب الصالح : «ان ما يبدو صحيحا فيستحق الثناء بعين المرء ، قد يكون محتقرا بأعين الآلهة ، وما قد يتراآى للمرء من انه قبيح ردىء ، قد يكون حسنا بعين الهالمرء . فمن ذا الذى يستطيع ان يدرك فكر الآلهة وقصدها فى أعماق السماء ؟ ان افكار الآلهة كالمياه العميقة ، فمن يستطيع سبر غورها ؟ وكيف يستطيع البشر وهم محفوفون بالظلام ان يدركوا قصد الآلهة وطرقها ؟» .

وعلى هذا فحل ذلك من الوجهة العقلية ان حكم الانسان ومقاييسه ليست مطلقة ، فانه مخلوق ابن ساعته ، محدود النظر ، متغير فى حكمه ومقاييسه فلا سبيل لادراك غور قصد الآلهة واعمالها الازلية التى وضعت

---

(١) (Jacobsen, **Ibid.**, P. 230)

لجميع الازمان • «فان من جاء أمس ، قد يموت اليوم • وفي لحظة واحدة يغمره الظلام ويسحق فجأة • وفي لحظة (تجد) الانسان يغني فرحا وحبورا، ولكنه سرعان ما يبكي ويندب • وبين الصباح والمساء يتغير مزاج البشر • حين يكونون جياعى يصيرون كجثث الموتى ، وحين يمتلؤن شبعا يزاحمون الههم • واذا سارت الامور معهم سيرا حسنا حاولوا التعالى والصعود الى السماء ، واذا حلت بهم نازلة نزلوا الى العالم الاسفل» •

ولكن مع هذا التبرير العقلي لحالة العبد الصالح المعذب فان القلب لا يزال متشككا في الامر • وحل ذلك في الملحمة ان العذاب الذي يحل بالعبد الصالح لا يظل ملازما له الى الابد • بل انه ، كما جاء في قصة ايوب ، بلوى وامتحان من جانب الآلهة ، التي ترفع عن المعذب عذابه بعد حين وتعيده الى سابق عهده •

أما القطعة الادبية الثانية فتعكس لنا مزاجا آخر ، هو مزاج التشاؤم والتشكك في القيم الاجتماعية الراهنة ، فكل شيء مهما كان ظاهر الصلاح والفائدة الا وله جوانب يمكن ان يظهر بها تافها معدوم الفائدة والصلاح • والحق يقال ان هذه القطعة اطرف مثال على أدب السخرية والتشاؤم ، وهي تعكس لنا حقيقة حضارية مهمة تلك هي ان الحضارة اذا شاخت ، كما هو الحال في حضارة وادي الرافدين في أواخر عهدها (في حدود الالف الاول ق • م) ، بدأت الشكوك تساور أفرادها في قيم مجتمعهم وفي قواعد السلوك والمقاييس الاجتماعية في تلك الحضارة ، ولم يعد فيها ذلك التماسك الاجتماعي المبني على التمسك بالعرف الاجتماعي •

لقد جاءت هذه القطعة باسلوب أدبي طريف على هيئة حوار (دايلوك) بين سيد وعبده[١] ، فالسيد يعلن لعبده انه يريد ان يقوم بعمل ما يستحسنه

(١) انظر نصها في
(Langdon, **The Babylonian Wisdom,** PP. 67—81
واحدث ترجمة لها في
(**Ancient Near Eastern Texts**
وتحليلها في
(**Before Philosophy,** PP. 231 ff.)

فيجيبه العبد محبذا له ذلك العمل معددا مزاياه ومنافعه الكثيرة ، ولكن السيد يرد عليه بانه لا يريد عمل ذلك العمل لانه لا يراه مفيدا فيؤكد له العبد سداد رأيه معددا له عيوب ذلك العمل نفسه :

السيد : «أيها العبد اتفق معى»

العبد : «اجل يا سيدى ، اجل ! »

السيد : «اريد ان احب امرأة»

العبد : «أجل ! حب يا سيدى ، حب»

«فان الرجل الذى يحب امرأة ينسى العوز والشقاء»

السيد : «لا ، ايها العبد ، سوف لا احب امرأة»

العبد : «لا تحب يا سيدى ، لا تحب»

«فالمرأة شرك وفخ ، انها وجرة (للاصطياد)

«المرأة سيف حديد قاطع حاد»

«يقطع رقبة الرجل الشاب»

السيد : «ايها العبد ، اتفق معى»

العبد : «اجل يا سيدى ، اجل»

السيد : «عجل لى واحضر الماء ليدى»

«واجلبه الى • اننى اريد ان اقوم بسكب الماء المقدس الى الهى»

العبد : «افعل ذلك ، يا سيدى ، افعل ، فان الرجل الذى يسكب الماء المقدس لالهه يصير قلبه فى سلام وطمأنينة • انه يضيف دينا على دين»

السيد : «لا ! ايها العبد ، لن اقوم بسكب الماء الى الهى»

العبد : «لا تفعله يا سيدى ، لا تفعله ! »

«علم الاله ان يركض وراءك كالكلب» ••• الخ

السيد : «اتفق معى ايها العبد»

العبد : «اجل يا سيدى ، اجل ! »

السيد : «اقول اريد ان اتصدق عن ارضى»

العبد : «افعل ذلك يا سيدى ، افعل ذلك . لان الرجل الذى «يدفع الصدقات عن ارضه ، فان صدقاته توضع فى راحة (كف) الاله مردوخ نفسه»

السيد : «لا ، يا ايها العبد ، سوف لا ادفع صدقة من اجل ارضى»

العبد : «لا تفعل ذلك يا سيدى ، لا تفعله ! ارتق على اطلال خرائب المدن القديمة وتمش فوقها ، وانظر الى جماجم اهل العصور القديمة والمتأخرة . فمن هم الاشرار ومن هم الصالحون؟ »

وهكذا فيبدو ان كل شىء عبث باطل فى قيم هذه الحياة ، كما جاء فى ديباجة رواية فوست «لغوتة» . ويبلغ الحال بالسيد ان يقول لعبده «اتفق معى ايها العبد ، أى شىء صالح ؟ ، لم يبق شىء سوى ان ادق عنقى وعنقك ونرمى بأنفسنا الى النهر ــ وهذا هو الشىء الصالح» . وهنا نجد السيد يبدل رأيه فى الموقف الاخير فيقول لعبده : «لا يا ايها العبد سوف اقتلك وحدك وادعك تسبقنى» فيجيبه العبد « وهل يرغب سيدى فى أن يعيش من بعدى حتى لمدة ثلاثة أيام ؟ »

وهكذا فاننا نرى فى هذه القطعة الادبية الطريفة اقصى درجات السخرية والشك ، وهى الى ذلك ، كما سبق ان المحنا ، تعكس لنا ما كان يساور القوم من شكوك وريب فى القيم الاجتماعية ، وهى ظاهرة قلنا انها تبرز ابان انحلال الحضارات .

٤ ــ الآلهــة :

بعد ان ذكرنا خصائص الدين البابلى البارزة واهم المعتقدات الدينية نذكر الآن شيئا موجزا عن الآلهة البابلية . ومما يقال عن الآلهة فى

حضارات العراق القديم بوجه الاجمال ما سبق ان ذكرناه من انها ذات علاقة وثقى بقوى هذا الكون وظواهر الطبيعة والحياة • فقد رأينا من عقائد القوم في اصل الوجود والاشياء انهم جسموا السماء والارض والماء والشمس والقمر والهواء وعدوها آلهة أو انها تمثل الآلهة • وعينوا كذلك آلهة مختلفة لشؤون الحياة الاخرى كالحرب والموت والحب والعلوم والمعارف الخ • ولذلك كثرت الآلهة البابلية بحيث صارت كما ذكرنا تملأ قاموسا كبيرا • وقد سبق ان ذكرنا انهم خلفوا لنا اثباتا بأسماء الآلهة وعلاقاتها بعضها ببعض ونظموها في مجاميع تتألف كل مجموعة من اله كبير ومن الآلهة التابعة له كأبنائه وزوجاته ووزرائه فنتج عن ذلك كما عند الاغريق والرومان ما يسمى بمجموعة الآلهة اى (Pantheon) • وفيما يأتي نذكر ابرز هذه الآلهة واهمها • وعلى رأسها أربعة آلهة هي التي خلقت الكون وبيدها شؤون تدبيره وهي «آنو» و «انليل» و «ايا ــ انكي» والهة باسم «ننخرساك» •

١ ــ آنو :

ويأتي هذا الاله على رأس الآلهة البابلية ، وقد نعتوه بأبي الآلهة وملك الآلهة وتمثل السماء هذا الاله كما يدل على ذلك اسمه بالسومرية «آن» ومقره في السماء في أعلى نقطة فيها ويقتسم هذا الاله هو والالهان «انليل» و «ايا» فيما بينهم الكون • فيحكم الاله «آنو» السماء ولانليل الهواء والجو ولـ «ايا» الارض والماء وقد عبد «آنو» في جميع انحاء العراق وفي جميع الادوار التأريخية ، وخصصت لعبادته مدن شيدت فيها معابده أهمها مدينة نفر وأور والوركاء ، وقد سمي معبده في هذه المدينة باسم « اي ــ انا » ويعني ذلك بيت السماء أو بيت « آنو » وهو افخم معبد في المدينة ، وقد كشفت التنقيبات التي أجراها الالمان في الوركاء عن آثار نفيسة خصصت لهذا المعبد • وقد عبدت مع آنو في الوركاء الالهة الشهيرة «عشتار» التي دعوها ابنته • وشيد له معبد ثان في مدينة «دير» القريبة من مدينة بدره الآن وشيد الملوك الآشوريون لآنو معبدا

في مدينة آشور خصصوه لعبادته ولعبادة اله آخر هو «أدد» •

٢ ـ انليل •

ويأتي بعد « آنو » في المرتبة والمنزلة • وهو الاله الخاص بالهواء والجو والظواهر المتعلقة بهما • ويلقب مثل آنو بأبي «الآلهة» ولما كان الاله «آنو» قد استقر في السماء واعتزل نوعا ما شؤون العالم والعباد ، فقد صار انليل اعظم اله عند السومريين والبابليين من بعدهم ، ومعنى اسمه «السيد الهواء» او «الرب الهواء» • ويلقب بسيد البلدان أو الارضين وقد صار اسمه يعني «الرب» او «السيد» (بعل) حتى انهم اشتقوا من اسمه صفة الربوبية والالوهية (اليلوتو) • وقد فرض شريعته على جميع سكان العالم ، وله شبكة مقدسة يحبس فيها كل من يحلف زورا او يحنث بقسمه • وكانت اقضيته واحكامه لا مرد لها وهو الذي يعاقب الملوك على آثامهم وظلمهم ، وقد ورد ذكره في شريعة حمورابي من بين الآلهة المعظمة التي دعا الملك حمورابي اسماءها لتوقع العقاب على من يبدل شريعته • وكانت بيد انليل ألواح القدر •ويوصف انليل بوجهعام بقوته وشدته فهو الذي احدث الطوفان بعد ما قررت الآلهة افناء البشر كما جاء في قصة جلجامش • وكانت «نفر» موضع عبادته وتقديسه ، وقد حازت بسبب ذلك على ارفع مكان بين المدن السومرية ، وجاءتنا من خزانة كتب معبدها العائد الى انليل كتابات مهمة جدا في حضارات العراق القديم • وقرنوا بالاله «انليل» الهة مؤنثة اسمها (ننليل) وجعلوها زوجة له ، ومن ابناء الاله انليل «ننجرسو» الشهير ، اله مدينة «لجش» وكذلك الاله «ننورتا» اله الحرب والصيد الذي يرجح كثيرا انه نفس الاله «ننجرسو» حيثهذا الاسملقب له أي(سيدجرسو) (وجرسواحدى محلات لجش المهمة)،وقد عبد مع انليل في نفر بمعبد خاص• ويذكر الكهنة البابليون الها بعد انليل هو «دجان» وهو اله دخلت عبادته الى العراق من بلاد الشام أي من بلاد الاموريين منذ زمن سلالة أور الثالثة • ومن وظائف انليل المهمة في نظام الكون انه عهد اليه بالمحافظة على «ألواح القدر» الذي

يكون من يحوز عليها ذا مقدرة على التحكم فى مصير جميع الاشياء[١] .

٣ ـ «ايا» أو «انكى» .

والاله « ايا » ويسمى كذلك « انكى » هو ثالث اله بعد آنو ، وهى الآلهة التى اقتسمت العالم ، وتمثل هذا الاله المياه الاولى . وهو اله الحكمة والمعرفة فيلقب من اجل ذلك برب الحكمة او سيد الحكمة ، وبيده أسرار السحر المقدس والتعزيم ، وهو الذى علم البشر الكتابة والصنائع والفنون واصول العمران واشتهر بحبه الكثير للبشر ، فهو الذى افشى سر الآلهة عندما عزمت على احداث الطوفان ، وامر ذلك الى «اوتونبشتم» ـ نوح الطوفان عند البابليين ـ وكان موضع عبادته فى مدينة «اريدو» (ابو شهرين الآن) التى كانت بسبب ذلك من أقدس المدن السومرية واقدمها . ويسمى معبده «اى ـ ابسو» اى «بيت الغمر او المياه» اشارة الى انه ابتنى بيته فى المياه الاولى التى جسموها بالاله «ابسو» كما ورد فى «اسطورة الخليقة» ونسب البابليون الى هذا الاله زوجة اشتقوا اسمها مثل اسمه وسموها «نن كى» اى سيدة الارض ، حيث اسمه «انكى» سيد الارض وسميت ايضا باسم «دم ـ كينا» . وقدس الاله «ايا» فى جميع انحاء العراق وبالاخص فى مدينة «اور» و «لارسة» و «الوركاء» . وقدسه الملوك الآشوريون ، ومما يروى ان سنحاريب فى حملته الحربية على عيلام عندما بلغ شواطىء الخليج قرب البصرة الآن قدم الى «ايا» قاربا وسمكة من الذهب ورماهما فى الماء ، حيث معبد الاله الاصلى .

٤ ـ مردوخ .

وكان « ايا » أبا الاله مردوخ وهو اله بابل العظيم . وكان مردوخ فى أول الامر الاها خاصا بمدينة بابل ، ولكن عندما عظمت

---

(١) وهناك أسطورة سومرية ممتعة تدور على قصة سرقة ألواح القدر من جانب طير الصاعقة «زو» من انليل وكيف استرجعها هذا الاله . وكثيرا ما نجد هذه الاسطورة ممثلة فى الاختام الاسطوانية القديمة حيث نشاهد «زو» وقد أسر ، وهو بهيئة مركبة ، نصفه انسان ونصفه الآخر طير ، وقد وضع أمام الاله انليل ليحاكمه .

مكانة هذه المدينة فى زمن حمورابى واصبحت عاصمة الامبراطورية البابلية ارتفع شأن مردوخ وصار مقدسا فى جميع البلاد • وقد ظهر هذا التبدل فى مركز مردوخ فى اسطورة الخليقة البابلية حيث اعطى مردوخ امركز الاول بين الا لهة وجعل بطل الرواية ، واخذ سلطات الآلهة اليه (انظر اسطورة الخليقة) •وعرف معبده فىبابل باسم «ايسا كلا» وموضعه الآن فى خرائب بابل فى المنطقة المعروفة بعمران ، وكانت تماثيل الآلهة البابلية تجلب فى كل عام فى عيد رأس السنة البابلية من معابدها القريبة من بابل وتسير باحتفال مهيب فى شارع سمى لهذا السبب بشارع الموكب حيث تمر منه فى باب عشتار الى معبد قريب من النهر (او عبر النهر) خصص للاحتفال بعيد السنة البابلى • (انظر القسم الخاص بالشعائر الدينية) •

٥ ـ الاله «نبو» :

وابن مردوخ البكر الاله «نبو» وقد عده البابليون اله الكتابة والقلم وكذلك اله المعرفة والحكمة وسكرتير الآلهة فى مجالسها المقدسة ، وقد شيد له معبد فخم فى «بورسبا» (برس نمرود الآن) وعرف معبده هناك باسم «اى ـ زيدا» اى البيت المكين • وشيد فى «بورسبا» صرح مدرج (زقورة) خاص بعبادة هذا الاله ، ولا تزال بقايا هذا الصرح شاهقة فى خرائب المدينة • وكانت العادة انهم يخصصون ارقاما او درجات الى آلهتهم ، فخصصوا لآنو اعلى رقم هو ٦٠ ، ولانليل ٥٠ ، ولايا ٤٠ •

يأتى بعد الثالوث الاول المكون من الآلهة «انو» و «انليل» و «ايا» ثالوث آخر من الآلهة فى الاثبات التى وضعها البابليون لآلهتهم وعلى رأس هذا الثالوث الثانى الاله القمر ثم الاله الشمس «شمش» و «أدد» •

الاله القمر :

واسم الاله القمر عند السومريين والبابليين « سين » وسموه «ننار» ايضا أو «ننا» (ومعناه رجل السماء) وسمى عرب الجنوب الاله القمر «ود» وعند الآراميين شهر وعند الامهريين ورخ ويرخ • وخص الاله القمر

بمدينة «اور» منذ اقدم الازمان ، وشيد له فيها معبد شهير ، ولا تزال بقايا الصرح المدرج فيها (الزقورة) باقية ، ويمثل الاله القمر بهلال وحده او بهلال مع صورة على هيئة البشر • واشتهر الاله القمر بالحكمة ويشترك مع الاله الشمس «شمش» في شؤون العدالة • وكان خسوف القمر من الحوادث المهمة التي تطير منها البابليون • وجاء في بعض الكتابات السحرية ان خسوف القمر يحدث بهجوم سبعة شياطين او أرواح شريرة على القمر • وكانوا يصلون عند الخسوف للاله ويقربون القرابين حتى يظهر مضيئـا مرة اخرى بعد ان يقهر الشياطين والظلام اي الموت • وخصصوا له زوجة هي «ننجال» وعبدت معه في معبده في اور • وانتقلت عبادة القمر الى جهات سورية وشيد له معبد في «حران» وقد بلغت قدسية الاله «سين» في «اور» مبلغا بحيث ان ملوكا كثيرين قد عينوا ابناءهـم وبناتهم ليكونوا كهنـة له ، وكذلك فعل الملوك الآشوريون في معبده في حران وانتشرت عبادته من حران الى الفينيقيين وقدسه البدو الآراميون والبدو العرب ولعل اسم سينا اي (طورسينا)مشتق بوجه ما من اسم الاله «سين» •

الاله الشمس (شمش) :

ويلي الالـه القمـر في المنزلـة ، وقـد ولـدت الشـمس عن القمر بحسب العقائد البابلية ، وقد سماه السومريون باسم «اوتو» (ومعناه الضوء والنور واليوم) ودعوه كذلك «ببار» اي النير وسماه الساميون باسـم الشمس أي «شمش» ويلفظ العبرانيون اسـمه «شمش» والعرب شمس والفينيقيون في اوغاريت (رأس شمرة) «شفش» وعـد العـرب الجنـوب وكذلك الفينيقيون الشمس الهة بخلاف سـكان العراق • وعبد الحثيون الشمس بهيئة اله مذكر • وكثيرا ما مثل الاله الشمس برمز قرص ذي اربعة خطوط تنبعث منها حزم الاشعة ومثلوه ايضا بهيئة آدمية كما صور في أعلى مسلة حمورابي حيث مثل بهيئة ملك جالس على عرشه ويحمل في يده اليمنى الصولجان والحلقة وهي من شارات السلطان ، وتاجه مزين بأربعة أزواج

من القرون ، وهو زى لباس الرأس عند الآلهة ، وله لحية طويلة مثل الاله القمر وتنبعث من كتفيه حزم الاشعة ، وينعت الاله الشمس بانه مضىء العالمين وضوء العالم والاعماق وهو الذى يولد النهار والليل ويجلو الدجن ويهب الحياة ويحى الموتى • ولانه ينير بضوئه الظلمات فهو اله العدل والحق والشرائع وهو الذى املى على حمورابى شريعته المقدسة وهو القاضى الاعظم وسيد الكهانة والعرافة • وعبد الاله الشمس بوجه خاص فى مدينتى «لارسة» و «سبار» وقدسه الآشوريون وشيدوا له بعض المعابد ، وعبدت معه زوجته «العزيزة» (آى) • وقد جسم البابليون «العدل» و «الحق» وعدوهما ابنتين للاله •

الاله « اددا » :

من الآلهة الخاصة بالجو والمناخ ولا سيما الامطار والرعد والفيضان وما شاكل ذلك ، ويرجح كثيرا ان اصل هذا الاله من الساميين الغربيين فى جهات سورية ، وعبده الحثيون باسم «تشوب» الذى تمركزت عبادته بوجه خاص فى سورية وآسية الصغرى • ويرمز للاله «ادد» عادة بشرارة الصاعقة بثلاث شعب • ولم يعين موضع عبادته بالضبط وقد سموه «بيت ـ قرقار» وشيد له معبد فى بابل و «بورسبا» وكذلك قدسه الآشوريون وعبدوه وشيد له معبد فى بلاد آشور مع الاله آنو •

عشتار :

وعشتار هى الالهة التى اشتهرت بكونها الهة الحب وآلهة الحرب ايضا وتمثلها عندهم الزهرة • وقد احتلت مكانا بارزا فى ديانة سكان العراق الاقدمين وانتشرت عبادتها الى جميع انحاء الشرق الادنى وانحاء أخرى من العالم واخذ عبادتها الاغريق وسموها باسم «افروديت» وعبدها الرومان باسم «فينوس» وقد سماها السومريون باسم «اينانا» او «اينى» ومعنى ذلك سيدة السماء ودعاها الاكديون والآشوريون الساميون باسم عشتار وعرفت باسم «عشتاروت وعشتوريت» عند الاقوام السامية الاخرى

ولا سيما في جهات سورية وعبدها العرب في الجنوب وصار اسمها مرادفا لكلمة «الهة» لشهرتها وتقديسها • وهي ابنة الآله القمر وخصها الآشوريون بالتقديس ولا سيما بصفتها الحربية لانها آلهة الحرب والطعان ، وقد ذكر بعض ملوكهم انها سارت معهم في طليعة جيوشهم وحققت لهم النصر • وهي بذلك «افروديت» الاسبارطة المحاربة ، وكان الاسد حيوانها المقدس بصفتها، الهة الحرب كما انهم نعتوها «باللبوة» الضارية •

وقرن الآله «تموز» مع عشتار بوصفه بعلا لها ولكن حبها له قضى عليه فمات ولذلك كانت عشتار تندبه ، ويمثل تموز بوجه عام الخضار والنبات في زمن الربيع • وقد جاءتنا ملحمة شعرية تصف نزول عشتار الى العالم السفلي في بداية الربيع من كل عام لتعيد تموز من عالم الاموات الذي يذهب اليه في صيف كل عام ، وعلى الرغم من ان عبادة تموز لم يكن لها محل كبير في العبادات البابلية الرسمية ولكن عبادته كانت منتشرة بين الشعب وترجع في اصلها الى عهد قديم في ديانة حضارة وادي الرافدين ، كما انها انتشرت الى اسقاع بعيدة من الارض وكانت عبادته مقرونة في اغلب الاحيان مع عبادة الالهة عشتار ، ولكن اهمية كل منهما الى الآخر كانت تتغير تبعا للاقطار التي عبدا فيها بأسماء واشكال مختلفة ، مثل ادونيس (تموز) وسيله وقد ذكرت عبادة تموز في التوراة وانتشرت في البلاد الشامية منذ أقدم العهود كما ابانت النصوص الحديثة المكتشفة في رأس شمره (اوغاريت القديمة) (وسنذكر في مبحث العبادات اشياء اخرى عن عبادة تموز) •

د ـ نرجال وآلهة الارض السفلى : والارض السفلى هي القسم الرابع من الكون ، اما القسم الاول فهو السماء ، ثم ما بين الارض والسماء ثم الارض الظاهرة ، فالارض السفلى • وفي الارض السفلى مقر أرواح الموتى ويحكم في هذه الارض الاله «نرجال» ومعه زوجته «ايرشكيجال» ملكة الارض السفلى ، ويساعدهما مجموعة من الآلهة الصغيرة وعدد من الشياطين والعفاريت • واصل نرجال من الآلهة الخاصة بالشمس وهو اله النار واله

الوباء • وقد خصصت مدينة كوثى (تل ابراهيم الآن) لعبادته • وقد ورد ذكر هذه المدينة والهها نرجال فى التوراة (٢ ملوك ١٧ ، ٤ ، ٣٠) لأن سرجون الآشورى نقل من سكانها خلقا كثيرا واسكنهم فى السامرة ،فأدخل هؤلاء شيئا كثيرا من عبادة نرجال وعبادة البابليين الى اليهود السامريين • ولانه إله الاموات وصفت المدينة التى عبد فيها بمدينة الاموات • وشيد له بعض الملوك الآشوريين مثل سنحاريب معابد فى شمال العراق ، وكذلك وجد له معبد فى مدينة (مارى) (تل الحريرى الآن فى سورية) •

عبادة النجوم والآلهة الكواكب : ذكرنا فيما سبق ان كثيرا من الآلهة البابلية ذات علاقة وثقى بظواهر الكون والطبيعة المختلفة • وكان من بين هذه الظواهر النجوم والكواكب التى عد البابليون قسما منها آلهة وعبدوها ، فانتشرت عبادة النجوم • وكانت النجوم عندهم ذات علاقة بالحياة وهى التى تعين لهم الزمن ، والى ذلك فان الآلهة قد تظهر ارادتها فى النجوم التى ترصع قبة السماء وقد شبهوا النجوم بالكتابة الآلهية ورقيم السماء وتشأ عن ملاحظة النجوم والكواكب الفلك والتنجيم • ويرجع الى التنجيم اصل الفلسفة الجبرية اى الحتمية ، ومن مظاهر علاقة النجوم والكواكب بالآلهة ان العلامة المسمارية التى يعبر بها عن الاله يعبر بها كذلك عن الكواكب بتكرارها ثلاث مرات • وقد قابل البابليون كثيرا من الكواكب والنجوم بالآلهة • واتخذ سكان العراق الاقدمون ابرز الاجرام السماوية آلهة ، وعلى رأس هذه الكواكب النيرة الثلاثة اى الشمس والقمر والزهرة وقد عدوا الاله القمر اقدمها والقمر ابو الشمس والزهرة •

آشور :

وهو الاله القومى للآشوريين ، ومع ان الآشوريين قدسوا وعبدوا معظم الآلهة السومرية ـ البابلية إلا انهم خصوا الاله آشور بالتعظيم والعبادة ويرجح ان اسم الآشوريين مشتق من اسم هذا الاله • وكان الاله آشور مثل الاله مردوخ فى مبدأ امره الها غير ذى شأن اقتصرت عبادته على

مدينة آشور ، اقدم العواصم الآشورية ، ولكن بعد ان تدرج الآشوريون في نموهم السياسي وعندما أسسوا مملكة قوية سيطرت على العالم القديم ، عظم شأن الههم آشور وصار على رأس الآلهة البابلية والآشورية ، وخصصوا له دورا فعالا في شؤون الكون وخلق الاشياء والانسان ، وشيدوا له المعابد الفخمة في آشور وفي غيرها من المدن الآشورية المهمة • ويمثل الاله «آشور» عادة بانسان يطير بجناحين وبيده القوس والسهم ، والجناحان تنبعثان من قرص الشمس واخذ الفرس الاخمينيون هذا الرمز لالههم «اهورا مزدا» •

هذه أشهر الآلهة التي عبدها العراقيون الاقدمون من اقدم العهود وفي مختلف الادوار ، والى ذلك توجد مجموعات كبيرة من الآلهة لا حاجة لذكرها لان الآلهة التي ذكرنا تكون لنا فكرة واضحة عن آلهة القوم بوجه عام • ويدخل في صنف الآلهة البابلية بعض الكائنات التي كانت تعد آلهة من الدرجة الواطئة او بمثابة ملاك حارس ، مثل النوع الذي يسمونه بالبابلية باسم «شيدو» و«لمساو» (بالسومرية «لما» او «لاما») ، التي كانت تماثيلها توضع في مداخل المعابد والقصور لحفظها ، وكانت كثيرا ما تمثل بهيئة مخلوقات مركبة كأن تكون من رأس انسان وجسم حيوان كالثيران المجنحة الآشورية •

الفصل الثالث عشر

طرف من العبادات والشعائر الدينية

بعد ان ذكرنا أهم الآلهة تنهي بحثنا في ديانة البابليين والآشوريين بأخذ طرف من العبادات والشعائر الدينية المتنوعة ، وسنجد ان هذا المبحث الاخير يعيننا كثيرا على فهم حياة القوم الدينية ، وتمهيدا لذلك نكرر ما قلناه سابقا حول العلة التي من اجلها خلق الانسان بحسب عقائدهم وهي عبادة الآلهة والعمل لها باقامة معابدها ومناسكها وتقريب القرابين ، واذا قصر العبد في ذلك فان الآلهة تعاقبه في هذه الدنيا عقابا شديدا ، وكانت أولى البنايات المهمة العامة في حضارة وادي الرافدين هي المعابد التي اقامها العراقيون القدماء منذ عصور ما قبل التأريخ •

والشعائر الدينية كثيرة متنوعة منها الصلوات والقرابين والاعياد الدينية ومنها ما يتخذ لمعرفة طالع الانسان والوقوف على المستقبل ونتيجة أعمال الانسان وهو ما يطلق عليه اسم العرافة والكهانة ، ومنها ما يتخذ لطرد الشياطين من جسم الانسان وشفاء المرضى ، مما يدخل تحت السحر والتقسيم ، وبوسعنا ان نقسم أنواع العبادات والطقوس الدينية الى صنفين ، صنف عام يقوم به الفرد لتحقيق الغاية التي خلق الانسان من اجلها ، وهي عبادة الآلهة ، وصنف يقوم به البشر لتحقيق أمل او حاجة كازالة الامراض ودرء خطر الشياطين والارواح •

وقد خلف لنا سكان العراق الاقدمون مجاميع كثيرة من الصلوات والادعية والتراتيل الدينية التي كانوا يتلونها من معابدهم • وأنواع الصلوات كثيرة منها ما يقوم به الفرد بنفسه بدون وساطة كهنة المعبد ، وكانوا الى جانب الدعاء في الصلوات يقومون ببعض الاشارات منها رفع اليد مع الدعاء

وصلوة التوبة والاستغفار ومثلت أوضاع بعض المصلين وهم بهيئة ركوع أمام تماثيل الآلهة ، ومن المناسك ما يقوم به الكهنة كذبح القرابين وما يتبع ذلك من رسوم وصلوة وحرق البخور وسكب السوائل المقدسة •

ومن العبادات العامة الاعياد والمهرجانات الدينية التى كانت تقام فى المدن المختلفة منها الاعياد السنوية التى يحتفل بها فى رأس كل سنة لتمجيد اله المدينة • وقد اشتهر العيد السنوى الذى كان يقام فى بابل فى عيد رأس السنة (ويصادف زمنه بين آذار ونيسان) ، وكان يستغرق نحو اثنى عشر يوما ، وتقام فيها أنواع العبادات والطقوس الدينية من جانب كهنة بابل ، فمن بين ذلك مرور الآلهة فى موكب مهيب فى شارع فى بابل سمى لذلك بشارع الموكب ، ويمر مهرجان الآلهة من باب فخم هو باب عشتار الذى هو الآن افخم ما بقى من اطلال بابل ، ومنه يسير موكب الآلهة الى معبد قرب نهر الفرات ولعلهم كانوا يمثلون قصة الخليقة البابلية وتلاوتها ، لانه نظمت لتمجيد الاله مردوخ وتعظيم شأنه •

ويوضح لنا عيد رأس السنة البابلية توضيحا مؤثرا تغلغل روح التدين فى سكان وادى الرافدين القدماء ، وكان العيد يقام فى جملة مدن ولا سيما فى مدينة بابل فى الربيع فى (آذار ـ نيسان) ، اما فى المدن الاخرى مثل أور والوركاء فكان يعقد فى الخريف علاوة على الربيع ، وهو يعكس لنا أصل كثير من الرسوم الدينية المتعلقة بالزراعة وتبدل المواسم الخاصة بها ، ويوضح لنا ايضا ان اصل اهم القوى العلوية عندهم انما كان من الظواهر الطبيعية المؤثرة فى حياتهم • وتشتق معرفتنا بهذا العيد بالدرجة الاولى حيث كان يقام فى مدينة بابل ويدعى بالسومرية باسم « زكموك » (Zagmuk) (أى رأس السنة) وبالبابلية « اكيتو » (عيد رأس السنة ، حيث كانت معابد معينة تخصص للاحتفال به وتسمى « بيت اكيتو ») •

ويرمز العيد بوجه عام الى الصراع بين القوى الطبيعية ، وانتصار العناصر الخالقة المولدة التى تمثلها ظهور حياة النبات والخضار فى بداية الربيع ،

وكذلك انتصار الآلهة التي نظمت الكون على آلهة التدمير والتخريب في الكون ، كما يتضح ذلك من اسطورة الخليقة البابلية من انتصار مردوخ على قوى العماء ، ولذلك فان الممثلين الذين يقومون بالادوار الرئيسية في هذا العيد هم الآلهة ، ولكن كان اشتراك الملك فيه جزءا اساسيا منه • ومن الامور المتعلقة بالعيد عبادة الاله تموز ، وهو الاله الذي يمثل الخضار والربيع ، ولكنه يموت في الصيف ويظل محبوسا في العالم الاسفل ، فيقوم العوام بندبه والبكاء عليه ، حيث يعتقدون انه مات في العالم الاسفل ، ولكن العقائد الرسمية ترى انه مأسور في العالم الاسفل ولذلك فتقام له شعائر مهمة لضمان قيامته ورجوعه الى الحياة ، وعندئذ تعود روح الطبيعة •

ان النصوص المتعلقة بهذا العيد غير كاملة[١] ولكن من الممكن بناء على ما جاءنا من وصفه ان نرتبه بحسب التقويم الآتي ، حيث يدوم العيد من أول شهر نيسان البابلي الى اليوم الثاني عشر منه بحسب المنهج الآتي :ـ

١ ـ ٤ نيسان : التهيؤ للعيد واجراء التطهيرات الدينية في المعابد •

٥ نيسان : وهو يوم الكفارة عن الملك ، ويقوم الشعب بالحزن على الاله المعذب ، المأسور في عالم الارواح ، وتهيج المدينة باحثة عن الهها مردوخ (حيث هو ايضا يمثل الحياة في الطبيعة) •

٦ ـ نيسان : يقصد مدينة بابل جملة آلهة في قارب في الفرات ، من بينهم «نبو» ، اله مدينة «بورسبا» وابن مردوخ ، الذي يأخذ بثأر ابيه والذي يرجعه من الاسر ، وقد خصص له مزار في معبد ابيه في بابل •

٧ ـ نيسان : يتمكن الاله «نبو» بن مردوخ ، بمساعدة الآلهة الاخرى

---

(١) أنظر البحث في ذلك بالدرجة الاولى في :ـ

(1) H. Frankfort, **Kingship and the Gods** (1948) ch. 22.

(2) S.H. Hooke, **Babylonian and Assyrian Religion,** 58 ff.

من تحرير مردوخ من جبل العالم الاسفل ، ولا نعلم كيف كانوا يمثلون هذه الحادثة فى الطقوس الخاصة بذلك العيد •

٨ ـ نيسان : وبعد تحرير الاله ، يشرع فى تقدير مصائر الكون والناس للعام الجديد ، بعد ان تجتمع الآلهة وتمنح مردوخ السلطان والحول فى تقدير الاقدار والمصائر •

٩ ـ نيسان : يسير موكب مهيب يمثل انتصار الآلهة الى معبد رأس السنة (بيت اكيتو) ، ويكون الملك مسؤولا عن ادارة سير الموكب ويمثل ذلك اشتراك المجتمع البشرى ، ممثلا برأسه وهو الملك ، بالنصر الذى احرزته الآلهة على قوى الطبيعة المدمرة وعلى قوى العماء •

١٠ ـ نيسان : يحتفل الاله مردوخ بانتصاره مع الآلهة الاخرى (آلهة العالم العلوى والسفلى) فى وليمة تقام لهذا الغرض فى المعبد المخصص لعيد رأس السنة • ثم يرجع الاله مردوخ الى معابد بابل «للدخول بعروسه فى تلك الليلة» ، حيث تنطلق القوى المولدة فى الطبيعة والحياة •

١١ ـ نيسان : يجرى تقدير ثان للمصائر والاقدار البشرية للسنة الجديدة من جانب الآلهة •

١٢ ـ نيسان : ينتهى الاحتفال ويعود الآلهة كل الى موضعه ومعبده الخاص •

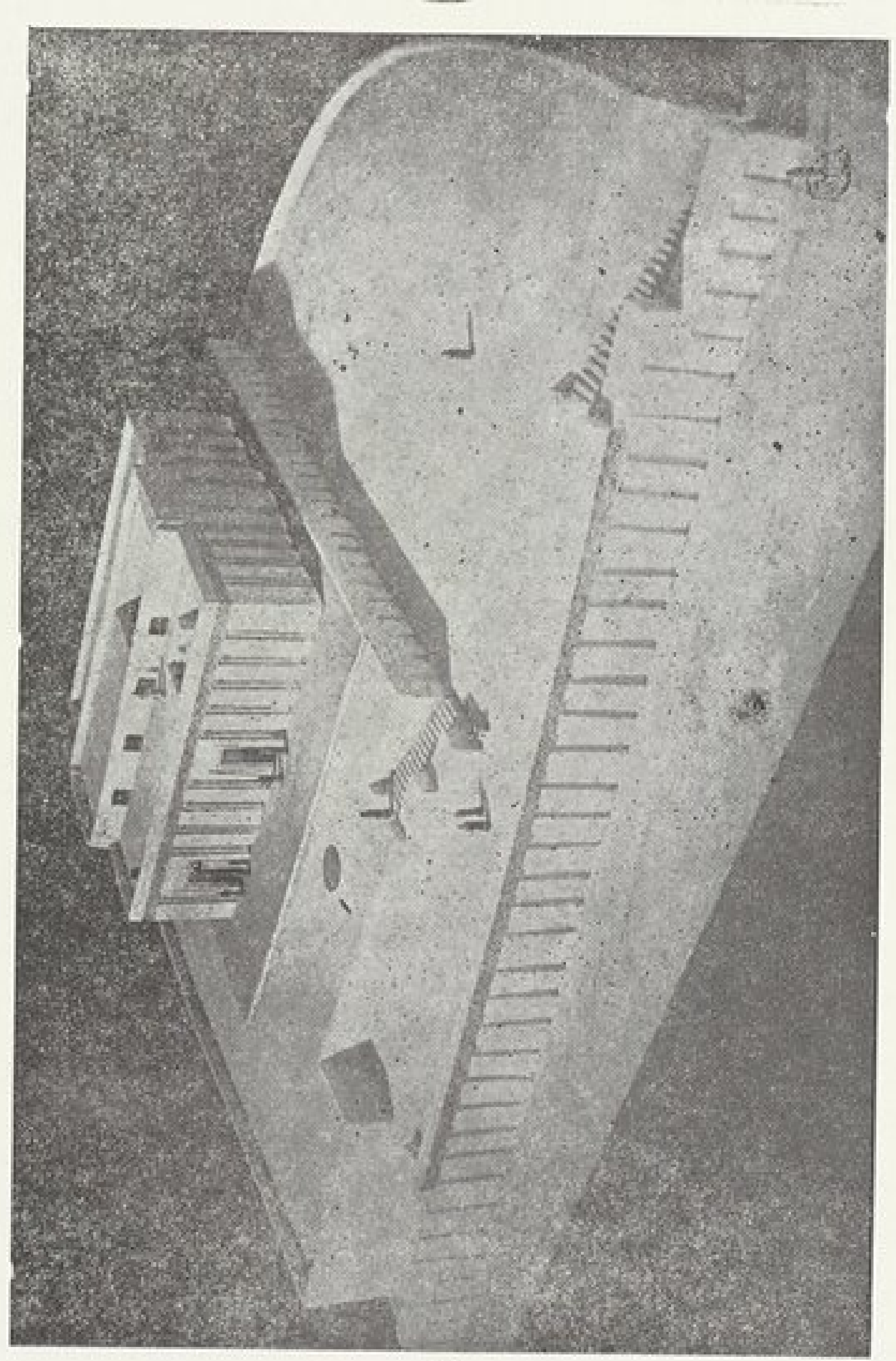
وبالنظر لاهمية هذه الرسوم فى عقائد القوم نذكر بشىء من التفصيل بعض طقوسه المهمة • ففى الايام الخمسة الاولى من العيد ، تجرى التطهيرات الدينية فى ايساكلا (معبد مردوخ فى بابل) فى كل صباح قبل شروق الشمس حيث يدخل الكاهن الاعلى بعد التطهير فيصلى لمردوخ وللآلهة الاخرى ، ومن بعد ذلك يقوم الكهنة الاخرى بالاعمال الطقوسية المقررة[١] ، وفى مساء

---

(١) حول التراتيل المقدسة التى يصلى بها لمردوخ انظر :ـ

(1) Thureau-Dangin, **Rituels accadiens**, 129 ff.

(2) Zimmern in **Der Alte Orient**. vol. XXV (1926), 4 ff.



٦

نموذج مصغر للمعبد المشيد فوق مصاطب ، الذى كان اصل الصروح المدرجة (الزقورات) (وجد فى العقير ، من عهد الوركاء فى حدود ٣٥٠٠ ق٠م)

اليوم الرابع تتلى اسطورة الخليقة بكاملها فى المعبد ، لان رأس السنة الجديدة كان بمثابة خلق جديد ، فتلاوة تلك الاسطورة وما تتضمنه من انتصار قوى النظام على قوى العماء فى الكون تقوية للآمال فى السنة الجديدة • وفى اليوم الخامس وهو يوم توبة الملك أو الكفارة عنه يقوم الملك بالدور الرئيسى من الطقوس ، ففى الصباح يصلى الكاهن الاعلى لمردوخ ابتغاء مرضاته ، ثم يطهر المعبد وتقدم القرابين وتقرأ التعاويذ ، ويقوم النجارون التابعون الى معبد «نبو» فى بورسبا بصنع منضدة للقرابين ومظلة من الذهب حيث يقدمها ابن مردوخ هدية لابيه • وحيث كانوا يجرون هذه الاستعدادات يدخل الملك الى مزار مردوخ ومعه الكهنة ، وحين يصل الى ساحة المعبد يتركه الكهنة فيظهر الكاهن الاعلى من حجرة الهيكل فى المعبد (وهى أقدس جزء من المعبد حيث تمثال الاله مردوخ ـ انظر الكلام على المعبد) فيأخذ من الملك شارات الملك ، الصولجان ، والحلقة ، و «القامة» ، والتاج ويضعها على منضدة ازاء تمثال الاله ، ثم يعود الى الملك ، فيلطمه على وجهه ويجعله يسجد أمام الاله ، ويقول الاعتراف الآتى :ـ

«لم اذنب يا سيد الاقطار ، ولم اك مهملا ازاء الوهيتك • لم اخرب بابل ، ولم اسبب لها الهوان • لم اخر بايساكلا ولم اهمل مناسكه الخ» فيجيبه الكاهن الاعلى «لا تخف ولا تحزن • ان مردوخ سيسمع صلاتك وسيوسع من سلطانك ، ويعلى من شأن ملوكيتك ، وينصرك على أعدائك ومناوئيك» • ثم يرجع الكاهن الاعلى شارات الملوكية الى الملك بعد أن يلطمه مرة أخرى ، ويستحسن ان تكون لطمة شديدة بحيث اذا دمعت عينا الملك فتلك علامة فال حسن على السنة الجديدة وعلى رضا الاله[1] • وحين يكون

---

(١) لعل مغزى ما يفعله كبير الكهنة بالملك يشير الى نظرية أصل الملوكية وانها خاصة بالآلهة ، أما الملوك فانهم ينوبون عنهم فى حكم البشر ، ولكى لا يغتر الملك فينسى حقيقته وواجبه فانه كان يجرد من صفته فيكون كسائر الناس فيلطمه كبير الكهنة مذكرا اياه بحقيقته بصفته انسانا عاديا ، وان اعادة شارات الملك ضمان فى تفويض الاله للملك بحكم البشر ، أما =

الملك داخل المعبد ، فى الهيكل قرب تمثال الاله ، يكون الناس فى الخارج فى هلع وخوف وجزع ، لانهم يعتقدون ان الاله قد «غاب» أو «اختفى» وانه أسر فى العالم الاسفل (عالم الاموات) • وبالاضافة الى اختفاء الاله فان خوف الناس وهلعهم يزدادان فى هذا اليوم بالنظر لفقدان الملك صفته الملوكية ، فالمجتمع اصبح بلا اله ولاسلطة، أى بلاملك هو رأس المجتمع ،فيكون تحت رحمة قوى الطبيعة وقوى الشر ، ويكون اول فرج لكربة المجتمع اعادة شارات الملك الى الملك ، تمهيدا لليوم التالى الذى يظهر فيه اله المدينة منتصرا على قوى الموت • ويتم ذلك فى اليوم السادس حيث يصادف ذلك مجىء «نبو» بن مردخ ، الذى يقهر قوى الشر ويساعد اباه ليخرج من اسر قوى الموت ويأخذ بثاره • ولكن قبل وصول «نبو» يكون الناس ، كما ذكرنا ، فى هياج ، حيث يتراكضون فى الطرقات والازقة ، باحثين عن مردوخ صارخين معولين «اين يكون سيدنا مأسورا ؟ »[١] ، ويرجح ان الناس كانوا يتجمهرون وهم فى هياجهم فى حارة المعبد والزقورة ، ويذهبون ايضا خارج المدينة قرب معبد رأس السنة ، كما يرجح ان العربة الخاصة بالاله مردوخ كانت ترسل وحدها مسيرة فى شوارع المدينة حدادا على صاحبها ، ويصحب ذلك الهة (عشتار ؟) لتقوم بالنوح على الاله ، فى حين ان الجمهور يمثلون حربا فيما بينهم •

وفى حلول اليوم السادس يأتى الاله «نبو» كما قلنا ، مع الآلهة

= اعتراف الملك وتطهيره من الذنوب فلكى يكون لائقا للاشتراك بالشعائر التى ستقام فى الايام الاخرى من العيد •

(١) يرجع الى هذه العقيدة أى فكرة اختفاء الاله واسره فى العالم الاسفل جميع الاساطير التى جاءتنا من العراق القديم حول موت الاله الموقت مثل موت تموز ، ثم قيامته بمساعدة اله او آلهة ، كما فى اسطورة نزول عشتار الى العالم الاسفل لارجاع تموز الى عالم الحيــاة • فهناك روايتان سومرية وبابلية حول ذلك (أنظر ترجمتها فى مجلة سومر المجلد ١٩٥٠) . وكذلك المرجع **Ancient Near Eastern Texts** كما انه يتعلق بالفكرة نفسها مسألة الزقورة والاعتقاد بأنها ترمز الى قبر الاله بحيث ان المؤلفين القدماء كانوا يسمون برج بابل « قبر بيل » اى قبر الاله مردوخ •

الاخرى ، حيث تحمل تماثيلهم من نفر والوركاء وكوثى وكيش وبورسبا ، وحين تنزل تماثيل الآلهة من سفنها في رصيف بابل تسير من بعد ذلك كما ذكرنا في موكب مهيب في شارع سمى لهذا السبب بشارع الموكب ، حيث يمر من باب عشتار ويتجه شمالا الى المعبد المخصص لعيد رأس السنة ، ويكون الملك مرافقا للموكب وهو يسكب الماء المقدس امام الآلهة في موكبها • وكان الملك الآشوري في بلاد آشور يقوم بدور فعال اكثر من الملك البابلي • وحيث انه في الشمال يكون الاله المنقذ هو «ننورتا» ، فيمثله الملك وهو راكب في عربته الملكية مع موكب الآلهة • أما الاله الذي يحتفل بنصره فهو الاله «آشور» • ومن المراسيم التي كانت تجرى عند وصول «نبو» الى بابل قتل جملة من الخنازير البرية في غابات القصب القريبة (رمزا لقتل آلهة العماء) ، كما أنهم كانوا يقطعون رأسي تمثالين مزينين بالجواهر (كانا يصنعان في اليوم الثالث من نيسان) • هذا ولا نعلم كيف كان يتم تحرير الاله المأسور في العالم الاسفل في تلك الطقوس ، فهل كان يرمز لذلك بتمثيلية خاصة أيضا ؟

وبعد تحرير الاله تؤخذ تماثيل الآلهة في اليوم الثامن من نيسان وتوضع في حجرة خاصة في معبد مردوخ تسمى «بحجرة الأقدار والمصائر» (وقد ورد نفس الاسم في اسطورة الخليقة البابلية وهو يطلق على مجلس شورى الآلهة) ، حيث تفوض مردوخ في تقدير مصائر العام الجديد ، ويقابل ذلك في اسطورة الخليقة اجتماع الآلهة في مجلسها وتنازلها عن اسمائها وسلطاتها الى مردوخ وانتخابه ملكا عليها وبطلا لها في الحرب مع قوى العماء (تيامة واتباعها) • ويصف انا نص جاءنا من مدينة الوركاء[1] كيف كان يجرى ترتيب تماثيل الآلهة في «حجرة الأقدار» بحسب مراكزها ومراتبها ، وكان الملك يقوم بدور «منظم الاحتفال» أو الحاجب حيث يحمل بيده صولجانا براقا ويعين مجلس كل اله بأن يأخذ التمثال بيده ويضعه في

---

(1) Thureau-Dangin, **Rituels Accadiens** P. 103 ff.

مكانه اللائق فى «القاعة العظمى» بحيث تكون تماثيل الا لهة مواجهة لتمثال
رئيس الآلهة «مردوخ» • وحين كانت هذه المراسيم تجرى داخل المعبد
يكون الناس فى الخارج ملتزمين الهدوء فلا يحدثون ضوضاء ولا ضجة لئلا
يتعكر مجلس الآلهة بضوضاء البشر فيحل الشر فى العالم • ويتم الاحتفال
بنصر الآلهة على الموت فى اليوم التاسع من العيد ، حيث قلنا ان تماثيل
الآلهة كانت تسير بموكب فخم من شارع الى معبد رأس السنة ، ويخبرنا
بعض الملوك الآشوريين الذين دخلت بابل تحت حكمهم (مثل سرجون) انه
ذهب خصيصا الى مدينة بابل للاشتراك فى احتفال رأس السنة ، وكيف انه
امسك بيد الاله «مردوخ» فى الموكب فى سيره الى معبد رأس السنة[١] ،
حيث كان الموكب يسير شمالا ويمر من باب عشتار المهيب (وهو الجزء المهم
الباقى فى خرائب بابل الآن) ومن ثم تركب التماثيل فى قوارب عبر الفرات
الى المعبد الخاص وقد صور لنا سنحاريب مثل هذا المشهد (اى موكب
الآلهة) فى أبواب النحاس التى صنعها لمعبد رأس السنة فى آشور ، وكيف
ان الملك كان يظهر فى عربة الاله آشور (حيث يكون الاله آشور فى الشمال
بدلا من الاله مردوخ فى بابل) ، ومن بين ذلك ايضا صورة للاله آشور
وهو فى حربه ونزاله مع «تيامة» ، حاملا قوسه وسهمه وكيف يرافقه فى
حربه الاله «شمس» و«ادد» وبعض الآلهة الاخرى • وهناك احتمال فى
ان تمثيلية كانت تجرى فى ذلك المعبد تمثل الحرب بين آلهة النظام والحياة
وبين آلهة التدمير والموت ، والاحتفال بوليمة فاخرة بانتصار الاله مردوخ
الذى قلنا انها كانت تقام فى اليوم العاشر من الاحتفال ، أما ما اشرنا اليه
من أمر الزواج المقدس الخاص بالاله مردوخ الذى كان يتم بعد رجوعه
من الاحتفال فانه كان يتم بحسب معتقداتهم بين الاله والالهة رمزا لاستئناف عملية

---

(١) وحول هذا المعبد انظر Luckenbill, **Ancient Records** (1927, II, sec. 70
Pallis, **Bit Akitu** (1926).

الخلق والتجديدفي الربيع بعدقيامةالاله منعالم الاموات ،وهذا هو الزواج المقدس الذي كان يقوم به ايضا الملك بصفته عريس الالهة فيكون عندئذ مؤلها مقدسا • وعادة الزواج الالهي المقدس عادة قديمة في حضارة وادي الرافدين ، فقد سبق ان ذكرنا احتمال تفسير عادة الدفن مما يدعى بالقبور الملكية التي اشتهرت بها عصور فجر السلالات ، حيث قلنا ان تفسيرا آخر هو ان الملحودين في تلك القبور هم بالدرجة الاولى كاهن وكاهنة كانا يقومان بدور الزواج المقدس في فصل ظهور الانبات ، ولعلهما كانا يقتلان بعدئذ ، ويرجح كثيرا ان حجرة خاصة كانت تخصص في المعبد للزواج المقدس[١] • ومهما كان الامر فانه كان يعقب ليلة الزواج أو العرس الالهي ، مراسيم خاصة في اليوم التالي (اليوم الحادي عشر) ، حيث كان يتم فيها تقدير الاقدار مرة ثانية من جانب الآلهة ، ولا سيما الاله مردوخ بالنسبة الى مدينة بابل ، وينتهي العيد في اليوم الثاني عشر برجوع الآلهة التي جاءت الى بابل الى مواضعها في المدن البابلية • والى مثل هذه الاعياد الدينية كانت الصفةالدينية تطغى على الاحتفال العامةالاخرى،مثل الاحتفال بالنصر أو الاحتفال باقامة تمثال أو انشاء مدينة أو حفر نهر أو بتتويج الملك حيث يقوم الكهنة بقسط كبير من التراتيل والشعائر الدينية •

الكهنة

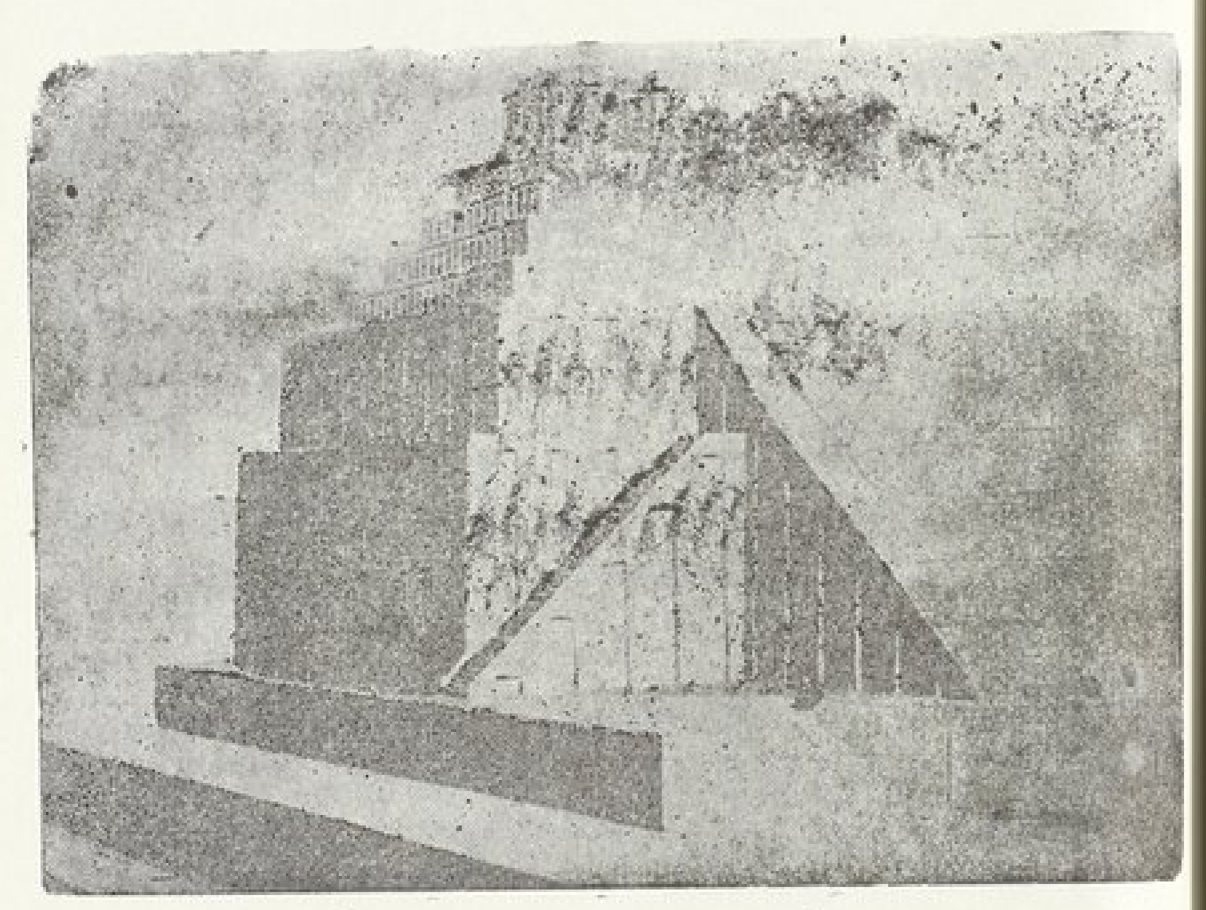
مما لا شك فيه ان الناس كانوا في العصور القديمة التي سبقت زمن

---

(١) وبهذه المناسبة يجدر الاشارة الى رواية هيرودوتس حيث يروي لنا ان معبدا كان فوق الزقورة ، حيث يوجد سرير ومنضدة من الذهب ، وانه لا يقيم في هذا المزار سوى امرأة كاهنة كان البابليون يعتقدون فيها ان الاله اصطفاها له ، حيث اعتاد النزول الى ذلك المعبد والاستراحة والنوم•

ولعل مما يؤيد رواية هيرودوتس بالنسبة الى موضع الزواج المقدس ان البابليين كانوا يدعون ذلك الموضع باسم (giginu) ، وهو موضع يرى فيه الباحثون حديثا انه جزء من البرج (الزقورة) ، ولعله في الطبقة الثانية من الزقورة كما أظهرت التحريات الحديثة في البرج الخاص بمدينةالسوس•

نضج الحضارة يتولون شؤون عبادتهم بانفسهم ، فيقيمون صور الآلهة في بيوتهم ويطعمونها من طعامهم ويسألونها بأنفسهم بدون شفيع أو واسطة هي طبقة الكهنة، ومما يجدر ذكره انه لم يكن في الازمان القديمة فارق واضح بين الموظفين المدنيين والدينيين ، فكان « الايشاكو » مثلا الكاهن الاعلى للاله وفي الوقت نفسه الحاكم الزمني . وكان الملوك يلقبون انفسهم بكهنة الآلهة ، واستمر الامر كذلك الى آخر التاريخ البابلي ، وكثيرا ما تقلد الحكام والامراء والاميرات منصب الكاهن الاعلى لاله معين . وقد استوجب تطور الحياة الاجتماعية وضرورة تنظيم المعابد بشؤونها المختلفة ان تنشأ طبقات وأصناف من الكهنة لكل صنف منها عمله ووظيفته وقد أحصى ما يربو على الثلاثين صنفا من أصناف الكهنة مما جاءنا في المصادر المسمارية . فمن اصناف الكهنة «الكاهن الاعلى» الذي كان يدير شؤون المعبد وهو على رأس الطبقات الاخرى. وطبقة من الكهنة كانت تتولى شؤون التنظيف أو التطهير الديني، ومنهم من كان يقوم بامور الدهن والمسح المقدسين الى الملوك . وتخصصت طبقات من الكهنة في ادارة شؤون المعابد من احصاء وارداتها واملاكها وادارة شؤونها المختلفة. واختصت أصناف من الكهنة باعمال السحر والعرافة والكهانة . فكان العزامون والراقون يتولون طرد الشياطين والارواح الخبيثة بالرقى والعزائم وبالسحر المستمد من الآلهة ، ولا سيما الاله «ايا» ويتولى العرافون شؤون معرفة المستقبل وتفسير الفأل والاحلام . ومنهم صنف المغنين والمرتلين والزمارين والى جانب الكهنة كانت هناك طبقات من الكاهنات، كن يعشن في الغالب في بيوت خاصة بهن قرب المعبد. وقد ورد ذكر بعض اصنافهن في شريعة حمورابي. وكان للكهنة والكاهنات البسة وازياء خاصة ولاسيما ابان اقامة المراسيم والشعائر الدينية، وكانت دورهم قرب المعبد ولهم مرتبات وجرايات من واردات المعبد ، وكان لصنف الكهنة بوجه عام ثروات ونفوذ في الدولة وفي شؤون الناس الخاصة والعامة .



صورة تمثل الصرح المدرج (الزقورة) في مدينة بابل
كما ينبغي ان تكون عليه في الاصل

الكهانة والعرافة :

ان رغبة البشر في معرفة ما سيحدث مهم وما يخبؤه لهم الغيب أمر شغل عقول الناس باختلاف مراتبهم في سلم الحضارة منذ أقدم العصور . وقد عنيت الاقوام القديمة بهذا الامر بوجه عام ، فكان للكهانة والعرافة عندهم شأن عظيم في حياتهم . ولم يشذ سكان العراق عنهم بل فاقوهم من حيث تعدد طرق العرافة عندهم . وبوسعنا ان ندرك اساس الكهانة باعتقادهم ان ما يحدث في هذا العالم انما هو مقدر من الآلهة فلو عرف الانسان ارادة الآلهة لاستطاع ان يقف على نتيجة اعماله . وقد اعتقدوا

ان معرفة ارادة الآلهة أمر ممكن لطبقة خاصة من الناس تستطيع أن تقف على مشيئة الالهة فى الظواهر السماوية وفى حركات الاجرام السماوية وفى الرؤى والاحلام وفى المخلوقات الشاذة وفى الامارات التى تظهر فى كبد الحيوان المضحى الخ • وكان للمنطق البدائى دخل كبير فى تفسيرهذه الظواهر ، فتتابع الحوادث وتفسير الحادثة الاولى علة والحادثة التالية معلولا والقياس على الاشباه والنظائر وترابط الافكار وتداعى المعانى كل هذا وغيره قد جعل أمر العرافة والكهانة يتراءى للبابليين ولغيرهم من الاقوام حقيقة لا شك فيها ولا ريب • والحقيقة ان الظواهر والامارات التى كان البابليون يلاحظونها فيستدلون منها على ما سيكون متعددة كثيرة يصعب حصرها ،ولكننا نستطيع ان نصنفها الى صنفين • فصنف يتضمن الاشياء التى يتقصد حدوثها العرافون بانفسهم مثل فحص كبد الحيوان المضحى وخلط الماء بالزيت ومثل الازلام عند عرب الجاهلية وغير ذلك مما يصح ان نطلق عليه اسم « العرافة المقصودة » • اما الصنف الثانى فتدخل فيه ظواهر تحدث ولا شأن بحدوثها للانسان وانما يشاهدها ويفهم مغزاها مما يتعلق بارادة الالهة • وهذه متنوعة كثيرة مثل مشاهدة الكواكب ورصدها ، وهو التنجيم ، او الرؤى والاحلام او فى الزلزال او فى الخسوف والكسوف الى غير ذلك من الخوارق • وكان الكهنة هم الذين يتولون شؤون العرافة كل بحسب اختصاصه ومعرفته •

ولنأخذ أمثلة من العرافة المقصودة ومن ذلك فحص الكبد (Hepatoscopy) وهى طريقة انتشرت من العراق القديم الى اكثر الامم القديمة مثل الحثيين والاتروسكيين والاغريق والرومان • وكان أساس هذه الطريقة من العرافة ان البابليين كانوا يرون وجود علاقة بين الاله الذى يقرب اليه الحيوان المضحى والحيوان نفسه ، اذ عندما يضحى الحيوان ويقدم الى الاله فانه يكون جزءا من الاله كما يكون جزءا من أجسام الناس الذين يأكلونه • فتكون روح الاله او نفسه نفس الذبيحة او روحها او ان روح الحيوان تمثل بروح الاله وعلى ذلك فمن الممكن للبشر ان يتطلعوا الى روح الاله ومن

ثم معرفة ارادته بدرس روح الذبيحة • ولكن اين توجد روح الذبيحة التى تمثل بروح الاله ؟ اى فى اى عضو من اعضاء الذبيحة يمكن ملاحظتها؟ والجواب على ذلك ان البابليين عدوا الكبد ذا علاقة وثقى بالروح والحياة ، لانهم رأوا أن فى الدم الحياة نفسها والكبد مستودع الدم (يوجد فيه نحو ⅙ كمية الدم) ، واذا فيمكن معرفة ارادة الاله من فحص كبد الحيوان المقرب وفهم ما تظهر فيه من علامات وامارات تعبر عن مشيئة ذلك الاله وارادته وعلاوة على ذلك فان مصدر فن العرافة من فحص الكبد من الآلهة فالاله « شمش » مثلا هو الذى يسطر فى نفس الذبيحة « اى فى كبدها » علامات التنبوء والفأل • والعرافون لم يحصلوا على هذا الفن الا بارادة الاله وبعد رياضة وممارسة • وقد خلف لنا البابليون والاشوريون والحثيون ألواحا من الطين فيها صور الكبد واسماء اجزائه وتعاليم وارشادات فى كيفية ملاحظة هذه الاجزاء والامارات التى تظهر فيها والتنبوء منها[١] ، وقد استعمل « عرافة الكبد » كثير من ملوك العراق الاقدمين قبل القيام باعمالهم وحملاتهم الحربية وكذلك فعل غير واحد من اباطرة الرومان • وسمى البابليون اجزاء الكبد باسماء متخيلة لمشابهتها الاشياء التى سميت بها مثل الاصبع والفم والطريق والقصر والباب والعرش الخ • وبعد انتخاب الذبيحة الصالحة من الوجهة الدينية يتقدم العراف « البارو » امام صنم الاله ومعه موقد ومنضدة وقنان من الخمر وشىء من الخبز ومزيج من الزبد والعسل والملح ثم يأخذ العراف يد السائل المقرب ويتلو بعض الدعاء فحواه مخاطبة الاله والاستئذان منه بتقريب الذبيحة اليه ، ثم تنحر الذبيحة ويخصص للاله أحسن أجزائها ثم يفحص العراف الكبد فيشاهد اجزاءه وما تظهر

---

(١) حول ذلك راجع :ــ

(1) British Museum, **Cuneiform Texts,** Part VI,(1898) Pls. 1, 2, 3.

(2) A. Boissier, **Mantique babylonienne et mantique hittite** (1935)

(3) A. Goetze, **Old Babylonian Omen Texts** (1947).

فيها من علامات كالفقاقيع والخطوط والتشقق ووضع القنوات التى تربط المرة الصفراء • وفى اجزاء الكبد علامات صالحة وعلامات غير صالحة وقد تربو الصالحة على غير الصالحة فتكون هى المعتبرة واذا تساوتا يعاد الفأل بفحص ثان وثالث •

ومن أصناف العرافة المقصوردة طريقة صب الماء فى الاناء مع الزيت وهى ما يطلق عليها اسم (Lecanomancy) من (lekane) ومعناها اناء او طشت و (mancy) اى عرافة أو فأل وقد استعمل البابليون هذه الطريقة كثيرا وقد جاء فى مآثرهم ان احد الملوك القدامى (وهو ملك لم يذكر الا فى اثبات الملوك والاساطير وأسمه « انميدور انكى ») هو الذى أوجد هذه الطريقة من العرافة • قد ورد الينا من زمن حمورابى مصدران واسعان فى كيفية استعمال هذه الطريقة ووجدت اوان من الفخار من عصر فجر السلالات (٢٨٠٠ ق • م) يرجح انها كانت تستعمل لهذه الغاية • ووصفت الكتابات المتعلقة بهذه الطريقة ما يشاهده العراف من كيفية اختلاط الزيت بالماء ونشوء حلقات من الزيت واتجاهها وطوافها فى الماء •

التنجيم (Astrology) : والتنجيم من العرافة غير المقصودة اى العرافة المبنة على ملاحظة حوادث وظواهر لا دخل للعراف بحدوثها • ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد ان ننبه الى بعض الاوهام الشائعة فيما يتعلق بعلاقة التنجيم بالفلك ، وان الفلك نشأ من التنجيم • والواقع ان ذلك يخالف الحقائق المقررة • فلم يكن منشأ علم الفلك عند العراقيين الاقدمين الرغبة فى معرفة المستقبل والاخبار عن الغيب التى هى منشأ التنجيم ، وانما أصل علم الفلك من حوافز وضرورات تتعلق بمعرفة الفصول والمواسم وقياس الوقت وضبط أزمان فيضان الانهر ومواسم الزرع الخ • وبوسعنا ان نقسم التنجيم الى نوعين متميزين ، فالنوع الاول وهو الاقدم عهدا يصح ان نطلق عليه اسم « معرفة الاحكام (Judicial Astrology) وهو الذى عرفه البابليون واستعملوه ، ويقصد به رصد الاجرام السماوية وملاحظتها والاستدلال من ذلك عما

سيحل بالمملكة أو ما سيحل بالملك أو الحكومة أو المدينة وغير ذلك من الاشياء العامة • اما النوع الثانى فهو حديث العهد بالنسبة الى النوع الاول وهو الشائع بين الناس من كلمة التنجيم ، وهو معرفة طالع الانسان وما سيحدث له بتأثير البروج والكواكب والشمس والقمر منذ ولادته ، ويصح ان نطلق عليه اسم الطالع[١] ولم يعرف هذا النوع من التنجيم في العراق الا فى الازمان المتأخرة فى العهد السلوقى منذ القرن الثالث ق • م •

ومن أمثلة رصد النجوم لغرض التنجيم ان المألوف فى الهلال أن لا يرى منذ اليوم السابع والعشرين ولكن اذا ما ظهر منذ اليوم السابع والعشرين تطيروا من هذه الظاهرة وعددوا الشرور والكوارث التى تصيب البلدان المختلفة • واستعملوا فألا آخر من احتمال رؤية الشمس والقمر معا بين اليوم الثانى عشر واليوم العشرين فمثلا « اذا رؤى القمر والشمس معا فى اليوم الثانى عشر فيكون ذلك نذيرا بزوال السلالة الحاكمة وفناء السكان وكثرة السراق » وكانوا يتطيرون كثيرا من خسوف القمر ، فاحصوا لذلك حالات للخسوف باختلاف الاشهر والايام وكذلك تطيروا من كسوف الشمس • وقد عزوا خسوف القمر وكسوف الشمس الى فعل العفاريت والشياطين وحربها مع الآلهة فكانوا كما ذكرنا يقومون بنوع من الصلوة بهذه المناسبة • ومن الكواكب التى كانت تستعمل للتنجيم « الزهرة » التى تمثل الالهة عشتار ، فكانوا يلاحظون طلوعها وغروبها وشدة لمعانها فى الاوقات المختلفة ، وكذلك لاحظوا المشترى (الذى يمثل الاله مردوخ) ورصدوا بعض النجوم الاخرى المعروفة مثل الشعرى والجدى والدب الاكبر الخ • وكذلك لاحظوا الظواهر الجوية المختلفة للفأل والتطير كالزوابع والصواعق والمطر وهبوب الرياح •

---

(١) ويطلق على هذا النوع اسم Horoscopic astrology
Genethlialogical astrology

وقد تظهر الآلهة ارادتها فى الرؤى أى فى الاحلام ، اذ كثيرا ماتظهر الى الصالحين والابرار فتخبرهم بالحوادث المغيبة • ويكون الاخبار اما صراحة أو رمزا فيحتاج الرائى فى الحالة الثانية الى مفسر أو معبر عن الرؤيا ، واختصت طبقة من الكهنة فى تفسير الاحلام وهم طبقة « الشائلو » • ومن أنواع الفأل المهمة عند البابليين طبيعة الايام المختلفة من الشهر وتقسيمها الى أيام صالحة وطالحة وكان للآلهة اعداد خاصة مقدسة وكذلك للافراد أرقام خاصة مقدرة ، وهذا يذكرنا بنظرية فيثاغورس من ان اساس جميع الاشياء العدد ومن الطريف ذكره ان العدد ١٣ كان من جملة الايام التى تطير منها البابليون • وقد خلف لنا العرافون اثباتا بجميع ايام السنة وتعيين الايام الصالحة والنحسة وما قد يحدث فى الايام المختلفة من خير وشر • واستخدم العرافون الحيوانات والطيور وما يلاحظون فيها من شذوذ فى الخلقة علامات للفأل ايضا ، وكذلك لاحظوا طيران الطيور فاذا طار صقر مثلا ومر من يمين الملك الى يساره فان الملك ينتصر ، واذا طار من يساره الى يمينه فانه يحقق رغبته•

السحر :

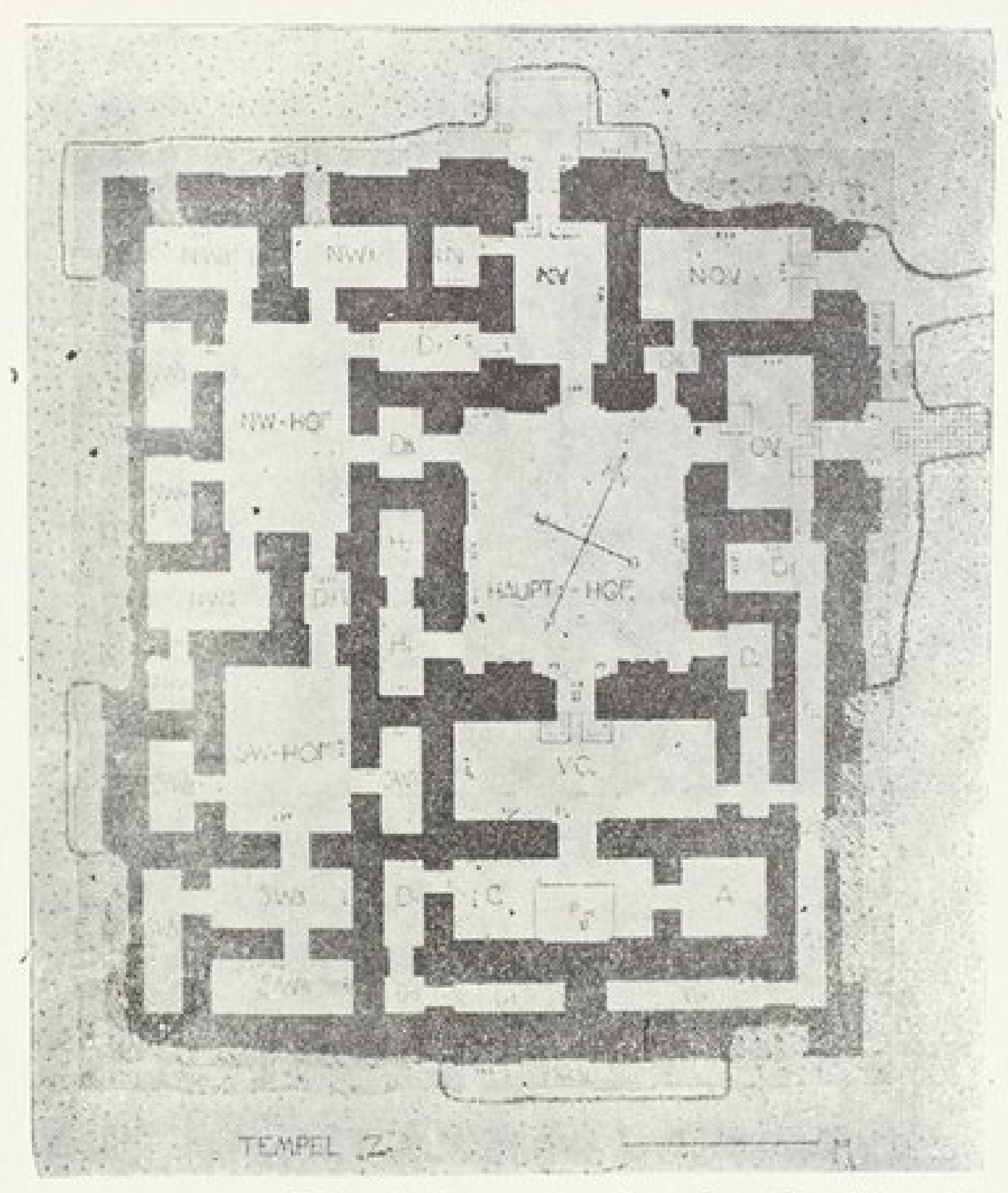
كان للسحر عند سكان العراق الاقدمين شأن كبير فى حياتهم العامة فكان عندهم حقيقة لا ريب فيها ، وكانوا يعالجون به الامراض التى تسببها الشياطين والارواح الخبيثة • واساس السحر عندهم مثلما كان عند الشعوب القديمة وبعض الشعوب الحاضرة مبنى على قاعدتين منشؤهما المنطق البدائى الساذج ، فالقاعدة الاولى فحواها « ان الشيء يحدث شبيهه » او ان العلل المتشابهة ينتج عنها نتائج متشابهة ، والقاعدة الثانية ان الاشياء التى كانت فى وقت ما متصاحبة ويؤثر بعضها فى بعض تستمر كذلك بعد ان ينفصل بعضها عن بعض • ويصح ان نطلق على القاعدة الاولى «قانون التشابه» (Law of similarity) وعلى القاعدة الثانية قانون المصاحبة أو العدوى (Law of contact or Contagion) ويستطيع الساحر مثلا بموجب القاعدة الاولى احداث شيء بتقليد حدوثه ، ويستطيع بحسب القاعدة الثانية ان يحدث شرا أو خيرا فى انسان ما باحداث خير أو شر فى أشياء كانت جزءا من ذلك

الانسان أو انها تعود له ، كشعره وقلامة ظفره أو قطع من لباسه • فيتضح من ذلك ان السحر مبنى على قوانين شبيهة بالقوانين المنطقية أو قوانين مزيفة، فهو على ذلك علم ، ولكنه ، كما يدعى احيانا « علم غير شرعى » وبالاضافة الى ذلك يعتمد السحر على افتراض وجود عوامل خفية ، كالارواح والقوى تعمل على تحقيق العمليات السحرية ، ولذلك فيسمى السحر جميعه بالسحر « الانجذابى » (Sympathetic Magic)

والسحر يكاد يكون من العناصر العامة الموجودة فى حضارات جميع الشعوب • والفكر السحرى أو العقلية السحرية أقدم طور فى تطور عقل الانسان ولا يزال موجودا فى أعمق طبقات العقل البشرى و النفس البشرية، ويتجلى ذلك فى اعتقاد الانسان بحدوث الاشياء التى يرغب فيها بمجرد رغبته فى حدوثها لان تفكيره قادر على ذلك[١] • والغريب فى أمر السحر ان اكثر عملياته تكاد تكون متطابقة متشابهة عند معظم الشعوب • فمن الاشياء العامة الموجودة عند اكثر البشر طريقة ايذاء العدو بعمل دمية او صورة من مواد معينة وكسرها او حرقها ، اذ بموجب قانون التشابه يسبب كسر يد الصورة او اتلاف عينها ضررا مماثلا فى الشخص الذى تمثله ، وقد استعمل ذلك سحرة البابليين والمصريين والهنود واليونان والرومان ، ولا تزال شائعةعند الشعوب المتأخرة • واذا أراد الهنود الحمر فى أمريكة ايذاء عدو فانهم كانوا يرسمون شخصه على الرمل أو الرماد أو الطين ثم يشوهون هذه الصورةأو يتلفونها • ومن الاعمال السحرية الشائعة عند البابليين امكان تدمير الاعداء الذين اضروا فردا بالسحر بحرق صور تمثلهم وتلاوة تعويذة فى مخاطبة الاله الخاص بالنار بان يحرق من أحدث الاضرار بذلك الشخص • واذا أرادت العاقر عند بعض القبائل فى سومطرة الحمل فانها تضع دمية تمثل طفلا فى حضنها وتضمها على صدرها كأنهاترضعها ويساعدها فى ذلك رجل كثير الذرية بأن يأخذ فرخ دجاجة ويقربه من رأس المرأة ويتمتم «أوبولير»

---

(١) ويعبر عن ذلك :ـ (Omnipotence of thought)



أحد المعابد المكتشفة فى بابل المخصص لعبادة الالهة « نن ـ ماخ »
(واسمه اى ـ ماخ) ٠ لاحظ اجزاء المعبد المختلفة

تقبل هذه الدجاجة ، وأتضرع اليك ان تسقط في يدي طفلا » ثم يسأل المرأة « هل جاء الطفل ؟ » فتجيبه « نعم واني الآن ارضعه » ثم يأخذ الدجاجة ويضعها على رأس زوج المرأة ثم يذبحها وتذهب المرأة الى فراشها وتقلد حالة النفساء فتأتي اليها صاحباتها فيباركن لها بالمولود الجديد . ومن الامثلة على القاعدة الثانية ونعنى بها قانون العدوى أو استمرار التأثير ، حرص كثير من الشعوب على اخفاء السن المقلوع أو شعر الرأس أو قلامة الاضافر مخافة ان تقع في يد عدو يستطيع ان يحدث الضرر بالشخص الذى تعود اليه ، ويعتقد كثير من الاقوام بوجود علاقة بين الجريح وبين الآلة التى سببت جرحه ، وان هذه العلاقة تستمر ما دام الشخص مريضا ، وعند بعض الاقوام المتأخرة في « ملانزية » اذا عثروا على السهم الذى سبب الجرح فانهم يضعونه في محل مرطب ليزول التهاب الجرح ، ويستطيع الجارح ان يطيل امد الجرح بان يشرب اشياء مهيجة حارة أو انه يحمي السهم أو القوس بالنار ، وقد يتفرع عن السحر نوع سالب من السحر مداره على تجنب أشياء ينتج عملها عواقب غير صالحة وهذا هو مبدأ الحرام « الطبو (Taboo) » وهو عام عند معظم الشعوب .

وكان السحر عند البابليين والاشوريين من أعقد وانظم ما عرف من أنواع السحر وكان على صنفين صنف ضار يقصد به احداث الضرر بالناس وقد حرمته القوانين وفرضت على تعاطيه عقوبات صارمة كما ورد في شريعة حمورابي ونوع حلال يتخذ لمقاصد كثيرة من أهمها شفاء الامراض وطرد الشياطين من أجسام الناس حيث تسبب لهم أنواعا كثيرة من الامراض . وكانت هذه الشياطين تملأ العالم البابلي وهي على انواع كثيرة لا يحصرها عد ، ولكن بوسعنا ان نصنفها الى ثلاثة أصناف بحسب الاصل الذى كان البابليون يعتقدون انها اشتقت منه ، فصنف من الشياطين أصله أرواح نوع من الموتى من البشر ، والصنف الثاني يتضمن شياطين بحتة وصنف أصله مركب من الشياطين والبشر وهو على الغالب نتيجة تزاوج البشر مع الشياطين .

والصنف الاول هى الارواح التى فارقت اجسادها بعد الموت وخرجت من عالم الارواح فصارت نوعا من الشياطين تؤذى البشر ، ومن أسباب ظهورها ما ذكرنا من عدم دفن الميت أو دفنه على غير السنن الدينية المتبعة ، أو عدم تقديم القرابين الى الموتى أو فى حالة نبش قبر الميت واخراج رفاته وحينئذ تخرج الارواح بهيئة اشباح سموها « الاطمو » وقد عرف البابليون من الصنف الثانى ، وهو صنف الشياطين الخالصة ، أنواعا كثيرة تسبب الامراض والويلات للبشر •

وكان السحر الذى يحاربون به الشياطين مستمدا من الآلهة • وقد خلف لنا البابليون شيئا كثيرا عن طرق السحر المختلفة والتعاويذ والرقى المتنوعة وقد رتبوا ذلك بهيئة مجموعات وعنونوها بعناوين خاصة وتتعلق كل مجموعة بعمليات سحرية خاصة لشفاء الأمراض وطرد الشياطين وغير ذلك من الاغراض •

المعابد والبنايات الدينية :

لقد ألمحنا فيما سبق الى أهمية المعابد فى حياة المجتمع فى العراق القديم، فهى عدا صفتها الدينية ذات علاقة وثقى بشؤون الناس الدنيوية ، فكانت مثلا مركزا مهما للقضاء بين الناس • وكان كهنة المعابد قضاة ، وكان جزء مهم من المرافعات القضائية يتعلق بالمعبد وكهنة المعبد مثل القسم ، وكان المعبد الى كل ذلك مصرفا (أى بنك) للمداينات والايداع، وقد امدنا كثير من المعابد بكنوز ثمينة من الآثار الفنية وبالسجلات الدينية والدنيوية التى كانت تودع فى المعابد وكان المعبد كذلك مركزا علميا للتعليم والبحث والتأليف والنقل ، وفيه تحفظ سجلات الآداب والعلوم الى جانب دور السجلات وخزانات الكتب الملوكية •

وبوسع المرء ان يفترض انه لم يكن لسكان العراق القدامى فى بداية أمرهم وفى أطوارهم البدائية معابد عامة ، وانما كانوا يعبدون آلهتهم فى

بيوتهم الخاصة وقد رأينا في بحثنا في عهود تاريخ العراق ان المعبد كان أول ما ظهر من البنايات العامة وذلك في عصور ما قبل التاريخ وبوجه خاص في العصور التي سميناها بعصور ما قبل السلالات وقد ظهرت بوادر المعابد لاول مرة في عصر حلف وكثرت في زمن العبيد التالي حيث ظهرت نماذج كثيرة من المعابد في الشمال والجنوب ، كالمعابد التي ظهرت في « تبه كورا » (قرب الموصل) والمعابد التي ظهرت في «اريدو» في الجنوب وكثرت المعابد فيما بعد ذلك في الازمان التالية ، وظهرت أولى الزقورات (جمع زقورة) أو الصروح المدرجة في الوركاء وفي العقير في العهد الذي سميناه بالوركاء • ومما يلاحظ في المعابد بوجه عام انها متشابهة منذ اول ظهورها وهذا يدل بوجه جلي على استمرار حضارة العراق القديم وتدرجها في النمو والتطور بدون فترات •

ويمكننا ان نقسم المعبد بوجه عام الى قسمين منفصلين ، نطلق على أحدهما المعبد العالي الذي تمثله الزقورة ، والثاني المعبد المؤسس على الارض المستوية قرب الزقورة ،ونشأت الزقورة او الصرح المدرج من فكرة اقامة معبد الاله فوق مرتفع صناعي اشارة للسمو والعلو (هذا هو معنى اسم الزقورة في اللغة البابلية) وكانت الزقورة مكونة من طبقات من البناء الصلد ، مربعة أو مستطيلة مدرجة السعة ويختلف عدد الطبقات باختلاف المواضع فهي تراوح من ٣ـ٧ طبقات ويشيد فوق الطبقة العليا مزار اومعبد صغير لعله كان يوضع فيه تمثال الاله ، ويرقى الى الزقورة بثلاثة سلالم ، ويوجد قرب القاعدة السفلى من الزقورة بعض الحجرات والمرافق ويحيط بها سور مقدس ، ووجدت آثار في انقاض بعض الزقورات تشير الى احتمال تلوين الطبقات المختلفة بالوان مختلفة ولعل البابليين تصوروا ان المعبد المشيد فوق قمة الزقورة هو لاستراحة الآلهة عند نزولها من السماء واذا نزلت الى الارض فانها تجد بيوتا خاصة لها هي المعابد الارضية التي تظهر فيها لاستماع صلوة البشر وتسلم قرابينهم والاستماع الى مظالمهم وشكاتهم وان أقدس جزء في المعبد

الارضى باب غير نافذ فى اقصى المعبد بهيئة محراب ، وكانوا يضعون هنا أصنام الآلهة فوق دكة من البناء او كرسى من الخشب • وحجرة الهيكل هذه أهم جزء فى المعبد وقد تكون وحدها معبدا قائما بنفسه وكان أول جزء من المعبد يدخل اليه المتعبدون حجرة الحاجب أو حجرة المدخل وتؤدى هذه الى ساحة مكشوفة ومن الساحة يدخل المرء الى حجرة أخرى يجوز تسميتها بحجرة « المابين » ثم الى حجرة اخرى هى حجرة الهيكل التى كانت اقدس جزء فى المعبد حيث يوجد المحراب ودكة المذبح وتكون مداخل هذه الحجرات فى اكثر المعابد البابلية باتجاه واحد بحيث اذا انفتحت الابواب يرى الواقف فى حجرة المدخل المحراب فى اقصى المعبد وفيه تمثال الاله • وتكون حجرة الهيكل فى المعابد الآشورية فى الجانب وليس باتجاه المدخل • وفيما عدا هذه الاجزاء الرئيسية توجد ساحات خارجية وحجرات ومرافق أخرى كثيرة تحيط بالساحة خصص بعضها للكهنة وبعضها للتطهير المقدس • وكان اكثر المعابد ، مثل معبد «ايساكلا» فى بابل ، يحتوى على تماثيل آلهة كثيرة توضع فى حجرات ثانوية مع تمثال الاله الرئيسى الذى شيد له المعبد •

وسميت المعابد بنوعيها ، اى الزقورة والمعبد الارضى ، بأسماء خاصة بها وقد وردت اثبات مطولة بأسماء المعابد واسماء الآلهة وكانت المدن جميعها تقريبا مهما صغرت لا تخلو من معبد لعبادة الاله أو الآلهة التى تعبد فى تلك المدينة ، اما فى المدن الكبيرة فكان فيها اكثر من معبد واحد ، وشيدت فى اغلب هذه المدن الكبيرة الزقورات او الصروح المدرجة • ومن أنواع المعابد التى ذكرناها فى الكلام على عيد رأس السنة المعبد الخاص الذى كان يخصص للاحتفال بجزء مهم من ذلك العيد[1] ، وكانت العادة انها تقام خارج المدن المشهورة وقد وجد بعضها ولا سيما المعبد الخاص بمدينة اشور حيث نقب

---

(1) Pallis, **The Babylonian Akītu Festival** (Copenhagen, 1926).

(2) Parrot, **Archéologie Mesopotamiene** I, 229

فيه المنقبون الالمان[١] وهو يقع بحوالى ٢٠٠ مترا خارج سور المدينة ،واهم ما تتميز به هذه المعـــابد كثرة الحدائق المحيطـة بهـــا ، وحتى ســـاحة المعبد كانت تغرس بالازهار والاشجار النظرة ووجد فى كل جانب من المعبد الخاص باشور رواق طويل ، ووجد فيه ايضـــا محراب (ســـيلا) كبير (٢٥ × ١٠٠ قدم) على طول عرض المعبد ، ولعل الاحتفال بالوليمة كان يقام هنا ، كما وجدت آثار لمثل هذا المعبد حديثا فى الوركاء .

W. Andrae, **Das Wiedererstandene Assur** (1936) 15, ff.

الفصل الرابع عشر

الشرائع والقوانين

مقدمـــة :

ظهرت في العراق القديم اقدم شرائع مدونة في تأريخ العالم ، ولدينا من الاشــارات التأريخيـــة ما يثبت ظهور القوانين المدونة في العصــور التي سميناها بعصور فجر السلالات • فشرائع العراق القديم تكون بذلك اولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد واصول مدونة • هذا ولا تقتصر معرفتنا بأحوال العراق الاجتماعية على ما جاءنا من الشرائع المدونة منذ أقدم العصور بل الى ذلك مئآت الالوف من العقود والمستندات القانونية والتجارية والادارية وهي التي نسميها في هذا البحث بالوثائق القانونيـــة • فتمثل هذه المصادر الغزيرة مع القانون المدون صورة لا بأس بها عن تنظيم الهيئة الاجتماعية بموجب العرف القانوني والقواعد المقررة • ولعل ابرز الميزات في حضارات العراق القديم ان الناس امتازوا عن سائر الشعـــوب القديمة بتمسكهم بالقواعد القانونية ، فكانت المعاملات كافة ، صغيرها وكبيرها وجميع الاحوال الشخصية تجري وفق أحكام معروفة وان جميع هذه الامور والشؤون لا تعد ملزمة صحيحة ما لم توضع بأسلوب شرعي قانوني • ويمكننا ان نؤكد مرة اخرى ان الشرائع لم تظهر في زمن اقدم وبوجه اوضح عند شعب آخر من شعوب الحضارات القديمة مثل ما كان الحال عليه عند ســـكان وادي الرافدين • وبوسعنا ان نلمس تغلغل النظم والشرائع في حياة العراق القديم في مآثر الملوك والامراء مما وصل الينا من كتاباتهم وســجلاتهم ، فتكاد لا تخلو سجلات كل منهم من اشارة الى نشر العدل واقرار شرائــع الآلهة وحماية الضعفاء •

أصول القوانين والشرائع :

ومما قوى تمسك الناس بالقواعد الاجتماعية المدونة اى بالقوانين المدونة وبالعرف القانوني والاجتماعي انهم كانوا يعدون مصدرها واصلها من الآلهة فكان ملوكهم عند اصدارهم القوانين او ذكرهم نشر العدل وتشريع الشرائع يقولون انهم مسوقون بارادة الآلهة ورغبتها • ويتضح ذلك جليا فيما جاء في مقدمة شريعة حمورابي حيث يقول « لما عهد آنو العظيم سيد الآلهة و « انليل » رب السماء والارض الذي بيده مصير البلاد ، الى مردوخ بكر « ايا » ان يحكم جميع البشر ، وعندما عظماه بين آلهة السماء وجعلا اسم بابل مجيدا شهيرا في جميع الدنيا وأسسا فيها مملكة راسخة البنيان رسوخ السماء والارض ـ انتدبني آنئذاك « آنو » و « انليل » ، انا حمورابي ، الامير الكريم عابد الآلهة ، لانشر العدل في البلاد واقضى على الشر والغش وامنع القوى من اضطهاد الضعيف ••• » ومما جاء في ماثرهم انه اذا لم يرع الملك العدل فسيثور اتباعه وتخرب بلاده ، واذا لم يسر على قوانين بلاده فسيغير الاله « ايا » الذي بيده القدر مصيره ويصيره الى اسوأ مآل •• وكان الاله شمش (الاله الشمس) على رأس الآلهة الذين خصوا بانهم مصدر الشريعة والعدل حيث « يبدد الظلمات بنوره » والقاضي الاعظم الذي ينظر الى الضعفاء بعين العطف والرضا •

وتشترك معظم الشرائع القديمة بالاعتقاد بانها مستمدة من الآلهة فالقوانين القديمة سواء اكانت صادرة عن العرف والعادة ام مبنية على الاحكام الصادرة من الملك او الكهنة انما هي أحكام الهية لان الحاكم يمثل الاله في هذه الارض فاحكامه موحى بها من الآلهة • والاعتقاد بهذا المصدر النظرى جعل القوانين القديمة تتصف بالثبات والاستمرار وعدم التغير والتحويل وانها جعلت لجميع الناس في جميع الاحوال والازمان •

والامر الواقع ان القوانين التي هي قواعد عامة اجتماعية ملزمة ، تنشأ في كل مجتمع من الروابط الاجتماعية التي تنظم بموجب تلك القواعد وعند

ما كان البشر فى المراحل البدائية ، قبل نشوء الحضارة الناضجة فى وادى الرافدين ، لم تكن تلك القواعد الاجتماعية مدونة بهيئة أحكام قانونية ، بل كانت بهيئة عادات ، واذا عمت تلك العادات واطرد اتباعها من قبل الناس واكتسبت صفة الالزام فى تنظيم علاقاتهم الاجتماعية فتحول الى عرف اى الى قانون واجب الاتباع • وقبل ان تبدأ القوانين المدونة فى العراق القديم كان القضاة او المحكمون والعارفون الذين يلتجأ اليهم المتخاصمون للحكومة وفض النزاع قد ثبتوا قواعد العرف باقضيتهم ، فصارت الاقضية السابقة أو السوابق القضائية مصدرا مهما للقانون المدون ، اذ أن هذه السوابق القضائية المستندة الى العرف تكتسب بمرور الزمن صفة القانون الرسمى • وهكذا نشأ قانون حمورابى ، الذى هو جمع أحكام سابقة اى تقنين الاحكام المختلفة السابقة وجمعها بهيئة قانون مدون ، ومما يدل على أهمية القضاء كمصدر للقوانين القديمة ان الكلمة التى أطلقها العراقيون القدماء على القانون هى نفس الكلمة التى تطلق على القضية او الحكم الصادر فى قضية معينة • وكان القضاة والجماعات الاخرى من الكتبة والكهنة يشتغلون فى المسائل القانونية ، ويدونون بحوثهم ويثبتون الاحكام ويفسرون هذه الاحكام ، فكانوا بذلك اول علماء فى القانون او ما نسميهم الآن فقهاء وقد كانت بحوث هؤلاء اى الفقه الذى بحثوا فيه ، من المصادر المهمة للقوانين المدونة التى اصدرها الملوك •

وتمتاز شرائع العراق القديمة ، الى كونها أقدم شرائع بشرية بانها على قدر عظيم من النضج والرقى بالنسبة لجميع الشرائع القديمة فانها بخلاف كثير من الشرائع القديمة التى جاءت من بعدها ، كشرائع مانو الهندية والالواح الرومانية الاثنى عشر[1] قد دونت بلغة قانونية دقيقة وباسلوب علمى • وان هذه الشرائع قوانين دنيوية صرفة مقتصرة على الشؤون المدنية لا تتعرض للعبادات ، ودونت بهيئة مواد متسلسلة ولم تستنبط من كتب

---

(١) راجع البحث الخاص بالرومان

مقدسة كما فى الشريعة العبرانية والاسلامية ، ومع ذلك فانها لم تخل من نواح فيها طابع السذاجة والبداوة والشدة بالنسبة الى عرف البشر المتمدن فى الوقت الحاضر مثل المسؤليات الا جماعية والبينة فى الامتحان ومبدأ القصاص (العين بالعين والسن بالسن) .[١] ومع كل ذلك فانها تركت العرف القبائلى وراءها بمراحل كثيرة .

مصادرنا عن الشرائع ونماذج من هذه الشرائع :

ان مصادرنا عن شرائع العراق القديم نصوص أصلية ، أى ما جاءنا من الوثائق القانونية والقوانين المدونة من مختلف ادوار التأريخ فى العراق القديم وبوسعنا ان نقسم هذه المصادر الى صنفين :ـ فالصنف الاول نماذج من شرائع مدونة من عهود مختلفة بعضها شريعة تامة مثل شريعة حمورابى ، وبعضها أجزاء من شرائع لما تصل الينا كلها مثل القوانين السومرية والقوانين القديمة السابقة لشريعة حمورابى ومثل القوانين الاشورية[٢] . والصنف الثانى من مصادر معرفتنا بشرائع العراق ، وهو لا يقل خطورة عن الصنف الاول ، نسميه بالوثائق القانونية ونقصد بهذا الصنف الوفا كثيرة من رقم الطين القانونية التى هى عقود وصكوك كعقود الزواج والطلاق والتبنى

---

(1) Lex Talionis

(٢) ندون هنا اهم المراجع الاساسية واحدثها عن الشرائع فى العراق القديم وفيها سيجد القارىء الاشارات الى الدراسات الاصلية :ـ

(1) Prichard, **Ancient Near Eastern Texts** (Princeon, Un. Press, (1950).

وفيه يجد القارىء احدث تراجم الى شرائع العراق القديم

(2) Miles and Driver, **The Babylonian Laws,** 1, (1952).

(3) .... , **The Assyrian Laws** (1935).

وعن الوثائق القانونية

(4) Schorr, **Urkunden des Altbabylonischen Zivil und Prozess rechts** (1913).

(5) Walther, **Das Altbabylonische Gerichtwesen**

وسنذكر المراجع الاخرى الخاصة بترجمة الشرائع المكتشفة حديثا .

والارث ، وكذلك قرارات المحاكم واقضية القضاة ويلحق بذلك رسائل الملوك الادارية وكذلك المستندات الادارية المتعلقة بالضرائب وتقسيم المملكة الى مناطق ادارية وتعيين الاجور الى غير ذلك من الشؤون المختلفة • وتكون الوثائق القانونية فى بعض العهود التاريخية المصدر الوحيد لمعرفة الاحوال القانونية ذلك لانه لم يأتنا بعد من تلك العهود قوانين مدونة • ومهما يكن الحال فان هذا الصنف من المصادر يعد جزءا متمما للقانون المدون • لانه حتى فى حالة وجود القانون المدون فان ذلك لا يعد كافيا لمعرفة النظم القضائية عند سكان العراق القدماء ، لان مواطن كثيرة فى القانون المدون غامضة غير مفهومة تارة من الناحية اللغوية وتارة من الناحية الفقهية ولكن رجوعنا الى الوثائق القانونية ، التى هى تطبيق للعرف القانونى ، يساعدنا على معرفة ما التبس علينا فهمه من القانون المدون • وفوق هذا كله لاتكون الصورة التى يكونها الباحث عن العرف القانونى صحيحة ممثلة على الوجه الاكمل لو اقتصر فى تكوين تلك الصورة على القانون المدون الذى قد لا يبين الا الاحوال المثالية دون الواقع وقد يكون مهملا لا يسار على أحكامه ، والذى يكشف لنا هذا الامر ويكمل الصورة الواضحة هى الوثائق القانونية • ومن المصادر المهمة لمعرفتنا بشرائع العراق القديم صنف من النصوص المدرسية ، وهذه عبارة عن نسخ وضعت لغرض التدريس وتدريب المبتدئين فى الكتابة واللغة ، ولا سيما اللغة السومرية ، ويحتوى الكثير منها على نصوص ومقتطفات قانونية سومرية وبابلية نذكر منها مجموعة تعرف باول عبارة منها وهى « عند الطلب » أو « فى حينه » وباللغة البابلية « أنا ـ اتيشو »[١] اشارةالى العرف المتبع آنئذاك فى ان الدائن عندمايكتب عقدا بدين يعين الشهر ولكنه يترك اسم اليوم لطلبه واخطاره للمدين • ومع ان

---

(١) أنظر
Landsberger, **Ana ittishu. Materialen zum Sumerichen Lexikon** (1937).

ما جاءنا من نسخ عن هذه المجموعة يرجع عهده الى الزمن الاشوري المتأخر ولكن محتوياتها ولغتها السومرية والبابلية تشير الى انها اصلها المستنسخة عنه يرجع الى العهد البابلي القديم • ورتبت هذه في حقلين ، ذكرت في الحقل الايسر المصطلحات السومرية وفي الحقل الايمن ترجمتها باللغة البابلية ، ومع أن هذه النصوص لا يمكن اعتبارها شرائع صرفة وانما هي تمارين لغوية لتدريس المصطلحات القانونية ، الا انها مع ذلك تحتوي على معلومات جد مفيدة عن الشرائع والقوانين والمعاملات التجارية • وثمت نوع آخر من النصوص اللغوية التي تلقي ضوءاً مهما على النواحي القانونية ، وهي تسمى أيضا بأول جملة منها « ربح ، فائض »[١] ، وكان الغرض من هذه أيضا لغويا لتدريب الطلاب على فهم اللغتين السومرية والبابلية ولكنها الى ذلك تحتوي مثل النصوص الاولى على مصطلحات قانونية ومعاملات تجارية مهمة ، ولا سيما اللوحين الاولين من المجموعة ، وهي ايضا مرتبة بحقلين ، في حقل المصطلحات السومرية وبجانبه ما يرادفه في اللغة البابلية • ومن مصادر معرفتنا بالعرف القانوني في حضارة وادي الرافدين نوع ثالث من النصوص القانونية يمكن تسميتها كما جاءت بعنوانها القديم « أحكام صادرة » ، اي قضايا حكمت بها المحاكم المختلفة وبعضها محاضر أو سجلات محاكم ، ويرجع معظمها (نحو ٢٥٠ وثيقة) الى عهد سلالة اور الثالثة وبعضها يتضمن دعاوي الاملاك والاراضي[٢] وحالات نقض الالتزامات •ومن مصادر معرفتنا بالحياة التشريعية والقضائية في حضارة وادي الرافدين ان الملوك اعتادوا اصدار نوع من الانظمة والاوامر الخاصة بتطبيق القوانين على غرار المنشورات

---

(١) بالسومرية « خر ــ را » (HAR - RA) وبالبابلية « خوبلوم » اي فائض (انظر (Landsberger, ibid, X—XII)

(٢) اسم هذه المجموعة من النصوص بالسومرية (SA - TIL - LA) او (DI - TIL - LA) وبالبابلية (دينوم كمروم) (dînum gamrum) اي قرار تام أو صادر وقد نشر بعضها في المصادر الآتية :ــ
Babyloniaca, III, 100 ff. ; **RA**, VIII. 1 ff. ; Gadd, **Sumerian Reading Book**, 172 - 175.

القضائية عند الرومان[١] . ونقدم فى ما يأتى عرضا تاريخيا لما جاءنا من القوانين وسيكون بوسعنا من هذا العرض التاريخى أن نحصل على صورة لا بأس بها عن الشرائع والحياة القضائية وأحوال المجتمع بوجه عام .

القوانين السابقة لشريعة حمورابى :

لا سبيل لنا لمعرفة القوانين فى العراق قبل أن تظهر الكتابة فيه فى منتصف الالف الرابع ق. م. ولكن مما يدعو الى الدهشة ان نجد عند سكان العراق الاقدمين أصولا قانونية وقواعد متبعة فى المعاملات وذلك فى أواخر عصور ما قبل التاريخ منذ النصف الثانى من عصر الوركاء ، وهو الزمن الذى ظهرت فيه الكتابة لاول مرة فى تأريخ البشر . فان الواح الطين التى جاءتنا من هذا العهد ومن العهد الذى يليه (وهو عهد جمدة نصر) تحتوى على كثير من المعاملات التجارية والادارية كسجلات الحقول والاراضى والمستندات التجارية وسجلات الواردات وتثبيت ملكية الاراضى ، وكثرت المصادر عن القوانين فى عصور فجر السلالات وهو عهد ازدهار الحضارة السومرية ونموها . ولكن مما يؤسف له لم يأتنا بعد من هذا العهد قوانين مدونة على طراز شريعة حمورابى أو شريعة مملكة اشنونا المكتشفة فى تل حرمل . وانما وردت اشارات من الملوك الذين حكموا فى اواخر تلك العصور تثبت بأنهم مكنوا العدل ودونوا الشرائع . وكان « ارو كاجينا » أمير مدينة «لجش» أول مشروع فى تأريخ البشر ، وقد جاءتنا منه ما ثر تشير الى اصلاحاته الاجتماعية وتنظيم أصول الادارة وجبى الضرائب وازالة الظلم من الطبقات الفقيرة وانه مكن العدل فى البلاد[٢] . والى هذه الاشارات جاءتنا من عصور فجر السلالات وكذلك من العهد الاكدى الذى أعقبه نماذج متنوعة من الوثائق القانونية . وقد انتهى عصر فجر السلالات وهو عهد دويلات

(Miles & Driver, **The Bab. Laws**, 23)

Thureau-Dangin, **Sum. Konigsinschriften** (50).

المدن كما رأينا سابقا . بتوحيد البلاد في عهد السلالة الأكدية ونشوء الامبراطورية فاستوجب ذلك نشوء القوانين الادارية لادارة المملكة المترامية الاطراف والاقاليم التابعة لها ، ولدينا من الاشارات التاريخية ما يثبت نشوء صنف خاص بالقضاة المدنيين ، وكانوا ذوي مكانة سامية في الدولة وقد سبق ان عرفنا في كلامنا على الملك سرجون الاكدي انه ادخل نظام القسم باسم الملك من جانب الاطراف المتعاقدة تثبيتا لنصوص العقود ، كما انه لقب نفسه بملك العدل • وجاءتنا اشارات كذلك من فترة عهد الكوتيين المظلمة من مآثر جودية الشهير ما يعيننا على فهم شيء عن القضاة والمحاكم في هذا العهد •

وكثرت مصادرنا بالاحوال القضائية في عهد سلالة اور الثالثة وكانت هذه المصادر بالدرجة الاولى من صنف الوثائق القانونية المتنوعة ، ولكن جاءتنا بالاضافة الى ذلك اجزاء من شرائع مدونة ، وهي ذات علاقة وثيقة بقانون حمورابي مما يشير الى أخذ حمورابي بعض أحكامها في شريعته • هذا ولا نعرف الملك الذي قنن هذه الشرائع السومرية •

قانون « اور ـ نمو »

اكتشف الباحثون حديثا من بين الواح الطين التي وجدت في نفر قبل نحو ٥٠ عام شريعة[١] جديدة ثبت انها تعود الى الملك « اور ـ نمو » ، مؤسس سلالة اور الثالثة ، الذي حكم في حدود ٢٠٥٠ ق٠ م، فتكون شريعته بذلك قبل شريعة حمورابي بنحو ثلاثة قرون • ومما يؤسف له ان ما عثر عليه من الشريعة ناقص غير كامل فلم يبق منه سوى المقدمة وبضع مواد قانونية • ومما يذكر عن أحكام هذه المواد الباقية انها كثيرة الشبه بأحكام شريعة « لبت ـ عشتار » وشريعة « اشنونا » من ناحية الاخذ بمبدأ الدية والتعويض بدلا من مبدأ القصاص ، كما في شريعة حمورابي ، وتشبه هذه الشريعة في طريقة تنظيمها الشرائع الاخرى ، من حيث تبويبها الى مقدمة

S. N. Kramer in **Bulletin of the Un. Museum,** vol. 17, No. 2 (1952).

ثم مواد الاحكام والخاتمة ، ولكن شريعة حمورابى اكمل واوفى من هذه الناحية • وتتضمن المقدمة تدرج تفويض السلطة للحكم ونشر الشرائع من الآلهةالى الملك ، فمثلا تذكر المقدمة انه بعد « خلق العالم وبعد ان تقرر مصير سومر ومدينة اور عين الالهان آنو وانليل اله مدينة اور (وهو الاله القمر « ننا ») ملكا على أور ، ثم عين هذا الاله بدوره « اور - نمو » نائبا عنه فى الحكم » ، ثم يعدد الملك اعماله من توطيد الحالة السياسية فى المملكة ويذكر غلبته على بعض المدن ولا سيما « لجش » واصلاحاته الداخلية، وازالة المظالم ونشر العدل •

قانون « اشنونا »(١)

يرجع زمن هذا القانون المدون الى العهد البابلى القديم ، وقد وجد فى اثناء تنقيبات مديرية الآثار العراقية فى تل حرمل القريب من بغداد والمرجح أن هذا القانون يعود الى ملك من ملوك مملكة اشنونا (انظر البحث الخاص بالعهد البابلى القديم) اسمه « بلالاما » ، وقد اصدر هذا القانون لتنظيم شؤون تلك المملكة عندما استقلت زمنا طويلا بعد سقوط سلالة اور الثالثة • واذا صحت نسبة القانون الى « بلالاما » فيكون زمنه قبل تدوين شريعة حمورابى بنحو قرنين من الزمان ، فهو على ذلك اقدم شريعة كبيرة معروفة فى العالم (من بعد قانون « اور - نمو ») • وقد دون هذا القانون على لوحين من الطين باللغة البابلية (السامية) لا شك انهما جزء من مجموعة لم يعثر عليها حتى الآن • وهو بحاله الحاضر يحتوى على نحو ٦١ مادة من المواد القانونية ، فيعادل بذلك نحو الربع من شريعة حموانى (البالغة نحو **٢٨٢** مادة) ويعنى ذلك ان قانون

---

(١) انظر ترجمة المؤلف لهذا القانون الى العربية فى مجلة سومر المجلد الرابع ، الجزء الثانى ، وكذلك ترجمته الانجليزية وكثرت البحوث الاخرى حوله (أنظر

(Symbolae Hrozny (1950)

«حرمل» أوسع قانون مدون من بعد قانون حمورابي • ويبتدىء القانون مثل قانون حمورابي بمقدمة ولكنها قصيرة يرجح انها تبدأ باسم الملك « بلالاما » (ولكن الكتابة هنا غير واضحة) وتاريخ القانون ، ثم تبدأ جملة مواد في تحديد الاسعار والاجور (وعددها ١٢ مادة) ويذكر القانون الاحكام المختلفة مما يتعلق بالسرقات والاعتداءآت والاضرار الواقعة على الاعضاء وديات الاعضاء والاضرار المسببة عن سقوط جدار متداع وجنايات الحيوانات والديون والبيع والشراء ومواد مختلفة في الاحوال الشخصية من زواج وارث وطلاق وزنا وعقوبات • وقد كتب ذلك القانون باللغة البابلية القديمة وصيغ على طراز قانون حمورابي بهيئة فنية ورتب بهيئة مواد بحسب الاحكام المختلفة • واليك نماذج من تلك المواد :ـ

المادة ١٢ ـ اذا قبض على رجل في حقل شخص من طبقة « المشكينم » (الطبقة الوسطى) نهارا فانه يدفع عشرة شيقلات من الفضة غرامة • ومن قبض عليه في اثناء الليل فانه يموت ولن يحي » •

المادة ١٥ ـ « لا يجوز للتاجر أو بائعة الخمر ان يتسلم من عبد أو أمة فضة أو حبوبا أو صوفا أو زيتا كرأس مال للمتاجرة » والسبب في ذلك ان الرق بحكم القانون لا يستطيع ان يملك شيئا لانه كان هو وما يملك ملكا لسيده •

المادة ٢٧ ـ « اذا دخل رجل بابنة رجل آخر بدون اذن أبيها وأمها ولم يعقد عقدا بالزواج مع أبيها وأمها فلا تكون تلك المرأة زوجة شرعية حتى لو عاشت في بيته سنة واحدة » •

المادة ٢٩ ـ «اذا فقد رجل في أثناء حرب أو غارة أو انه اخذ اسيرا وبقي في بلد غريب زمنا طويلا ، فاذا اخذ رجل آخر زوجته اى تزوجها وولدت له طفلا فاذا رجع الزوج الاول فله الحق في استرجاع زوجته » •

المادة ٣٠ ـ « اذا كره رجل مدينته وملكه فهرب ثم أخذ زوجته رجل آخر فاذا رجع الرجل فلن يكون له حق بزوجته » •

المادة ٤٢ ـ « اذا عض رجل أنف رجل وقطعه فانه يؤدي « منا »[١] واحدا من الفضة ودية العين « من » واحد من الفضة وللسن نصف « من » من الفضة وللصفع على الوجه عشرة شيقلات من الفضة » .

قانون « لبت عشتار »

ومن القوانين التي اكتشفت حديثا والتي سبقت شريعة حمورابي بالزمن زهاء القرن ونصف القرن قانون الملك « لبت ـ عشتار » وهو الملك الخامس من ملوك سلالة « ايسن » الذي حكم في بداية العهد البابلي القديم[٢] . وقد وضع قانونه باللغة السومرية وهو مثل قانون حمورابي يحتوي على مقدمة وخاتمة ويوجد بين القانونين تناظر وتشابه في كيفية التأليف وفي بعض المواد ومع ان ما وجد من هذا القانون قد دون في كسر من الواح الطين اكتشفت في نفر قبل ٥٠ عاما فانه توجد اشارات الى ان الملك «لبت-عشتار» قد نقش قانونه على نصب أو مسلة من الحجر مثل مسلة قانون حمورابي . والذي جاءنا من هذا القانون لا يحتوي الا على ٣٥ مادة ، ولعل أصل القانون وهو بحاله الكاملة نيف ومائة مادة .

ان قانون « اور ـ نمو » وقانون « اشنونا » وقانون « لبت ـ عشتار » لهي على قدر عظيم من الاهمية في تاريخ الشرائع المدونة فقد أضاف اكتشاف هذه القوانين الى تأريخ الشرائع اكثر من ثلاثةقرون من الزمان ومهد السبيل لدراسة القانون درسا مقارنا يمتد الى نحو أربعة آلاف سنة . والى ذلك ثبت الآن ان قانون حمورابي ، الذي كان يعد أقدم شريعة في تأريخ العالم ،يقوم على عرف قانوني مأثور طويل العهد . وانه لم يكن نقطة الشروع بل سارية

---

(١) يساوي « المن » البابلي نحو نصف كيلو غرام من اوزان العصر الحاضر ويعادل الشيقل واحدا من ستين من « المن » .

(٢) انظر نشر نص القانون وترجمته في مجلة :ـ
Steele, American Journal of Archaeology, vol. 53 (1948). P. 425 ff.
وترجمة المؤلف للقانون في مجلة سومر (١٩٤٧)

و نسب فى تاريخ التطور الاجتماعى فى الشرق الادنى القديم ، والتطور البشرى بوجه عام •

وبالاضافة الى هذه القوانين الثلاثة السابقة لشريعة حمورابى توجد مجموعات صغيرة من المواد القانونية ، وجدت مدونة على نحو اربعة الواح وهى متطابقة فى نصوصها مما يدل على انها نسخ عن اصول اقدم ، وتحتوى على نحو (٢٦) مادة • اما تأريخها فغير معلوم بوجه التأكيد ولكن بالاستناد الى الادلة الداخلية ولا سيما شكل الخط واسلوب اللغة يمكن ارجاع عهدها الى العصر البابلى القديم ، ولعله بعد زمن سلالة اور الثالثة بقليل ، حيث ظهر أن بعض موادها متطابقة مع مواد شريعة «لبت عشتار»[١] •

قانون « حمورابى »

يتضح مما أسلفنا من الكلام على شرائع العراق القديم ، أى شرائع « اور ـ نمو » و « اشنونا » و « لبت ـ عشتار » وجود عرف وأصول قانونية فى العراق منذ أقدم عهوه وذلك قبل ان يجمع حمورابى شريعته المشهورة ، وكانت هذه القوانين السابقة مصادر مهمة لتقنين شريعته ، فأخذ منها بعد التعديل والتغيير • ولكن مع ذلك فتعد شريعة حمورابى أنظم وأكمل شريعة فى تأريخ الحضارات القديمة وتدل الاشارات الموجودة فى شريعة حمورابى ، ولا سيما نصوص المقدمة ، على انه جمع قانونه فى السنوات الاخيرة من حكمه وذلك بعد ان قضى على خصومه العيلاميين ووحد المملكة ومد فتوحه الى خارج العراق ، فرأى من بعد ذلك ضرورة لاصدار شريعة موحدة تسرى على جميع انحاء المملكة الكبيرة الموحدة •

كتب حمورابى شريعته باللغة الاكدية (السامية) ورتبه ترتيبا متقنا فنيا وقد نقش تلك الشريعة على مسلة من الحجر الاسود **(حجر الديوريت)**

---

(١) نشرت فى : Clay, **Yale Oriental Series** I, 28.
حول المراجع الاخرى انظر : Miles & Driver, **The Babylonian Laws**

يبلغ ارتفاعها ثماني اقدام (٢٤٥ سم) وقطرها قدمين ، وقد نقش في اعلى المسلة صورة بالنحت البارز تمثل الاله الشمس (شمش) وهو اله العدل وهو على عرشه ويقف حمورابي بحضرته وقفة المتعبد الخاشع رمز تفويض الاله له وتسلمه الشرائع المقدسة من ذلك الاله (او انه بتفسير آخر يقدم شريعته الى ذلك الاله) • ويرجح كثيرا ان حمورابي قد وضع مسلة الشريعة هذه في عاصمته بابل في موضع مقدس منها لعله في « ايساكلا » معبد الاله مردوخ ليرجع اليها الناس[1] • وقد ظلت المسلة في بابل بعد حمورابي ازمانا طويلة ، وتوجد دلائل تشير الى ان المشتغلين بشؤون القانون والكتبة قد استنسخوا عنها كثيرا من المواد والنصوص ليستعملوها في اشتغالهم بشؤون القانون •

وجدت المسلة الاصلية بعثة فرنسية للتنقيبات في عام ١٩٠١ - ١٩٠٢ مطمورة في عاصمة بلاد عيلام وهي مدينة « السوس » ، فاحدث اكتشافها رجة حماس في جميع أنحاء العالم المتمدن وتناولتها بحوث الباحثين والمترجمين في اوربة وامريكة منذ اكتشافها حتى الوقت الحاضر • أما سبب وجودها في « السوس » في عيلام فذلك لان العيلاميين قد غزوا العراق في اواخر العهد الكشي (في حدود القرن الثاني عشر ق•م •) وقضوا على السلالة الكشية واخذوا من البلاد غنائم كثيرة ثمينة من بينها مسلة حمورابي ومسلة « مانشتوسو » الاكدي ، و « نصب النصر » العائد الى الملك الاكدي « نرام - سين » • وقد ازيل قسم مهم من الكتابة في الجزء الاسفل من وجه المسلة ، ويرجح ان الملك العيلامي « شوترك - ناخنتي » ، الذي سلب المسلة، هو الذي أحدث ذلك بقصد نقش اسمه والقابه في محل ما ازاله من الكتابة كما فعل في آثار أخرى عراقية وجدت مع مسلة حمورابي ، ولكنه لم يفعل

---

(١) يرجح كثيرا ان المسلة التي عثر عليها المنقبون الفرنسيون في مدينة السوس (في عيلام) قد أخذها العيلاميون من مدينة سبار حيث كانت مقامة هناك في معبد الاله الشمس الموجودة صورته في اعلى المسلة ، واذا صح وجود نسخة اخرى في بابل فلعل الاله المصور فيها هو مردوخ •

ذلك فى مسلة حمورابى لانه ، على ما يبدو ، قد ذعر وتهيب من اللعنات الشديدة التى ذكرها حمورابى فى خاتمة مسلته على كل من يبدل فى شريعته أو يزيل نصوصها • ولحسن الحظ اكمل قسم كبير من هذا النقص الخطير ، لانه وجدت اجزاء من نسخ للقانون فى أمكنة أخرى •

تتألف المسلة المنقوشة بشريعة حمورابى من ٤٤ حقلا او عمودا من الكتابة التى تنقسم الى ثلاثة اقسام : ١ ـ مقدمة[١] يذكر فيها حمورابى الاسباب التى دعته لاصدار شريعته وهى انتداب الآلهة له بعد تعظيم شأن مردوخ وانتداب هذا الاله له ليحكم البشر ومدينة بابل وينشر العدل بين الناس ثم يعدد فى المقدمة الاقاليم والمدن التابعة الى امبراطوريته وطرفا من اعماله كالرخاء الذى أحله بالبلاد وتجديده للمعابد الرئيسية فى المملكة • ٢ ـ المواد القانونية وعددها ٢٨٢ (ولعلها بالاصل ٣٠٠ مادة) • ٣ ـ خاتمة يذكر فيها حمورابى ان هذه هى « الاحكام العادلة التى أصدرها حمورابى الملك العظيم للبلاد فازدهر فيها العدل والحكم الصالح » ثم يسرد ألقابه وحب الآلهة له ، ويعلن لكل من أصابته ظلامة ان يمثل أمام صورة الملك العظيم ، ملك العدل ، فيقرأ شريعته ثم يسرد النصائح الى الاجيال الآتية ان تدبر احكامه وتقدر أعماله وتسير بموجب احكام شريعته العادلة ، ويعدد لعنات الآلهة الشديدة على كل من يحرف من شريعته او يزيل مسلته ويمحو أثرها •

فيبدو من تقسيم نصوص المسلة ان القسم الخاص بمواد الاحكام (وعددها ٢٨٢) موجز مختصر ، ولكنه مع ذلك قد شمل الاحكام المهمة ولعل ايجازه يعزى الى انه كان بمثابة دستور موجز للاحكام يتضمن الحالات المهمة وأن القضايا التى لم يتناولها كانت معروفة لدى القضاة ومدونة على رقم الطين بهيئة قوانين تفصيلية • ويشبه قانون حمورابى القانون المدنى الرومانى (Jus civile) من حيث تبويب مواضيعه حيث تنقسم المواد الـ ٢٨٢ الى ثلاثة أبواب ، اولا ـ القضاء والتقاضى (اصول المرافعات) (المادة ١ ـ ٥) ثانيا ـ

---

(١) المقدمة بالدرجة الاولى دينية ومكتوبة بلغة شعرية

قانون الاموال « المعاملات » « المادة ـ ٦ ـ ١٢٦ » ثالثا ـ الاحوال الشخصية أي قوانين الاسرة « ١٢٧ ـ ٢٨٢ »[(١)] . فلنأخذ نماذج من كل من هذه الابواب الثلاثة :ـ

نماذج من أحكام شريعة حمورابي :

المادة ٥ ـ « اذا قضى قاض في حكم وقرر فيه واصدر بذلك وثيقة ثم رجع من بعد ذلك عن حكمه وبدله ، فسوف يحاكم ذلك القاضي في الدعوى التي حكم فيها ويدان بذلك التغيير ، ويغرم غرامة تعادل ١٢ مثلا مما في تلك الدعوى . وسوف يطرد علنا من منصب « قضويته » ولن يرجع اليه ، وسوف لا يجلس في مجلس قضاء مع القضاة »

المادة ٨ ـ « اذا سرق رجل بقرا أو غنما أو حمارا أو خنزيرا أو قاربا سواء كان يعود الى الاله أو الى القصر فانه يعطى ثلاثين مرة قيمة المسروق واذا كان ذلك يعود الى « المشكينم » فانه يدفع عشرة أمثاله . واذا لم يكن عند السارق مال للتعويض فانه يقتل » .

---

(١) واتماما لفائدة المتتبعين نرتب احكام شريعة حمورابي بحسب تسلسلها على الوجه الآتي :ـ

١ ـ المخالفات والجرائم الخاصة باصول المرافعات (خمس مواد) ، وتتناول الشريعة في هذا الباب التهم الباطلة ، وشهادة الزور ، ونقض الاحكام الصادرة من جانب القضاة .

٢ ـ الجرائم الخاصة بالاموال (المادة ٦ ـ ٢٥) ، وتتناول الشريعة السرقات وتسلم مال مسروق واختطاف الاطفال وايواء الارقاء الآبقين والسطو على الدور ، والسرقات الاخرى بوجه عام ، ونهب بيت يحترق .

٣ ـ أحكام خاصة بالاراضي والعقار (الدور) (المواد ٢٦ ـ ٦٠)وفيها التزام الاراضي وواجبات الزراع والفلاحين ، والديون الخاصة بالفلاحين والجرائم والمخالفات الخاصة بالري ، والاضرار المتسببة عن الماشية ،وجرائم قطع الاشجار وشؤون العناية ببساتين النخيل .

٤ ـ المعاملات التجارية (٦١ ـ ١٢٦) : وتتناول الشريعة فيها القروض التجارية والوكالات التجارية (والشريعة هنا مخرومة ولكن امكن تكميلها من نسخ ألواح الطين)،وتنظم الفنادق والحانات ووسائل المواصلات، =

المادة ١٤ ـ « اذا سرق ـ اختطف ـ شخص ابن رجل صغير فانه يقتل » •

المادة ٤٨ ـ « اذا كان على شخص دين ، ثم أغرق الاله « أدد » حقله وأتلف حاصله ، او لم ينتج الحقل غلة لانتفاء الماء ، فسوف يعفى ذلك الشخص فى تلك السنة من تسليم حبوب الى صاحب دين عليه ، وسوف يغير عقده ولن يدفع ربا ـ فائض تلك السنة » •

المادة ٥٣ ـ « اذا أهمل شخص تقوية سداده ، فانفتحت ثغرة فى سداده فأتلف الماء حقلا مجاورا فسوف يعوض ذلك الشخص عن التلف الذى أصاب الغلة واذا لم يستطع دفع التعويض فسوف يباع هو وما يملكه ويقتسم ذلك الفلاحون الذين أتلف زرعهم الماء » •

المادة ١٢٧ ـ « اذا رفع شخص أصبعه فاشار بسوء الى كاهنة او الى امرأة رجل بدون ان يثبت التهمة ، فسوف يجلد ذلك الرجل أمام القضاة وسوف تجز ناصيته « أى يوسم عبدا »

المادة ١٢٨ ـ « اذا أخذ رجل امرأة ولكنه لم يكتب بذلك عقدا فلا تعد تلك المرأة زوجة شرعية » •

= والاحكام الخاصة بالرهونات (ومن ذلك اشخاص رهائن) عن الديون ، والودائع والامانات •

٥ ـ الاحوال الشخصية (١٢٧ ـ ١٩٤) ، وتتناول الاحكام الآتية : قذف كاهنة عليا أو امرأة محصنة بالزنا ، وتعريف الامرأة المتزوجة ، والزنا ، والزواج مرة أخرى فى حالة غياب الزوج ، وأحكام الطلاق (١٣٧ ـ ١٤٣) ، وتسرى الاماء ، واعالة زوجة المتوفى ، وهدايا الزوج الى زوجته ، ومسؤليات الزوجين عن الديون ، وقتل الزوج ، والزنا بالمحرمات ، وحالة الزواج غير الكامل ، وايلولة هدايا الزواج بعد موت الزوجة ، والهدايا (الهبات) الى الاولاد فى قيد الحياة ، وترتيب سهام الاولاد فى الوراثة ، وحرمان الاولاد من الارث ، والاعتراف الشرعى بالبنوة ، ومال الارملة ، وزواج الحرة بعبد رق وزواج الارملة ، وأحكام خاصة بنساء المعبد ، وتبنى الاطفال = وارضاعهم •

المادة ١٢٩ ـ « اذا قبض على زوجة رجل وهى مضاجعة رجلا آخر فسوف يكبلونهما ويرمونهما فى ماء النهر ولكن يستطيع زوج المرأة ان يستحى امرأته (اى يعفو عنها ويبقيها حية) والملك عبده » .

المادة ١٩٦ ، ١٩٧ ـ « اذا أتلف رجل حر عين رجل آخر حر فتلف عينه ، واذا كسر عظمه فيكسر عظمه »

المادة ٢١٥ ـ « اذا أجرى طبيب لرجل حر عملية بمبضع برونزوشفاه أو انه اجرى له عملية في رأسه وشفى عينى الرجل فسوف يتسلم أجـرة قدرها عشرة « شقيلات » من الفضة » .

المادة ٢١٨ ـ « اذا عالج طبيب رجلا واجرى له عملية لجرح بمبضع برونز وسبب موت الرجل او انه اجرى عملية فى عينه فاتلف عينه فانهم يقطعون يده » .

المادة ٢٢٤ ـ « اذا عالج بيطرى (طبيب ثور او حمار) ثورا او حمارا فشفاه فيدفع صاحب الثور أو الحمار الى البيطار أجرة قدرها ⅙ الشـــقل من الفضة » .

= ٦ ـ اعتداءات وعقوبات (٢١٥ ـ ٢١٤) ، وتتناول الاعتداء على الاب ، وعلى الرجال ، والاسقاط .

٧ ـ ذوو المهن الطبية ومهن أخرى (٢١٥ ـ ٢٤٠) وتتناول الاحـكام الخاصة بالجراحين والبياطرة الجراحـــين والحلاقـين والواسـمين بالكى ، والمعمارين وبنائى السفن والملاحة .

٨ ـ شؤون زراعية متنوعة (٢٤١ ـ ٢٧٣) ، وفيها أحكام متفرقة خاصة بحيوانات المزارع كالبقر ، وتبديل العلف وغشه من جانب المأمور ، وتأجير فلاح ، وتبديل الآلات الزراعية وغشها ، وتأجير الرعاة وواجبـات الرعاة ، وتأجير الحيوانات والعربات وتأجير عمال فى المزارع .

٩ ـ الاجور والاسعار (٢٧٤ ـ ٢٧٧) ، وفيها أجور الصناع ،واسعار اجارة السفن .

١٠ ـ الرق (٢٧٨ ـ ٢٨٢) ، وتتناول الضمانات الخاصة ببيع الرق وشرائه من الخارج .

ملاحظات عامة عن قانون حمورابي

لقد مضى على تقنين شريعة حمورابي ما يزيد على اربعة آلاف عام وذلك قبل ان يقنن الامبراطور الروماني « جستنيان » القانون الروماني المدني بنحو الفين وخمسمائة عام ، وهذا يوضح لنا بجلاء ان ما نعزوه الى الرومان من مقدرة في الانجازات الفقهية القانونية في تأريخ الحضارات البشرية قد سبق أن شارك فيها سكان العراق الاقدمون قبل الرومان بألفي عام ، وقبل ان يصدر قانون نابليون المدني بنحو اربعة آلاف عام . وعلى الرغم من مضي ما يقرب من نصف قرن على اكتشاف شريعة حمورابي فانها لا تزال موضوع بحث العلماء في جامعات الغرب ومعاهده العلمية حيث يعدونها بحق « من أهم المآثر التي خلفها الجنس البشري واحدى المعالم البارزة في تاريخه» . وأهمية هذه الشريعة ذات نواح وأوجه كثيرة ، فيدرسها علماء القانون ومؤرخو القانون ويوازنون في أحكامها وأحكام الشرائع الاخرى لاستنباط المبادىء والاصول القانونية التي انتظمت بموجبها المجتمعات البشرية منذ أن تحضر الانسان . ويبحث فيها علماء الاجتماع ليقفوا على تطورات المجتمعات ونظمها الاجتماعية والاقتصادية ، ويدرسها علماء اللغة ليفهموا اسرارا مهمة عن اللغة البابلية . وتصور لنا شريعة حمورابي بوجه خاص والشرائع السابقة تصويرا باهرا الناحية القانونية من العبقرية البشرية ، ووجه من أهم وجوه تلك العبقرية الذي لا يستغنى عنه في بناء اية حضارة راقية[١]

واذا تعذر علينا البحث في تلك النواحي والاوجه المختلفة فاننا نأخذ أبرز ما فيها فنكون منه فكرة عامة عن ناحية مهمة من حضارات وادي الرافدين . فأول شيء يجلب انتباهنا في شريعة حمورابي والشرائع التي سبقتها ، هو فن التأليف والصياغة القانونية فيها مما ألمحنا اليه سابقا ، فقد

G. Sarton, **History of Science,** ch. III, 87.

كتبت بصيغ قانونية دقيقة بهيئة مواد تتسلسل وتتابع بحسب الاحكام التى تعالجهـــا .

وقد يدهش الباحث بان يجد في شريعة حمورابى بعض المبــادىء القانونية التى توجد فى اكثر الشرائع البشرية الحديثة ، فنجد مثلا بوجـه واضح المبدأ القانونى الذى يعبر عنه الفقهاء بالقوة القاهرة أو مبدأ الحوادث الطارئة[1] . وفحواه ان الملتزم لا يعفى من تنفيذ التزامه الا اذا أصبح تنفيذ هذا الالتزام مستحيلا بقوة قاهرة اى بحدوث شىء غير متوقع يجعل تنفيـذ الالتزام مستحيلا . وقد نصت المادة الثامنة والاربعون من قانون حمورابى على هذا المبدأ (أنظر المادة فى ص ٢٩٥) والمقصود بالاله « أدد » المذكور فى تلك المادة فيضان أو غرق ذو قوة قاهرة لا حيلة للمدين بدفعها ، لانذلك الاله هو اله الزوابع والامطار والعواصف كما مر بنا فى مبحث الديانة . وتشير المادة الثالثة والخمسون (راجعها فى ص ٢٩٥) الى مبدأ آخر مشهور فى أصول القوانين وهو الذى يعبر عنه بمبدأ عدم جواز التعسف فىاستعمال الحق الفردى .

وتشبه شريعة حمورابى الشريعة الاسلامية والعبرانيـــة[2] وبعض الشرائع الاخرى من ناحية القصاص أى مبدأ « السن بالسن والعين بالعين » (lextalionis) والى هذا فقد يجدالمتتبع لشريعة حمورابى جملةمتناقضات كما ان بعض أحكامها يشك فى انها كانت سارية المفعول وانما ذكرت لمجرد الناحية الفقهية التأريخية ، وبوسعنا أن نعزو بعض المتناقضات فيها الىحقيقة ان حمورابى قد أصدر شريعته الى شعب مركب معقد ، على الرغم من انه كان موحدا فى الظاهر ، فكان مضطرا الى التوفيق بين مآثر قانونية متباينة ، ولكن برغم كل ذلك وعلى الرغـم من وجود بعض الاحكـام البدائية مثـل الرغبة البدائية فى انزال العقاب الشديد الدقيق ، ومبدأ اختلاف العقوبات

---

(١) او بالفرنسية Force majeure

(٢) (سفر الخروج ٢١ : ٢٣ـ٢٥)

بالنسبة الى مراكز المجنى عليهم الاجتماعية ـ نقول برغم كل ذلك فان الملك حمورابى (او مستشاره القانونى) قد قام بعمله خير قيام • ولا تزال شريعة حمورابى ، كما قلنا ، احدى المعالم البارزة فى التأريخ البشرى[1] • ومن الامثلة الطريفة على ذلك الاحكام التى وردت فى تنظيم مهنة الاطباء والجراحين ، حيث حددت اجورهم بالنسبة الى المرضى من الطبقات المختلفة من المجتمع ، وقد رأينا فى المواد التى انتخبناها من شريعة حمورابى أن الشريعة فرضت عقوبات قصاصية فى حالة فشلهم ، ولا سيما فى القيام بالعمليات الجراحية التى تؤدى الى اتلاف عضو من المريض أو موته وعند ذلك تقطع يد الطبيب والجراح • وهذه حقا أحكام غريبة لو طبقت بالحرف الواحد لفقد جميع الاطباء أيديهم ، ولما بقى طبيب حتى فى وقتنا هذا وله يد يشفى بها الناس أو يميتهم ، ويكون تفسير هذه المواد أن أحكامها لا تطبق الا بعد المحاكمة الدقيقة واثبات البينة على الاهمال والتقصير من جانب الطبيب •

القوانين الآشورية :

لقد جاءتنا نماذج من القوانين التى كانت تنظم أحوال المجتمع الاشورى • ومما يقال عن هذه القوانين أنها مجموعة مواد أى أجزاء لعلها تعود الى قانون كامل لم يأتنا بعد • وبوسعنا ان نقسم هذه النماذج من حيث زمنها الى مجموعتين تشتمل المجموعة الاولى على ما يسمى بالقوانين الاشورية القديمة وهى اجزاء غير كاملة وترجع الى العهد الاشورى القديم من اواخر الالف الثالث ق • م • وقد رأى بعض الباحثين فى هذه القوانين الاشورية القديمة انها لم تكن خاصة ببلاد اشور وانما تعود الى مستعمرة تجارية اشورية تكونت فى آسية الصغرى فى وسط الاناضول هى «كول تبه» وان الاشوريين الذين عاشوا هناك ظلوا مرتبطين بموطنهم الاصلى من الوجهة الثقافية فقد استعملوا طريقة التقويم الاشورى والطريقة العشرية فى العدد واستعملوا الموازين والمكاييل الاشورية • ومن الصعب تحليل المواد القليلة التى جاءتنا لانها غير

---

[1] Sarton, **History of Science,** ch. III, 88.

كاملة فلم يستقر الرأى على ترجمتها ترجمة اكيدة ، ويظهر ان اكثر ما جاء فيها يتعلق بنظام المحاكم واصول المرافعات ولا سيما فى تنظيم الشـؤون التجـارية •

اما المجموعة الثانية فهى تعرف عند الباحثين باسم القوانين الاشورية المتوسطة[١] ، وقد عثر عليها مدونة فى جملة الواح من الطين فى التنقيبات التى اجراها الالمان فى آشور ١٩٠٣ ـ ١٩١٤ ، وقد امكن تاريخها بوجه التقريب بين ١٤٥٠ و١٣٥٠ ق • م • فهى بذلك تعود الى العهد الاشورى الوسيط ، وقد جاءتنا مصادر أخرى عن القانون الاشورى من الوثائـق والمستندات القانونية التى وجدت كذلك فى آشور • وتشبه لغة القـوانين الاشورية المتوسطة لغة السجلات الملكية التأريخية ولكنها غفل من اى اشارة أو دلالة الى معرفة مقننها او مشرعها ، وانما يستنتج منها ان احكامها كانت سارية فى مدينة اشور وما يجاورها من المدن ، ومما يقال فيها بوجه العموم انها لا تؤلف فى الحال الذى جاءتنا فيه قانونا كاملا أو وحدة قانونية مثـل قانون حمورابى ، والمواد التى فيها لا يتمم بعضها بعضا ، وقد خصص جزء كبير من المواد للاحكام الخاصة بالمرأة والاحوال الشخصية ويتعلق قسم كبير منها بالجنايات والعقوبات الخاصة فى هذا الموضوع ، ويرى بعض الباحثين ان مواد القانون الاشورى فى أصلها لم تكن سوى قرارات أو أقضية سابقة صدرت بخصوص قضايا معينة فدونت وصيغت بهيئة مواد قانونية •ويذهب البعض الى ان مواد القانون الاشورى تفسيرات لمواد قانون آخر لم يصلنا بعد ، وهو اما أن يكون قانونا اشوريا مسـتقلا أو أنه قانون حمـورابى بالذات •

ومع التشابه بين القوانين الاشورية والبابلية فى بعض النواحى فان الاولى تختلف عن الثانية فى أحكامها • ولعل ابرز ما تمتاز به القـوانين

---

(١) حول القوانين الاشورية انظر المرجع الآتى :ـ
Driver and Miles, **The Assyrian Laws.**

الاشورية القسوة والشدة بالنسبة الى العقوبات ، وان الاشوريين بوجه عام لم يعنوا عناية البابليين بأمور الشرائع والقوانين المدونة ، ومما لا شك فيه ان كان في المجتمع الاشوري عرف قانوني يسار عليه كان بمثابة القوانين المدونة ، ولكن الاشوريين لم يهتموا بالناحية الفقهية ولم يعنوا بالبحث في الشرائع وتدوينها كما فعل البابليون .

المحاكم والقضاة(١) :ـ

١ ـ ان ما نعرفه عن المحاكم واصول المحاكمات في العراق القديم امور قليلة لا تكفي لتزويدنا بصورة مفصلة كاملة عن الاحوال القضائية في حضارات وادي الرافدين واول ما نذكر من الامور البارزة في الموضوع أن الملك كان «ينبوع العدالة»[٢] والشريعة في البلاد، كما يتضح ذلك جليا من مآثر ملوك العراق القديم وبوجه خاص كما يتضح ذلك من رسائل حمورابي التي كان يرسلها الى عمال ولاياته لتنظيم شؤون المملكة ، **ومن بين ذلك شؤون القضاء ، فهي** بذلك ، كما سبق ان المحنا ، مثل المنشورات القضائية الرومانية ، وكان باستطاعة الملك ان يعالج شؤون المجرمين اداريا ويصدر بحقهم العقاب ، ولكن المعتاد ان الملك كان يفضل احالة قضايا المحاكمة الى ولاته في الاقاليم أو الى محكمة خاصة ، وكانت قرارات الملك أو قرارات من ينيبهم عنه قطعية . ومع ذلك فكان بامكان الناس تقديم استدعاء الى الملك للنظر في شكاويهم ولا سيما في حالة انعدام العدالة[٣] ورفض المحاكمة ، ولدينا شواهد على قضيتين تدخل فيهما «حمورابي» ، لانه تعطل النظر فيهما من جانب

---

(١) راجع أحسن بحث في الموضوع واحدثه في المرجع الآتي ـ

Driver & Miles, **The Babylonian Laws,** I, (1952) 490 ff.

(٢) وبالمصطلح الفقهي اللاتيني (fons justitiae)

(٣) لقد سبق أن ذكرنا في كلامنا على الديانة (السلوك والاخلاق) تطور مفهوم العدالة بمختلف العصور ، فكانت فكرة العدالة في العصور القديمة فضلا يتفضل به الآلهة أو السلطة على الناس ، ولكن اصبحت في زمن حمورابي حقا من حقوق الرعية .

المحكمة مدة طويلة ، وفي حالة ثالثة نجده يحيل قضية خاصة الى محكمة محلية . هذا وقد سبق أن رأينا في كلامنا على العهد الاكدي كيف ان سرجون مؤسس السلالة الاكدية، قد أوجد محكمة للاستئناف بصورة عملية على رأسها الملك، بادخال اسم الملك في القسم الموجود في العقود ، وتوضح هذا النوع من المحاكم في عهد حمورابي ، ولكن ذلك لا يعني وجود محكمة عليا للاستئناف بصورة منتظمة دائمية ، تستأنف لها الدعاوى أو تميز بعد صدور الاحكام فيها من المحاكم الواطئة الدرجات ، وانما الاكثر ان سلطة تأليفها كان بيد الملك حيث يؤلفها في قضايا خاصة (على غرار المحكمة العليا في العراق الحديث) . ومما يظهر لنا كون الملك هو السلطة العليا في القضاء والعدل ان المادة (١٢٩) من شريعة حمورابي تجعل من حق الملك الابقاء على حياة الزاني اذا عفى الزوج عن زوجته الزانية .

٢ ـ ومما نعرفه عن القضاة ان القاضي[١] كان اقرب ما يكون الى المحترف أو المتمهن اكثر منه ان يكون موظفا خاصا ، وكثيرا ما كان القضاة يذكرون بهيئة جمع او جماعة مما يبدو ان كانوا بهيئة نقابة[٢] ، وهناك اشارات اخرى الى ذكر قاض وهو يترأس عدة قضاة بهيئة رئيس للمحكمة وتشير النصوص البابلية الى انه كان يوجد جملة اصناف من القضاة وصنف يطلق عليهم اسم «قضاة معبد الاله شمش»[٣] ، وقضاة الاديرة الخاصة بالكهان والكاهنات ، والى هذين الصنفين من القضاة الخاصين بالمعابد بالدرجة الاولى كان هناك قضاة مدنيون وكان هؤلاء اما قضاة محليين فيسمون باسماء المدن الخاصين بها مثل قضاة بابل وسبار وبورسبا الخ او قضاة خاصين بالملك (ديانو شاريم) . واحتمال ان اصل طبقة القضاة جميعهم من طبقة الكهنة

---

(١) واسمه بالبابلية (ديانم) (daiyanum) وبالسومرية (ديكو (DI-KU)

(٢) وبمصطلح اللغة الانجليزية القانوني (bench, college)

(٣) وبالبابلية (ديانو شابيت شمش)

احتمال قريب من الصحة بالنظر لما نعرفه من ان طبقة الكهنة كانت اثقف طبقة في المجتمع ، وبيدها أسرار المعرفة • ويدلنا الاحصاء على انه كان هناك انتقال تدريجي من القضاة الكهنة الى القضاة المدنيين (العلمانيين) ،ولاسيما في العهد البابلي القديم ، وبوجه ملحوظ في عهد سلالة بابل الاولى ، وبلغ هذا الانتقال طورا فاصلا في عهد حمورابي • ولكن مما يجب التنبيه عليه انه لم يكن يوجد لكل من الصنفين من القضاة شريعة دينية كهنوتية وشريعة علمانيـــة •

٣ ـ وبوسعنا اعتبار المعبد انه كان بمثابة محكمة ، يجلس فيها القضاة الكهنة وغير الكهنة ، لملائمة بناء المعبد من جهة ، ولان جزءا من اصـــول المرافعات يتعلق بالقسم في داخل المعبد ، وبالاضافة الى محكمة المعبد فقـد وردت الينا جملة انواع من المحاكم ، ولكن يصعب علينا تعيين وظيفة كل منها • فيذكر « القصر » في شريعة حمورابي وفي الشرائع الاشورية على ان نوعا من المحاكمة كانت تجرى هناك سواء كانت في العاصمة ، حيث الملك أو في المدن الاخرى حيث الولاة يتولون القضاء عن الملك • وورد فيشريعة حمورابي ذكر مجلس خاص (بوخروم) وان العقوبات كانت توقع فيه كماوردت اشارات أيضا الى اسم خاص بالمحكمة بهيئة «بيت القضاء أو الحكم» (بيت دينم) وفي وثيقــة تذكر اســم « بيت قضاء البلاد » (بيت دين ماتم) ، وتذكر بعض الوثائق ان « بوابة المدينة » كانت من المواضع التي يجلس فيها القضاة للتقــاضي [1] ، كما ان «شيوخ المدينة» (المشيخة ـ «شيبوت آلم») كانوا يجلسون مع القضاة ، ولعل ذلك بصفتهم محلفين وفي حالات اخرى تجد « شيوخ المدينة » يجلسون وحدهم للتقاضي **أو مع عمدة المدينـة (رئيس** البلدية « رابيا نوم ») ، وذكر هذا الموظف مرة واحدة في شريعة حمورابي حيث يكون هو ومدينته مسؤلين عن السرقات التي تقع في مناطقهم ، ونجد

---

(١) قارن ذلك بما كان عند العبرانيين ايضا (سفر التثنية ٢١:١٩، ٢٢ : ١٥)

فى حالات أخرى ان « نقابة التجار » (كاروم) تكون وحدها او مع قضاة خاصين محاكم خاصة •

والى صنف القضاة نعرف أن عددا كبيرا من الموظفين المتنوعين كانوا تابعين الى المحاكم ، ولكن ماهية وظائف اغلبهم غير معروفة بوجه التأكيد ، ولم يذكر منهم فى الشرائع الا القليلين ، فمن هؤلاء المبلغون (ريدى بابتم) ، وسعاة خاصون بالقضاة ومبلغون والحلاق والجراح (لجز الشعر وتعليم العبيد أى وسمهم) والمسجل (أو حافظ السجلات) أو كاتب الضبط (مار گادوبم) • هذا ولا نعلم بوجه التأكيد الى اى مدى كانت السلطة الرسمية تقوم بتنفيذ قرارات المحاكم ، كما لا نعرف بالادلة المباشرة وجود شرطة أو مدع عام او جلاد رسمى • ولكن هناك موظف خاص ورد اسمه فى شريعة حمورابى باسم « ريدوم » كان على ما يرجح مسؤلا عن احضار المجرمين ولعله مسؤل عن التنفيذ • وفى حالات وردت فى شريعة حمورابى يستدل منها أن تنفيذ العقوبة كان يترك الى الجهة المعتدى عليها ولكن بحضور القضاة أو الموظفين الرسميين ليراقبوا وجوب عدم تعدى حدود العقوبة التى حكموا بها (انظر المادة ٢٠٢ من شريعة حمورابى) • ومن المحتمل ان رابح القضية فى دعوى حقوقية كان له الحق فى حجز المحكوم عليه او مسك شخصه (فى بعض الحالات) والاحتفاظ به كرهينة بهيئة رق حتى يؤدى بالعمل ما حكم عليه فى المحكمة •والجدير بالمقارنة ان المدعى فى اثينة (فى اليونان) اذا نجح فى دعواه كان هو الذى ينفذ قرار المحكمة ضمن مدة تحددها المحكمة للمدعى عليه الخاسر •

وهناك جملة أنواع من العقوبات وردت فى شرائع العراق القديم ولكن الملاحظ التزام شريعة حمورابى لمبدأ القصاص ، واخذ الشرائع الاخرى بمبدأ الديات والتعويض المالى • ومن العقوبات الواضحة عقوبة الموت وقد وردت فى اكثر الحالات فى شريعة حمورابى بصيغة المبنى للمجهول (يقتل) وفى خمس حالات فقط بصيغة الجمع « يقتلونه » فيلزم

ان يكون لذلك مدلول خاص فى كلتا الحالتين ، ولكن الملاحظ ان كلتا الصيغتين لا تعين من هو الذى ينفذ عقوبة القتل ، ولا سبيل لنا الا الحدس فى ان السلطة الرسمية هى التى كانت تنفذ هذه العقوبة فى أغلب الحالات. ومن العقوبات الاخرى عقوبة الموت بالاغراق فى الماء ، وتتعلق هذه بحالات الزنا والزنا بالمحارم • وفى حالة قيام صاحبة الحانة بغش شرابها • ومن العقوبات العجيبة الواردة فى شريعة حمورابى ان الذى يذهب ويتظاهر فى اخماد نار تشب فى بيت فيسرق من أثاث البيت فانه يرمى فى نار الحريق نفسها[1]، وفرضت عقوبة الحرق على الزانى بالمحرمات ولا سيما مع الام بعد موت الاب[2] • ومن العقوبات الصارمة التى ورد ذكرها فى شريعة حمورابى فى حالة واحدة هى عقوبة « الوضع على الخازوق » فى حالة قتل الزوجة زوجها من أجل رجل آخر (المادة ١٥٣) ، وفى القوانين الاشورية وردت هذه العقوبة فى اكثر من حالة واحدة •

ومما يلاحظ بوجه عام ان قانون القصاص يطغى على العرف البابلى السامى وقد بلغ فى بعض الحالات الواردة فى قانون حمورابى حد التطرف مثل قتل ابن المعمار الذى يبنى بيتا فيسقط ويقتل ابن صاحب البيت ، كما ان القصاص الواقع على الاعضاء كان يلاحظ فيه القصاص بالمقابلة بالمثل ، ولكن المرجح كثيرا ان هذه العقوبات انما ذكرت كحقوق للمجنى عليهم اذ كان بوسعهم التنازل عنها مقابل التعويض والدية ، ومن العقوبات العجيبة عقوبة النفى ولا سيما للزانى بابنته (المادة ١٥٤ من شريعة حمورابى) • وقد نصت

---

(١) يشير ظاهر الحكم الى انه لم تكن لتجرى محاكمة على الشخص واذا كانت هناك نوع من المحاكمة فاشبه ما تكون بمحكمة الجمهور او محكمة الشارع على غرار ما يجرى فى أمريكة بالنسبة الى الزنوج المعتدين على النساء البيض مما يعرف بعقوبة (Lynch - Law)

(٢) توجد عقوبة مماثلة فى الشريعة العبرانية فى حرق الرجل الذى يجمع فى زواجه بين الام وبنتها فى آن واحد حيث يحرق وتحرق المرأتان أيضا (سفر اللاويين ٢٠ : ١٤) وتحرق ابنة الكاهن التى تصير بغيا (سفر اللاويين ٢١ ـ ٩)

شريعة حمورابى على ان الاب لا يستطيع حرمان الابن من الارث الا بعد محاكمته واثبات اعتدائه على ابيه • ونختم كلامنا على العقوبات بذكرعقوبات دفع الغرامات المفروضة فى حالة عدم القيام بتنفيذ الالتزامات ، ، والملاحظ ان الغرامات كانت تفرض اضعافا مضاعفة ولا سيما فى حالة التعويض عن الشيء المسروق ، فاذا كانت السرقة من المعبد او القصر فالغرامة تكون ٣٠ مرة بقدر المال المسروق وعشرة امثاله اذا كانت السرقة من أفراد الطبقة الوسطى ولكن هناك حالات أخرى لا تتضاعف فيها الغرامة المالية مثل دفع الفلاح اجر المثل (بحسب الحقول المجاورة) فى حالة عدم دفعه اجار الحقل الذى استأجره •

العلوم والمعارف

الفصل الخامس عشر

المعارف اللغوية والتأريخية والجغرافية

مقدمة في الكتابة المسمارية :

لقد مر بنا فيما سبق ان الكتابة بدأت في حضارة وادي الرافدين في الاطوار الاخيرة من العصور التي سميناها بعصور ما قبل السلالات . وقد جاءنا أبسط نوع من الكتابة أي من بداية اختراعها ، من النصف الثاني من عصر الوركاء في حدود ٣٥٠٠ ق . م . وتعد هذه الكتابة اول كتابة في تأريخ الحضارات البشرية . فكانت ، وهي في أولى مراحلها ، بهيئة صور للاشياء المراد تدوينها ، وهذا ما يعرف بالطور الصوري (Pictographic) ومما لا شك فيه ان اختراع الكتابة قد استلزمه تطور الحضارة ونشوء الحياة الحضرية في أواخر عصور ما قبل السلالات ، كالحاجة الى تدوين الورادات وضبط الحياة الاقتصادية ويرجح كثيرا ان لادارة المعابد التي رأينا ظهورها منذ عصر العبيد ٤٠٠٠ ق م دخلا في اختراع وسيلة للتدوين . فالواقع ان أقدم الواح مكتوبة من الطين من عصر الوركاء قد جاءتنا من المعابد التي عثر عليها في مدينة الوركاء من ذلك العهد وهي سجلات بسيطة لاملاك المعبد ووارداته وقد ظهرت الكتابة بابسط اشكالها في الطبقة الرابعة من الوركاء وكانت في أولى اطوارها مؤلفة من علامات صورية كثيرة ، نحو (٢٠٠٠) علامة ، ولكن اختزلت واختصرت بمرور الازمان ، حتى انه اصبح عددها في عهد

جمدة نصر زهاء ٦٠٠ علامة[١] ، وقد استطاع الكتبة الاقدمون أن يدونوا بهذه الكتابة الصورية الاشياء المادية وذلك برسم صور موجزة لها ولكن يعسر التعبير عن المعاني المجردة بالطريقة الصورية المحضة . فاهتدوا بعد نشوء الكتابة الى ابتكار الطريقة الرمزية اي طريقة التعبير عن الافكار والمعاني المجردة بالصور بان يرسموا الصورة المادية بهيئة مختصرة ولا يريدون بها صورة الشيء المادي وانما المعاني والافكار المشتقة منه أو المتعلقة به ، فمثلا أصبحت صورة القدم ، بحسب الطريقة الرمزية ، لا تستخدم لتدوين القدم او الرجل بل للتعبير عن المعاني المتعلقة بعضو القدم مثل القيام والمشي والوقوف والدخول والخروج ، وصارت صورة الشمس لا تعني جرم الشمس وانما المعاني المشتقة منها كالحرارة والضوء واليوم الخ ، وصورة الفم وداخلها شيء تعني « أكل » ، وهكذا . وبجمع الطريقة الصورية المحضة والطريقة الرمزية صار بالامكان التعبير عن معان وجمل كثيرة ولكن مع ذلك ظلت الكتابة ناقصة لا يمكن التعبير بها عن المعاني المضبوطة لاحتمال التفسيرات وقرائنها وتأويلها بحسب القراء ، نخطى القوم خطوة أخرى وهي الاصطلاح على ما تقوم له تلك الصور وتحديد المعاني للصور المختلفة ولكن مع ذلك بقي من المستحيل على الكتبة أن يعبروا بالطريقة الرمزية وحدها عن الآراء المجردة كالصدق والامانة وعن الالوان الخ كما انه يتعذر كتابة أسماء الاعلام أو الاشخاص فدعت الحاجة لتلافي هذا النقص الى تطور أو تحسن جديد هو استخدام أصوات الاشياء المادية المكتوبة بالصور لكتابة الكلمات المختلفة وهذه هي الطريقة الصوتية فاستخدم السومريون الاوائل الصور واصواتها لا لتدل على الاشياء المادية التي تمثلها تلك الصور ، كما في المرحلة الصورية ولا على الآراء والافكار

---

(١) انظر احدث البحوث في علم الكتابة واشكالها ولا سيما الكتابات المستعملة في الحضارات القديمة في المرجع الآتي :-

I.J. Gelb, **A Study of Writing** (1952).

المشتقة منها ، كما فى المرحلة الرمزية ، بل لاستخدامها فى كتابة الكلمـــات والجمـل على هيئـــة أصوات وبجمع عـــدة أصوات يكون كل منهـــا مقطعا وليس حرفا لانهم لم يصلوا الى الطور الهجائى أى استخدام الحروف الهجائية • فاذا ارادوا مثلا ان يكتبوا اسم شخص مثل « كوراكا » فانهم يرسمون صورة مختصرة للجبل لان لفظ الجبل باللغة السومرية « كور » ثم يرسمون بجنبها صورة مختصرة من خطين تمثل موجات الماء للتعبير عن صوت (آ) وهو الماء باللغة الســـومرية ثم صورة مختصـــرة للفم الذى يلفظ باللغة السومرية « كا » فيحصلون بذلك على كتابة كلمة « كور ـ آ ـ كا » • ولقد وصل العراقيون الاقدمون الى هذا الطور من الكتابة فى الدور الذى أعقب دور الوركاء ، اى أنهم اهتدوا الى الطور الصوتى فى الـــكتابة فى دور « جمدة نصر » فى حدود ٣٢٠٠ ق • م واستمرت الكتابة بالتطور والتحسن حتى استطاعوا ان يدونوا بها جميع شؤون الحياة المختلفة •

والى هذا التطور فى الكتابة فقد طرأت عليها تغييرات وتطورات كثيرة أخرى منها انه بعد أن ابتعد الخط المسمارى عن الطور الصورى ودخل فى الطور الصوتى وأصبحت الغاية من الصور ليس التعبير عن الاشياء المـــادية التى تعبر عنها تلك الصور بل أصوات الاشياء التى تمثلها كما ذكرنا لم يهتم الكتبة فى ضبط رسم تلك الصور بل اختصروا فى أشكالها كثيرا وبمرور الزمان بعد الشبه بين أشكالها واشكال الاشياء التى كانت تمثلها ، ودخلت فى الكتابة علامات اصطلح عليها للتعبير عن أصوات خاصة كما انهـم ركبوا عدة علامات للتعبير عن معان وأصوات مركبة ، وقد أحدثت طبيعة المادة التى كتبوا عليها وهى الطين بالدرجة الاولى تغييرات أخرى فى شكل الكتابة اذ يصعب رسم الخطوط المنحنية على الطين ، وباستخدامهم قلما مثلثا أصبحت العلامات تنتهى بما يشبه المسامير ومن هنا منشأ اسم كتابة العراق القـــديم أى الكتابة المسمارية • واتخذوا وضعيات محدودة للمسامير ، المسامير الافقية والعمودية والمائلة ومسمار بهيئة رأس السهم • وبجمع عدة خطوط من هذه

URUK	JEMDET-NASR	EARLY DYNASTIC	AKKADIAN	UR III	EARLY BAB.	KASSITE	LATE ASSYRIAN	NEO-BAB.		PHONETIC SUMERIAN	IDEOGRAPHIC ASSYRIAN	MEANING	
										SAG	REŠU - AMELU - ARDU - ARDATU - PUTU - ELU	HEAD, BEGINNING - MAN - SLAVE (M) - SLAVE (F) - FAÇADE - TO RISE	
										ŠU	QATU - BILTU	HAND - TRIBUTE	
										DA	IDU - ITA	ARM - BESIDE	
										DU GIN RA TUM GUB	ALAKU - WAŠABU - NAZAZU	TO GO - TO DWELL - TO STAND	
										GÜ GUD GÄR	ALPU - QARRADU - HARÂBU	OX - STRONG, WARRIOR - TO DESTROY	
										UR ZUR	KALBU - NAKRU	DOG - ENEMY - HELPER FRIEND	
										HU P/BAG	IŠŠURU ÉSURU (ŠAKIM ŠA IŠŠURI)	SPARROW BIRD TRAP CAGE	
										HA KU LU	NÛNU LU	FISH VERILY	
										DUG KURUM	KARPATU DAMU	POT RED WINE BLOOD	
										APIN URU	EPINNU ERESU	PLOUGH - TO PLOUGH TO PLANT	
										EN	BELUM - ŠARRU - QALU	LORD KING TO SAY	
										AN DINGIR	ŠAMU ELU ILU ILTU	HEAVEN HIGH GOD GODDESS	

صورة تمثل نشوء الخط المسمارى وتطوره

المسامير كانوا يكتبون العلامات المسمارية المختلفة التى بلغت زهاء الـ ٦٠٠ علامة وقد استعمل من هذه الـ (٦٠٠) علامة نحو ١٠٠–١٥٠ علامة استعمالا صوتيا صرفا أى بهيئة مقاطع صوتية ، والباقى من العلامات اقتصر فى استعماله على الطريقة الرمزية أى ان العلامة الواحدة كانت تقوم مقام كلمة[١] ، وبوجه الاجمال كان الخط المسمارى خليطا بين الطريقة الصوتية المقطعية وبين الطريقة الرمزية . ومما يجدر ذكره بهذا الصدد ان الكتابة الهيروغليفية المصرية لم تخضع الى مثل تلك التغييرات والتطورات بل حافظت على اشكالها الصورية الى نهاية الحضارة المصرية تقريبا .

ونتجت هذه التطورات فى الكتابة المسمارية ان اصبحت طريقة اصطلاحية لا يمكن للانسان ان يعرفها اذا لم يكن قد درسها من قبل ، والواقع ان الحاجة الى تعلم الكتابة وضبط العلامات قد بدأت منذ أقدم العصور ، منذ عصر جمدة نصر وعصر فجر السلالات فقد جاءتنا اثبات بالعلامات المسمارية وقيمها الصوتية ومعانيها وتكون هذه الاثبات على ذلك أقدم معاجم عند البشر . واشتدت الحاجة الى درس فن الخط وتعليمه ودرس اللغة فى الازمان التالية ولا سيما عند الاكديين الساميين الذين اعتمدوا كثيرا على الحضارة السومرية فاحتاجوا الى معرفة لغة الادب والعلم أى اللغة السومرية وكذلك احتاج السومريون الى مثل ذلك بالنسبة للغة الاكدية ، ويرجح كثيرا ان السومريين هم الذين اخترعوا الكتابة . وقد انتشر الخط المسمارى من بلاد الرافدين الى اقطار كثيرة من الشرق الادنى فاتخذه الحثيون والعيلاميون واستعمل فى جهات سورية واقتبسه الميتانيون والحوريون والفرس الاخمينيون وقد استخدمت بعض هذه الاقوام مثل الحثيين لغات العراق القديم الى جانب الخط المسمارى . فقد اشتق عن الخط المسمارى السومرى الخط الاكدى والبابلى والاشورى ، واخذ من الخط الاكدى الخط الحورى والحثى فى حدود الالف الثانى ق . م ، واشتق من الخط السومرى الخط العيلامى

---

(١) وتسمى مثل هذه العلامة (ideogram) أو (logogram)

المسمارى بعد ان بطل استعمال الخط العيلامى القديم الصورى ، ومما يقال فى الكتابة المسمارية انها على الرغم من التقلبات السياسية ظلت مستعملة الى زمن ظهور المسيح تقريبا •

المدارس(١) ودور السجلات وخزانات الكتب :ـ

وقبل ان نذكر شيئا عن المؤلفات والمعاجم اللغوية التى خلفها لنا سكان العراق الاقدمون نذكر كلمة موجزة عن المعاهد التى كانوا يتلقون فيها المعرفة والعلوم • ومما يقال فى هذا الصدد ان المآثر التى خلفها لنا القوم من اشارات كتابية ومن آثار ابنية تشير الى وجود المدارس عندهم وكانت المعابد بوجه خاص معاهد للدرس والبحث عندهم منذ اقدم عصور التاريخ، وقد جائتنا أنواع من التمارين وما يتعلق بالتعليم منذ عصور فجر السلالات • ووجدت نماذج لمدارس التعليم فى الازمنة المتأخرة فى خرائب بعض المدن ولا سيما نفر وسبار وغيرها من المدن عدا المدارس الخاصة بالمعابد •والظاهر ان المدارس كانت خصوصية أى لم تكن عمومية تحت اشراف الحكومة والدولة كما انه لما يعثر على بناية ذات تخطيط خاص متميز بحيث يمكننا تعيينها بانها بناية مدرسة ، ولكن أى بناية (حتى بيوت السكنى) يمكن اتخاذها لتكون مدرسة • ولعل أول شيء كان يتعلمه الطلاب الخط أى الكتابة المسمارية وكانوا يتدرجون فيها لانها من المعارف الصعبة لا سيما وانه يتعلق بالكتابة معانى اللغة ونحوها ومفرداتها ، وكان عليهم أن يتعلموا لغتين ، وهى اللغة البابلية السامية واللغة السومرية، فكان التخصص فى مثل هذه الامور يحتاج الى زمن طويل ولاسيما اذا أراد الطالب أن يكون من الكتبة المتظلعين •وفيما عدا الكتابة واللغة كان التعليم العالى يشمل المعارف الرياضية والموسيقى والفلك والطب وشؤون القانون وكانت هذه على الاكثر فروعا للاختصاص يتفرغ لها جماعة خاصة من المتعلمين ، وكانوا يتلقون مثل هذه الدروس العالية فى

---

(١) يوجد بحث مهم نشره الاستاذ كرامر بعنوان :

The Sumerian School. A Pre-Greek System of Education in **Studies Presented to** David Moore Robinson (1952).

معاهد خاصة ، وكانت لهم بيوت ومؤسسات خاصة للبحث العالى بوسعنا ان نترجمها بدور العلم او الحكمة (وفى البابلية «بيت ـ مومى») مما يقابل الاكاديمية•ومن المؤسسات العالية الخاصة بالجمع والتأليف خزانات الكتب (ويسمونها بيت الالواح أو الرقم « اى ـ دبا » بالسومرية) ودور المجلات لحفظ الوثائق وكان للمعابد الشهيرة مؤسسات مثل هذه ملحقة بها وكذلك كان لقصور الملوك ، مثل خزانة الكتب الملكية الشهيرة التى وجدت فى قصر الملك الاشورى «أشور بانيبال» وقد عثر فيها المنقبون على مئات الالوف من ألواح الطين بجميع أصناف المعرفة والسجلات والوثائق التاريخية المهمة • ويرجع الفضل الى هذه المكتبة فى معرفتنا بنواح مهمة من حضارة العراق القديم وتاريخه اذ ان هذا الملك قد جمع مكتبته من مختلف المدن البابلية وجمع النصوص القديمة واستنسخ كثيرا منها وأودعها فى مكتبته ، ومن الجدير بالذكر ان النتائج التى حصلت عليها مديرية الآثار العراقية من تنقيباتها فى تل حرمل أظهرت على ان هذا الموضع القريب من بغداد كان موضعا لحفظ الوثائق والتأليف والنقل أو كان بمثابة مدرسة •فقد اقتصرت الآثار التىوجدت فيه على ألواح الطينالمكتوبة(وقدبلغ عددها زهاء ٣٠٠٠لوح)وهى تحتوىعلى أصناف غيرمألوفةفى المواضع القديمة الاعتيادية ، اذ دونت بشتى صنوف المعرفة كالالواح الرياضية (انظر الكلام على الرياضيات) والمؤلفات فى أسماء النباتوالحيوان والاحجار والمؤلفات اللغوية ، والشرائع مما لا يدع مجالا للشك فى ان تل حرمل (واسمهالقديم على ما يرجح شادوبم) كان معظم سكانه من الكتبة المتطلعين بالعلوم والمعارف التى وصلت اليها حضارات العراق القديم فى العهد البابلى القديم ، وهوالعهد الذى نوهنا باهميته من حيث نضج العلوم والمعارف فيه وتدوينها بعد انكانت فى العصور القديمة يتداولها الناس بهيئة معارف عملية •

وقبل ان نترك الكلام على الواح الطين والكتابة فى العراق القديم نذكر بعض الامور المفيدة الاخرى ، ومن ذلك صلاح الطين ومطاوعته الى

الخط المسمارى ، كما ان ألواح الطين لو تركت لشأنها فهى غير قابلة للتلف بوجه عملى[١] ، وان ضرورة المحافظة على بعض الوثائق المهمة وضمان عدم التلاعب بها قد دعتهم الى صنع ظروف (أو غلف) من الطين لحفظ الالواح فيها ، ولما كان الطين يتقلص عند جفافه فلا يمكن فك الوثيقة ونزعها من غلافها بدون كسره ، كما انه لا يمكن وضع غلاف جديد على لوح جاف • وكان الطين لا يطاوع التفنن فى الخط كما كان الحال فى ورق البردى فى حضارة مصر ، وكانت اغلبية الواح الطين صغيرة الحجم ، لان مادة الطين لا تساعد ان تكون حجومهـــا كبيرة ، ولذلك كانوا يكتبون النصوص المطولة على سطوح اشكال مجسمة من الطين كالمناشير والاساطين • واثرت مادة الكتابة المتخذة فى الخط المسمارى اثرا آخر فى حضارة وادى الرافدين ، من ناحية ظهور النصوص المطولة أو ما يصح ان نسميه بالكتاب ، فان المصريين القدماء قد ساعدتهم مادة الكتابة على أن يوجدوا درج البردى (لفات البردى) وكانت هذه بمثابة « الكتاب » اما سكان وادى الرافدين فمع استطاعتهم تدوين نصوص مطولة على اشكال كبيرة مجسمة من الطين او على قطع حجر كبيرة مثل مسلة حمورابى ، الا أن ذلك لا يمكن ان يكون بمثابة الكتاب • فكان النص المطول ، اذا أريد تدوينه فى الالواح ، فانه يدون على ألواح كثيرة منفصلة ، ولكى يضمنوا تسلسلها كانوا يدونون اسفل كل لوح عبارة «لوح كذا من سلسلة كذا » ويضيفون مطلع السطر الاول من اللوح التالى ، ولكن مع ذلك فانه لم يكن من الممكن المحافظة على الالواح الكثيرة التى تؤلف نصا واحدا ، بل تبعثرت وتشتت ، حتى ان بعض الالواح يوجد منها كسرة واحدة فى متحف وكسرة أخرى فى متحف آخر • ولعل انتفاء ما يضاهى « الكتاب » فى حضارة وادى الرافدين قد دعاهم الى انشاء دور خاصـــة بالسجلات وخزانات الالواح فى أزمان قديمة جدا •

---

(١) وللمقارنة بمادة ورق البردى الذى اســتعملته حضارة وادى النيل نقول ان البردى غير صالح للحفظ زمنا طويلا ، وان سبب بقائه انما كان بسبب جفاف مناخ مصر •

المؤلفات والمعاجم اللغوية :

نشأ التأليف اللغوى فى العراق القديم منذ أقدم العهود ، فقد سبق أن ذكرنا أن من جملة الدوافع الى ذلك صعوبة الخط المسمارى واللغات المختلفة المدونة فى ذلك الخط وحاجة الكتبة والمتعلمين الى اتقان فنون الكتابة واللغة ، ولعل أقدم المؤلفات اللغوية هى الاثبات والجداول اللغوية التى جاءتنا من عهد جمدة نصروعصر فجر السلالات ، وكثرت وتنوعت فى العصور التالية • وكان من بين المؤلفات التى يصح أن نعدها لغوية وبيولوجية أيضا اثبات مطولة باسماء الحيوان والنبات والمعادن والاحجار • وعندما تفرد الساميون بالسيطرة السياسية منذ العصر الاكدى وبعد زوال سلالة اور الثالثة كثرت المؤلفات اللغوية والنقل والترجمة لحاجة القوم لفهم اللغة السومرية وترجمة نصوصها ، فنشأت معاجم من اللغة السومرية الى اللغة البابلية (السامية) اما لشرح المفردات بما يقابلها من السامية أو ترجمة الجمل والمصطلحات السومرية ، واستمرت هذه المؤلفات اللغوية الى العهود المتأخرة• وقد سبق أن ذكرنا أن الحركة الى التأليف والترجمة والنقل قد اشتدت منذ العهد البابلى القديم ، وقد شاهدنا كذلك تقنين الشرائع المهمة وتدوينها فى ذلك العهد •

وكان اول ما يبدأ به المتعلم كما ذكرنا التعرف على العلامات المسمارية المألوفة فألفوا فى ذلك اثباتا كثيرة فى العلامات المسمارية وبجانبها الايسر لفظ العلامات وفى الجانب الايمن اسم العلامة • والفوا كذلك معاجم اخرى لتدوين معانى العلامات عندما تستخدم بصورة رمزية اى تدل على معانى مختلفة ثم معاجم بمعانى العلامات فى السومرية وما يقابل ذلك باللغةالبابلية• وقد سبق ان اشرنا الى المؤلفات اللغوية ـ البيولوجية وهى جداول مفصلة يتضمن بعضها شرح التعابير والمصطلحات الفقهية المستعملة فى الوثائق والعقود القانونية وكذلك سجلات باسماء الاشياء والمواد المختلفة كاسماء الحيوان والنبات والادوات المصنوعة من المواد المختلفة كالخشب والقصب

وأسماء الاشجار المثمرة وأجزائها وتاجها[١]•والف البابليون والاشوريون معاجم باللغة البابلية ، وهي من قبيل كتب النحو اذ تحتوى على تصـريف المفردات ومرادفاتها وتراكيبها النحوية وخصصوا قسما من هذا النوع لاسماء الابنية والعمارات • واستخدم البابليون كذلك طريقة الشروح والهوامش وذلك بوضع تفاسير للمواطن الغامضة بين السطور بخط دقيق • وقد جاءتنا من ذلك نماذج طريفة من مكتبة الملك الاشورى « اشور بانيبال » •

حل رموز الخط المسمارى :

ظل الخط المسمارى معروفا فى العراق حتى بداية التاريخ الميلادى ، وقد بدأ قبل هذا التاريخ بعدة قرون الخط الارامى المكتوب بحروف هجائية يحل محله لسهولة تعلمه وقلة الحروف الموجودة فيه ولانتشار اللغة الارامية فى التجارة والمراسلات ، فبطل استعمال الخط المسمارى ولم يعد احد يعرفه وبقى الحال كذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر للميـلاد حيث بدأت المحاولات الاولى لحل رموز الخط المسمارى •

أما كيفية تعرف الاوربيين بهذا الخط واهتمامهم به فترجع بدايتها الى ما قبل القرن التاسع عشر حيث زار الشرق كثير من السياح الاوربيين الذين وصفوا أحواله ومدنه الدارسة ونقل بعضهم عددا من ألواح الحجر المكتوبة ورقم الطين وقد ظنوا كتابتها بادىء الامر نوعا من الزخرفة • الا ان بعض الباحثين منهم اخذ يشك فى أمر تلك الرموز وذهب هذا البعض الى انها نوع من الكتابة فازداد بذلك اهتمامهم بها وقصدوا الشرق لجمع نماذج اخرى منها وعكفوا على تفهمها وحل رموزها وبعد جهود سنين عرفوا سرها شيئا فشيئا بهيئة خطوات • نلخصها كما يأتى :ـ

اول ما عرفوا منها انها كتابة وليست زخرفة وانها تكتب من اليسار الى اليمين وانها ليست هجائية بل بهيئة مقاطع وكما حلت الكتابة الهيروغليفية المصرية من قراءة حجر رشيد المنقوش بثلاث لغات نصها واحد ولكنها مكتوبة

(١) انظر المراجع المذكورة فى البحث الخاص بشرائع العراق القديم



صورة تبين كيفية رسم العلامات المسمارية بقلم مثلث ، ويشاهد
فى الصورة كذلك طبعة ختم اسطوانى على لوح الطين

بالهيروغليفية كذلك وجد السياح آثارا مهمة في برسيبوليس (عاصمة الفرس الاخمينيين قرب دزفول الحالية) دون على بعضها بالخط المسماري اخبار (دارا) بثلاث لغات احداها ترجمة الاخرى وهي اللغة الفارسية القديمة واللغة العيلامية واللغة البابلية • وقد استنسخها بعض السياح ونقلها الى اوربة حيث اصبحت في متناول ايدي الباحثين فعكف على درسها « كروتفند » المدرس في احدى جامعات المانية سنة (١٨٠٣) وقد اهتم باحدى الكتابات الثلاث وهي الفارسية لان خطها كان أقل تعقدا حيث ظهر انه مكون من علامات مسمارية تشبه الحروف الهجائية لا يتجاوز عددها الخمسين حرفا في حين ان اللغتين الاخريين العيلامية والبابلية مدونتان بالمقاطع والرموز وقد استطاع ان يقرأ اسم الملك دارا وابنه احشويرش وعرف مفردات أخرى من هذه اللغة الفارسية ، فشق بذلك الطريق للباحثين الآخرين وفي مقدمتهم « هنري رولنصن » العالم الانكليزي الذي درس الكتابات المسمارية المنقوشة على نصب آخر هو الاثر المعروف بحجر «بهستون» الواقع بالقرب من كرمنشاه حيث دون فيه الملك دارا أعماله وفتوحاته باللغات الثلاث الآنفة الذكر أي اللغة الفارسية واللغة العيلامية واللغة البابلية وقد استطاع «رولنصن» بدراسته هذه النقوش ان يكمل العمل الذي بدأ فيه « كروتفند » بقراءته الفارسية القديمة أولا وبالاستعانة بها توصل الى حل رموز اللغة البابلية فعرف منها مفردات أخرى وقسما من علاماتها ، وقد شاركه في **هذا العمل** العالم الارلندي (هكنس) ثم تابعت بحوث العلماء في أقطار اخرى وازدادت المعرفة باللغة البابلية وبعلاماتها وفي عام **١٨٥٧** أصبح موضوع قراءة اللغة البابلية والاشورية علما مضبوطا حتى أنه جرى شبه امتحان للعلماء في ذلك الحقل بان قدمت لهم نسخ من كتابة واحدة فترجمها كل عالم على انفراد وعندما نشرت ترجماتهم في « المجلة الآسيوية الملكية » كانت متطابقة في معناها وبذلك اطمأن العالم الى صحة الطريقة التي اتبعت في حل الرموز[١] ومن ثم

---

(١) حول كيفية حل رموز الخط المسماري راجع :—
W. Budge, **Rise and Progress of Assyriology**

كثرت البحوث والدراسات فأخذ علم الاشوريات وهو معرفة قراءة الكتابات المسمارية ونحوها وقواعدها يتسع ويزداد دقة حتى أصبح الآن يدرس فى الجامعات المشهورة مثلما تدرس اللغات الشرقية المعروفة، ومما ساعد على معرفة اللغة البابلية وسرع فى خطوات فهمها انها واللغات السامية الاخرى مثل العربية والعبرية من اصل واحد أى من عائلة واحدة حيث تتشابه فى نحوها وفى مفرداتها فامكن بالموازنة والمقايسة مع بعض تلك اللغات ولا سيما العربية والعبرية معرفة كثير من مفردات اللغة البابلية وتركيب جملها •

اما اللغة السومرية فلم تكن من اللغات السامية بل لغة السومريين الذين ينسب اليهم اختراع الخط المسمارى • وقد تأخرت معرفة لغتهم بعد حل الخط المسمارى زمنا ولكن العلماء فى أثناء قرآءتهم للكتابات المسمارية كانوا يجدون بين حين وآخر مفردات لغة غريبة جديدة لا تشبه اللغة البابلية التى كانوا يدرسونها فحاروا فى أمر هذه اللغة الغريبة وسموها فى بادىء الامر باللغة الاكدية فخصصوا جهودهم لمعرفة اسرارها فاخذت تتوضح شيئا فشيئا ومن حسن الحظ ان بعض الكتابات المسمارية التى وجدها المنقبون فى مدن العراق القديم كانت بمثابة معاجم لشرح مفردات هذه اللغة باللغة البابلية السامية • وبعضها كان بهيئة ترجمات لكتابات سومرية باللغة البابلية كما ذكرنا فيماسبق، ولما كانت اللغة البابلية قد عرفت فساعد ذلك على فهم نحو اللغة السومرية ومفرداتها حتى أصبحت معرفتها الان لا تقل عن اللغة البابلية •

التاريخ والتدوين التاريخى :

سيقتصر بحثنا فى التأريخ فى حضارات العراق القديم على طرق تدوين الحوادث وهو ما سميناه بالتدوين التأريخى[١] دون الاصول والقواعد المتبعة فى علم التأريخ وهى النقد والتفسير الى غير ذلك مما مر بنا فى منهج البحث التأريخى • وهذه أمور لم يعرفها المؤرخون الاقدمون فى العراق وغير العراق بل هى بوجه الاجمال من معارف البشر الحديثة • والواقع من الامر ان مفهوم

(١) انظر الفصل الاول حول طرق التدوين الشائعة عند المؤرخين

التأريخ بصفته علما من الآراء الحديثة في تاريخ الانسان •

ولكي نفهم طرق التدوين عند مؤرخي العراق القديم ينبغي لنا ان نبدأ بطرق التقويم[1] عندهم لانها على ماسنرى صارت مصادر لمدوني التأريخ، ويستند التقويم الى طريقة تأريخ الحوادث • ولم يكن عند البابليين والاشوريين عهد ثابت يؤرخون منه (مثل ميلاد المسيح والهجرة) ، وانما كانوا ، مثل العرب قبل اتخاذهم عهد الهجرة النبوية ، يؤرخون بالحوادث المهمة ، فيؤرخون السنة من حادثة مشهورة وقعت في السنة السابقة ، فتتخذ هذه الحادثة لتأريخ جميع المعاملات والسجلات والوقائع مما يقع في السنة التالية • وقد يعمد ملوكهم في حالة عدم اتخاذ حادثة من السنة السابقة الى تقرير الحادثة بعد انتخابها من بين الحوادث الواقعة في أول السنة الجديدة ، فيعمم هذا التأريخ الجديد الى جميع الاقاليم ، كما كان يفعل الملك الشهير حمورابي • وقد ابتدأت طريقة التأريخ من الحوادث المشهورة في العراق منذ أقدم أزمان التأريخ وبقيت الى نهاية سلالة حمورابي (في نهاية القرن السابع عشر ق • م) حيث عدلوا عنها الى طريقة أخرى وهي تأريخ الحوادث بالنسبة الى سني حكم الملوك • واستمرت هذه الطريقة عندهم حتى نهاية بابل (عام ٥٣٨ ق • م) وظلت في الاستعمال في العهود التي أعقبت سقوط بابل ، كالعهد الاخميني وعهد الاسكندر والعهد السلوقي • واتخذ الاشوريون طريقة أخرى في تاريخ الحوادث وتقويمها وذلك بتسمية السنين باعاظم رجال الدولة ، ابتداء من الملك ، فيسمون كل عهد من ذلك بالدورة أو العهد وباللسان الاشوري «لمو» فيؤرخون بالنسبة اليها •

وقد الف الكتبة اثباتا بالحوادث المؤرخ بها ، حيث جمعوا حوادث كل ملك أو أكثر من ملك في ثبت خاص متسلسل ابتداء من تبوئه العرش ، وكذلك جمعوا اثباتا من طريقة التاريخ الاشوري وخلفوا لنا من كلا النوعين نماذج كثيرة • فتكون هـــذه الاثبـــات أولى محـــاولات في التدوين

---

(١) (Chronology) ، وسنذكر أشياء أخرى عن التقويم والاشهر في كلامنا على الفلك •

التأريخي • وقد أضاف جامعو اثبات العهود الدورية ، بحسب الطريقة الاشورية ، ملاحظات تاريخية مهمة • اذ انهم اعتادوا ان يذكروا ، على نحو نظام الحوليات في العصور الوسطى ، بعض الحوادث والتعليقات مما حدث في السنة الخاصة ، من ذلك ذكر حادثة مهمة وهي كسوف الشمس الذي تبين بالحساب الفلكي الدقيق انه حدث بالضبط في **١٥** حزيران عام **٧٦٣** ق م • وقد سبق ان ذكرنا كيف ان المؤرخين في العصر الحاضر استعانوا بهذه الحادثة فاتخذوها أساسا ليس في ضبط التاريخ الاشوري بالنسبة الى الميلاد بل كذلك في ضبط تاريخ العراق القديم وتأريخ الشرق الادنى • وقد اتخذ المؤرخون القدماء هذه الاثبات مصدرا مهما لتدوين تاريخ ملوكهم وسلالات الملوك المختلفة ، التي يجوز ان نطلق عليه اسم التاريخ الرسمي • وهي اثبات الملوك والسلالات التي تستند في مصدرها بالدرجة الاولى الى سجلات أو اثبات الحوادث المؤرخ بها ، لان الكاتب يستطيع بواسطتها ان يعرف عدد السنين التي حكمها الملك ثم عدد السنين التي حكمتها سلالة هذا الملك وبجمع كل ذلك يكون عندهم ، ما دعوناه سابقا باثبات الملوك والسلالات وهي تدون ملوك كل سلالة وعدد سني كل ملك منهم ، ثم مجموع سني السلالة والمدينة التي كانت عاصمة لها ، ثم تذكر السلالات الاخرى على هذا الطراز • وقد خلفوا لنا من هذه الاثبات نماذج مهمة ، من بينها جداول مطولة باسماء السلالات وملوكها التي حكمت في العراق مما قبل الطوفان ومنذ الخليقة حتى زمن تأليفها ولعل ذلك كان في بداية سلالة أور الثالثة[١] وقد جروا في هذه الاثبات المطولة على تقسيم تأريخ البلاد الى عهدين ، التأريخ القديم ويبدأ عندهم منذ الخليقة الى ما بعد حدوث الطوفان ، والتأريخ الحديث ويبدأ عندهم مما بعد الطوفان •

ولم يقتصر جامعو اثبات السلالات ، لحسن الحظ ، على ذكر الملوك وسني حكمهم ، وانما كانوا يضيفون ، بين الحين والحين الآخر ، تعليقات

---

(١) انظر
Jacobsen, **The Sumerian King - List** (1939).

وحوادث مهمة مفيدة • فنجد المؤلف مثلا يضيف حاشية بعد السلالة الاكدية فيقول «قضى على مملكة الوركاء بالسيف ، فانتقلت الملوكية منها الى (اكد) فصار فى اكد سرجون ملكا وحكم ٥٦ سنة • وهو الذى (اى سرجون) تبناه فلاح وصار ساقيا للملك «اور ـ البابا» ملك بلاد اكد • وقد بنى سرجون مدينة أكد • وحكم مانشتوسو الاخ الاكبر لرموش وابن سرجون ١٥ سنة الخ» ومن الطريف فى أمر ذلك المؤلف ماسبق ان ذكرناه من انه بعد أن ينهى الكلام على السلالة الاكدية ، وقبل أن يذكر العهد المظلم الذى أعقب السلالة الاكدية، يسأل ساخرا « من هو الملك ومن هو غير الملك ؟ » مشيرا بذلك الى عهد الفوضى السياسية التى حلت فى البلاد بعد السلالة الاكدية فى العهد الكوتى •

وخلف لنا الاشوريون كذلك اثباتا باسماء ملوكهم وابتدع مؤرخوهم نوعا خاصا بأن يقسموا الثبت الى حقلين، يذكر فى الحقل الاول الملك البابلى وفى الحقل الثانى الملك الآشورى الذى حكم فى زمنه • مثال :ـ

	١ ـ ننورتا ـ توكلتى ـ أشور
نبو ـ كدورى ـ أوصر	٢ ـ موتكل ـ نسكو
(وهو نبوخذ نصر الاول)	٣ ـ اشور ـ ريش ـ ايشى

أى ان الملك البابلى نبوخذ نصر الاول قد عاصره من الملوك الاشوريين ثلاثة ملوك وهم المذكورون فى الحقل الايسر •

والى اثبات الملوك والسلالات خلف لنا البابليون والاكديون نماذج أخرى من طرق التدوين التاريخى ، يصح ان نطلق عليها بوجه عام اسم « النقوش والكتابات التاريخية » التى خصصت بالدرجة الاولى الى تدوين مآثر الملوك والامراء الذين شغفوا بتخليد اعمالهم وحروبهم واخبار أبنيتهم الى غير ذلك من المآثر التى دونوها على الحجر والانصاب والتماثيل وألواح الطين • وقد بدأت هذه السجلات منذ فجر التاريخ (منذ بداية الالف الثالث ق • م) وجاءتنا من ذلك نماذج كثيرة متنوعة ، تعد بعد نقدها ، من مصادرنا الاساسية فى معرفة التاريخ القديم • وقد ابتدع مدونو التاريخ

الآشوريون شكلا طريفا من الكتابات التأريخية الحربية ، فكانوا يعنونون أخبار حملة الملك بهيئة رسالة يرسلها الملك الى كبير الآلهة . فنجد في اخبار الملك الاشوري « سرجون الثاني ٧٢١ - ٧٠٥ق . م » مثلا ان الملك بعد أن يحي الاله آشور على طريقة ديباجة الرسائل ويحي الآلهة الاخرى ، ويحي المدينة وسكانها ويسأل عن سلامة الجميع ، يبدأ بتفصيل أخبار حملته الحربية الثامنة في نحو ٤٢٥ سطرا يفصل فيها غزوته الى بحيرة «وان» وبحيرة أورمية في بلاد الارمن ذاكرا قهره البلدان الواقعة هناك ودكه حصونهـــا وحصوله على الجزية الى غير ذلك من شؤون هذه الحملة . ومما لا شك فيه انه كان يصحب الملوك في غزواتهم مؤرخون رسميون لتدوين اخبارتلك الحملات الرسمية ، كما جرى عليه بعض الملوك المتأخرين مثل الاسكندر الكبير والامبراطور الروماني جوليان .

ومن الكتابات التاريخية التي خلفها لنا مدونو التأريخ من الاشوريين نظام الحوليات (annals) التي تعد ذات قيمة تأريخية لما تحويه من الاخبار التاريخية المهمة وقد رتبوا الحوليات على السنين ، اما بترتيب سني الملوك أو بترتيب نظام التاريخ الدوري « اللمو » (طريقة تاريخ السنة بحسب عهود كبار رجال الدولة ابتداء من الملك) . واذا جمعنا الحوليات الخاصة بكل ملك فيكون لدينا تاريخ ثمين للدولة الآشورية على الرغم مما فيه مـــن فترات . وقد امدتنا بعض هذه الحوليات بمعلومات ثمينة عن جغرافية الشرق القديم وخطط بلدانه لانها تذكر بالاسهاب وبالترتيب المواضع والمراحـــل التي يمر فيها الملوك يوما بعد يوم في غزواتهم وحملاتهم الحربية ، واشهرهذه الحوليات بالنسبة الى المعلومات الجغرافية حوليات الملك « توكلتي ننورتا » الثاني (٨٩٠ - ٨٨٤ ق . م) والملك « أدد - نراري » الثاني ٩١١-٨٩١ ق . م والملك «أشور - ناصربال» الثـاني ٨٨٣ - ٨٥٩ ق . م وقد وردت معلومات ثمينة في حوليات شيلمنصر الثالث ٨٥٨-٨٢٤ ق.م الموجزة المدونة في مسلة الحجر المشهورة التي نقشت بأخبار واحد وثلاثين عاما من حكمـه ولا سيما فتوحاته في انحاء الشرق القديم .

واختص الكتبة الاشوريون بنوع آخر من السجلات التأريخية يجوز ان نسميها « سجلات الدعاية » • وهي تدون اعمال الملوك الحربية بالدرجة الاولى على (الصفاح) أي ألواح الحجر المبنية بها جدران القصور الملكيـة وكذلك على المناشير ورقم الطين • ومما تمتاز بها هذه السجلات التأريخية أنه لم يراع فيها التسلسل التأريخي وانما رتبت بحسب التسلسل الجغرافي للمواضع والاقاليم التي غزتها جيوش الملوك • وكان الغرض منها العرض في قصور الملوك ليقرأها المعاصرون والمتأخرون فيمجدوا الملوك لما قاموا به من أعمال سامية •

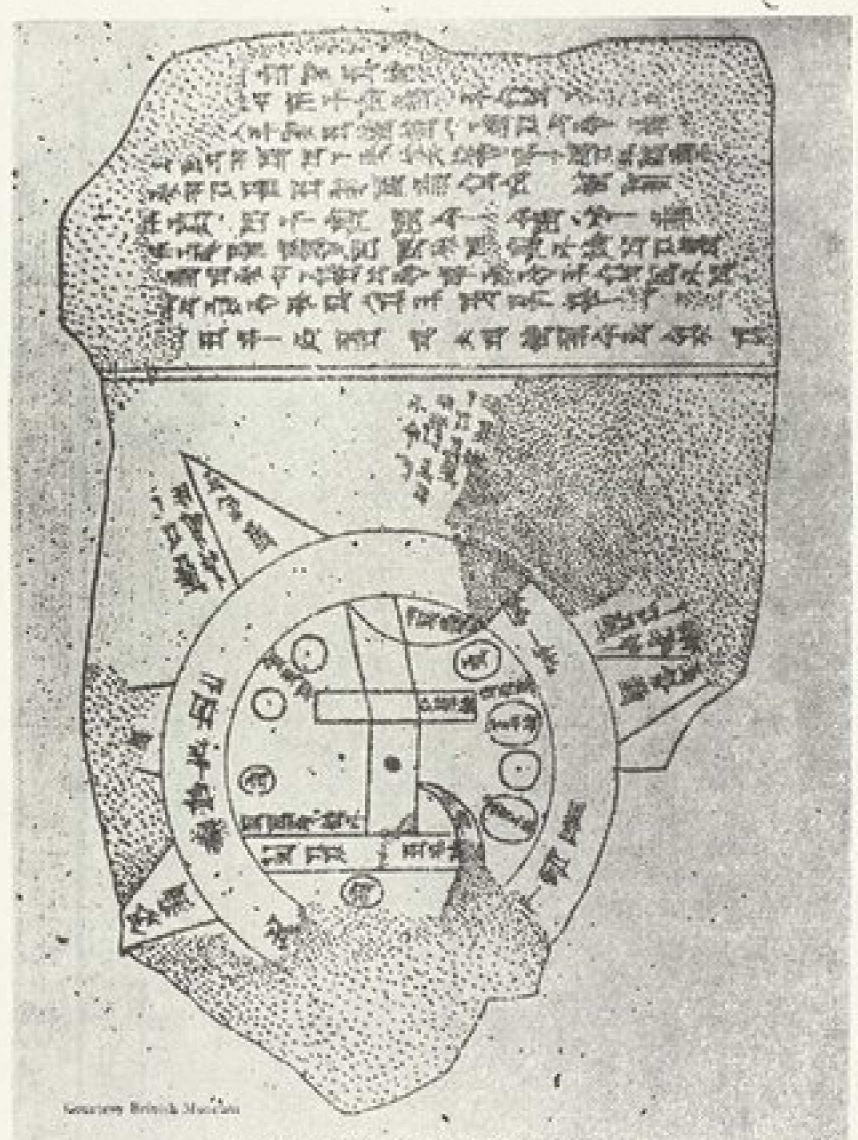
واذا كان البابليون لم يخلفوا لنا مثل الاشوريين السجلات التأريخيـة بحروب الملوك ، فانهم كتبوا بدلا منها « التاريخ (Chronicles) **التي** امتازت على الكتابات التأريخية الاشورية بكونها أقرب الى طرق التدوين التأريخي الحاضرة ، وأفدنا منها فوائد جليلة عن تأريخ البابليين والبلاد المجاورة وهي بوجه الاجمال تواريخ بالمعنى الصحيح ، اذ أن المؤرخين الذين كتبوا فيها لم يقتصروا على الحوادث المعاصرة وانما بحثوا في حوادث الماضي في بلادهم ودونوها • ولا نستطيع أن نبت على وجه التأكيد بالزمن الذي نشأت فيه هذه الطريقة في تدوين التاريخ ولكنها جاءت الينا بكثرة من الزمن البابلي المتأخر (٦٢٥ ـ ٤٠٠ ق • م •) ومع ذلك فان مؤرخي هذا العصر قد كتبوا في تأريخ العصور الماضية ومن جملة ذلك أخبار الدولة الاكدية التي سبقت زمانهم بنحو الفي عام • وكذلك ارخوا اخبار العلاقات بين بلاد بابل واشور وتعرضوا لذكر المعاهدات بين ملوك البلدين في تسوية الحدود • والفوا في التأريخ البابلي تأليفا بالغ الاهمية يشتمل على الحوادث التأريخية في بـلاد بابل واشور وعيلام من زمن الملك الاشوري «اشور بانيبال» ويرقى حتى زمن الملك البابلي « نبو ناصر » « ٨٧٤ ـ ٧٣٥ ق • م • » وجاءتنا منه نسخة من زمن الملك الفارسي الاخميني دارا الاول • ومن أمثلة هذه التواريخ جزء من تأريخ الف في بداية العهد البابلي المتأخر يدون طرفا من الحروب التي أدت الى سقوط نينوى على أيدي الماديين والكلدانيين • واستمر هذا النوع

من التأليف الى زمن الاسكندر والعهد السلوقى • وقد اشتهر هذا العهد بالمؤرخ البابلى الشهير « برعوشا » (Berossus) الذى كتب تأريخ البلاد باللغة الاغريقية فى القرن الثالث ق • م • ، وقد فقد الاصل ولكن حفظت مقتبسات منه فى المصادر اليونانية •

الجغرافية :ـ

نشأت عند سكان وادى الرافدين الاقدمين بداية ما نسميه علم البلدان والجغرافية وكان أهل المعرفة فى تلك الحضارة مولعين بالتفكر فى الكون ومركز بلادهم وموقعها منه ، وبالنسبة للبلدان الاخرى • ومما يقال عن فكرة البابليين لما فى هذه الارض أنهم تصوروا الارض وما فيها صورة أو نسخة لما فى السماء ، فالفرات ودجلة وجميع الارض والبلدان وحتى المعابد صور ثانية لاصول موجودة فى السماء • وتصوروا الارض بهيئة نصف كرة مقلوبة أو قبة طافية فى المحيط (أو قفة مقلوبة) ، وتعلو الارض السماء وهى بثلاث طبقات أو سبع طبقات وهى كذلك بهيئة القبة وتقوم السماء كالبيت فوق أساس موضعه فى هذا الافق الذى نراه ،ودعوا القسم العلوى من السماء بالمركز أو « كبد السماء » واعلى نقطة فيه هو السمت ويحيط بالسماء البحر أو المحيط السماوى • وقسموا الارض الى ثلاث مناطق ، المنطقة العليا هى الظاهرة التى يسكن فيها البشر ، والارض الوسطى ، موضع المياه ومنطقة اله المياه « ايا » ويلى ذلك الارض السفلى التى فيها موضع أرواح الموتى • وقد جاء فى مآثر أخرى تقسيم كل من السماء والارض الى سبع مناطق • وقسموا الارض الى اربعة قطاعات او أركان أو أربع جهات أصلية تقابل كل جهة قطرا عظيما من الاقطار وتسمى باسمه ، فالجنوب بلاد عيلام والشمال بلاد اكد والشرق بلاد « السوباريين والكوتيين » (الاشوريين) والغرب بلاد الاموريين « أى جهات سورية » •

وقد اتسعت معلومات العراقيين الاقدمين عن جغرافية الشرق القديم منذ أقدم الازمان بالتجارة والفتوح الخارجية والاسفار وقد عرفوا أجزاء



DRAWING OF A CUNEIFORM TABLET

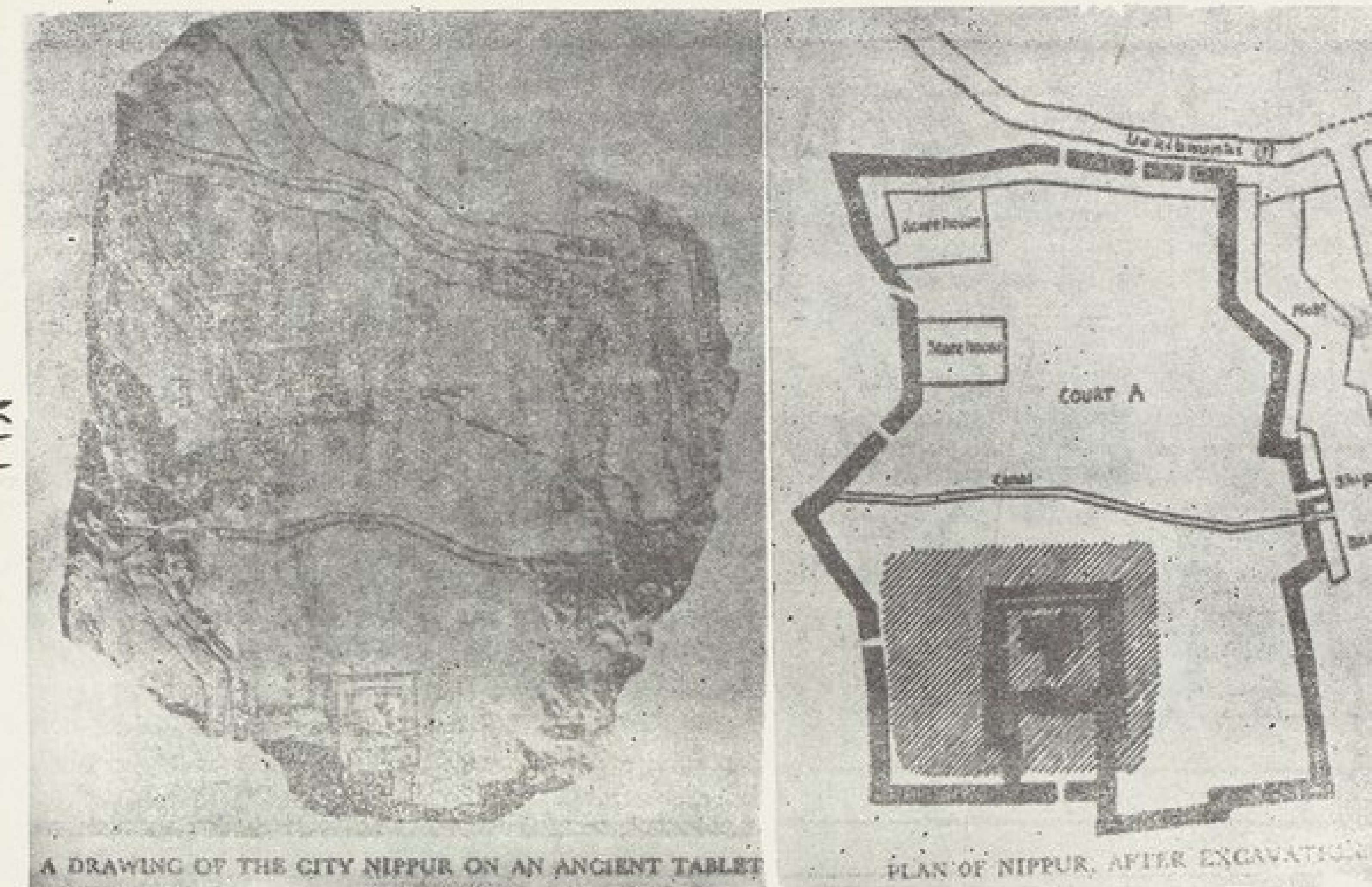
رسم خارطة بابلية (من العهد البابلي الحديث) تبين العالم
كما كان معروفا ، حيث تشاهد بابل فى مركزه
ويحيط به البحر الاوقيانوس

مهمة من جزيرة العرب ولا سيما البحرين وسموها « دلمون » وعمان «مجان» و«ملوخا» ولعلها بلاد الحبشة ووصلوا بفتوحهم ولا سيما في الزمن الاكدي الى جهات بعيدة • وقد الفوا في الجغرافية اثباتا « جداول » مطولة باسماء البلدان والمدن والانهار في العراق وفي الاقطار المجاورة وقد جاءتنا من هذه الاثبات نماذج مهمة من الزمن البابلي القديم ، فمن ذلك ثبت مطول وجد في أثناء تنقيبات مديرية الآثار العراقية في تل حرمل • وجاءتنا نماذج من هذه المؤلفات الجغرافية من الزمن الاشوري المتأخر وكذلك من العهد البابلي الاخير ، وفيها اضافات باسماء المعابد وتفسير أسماء بعض الاقاليم والمدن وهي مدونة باللغة السومرية وباللغة البابلية • ومن الجداول التي تدخل ضمن المؤلفات الجغرافية قوائم قديمة نظمت لاغراض ادارية أي تعداد المدن والمواضع لغاية جمع الضرائب والادارة • ومن الجداول الجغرافية التي ألفت لاغراض عملية مفيدة مؤلفات بأسماء الاقاليم والمواضع المهمة لتسهيل الاسفار وتعريف المسافات فيما بينها[١] •

ولعل احسن ما يرينا مقدرتهم الجغرافية ما جاءنا عنهم من الخرائط المختلفة فقد خلف لنا البابليون منذ أقدم ازمانهم طرق مسح الاراضي وقياسها واخذ مخططاتها (أنظر بحث العلوم الرياضية) وعرفوا تخطيط الخرائط لمساحات أوسع أي خرائط البلدان والاقطار • ولعل أقدم خريطة من هذا النوع خريطة مدينة نفر التي يرجع عهدها الى الالف الثاني ق • م ، (أنظر الشكل في ص ٣٢٨) ومما يدهش له حقا ان هذه الخارطة القديمة مضبوطة بحيث ساعدت المنقبين الذين وجدوها في تنقيبهم في المواضع المهمة من المدينة • ومن ذلك خارطة مدينة سبار وخارطة مدينة بابل • وتعدوا الخرائط ذات المساحات المحدودة الى رسم خرائط لاقاليم أوسع والامثلة على ذلك خارطة للعالم المعروف لديهم جاءتنا من الزمن البابلي الاخير ولكن يرجح انها نسخة عن أصل أقدم وهي أشبه ما تكون بخرائط

---

(١) وهذه في الواقع ما يسمى ب (itinerary)



خارطة مدينة « نفر » كما رسمت على لوح من الطين
من العهد البابلي القديم

الجغرافى « الاصطخرى » وفاقت خرائط الاغريق القديمة من الايونيين كما وصفها لنا هيرودوتس[١] • وتصور هذه الخارطة البابلية الارض وهى مدورة مسطحة وفى سطها نهر الفرات آتيا من الجبال الشمالية ويصب فى منطقة الاهوار فى الجنوب ووضعت قرب المركز مدينة بابل وفى جانب منها بلاد اشور (وكل شعب يرى عاصمته أو بلاده مركز الدنيا وسرتها) وقد علمت فى هذه الخارطة مواضع المدن والبلدان بدوائر كما نفعل فى خرائطنا فى العصر الحاضر ووضعت فى وسط الدوائر أو بقربها اسماء تلك المدن • أما المثلثات المستقرة على المنطقة الخارجية من الخارطة تشير الى الاقاليم الاجنبية ، ويحيط بالقارة التى تمثلها هذه الخارطة النهر أو البحر الملح • ويخرج منه ثمانى جزر وقد بينت المسافات فيما بينها بالساعات البابلية، ومن الطريف ذكره فى هذا الصدد أن الخريطة تسمى الجزيرة الشمالية بالجزيرة التى (لا ترى الشمس) حيث يفسر بعض الباحثين هذه الاشارة بأنهم عرفوا الظاهرة المسماة بالليل القطبى (انظر الشكل فى الص ٣٢٦)

---

(١) ولم تفق عليها كثيرا الخرائط المسيحية التى كانت تدعى فى العصور الوسطى بخرائط الدنيا (mappae mundi).

الفصل السادس عشر

العلوم الرياضية والطبيعية

مقدمـــة :

نستطيع أن نتتبع من سير تأريخ الحضارة في العراق تدرج المعارف في حضارة وادي الرافدين منذ عصور ما قبل السلالات وهي العصور التي اطلقنا عليها اسم فجر الحضارة لانها كانت مقدمة وتمهيدا للانتقال الى طور الحضارة الناضجة التي بدأت منذ بداية الالف الثالث ق.م. والواقع ان الانسان بدأ بالاختراعات والصناعات وتكوين المعارف منذ العصور الحجرية فمعرفته بالنار واهتداؤه الى تعلم الزراعة وتدجين الحيوان وصنع الفخار في العصر الحجري المتأخر ، والاختراعات الاخرى التي وصل اليها في عهد فجر الحضارة كالسفن ووسائل المواصلات الاخرى والتعدين والاصباغ وغير ذلك مما كان معارف عملية ثمينة عن قوى الطبيعة واسرارها وتسخيرها. ومعنى ذلك أن الانسان في العراق بدأ بالعلوم العملية منذ أبعد عصور التاريخ وان هذه المعارف العملية الثمينة هي أسس العلوم البشرية ونواتها سواء كان ذلك في علوم الانسان الحاضرة أو في العلوم التي وصل اليها الانسان في الازمان التي أعقبت نشوء الحضارة في كل من وادي الرافدين ووادي النيل وفي الاقطار الاخرى التي اقتبست عناصر الحضارة من هذين المركزين الحضاريين كاليونان وقبلهم أمم أخرى مثل الحثيين والعيلاميين وغيرهم من الاقوام .

وقد بدأت العلوم والمعارف في حضارة العراق القديم في أطوار عملية كما أشرنا الى ذلك . ومعنى هذا أنها كانت أشبه ما تكون بالحرف والصناعات التي يكون تعلمها عادة تعلما عمليا بالممارسة والتلمذة العملية . فعندما بدأ

التخصص بالصناعات المختلفة الكثيرة التي نشأت في الحضارات الاولى ، نشأت في المجتمع جماعات من الصناع المحترفين المختصين كالمعدنيين والنحاتين والكتبة والفنانين والبنائين والمهندسين وكلهم أصحاب حرف مختصين ولا سبيل لمعرفة صناعاتهم الا بالتلمذة والانتساب الى طبقة خاصة من الصناع لتلقي المعلومات واسرار الصناعة من ذوي الاختصاص ولكن نشأ بعد أزمان طور البحث والتدوين والتأليف والتجارب ، أي بداية العلوم الحقيقية • وبوسعنا أن نجد بداية هذا الطور حتى في الادوار التي سميناها بأدوار المعارف العملية ، اذ كانت الحاجة تدعو كثيرين من المختصين مثل الكتبة والمعدنيين ، الى تدوين أشياء عن صناعاتهم ليستعينوا بها أنفسهم على مهنتهم وصناعتهم الخاصة • ويبدو أن أول ما بدأ من العلوم في العراق القديم علوم اللغة وما يتصل بفنون الكتابة ، اذ جاءتنا كما سبق ان ذكرنا ، مؤلفات لغوية بهيئة معاجم منذ أقدم الازمان •

العلوم الرياضية :

لقد سبق أن ذكرنا ان أقدم أرقام وحساب في تاريخ الحضارات البشرية قد نشأت في أولى الحضارات البشرية في وادي الرافدين ، وقد رأينا أن هذه كانت لضبط واردات المعابد وحساباتها وغير ذلك مما يتعلق بالشؤون الاقتصادية • ومما لا شك فيه ان البشر قبل ان يبدأ بمرحلة تدوين الارقام في وادي الرافدين اهتدوا الى فكرة العدد • وبوسعنا ان نعد أول خطوة في نشوء الرياضيات في تجريد الاعداد التي اخترعها البشر وتصور هذه الاعداد غير مقرونة بالاشياء المادية المعدودة أي أنهم قبل التدوين وصلوا الى مرحلة تصوروا فيها العدد (١٠) مثلا عشرة مجردة بغض النظر عن ان تكون عشرة خراف أو عشر حصوات أو أفراس الخ • وأعقب ذلك قبل اختراع الكتابة أو بعد ذلك ، اهتداء الانسان الى العمليات الحسابية البسيطة • ولا نعلم بوجه التأكيد متى بدأت هذه المعرفة ولكن الذي نعرفه هو أن أقدم حساب جاءنا من النصوص المدونة في حضارات وادي الرافدين

ووادى النيل • والمرجح أن عمليتى الجمع والطرح كانتا أول ما اهتدى اليه البشر ، ولعل ذلك قد تحقق فى حضارات وجهات مختلفة بصورة مستقلة • ولكن الشك يحوم حول عمليتى الضرب والقسمة من حيث اختراعهما فى حضارة أو حضارات محدودة واقتباسهما عن هذه الحضارة الواحدة او الحضارات • نقول ذلك لان الحضارة المصرية مثلا مع تقدمها لم تضبط عملية الضرب ولم تهتد الى وضع جداول الضرب بل كانت عملية الضرب تجرى بوجه غير مباشر بخلاف الحال فى حضارة العراق القديم حيث وضعت جداول مطولة للضرب(١) •

بدأت كتابة الارقام والحساب بالارقام فى حضارة وادى الرافدين منذ أزمان بعيدة ، أى منذ نشوء الكتابة لاول مرة فى تاريخ الانسان فى حدود ٣٥٠٠ ق•م ومن الامور التى ساعدت على نشوء الرياضيات فى حضارتى العراق ومصر الحاجة الى التقويم ، لان كانتا الحضارتين تعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة وضبط الفصول والذى ساعد على تقدم الرياضيات فى حضارة العراق القديم أكثر من مصر اتساع التجارة فى العراق بالنظر لموقعه الجغرافى بالنسبة للبلدان الاخرى • وقد بدأت الموازين والمكاييل وغير ذلك من الاقيسة وحساب الارباح والمعاملات التجارية منذ العهد الاكدى • وبوسعنا ان نضيف الى هذين العاملين عاملا ثالثا هو الاعمال الهندسية العمرانية كالابنية والطرق وشق الانهار ولا يخفى ما لاثر ذلك فى رقى الحساب والوقوف على خواص الاشكال الهندسية • وبدأت أولى المدونات فى المعارف الرياضية والمعارف الاخرى منذ منتصف الالف الثالث ق•م وكثرت ونضجت فى نهاية الالف الثالث أو فى بداية العهد الذى سميناه بالعهد البابلى القديم وهو الذى رأيناه يتميز بنضج العلوم والمعارف والبحث والتدوين فيها • وقد عثرت مديرية الآثار العراقية فى تنقيباتها فى تل حرمل على أقدم قضية هندسية جبرية تتضمن مبدأ تشابه المثلثات وسنشير اليها وندرسها فى

---

(١) أنظر الرياضيات فى بحث الحضارة المصرية فى الجزء الثانى •

موضع آخر • وبوسعنا أن نصنف ما جاءنا من النصوص والمؤلفات الرياضية البابلية الى صنفين ، يشمل الصنف الاول الجداول او الاثبات الرياضية كجداول الضرب وجداول معكوس الاعداد ورفع الاعداد الى القوى المختلفة وجداول بجذور الاعداد• ويتضمن الصنف الثاني قضايا ومسائل رياضية وضعت لتحل بموجب القواعد الرياضية وكانت الجداول والاثبات اقدم عهدا من صنف القضايا ونجد فيها الصفة العملية فهي بذلك مثل الجداول التي خلفها لنا البابليون في الاقيسة واسعار المواد • وناحية الحاجات العملية في مثل هذه الجداول واضحة • اما القضايا والمسائل الرياضية فانها عكس ما هو شائع بين الناس قد ابتعدت اشواطا بعيدة عن الحاجات والمسائل العملية ، اى أنها وصلت الى طور العلم النظرى تقريبا ، كما سيتضح مما سنورده من الامثلة على ذلك • وحتى الجداول الرياضية كانت في الواقع مؤلفات مدرسية وضعت لتعليم الرياضيات للطلاب ولاستعمالها في استخراج نتائج العمليات الحسابية•

ومما يقال بوجه الاجمال ان ما جاءنا من الالواح الرياضية المتضمنة قضايا رياضية عدد قليل بوجه نسبي قد لا يتعدى المائة لوح ويضاف اليها نحو مائتي لوح تحتوي[١] على جداول رياضية •

وقبل ان نذكر طرفا من المبادىء في الرياضيات البابلية نذكر بعض الاسس العامة في تلك الرياضيات • ونبدأ من ذلك بنظام العدد المستعمل فيها وأساس هذا النظام خاصيتان مهمتان أولاهما ان أساس العدد في

---

(١) نذكر فيما يأتي المراجع الاساسية في الرياضيات البابلية :ـ

(1) O. Neugebauer, **Mathematische Keilschrifttexte** (3 vols.).

(2) Thureau-Dangin, **Texts mathématiques babyloniens.**

(3) Neugebauer, & Sachs, **Cuneiform Mathematical Texts** (1945)

(*) أما الالواح التي اكتشفت حديثا في تل حرمل فانظر بحث المؤلف فيها من مجلة « سومر » (١٩٤٩) ، (١٩٥٠) ، (١٩٥١) حيث تجد مباحث مبسطة أيضا حول الموضوع •

الرياضيات البابلية الطريقة الستينية[١] أي ان رقم (٦٠) هو أساس العد في تلك الرياضيات ومن هنا منشأ اسم الطريقة الستينية (Sexagesimal System) وثانية هاتين الخاصيتين مبدأ المرتبة العددية أي قيمة العدد بالنسبة الى مرتبته من الاعداد الاخرى (Place-value) كما في النظام العددي الحديث ، وكان الاهتداء الى هذا المبدأ على ما يرجح أعظم اختراع حققته الرياضيات البابلية، ويرجح انه أصل المبدأ الهندي والعربي الذي اخذته الرياضيات الحديثة • والاساس الستيني للعدد البابلي ومبدأ قيمة المرتبة العددية والجداول الرياضية المطولة المتنوعة كانت من جملة العوامل المهمة التي ساعدت على رقي الرياضيات في العراق القديم • ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أنه نشأت الى جانب الطريقة الستينية الطريقة العشرية • ولكنهم اقتصروا في الرياضيات على الطريقة الستينية التي يرجح أن السومريين هم الذين اوجدوها • وتمتاز الطريقة الستينية بفوائد عملية ومرونة عددية عظمى من حيث قابلية التحليل الى عوامل كثيرة أي قابليتها للقسمة وكثرة مضاعفاتها (مثلا عوامل الستين ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٦٠) • ونتج عن هذه الخاصية أن الرياضيين القدماء تفننوا في وضع الجداول الرياضية ولا سيما جداول معكوس الاعداد وغيرها من الجداول التي مكنت الرياضيين البابليين من اجراء العمليات الرياضية المطولة ووفرت عليهم الزمن المقتضى لحساب كل نتيجة بمفردها •

وعلى مقتضى الطريقة الستينية يمكن الاكتفاء بوضع علامة مسمارية للرقم ١ وهي 𒁹 (وتقوم كذلك للستين ومضاعفاته) وعلامة أخرى للعشرة

---

(١) لا يعلم بالضبط اصل الطريقة الستينية • وقد ظن البعض انها من الفلك ، ويرجح بعض الباحثين انها نشأت من دمج عددين أو طريقتين عدديتين احدهما (١٠) الذي هو عدد اصابع اليد ومن عدد ٦ الذي له فائدة عملية في قابليته للقسمة •

وهي ⟨ [١] وبحسب مبدأ القيمة العددية بالنسبة الى المرتبة يمكننا مثلا كتابة الرقم العشرى ١٥١ بحسب الطريقة الستينية بالصورة الآتية (من اليسار الى اليمين) [رموز مسمارية] لان هذا يساوى بحسب المرتبة ٢ × ٦٠ + ٣١ = ١٥١ ونكتب العدد ٤٤٧٣٣ بالصورة [رموز مسمارية] أى ١٢ × ٦٠٢ + ٢٥ × ٦٠ + ٣٣ ولكن الغالب ، لانتفاء استعمال الصفر بصورة مطردة ، ان العبرة فى قراءة قيم الاعداد فى السياق والقرينة مثلا [رمز مسماري] يمكن قراءتها برقم ١ أو ٦٠ أو أى قوة لـ ٦٠ موجبة او سالبة او كسرا أو صحيحا والعدد ٣٠ أى [رمز مسماري] يمكن أن يقرأ ½ أى نصف الواحد أو ٣٠ أو ٣٠ × ٦٠ (مع أية قوة لستين)[٢] . ومما يقال فى نظام العدد الستينى انه بالاضافة الى مرونته وقابلية قسمته يمكن التعبير به عن أكثر الكسور المختلفة فمثلا بينما يكون ⅓ فى الطريقة العشرية كسرا غير منته أى ٣ ، ٣٣ و . فانه فى الطريقة الستينية هو ٢٠ (أى ٢٠ من ٦٠) وهكذا .

وبالنظر لانتفاء الصفر فى العهود القديمة فان القيمة المطلقة لعدد ما لا يمكن تقديرها الا من السياق ،ولكن طبيعة المسائل التى تحل وسياق العمليات الحسابية يقلل كثيرا من الالتباس الحاصل ، كما ان مقدار الاساس ستين قد ساعد على تحديد الاختيار ورفع الالتباس .

وبمناسبة ذكرنا للصفر نقول ان الرياضيين البابليين كادوا يستعملونه كما نستعمله فى الرياضيات الحديثة . فقد جاءنا من الازمان المتأخرة (من الرياضيات البابلية فى العهد السلوقى) علامة خاصة بالصفر ([رمز مسماري])

---

(١) وبذلك يكون نظام العدد «السومرى ــ البابلى» خليطا من الاساس العشرى والاساس الستينى ، ويظهر ان اقدم رياضييهم قد ابتدأوا بالاساس العشرى مع وجود الستينى ففضلوا الطريقة الستينية لميزتها ومرونتها كما ذكرنا .

(٢) وبوجه الاجمال فان عددا مثل ا ب حـ ء هـ و (بدون فراغ يدل على الصفر) يمكن قراءته على انه ا (٦٠) ن + ب (٦٠) ن ـ ١ + حـ (٦٠) ن ـ ٢ + ء (٦٠) ن ـ ٣ + هـ (٦٠) ن ـ ٤ + و (٦٠) ن ـ ٥

حيث يمكن ان تكون قيمة ن صفرا او اية قيمة صحيحة موجبة او سالبة

ولا سيما في الحسابات الفلكية الرياضية ، واستعملت كما يستعمل الصفر
ولا سيما في الحسابات الفلكية والرياضية ، واستعملت كما يستعمل الصفر الآن أي لحفظ المرتبة العددية الخالية من العدد . ومما يقال في هذه العلامة ان تاريخها مجهول وهي من ناحية كونها علامة مسمارية كانت تستعمل للفصل بين الكلمات والجمل فاذا أريد كتابة العدد ٣٦١٠ العشري بالطريقة الستينية وبموجب استعمال هذه العلامة المتخذة للصفر كانوا يكتبونه بالصورة 𒁹 𒑱 𒌋 فاذا رمزنا لهذه العلامة بـ (و ٠ و) فتكون كتابة الرقم السابق ١٠ر٠ر١ أي ٦٠^٢ + ١٠ . والجدير بالذكر عن اختراع الصفر العظيم أن الرياضيين الهنود عرفوا استعماله ووضعوا له علامة خاصة وقد أخذ العرب الصفر عن الهنود كما اخذوا عنهم أيضا الاعداد ومن العرب انتقل العدد الهندي الى اوربة . وعرف « المايا » في امريكة الوسطى أيضا الصفر واستعملوا له علامة خاصة (٢٠٠–٦٠٠ للميلاد) وكانت قاعدة العدد عندهم ٢٠، أي أنهم اتبعوا النظام العشريني .

ولعل أعظم ابتداع في الرياضيات البابلية ادراكهم ان الكسور (الستينية) لم تكن سوى نوع من الاعداد الصحيحة لا تفرق عنها بوجه اساسي (كما ان الكسور العشرية ما هي في الواقع الا مجرد نوع من الاعداد الصحيحة العشرية) فاستطاعوا بعبقرية فذة أن يستغنوا عن معظم الكسور اي كانوا يكتبونها بهيئة اعداد هي اجزاء من الستين ومن دلائل عبقريتهم الرياضية ايضا أنهم طبقوا نفس المبدأ على المقاييس (وهو مبدأ لم يتم ادراكه في الحضارة الغربية الا في القرن السادس عشر للميلاد ولم يطبق النظام العشري في المقاييس عمليا الا منذ الثورة الفرنسية) .

وقبل أن نذكر نماذج من القضايا الرياضية نؤكد أهمية الجداول الرياضية في نضج الرياضيات البابلية والفلك البابلي فقد مكنت هذه الجداول، كما ذكرنا ، الرياضيين من توفير الجهد والوقت في الحساب ومن الانصراف الى القضايا الرياضية ، فهي مثل بعض الجداول الرياضية في الرياضيات

الحديثة مثل اللوغاريتمات ومثل الآلات الحاسبة التي توفر الوقت والجهد العقلي • فقد استطاع البابليون بهذه الجداول اجراء عمليات الضرب والقسمة في الاعداد الكبيرة • ونذكر منها جداول الضرب المطولة وجداول في رفع الاعداد الى القوى المختلفة وجداول اخرى بجذور الاعداد من الاسس المختلفة • ومنها جداول مهمة بمعكوس الاعداد (Reciprocals) فمعكوس العدد بوجه عام هو الكمية التي اذا ضرب بها ذلك العدد ينتج الوحدة (أي معكوس العدد ب هو $\frac{1}{ب}$) وبالطريقة الستينية يكون معكوس العدد هو الكمية التي اذا ضرب بها العدد ينتج ستين لان رقم ستين كما ذكرنا ، هو أساس العدد في الطريقة الستينية • واستعمل البابليون مبدأ معكوس العدد في اجراء عملية القسمة فلقسمة عدد على آخر كانوا بدلا من عملية القسمة المعتادة يضربون العدد المراد قسمته بمعكوس العدد المراد القسمة عليه أي $\frac{ا}{ب} = ا \times \frac{1}{ب}$ ويؤخذ معكوس العدد المراد من الجداول المهيئة التي كانت في متناول اليد[1] ويؤخذ حاصل ضرب العدد بمعكوس العدد الثاني من جداول الضرب الخاصة أيضا • ومن الجداول الطريفة التي جاءتنا عن رياضي العراق القديم وبحث فيها حديثا ما يشير الى معرفة القوم بالمبدأ المعروف باللوغاريتمات • فقد جاء في بعض ألواح الطين من العهد البابلي القديم سؤال رياضي يطلب فيه الى أي قوة يجب رفع عدد معين حتى تكون النتيجة

---

(١) لقد توسعوا في هذه الجداول الى درجة كبيرة بحيث اوصلوها الى مرتبة ٦٠ مرفوع الى القوة ١٩ ، وبمناسبة كلامنا على ولعهم بالارقام الكبيرة نذكر أنه يوجد عدد خاص كثر وروده في الالواح الرياضية وهو (٦٠)٤ ويساوي (١٢٩٦٠٠٠٠) وهذا هو عين الرقم الخاص بافلاطون المعروف برقم « افلاطون الهندسي » • وان (١٢٩٦٠٠٠٠) يوما تساوي ٣٦٠٠٠ سنة لكل سنة منها ٣٦٠ يوما ، وهي ما يعرف باسم « السنة الافلاطونية العظمى » ، كما ان عمر انسان يعمر (١٠٠) عام يحتوي على ٣٦٠٠٠ يوما اي بقدر ما تحتويه السنة العظمى من السنين ، وهكذا فان العدد الهندسي الافلاطوني الذي تسير بموجبه الارض والحياة على الارض « بحسب رأي افلاطون » انما هو من اصل بابلي

(Sarton, **History of Science**, ch. III. P. 72).

عددا معينا آخر • ومعنى هذه القضية ايجاد لوغاريتم عدد معين من قاعدة أو أساس معين[١] ولكن الفرق بين معرفة اللوغاريتمات فى الرياضيات الحديثة وبين معرفة البابليين لها هى ان البابليين لم ينتخبوا أساسا او قاعدة عامة مشتركة يرتبون بموجبها الجداول لاستعمالها فى الحسابات العملية كما فى الوقت الحاضر • ولعل منشأ اللوغاريتمات عند البابليين من حساب الربح والمسائل المتعلقة به وعلى كل فانه كان نتيجة منطقية لمعرفتهم الواسعة فى ضرب الاعداد ورفعها الى القوى وأخذ جذورها[٢] • وقد درست حديثا ألواح صغيرة فيها أرقام عجيبة على هيئة جداول ثبت انها جداول باللوغاريتمات فجدول منها بالشكل الآتى :-

$\frac{١}{٤}$	٢
$\frac{١}{٢}$	٤
$\frac{٣}{٤}$	٨
١	١٦

ومعنى هذا الجدول :

$$١٦^{\frac{١}{٤}} = ٢$$

---

(١) وهذا هو مفهوم اللوغاريتم فى الرياضيات الحديثة اذ ان اللوغاريتم لاى عدد من اساس معين هو الاس او القوة التى ينبغى ان يرفع اليها الاساس حتى تكون النتيجة مساوية للعدد المفروض اى اذا كان $ا^{س} = ب$ فان س هو لوغاريتم ب من القاعدة ا أى $لوغ_{ا} ب = س$ ومن المسائل التى خلفوها على مبادىء اللوغاريتمات مسائل يطلب فيها تحديد الزمن المقتضى لمبلغ معين من المال حتى يبلغ ضعفه بنسبة معينة من الربح المركب (٢٠ ٠/٠) فهذه المسألة تتضمن ايجاد المجهول (س) فى المعادلة :- $(١ + ١٢ ٠/٠)^{س} = ٢$ اما النتيجة الصحيحة (٣ سنوات و ٤/٥ السنة) فقد حلها الرياضى القديم بدرجة تدعو الى الدهشة •

(٢) ومن الجداول الطريفة التى جاءتنا من الرياضيات البابلية جداول بالمعاملات المختلفة (Coefficients) او النسب الثابتة المعينة سواء كانت نسبا مطلقة مثل نسبة محيط الدائرة الى قطرها أو نسبة حاصل ضرب ارتفاع المثلث بقاعدته الى مساحته أو انها نسب وجدت ثابتة بالتجربة كالعلاقة الموجودة بين وزن كمية معينة من الاجر بحجمها او نسبة مقدار الزيت المطلوب (لتقيير) سطح معين من المساحة الخ

$$١٦^{\frac{١}{٢}} = ٤$$

$$١٦^{\frac{٣}{٤}} = ٨$$

$$١٦^{١} = ١٦$$

اى ان الاعداد التى فى جهة اليمين ما هى الا لوغاريتمات الاعداد التى فى جهة اليسار من القاعدة ١٦ • والجدول الثانى :

٢	١
٤	٢
٨	٣
١٦	٤
٣٢	٥
٦٤	٦

وتفسير هذا الجدول :

$$٢ = ٢^{١}$$

$$٤ = ٢^{٢}$$

$$٨ = ٢^{٣}$$

$$١٦ = ٢^{٤}$$

$$٣٢ = ٢^{٥}$$

$$٦٤ = ٢^{٦}$$

اى ان الاعداد التى فى اليسار هى لوغاريتمات الاعداد التى فى جهة اليمين من القاعدة ٢ •

شيء عن الهندسة :

تمدنا القضايا الرياضية التى جاءتنا من الرياضيين البابليين بفرعين مهمين من فروع العلوم الرياضية وهما الهندسة والجبر • والذى يجدر

ذكره ان معظم القضايا حتى الهندسية منها انما وضعت لتطبق على القواعد الجبرية التى استنبطها القوم وعلى القواعد والمبادىء الهندسية من ناحية خواص الاشكال الهندسية • وبعبارة أخرى استطاع رياضيو العراق القديم ان يجمعوا بين العلوم الرياضية ، ولا سيما بين الهندسة والجبر وهذه مهارة ومرحلة ناضجة فى تاريخ العلوم الرياضية تستحق الاعجاب والدهشة وكانت تعزى الى رياضى الغرب الحديث مثل « ديكارت » « وفرما » وغيرهما من رياضى الغرب • والجدير بالذكر ان بحوث العرب فى الجبر والهندسة وفى الجمع ما بينهما كانت سابقة على بحوث الرياضيين الغربيين أيضا •

وبوسعنا ان نقف من القضايا الرياضية التى خلفوها على مبلغ ما وصلوا اليه من معرفة فى خواص الاشكال الهندسية ومساحاتها وعلاقة أجزائها بعضها ببعض فقد استطاعوا أن يحسبوا سطوح أشكال هندسية معينة وحجوم بعض الاشكال المجسمة مثل حجم متوازى المستطيلات القائم وحجم الاسطوانة القائمة وحجم المخروط المقطوع وحجم الهرم الرباعى المقطوع ، وقد حلوا هذه المسألة الهندسية بدستور يختلف قليلا عن الدستور المصرى (انظر الكلام على حضارة مصر فى الجزء الثانى) ، ويمكن تمثيل ذلك بالدستور الآتى :ـ

$$ح = ع \left[\left(\frac{أ + ب}{٢}\right)^{٢} + \frac{١}{٣}\left(\frac{أ - ب}{٢}\right)^{٢} \right]$$

باعتبار ان ح = حجم الهرم المقطوع ، وع ارتفاعه ، وأ ، ب طول ضلع كل من القاعدتين السفلى والعليا ، ومع ان الحل المصرى ابسط ، الا ان كلا الحلين متعادلان • ومن المهم ذكره ان الرياضى «هيرون الاسكندرى» (القرن الاول ـ الثانى للميلاد) قد اتبع فى حله دستورا شبيها بالدستور البابلى •

ولاخذ حجم الهرم المقطوع اذا عرف منه ارتفاعه (ع) ، ومحيط قاعدته العليا (أ) ومحيط قاعدته السفلى ب اتبعوا الدستور الآتى :ـ

$$\text{الحجم} = \frac{١}{٢} ع \left(\frac{أ^{٢}}{٣٢} + \frac{ب^{٢}}{٣٢}\right)$$

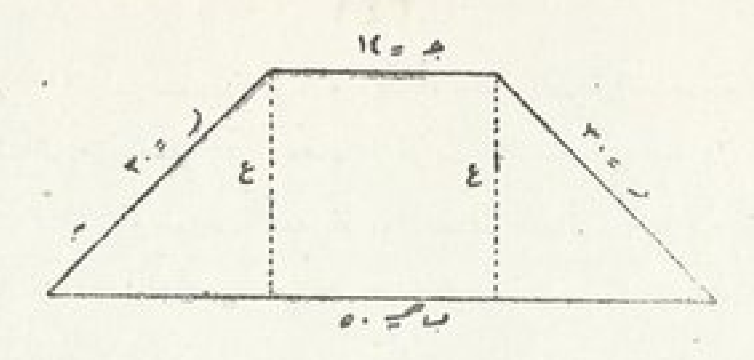
بفرض ان قيمة النسبة الثابتة (٣) ، فتكون مساحة الدائرة = مربع المحيط

مقسوما على ١٢ كما سيأتى ذكره ٠ وقد أوجدوا الطرق الصحيحة فى قياس بعض الاشكال واستعملوا فى بعضها التقريب بالنسبة الى الطرق الحديثة ، فمن ذلك الدائرة وخواصها فقد عرفوا محيط الدائرة وعلاقته بالقطر ثم مساحة الدائرة واكتفوا من العلاقة بين محيط الدائرة وبين قطرها بعدد تقريبى هو (٣)[١] وقد عثر حديثا فى ألواح الطين على قيمة أخرى لها هى $\frac{٢٥}{٨}$ وجائتاعنهم دستور طريف لمساحة الدائرة وهو المساحة = مربع المحيط مقسوما على ١٢ وتفسير هذا الدستور فى تلك النسبة الثابتة التى جعلوها ٣ لان مساحة الدائرة = $\text{نق}^{٢} \times \text{ط} = \left(\frac{\text{٢ نق ط}}{\text{٤ ط}}\right)^{٢} = \frac{\text{م}^{٢}}{١٢}$

وعرفوا من الدائرة قطعة الدائرة ومساحتها بعد معرفة قوسها ووترها كما وضعوا بعض القضايا فى علاقة بعض الاشكال الهندسية المرسومة داخل الدائرة وخارجها وجاءتنا عنهم بعض الجداول والقضايا فى الاعداد الفيثاغورية تطبيقا على نظرية فيثاغورس المشهورة الخاصة بعلاقة مربعات أضلاع المثلث القائم الزاوية ٠ والواقع ان نظرية فيثاغورس كانت معروفة فى الرياضيات البابلية فى جميع أدوارها وجاءتنا جملة قضايا حلت تطبيقا عنها ومن ذلك قضية نصها « باب مستطيل عرضه ١٠ وطوله ٤٠ فما هو قطره» ٠ وقضية أخرى طريفة تخص مساحة حقل على هيئة شبه منحرف (أنظر الشكل) يطلب فيه ايجاد المساحة بعد حساب الارتفاع من المعلومات المعطاة بالفرض فبعد أن يجد الرياضى القديم الارتفاع (ع) بالدستور

---

(١) ومما يحسن ذكره فى تاريخ النسبة الثابتة (ط) ان المصريين القدماء (انظر البحث الخاص بالرياضيات المصرية) وصلوا الى نتيجة اصح من العدد التقريبى البابلى ٠ ووصل الرياضيون العرب الى نتيجة أصح فقد ذكر الخوارزمى فى رسالته « حساب الجبر والمقابلة » ثلاث قيم لتلك النسبة وهى $\frac{٢٢}{٧}$ و $\sqrt{١٠}$ و $\frac{٦٢٨٣٢}{٢٠٠٠٠}$ وان القيمة الاخيرة استعملها أهل النجوم اى الفلكيون (انظر تراث العرب العلمى لقدرى حافظ طوقان (١٩٤١) الص ٤٧)



$$\text{ع} = \sqrt{\text{ر}^{٢} - \left(\frac{\text{ب} - \text{حـ}}{٢}\right)^{٢}} = \sqrt{٣٠^{٢} - \left(\frac{٣٦}{٢}\right)^{٢}} = \sqrt{٥٧٦} = ٢٤$$

يجد المساحة بالدستور :

$$\text{المساحة} = \frac{\text{ب} + \text{حـ}}{٢} \times \text{ع} = \frac{٥٠ + ١٤}{٢} \times ٢٤ = ٧٦٨$$

باعتبار أن ب ، حـ الضلعان المتوازيان و (ر) كل من الضلعين الآخرين المتساويين وع الارتفاع •

وترينا هذه القضية عدا معرفة القوم بنظرية فيثاغورس انهم عرفوا دستور المساحة الصحيح لشبه المنحرف وهو حاصل ضرب الارتفاع بنصف مجموع الضلعين المتوازيين • وكانوا قد استعملوا الى جانب هذا الدستور الصحيح دستورا تقريبيا وهو انهم كانوا يضربون نصف مجموع الضلعين بنصف مجموع الضلعين الآخرين • ومن القضايا الطريفة التى تخص نظرية فيثاغورس قضية خاصة بعلاقة قطر المربع بضلعه • فاذا فرضنا ان القطر ق والضلع ل فيكون ق = ل $\sqrt{٢}$ والجذر التربيعى للعدد ٢ من القضايا العددية التى بحث فيها بعض الفلاسفة الرياضيين من اليونان حيث قالوا بامكان ايجاد $\sqrt{٢}$ بالتمثيل الهندسى اما البابليون فقد قربوا $\sqrt{٢}$ الى ١ صحيح + $\frac{٢٤}{٦٠} + \frac{٥١}{٦٠^{٢}} + \frac{١٠}{٦٠^{٣}}$ اما كيف استطاع البابليون ان يجدوا هذه الكمية التقريبية لـ $\sqrt{٢}$ فيدل على تقدم الجبر عندهم اذ تدل على معرفتهم بما يعرف بالاعداد الصم (surd) وقد استعملوا طريقة

التقريب في ذلك واستنبطوا لها بعض القواعد العامة[١] لايجاد القيم التقريبية المتتابعة لجذر عدد غير مربع كامل .

وقد سبق الجبر البابلي في معرفة مبدأ المتواليات الهندسية الذي كان يعزى فيما مضى الى « أرخميدس » اليوناني من القرن الثالث ق.م. وقد استعملوا المتواليات الهندسية في حساباتهم الفلكية ، كما استعملوا مبدأ مهما من مبادىء الرياضيات يخص القواعد الصحيحة في مبدأ الاشارات (الزائد والناقص) في الضرب .

واتبعوا في مساحات الاشكال غير المنتظمة اي في مساحة الاراضي والحقول بان يقسموها الى أشكال هندسية منتظمة . وتفننوا في وضع القضايا الرياضية الخاصة بتقسيم الاشكال الهندسية بنسب معلومة . ولكن كما سيتضح من كلامنا على الجبر كانت هذه قضايا جبرية وضعت لتحل بموجب المبادىء الجبرية وتؤدي الى المعادلات الجبرية المختلفة .

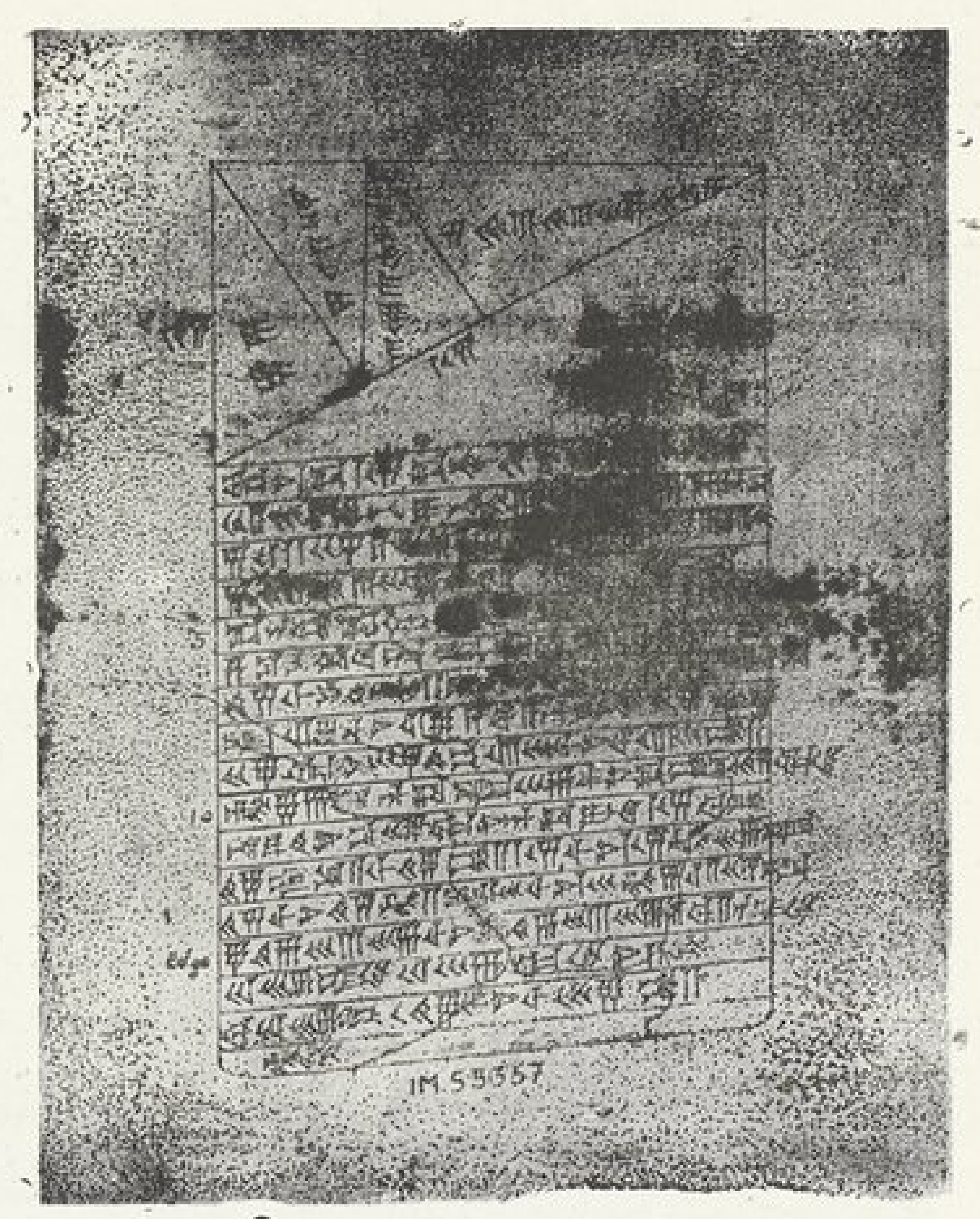
ونذكر الآن قضية رياضية وجدت حديثا من تنقيبات مديرية الآثار في تل حرمل (١٩٤٩) وهي ذات أهمية خاصة في تأريخ العلوم الرياضية. ووجه الاهمية فيها انها قضية « هندسية جبرية » تتضمن معرفة بخواص المثلث القائم الزاوية (نظرية فيثاغورس) ومعرفة بالمبدأ الهندسي المعروف بتشابه المثلثات والى ذلك فان هذه القضية حالة خاصة من حالات تشابه المثلثات الناشئة من انزال عمود من الزاوية القائمة في مثلث قائم الزاوية على وتره فيكون المثلثان المحدثان على جانبي العمود متشابهين ويشابه كل منهما

---

(١) ومن بين تلك الطرق طريقة تضاهي طريقة ارخميدس (القرن الثالث ق.م) وطريقة هيرون الاسكندري (في حدود ٦٢ او ١٥٠ للميلاد) فاذا كان (س) الجذر التربيعي للعدد ا وكان ا − $س^2$ = ب فتكون اقرب قيم لجذر ا التربيعي هي :-

$$س_1 = س + \frac{ب}{2س}$$

$$س_2 = س_1 + \frac{ب_1}{2س_1}$$



صورة لوح رياضي وجد في تل حرمل وفيه قضية هندسية جبرية
على مبدأ تشابه المثلثات (وتمثل الصورة استنساخ اللوح
من جانب مؤلف الكتاب)

المثلث الاصلى • واذا تذكرتم ما درستموه من الهندسة فى الدراسة الاعدادية وجدتم ان هذه الحالة هى احدى النظريات الهندسية المعروفة المنسوبة الى اقليدس[١] والمستنتجة من نظرية فيثاغورس فى خواص المثلث القائم الزاوية • ولكن تاريخ قضية « حرمل » يسبق زمن اقليدس بـ ١٧٠٠ عام ، اذ يرقى تاريخها الى بداية العهد البابلى القديم (فى حدود ٢٠٠٠ق٠م) ومن الطريف ذكره فى هذا الصدد انها وردت فى قضية « حرمل » وقد تفنن بها الرياضى القديم حيث كرر رسم العمود المقام من الزاوية القائمة ثلاث مرات وبذلك انقسم المثلث الكلى الى أربعة مثلثات صغيرة • وبعد اعطاء أطوال المثلث الكلى ا ح = ٦٠ و ا ب = ٤٥ و ب ح (الوتر) = ٧٥ ومساحة المثلث الكلى ومساحة كل من المثلثات الصغيرة الاربعة يطلب منا الرياضى القديم ايجاد اطوال الاضلاع المقطوعة (انظر الشكل ص ٣٤٦) أى ب ء ، ء ح الخ ثم اطوال الاعمدة المقامة • اما حل الرياضى القديم فانه على غاية من الوضوح والبراعة وهو يجمع بين مبدأ تشابه المثلثات وبين دستور مساحة المثلث القائم الزاوية ويستخرج من ذلك معادلة آنية •

فلاستخراج ب ء مثلا نجده يتبع خطوات يمكن جمعها بالمعادلة

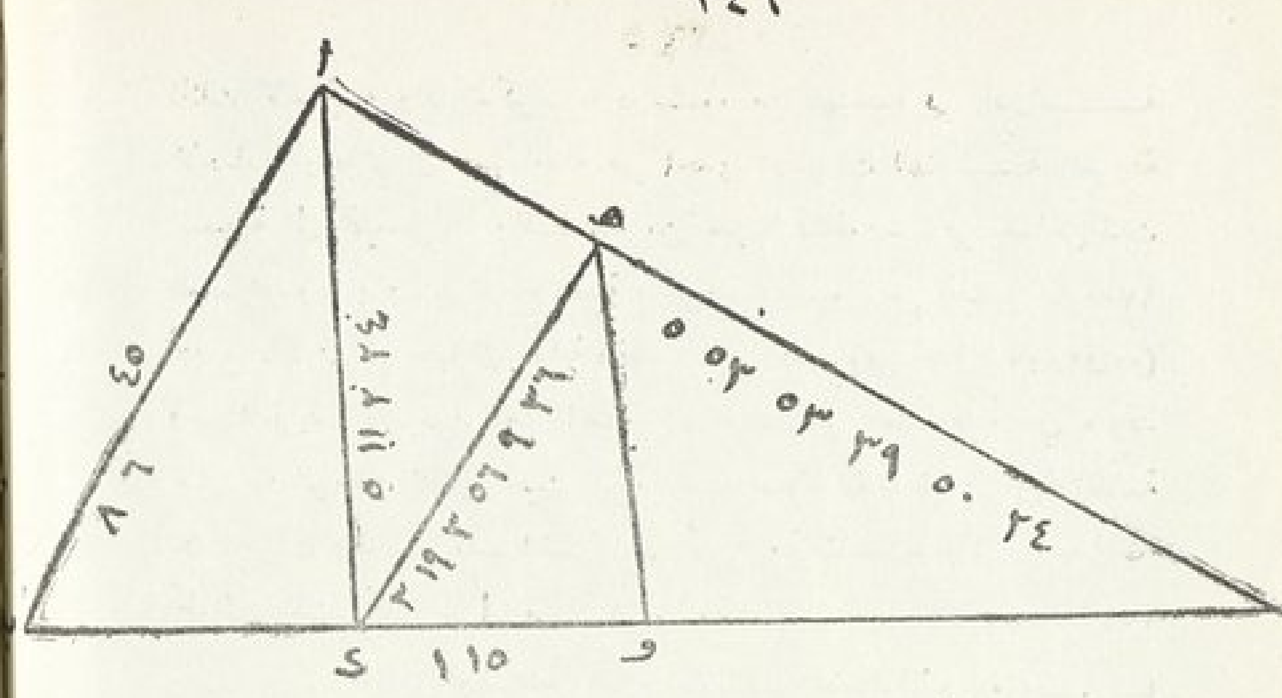
ب ء = $\sqrt{\frac{\text{ا ب}}{\text{ا ح}} \times \text{مساحة المث ا ب ء} \times ٢}$

= $\sqrt{\frac{٤٥}{٦٠} \times ٤٨٦ \times ٢}$ = ٢٧ وتحليل ذلك يرجع الى مبدأ تشابه المثلثات • فبما ان المثلثين (ا ب ء) و (ء ا ح) متشابهان (بحسب نظرية اقليدس) فيكون اضلاعهما المتناظرة متناسبة أى $\frac{\text{ا ب}}{\text{ا ح}} = \frac{\text{ب ء}}{\text{ا ء}}$

---

(١) ونص هذه النظرية كما وضعها اقليدس : اذا انزل عمود فى مثلث قائم الزاوية من زاويته القائمة على الوتر فان المثلثين المحدثين على جانبى العمود يشابه كل منهما المثلث الكلى ويتشابهان الواحد مع الآخر (اقليدس • الكتاب السادس • النظرية الثامنة عن

Hall and Stevens; **A School Geometry,** (1931) Theorem No. 66 P 268.



ولكن $\frac{\text{اب}}{\text{احـ}} = \frac{٤٥}{٦٠} \therefore \frac{\text{ب ى}}{\text{ا ء}} = \frac{٤٥}{٦٠}$ .... (١)

ومن دستور مساحة المثلث ا ب و أى $\frac{\text{ب ى} \times \text{ا ء}}{٢} = ٤٨٦$ .... (٢)

واذا ضربنا المعادلة رقم ١ بالمعادلة رقم ٢ ثم ضربنا الناتج بـ ٢ حصلنا على

$$\frac{\text{ب و}}{\text{ا ء}} \times \text{ب و} \cdot \text{ا ء} = \frac{٤٥}{٦٠} \times ٤٨٦ \times ٢$$

$$\text{أى } (\text{ب و})^{٢} = \frac{٤٥}{٦٠} \times ٤٨٦ \times ٢$$

$$\text{وكون ب و} = \sqrt{\frac{٤٥}{٦٠} \times ٤٨٦ \cdot ٢} = \sqrt{٧٢٩} = ٢٧$$ (١)

---

(١) واليك ترجمة القسم الخاص بهذه العملية من اللوح الرياضى:
« عند حلك للمسالة خذ معكوس العدد ٦٠ واضربه ب ٤٥ (اى قسم ٤٥ على ٦٠) ثم اضرب $\frac{٤٥}{٦٠}$ ب ٢ فتحصل على ١ ٢ . اضرب ١ ٢ ب ٤٨٦ (اى مساحة المثلث أ ب د) فتحصل على ٧٢٩ . ما هو الجذر التربيعى لـ ٧٢٩ ؟ ٢٧ هو الجذر التربيعى وهو قيمة ضلع المثلث الاعلى » (اى قيمة ب د) (انظر مجلة سومر ١٩٥٠) .

ومن المسائل الطريفة التي تدل على معرفتهم بخواص الدائرة وبمبدأ تشابه المثلثات مسألة تتعلق بحساب ارتفاع قوس الدائرة بعد معرفة طول وتره وطول قطر الدائرة (فكانوا يعرفون ان الزاوية المرسومة في نصف الدائرة هي زاوية قائمة) . واتبعوا في ذلك طريقة يمكن وضعها بالمعادلة الآتية :ـ

ع = ½(ق ـ $\sqrt{}$ ق٢ ـ و٢) باعتبار ان ع = الارتفاع وق القطر و(و) الوتر)ويمكن تفسير هذا الدستور الذي وصل اليه الرياضيون القدماء باستعمال نظرية فيثاغورس في علاقة مربعات اضلاع المثلث القائم الزاوية

الجبر (١)

لقد اشرنا فيما سبق الى نضج المعارف الجبرية التي بلغتها الرياضيات في العراق القديم وقلنا ان أغلب القضايا الرياضية التي خلفوها لنا قد وضعت لتحل بالطرق والمعادلات الجبرية التي عرفوها ، فهي بالدرجة الاولى قضايا في الجبر وان كان بعضها يدور على الاشكال الهندسية وخصائص هذه

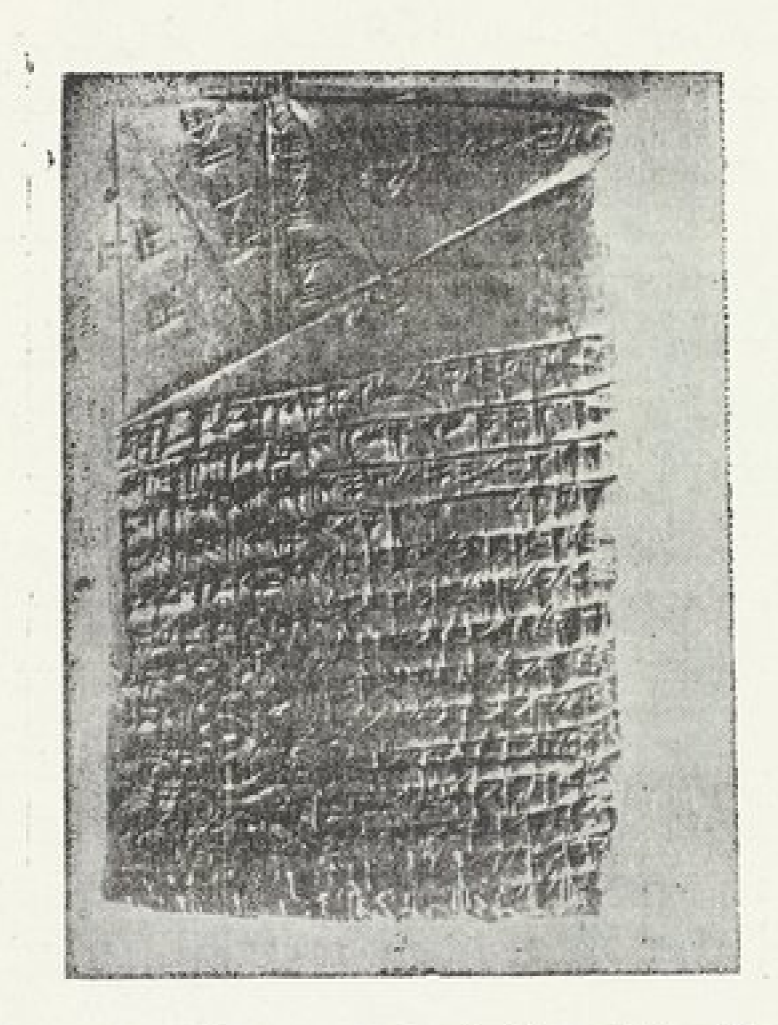
(١) مع ان كلمة الجبر العربية وضعها الرياضي الشهير الخوارزمي من اهل القرن التاسع للميلاد فان مبادىء الجبر نفسها أقدم من ذلك بقرون عديدة كما هو واضح من الرياضيات في العراق القديم . وكان «ديوفنطس» (Diophantos) اليوناني الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثالث للميلاد اول غربي كتب في الجبر وسنشير الى الصلة الموجودة بين بعض طرقه الجبرية وبين الطرق الجبرية البابلية . ومما يقال بوجه الاجمال ان الفضل في تقدم الجبر الحديث يعود الى البابليين والهنود والعرب أكثر مما يعود الى اليونان الذين تفردت عبقريتهم بعلم الهندسة . ولما كتب الخوارزمي رسالته المشهورة في الجبر المعنونة « حساب الجبر والمقابلة » واطلع عليها الغرب في القرون الوسطى سموا هذا العلم مختصرا بالكلمة العربية الجبر اى (Algebra) ومنشأ مصطلح الجبر عند الخوارزمي وغيره من رياضي العرب من طرق حل المعادلات الجبرية وهي نقل الحدود من طرف من المعادلة الى طرف آخر بتغيير العلامة السالبة أو الموجبة . واعتبر القدماء هذا النقل أعادة أو تعويضه أو ضما جديدا اى « جبرا » اما مصطلح المقابلة فيشير الى العملية الجبرية التي بموجبها تحذف كمية أو رمز موجود في طرفي المعادلة بنفس العلامة الموجبة أو السالبة فمثلا في المعادلة ب س + ٢ج = س٢ + ب س ـ ج تصبح بالجبر ب س + ٢ج + ج = ب س + س٢ وبالمقابلة تصير س٢ = ٣ج
(An Outline of Modern Knowlege; P. 159).

الاشكال والغريب فى أمر الرياضيات البابلية انها بلغت فى الجبر مرتبة اعلى بكثير مما بلغته فى الهندسة ، بل بوسعنا ان نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان الجبر عندهم[١] كان أرقى مما بلغه اليونان الذين تفردت عبقريتهم الرياضية بالهندسة حتى انهم استخدموا الاشكال الهندسية فى حل المعادلات الجبرية وتمثيل جذور الاعداد غير الكاملة بالاشكال الهندسية • وخلاصة القول بلغ الجبر عند البابليين طور العلم الصحيح تقريبا • ومما يقال عما اسداه البابليون فى تقدم الرياضيات أنهم بدأوا فيه البداية الحسنة فى اهتمامهم بالعدد قبل الشكل (أى الاشكال الهندسية) فى حين ان اليونان ولا سيما من بعد فيثاغورس اى ابتداء من القرن الرابع ق•م• كرسوا عبقريتهم على الاشكال دون العدد ، ويعد هذا انتكاسا فى سير تطور الرياضيات وتقدمها ، ولكن رياضى العرب وقبلهم الهنود ارجعوا سيره الى الاتجاه الصحيح باهتمامهم بعلوم العدد وبالبحث فى علم الجبر مستقلا واستمر تطور الرياضيات فى أوربة فى القرن السابع عشر للميلاد حيث اهتم الرياضيون بالعدد والهندسة التحليلية اى اخضاع الشكل الى العدد • اى ان العصر الحديث سار من حيث انتهى البابليون والهنود والعرب بعد التوقف الذى طرأ على العلوم الرياضية فى العهد اليونانى •

والواقع ان مهارة رياضى العراق القديم فى الجبر قد اختفت فى عهد الهندسة اليونانية ، ولكنها عادت الى الظهور فى « ارخميدس » (منتصف القرن الثالث

---

(١) ومما تجدر ملاحظته عن طرق الجبر البابلية خلوها من استعمال الرموز التى نستعملها فى الجبر الحديث • والواقع ان استعمال الرموز والحروف لتقوم مقام الاعداد المجردة حديث جدا ولعله لا يتعدى القرن الخامس عشر أو السادس عشر للميلاد وحتى الى القرن السابع عشر للميلاد• ولكن الرياضيين العرب استعملوا بعض المصطلحات المساعدة لتيسير العمليات الجبرية فقد استعمل الخوارزمى مصطلح الجذر لتقابل (س) فى الجبر الحديث واستعمل كلمة شيء أيضا والمال لـ (س ٢) والعدد المفرد الحد الخالى من المجهول • (انظر فى ذلك « تراث العرب العلمى » ص ٣٢ـ٣) وانظر حساب الجبر والمقابلة للخوارزمى نشر الجامعة المصرية (كلية العلوم) •



صورة اللوح الرياضي المكتشف في تل حرمل المتنسخ في ص ٣٤٤
والمبحوث فيه في ص ٣٤٥ فما بعد

ق.م.) وفي «هيرون» (بين القرنين الاول والثاني للميلاد) وفي عهد الرياضي الشهير «ديوفنطس» (منتصف القرن الثالث للميلاد) ثم اختفت مرة اخرى في اوربة اختفاء تاما طوال قرون طويلة الى ان احياها العرب.

وكان المعتقد الى ١٩٠٠ للميلاد ان واضع أصول الجبر هو الرياضي اليوناني «ديوفنطس» من أهل القرن الثالث للميلاد. ولكن بدأ هذا الاعتقاد يزول منذ ١٩٢٩ حيث أخذت معرفتنا بالرياضيات البابلية تزداد ومنها الوثائق المتعلقة بالجبر البابلي وقد أصبح في متناول ايدينا الآن من هذه

الوثائق ما يشمل زمن الفي عام من أواخر الالف الثالث ق٠م الى بداية العهد المسيحى تقريبا ولكن الوثائق المهمة تقع بين ٢٠٠٠ــ١٢٠٠ ق ٠ م ٠ ومن العهد السلوقى فى العراق ايضا ٠

وسيتضح مما سنذكره من الامثلة ان البابليين عرفوا أسسا مهمة فى خواص الاعداد وفى العمليات والطرق الجبرية الاساسية ، وعرفوا المعادلات الجبرية الاساسية ، فمن ذلك معادلات الدرجة الاولى بانواعها المختلفة ومنها مانسميه الآن بالمعادلات الآنية (Simultaneous equation) ومعادلات الدرجة الثانية والثالثة أيضا واتبعوا فى طرق حلها عمليات مدهشة لا تكاد تصدق لمطابقتها الطرق الصحيحة الحديثة ٠

وقد خلفوا امثلة وقضايا غير قليلة على كل نوع من هذه المعادلات ٠ فمن أمثلة معادلات الدرجة الاولى لوح رياضى يحتوى على ٢٢ قضية جبرية غير محفوظة كلها حفظا جيدا الا ان اثنتى عشرة قضية منها سالمة تقريبا ، من نماذجها القضية التى تسأل : « لقد وجدت حجرة فلم ازنها ٠ ولكن بعد ان أضفت اليها سبعها (سبع وزنها) و $\frac{1}{11}$ من وزنها ثم وزنتها فكانت « منا » واحدا ٠ فما هو الوزن الاصلى للحجرة ؟ » ومن هذه المعادلات ما يتضمن مبدأ المتواليات الحسابية كما ان بعضها قد تضمن أحد عشر مجهولا ٠ اما عن المعادلات الآنية فنكتفى بقضية حرمل نموذجا لها ٠

ونأخذ عن معادلات الدرجة الثانية ثلاثة نماذج ننتخبها من اللوح الرياضى المهم الموجود فى المتحف البريطانى الذى يحتوى على قضايا رياضية تحل بمعادلات الدرجة الثانية ٠

فالنموذج الاول يكون فيه معامل س^{2} ومعامل س الوحدة ٠ فمن ذلك مسألة تقول « لو اضفت مساحة مربع الى طول ضلعه كان الناتج $\frac{3}{4}$ (فماهو طول الضلع) ؟ » ٠

فاذا فرضنا طول الضلع س فتوضع المسألة بالمعادلة : $س^{2} + س = \frac{3}{4}$ وقد حلها الرياضى القديم بطريقة مهمة تعرف فى الجبر الحديث بطريقة اكمال المربع فوصل بذلك الى دستور لايجاد المجهول وهو $س = \sqrt{(\frac{1}{2})^{2} + \frac{3}{4}} - \frac{1}{2}$ $= \frac{1}{2}$ وذلك لانه اذا أضفنا $(\frac{1}{2})^{2}$ الى طرفى المعادلة لاكمال المربع يحدث عندنا : $س^{2} + س + (\frac{1}{2})^{2} = \frac{3}{4} + (\frac{1}{2})^{2}$ أى $(س + \frac{1}{2})^{2} = 1$ أى $س + \frac{1}{2} = 1$ وس $= \frac{1}{2}$ كما فيجواب المسألة . ومن هذا النموذج مسألة تؤدى الى المعادلة : $س^{2} - س = ب$. ويتبع فى حلها الرياضى القديم طريقةاكمال المربع أيضا .

والنموذج الثانى الذى ننتخبه عن معادلة الدرجة الثانية قضايا يكون فيها معامل (س) أكبر من الوحدة (أو غير الوحدة) أى من نوع المعادلة .

$$س^{2} + بس = ح$$

ونجد الرياضى البابلى يتبع فى حلها أى فى ايجاد (س) المجهول الدستور الآتى :ـ

$$س = \sqrt{(\frac{ب}{2})^{2} + ح} - \frac{ب}{2}$$

وهو دستور مستند كذلك الى طريقة اكمال المربع ، وذلك لانه اذا أضفنا $(\frac{ب}{2})^{2}$ الى طرفى المعادلة $س^{2} + بس = ح$ نحصل على $س^{2} + بس + (\frac{ب}{2})^{2} = ح + (\frac{ب}{2})^{2}$ أى $(س + \frac{ب}{2})^{2} = ح + (\frac{ب}{2})^{2}$

$$وس + \frac{ب}{2} = \sqrt{(\frac{ب}{2})^{2} + ح}$$

$$وس = \sqrt{(\frac{ب}{2})^{2} + ح} - \frac{ب}{2}$$

وفى الرقيم نفسه المعادلة نفسها بتغيير الاشارة أىالمعادلة $س^{2} - بس = ح$ ويحلها الرياضى القديم بطريقة اكمال المربع أى :

$$س = \sqrt{(\frac{ب}{٢})^{٢} + ح} + \frac{ب}{٢}$$

والنموذج الثالث الذي نورده عن معادلات الدرجة الثانية قضايا يكون فيها معامل (س٢) اكبر من الوحدة (أو غير الوحدة) ولهذا النموذج من معادلات الدرجة الثانية أهمية تاريخية خاصة • وقد اتبع رياضيو العراق القديم في حلها طريقتين • فالطريقة الاولى ، وهي أقل شيوعا عندهم هي الطريقة المعروفة في الجبر الحديث بطريقة الارجاع الى الوحدة وهي المتبعة في الجبر الحديث وترجع في أصلها الى الرياضي الشهير الخوارزمي اما الطريقة الاخرى ، وهي الاكثر شيوعا ، فهي ان البابليين كانوا يجعلون معامل (س٢) مربعا بأن يضربوا طرفي المعادلة بمعامل (س٢) نفسه • وتشبه هذه الطريقة البابلية الاكثر شيوعا طريقة الرياضي اليوناني «ديوفنطس» الذي أشرنا اليه وتوجد أمثلة أخرى على التشابه الموجود بين الطرق الجبرية عند هـذا الرياضي وبين الجبر البابلي •

واذا مثلنا للمعادلة من هـذا النموذج بـ $ا س^{٢} + س = ح$ فتكون طريقة الحل البابلية العامة بحسب الدستور $س = \frac{\sqrt{(\frac{١}{٢})^{٢} + ا ح} - \frac{١}{٢}}{ا}$

أما كيفية استخراج هذا الدستور فهي ، كما قلنا يجعل معامل $(س)^{٢}$ مربعاً كذلك أي بضرب طرفي المعادلة في ا فينتج $ا^{٢} س^{٢} + ا س = ا ح$ وباضافة $(\frac{١}{٢})^{٢}$ الى طرفي هذه المعادلة لتكميل المربع ينتج عندنا

$$ا^{٢} س^{٢} + ا س + (\frac{١}{٢})^{٢} = ا ح + (\frac{١}{٢})^{٢}$$

أي $(ا س + \frac{١}{٢})^{٢} = ا ح + (\frac{١}{٢})^{٢}$

و $ا س + \frac{١}{٢} = \sqrt{ا ح + (\frac{١}{٢})^{٢}}$

أي $س = \frac{\sqrt{ا ح + (\frac{١}{٢})^{٢}} - \frac{١}{٢}}{ا}$

ومن هذا النموذج أيضا قضايا يكون فيها معامل $(س^{٢})$ وكذلك معامل

(س) أكبر من الوحدة (او غير الوحدة) أى من شكل المعادلة الآتية :

$اس^{٢} + ب س = ح$. وقد حلها الرياضيون البابليون بالدستور الآتى :ـ

$$س = \frac{\sqrt{\frac{ب^{٢}}{٢} + اح} - \frac{ب}{٢}}{ا}$$

وكيفية استخراج هذا الدستور لا تختلف عما سبق أى بطريقة جعل معامل $(س)^{٢}$ مربعا وطريقة اكمال المربع أى :

$ا^{٢}س^{٢} + اب س = اح$ (بضرب طرفى المعادلة فى ا) وباكمال المربع باضافة $(\frac{ب}{٢})^{٢}$ الى طرفى هذه المعادلة نحصل على

$$ا^{٢}س^{٢} + اب س + (\frac{ب}{٢})^{٢} = اح + (\frac{ب}{٢})^{٢}$$

$$أى\ (اس + \frac{ب}{٢})^{٢} = اح + (\frac{ب}{٢})^{٢}$$

$$أى\ اس + \frac{ب}{٢} = \sqrt{اح + (\frac{ب}{٢})^{٢}}$$

$$س = \frac{\sqrt{اح + (\frac{ب}{٢})^{٢}} - \frac{ب}{٢}}{ا}$$

وبوسعنا ان نستنتج من هذه الطرق فى حل معادلة الدرجة الثانية ان الرياضيين البابليين كانوا يعرفون الدستور الرياضى الخاص بمربع مجموع عددين ومربع الفرق بين عددين على الرغم من عدم الرموز لديهم أى

$$(ا + ب)^{٢}\ و\ (ا - ب)^{٢}$$

وقد وردت بعض الحالات الطريفة فى معادلات الدرجة الثانية تشبه الحالات التى أشار اليها الخوارزمى مثل المعادلة $س^{٢} + ٢١ = ١٠ س$ حيث يكون لها جوابان (٣و٧) بالزيادة والنقصان ولا توجد لها حالة ثالثة اى جواب ثالث وتشبه هذه الحالة ما ورد فى رقيم رياضى فى المتحف البريطانى يتبع فى حل مثل هذه المعادلة (اى $س^{٢} + ج = ب س$) حالة الطرح ، اما حالة الجمع فقد ظهر لهم انها تؤدى الى نتيجة مستحيلة .

وجاءنا من معادلات الدرجة الثالثة بعض القضايا فى رقيم مهم فى

المتحف البريطاني • ويدور بعض هذه القضايا الجبرية على الأبعاد الثلاثة لاشكال مجسمة (حفر أو قنوات) وبعض الحجوم الرباعية المتوازية السطوح.

وللامثلة على معادلات الدرجة الثانية البسيطة في الجبر البابلي ننتخب مسألة[١] تتعلق بالعدد ومعكوسه اى العددان اللذان يكون حاصل ضربهما ٦٠ •

« يزيد عدد على معكوسه ٧ فما العدد وما معكوسه ؟

« عليك ان تنصف ٧ الذى يزيد به العدد على معكوسه فتحصل على ٣$\frac{١}{٢}$ • أضرب ٣$\frac{١}{٢}$ بـ ٣$\frac{١}{٢}$ فيحصل لديك ١٢$\frac{١}{٤}$ أضف الى ١٢$\frac{١}{٤}$ الذى نتج لك الرقم ٦٠ (اى حاصل ضرب العددين) فيكون الناتج ٧٢$\frac{١}{٤}$ • ما هو الجذر التربيعي لـ ٧٢$\frac{١}{٤}$ ؟ الجذر التربيعي هو ٨$\frac{١}{٢}$ • ضع ٨$\frac{١}{٢}$ ايضا واطرح من احدهما ٣$\frac{١}{٢}$ (وهو نصف المعامل الذى ربعته) وأضف الى الآخر ٣$\frac{١}{٢}$ ، فيكون ناتج الاول ١٢ وناتج الثانى ٥ فيكون ١٢ العدد و٥ معكوسه» •

ولتفسير خطوات الرياضي القديم نفرض ان العدد س ومعكوسه ص، ويكون بحسب الفرض س - ص = ٧ وس ص = ٦٠ ونحصل من ذلك على المعادلة س (س - ٧) = ٦٠ أى س^{٢} - ٧س = ٦٠ ومنها •

$$\text{س ، ص} = \sqrt{\left(\frac{٧}{٢}\right)^{٢} + ٦٠} \pm \frac{٧}{٢}$$

وخلفوا لنا طريقة في حل معادلات الدرجة الثالثة تعد على قدر عظيم من المهارة والاهمية ففي معادلة مثل س^{٣} + ب س^{٢} = حـ كانوا يضربون حدود المعادلة بـ $\frac{١}{\text{ب}^{٣}}$ فتصير $\frac{\text{س}^{٣}}{\text{ب}^{٣}} + \frac{\text{س}^{٢}}{\text{ب}^{٢}} = \frac{\text{حـ}}{\text{ب}^{٣}}$ فاذا عبرنا عن $\frac{\text{س}}{\text{ب}}$ بـ ه وعن $\frac{\text{حـ}}{\text{ب}^{٣}}$ بعدد معلوم هو ع فتكون المعادلة بالشكل الآتي :-

ه^{٣} + ه^{٢} = ع وكانوا يستخرجون قيمة ه من جداول خاصة بمجموع مكعبات ومربعات الاعداد هيأوها لهذا الغرض • وهذه براعة مدهشة في

---

(١) المثال المأخوذ من
O. Neugebauer and A. Sachs ; **Mathematical Cuneiform Texts** (1945) P. 129 — 30.

الاختزال الجبري (انظر مجلة «سومر» ١٩٥١ ، ص ١٥٤) ٠

ان الامثلة التي أوردناها عن الجبر في العراق القديم تكفي لتكوين صورة عند الطالب عن العلوم الرياضية التي اوجدها سكان العراق الاقدمون، فلن نطيل الكلام اكثر من ذكر طريقة اتبعها الرياضيون القدماء في جبرهم لتمثيل المجهول في المعادلات الجبرية حيث لم يهتدوا الى استعمال الرموز المستعملة في الجبر الحديث وتعرف هذه الطريقة بالوضع الكاذب (False Position) وفحواها تمثيل المجهول بالوحدة كمايفعل المبتدئون الآن بالرياضيات قبل دراستهم الجبر ٠ وقد كانت هذه الطريقة شائعة في اوربة في العصور الوسطى ٠ ومع انتفاء الرموز عند رياضي العراق القديم الا أن براعتهم الجبرية قد مكنتهم من القيام بكثير من العمليات الجبرية المألوفة لدينا مثل اختزال الحدود المتماثلة ، وحذف كمية مجهولة بالتعويض وادخال كمية مجهولة مساعدة ٠ (وللامثلة على ذلك وتحليلها أنظر بحث المؤلف في مجلة سومر المجلد ١٩٥١ ، الجزء الثاني الص ١٥٢ فما بعد) ٠

لقد قلنا ان الجبر عند البابليين بلغ مرتبة العلم تقريبا ٠ والسبب في وضعنا هذا القيد أي تقريبا هو ان جل ما جاءنا من المسائل الجبرية هي امثلة كثيرة ولم يخلفوا لنا قاعدة عامة اي انهم عرفوا حل أنواع من المسائل التي يؤدي حلها الى أنواع مختلفة من المعادلات الجبرية الا انهم لم يخلفوا لنا ما يشبه وضع القواعد العامة أو البراهين على نحو ما هو معروف في الرياضيات الحديثة والرياضيات العربية ٠ ومهما يكن من أمر فان المسائل الجبرية التي حلوها على أنواع المعادلات المختلفة تشير الى أنهم كانوا يعرفون القواعدالعامة في أفكارهم وان ما جاءنا من القضايا الجبرية ما هي الا مسائل وتمارين مدرسية حلت بموجب القواعد التي كانت معروفة عندهم ، وانهم لم يذكروا هذه القواعد العامة في الحل لان حال المسألة لا يتطلب منه أن يذكرالبرهان أو الدستور أو القاعدة التي حل بموجبها وهذا كما هو متبع في الوقت الحاضر

لو حل طالب حديث مسألة جبرية على قاعدة اكمال المربع مثلا أو انه اتبع الدستور العام .

والامر المدهش في تضلع رياضي العراق القديم بعلم العدد انهم لم يخشوا الاعداد السالبة ، وهذا شيء مدهش لا سيما اذا علمنا ان فكرة الكمية السالبة لم تدخل في عقول رياضي الغرب الا الى زمن القرن الثالث عشر للميلاد وقد اقتضى تطور الفكرة ونموها قرونا اخرى[1] .

الفلك :

من الامور المجمع عليها في تاريخ المعارف البشرية أن البابليين هم الذين أسسوا علم الفلك ، وقد أشتهر الفلك البابلي شهرة عظيمة بين الاغريق حتى أن أسماء من مشاهير الفلكيين البابليين قد عرفوها وترجموا عنها فمن ذلك الفلكي البابلي « نبوريانوس » و « كيدينو » **(٣٦٧ أو ٣٤٠ ق . م)** ، الذي يحق أن يوضع اسمه مع علماء الفلك المحدثين امثال « كبلر » و « كوبرنيكوس » و « غليليو » . والواقع ان العراقيين الاقدمين قد عنوا بملاحظة الاجرام السماوية في سماء العراق الصافية منذ أقدم الازمان ، وعندما بدأوا يدونون ملاحظاتهم وارصادهم وحساباتهم منذ العهد الاكدي والعهد البابلي القديم انتقلوا من طور المعرفة العملية الى طور علم الفلك الحقيقي . ومن الاقوال الشائعة، ان منشأ علم الفلك البابلي من التنجيم ، اي رصد النجوم لتأثيرها في طبائع البشر ومصائرهم ، ولكن ذلك وهم كبير اذ الواقع ان العكس هو الصحيح وأن الفلك نشأ من حاجاتهم لضبط الفصول والزمن والتقويم[2] . هذا وقد رأينا في مبحث الرياضيات مبلغ ما وصلوا اليه في المعلومات الرياضية الواسعة المتقنة أي أنهم وضعوا الاسس الرياضية التي لا يمكن ان يكون فلك علمي بدونها فساعدهم ذلك في تقدم بحوث الفلك حتى أنهم كثيرا ما استبدلوا الملاحظة المباشرة والارصاد بالحساب ويصدق هذا

---

(١) Sarton, **Op. Cit.,** ch. III, P. 73.

(٢) انظر البحث الخاص بالتنجيم في ديانة العراق القديم

بالدرجة الاولى على العهود المتأخرة حيث نشأ الفلك الرياضي وقد اشتهر من الفلكيين في العهد السلوقي في العراق فلكي اسمه « سلوقس» الذي قال بان الشمس مركز الكون كما انه علل المد باسباب علمية وارجعها الى اثر القمر وهذا أمر يدل على تقدم علم الفلك عندهم ونضجه ٠ ومن الاشياء المدهشة حقا ان الفلكيين في الوقت الحاضر لم يستطيعوا أن يبلغوا شأو الفلكيين البابليين في كثرة ارصادهم وطول زمنها فان أطول أرصاد في الوقت الحاضر هي التي بدأت في «غرينوش» في العام ١٧٥٠ ، ولكن طول هذه الارصاد لا يمكن ان تقاس بالارصاد البابلية التي استغرقت قرونا طويلة منذ أقدم العهـــود وكانت هذه الارصاد الاساس الذي استندت اليه القواعد العامة لعلم الفلك، واستعملوا في ارصادهم الفلكية طرقا فنية تستحق الذكر ومن ذلك نوع من الآلة التي نسميها بآلة « الترانزيت » ٠ فقد استعمل الملك الاشوري «توكلتي-ننورتا» الاول (١٢٦٠-١٢٣٢ ق ٠ م) مثل هذه الآلة عند بناء قصره في اشور[1] ، ومع ان البرج المدرج «الزقورة» قد بني لاغراض دينية بالدرجة الاولى الا انه كان بالامكان استعماله أيضا لرصد الاجرام السماوية ، فاستفادوا منه للاغراض الفلكية ٠

لقد قسم البابليون اليوم الفلكي الى ١٢ قسما كل قسم يساوي ساعة مضاعفة من ساعاتنا ، والساعة الى ٣٠ جزء اي أن يومهم الفكي كان مقسما الى ٣٦٠ قسما متساويا، كما ان في السنة الواحدة ٣٦٠ يوما ، فكانت الدقيقة تساوي أربع دقائق من دقائقنا ، وقد جاءنا هذا التقسيم منذ السلالة الاكدية ٠ ومما يقال عن التقويم في العراق القديم أنه كان يستند بالدرجة الاولى الى الشهر القمري ، وقد ميزوا بين الشهور القمرية المؤلفة من ٢٩ يوما ومن ٣٠ يوما بصورة متعاقبة ، وكان معدل مدة اثنى عشر شهرا قمريا (٣٥٤) يوما أي أقل من السنة الشمسية بنحو ١١ يوما ، واذا جعلوا سنتهم ثلاثة عشر

A.T. Olmstead, "Babylonian Astronomy" in **American Journal of Semitic Languages**, (1938), 113 ff.

شهرا قمريا كان معدل طولها (أى ٣٨٤ يوما) أكثر من السنة الشمسية من الناحية الاخرى • ولتلافي الانسجام بين الدورة القمرية والدورة الشمسية استعملوا اثنى عشر شهرا قمريا وكانوا يكبسون شهرا ثالث عشر عند اقتضاء الحاجة، وقد قاموا بذلك منذ عهود قديمة ، ففى عهد سلالة اور الثالثة مثلا كانت تلك الاضافات تعاد نى دورة كل ثماني سنوات • وقد صار هذا التقويم البابلى نموذجا لاقتباس شعوب اخرى كالتقويم اليهودى والتقاويم اليونانية والرومانية قبل ادخال التقويم الجوليانى (فى ٤٥ ق•م) ولا يزال اثر التقويم البابلى ملحوظا فى تقويم الكنيسة • وقبل ان نترك هذه اللاحظات على التقويم البابلى نذكر قضية تأريخية مهمة هى أصل الاسبوع ، ومع ان اختراع الاسبوع يعزى فى أصله الى العراق القديم ، الا أن أصله معقد ويرجع الى أكثر من مصدر واحد • فاولا ان الشهر القمرى افضل أنواع التقاويم فى امكان تقسيمه الى مدد بحسب اوجه القمر • وكان سكان العراق القدماء يعلقون أهمية خاصة باليوم السابع والرابع عشر والواحد والعشرين والثامن والعشرين من الشهر من ناحية السعد والنحس • وهكذا قسموا الشهر بصورة عملية الى أربعة أسابيع ، ولكن كانت أسابيعهم غير مستمرة أى بخلاف اسابيعنا • وتطورت فكرة الاسبوع من بعد ذلك فى القرون القلائل الاخيرة قبل المسيح وصار اسبوعا مستمرا بالجمع بين الفكرة البابلية والسبت اليهودى وقصة خلق العالم فى ستة أيام كما جاء فى التوراة (الخروج : ٢٠ : ١١) والساعات المصرية • وكذلك قسموا دائرة السماء الى ١٢ ساعة من ساعاتهم و ٣٦٠° وقسموا سمت الشمس أو دائرة البروج (Ecliptic) الى اثنى عشر قسما بواسطة النجوم الثوابت وسموا كل قسم بنجم من تلك النجوم ، وهذا ما يعرف بالبروج الاثنى عشر (Zodiac) ومثلوا كواكب تلك البروج بعلامات ورموز هى التى ورثها العالم عن البابليين وبموجب هذا النظام قسم البابليون السنة الشمسية الى اثنى عشر قسما يقابل كل قسم شهرا و ٣٦٠ درجة ولا يزال تقسيم الدائرة الى ٣٦٠ درجة مستعملا الى هذا اليوم • وتكون الشمس فى

كل شهر فى جزء خاص من السماء أو فى برج خاص من البروج الاثنى عشر وقسموا كل برج الى ٣٠ درجة تطابق عدد أيام الشهر • واتخذ الرياضيون الفلكيون هذا النظام البابلى فى جميع الازمان ، وقد استعمل البابليون فى فلكهم أقصى ما وصلوا اليه من المعلومات الرياضية ، حتى انهم استخدموا المتواليات الهندسية والحسابية فى تعيين مدة اليوم والنهار واطوالهما بالنسبة للفصول الاربعة ، وكذلك استعملوا المتواليات الحسابية المتصاعدة والمتنازلة فى معرفة ازمان طلوع القمر وغروبه وكذلك فى رصد بعض الكواكب مثل كوكب الزهرة • وقد جاءتنا ارصاد مطولة عن هذا الكوكب من زمن سلالة بابل الاولى ، وتشير الاخبار الى أن الحركة العلمية فى الارصاد الفلكية اشتدت منذ العهد البابلى القديم كما ذكرنا فقد وصل الفلكيون منذ ذلك العهد الى ارصاد مضبوطة عن ظهور النجوم الثوابت وغروبها فى كل عام ، وكذلك ألفوا الاسطرلابات وحسبوا ابعاد النجوم بالدرجات وعندما ظهر فن الاسطرلاب[1] عند البابليين منذ الزمن البابلى القديم بدأ العهد العلمى فى الفلك البابلى ، وقد سبق هذا العهد ازمان المعارف العملية والتجارب والملاحظات • وكان الاسطرلاب أول محاولة علمية فى تاريخ البشر لوضع المعلومات الفلكية عن النجوم التى تظهر فى الفصول المختلفة من السنة فى نظام وترتيب علميين • والاسطرلاب المألوف عبارة عن ثبت علمى بعدد من الكواكب (٣٦ كوكبا) من الكواكب التى تظهر فى الاشهر الاثنى عشر وقد خصصوا لكل شهر ثلاثة نجوم تظهر فيه • وقد جاءتنا بعض هذه الاسطرلابات على هيئة قرص دائرى رتبت الكواكب فيه فى ثلاث دوائر ذات مركز واحد وقسم القرص الى اثنى عشر قطاعا كل قطاع لشهر من الاشهر وخصص

---

(١) انظر البحث القيم المنشور فى المرجع الآتى :ـ
O. Neugebauer, „The History of Ancient Astronomy" in **Journal of the Near Eastern Studies**, vol. IV (1944), 1 ff.

لكل قطاع الكواكب الثلاثة التي تظهر فيه • ومن الارصاد المهمة التي جاءتنا عن البابليين الارصاد الخاصة بالزهرة اشهرها التي جمعت في أيام الملك البابلي «امي صادوقا» (الملك العاشر من سلالة بابل الاولى) فلقد رصد الفلكيون من ذلك العهد أول ظهور الزهرة وآخر ظهور لها في غروب الشمس وشروقها وطول مدة احتفائها مرفقين بذلك التنبؤات الملائمة لكل حالة ، كما عرف الفلكيون البابليون مدة اقتران الزهرة وقدروها بـ **٥٨٤** يوما ، وكانوا عارفين بمدة الثماني سنوات التي تظهر فيها الزهرة خمس مرات في نفس المواضع ، كما تشاهد من الارض • وحسبوا مدة قران عطارد بخطأ لا يتعدى الخمسة ايام (فقد كان تقديرهم بـ ١١١ يوما والمدة الصحيحة ١١٥٫٨) •

واستعمل البابليون آلات خاصة لقياس الزمن ، وهي الساعات المائية لقياس اجزاء الليل والساعات الشمسية او المزاول لقياس ساعات النهار ، ولعل هيرودوتس أصاب الحقيقة عندما قال : « تعلم الاغريق الـ « نومون » والـ « بولوس »[1] وتقسيم اليوم الى اثني عشر قسما من البابليين » • و «النومون» أي المزولة التي أشار اليها هيرودوتس نوع من الساعات الشمسية، مبدؤها الظلال التي ينشرها ميل مثبت على قرص • أما «البولوس» ، فهو كذلك من الساعات الشمسية لقياس الزمن نهارا ، وكانت هذه عبارة عن نصف كرة يثبت في مركز جوفها ساق (ميل) ترسم نهايته ظلها على الجوانب الداخلية المدرجة لنصف الكرة بحسب سير الشمس • وقد استخدموا طريقة جريان كميات معلومة من الماء في اناء مدرج لمعرفة اجزاء الليل اي ساعات الليل • وقد استخدم بعض فلاسفة اليونان وعلمائهم جداول الارصاد البابلية لمعرفة الكسوف والخسوف قبل حدوثهما ، وقد اثر ذلك تأثيرا بالغا في الاتجاه العلمي عند اليونان وغير من عقائدهم بالنسبة الى الظواهر الكونية، وهذا مثال آخر على اتصال اليونان بحضارات وادي الرافدين • وسنرى من

---

(1) Polos & gnomon

بحثنا في تاريخ اليونان ان علم اليونان وفلسفة اليونان قد بدأ بين جماعة منهم يعرفون بالايونيين في السواحل الغربية من آسية الصغرى • واشتهرت من هذه المستوطنات اليونانية « ملطية » عاش فيها في القرن السادس ق•م• جماعة من العلماء والمفكرين يعدون مؤسسي علم اليونان وفلسفتهم وكان على رأسهم طاليس • وقد استطاع هذا ان يحدث اثرا عظيما في آراء قومه في ظواهر الكون الطبيعية ، فقد استخدم طاليس الارصاد الفلكية البابلية وتنبأ لاهل مدينته بوقوع الخسوف والكسوف قبل وقوعهما فاستطاع ان يبرهن لهم ان مثل هذه الظواهر تحدث بموجب قوانين طبيعية وليس بتأثير الشياطين والارواح أو القوى العلوية • وملخص القول ان فلكي العراق القديم قد اسسوا الفلك العلمي ، ولولا هذه الاسس لما امكن للفلكيين المتأخرين كاليونان أن يصلوا الى نتائجهم المهمة ، والمرجح كثيرا انهم اثروا ايضا في أمم شرقية أخرى كثيرة كالهنود والايرانيين والصينيين •

العلوم الطبيعية والمعارف الصناعية الفنية : ـ

لقد ألمحنا فيما سبق الى ان معارف العراقيين الاقدمين عن الكون والطبيعة قد بدأت منذ نشوء الحضارة الناضجة في بداية الالف الثالث ومما لا شك فيه ان بذور تلك المعارف قد غرست في الاطوار التمهيدية التي سبقت نشوء الحضارة ، ويصدق ذلك على العلوم الطبيعية كالعلوم التي تتناول حياة الحيوان والنبات (البيولوجيا ، بكلا فرعيها ، علم الحيوان (Zoology) وعلم النبات (Botany) • وابتدأ أصحاب المعرفة من الكتبة والكهنة والمعلمين يجمعون هذه المعلومات ويبحثون فيها منذ نهاية الالف الثالث ق•م• اى منذ بداية العصر البابلي القديم • وقد خلفوا لنا جداول واثباتا مهمة في الحيوان والنبات والاحجار • ومع ان هذه الاثبات كانت كلما قلنا سابقا تحقق أغراضا لغوية أيضا ولكنها في الوقت نفسه معارف مهمة عن عالم الحيوان والنبات وعن المعادن والاحجار كما سنذكر في موضوع الكيمياء •

ومما يشير الى أنهم بدأوا بطون العلم أنهم تناولوا أهم نقطة من نقاط هذه البحوث وهي التصنيف (Classification) اى تصنيف عالم الحيوان والنبات الى مجموعات وأصناف وتدل على معرفتهم بعالم الحيوان والنبات جملة وثائق متنوعة حيث خلفوا لنا اثباتا متنوعة بالحيوانات والنباتات ، والغالب فى هذه الاثبات انهم يكتبونها بحقلين ، يوجد فى حقل المصطلح السومرى وفى الحقل الثانى المصطلح البابلى[1] وقد اثبت البحث الحديث ان اسماء جملة من النباتات بالانجليزية اصلها من الاسماء البابلية مثل

(kasù), cassia. (kukru), chicory. (kamúnu), Cumin. (kurkànu), Crocus. (zùpu), hyssop. (murru). myrrh. (lardu) nard.

والمهم فى محاولاتهم ليس الدقة ومطابقتها لما وصلت اليه العلوم الحديثة ولكن الاهمية ناشئة عن انهم بدأوا فى منهج البحث العلمى وكانت عادتهم فى تصنيف الحيوان والنبات انهم كانوا يرمزون لكل صنف باسم عام او رمز يطلق ، بحسب الطريقة المسمارية ، على ذلك الصنف مثل صنف الاسماك والحيوانات المتصلية وصنف الافاعى والطيور وذوات الاربع وكانوا اذا أرادوا التعبير عن فرد من هذه الانواع أو الاصناف يعلمونه برمز الصنف العام ، ويكتبون ذلك جنب الحيوان او النبات قبل الاسم او بعده وميزوا من بين الاصناف العامة أنواعا أو أجناسا مختلفة ، وكانوا فى حالات كثيرة يحشرون عدة أفراد وان لم يكن فيما بين بعضها تشابه أو علاقة فأدرجوا مثلا تحت جنس الكلب الذئب والضبع والاسد أيضا ، وتحت جنس الحمار الفرس والجمل ، وعدوا جميع ما يعيش فى الماء تحت صنف السمك وكذلك ذوات الاصداف والسلاحف • وميزوا فى عالم النبات أنواعا

(١) للمؤلف بحوث فى اسماء النباتات والاعشاب الواردة فى المصادر المسمارية نشرت فى مجلة سومر (المجلد ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣) انظر ايضا المراجع الآتية :ــ

(1) C. Thompson, **The Assyrian Herbal** (1924) .

(2) ————, **Dictionary of Assyrian Botany** (1947).

(3) Landsberger, **Die Fauna des alten Mesopotamien** (1934).

وأجناسا من الاشجار والخضروات والاعشاب والحبوب وصنفوا هذه الى مجاميع متشابهة فى أشكالها وأثمارها ، وميزوا فى بعض الاشجار جنسى الذكر والانثى ، مثل النخيل • وقد أخطأ هيرودوتس فى عد اصل هذه المعرفة من الاغريق ، وسنذكر فى مبحث الطب استعمال النبات والاعشاب والحيوان والمعادن فى أدويتهم •

الكيمياء :ـ

ابتدأت معرفتهم العملية الناضجة فى الكيمياء منذ أن عرفوا التعدين ، وسبق التعدين صنع الفخار الذى تعلموا منه أشياء مهمة عن خواص المواد وتأثير الحرارة وخواص الطين وغير ذلك . وعندما بدأوا يزوقون أوانى الفخار ويصبغونها زادت معرفتهم ببعض المواد الكيمياوية ايضا ، وكذلك عرفوا فى طور المعرفة العملية فى الالف الثالث طريقة التزجيج وصنع الخرز من العجائن واللدائن الكيمياوية ، فعرفوا فى هذه الصناعات قابلية السلكات القلوية للانصهار كما هو الحال فى المعادن ، ومن هذه الطريقة صنعوا نوعا من الزجاج المعتم ، وعرف العراقيون الاقدمون خصائص معادن كثيرة قبل عصور فجر السلالات وازدادت معرفتهم فى عصور فجر السلالات فقد صنعوا البرونز منذ عهد جمدة نصر واتقنوا تعدين البرونز فى عصور فجر السلالات ، وكذلك اتقنوا مزج المعادن (Alloy) فصنعوا بهذه الطريقة مثلا معدنا مزيجا من الذهب والفضة هو (الالكتروم (Electrum) وقد خلف لنا السومريون من المقبرة الملوكية فى اور نماذج جميلة من الاوانى المصنوعة من هذا المزيج • وكانت بعض المعارف العملية الثمينة فى الفيزياء والكيمياء العملية قد حصلوا عليها من صهر المعادن وتنظيفها وسبكها • كما برعوا فى فن السبك والصب وصنع التماثيل منها بدرجة كبيرة من المهارة ، وصنعوا سبائك قوية من النحاس بخلطه بالرصاص والاثمد ، وخلطوه كذلك بالقصدير ، بحيث انهم استبدلوا النحاس الصرف بأنواع مختلفة من البرونز • واستعملوا الحديد بقلة فى العصور القديمة ، ولم يشع استعماله بكثرة الا منذ الالف الاول ق•م وشاع كثيرا فى العهد الاشورى الحديث ، فمثلا خزن

سرجون الثاني الاشوري (٧٢١ - ٧٠٥ ق ٠ م) في قصره في خرسباد كميات كبيرة من الحديد لصنع الاسلحة وقد عثر في التنقيبات هناك على كتلة من الحديد الممتاز المصنوع تقدر بـ (١٦٠٠٠٠) كيلو غرام ٠

ان هذه المعلومات العملية المهمة قد حدت بالبابليين فيما بعد الى التجربة في المعادن والبحث فيها ، فقد فكروا مثلا في صنع المعادن الثمينة وتحويل المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة وهذا هو « السيما » الذي سبق علم الكيمياء الحقيقي ، وقد وصلوا بمحاولاتهم تلك الى معلومات مهمة عن خواص المعادن وبعض الطرق الكيماوية المهمة ٠ ولم تقتصر محاولتهم في تحويل المعادن على الذهب بل تناولوا بعض الاحجار المهمة عندهم مثل حجر اللازورد (lapislazuli) وحصلوا بطرق التمويه والتقليد على أشياء مقلدة تشبه المواد التي حاولوا صنعها ، وبوسعنا ان نحشر في هذا الموضوع المعلومات الثمينة التي وصلوا اليها في صنع الاصباغ وصنع العقاقير والادوية والصابون والعطور والجعة والمشربات الاخرى والمينا المزججة واستخدام ذلك في الصبغ والرسم وكذلك في تزجيج الآجر والفخار ٠

ومع ان معظم هذه الصناعات الكيماوية عملية الا انه جاءتنا من العراق القديم بعض المؤلفات والكتابات في الكيمياء ، ووجدت من ذلك نسخ في خزانة كتب الملك الاشوري « اشور بانيبال » وهي لا شك نسخ عن أصل أقدم وجاءتنا مؤلفات مهمة عن صنع الزجاج والتزجيج اقدمها من القرن السابع عشر ق٠م[١] وتوجد صعوبات في فهم المؤلفات الكيماوية ناشئة عن جهلنا بتعيين المواد المذكورة في تلك المؤلفات وبلابس وصف العمليات

---

(١) نذكر من ذلك نص مهم من عهد الملك المسمى « جوليشار » (من القرن السابع عشر ق٠م) يصف العملية الخاصة بصنع نوع من التزجيج من النحاس والرصاص لطلي الاواني الفخارية ، وكيفية صنع جسم اخضر مع الطين المخلوط بالزنجارة (كبريتات النحاس) (وهذا اللوح موجود في المتحف البريطاني انظر نشره والتعليق عليه في مجلة (Iraq) المجلد الثالث (١٩٣٦) الص ١١ فما بعد)

الكيماوية فى بعض المؤلفات الطرق الدينية والسحرية•وقد خلفوا لنا وصفة كيماوية فى عمل حجر اللازورد أى تقليد الحجر الطبيعى ووصفة فى عمل الزجاج والتزجيج والمينا • وجاءنا من مؤلفاتهم المتأخرة انهم كانوا يحصلون على النار بطريق القدح بالصوان ولكن خواص الكبريت الطبيعى كانت معروفة لديهم ويرجح بعض الباحثين انهم عرفوا صنع نوع من الثقاب (أى الشخاط) • وعرفوا بعض الطرق الكيماوية كالتصعيد واستخرجوا بذلك ما يسمى بالسليمانى المصعد والزئبق وذلك عن طريق استخراج ملح الامونيا من السماد المحروق ثم اكتشاف الزئبق واستخراجه من الزنجفر وهو كبريت الزئبق الاحمر الموجود فى منطقة كركوك وبعض المواضع فى كردستان • وعرفوا الرصاص الابيض (اى كاربونات الرصاص) وهو الناتج من تفاعل الخل مع الرصاص وبالتسخين استخرجوا الرصاص الاحمر • ومن الامور المهمة التى وصل اليها الباحثون حديثا هى ان البابليين خلفوا لنا وصفة فى استعمال الذهب فى الزجاج لاستخراج الزجاج الارجوانى واستنتج هؤلاء الباحثون أنهم عرفوا التيزاب أو «الماء الملكى» الذى يذيب الذهب ، وهو الحامض الذى استخرجه الكيماوى العربى جابر بن حيان فى القرن الثانى للهجرة • وقد استخدموا معارفهم فى الكيمياء فى استخراج الادوية المعدنية وذكروا لنا ما لا يقل عن ١٢٠ نوعا من أنواع هذه المواد المعدنيـة المستعملة فى الطب[١] •

الطب :

ومما يقال عن الطب القديم أن القوم مع ما وصلوا اليه من معلومات مهمة بالامراض وتشخيصها ومعرفة بالعقاقير وتركيبها واشياء عن الجسم الانسانى والجراحة ، فان الطب عندهم بقى يخالطه الكثير من العمليات السحرية كاستعمال الرقى والتعزيم ، ومنشأ ذلك بالدرجة الاولى الاعتقاد بمصدر

(١) C. Thompson, **Dictionary of Assyrian Chemistry.**

الامراض التى تسببها الشياطين والارواح[١] • ومصدر الطب عند العراقيين القدماء مثل غيره من المعارف البشرية الاخرى من الآلهة التى يرجع اليها فن الشفاء والتطبيب • وكان الاله الذى خصصوه للطب والاطباء هو الاله الحكيم « ايا » الذى سبق ان ذكرنا علاقته بالماء وانه كان سيد المياه ، ولهذا السبب ولانهم استعملوا المياه فى الطب فقد سموا الطبيب بكلمة معناها العارف بالماء (وباللغة السومرية «آزو» ومنها الكلمة البابلية «آسو» ، التى استعملت فى معظم اللغات السامية ومنها الكلمة العربية «الآسى»)[٢] • ومن الآلهة التى خصوها بالطب والاطباء أيضا الاله المسمى «ننازو» (ومعنى اسمه سيد الحكماء والاطباء) وله ابن خاص كذلك بالطب هو الاله « ننجشزيدا » • ومن الطريف فى أمر هذا الاله بعض الرموز المقدسة الخاصة به وهى العصا الملتفة عليها حية أو حيتان • وهذه هى الشارة المتخذة عند الاطباء فى العصور الحديثة ومنشأ هذه الشارة اعتقادهم ان الحية رمز الحياة الدائمة لانها لاتموت وانما تخلع جلدها كل عام فيعود اليها الشباب[٣] •

---

(١) والواقع ان قسما كبيرا من البشر لم ينتقل من طور السحر والرقى الى طور الطب الخالص فى الحضارات القديمة ومما يجدر ذكره ان الانسان الحديث لم يزل كذلك فى طبه الى عهد غير بعيد ولعل الفرق الجوهرى بين العراقيين الاقدمين والانسان الحديث فى شان علاقة الطب بالتعزيم والرقى هو أن الامور الدينية والنفسية التى يلتجا اليها الناس الان فى المعالجة يقوم بها اشخاص مخصوصون غير الاطباء . ولكن الاطباء أنفسهم فى الازمان القديمة كانوا يقومون بالعمليتين فى آن واحد • أى التطبيب واستعمال الرقى والاشياء الروحية • والى هذا الفرق كان البابليون لا يميزون بين العلل الطبيعية المسببة للامراض وبين ما يعزونه الى فعل الارواح والشياطين • فاذا مرض مريض فى عائلة وأصاب المرض نفسه فردا آخر من العائلة كانوا يعزون ذلك الى انتقال الشيطان أو الروح المسببة للمرض الى الشخص الثانى أما نحن فنقول أن الميكروب الخاص بالمرض قد أنتقل من شخص الى آخر • هذا ونحن لا نعرف بوجه التاكيد كيف كان البابليون يتصورون شياطينهم ، على الرغم من أنهم خلفوا لنا بعض الدمى والصور التى يظن أنها تمثل بعض الشياطين والعفاريت •

(٢) وللطبيب اسم آخر هو (يازو) بالسومرية ومعناه العارف بالزيت •

(٣) انظر منشأ هذا الاعتقاد فى قصة جلجامش فى بحث الآداب

ويمكننا حصر طرق العلاج والتداوى عندهم بثلاث وسائل : (١) العلاج الطبى وما يتعلق به من عقاقير وتمريض (٢) العمليات الجراحية (٣) الرقى والتعزيم لطرد الارواح والشياطين التى تسبب الامراض • وقد سبق ان ذكرنا شيئا عن الوسيلة الثالثة فى مبحث الديانة فى قسم السحر والعبادات ونذكر الآن شيئا موجزا عن الطريقتين الاخريين اللتين هما موضوع الطب الصحيح • ومما لا شك فيه انأصل الطبعندهم من المعارفالعملية والمعلومات الشعبية عند الناس وكذلك من السحرة الذين لم يقتصروا فى طردالارواح على الرقى والتعزيم بل استعملوا العقاقير لانهم كانوا يرون أن مثل هذهالعقاقير تقتل الشياطين أو تضطرها على الاقل الى مغادرة الجسم لقوتها ونفرةالشياطين والارواح منها (ولا تزال عند كثيرين من الناس فكرة تتعلق بان الدواء كلما كان مجا أو مرا أو قويا تعافه النفس كان تأثيره قويا فى مغالبة المرض وشفائه • وهذا مما لا شك فيه من بقايا آراء البشر الاقدمين فى الطب والادوية والامراض) •

واذا كان فن العلاج والشفاء من الآلهة فان الآلهة ايضا مصدر الامراض لانها خالقة كل شيء ، من خير وشر • كما ان الامراض انما كانت مظاهر او امارات على سخط الآلهة على البشر ، ولذلك فالدواء الصحيح الشافى يكون فى ترضية الاله وتسكين غضبه ، اما العلاجات فقد تفيد فى تسكين الداء والتخفيف من شدته • ولذلك فقد كان الطبيب كاهنا فى الوقت نفسه ، اى انه عدا استعماله للعقاقير والادوية المسكنة فانه يقوم بالتعزيم والسحر واستعطاف الآلهة وطرد الارواح الخبيثة والمسببة للمرض بسبب اثم المريض وسخط الآلهة • ومن نتائج ذلك أيضا ان الطب البابلى لم يقتصر فى أساليبه عن فن التشخيص والوصف والعلاج وانما يستند ايضا الىطرق العرافة والكهانة والسحر مما مر بنا سابقا فى الكلام على الدين ، كما أن

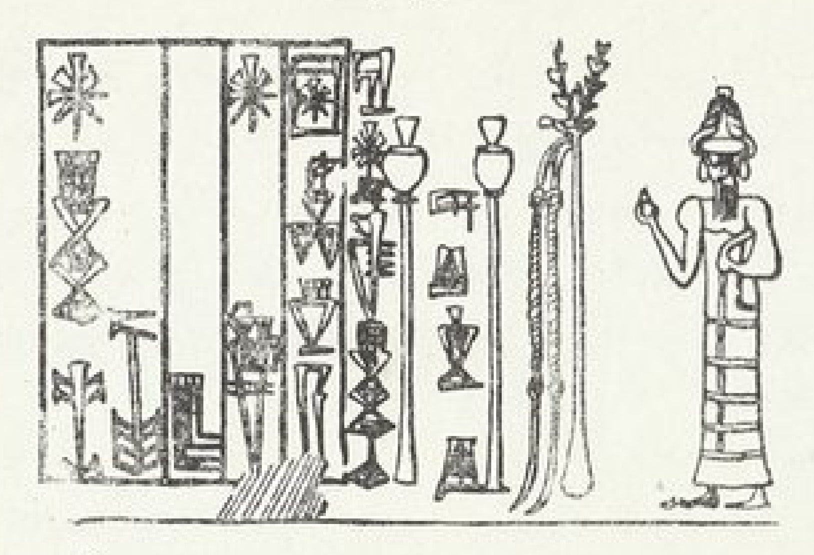
مصدر بعض الامراض كان من «العين الشريرة» وهذه خرافة منتشرة منذ القدم انتشارا عالميا[١] .

ويستدل من المصادر التي خلفها لنا العراقيون الاقدمون على انه نشأ عندهم منذ الازمان القديمة أصناف من الاطباء ، منهم الاطباء الخاصون بتداوي الامراض بالعقاقير ونشأ عندهم كذلك الجراحون والبياطرة ، ونستدل من شريعة حمورابي على أن الطب بلغ في العهد البابلي القديم مكانة مهمة في المجتمع استلزم تنظيمه بجملة مواد في قانون حمورابي بعضها يتعلق بتحديد الأجور الخاصة بالاطباء والجراحين والبياطرة وكذلك تحديد العقوبات الخاصة في حالة اساءة الاطباء استعمال مهنتهم . فمن جملة ذلك الاحكام الآتية : ان الجراح الذي ينجح في شفاء العين بعملية جراحية فانه يأخذ أجرة قدرها عشرة شيقلات من الفضة من الحر و (٥) شيقلات من فرد من الطبقة الوسطى أما اذا فشل ذلك الطبيب الجراح فسبب موت المريض أو أنه سبب فقدان عينه فتقطع يده ولكنه يعوض عبدا بعبد اذا كان المريض عبدا ويدفع نصف ثمنه اذا فقدت عينه[٢] ويتقاضى الطبيب بحسب قانون حمورابي في تجبيره عظاما مكسورة او عضلات مريضة ١٥ و١٣ و٢ شيقل من الفضة بحسب طبقة

---

(١) قارن الكلمة اليونانية الخاصة بذلك (bascania) ومنها الكلمة اللاتينية (fascinum) التي منها الكلمة الانجليزية (fascination).

(٢) مما لا شك فيه ان هذه المواد تبدو لاول وهلة صارمة وغير معقولة ولا قابلة للتطبيق فلو طبقت في الواقع ، والطب القديم على ما عليه من البداءة لفقد الاطباء والجراحون في الغرامات ليس أموالهم حسب بل أيديهم ولما بقي طبيب يمارس مهنته فيكون التفسير المعقول لهذه المواد الواردة في قانون حمورابي ، ان أحكامها لم تكن لتطبق الا على الحالات الشاذة المتطرفة التي يثبت فيها الفشل بنتيجة اهمال الجراح والطبيب المتعمد ، وان الغرامة والعقوبة لا تفرضان بدون محاكمة رسمية واثبات وادانة . ومن الطريف ذكره بهذا الصدد اننا نجد أثر هذه الاحكام في الحيطة الشديدة التي كان يركن اليها اطباء ذلك الزمان ، فكانوا لا يقدمون على حالة لا يطمئنون الى شفائها وقد ورد في المآثر والامثال الخاصة بالاطباء انه ينبغي للطبيب « أن لا يضع يده على مريض قد تأكد من عدم شفائه وموته » .



ختم اسطوانى يعود الى طبيب سومرى نقشت فيه بعض آلاته الطبية
واسمه (اور ـ لوگال ـ ادنا)

المريض • ويتقاضى البيطار ½ شيقل من الفضة فى عملية يجريها على ثور أو حمار ويعوض فى حالة الفشل ⅕ ثمن الحيوان (المادة ٢٢١ من قانون حمورابى) • والملاحظ فى الاحكام الواردة فى شريعة حمورابى عن تنظيم شؤون الطب انها تقتصر على الجراحين والبياطرة ، ولم يرد ذكر للطبيب الاعتيادى الذى يداوى بالعقاقير ، ولعل تفسير ذلك ان الطبيب كان شخصية ذا قدسية فلا يمسه القانون لان علاجه كان بالدرجة الاولى بالتعزيم والرقى واستعطاف الآلهة • اما الجراحون فقد اعتبرتهم الشريعة من ذوى الحرف فيجازون خيرا أو شرا بحسب نتيجة عملهم •

تشير الكتابات المسمارية الى ان عدد الاطباء المحترفين لم يكن قليلا ، والى هؤلاء كان جملة من الاطباء الموظفين الرسميين بعضهم خاص بالملوك ، وكان الاطباء يتنقلون من بلد الى بلد آخر ومن قطر الى قطر آخر حتى ان الملوك كانوا يرسلون اطباءهم الخاصين الى الملوك الآخرين لمداواتهم ، وكانت هذه العادة متبعة فى أقطار الشرق الادنى ، وجاءتنا عنها اخبار طريفة

من العهد الذى سميناه «بعهد العمرانة» من زمن الامبراطورية المصرية .
ومن الامور التى نعرفها عن اطباء العراق القديم أن الواحد منهم كان يحمل على الدوام حقيبة أو كيسا يضع فيها ادواته . وجاء فى بعض الاختام الاسطوانية الخاصة بطبيب سومرى اسمه وصورة بعض الآلات الطبية العائدة له كالابر والمباضع واحقاق الزيت (انظر الشكل فى ص٣٦٩)

وقد عرف الاطباء البابليون جملة من الامراض والاوبئة وصنفوها بحسب الاعضاء التى تصيبها فافردوا للرأس وللقلب وللعين والحنجرةوالانف والصدر الامراض التى تصيب هذه الاعضاء ، وذكروا بعض الامراض التى منشؤها العوامل النفسية كفقدان الهمة والجزع والخور ، كذلك ذكروا بعض الامراض التى استعصت عليهم مثل السرطان وأمراض الرئة مثل السل ، وكذلك الامراض الجلدية كالجرب والجذام ، وعرفوا بعض الامراض التناسلية مما يصيب عضوى الذكر والانثى والامراض الخاصة بالشرج ولا سيما البواسير وذكروا من بين الامراض التسمم المسبب عن لدغ العقرب والحية .

لقد وردت الامراض فى المؤلفات الطبية التى خلفها لنا الاطباء الاقدمون ووجد الكثير منها فى مكتبة الملك الآشورى آشور بانيبال التى هى لا شك نسخ عن كتابات قديمة من العصر البابلى القديم فكانت مصادرنا عن طب العراق القديم الى عهد قريب مقتصرة على العهد الاشورى المتأخر ، ولكن مما يؤيد ما ذهبنا اليه من ان هذه النصوص الطبية التى وجدت فى خزانةالملك الاشورى « اشور بانيبال » ترجع فى اصولها الى العهود القديمة ما اظهره البحث حديثا اذ وجد نص طبى مهم باللغة السومرية ، ويحتمل ان عهده أقدم من ذالك ، حيث يعتقد انه من عهد سلالة اور الثالثة (فى حدود ٢١٠٠

ق٠م) ، وبذلك يكون هذا أقدم نص طبي في تأريخ الحضارات البشرية[١] ان مصدر هذا النص من « نفر » وقد وجد قبل نحو ٥٠ عاما ولكن لم تعين ماهيته الا حديثا ، وقد وردت فيه جملة وصفات طبية عقافيرية ومن جملة هذه العقاقير المعروفة القاشيا (cassia) والحلتيت الذي يسمى في العراق باسم «الجويفة» اى المعروف علميا (Asafoetida) والزعتر (Thyme) ونترات البوتاسيوم وكلوريد الصوديوم والعسل الخ • وجاء في مؤلفاتهم الطبية تلك تشخيص الامراض•وكان التشخيص ذا خطورة عظيمة عندهم ، وطريقتهم في التشخيص هي أنهم يصفون الاعراض التي يشاهدها الطبيب في المريض ثم يصفون ما يفعله الطبيب ونوع الدواء اى الوصفة التي قد تتعدد وكذلك الاوقات الخاصة التي تؤخذ فيها • ومما يلاحظ في هذه التآليف ان اغلبها يقتصر على التشخيص ووصف الدواء دون تبيان علة المرض وسبب ذلك جهلهم بها كما هو الحال في كثير من الحالات في الطب الحديث • وكانوا يردفون الوصفة بارشادات في كيفية الاستعمال ومن طرائف هذه المؤلفات الطبية جداول مقسمة الى ثلاثة حقول ذكروا في الحقل الاول الدواء وفي الحقل الثاني اسم المرض وفي الثالث ارشادات بكيفية الاستعمال ولنأخذ المثل الآتي :ـ

عرق السوس	دواء للسعال	يسحق ويشرب مع الزيت والخمر
عرق ورد الشمس	دواء لوجع الاسنان	يوضع على الاسنان •

ورتبوا الوصفات الطبية الواردة في كتاباتهم الطبية بحسب اجزاء الجسم والامراض التي تصيبها ، وهذا يشير الى بداية طور التصنيف والبحث العلمي كما انهم كانوا يعرفون بعض الشيء عن تشريح الجسم الانساني ،

---

(١) أقدم نص طبي جاءنا من مصر مؤرخ في حدود ١٦٠٠ ق ٠ م ، ويعتقد فيه أنه نسخة عن اصل اقدم (١٩٠٠ ق٠م) ٠ انظر البحث في النص السومري الطبي في :
S.N. Kramer & Martin Levey, "Medical Hand book" in **Journal of The American Medical Association,** vol. I, No. 7 (1954).

وان كانت معرفتهم بالتشريح ووظائف الاعضاء معرفة بدائية على وجه العموم، فقد سبق أن رأينا ان من أهم طرق العرافة عندهم طريقـــة فحص احشاء الحيوانات وبوجه خاص طريقة فحص الكبد ، فاستفادوا من تشريـــح الحيوان وتقطيعه كما ان ما كان يصيب الافراد من اصابات في الحرب جعلتهم يقفون على اهم أعضاء الجسم الانساني، واهتموا بوجه خاص ، مثل الرومان، ببعض الاعضاء البارزة كالكبد الذي عدوه مستودع الحياة والطحال والمعدة والكليتين والقلب والرئتين ، وبلغوا في معرفتهم الفسلجية درجة أبعد من ذلك فقد أدركوا ان القلب مستودع الفهم والذكاء والكبد موضع العواطف ومستودع الحياة نفســها بسبب احتوائه على كمية كبيرة من الدم (نحو ⅙ دم الجسم) وقد كتبوا اثباتا باسماء الاعضاء والاحشاء[١] .

وكانت الادوية عندهم من ثلاثة مصادر بحسب المادة المستخرج منهـا الدواء وهي (١) الادوية النباتية (٢) والادوية الحيوانية (٣) والادويةالمعدنية. وتأتي الادوية المستخرجة من النباتات والاعشاب على رأس الادوية عنـــد أطباء العراق القديم . وخلف لنا هؤلاء الاطباء مجموعات كثيرة باســـماء الاعشاب والنبات والازهار التي استعملوها أدوية ، والعادة فياستعمال النباتات والاعشاب انهم يضعون شروطا لاستعمالها منها المكان الذي تنبت فيهواوقات قطفها ، كما أنه لم يكن جميع النبات هو المستعمل للدواء بل قسم منه أومادة تستخرج منه كالعرق واللحاء والساق واللب والورق والنبع والزهروالعصير والبذور والعجين والطحين والشراب الخ . والملاحظ في النباتات المستعملة عقاقير طبية تشابه استعمالها عند سكان العراق القدماء وعند شعوب العـالم القديممثل الطب اليوناني الذي اشتهر في الشرق الى ازمان متأخرة،وبلغت من صحة استعمالهم لجملة نباتات أن الباحثين المحدثين استندوا فيتعيين الكثير من اسماء النباتات الواردة في النصوص المسمارية الى استعمالاتها الطبيةالمذكورة

---

(١) أنظر المرجع المهم :ـ

Conteneau, **La médecine en Assyrie et en Babylonie** 65 ff.

في تلك المصادر[١] . ويأتي بعد المواد المستخرجة من عالم النبــات المواد المستخرجة من عالم الحيوان ، ومما يذكر في صدد الحيوان ان اسماء كثيرة مما ورد في مؤلفاتهم الطبية لا يمكن تعيينها في الوقت الحاضر وكذلك الحال في كثير من أسماء النبات والاعشاب ، واستعملوا في أدويتهم أعضاء واجزاء ومواد مستخرجة من بعض الحيوانات اللبونة ، من بين ذلك الانسان والبقر ولا سيما البقر الاصفر والخنزير والاغنام والعنز والحمار والكلب ولاسيما الكلب الاسود والاسد والذئب والثعلب والايل والغزال ومن الطيور النعامة والصقر والنسر والغراب والبومة والدجاج والحمام والعصفور ومن أنواع الحيوانات السفلى الحية والسرطان والنحل . وكانوا يأخذون نتاج هــــذه الحيوانات أو اجزاء خاصة منها كالعظام أو الشحم أو الحليب او اللسان أو الشعر أو الجمجمة الخ..واستخدم البابليون أدوية غير قليلة استخرجوها من المعادن والاحجار وكتبوا في ذلك اثباتا وجداول مطولة . ولم يستعملوا هذه بهيئة مواد خام بل كانوا يستحضرون منها الادوية بطرق كثيرة معقدة كالسحق والخلط والتركيب مع مواد اخرى بنسب معينة وكذلك التسخين وذكروا بعض الادوات والا لات المستعملة في هذه العمليات ، والى الوصفات والادوية ذكروا بعض التمريضات الخاصة كالضماد والتمريخ ودهن الجسم ومسحه بالزيت ، وفرقوا بين نوعين من استعمال الادوية ، نوع يستعمــل استعمالا داخليا (أي يشرب) ونوع يستعمل اســتعمالا خارجيــا كالدهن والمسح الخ .. وورد ذكر بعض الادوات والآلات التي استعملوها في طبهم في المصادر المسمارية ولكننا لا نعرف كثيرا منهــا وكيفية استعمالهــا من بين ذلك انبوب من النحاس أو البرونز يسمونه « المفتاح » لوضع الدواء فــي

---

(١) ان أحسن ما الف في النباتات الواردة في الكتابات المسمارية المرجع الآتي :ـ

C. Thompson, **Dictionary of Assyrian Botany** (1946).

ولمؤلف الكتاب بحوث في الموضوع نشرت في جملة اعداد من مجلة سومر مجلد (١٩٥٢) و (١٩٥٣)

العين وفى الاعضاء التناسلية وآلة اخرى يسمونها «الزراقة» (ولفظها فى البابلية مثل العربية) يدخلون الدواء بها الى الاذن وآلة اخرى مثل مباضع التشريح والاحقاق والابر ، واستخدموا بعض الاحجار الزجاجية ولا سيما البلور لصنع العدسات التى استعملوها للتكبير ويرجح أنهم استعملوها « نظارات » أيضا . وقد وجد فى مدينة كالح القديمة (نمرود) عدسة من البلور من النوع المستوى المحدب .

ومما يلاحظ فى النصوص الطبية القديمة ان لغتها اللغة السومرية ، واستعمل الاطباء دساتير سومرية كما كان الاطباء الفرنسيون يستعملون اللاتينية ، ولا تزال اللاتينية اللغة العلمية فى المصطلحات الطبية ، ولعل اطباء العراق القديم كانوا يتقصدون فى استعمال السومرية التى لا يفهمها المرضى فيزداد نفوذهم وشهرتهم كما ان تلك النصوص يغلب عليها الايجاز والاختصار ، بل ان الكثير منها كان مجرد التذكرة أو الخلاصة مما يشير الى ان التعليم الطبى كان بالدرجة الاولى شفهيا من الاستاذ الى التلميذ او من الاب الى الابن ويستثنى من ذلك لوح مدون بنص طبى مطول محفوظ الآن فى القسطنطينية[١] .

---

(١) حول الطب فى حضارة وادى الرافدين راجع اهم المراجع الآتية : ــ

(1) G. Conteneau' **La Médecine en Assyrie et en Babylonie** (Paris, 1938).

(2) Küchler, **Assyr. Bab. Medizin.**

(3) Miles & Driver, **The Babylonian Laws.**

(4) René Labat, **Traité akkadien de diagnostics et Pronostics médicaux** (Paris, 1951).

وحول اللوح الطبى المحفوظ الآن فى القسطنطينية انظر المرجع الرابع .

الفصل السابع عشر

الدوله والمجتمع

١ ـ نظام الحكم

نشوء نظام الحكم وتطوره :ـ

اختلفت آراء الباحثين في أصل الدولة والحكومة عند البشر ، وعلى الرغم من نشوء اولى انظمة الحكم في حضارات الشرق الادنى ، ولا سيما حضارة وادي الرافدين ووادي النيل ، فاننا نجهل أصل أول الحكام والملوك في العراق • ومع قدم الاخبار المتعلقة باوائل الحكام من العصور التي سميناها بعصور فجر السلالات فان هذه الاخبار لا تفسر لنا بوجه واضح كيفية نشوء أقدم الحكام والمديرين في تاريخ المجتمعات البشرية، ذلك لانه سبقت عصور فجر السلالات اطوار من عصور ما قبل التاريخ لم يدون فيها العراقيون القدماء شؤون حياتهم ، أي انهم لم يخترعوا الكتابة فلا سبيل لنا لمعرفة شؤون المجتمع السياسية وكيفية تنظيمه وادارته ، اذ من المحتمل انه وجد نوع من نظام الحكم البدائي في تلك الازمان التي سبقت نشوء الحضارة الناضجة في بداية الالف الثالث ق•م• ويؤيد وجود نوع من انظمة الحكم في عهد فجر الحضارة الاشارات الواردة في الاخبار التاريخية مما يخص جداول الملوك وكذلك القصص والاساطير • فهناك جملة ملوك حكموا في مدن معلومة ذكرتهم جداول الملوك بانهم حكموا قبل الطوفان ، وورد في الاساطير اشارات الى ملوك لا نعرف عنهم سوى تلك الاشارات ولعل عهدهم يرجع الى عصور ما قبل التاريخ قبيل نشوء الحضارة في وادي الرافدين وسنذكر ذلك بعد قليل •

ويرجح كثيرا ان للمعابد التي نشأت في العصور القديمة من عهود ما قبل السلالات علاقة بنشوء الحكام الاوائل • فقد رأينا فيما سبق كيف كان

المعبـد أهم بنـاء عام نشـأ في العراق قبيل عهد « العبيد » وكان مركز المدينة ومدار حياتها الاجتماعية • فلعل كهنة المعابد كانوا في الوقت نفسه أول حكام في الهيئة البشرية او كان للكهنة على الاقل دور مهم في ادارة المجتمع وقيادته ومما يشير الى هذا الاحتمال الصفة المقدسـة التي اتصف بها الملوك في الادوار التأريخية في كونهم كهنة الآلهة ونوابها في حكم البشر ، ويرجح ان حكومة الكهنة انتقلت فيما بعد عندما تعقدت الحضارة ونشأت الحروب المنظمة الى الحكومة الزمنية ، ولعل هذا الانتقال لم يتم الا بعد نزاع بين الكهنة وبين القواد والافراد المتنفذين الذين أكتسبوا زعامة المجتمع بما امتازوا به من حنكة وقوة وانتصارات حربيه[1] ولكن اكتسب هؤلاء الحكام الذين أخذوا الزعامة صفة دينية أيضا وصاروا هم الكهنـة الاعلون لاله المدينة • وسبق ان ذكرنا ان الاسم السومري للملك (لوكال) أي الرجل العظيم او المدير قد يكشف لنا جانبا عن أصل الملوك والحكام ، فقد صار هذا الرجل عظيما لمقدرته وقابلياته التي مكنته من أن يكون قائدا وزعيما على سكان مدينته أي مجتمعه ، أولا بالانتخابات ثم صارت وظيفتـه دائميـة •

ومهما يكن الحال في أصل نظام الحكم فان الاخبار عن الامراء والملوك وما يتعلق بالدولة قد بدأت بالظهور منذ عصر فجر السلالات وهو العصر الذي نشأت فيه أولى الحضارات في العراق • وقد رأينا فيما سبق ان نظام الحكم بدأ في هذا العصر في أولى مراحله ، فقد كان العراق مقسما الى امارات ودويلات قوام كل منها مدينة وما يجاورها من المدن والقرى والاراضـي وهذه هي دويلات المدن (City-States) التي كانت أولى أشكال الحكومات في العراق وكان يحكم في هذه الدويلات حكام كانوا يلقبون انفسهم بكلمة

---

(١) ومن الطريف ذكره بهذا الصدد الاشارات الواردة الى هـذا الانتقال فيما نقرؤه في العهد القديم (صاموئيل ، الكتاب الاول ٨٠ ، ١٠ و١٢) •

تعنى وكيل الاله أو الفلاح المستأجر (أى ايشاكو أو انسى) وهى كلمة تشير الى ان سلطة الحاكم مستمدة من اله المدينة وانه ممثل عن الاله ويحكم البشر باسمه • ووردت أسماء بعض الحكام بهيئة ملك (أى «لوكال») ولكن هذا اللقب كان أقل ورودا من اللقب الاول فى مبدأ الامر • وفى العصور التاريخية التالية عم لقب الملك وقل لقب « الايشاكو » الذى صار يستعمل لقبا للملوك بصفتهم الدينية وعلاقاتهم بالآلهة وكذلك استعمل للتعبير عن الولاة والحكام الذين كان يعينهم الملوك • والمرجح كثيرا أن الايشاكو فى الاصل كانت وظيفته أثبت وأدوم من وظيفة الملك الذى كان بالاصل ذا سلطة موقتة حيث ينتخب فى زمن الازمات كما ان واردات الايشاكو كانت تأتى من الاراضى العائدة للمعبد التى كان يلزم على الناس ان يشتغلوا فيها بالسخرة. ومن السلطات الكهنوتية التى كانت تحكم المجتمع قبل تبلور نظام الحكم وتبلور نظام الملكية الكاهن الاعلى (سنكو ماخ) ، ومهما كان الامر فقد سادت وظيفة الملك وصار اللقب لا يستعمل حتى فى عصر فجر السلالات الا عندما يتسع نطاق حكومة دولة المدينة فيكون معنى لقب « الايشاكو » الحاكم المعين من قبل اله المدينة أو الممثل لاله المدينة ، حتى ان اللقب ظل مستعملا حتى فى العصور التأريخية المتأخرة فى زمن الامبراطورية الاشورية حيث كان الملوك الاشوريون يلقبون انفسهم بلقب « حكم الاله اشور » اشارة الى ان سلطتهم مستمدة من الاله اشور •

وقد سبق أن ذكرنا أن دويلات المدن كانت كثيرا ما تتنازع فيما بينها على السلطة السياسية وتوسيع حدودها وعلى توزيع مياه الارواء التى كان يقوم عليها كيانها الاقتصادى • وكان العراق بوجه الاجمال يسير من طور دويلات المدن الى طور المملكة الموحدة حتى أواخر عصور فجر السلالات حين استطاع سرجون الاكدى مؤسس السلالة الاكدية أن يقضى على نظام دويلات المدن وينشأ المملكة الموحدة التى شملت جميع العراق وانتقلت هذه المملكة بالفتوح الخارجية الى الامبراطورية وسار على خطى سرجون

الفاتح بعض السلالات الاخرى مثل سلالة أور الثالثة وسلالة بابل الاولى والدولة البابلية المتأخرة في توسيع المملكة وبسط سلطانها في معظم انحاء الشرق الادنى • ولعل من جملة العوامل المهمة التي عملت على انتقال دويلات المدن الى طور مملكة القطر الموحدة ثم انتقال هذه الى نظام الامبراطورية ما ذكرناه سابقا من الحاجات الاقتصادية فيما يتعلق بالتجارة الخارجية • فقد رأينا ان حضارة العراق الاولى نشأت في موطن ينقصه كثير من المواد الضرورية لتلك الحضارة ونموها وازدهارها كالمعدن والاحجار والاخشاب وغير ذلك مما نشاهده في حضارة العراق القديم • وكانوا يحصلون على هذه المواد في بادىء الامر بالتجارة الخارجية مع الاقطار المجاورة التي تكثر فيها المواد الضرورية وبدأت اتصالاتهم التجارية منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ • وعندما ازدادت الحاجة الى المواد في ابان نضج الحضارة وازدهارها تطلب ذلك تنظيم التجارة الخارجية وتوحيد مصالح المدن المختلفة وابتداع وسائل المواصلات وحماية الطرق والقوافل • وكان كل ذلك لا يتم على الوجه الاكمل تحت نظام دويلات المدن المتنازعة المتضاربة في مصالحها • فاقتضى توحيدها بالحرب والقوة وهذا ما فعله « لوكال زاكيزي » آخر ملك من ملوك عصر فجر السلالات وحققه سرجون بصورة أدم وأثبت • وعندما اتحدت دويلات المدن تحت ادارة واحدة وسلطان واحد واتحدت مصالحها رأى الملوك الاوائل أن الحصول على المواد من منابعها غير مضمون دائما بالتجارة الخارجية فعمدوا الى الاستيلاء على مواطن تلك المواد بالحرب والحاقها بدولتهم أو فرض سلطانهم عليها •

شكل الحكومة وادارتها :ـ

كان شكل الحكومة في جميع أدوار التأريخ في العراق القديم الحكومة الملكية الاوتوقراطية ، اى تمركز السلطات جميعها بيد الملك او الامير الحاكم وحكومته التي يكونها هو • وكان هذا هو الشكل السائد منذ نشوء الحضارة

في عصر فجر السلالات أي عهد دويلات المدن الى نهاية حياة البابليين السياسية . ونلاحظ من سير تأريخ العراق القديم ان الاتجاه السياسي في شكل الحكومة كان يسير الى تمركز السلطة أكثر فاكثر بيد رأس الدولة أي الملك وصاحب السلطان المطلق . ولكن لدينا من الادلة والاشارات التأريخية ما يثبت أن نظام الحكم في العراق القديم قد بدأ بهيئة ديموقراطية بدائية قبل فجر التاريخ عندما نشأت أولى الممالك في بداية عصر فجر السلالات . وبوسعنا ان نضع نشوء ذلك الحكم الديموقراطي بوجه التخصيص في العهد الذي سميناه بالعهد الشبيه بالتأريخي أو الكتابي (اي النصف الثاني من طور الوركاء وعهد جمدة نصر) . وعلى الرغم من زوال ذلك النظام الديموقراطي فانه قد ترك صدى وآثارا في العصور التأريخية الناضجة فمن هذه الاثار بعض القصص التي تشير الى وجود أقدم نظام ديموقراطي في العراق القديم ، ومن هذه قصة طريفة تدور حوادثها على العلاقات بين دولتي مدينتين هما كيش والوركاء يمكننا ان نعنونها بقصة « أجا وجلجامش » ففي زمن من الازمان ساءت العلاقات السياسية بين هاتين الدولتين . وأنس « أجا » ملك كيش من نفسه القوة فأراد بسط حمايته على الوركاء ، ولكنه قبل ان يعلن الحرب أرسل وفدا دبلوماسيا الى ملك الوركاء يحمل معه انذارا بالخضوع الى كيش . ولما كان جلجامش ملك الوركاء لا يستطيع أن يقرر في أمور الدولة الخطيرة كالحرب والسلم فانه استدعى اولا مجلس الشورى المكون من أعيان المملكة وشيوخها وعرض عليه مطاليب ملك كيش وحثهم على رفضها ولكن « مجلس الاعيان » هذا على ما يبدو لم يوافق على رأي رئيس الدولة . فاستدعى الملك مجلس الشورى الثاني المؤلف من جميع الرجال القادرين على حمل السلاح فرفض هذا المجلس مطاليب مدينة كيش وقرر الحرب اذا اقتضى الامر ذلك فنشبت الحرب بين المدينتين وانتهت بغلبة مدينة كيش وطلب جلجامش الصلح .

ومهما يكن من نتيجة النزاع فان الذي يعنينا من هذه القصة وغيرها من



نماذج من المنحوتات البارزة تمثل الملك الاشورى سرجون
(من العاصمة خرسباد)

الاخبار والاشارات هو ظهور النظام الذى نسميه الا ن بالحكم الديموقراطى فى العراق منذ فجر التاريخ • وكما يبدو من القصة التى لخصناها كانت شؤون الدولة وادارتها موزعة بين الملك ، رأس الدولة ، وبين مجلسين للشورى ، يتألف المجلس الاعلى من أعيان المملكة وشيوخها (السنات) ويتألف الثانى من جميع الرجال القادرين على حمل السلاح • وعلى الرغم من جهلنا الشىء الكثير عن هذه المجالس ولا سيما كيفية تأليفها وصلاحياتها وعلاقتها بالملك وبعضها ببعض فان الاشارات والاخبار تدل على ان هذين المجلسين كانا يهيمنان على الشؤون المهمة فى الدولة كالحرب والسلم والضرائب • ووردت اشارات الى ان هذه المجالس كانت تملك حتى حق انتخاب الملك • وبوسعنا ان نشبه هذه الشورى أو الديموقراطية الاولى بما نشأ عند الاغريق والرومان ولا سيما عند الرومان فى العهد الجمهورى وبخاصة مجلس « السنات » أى مجلس الشيوخ ومجلس « التربيون » أى مجلس العوام[1] ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن مملكة صغيرة من الاشوريين نشأت فى آسية الصغرى فى أواخر الالف الثالث ق•م كان نظام الحكم فيها على هذا الطراز وفوق ذلك كانت أشبه ما تكون بالجمهورية • وآسية الصغرى كانت طريقا مهما لانتشار التأثيرات الحضارية الى جزر بحر ايجة والى اليونان •

ومن الامور الطريفة التى تشير الى نظام الحكم الديموقراطى فى العراق منذ فجر التأريخ أن العراقيين القدماء كانوا ، كما مر بنا فى مبحث الديانة ، يتصورون آلهتهم كالبشر وكانوا يصورون اجتماعات الآلهة فى مجالس شورى مقدسة فى السماء تجتمع فيها الآلهة للبت فى شؤون البشر الهامة وتناقش فيما بينها وتقرر بالآراء القرارات المقتضية ، واذا علمنا ان الالهات كن يشتركن فى هذه المجالس فلا يبعد ان يكون للمرأة نصيب فى مجالس الرجال بين البشر ويتضح ذلك جليا من اسطورة الخليقة البابلية ، وتفيدنا

---

(١) انظر تاريخ الرومان

هذه الاسطورة ايضا بامور اخرى عن الملكية واصلها فاول شيء يستنتج منها ان الملكية ليست جزءا أساسيا من نظام الكون وانما هي طارئة نشأت من الازمة التي وقع فيها مجتمع الآلهة في حربهم مع الالهة القديمة فاضطروا على انتخاب احدهم (وهو مردوخ) ليكون ملكا وبطلا يحارب عنهم •
وبالمقابلة مع هذه الفكرة نجد ان الملكية في حضارة وادي النيل كانت منذ الخليقة ، فان الاله الذي خلق الكون والاشياء كان أول ملك على الخليقة وأول ملك في وادي النيل وهو الاله « رع » الذي خلفه في الملكية اوسيريس وهورس والفرعون ابن الاله الملك •

ومهما يكن الامر فان سير الاحوال السياسية في تطور العراق التأريخي كان يتجه الى الانتقال من عهد دويلات المدن ذات النظام الديموقراطي البدائي الى عهد الممالك الموحدة والامبراطورية فكانت تلك الديموقراطية البدائية نظاما جهيضا لم يسر في نموه الطبيعي فيتطور الى نظام من الحكم التمثيلي على غرار الديموقراطية الاثينية في اليونان مثلا ، اما الاسباب التي منعته من النمو والتطور فلا يعسر[1] ايجادها على المتتبع لسير حضارة وادي الرافدين،فيمكن تلخيص تلك الاسباب بأمر واحد هو انه لم يكن منسجما مع الظروف والاوضاع التأريخية ومع اتجاهات تطور المجتمع في حينه فمن أوجه تنافره مع الاوضاع التأريخية انه كان يحول دون التوسع السياسي من دولة المدينة الى دولة أكبر تشمل موطن الحضارة السومرية جمعية،وهو التوسع الذي كانت تقتضيه الاحوال التأريخية التي أوجزناها سابقا (الص ٣٧٦ فمابعد) كما ان الديموقراطية البدائية شكل من الحكم لا يليق ابان الازمات التي كثيرا ما كانت تقع فيها دول المدن المختلفة ، لا سيما وان طريقة الحكم بموجب تلك الديموقراطية كالتصويت وانتخاب المجالس ومبدأ الاكثرية والاقلية لم تكن

---

(١) حول البحث في هذه الديموقراطية البدائية انظر المرجع الآتي — :
Jacobsen, "**Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia**" in JNES, vol. II, (1943), 159 ff.

معروفة مما دعى الى الحاجة الى الحسم فى القرارات بطريق السلطة الفردية، وقد صاحب هذا التحول السياسى اتجاه نظام الحكم الى تمركز السلطات جميعها بيد الملك وحكومته ، وبعبارة أخرى كان التطور السياسى من النظام الديموقراطى البدائى الى النظام الملكى الاوتوقراطى ولكن مع ذلك فان مجالس الشورى التى نشأت منذ فجر التأريخ لم تمت بل تحولت من مجالس للشورى تهيمن على شؤون الدولة المهمة الى مجالس قضائية وتشريعية ، واستمر وجود هذه المجالس بصفتها الجديدة التى انتقلت اليها الى أحدث العهور التأريخية فى العراق القديم • فالى جانب المحاكم المختلفة الدرجات المؤلفة من القضاة المدنيين والقضاة الكهنة كان ينظر فى الدعاوى والقضايا المهمة مجلسان عامان فى كل مدينة أحدهما يتألف من شيوخ المدينة واعيانها ، وكان هذا يساعد المحاكم فى القرارات المهمة وأشبه ما يكون بهيئات المحلفين • واما المجلس الثانى فيتألف من معظم سكان المدينة الرجال وينظر فى القضايا الهامة كتوقيع عقوبة القتل وتنفيذها ولعله كان أشبه ما يكون بالمحاكم العليا وقد ورد ذكر هذا المجلس فى كثير من الوثائق القانونية كقرارات المحاكم وجاء ذكره فى قانون حمورابى فى مناسبات كثيرة منها انه كان يتم بمحضره وبموافقته طرد القاضى وتغريمه اذا ثبت عليه جرم • وذكرت فى رسائل حمورابى الرسمية حالات كان يحيل فيها بعض الدعاوى الى مجلس المدينة للنظر فيها ، وكانت هذه المجالس تحكم بموجب العرف المحلى المتبع فى المدن المختلفة وكانت أحكامها مما لاشك مصدرا مهما للشرائع فى العراق القديم •

الملك وحكومته :ـ

ومن مظاهر اتجاه نظام الحكم الى حصر السلطات جميعها بيد الملك، النظرية الدينية التى فسر فيها العراقيون الاقدمون نظام الملك وأصل الحكم• وبوسعنا أن نلخص هذه النظرية «بالحق الالهى» للملوك والحكام ، فبموجب هذه الفكرة أن البلاد وجميع ما فيها ملك للآلهة أو للاله الخاص

بالمدينة ، لان مصير البشر وحكم البشر بيد الآلهة • وقد جاء في الآداب والمآثر الدينية انه « قبل ان تبدأ الملوكية في الارض كانت شارات الملك في السماء عند الاله «آنو» ولكن الآلهة التي في السماء لم تحكم البشر مباشرة بنفسها ففوضت الملوك والحكام لينوبوا عنها ويمثلوها في حكم البشر في هذه الارض • ومما يجدر ذكره بصدد أصل الملوكية ان المآثر العراقية القديمة تنص على ان نظام الملوكية هبط من السماء من بعد الطوفان ، فتعني هذه العبارة معنى آخر عدا الاصل الالهي لنظام الحكم ، ذلك هو ان الذي هبط من السماء ليس الحامل لنظام الحكم أي الملك وانما نظام الملوكية فقط ، اي ان سلطة الملك ونفوذه طارئان بسبب تقلده وحمله لنظام الملوكية ، بعكس الفرعون المصري الذي كان نفسه الها من السماء وسلطته من نفسه بصفته الالهية • أما الملك البابلي والاشوري فكان بشرا ولكنه يحمل وظيفة الهية او حملا الهيا • ومما يؤيد ذلك ما تنص عليه مآثرهم من انه حين نزلت وظيفة الملوكية وشارات الملك من السماء الى الارض» بحث الاله انليل والالهة عشتار « عن راع للبشر اذ لم يكن في الارض ملك فنصب الاله انليل ملكا من البشر • وبذلك لم تكن الملوكية من نظام المجتمع البشري في الاصل بل اضافتها الآلهة اليه ، ونجد في شرائع العراق القديم ولا سيما في مقدماتها فكرة انتخاب الآلهة للحكام الارضيين واضحة ، كما نجد ان ذلك الانتخاب يكون بصورة متسلسلة ، فالاله الاعلى ينتخب اله المدينة ثم ينتخب هذا ملك المدينة وظلت فكرة الانتخاب هذه أهم مبرر للمجيء الى الحكم الى زمن كورش الفارسي الذي برر حكمه لبلاد بابل بقوله : « لقد استعرض الاله مردوخ كل الاقطار ليبحث عن ملك ، وفق رغبات قلبه ••• لقد سمى اسمه « كورش » صاحب الشأن وجعله ملكا على الكون » • وفي الخصومات بين المدن كانت الآلهة ، على ما رأينا في مبحث الديانة ، هي التي تتنازع فيما بينها وتفاوض • فمثلا في نص «انتمينا» التأريخي نجد انليل هو الذي يسوي النزاع بين الاله «ننجرسو» ،

اله لجش وبين الالهة شارة الهة «اوما» ويحدد الحدود ما بينهما ، ثم قام «ميسلم» ملك كيش بتثبيت الحدود ووضع نصبا هناك بأمر الهه «ستران» . كما ان اله المدينة هو المسؤل عن الشرور التى يقوم بها حاكم المدينة كما جاء ذلك بوجه صريح فى تدمير « لوكال زاجيزى » لمدينة « لجش » .

وقد بلغ هؤلاء الوكلاء والنواب مكانة مقدسة واصبح بعضهم ولهم صفات الآلهة نفسها . حتى كتبت اسماؤهم وهى مسبوقة بعلامة التألية التى تسبق عادة أسماء الآلهة . ولكنهم مع ذلك لم يصيروا آلهة حقيقيين كما كان فراعنة مصر . وشيد لبعضهم معابد لعبادتهم بعد مماتهم كما هو الحال فى ملوك سلالة اور الثالثة ، ولكن ملوك العراق القديم بوجه عام لم يتعدوا طور التقديس والتشبه بالآلهة أى لم يصيروا آلهة كما حدث فى تاريخ مصر القديم ، حيث صار الفراعنة آلهة وابناء للآلهة بالمعنى الحرفى وكاد بعض ملوك العراق القديم ينتقلون الى مثل هذه الدرجة فصاروا أبناء الآلهة ولكنهم أبناء بالتبنى وليس أبناء طبيعيين . فقد يتبنى اله من الآلهة ملكا وقد تعنى الهة بعض الملوك فترضعهم وتسميهم باسمائهم . ولذلك فقد كانت وراثة العرش من الامور المهمة المقدسة ، فينبغى أن يكون الملك الجديد من صلب سلالة الملوك الحاكمة ، وعندما يغتصب رجل العرش يعمد الى شتى السبل لجعل حكومته شرعية بأن يدعى مثلا ان الاله أو الالهة الفلانية قد احبته واختارته ليكون ملكا ، وهكذا فعل سرجون الاكدى الذى لم يكن من صلب الملوك بل كان من أصل وضيع ولكن الالهة عشتار أحبته فقلدته حكم البشر ، وقد يعمد بعض الغاصبين الى الحاق نسبهم بالملوك السابقين كما فعل بعض الملوك الآشوريين . ومن مظاهر تطور نظام الحكم واتساعه ما نجده فى تدرج ألقاب الحكام منذ أقدم العصور التأريخية فحين كان القطر مجزأ الى دويلات المدن كان اللقب الغالب «حاكم المدينة المعينة» واقل منه لقب «الملك» الخاص بمدينة معينة أيضا مثل اللقب الشهير ملك «كيش» . وفى أواخر عصر فجر السلالات ظهر لقب مهم فى نظام الحكم هو لقب ملك « البلاد »

وبالسومرية «لوكال كلاما» الذى كان اول من استعمله لوكال زاجيزى ملك اوما الذى بسط سلطانه على أكثر دول المدن • ويشير لقب « لوكال كلاما » أى ملك بلاد سومر ، الى الوحدة السياسية التى انجزها هذا الملك ، وقد برر لوكال زاجيزى ادعاءه بهذا اللقب بان الاله انليل هو الذى منحه اياه[1] وهذا تبرير لاهوتى لاتساع سلطة الحكم فى أواخر عصر فجر السلالات وعندما تغلب سرجون الاكدى على لوكال زاجيزى احتفظ باللقب الذى اخترعه خصمه ولكنه أوجد تعبيرا سياسيا آخر بتلقيب نفسه «ملك الجهات الاربع» • وهو لقب الهى كان خاصا ببعض الآلهة العظام ولا سيما « آنو » و « انليل » و « شمش » رمزا لسلطانهم على كل الكون حيث تعنى الجهات الاربع (باللغة الاكدية « كبرات اربعيم » وبالسومرية آن ـ اوب ـ دا ـ لمو ـ با ») الكون والعالم المكون من أربع جهات أو زوايا • وبهذا اللقب الجديد صار لسلطة الملك مدلول دينى حيث أصبح الحاكم الارضى للخليقة كما يدل أيضا على اتساع الحكم من دولة صغيرة الى مملكة كبرى ثم امبراطورية • على ان اللقب الجديد لا يعنى محاولة الملك معادلة نفسه بالاله بل يعنى انتخاب الاله وتفويضه له ليكون ممثلا له فى حكم الكون • واستعمل الاشوريون لقبا مماثلا هو « ملك الكون » (شاركشتى)[2] • وظهر لقب ثالث مهم هو لقب « ملك سومر واكد » ، الذى يرجح فيه كثيرا ان أول من استعمله فى العراق القديم ملوك سلالة أور الثالثة الذين احتفظوا بالالقاب السياسية السابقة وأضافوا هذا اللقب الجديد محاولين على ما يرجح التوفيق بين الساميين (الاكديين) والسومريين • هذا وان السلالات التى اعقبت سلالة اور الثالثة لم تضف شيئا الى الالقاب التى ذكرناها • اما الاشوريون فقد رأينا أثر الحضارة السومرية التى انتشرت شمالا فيهم ،

---

(١) انظر النص الخاص بلوكال زاجيزى المنشور فى المرجع الآتى:
Thureau-Dangin, **Konigsinschriften,** 219.

(٢) H. Frankfort, **Kingship and the Gods** (1948) ch.16.

ولذلك فلم يحدث الاشوريون تغييرات أساسية فى الالقاب السياسية عند ملوكهم ، ولعل أول لقب للملك واضح فى تاريخ الاشوريين كان فى زمن ملكهم «شمسى ــ أدد» المعاصر لحمورابى ، واستعمل ايضا لقب «ملك الكون » الذى قلنا انه يعادل ملك « الجهات الاربع » ، وظل لقب ملك الكون مستعملا من لدن الملوك الاشوريين الى آخر عهودهم •

وبوسعنا ان نلمس تطور الحكومة وسلطات الملوك الى السلطة المركزية منذ نهاية عصر فجر السلالات ونشوء الدولة الموحدة والامبراطورية فى زمن السلالة الاكدية • فنشاهد أنه على الرغم من محاولات بعض دويلات المدن ولا سيما فى أواخر عصر فجر السلالات بسط سلطانها وتوسيع ذلك السلطان الى الاقاليم الخارجية لم يكن ذلك التوسع دائميا ، وكانت الحروب الخارجية أشبه ما تكون بغارات النهب والسلب ، ولكن تبدل الحال منذ العهد الاكدى اذ وجه الفتح الخارجى بهيئة دائمة وحكمت الاقاليم التابعة من قبل الملك الذى عين حكاما وولاة لتلك الاقاليم تابعين له • وانتظم أمر ادارة الاقاليم التابعة الى المملكة وكذلك ادارة المملكة الداخلية • وامتاز عهد سلالة أور الثالثة بتمركز الادارة المركزية فى زمنها ، وزاد الامر اكثر فى عهد امبراطورية حمورابى وفى عهد الامبراطوريات الآشورية • ومما يقال عن الملوكية والامبراطوريات التى نشأت فى العراق القديم انه لما يأتنا عنها اشياء تشير الى تنظيم امور المملكة والامبراطورية بنظام مدون • ولكن مما لا شك فيه انه كان عند القوم عرف مستمر طويل العهد حول طريقة الحكم وتنظيم شؤون الملوكية وامر وراثة العرش وتعيين الولاة والموظفين • ويغلب على الظن وجود انظمة مكتوبة لتنظيم شؤون المملكة وخلافة العرش • واذا كان لم يأتنا بعد نماذج من هذه الانظمة المدونة ، فنستطيع أن نستنتج وجودها على وجه الاحتمال قياسا على ما وجد من الوثائق المكتوبة فى «بوغازكوى» فى آسية الصغرى التى دونها الحثيون بالخط المسمارى واللغة البابلية اذ كان من بين

هذه الوثائق ما يصح ان نعده أقدم دستور مدون لتنظيم الحكم وخلافة العرش وحقوق الناس وعلاقاتهم وحقوق النبلاء وبيان سلطات الملك وتحديدها . وبالنظر لتأثير حضارة العراق القديم فى هذا الجزء من العالم واشتقاق الحضارة الحثية من حضارات العراق القديم فلا يستبعد وجود ما يشبه هذا الدستور أو القانون الاساسى أو أن اصله فى حضارات العراق القديم[١] .

واجبات الملك :ـ

ومهما يكن من أمر فقد كان على الملك ، بصفته مفوضا من الآلهة ليحكم الناس ، واجبات كثيرة متنوعة ، فكان حامى الناس والبلاد ، وهو الذى يقود الجيش وقت الحرب وينشر العدل بين الناس ويقوم بالمشاريع العامة من حفر الاقنية واقامة المعابد . وكان عليه تجاه الآلهة كذلك واجبات كثيرة ، اذ يجب عليه أن يعنى باقامة الشعائر لها ويبنى معابدها ويقيم لها التماثيل الفخمة وهو وان كان مطلق السلطان الا ان سلطته مستمدة من الآلهة فهو مسؤول تجاهها فى حكم البشر . وقد خلف لنا كثير من الملوك مآثر كتابية يؤكدون فيها انهم نشروا العدل وحافظوا على الحدود واقاموا الشرائع وحفروا الجداول والاقنية والانهار وصور بعضهم أنفسهم وهم يحملون سلال التراب والآجر رمز قيامهم ببناء المعابد . ولم يأنف الملك البابلى « نبوبولاسر » فى ان يحمل هو وابناه الآجر والسلال عند تجديد بناء صرح بابل الشهير . هذا ولم تكن تلك الاقوال عند الكثيرين منهم مجرد ادعاء أو تباه فقد جاءتنا منهم مآثر وادلة تشير الى عنايتهم البالغة بأمور المملكة والسهر على مصالح البلاد ووحدتها وعلى كل حال فلم تمنع قدسية الملوك أن يثور الناس على بعضهم فيغتصب الثوار عروشهم كما حدث مرارا كثيرة فى بلاد بابل وبلاد آشور .

---

(١) ولعل مما يؤيد هذا الظن ان هذه الوثائق تحتوى على كثير من آداب العراق القديم كقصة جلجامش المترجمة الى الحثية واخبار سرجون و « نرام سين » الاكديين ووثائق العرافة والكهانة وغير ذلك .

وكان يساعد الملك فى ادارة شؤون الدولة جمهور كبير من الموظفين كان أمر نظامهم ودرجاتهم وتوزيع الاعمال فيما بينهم قد بلغ درجة راقية، فكان للملك جملة وزراء ورئيس الوزراء يساعدونه فى الادارة الداخلية. ويدير شؤون السياسة الخارجية رئيس الوزراء . وكان اخطر منصب فى الدولة وزارة المالية ، حيث بيدها تنظيم التجارة والحياة الاقتصاديةوجمع الضرائب وخزن الغلات والواردات . ويأتى بعد طبقات الوزراء قواد الجيش ، وقد تطور نظام الجيش فيما بعد عهد دويلات المدن (أى عصر فجر السلالات) وصارت لدى الملوك جيوش قائمة جرارة كما سنذكر ذلك فيما بعد . وكان الملك يعين من قبله حكام وولاة الاقاليم . وكان نظام هؤلاء يختلف بحسب العصور التاريخية ، فكانوا فى الازمان القديمةاشبه ما يكونون بأمراء الاقطاع ، يرثون مناصبهم ، ولكن صار الملك يعينهم منذ السلالة الاكدية ، وقوى الحكم المركزى فى زمن سلالة اور الثالثة وسلالة حمورابى وبلغ أوجه فى عهد الآشوريين ابتداء من زمن القرن التاسع ق.م. وكان للملك طبقة من الموظفين خاصين ببلاطه وهم كثيرون متشعبة اعمالهم فمن بينهم ناظر القصر أو رئيس الديوان الملكى ورئيس السقاة ورئيس الخبازين ورئيس الخصيان ومدير الحرم الخ . وكان معظم هؤلاء يرافقون الملك فى حملاته الحربية وأسفاره . وكان للملك سفراء خاصون (ويعرفون باسم «مارشفرى») يرسلهم الملك ليمثلوه لدى الدول الاخرى وهم مربوطون بالبلاط رأسا . ويصحب السفراء عادة مترجمون (ترجمانو) وكتبة وقضاة .

ومن طبقة الموظفين صنف القضاة ، حيث كان الملك يعين قضاة مدنيين بدرجات مختلفة . وكان الكهنة ، بالاضافة الى أعمالهم الدينية ، يتولون تطبيق أحكام الشرائع وتفسير نصوصها فى معابد المدينة ، والى جانب هؤلاء، كان للبلاط جمهور غفير من الكتبة والاطباء والمغنين والعرافين والكهنة والنساخ والموسيقيين والسقاة الخ ..

ومما يذكر عن شؤون الملوك واعمالهم الادارية ان لدينا عن ذلك مصادر وفيرة مهمة كالشرائع التي اصدروها والوثائق الرسمية الادارية والكتابات الملكية التاريخية المتنوعة والرسائل الملكية الخاصة بادارة المملكة مثل رسائل حمورابي الى ولاته ورسائل الملوك الآخرين من سلالته ورسائل ملوك الامبراطورية الاشورية الثانية[١] . فنستنتج من رسائل الملوك البابليين نشاط الملك البابلي ومبلغ درايته ووقوفه على شؤون المملكة الكبيرة والصغيرة ، فكان يسيطر حتى على الموظفين غير الكبار في مدن امبراطوريته البعيدة ، وينظر حتى في الشكاوى التافهة ، ونجد حمورابي بالذات في احدى رسائله يعيد دعوى لاعادة النظر فيها لاستيفاء بعض الاصول المتبعة في المحاكمات[٢] كما ان كثيرا من الدعاوى كان يبت فيها بقرار منه . وندرس من تلك المصادر ايضا ما كان يخصصه الملوك من الجهود الكبيرة في شؤون الارواء وتطهير الانهار وكريها وفي شؤون الشعائر والاحتفالات الدينية . والى واجبات الملك الادارية كان الملك مسؤولا امام الاله عن حسن القيام بوظيفته المعين فيها من قبل الآلهة ، وهناك رسائل طريفة اشتهر بها الملوك الاشوريون كانوا يعنونونها الى الاله اشور عند الشروع بحملاتهم ومشاريعهم الحربية ، فكانت تلك الرسائل بمثابة التقارير الخاصة التي يرفعها تابع الى رئيسه عن سير العمل الموكل به[٣] . وكان يقع على عاتق الملك تفسير ما تريده الآلهة وتمثيل رعيته لدى الآلهة بالاضافة الى ادارة المملكة . ولكن الوظائف الدينية كانت اقل مما كان عليه الملوك الاشوريون ، على ان

---

(١) حول هذه الرسائل الملكية راجع المصادر الاصلية المنشورة فيها : —

(1) Harper, **Letters and Inscriptions of Hammurabi.**
(2) Pfeiffer, **State Letters of Assyria.**
(3) Harper, **Royal Letters of Assyria.**

(٢) انظر L.W. King, **A History of Babylon,** P. 160.

(٣) انظر مثلا أخبار حملة سرجون الاشوري الثامنة المشهورة (Thureau - Dangin, **Une relation de la huitième Campagne de Sargon** (1912).

الملك كان في جميع الازمان على رأس رجال الدين وهو الذى يعين الكاهن الاعلى ، وكان هذا التعيين حدثا مهما بحيث كان يتخذ حادثة يؤرخ بهـا ، والظاهر ان الآلهة كانت يؤخذ رأيها فى أمر ذلك التعيين ، فهناك نص طريف جاءنا من الملك الكلدانى « نبو نهيد » يصف فيه كيف عين ابنته كاهنة عليا للاله القمر فى اور فيروى لنا ان الاله القمر ارسـل علامات نذر بان « سود جسمه السماوى فى اليوم الثالث عشر من ايلول » وفسرت تلك الظاهرة (اى خسوف القمر) بانها امارة على ان الاله القمر يريد «عروسا الهية له» (أى كاهنة عليا) • فأطاع الملك ارادة الاله ولكنه أراد أن يتأكـد من صحتها فزار معبدى الاله « أدد » « وشمش » الخاصين بتفسير الفـأل والعجائب الالهية ، وبعدها اخذ يقدم بالتعاقب افراد عائلته فرفضوا جميعـا حتى استقر «اختيار الاله على ابنته» • وكان ملوك العراق الاقدمون ،ولاسيما الملوك الاشوريين ، يستخدمون فى تفسير ارادة الآلهة جماعات كبيرة من الكهنة والعرافين ، وكانوا يرسلون بعض هؤلاء الى الجهات المختلفـة للرصد النجمى والفلكى وقد جاءتنا عن هؤلاء تقارير قيمة فى الرسائل التى كانوا يرسلونها الى الملوك من مركز الرصد[١] • كما ان الآلهة قد تبلغ ارادتها الى الملوك عن طريق الرؤى والاحلام والمثال المشهور على ذلك رؤيا جودية الخاصة بتجديد معبـد الاله ننجرسو فى لجش[٢] • وعـلاوة على واجب معرفة ارادة الآلهة وتنفيذ مطاليبهـا كان الملك مسؤولا أمام الآلهة عن سلوك البشر وأعمالهم كما انه الوسيط بينهم وبين الآلهـة • وكان يقوم فى بعض الاحايين بالتكفير عن ذنوب البشر • وفى رسالة احد الملوك الاشوريين وجب على الملك ان يصوم ويقدم الصلاة الى الآلهـة

---

(١) انظر المرجع رقم ٢ الهامش رقم ١ ص ٣٩٠

(٢) لقد دون جودية خبر ذلك فى نص يعد خير ما يمثل لنا الادب السومرى واللغة السومرية فى ذلك العهد انظر تحليلها والمراجع المنشورة فيها فى

Frankfort, **Kingship and the Gods,** 255.

لوقوع خسوف للقمر فسر بانه نذير شؤم ووصف لنا نص آخر ما ينبغي للملك أن يفعله في حالة حدوث زلزال فكان عليه ان يقـدم القرابين الى انو وانليل وايا ، ويلزم عليه بعد الصلوة ان يحلق ويزيل شعر جسمه ويضع الشعر في اناء خاص يضعه في حدود بلاد الاعداء[١] • وقد وجب على ملك اشوري آخر ان يقوم بطقوس مجهدة صارمة فمن ذلك مثلا بقاؤه معتكفا في كوخ سبعة أيام وقيامه في اثناء ذلك بجملة انواع معقدة من الكفارات والتطهير[٢] ، وفي بعض الطقوس الدينية كان من الممكن للملك ان يرسل رداءه بدلا من حظوره الشخصي • اما العبادات اليومية في المعابد فكان الكهنة هم الذين يمثلون الملك في اداتها • ومن الشعائر الطريفة التي تخص الملوكية عادة تعيين شخص بديل من الملك ليقوم ببعض الشعائر الخطرة ، حين تظهر نذر مخيفة غامضة من الآلهة تهدد الناس والمملكة ، ولما كان الملك وديعة الآلهة عند البشر فلا ينبغي ان يعرض شخصه الى المخاطر بحضور الشعائر الخاصة فيعين بديل عنه او يؤخذ شيء يعود له كصورته أو جبته أو ردائه الخ[٣] ، وفي حالة القيام باجراء العمليات السـحرية على جيش العدو قبل بدء المعركة كان محظورا على الملك الاشتراك فيها لئلا يتعرض لاثـر السحر ، فينوب عنه بديل عنه او شيء خاص به ، وفي بعض الحـالات الخطرة التي تفسر بالشر ، كظهور كسوف أو خسوف يعين كذلك بديل عن الملك ، وقد جعل هذا البديل يحكم مائة يوم في بعض الحالات ثم قتل من بعـدئذ لتخليص شخص الملك من الشر وكان البديل يجعل ملكا مع وجود الملك حيث يذهب الى الموضع المخصص لاجراء الطقوس الخاصة بدفع الشر ويعامل كما يعامل الملك • ومن طريف أخبار هذه العادة ما سبق أن ذكرناه في الكلام على العهد البابلي القديم من ان البديل المعين بدلا من الملك قد تبوأ

---

(١) Threau - Dangin, **Rituels Accadiens,** P. 37.

(٢) انظر
Pfeiffer, **Op. Cit.,** No. 270; Harper **Op. Cit.,** No. 370.

(٣) René Labat, **Royauté Bab. et Assyr.,** 309, 352 ff.

العرش فعلا حيث مات الملك فى اثناء القيام بعملية المراسيم الخاصة ولعله أغتيل أو سم من جانب البديل[١] وهناك بعض الباحثين من يفسر ما يسمى بالقبور الملكية فى اور فى أواخر عصر فجر السلالات بهذه العادة ، اى ان الضحايا الذين وجدوا مع حلاهم واثاثهم هم اشخاص عينوا ابدالا عن الحكام فى ذلك العهد[٢] . والجدير بالملاحظة بهذا الصدد ان عادة تعيين بديل عن الملك لم تكن معروفة فى حضارة وادي النيل لان وجودها يناقض مبدأ الوهية الملك .

ومن الواجبات المهمة التى كان يلزم على الملوك تحقيقها ازاء الآلهة بناء المعابد وتجديد بنائها واعالتها وادامتها وما يتعلق بذلك من تخصيص الاثاث والادوات والتماثيل الخ . وكان بناء المعابد يتم بعد اجراء شعائر دينية مهمة فكان بناء المعابد من اهم واجبات الملوك بل هى أهم مظهر لعلاقة الملوك بالآلهة ، وكانت هذه الاعمال تستنزف موارد كبيرة من واردات الدولة ومن جهود الملوك ، وكذلك كان الحال فى حضارة وادى النيل ولكن فراعنة مصر بصفتهم آلهة لم يكونوا مدفوعين للقيام بها بدافع الخوف أو الواجب ازاء الآلهة بل انهم كانوا يقيمون المعابد لهم وللآلهة من تلقاء أنفسهم . ويلتجأ ملوك وادى الرافدين فى أمر بناء المعابد الى أصول التنبؤ والفال للاسترشاد برغبة الآلهة والكيفية التى يرغبون ان تبنى فيها « بيوتهم » ، وبعد الوقوف على رغبة الآلهة يهيء موضع المعبد وينظف تنظيفا طقوسيا بالنار وبالتعزيم والرقى ، وقد تشمل العملية مساحات كبيرة غير موضع المعبد الخاص ، ثم يأمر الملك بتهيئة «اللبن» (الآجر) ، وكانوا يهتمون كثيرا باستخراج أول لبنة آجرة من « القالب » ، وبعد ظهورها بهيئة جيدة من الامارات الحسنة على تقبل الآلهة لعمل الملك . وقد جاءتنا عن ذلك مشاهد

---

(١) انظر النص الاصلي حول هذه الحادثة فى
L.W. King, **Chronicles Concerning Early Bab. Kings,** II. 12—14.

(٢) Frankfort, **Op. Cit.,** 400

مصورة في الختوم الاسطوانية وفي المنحوتات ، ففي أحد الختوم من عصر فجر السلالات نشاهد شخصا وهو يقيس لبنة «مستوية ـ محدبة» بمسطرة يمسكها اله جالس على عرشه[١] ، ويرينا نحت بارز ملك لجش « اور ـ نانشه » وهو يحمل على رأسه سلة تحتوى على طين لصنع اول آجـرة للمعبد[٢] . وقد صور أغلب ملوك العراق القديـم الى العهد الاشـورى المتأخر بهيئة تضاهى صورة « اور ـ نانشة » إما على انصابهـم المنحوتة أو بصور من البرونز[٣] كانت تدفن في أسس المعابد ، وكانت اللبنة الاولى يقوم بصنعها الملك نفسه ويحمل طينها في السلة على رأسه . ووصف لنا جودية في كتابته الاحتفال بصنع أول لبنة لمعبد ننجرسو وكيف انه قضى الليلة السابقة لصنعه اياها في المعبد وهو متطهر ليكون على اتصال بالهـه ويتسلم اوامره[٤] . ونجد في مسلة « اور ـ نمو » (المعروضة نسختهـا في المتحف العراقي) مشهدا فنيا طريفا يصور لنا الملك وهو يتسلم اوامر الهه لبناء معبد الاله القمر وزقورته في أور ، وفي الحقل الثاني من النحت يتسلم الملك من الاله بعض آلات البناء مثل « الخيط » و « الشاقول » والفأس ويرجح أنهم كانوا يضعون في قالب اللبن زبدا وعسلا ويحرقون الاعشاب ذوات الروائح العطرية لطرد الارواح الشريرة ، ثم تأتى عملية وضـع الطين في القالب من قبل الملك نفسه . وتعرض اللبنة امام الناس ليطمأنوا على نجاح الشعائر الدينية وعلى أن آلهتهم راضية غير غاضبة .

اعتلاء العرش والتتويج

وننهى كلامنا على نظام الملوكية في حضارة وادى الرافدين بذكر أشياء موجزة مما نعرفه عن كيفية اعتلاء العرش ومراسيم التتويج ، وأول

(١) انظر الصورة رقم ٤٧ في Frankfort, **Op. Cit.,**

(٢) الشكل ٤٦ في ذات المصدر

(٣) في المتحف العراقي مجموعة طريفة من هذه الصور (انظـر دليل المتحف العراقي ١٩٤٢) ودليل المتحف البريطاني للآثار البابليـة والاشورية .

(٤) Thureau - Dangin, **Konigsinschriften,** P. 63,—11—61—67.

ما نذكر مسألة ولاية العهد ، ولكننا لا نعرف شيئا مؤكدا عما اذا كان ملوك العراق القديم يسيرون على قاعدة تعيين ولى العهد واشراكه فى الحكم فى عهد الملك كما كان يجرى فى مصر القديمة حيث كان نظام الـ(Coregency) متبعا • على انه مما يؤيد احتمال وجود ذلك فى العراق القديم ان الملوك الاشوريين من عهد الامبراطورية الثانية كانوا يتبعون هذا العرف • وكانت الآلهة تستشار فى أمر تعيين ولى العهد[١] ، ولم يكن من الضرورى انيكون ولى العهد أكبر أبناء الملك ، كما ان الاخوة الباقين نجدهم فى بعض الحالات لا يمنعهم قسمهم بالولاء له من الثورة عليه بعد موت الملك ، ولكن كانت مشكلة وراثة العرش تعتبر محلولة من الوجهة الرسمية بمجرد تعيين ولى العهد • ويروى لنا الملك الاشورى «اسر حدون» كيفية تعيينه لولاية العهد فى عهد أبيه اذ يقول : « كنت أصغر أخوتى • ولكن ابى الذى ولدنى كرمنى فى مجلس اخوتى بأمر الآلهة اشور وشمش ومردوخ ونبو عشتار نينوى وعشتار اربيلا مصرحا بقوله : هذا هو خليفتى » • لقد سأل الالهين شمش وادد بطريق الفأل فاجابا بالموافقة : « انه هو الذى ينبغى ان يكون خليفتك » ، وبالانصياع الى هذا الاعلان جميع أهل بلاد اشور ، وكذلك اخوتى الذين ولدوا فى بيت الابوة ، وجعلهم يقسمون على الاعتراف باولويتى امام الآلهة اشور وسين وشمش ونبو ومردوخ ، آلهة بلاد اشور الساكنين فى السماء والارض • وفى شهر نيسان ، فى يوم صالح منه ، وبموجب ارادة الآلهة السامية دخلت فرحا الى « بيت ولاية العهد » ، وهو قصر مهيب جليل للمصائر الملوكية[٢] • وفى هذا القصر كان

---

(١) Labat, **Rayouté, 40—42.**

(٢) بيت ولاية العهد أو بالاشورية (بيت ردوتى) حول النص انظر مجلة

ZA (Zeitschrift für Assyriologie), X L II (1934), 170 ff.

Frankfort, **Op. Cit.,** 245 — 246.

ولى العهد يدرب على شؤون الملك ، وكان يقوم بدور فعال فى ادارة الدولة والحكومة ، فيمثل الملك فى الاحتفالات الرسمية ، ويشرف على اقامة الشعائر الدينية ويوفد ببعثات رسمية ، ويهيأ بحيث يكون لائقا لتولى مسؤلياته بعد موت ابيه ٠

وكانت المراسيم الخاصة بالتتويج بعد موت الملك تختم وتثبت باعتلاء ولى العهد عرش المملكة ، وهى مراسيم مهمة حيث يتم فيها تسلم الملك الجديد شارات الملك المقدسة من الآلهة ، حيث بتسلمه لها يتم انتخاب الآلهة له ملكا كما اختارته لولاية العهد ٠ والعادة ان الملك الجديد كان يتسلم شارات الملك فى معبد اله المدينة الرئيسى ٠ وقد جسم السومريون التاج والصولجان وجعلوهما بهيئة الهتين سموهما « سيدة التاج » و « سيدة الصولجان » وكانا يوضعان على دكة مذبح المعبد ٠ ولقد جاءنا نص مهم يصف لنا حفلة التتويج التى جرت فى مدينة الوركاء فى معبدها الشهير « اى انا » : « لقد دخل (الحاكم) الى « اى ـ انا » واقترب من منصة العرش المقدسة ٠ فاخذ الصولجان السنى بيده ٠ لقد اقترب من منصة العرش(سيدة العرش) ووضع التاج الذهبى على رأسه ، لقد اقترب من المنصة فبدلت « سيدة الصولجان » اسمه الحقير ودعته باسم الملوكية »[١] والمرجح ان الفقرة الاخيرة على الرغم من انخرام النص تعنى ان الملك الجديد عند تتويجه يعطى اسما غير اسمه الشخصى الاعتيادى[١] ٠ ولدينا نص اشورى فى وصف حفلة التتويج التى اتيمت فى تتويج احد الملوك الاشوريين ، ولكن لا يذكر مسألة تبديل اسم الحاكم الجديد ٠ وملخص الاحتفال كما جاء فى ذلك النص[٢] « يقصد الملك الجديد معبد الاله اشور فى مدينة اشور[٣] حيث الشارات الملكية مودعة فى المعبد فى منصاتها الخاصة ٠ وكان الملك يحمل

---

(١) أنظر Frankfort, **Op. Cit.**, 245 — 246.

(٢) ذات المصدر الص ٢٤٦ فما بعد

(٣) وهذا يعنى ان موضع الاحتفال بالتتويج عند الاشوريين كان يتم فى العاصمة القديمة اشور وليس فى العواصم الاخرى مثل نينوى وكالح ٠

على عرش على اكتاف الرجال بموكب حافل ، ويسبق الموكب كاهن يضرب بطبل ويصيح : اشور هو الملك ! آشور هو الملك ![١] ، وبعد أن يصل الموكب الى المعبد يدخله الملك وأول ما يفعل انه يقبل الارض ويحرق البخور ثم يعتلي منصة عالية في نهاية المعبد حيث يقوم تمثال الاله . وهنا يسجد أيضا ويلمس الارض بناصيته ويقدم امام تمثال الاله هدايا يحملها خصيصا لهذه المناسبة ، مؤلفة من اناء من ذهب وزيت ثمين وكمية من الفضة وجبة موشاة مطرزة ، ثم يهيأ منضدة القرابين الخاصة بالاله اشور في حين ان الكهنة يتولون اعداد مناضد الآلهة الاخرى التي تعبد مع اشور في معبده ، وثم تنتهي الاستعدادات الاخيرة للتتويج ، ولكن مما يؤسف له ان النص في هذا الموضع مشوه فلا يمكن معرفة ما كان يجري بوجه التأكيد ولكن يحتمل كثيرا أن الملك كان يمسح بالزيت الموضوع في اناء ذهب . ثم يصف لنا النص من بعد ذلك انهم كانوا يحضرون تاج الاله اشور وأسلحة الالهة ننليل (زوجة اشور) وتوضع على كراسي عند قدم منصة الاله ويحمل الكاهن الاعلى التاج والصولجان وهي على وسائد من الوبر والصوف ويجلبهما الى الملك ويتوج بهما الملك ويقول مخاطبا اياه : « تاج رأسك – عسى اشور وننليل ، سيدا تاجك ، يضعانه على رأسك طوال مائة عام . ان قدميك في « ايكور » (وهو اسم معبد الاله اشور) ويديك ممتدتان الى الهك اشور ، عسى ان ينالا الحضوة والرضا . وامام الهك أشور عسى أن تجد وظيفتك الكهنوتية ووظيفة أبنائك الحضوة . وبصولجانك المستقيم اجعل بلادك واسعة . وعسى ان يمنح أشور رضاه وعدالته وسلامه » . وبعد أن ينهي الكاهن خطابه يصلي عظماء المملكة ووجهاؤها الذين جاؤا مع الملك ، وعندما يرجع موكب التتويج الى القصر الملكي يجتمع اولئك الوجهاء امام عرش الملك ليقدموا الولاء والطاعة الى الملك ،ويقدموا له الهدايا ،وكانوا يخلعون شاراتهم وأوسمتهم المميزة ويضعونها

---

(١) وهذا اشارة الى ان الملك الجديد لم يعين بعد من لدن الاله اشور .

امام الملك ، ويقدمون انفسهم بهيئة غير منتظمة بدون مراعاة قواعد « البروتوكول » المألوف فى البلاط بالنسبة الى مناصبهم ومراكزهم والمقصود من ذلك انهم تخلوا عن مناصبهم فى الدولة بمناسبة تتويج الملك الجديد لينتخب هو أقطاب حكومته وكبار موظفيها ومن بينهم وزيره الاول الذى يستقيل معهم أيضا ٠ وقد ورد فى النص الخاص بالتتويج الذى لخصناه ان الملك (اذا شاء الابقاء على وزرائه وموظفيه) يقول لهم : ليسترجع كل واحد منصبه ووظيفته ، فيأخذ الوجهاء شاراتهم واوسمتهم المميزة لرتبهم ثم يأخذ كل منهم ترتيبه بمقتضى اسبقيته ومنزلته بالنسبة الى عرف البلاط ٠

الجيش :ـ

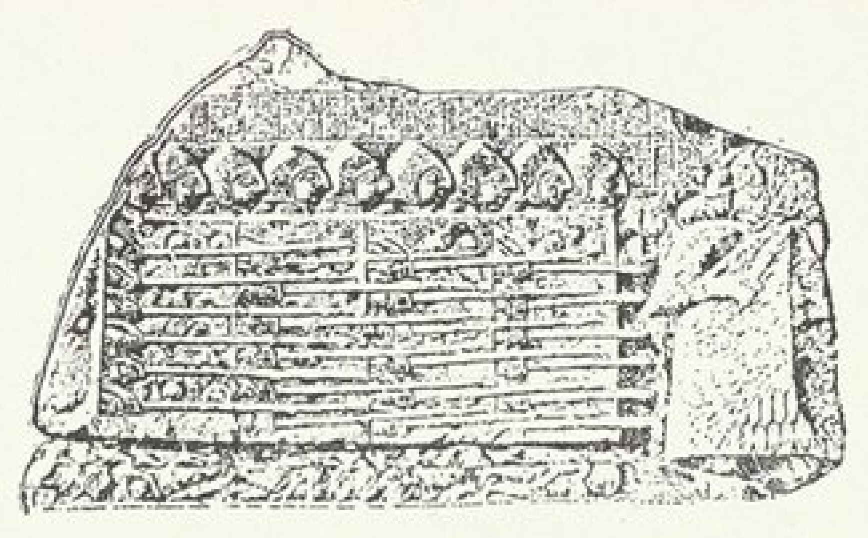
كان الجيش من الانظمة المهمة فى المجتمع والدولة منذ اقدم عهود التاريخ وتبدأ معرفتنا بنظام الجيش منذ عصور فجر السلالات حيث كانت دويلات المدن المختلفة تتنازع فيما بينها على السلطة ٠ ويرجح كثيرا أن الجيوش النظامية القائمة لم تبدأ بهيئة منتظمة الا فى أواخر عصر فجر السلالات منذ زمن السلالة الاكدية ، فان الفتوح الخارجية التى قام بها ملوك تلك السلالة قد استلزمت منهم تكوين جيوش مدربة قائمة ، وكان لتطور معرفة العراقيين القدماء بالتعدين واستعمال المعادن بكثرة دخل كبير فى نظام الحرب وتأليف الجيوش والاسلحة ٠ وقد رأينا فيما سبق ان العراقيين القدماء قد عرفوا التعدين فى عصور ما قبل السلالات (ولا سيما فى عهد العبيد) وبدأوا يعرفون صناعة البرونز منذ عصر جمدة نصر ، فصنعوا من هذين المعدنين آلاتهم وأدواتهم ومن بين ذلك الفؤوس ورؤوس السهام والرماح وازدادت معرفة القوم بصنع هذين المعدنين منذ عصور فجر السلالات الى حدود المنتصف الثانى من الالف الثانى ق٠م حيث بدأوا يعرفون الحديد واستغل الاشوريون الحديد أبعد استغلال فصنعوا منه أضخم آلاتهم الحربية ٠ وقد ساعدهم فى نشر سلطانهم الرهيب فى جميع أنحاء الشرق القديم ٠ وصنعوا من النحاس والبرونز والحديد العجلات ووسائل

المواصلات الاخرى ولدينا أدلة تثبت أن استعمال العربات قد بدأ منذ عصور ما قبل السلالات ولكن لا نستطيع ان نبت فى أمر استعمالها للحرب كما كان الحال منذ عصور فجر السلالات • ولدينا من الادلة ما يشير الى ان الحروب المنظمة الواسعة قد بدأت فى تاريخ الانسان منذ نشوء الحضارة فى عصر فجر السلالات وقد سبق ان ذكرنا احتمال أصل الملوك بانهم كانوا قواد حرب منتصرين حازوا على حكم البشر بسبب مقدرتهم الحربية •

وقد خلف لنا اوائل الملوك من عصور فجر السلالات قطعا من المنحوتات التى تصور نظام الحرب فى تلك الازمنة البعيدة فمن بين هذه الآثار المهمة نصب سمي بنصب النسور[١] • وقد اقامه في مدينة لجش احد ملوكها المسمى « اياناتم » تخليدا لانتصاره الحربى على المدينة المجاورة المعادية « أوما » • ويبين لنا هذا النصب نظام الجيش السومرى واسلحته فى عصر فجر السلالات • فنشاهد فيه الملك وقد صور على رأس الجيش وهو يقوده وقد تدرع بدرع خاص ، وفى رأسه بيضة ويحمل رمحا وسيفا قصيرا مقوسا ، ونشاهد خلفه الجيش وقد صف بهيئة نظام الصف (Phalanx) كتنظيم قسم من الجيش فى عهد الاسكندر الكبير والاغريق ، ويلبس الجنود بيضات مخروطية يرجح أن تكون من النحاس ، وقد مسك كل جندى برمح بيديه وحمى نفسه بمجن يرجح أنه يمسكه جنود خلف الصف المسلح بالرماح ، وكان هذا صنف الجيش المسلح بالاسلحة الثقيلة الشديدة الوقع فى الهجوم والدفاع وقد صور فى حقل اسفل المشهد الاول تنظيم آخر للجيش يتقدمهم الملك كذلك فى عربته الحربية ، وخلفه صنف من الجيش مسلح بالاسلحة الخفيفة لمطاردة الاعداء • وصور فى وجه آخر من المسلة بمشهد يمثل اله مدينة لجش « ننجرسو » وهو فى حرب كذلك

---

(١) ويعرف بـ The Stele of the Vultures وهو الآن فى متحف اللوفر فى باريس • انظر المرجع الاصلي الآتي :ـ
E. de Sarzec and L. Heuzey, **Découvertes en chaldée** (1884).



صورة من النحت البارز تمثل الملك السومري اياناتم يقود جيشه الذي يسير خلفه على هيئة نظام الصف .

مع جيش « أوما » وقد أمسك الاعداء في شبكته المقدسة ، ومن المناظر الطريفة في هذه المسلة ان أحد الاعداء الذين صادهم الاله في شبكته قد أخرج رأسه من الشبكة محاولا الهرب ولكن مثل فوقه صولجان الاله الضخم (رأس الدبوس) وهو على وشك السقوط لتهشيم رأسه . وجاءنا من عصر فجر السلالات كذلك مشهد حرب على قطعة فنية وجدت في اور من مقبرتها الملوكية وتعرف « بعلم اور » نشاهد فيه العربات الحربية وكنائن السهام . ومما يلاحظ في العربات كما ذكرنا في موضع آخر ، ان عجلاتها صلدة ، وظلت كذلك حتى الالف الثاني حيث نشأت العجلات المشبكة السريعة في المواصلات والحرب ، وكانت العربات سواء كانت تستعمل للمواصلات أو للحرب تجرها الحمير أو الخيول الوحشية . لان استعمال الخيول المدجنة لم يشع استعمالها كثيرا الا منذ اواخر سلالة بابل الاولى ، فمع وجود عدد من الخيول في عهد حمورابي الا أن الخيل بوجه عام كانت شيئا نادرا في عهده ، والمعروف ان استعمالها بكثرة انما كان في العهد الكشي ، حتى

انها كانت تصدر الى مصر كما تشير الى ذلك رسائل العمارنة (انظر ترجمة الرسالة الخاصة بالموضوع فى البحث الخاص بعصر فى الجزء الثانى).
وبمناسبة ذكر استعمال الخيل يجدر بنا ان نشير هنا الى نص طريف مدون باللغة الحثية ولكن بالخط المسمارى كتب فى حدود ١٣٦٠ ق.م واكتشف فى العاصمة الحثية (فى بوغازكوى) وهو عبارة عن مقالة فى تربية الخيل ومنها بعض المصطلحات الهندسية الاوربية ، وقد وصفت تلك الرسالة تربية الخيل والعناية بها لمدة ستة أشهر يوما فيوما وساعة فساعة . وتدل هذه المقالة على الزمن الذى انتشر فيه استعمال الخيول كثيرا[1] فى اسية الغربية ولعل اصلها من الاقوام الهندية الاوربية . ومع ذلك فقد انتشر استعمال الخيل فى الحرب والمواصلات منذ المنتصف الثانى للالف الثانى ق.م[1] .

ومع جهلنا بأحوال الجيش فى العهد الاكدى ونظام تعبئته واسلحته فانه قد طرأ عليه منذ هذا العهد تغير أساسى من حيث العدد والدوام والتدريب وذلك تمشيا مع التبدلات السياسية التى حدثت فى عهد السلالة الاكدية من توحيد البلاد ونشوء الامبراطورية . وقد اخبرنا سرجون فى احدى كتاباته أن جيشا خاصا (الحرس الملكى ؟) قوامه (٥٤٫٠٠٠) رجل كان يتناول الطعام من الملك نفسه ، ولعل هذا الجيش جزء من جيشه القائم المكون من صفوة المحاربين من اتباع سرجون . وخلف لنا «نرام سين» الشهير مسلة مشهورة تعرف « بنصب النصر » نحتت لتخليد احدى انتصاراته الحربية على بعض القبائل الجبلية المسماة « لولوبو » وفيها نشاهد بعض الاسلحة الحربية كالرماح الطويلة والقوس والسهام ونشاهد الملك على رأس جيشه قاهرا الاعداء وتعد هذه المسلة من أعظم القطع الفنية فى العراق القديم عدا أهميتها التأريخية وقد سبق أن لاحظنا فى كلامنا على العهد

---

(١) انظر حول الرسالة المشار اليها فى المتن فى مجلة :
Archiv Orientalni, vol. 3 (Prague, 1931), 431 ff.

الاكدى التحسينات التى أدخلها الاكديون الى نظام الحرب ولا سيما فى أساليب القتال والتعبية فقد أدخلوا عنصر الخفة والحركة والمناورة فى الهجوم والدفاع مستعملين أسلحة خفيفة كالقوس والسهم والرماح وتركوا الفؤس الثقيلة والتروس الثقيلة كما أوجدوا طريقة المبارزة رجلا مع رجل • وجاءنا من العهد الاكدى لوح فيه ذكر لصنع بعض من عدة الحرب مثل الخوذ المصنوعة من الجلد (جلد البقر والماعز) ونوع آخر من الخوذ مصنوعة من البرونز وجاءتنا اشارات صريحة تشير الى نظام التجنيد من زمن الامبراطورية فى عهد سلاله أور الثالثة ، وقد وردت فى شريعة حمورابى جملة مواد لتنظيم شؤون الجند ، فمن ذلك صنفان من الضباط أحدهما يسمى « ريدوم » والصنف الثانى «البائيروم» ولا نعرف بوجه التأكيد وظائفهما الخاصة ولكن يبدو أنهما كانا ينظمان شؤون التجنيد • كما وردت فى شريعة حمورابى أحكام تنظم الخدمة العسكرية أو كما سمتها الشريعة « خدمة الملك » (الكو) وتخصيص الاراضى لاعالة الداخلين فى تلك الخدمة وتنظيم تلك الاراضى مثل عدم جواز بيعها ورهانها وجواز اعطائها الى الابن على شرط القيام بخدمة الملك • كما وردت جملة أحكام حول ضباط « الريدوم » و « البائيروم » ومن ذلك الزام معبد المدينة بدفع الفدية فى حالة اسرهما وعدم تمكنها من الدفع ، وفى حالة عدم وجود المال فى المعبد ، فيلزم على المدينة ان تقوم بالدفع ، وتشير ظواهر الاحوال الى نشوء طبقة من القواد العسكريين أو الفرسان التابعين الى سلالة بابل الاولى من الطبقة الحاكمة العليا ، من طبقة « الاويلم » • وجاءتنا اشارات من الزمن البابلى الاخير الى فرض بعض الضرائب الخاصة على بعض السكان لادامة الجند •

وقد أصبح الجيش والحرب على رأس المؤسسات الاجتماعية عند الاشوريين ، وقد سبق ان ذكرنا فى البحث الخاص بالاشوريين كيف ان عوامل البيئة ولا سيما البيئة البشرية قد جعلت من الشعب الاشورى جيشا قائما فتاكا ، وقد طغت الحياة الحربية على الحضارة الاشورية فكانت

بلاد اشور اشبه ما تكون ببروسيا فى المانية . وكان الملوك الاشوريون قواد حرب بالدرجة الاولى اكثر من ان يكونوا رجال دولة فى أمور السلم، وتطغى على اخبارهم الرسمية تواريخ الحروب والحملات الحربية التى كانوا يقومون بها فى كل عام . ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن بعض ملوكهم (وهو توكلتى ننورتا الثانى) لم يكن عنده فى احدى السنوات مشاريع حربية ، ولكنه مع ذلك سار بجيشه باستعراض ورحلة من عاصمته الى الشمال ثم الى بلاد بابل . وكانت العادة أن الحملات الحربية يقودها الملوك انفسهم، وقد يضعون فى القيادة القائد الكبير المسمى (تورتان) و « الرابشاقة » الوارد ذكرهما فى التوراة . وقد استغل الاشوريون تعدين الحديد فصنعوا منه أسلحة وآلات حربية فتاكة . وكانت من جملة هذه الآلات الحربية آلات الحصار لدك الحصون المنيعة وهى عبارة عن برج من الحديد مصفح يكمن فيه رماة السهام والمهاجمون وفى مقدمته عمود كبير من الحديد لنقض الجدران . وهذه هى الدبابة أو الكبش . وقد خلف لنا الملوك الاشوريون اخبار حروبهم مدونة تدوينا مفصلا فى سجلاتهم الرسمية ، وفيها كثير من الفضائع والتدمير والقسوة . وخلدوا مشاهد حروبهم كذلك منحوتة فى ألواح الحجر الكبيرة الكثيرة فى قصورهم ، وهى منحوتة بمختلف مشاهد الحرب فنشاهد فيها حصار الحصون واخذها ، وسلخ جلود الامراء الثائرين وهم أحياء واحراق المدن والبشر أو وضع الثائرين على قضبان الحديد وهم أحياء ، وبوجه الاجمال روع الجهاز الحربى الرهيب الذى انشأه الاشوريون معظم انحاء الشرق القديم ، وكانت حروبهم وغزواتهم الحربية لا تنقطع تقريبا فى جميع سنى الملوك المشهورين .

المجتمع والحياة الاجتماعية

اذا استثنينا الملك وطبقة الكهنة الذين كان لهم مركز ممتاز خاص فان المجتمع البابلى (ولا سيما فى الزمن البابلى القديم) كان مؤلفا من ثلاث طبقات : فالطبقة الاولى كانت مؤلفة من الاحرار من أهل الحرية المطلقة وهؤلاء يؤلفون الطبقة

العليا في المجتمع • والطبقة الوسطى وكانت تتألف من الاحرار الذين كانت حريتهم مقيدة • وتتألف الطبقة الثالثة من الارقاء • وقد وردت هذه الطبقات واضحة التقسيم والميزات في شريعة حمورابي فنجد فيها في رأس المجتمع البابلي الطبقة الاولى التي تسمى عادة بطبقة « الاويلم » و «مار اويلم » ومعنى كلمة « اويلم » الاعتيادي « رجل » و « مار اويلم » ابن الرجل ، ولكن كان لهاتين الكلمتين معنى آخر اجتماعي يدل ، كما ذكرنا ، على مواطن من الطبقة الممتازة أو من مولد رفيع وبوسعنا أن نطلق على هذه الطبقة اسم « الطبقة العليا » ولعل صفوة هذه الطبقة جماعة المشيخة الذين كان لهم مركز ممتاز في الادارة وفي القضاء فكانوا يدعون في بعض القضايا بهيئة محلفين أو محكمين • ومن امتيازات المواطنين الاشراف كما جاءت في شريعة حمورابي ، ان العقوبات التي تفرض على الجرائم المرتكبة ازاءهم أصرم من العقوبات في حالة ارتكابها ازاء الطبقات الاخرى • ولكن كان يقابل هذه الامتيازات عقوبات صارمة على الاجرام التي ترتكبها هذه الطبقة • وكان من هذه الطبقة الحكام وقواد الجيش وكبار الموظفين ، وفرض احترامها على الطبقات الاخرى • والقاعدة العامة ان التزاوج بين الطبقات الثلاث قليل الوقوع بيد أنه وردت حالات يتزوج فيها الفرد من الطبقة الاولى بعبدة بهيئة سرية أو كزوجة شرعية او أن بنتا من الطبقة الممتازة تتزوج بفرد من غير طبقتها حتى بعبد رق ولا سيما عندما تكون فقيرة لا يسعها الزواج باحد أفراد طبقتها •

ويأتي بين الطبقة الممتازة وطبقة الرق الطبقة الوسطى وقد ذكرت في شريعة حمورابي وشريعة مملكة « اشنونا » باسم « المشكينو » وهي جمهور الناس ، ولكن افرادها كانوا أحرارا أي لم يكونوا أرقاء مملوكين • وقد وردت معاملة خاصة بهم في باب العقوبات في شريعة حمورابي ، فمثلا اذا كان أفراد الطبقة الممتازة يعاقبون في حالة احداث الاضرار في أعضاء فرد من الطبقة الوسطى بدفع دية أو تعويض دون مبدأ القصاص (أي العين بالعين

والسن بالسن) كان يطبق لو وقعت هذه الاضرار على فرد من الطبقة الممتازة •

أما طبقة العبيد (أردو أي العبد وأمتو = أمةاي العبدة) فهم الارقاء المملوكون • وكان نظام الرق موجودا في المجتمع منذ أقدم العصور • ومن معاملة الارقاء الصارمة ان البابليين لم ينظروا الى العبد كانسان ذي شخصية بشرية بل كانوا يعدونه شيئا من الاشياء أو من مواد الملكية فلذلك لم يذكر في التسجيلات باسم نسبه أي أبيه وانما باسم صاحبه كما انه اذا وقع عليه ضرر فان التعويض يدفع الى مالكه ، وكانوا يسجلون العبيد بهيئة عدد من الاشياء المقتناة أو عدد من الرؤوس (كما يقال اليوم كذا رأس من الغنم) وكانوا يميزون من بقية أفراد المجتمع بقص شعر رؤوسهم وصبغ اجسامهم وعاقبت شريعة حمورابي من يزيل العلامة الموسوم بها العبد ، كما ان العبيد كانوا يحملون في رقابهم لوحا صغيرا من الطين معلق بخيط فيه اسم مالكهم ، وقد خصصت شريعة حمورابي نحو ست مواد في أحـــكام الآبقين والعقوبات التي تقع على من يؤيهم وكان منهم صنف يلحق باملاك القصر لخدمة البلاط والطبقة الحاكمة فيكون مثل هؤلاء ذوي مركز أحسن من الارقاء الآخرين ، ومن أصناف العبيد صنف العبيد الملحقين بخدمة المعابد الذين كان معظمهم من اسـرى الحرب والذين ينذرهم الملك بعد انتصاره في حملاته الحربية •

وكان المجتمع يحصل على صنف العبيد من مصدرين أحدهما من داخل البلاد والثاني من خارجها • أما المصدر الداخلي فمنشوءه أفراد من الطبقة الوسطى يؤول مصيرهم الى الاسترقاق في حالات منها عجزهم عن ايفـاء الديون فيحجز الدائن عليهم ويسترقهم أو أنهم يبيعون ابناءهم أو زوجاتهم لمدة معينة يكونون فيها في خدمة الدائن • واذا أنكر الولد المتبني أباه الذي تبناه فانه يباع عبدا ، ويجوز للزوج ان يسترق زوجته اذا انكرته • ومهما كان الحال فان هذا المصدر كان ضئيلا اذا قيس بالمصدر الثاني اي المصـدر الخارجي للعبيد • فقد كان المجتمع يحصل على عدد غفير من الارقاء بطرق

كثيرة كالاسر والشراء والنهب الخ نقد كانت هناك حاجة عظمى الى العبيد للانتاج بحيث يصح القول ان العبيد كانوا من اهم مصادر ثروة الامبراطورية الاشورية والبابلية ولعل أحسن ما يمثل لنا مصدر العبيد الخارجى المنحوتات الاشورية الكثيرة فى قصور الملوك الاشوريين حيث نشاهد فى الكثير منها الصفوف الطويلة الغفيرة من الاسرى حيث يسوقهم الجيش الظافر وهم موثقون ووراءهم نساؤهم وأطفالهم • كما نجد اخبار ذلك مدونة فى حوليات الملوك •

العائلة :ـ

كانت العائلة أساس المجتمع والدولة وأشبه ما تكون بالدولة نفسها فكما كان يحكم الملك البابلى فى مملكته كأب فى عائلته كذلك كان مركز الرجل فى اسرته ، وكانت حقوقه وواجباته تجاه عائلته اشبه ما تكون بحقوق الملك تجاه رعيته وواجباته ازاءها • ويلى الرجل المرأة فى سيادة بيتها ولكن كانت السلطة العليا للاب وسلطته على زوجته واولاده غير محدودة تقريبا • وكانت كثرة البنين من الامور المرغوب فيها فى الشرق القديم ، كما هوالحال فى الزمان الحاضر ، وكانوا كما هو الآن كذلك يفضلون الاولاد الذكور • ومن المعتاد انه بعد أن يولد الولد يقر الوالد بابوته له باعترافه به ، ويأخذ المولود الجديد مكانته فى المجتمع والدولة منذ الايام الاولى حيث يحتمل أنه كان يسجل فى السجلات • والعائلة التى لا تنجب أولادا كانت تعمد الى طريقة التبنى اى اتخاذ ولد او بنت من عائلة أخرى • ويكون الولد المتبنى فى هذه العائلة كالولد الطبيعى من حيث الحقوق القانونية وكان التبنى يتم بعقد ، واذا أنكر الولد المتبنى عائلته فيحق لمتبنيه أن يسترقه ويبيعه • وقد نظمت الشرائع أحوال الاسرة من زواج وطلاق وارث وتبنى واسهبت فى ذلك كما تؤيد ذلك شريعة حمورابى • ولعل أبرز ما نقف عليه من دراستنا للشرائع القديمة تحديد علاقات افراد الاسرة بعضهم ببعض كالزوج مع الزوجة من حيث الطلاق والاموال العائدة لكل منهما وعلاقة الابناء بالاب

من ناحية الاحترام والارث • وكانت حقوق الارث محفوظة ولا يستطيع الاب حرمان أحد أولاده من الارث الا اذا أثبت أمام القاضى انه اساء معاملته كأن اعتدى عليه او ضربه الخ ..[١] وعندما يتجاوز الاولاد سن الطفولة يبدأ اعدادهم للحياة • فكان الفقراء منهم يلتجأون الى العمل منذ الصغر ،ويرسل المتمكنون ابناءهم الى المدارس الخاصة أو الى المدرسين الخصوصيين فى المعابد وغير ذلك لتعلم القراءة والكتابة والحساب ومنهم من يستمر فى التحصيل فيكون كاتبا متضلعا اما فى الرياضيات أو الفلك أو فى أمور القضاء ، فيكون كاتبا فى البلاط أو قاضيا • ومن الجدير ذكره انه كان يوجد مؤسسات للحرف والصناعات المختلفة يلتحق بها الاولاد لتعلم الصنائع المختلفة[٢] •

اما الزواج فكان أساسه عند البابليين يقوم على مبدأ الزوجة الواحدة أى عدم تعدد الزوجات وذلك فى أغلب عهود التأريخ المعروفة ومن الوجهة النظرية على الأقل ، كما يستدل من شريعة حمورابى • فالقانون والعرف كان يبيح للرجل أن يتخذ سرارى (جمع سرية) كما ان الاماء التى يملكها الرجل كن سرارى له بحكم ملك اليمين ، وله أن يتزوج زوجة أخرى عندما تصاب زوجته بمرض خاص يتعذر معه القيام بالحياة الزوجية أو كانت عاقرا • وتوجد امارات تشير الى جواز تعدد الزوجات فى حالات خاصة فى الازمان القديمة التى سبقت العهد البابلى القديم وكذلك فى الازمان المتأخرة كالعصر البابلى الحديث •

وكان من مظاهر تمسك البابليين بالاصول القانونية صحة الزواج وشرعيته عندهم ، فقد كانوا لا يعدون الزواج شرعيا ما لم يثبت بعقد مدون

---

(١) خصصت شريعة حمورابى ٨٧ مادة من موادها البالغة ٢٨٢ الى الاحوال الشخصية اى للقوانين التى تنظم الاسرة (انظر شريعة حمورابى المواد ١٣٧ - ١٩٣)

(٢) لقد عثر بعض الباحثين حديثا على لوح مكتوب باللغة السومرية يصف وصفا ممتعا حياة تلميذ فى المدرسة لتحصيل المعارف المختلفة ليكون كاتبا محترفا (انظر مجلة **Journal of the American Oriental Society** 69 No. 4 (1949).

ومصدق بالشهود وكذلك الامر فى الطلاق • وتبدأ مراسيم الزواج كما هى الآن فى مجتمعات الشرق الحديث بالخطبة وتقديم الخاطب هدايا للمخطوبة، وكانت الخطبة جزءا مهما من الزواج ، ففى حالة موت الخاطب فى أثناء الخطبة كان يحق لاحد اقربائه أن يكمل المراسيم الاخرى ويتزوج بها واذا رفض ابو البنت فعليه ان يعيد الى عائلة الخاطب الهدايا التى تسلمها • كما انه فى حالة موت المخطوبة كان بامكان الخاطب التزوج من احدى اخواتها فاذا لم يتم ذلك استطاع استرجاع هدايا الخطبة • وبعد اتمام مراسيم الخطبة يدون عقد بشروط الزواج المتفق عليها ويعقب ذلك وليمة من قبل الزوج • وكان الزواج الشرعى يتم بالاضافة الى العقد بتعيين ثلاثة أنواع من المبالغ احدها سموه «ترخاتو» يدفعه الزوج الى أسرة الزوجة وهذا هو المهر وهو ملك خاص بالزوجة ويرثه أبناؤها • والثانى مبلغ من المال تهديه عائلة الزوجة وسموه «شيريقتو» ،وقد جرت العادة أن يكون هذا المبلغ وديعة عند الرجل لزوجته يجوز ان يتصرف فيه ولكنه ملك لزوجته ويرثه ابناؤها أو أهلها ان لم يكن لها اولاد ويرجع الى الزوجة فى حالة الطلاق • والمبلغ الثالث مال كان بمثابة هدية من الزوج الى زوجته ويدعى (بالهبة أو العطية من المصطلح البابلى « نودنو») ومما يقال بوجه الاجمال فى علاقة الرجل بالمرأة أن اليد العليا فى الطلاق كانت للرجل ، فبوسعه الطلاق بشرط أن يدفع لزوجته مبلغا من المال واذا رفضت المرأة زوجها بدون عذر مشروع فان ذلك من الجرائم الكبيرة التى عاقب عليها القانون بالموت فى بعض الحالات[١] •

ومن الامور التى تلاحظ فى الزواج والعائلة أن الزواج لا يتم الا برضا الابوين وعندما يتم الاتفاق بين عائلتى الخاطب والمخطوبة يرسل الخاطب الى ابى زوجته هدية هى مقدمة الزواج ثم المهر ، وليس للمهر حد معين ، وانما نستطيع أن نحدد تلك المبالغ من زمن سلالة بابل الاولى حيث كانت

---

(١) انظر المواد القليلة من شريعة حمورابى المتعلقة بعلاقة الزوج بالزوجه •

تراوح من شيقل واحد من الفضة الى نصف « منا » من الفضة (والشيقل ١/٦٠ من المنا ، والمنا نحو نصف كيلو غرام) ، ويعد بعض الباحثين الزواج عند البابليين استنادا الى وجود المهر ، شراء الزوج لزوجته ، وانه بمثابة العربون لشراء البضاعة ، ولكن مما يضعف هذا الرأى ان المهر (ترخاتو) لم يكن الزاميا بوجه الاطلاق كما ان دفعه لا يحقق الزواج • وهناك حالات تم فيها الزواج بدون دفع «المهر» (ترخاتو) من جانب الزوج ، كما ان الصيغ المستعملة فى عقود الزواج تختلف تمام الاختلاف عن صيغ عقود البيع والشراء وفى الحالات التى تشترى فيها امة لتكون زوجة أو سرية لرجل تستعمل صيغة الشراء فى العقد وليس الصيغ المألوفة فى عقود الزواج[١] •

فاذا عدل الخاطب عن الزواج فلا يكون له الحق فى استرجاع مبلغ المهر ، واذا كان الرفض من جانب ابى البنت فيلزم عليه دفع جميع ما حصل عليه من الخاطب • ومما يلاحظ ان الشريعة ، على الرغم من سلطان الزوج المطلق ، قد حفظت كثيرا من حقوق المرأة ففى حالة الطلاق الكيفى كان الرجل فى أغلب الاحوال ملزما بدفع مبلغ الى مطلقته ، كما ان الشريعة ضمنت حريتها الاقتصادية ، فيما يخص أموالها وأعمالها التجارية وهذه الحرية الاقتصادية اشبه ما تكون بما فى الشريعة الاسلامية من هذه الناحية • وقد نصت الشريعة البابلية على انه لا يكون اى من الزوج والزوجة مسؤولا عن الديون والالتزامات التجارية التى على الآخر قبل الزواج ، ولم تقتصر عقود الزواج على شكل معين خاص باتمام النكاح بل يذكر فيها شروط خاصة بحسب ما يتفق عليه المتعاقدان • أما الديون التى تحدث فى أثناء الحياة الزوجية فكان كل من الزوج والزوجة مسؤولين عنها ، فيحق للرجل جعل

---

(١) ان هذه النظرية التى ترى فى الزواج البابلى (وربما الشرقى) بيعا وشراء تنسب الى الباحثين الالمان حيث يطلقون على هذا النوع من الزواج اسم (Kaufehe) انظر المراجع الاصلية فى الموضوع وتفنيد هذه النظرية فى الكتاب القيم :—

Driver and Miles, **The Babylonian Laws,** 1259 ff.

زوجته رقا بيد الدائن وكانت هذه عادة قديمة وقد حددها قانون حمورابي تحديدا كبيرا •

واذا لم ينتج الزواج اولادا فكان باستطاعة الزوج ان يختار احد أثنين اما أن يأخذ زوجة أخرى تكون منزلتها دون الزوجة الاولى او أنه يطلق زوجته الاولى بعد دفع مبلغ من المال ، وكثيرا ما تعين مثل هذه الاحوال بشروط خاصة يدرجها الزوجان في عقد الزواج ، وقد تعمد الزوجة لحل المشكلة بان تقدم لزوجها سرية من امائها لتنجب له اطفالا ، ومتى ما ولدت هذه السرية فانها تصبح حرة واذا اصابت المرأة عاهة أو مرض يعيقها عن اداء واجبات الزوجية فلا يحق لزوجها تطليقها ، ولكنه يستطيع أن يتزوج زوجة أخرى ويكون من حق الاولى ان تظل في بيت الرجل واذا أرادت الرجوع الى بيت ابيها فانها تسترجع المال الذي جلبته من عائلتها •

وقد عاقبت الشريعة على الزنا عقوبات صارمة ، فكانت الزوجة الزانية التي يقبض عليها متلبسة بالجرم ترمى هي والزاني في الماء ما لم يعف عنها زوجها فيستحيها وعند ذلك كان الملك يعفو عن الزاني • واذا لم يقبض عليها متلبسة بالجرم فتستطيع البرهنة على براءتها بالقسم وتوجد حالة يلزم على الزوجة المتهمة ان ترمى بنفسها في النهر فاذا غرقت فتثبت جريمتها واذا سلمت فانها بريئة •

وقد خصصت شريعة حمورابي جملة مواد لطبقة من النساء كن يلحقن بالمعابد بهيئة كاهنات ، لا تعرف وظائف بعضهن بوجه الوضوح وقد اشار هيرودوتس الى أن بعض النساء كن يخصصن بغايا ويلحقن بالمعبد لبعض الشعائر الدينية الخاصة بالآلهة عشتار ، ومما يقال عن البغاء انه كان معروفاً في بلاد بابل وفي بلاد آشور كما تشير الى ذلك القوانين البابلية والآشورية والمصادر الاخرى التي يستشف منها أن نوعا من البغاء المقدس كان تابعا الى المعابد •

ويستدل من القوانين الآشورية ان الآشوريين كانوا يمارسون

التحجب عند النساء . ولكن لا يعلم بوجه التأكيد ما المقصود من الحجاب الوارد في القوانين الآشورية ؟ هل كان لستر الرأس وحده اى لبس مايشبه العباءة ؟ المرجح أنهم مارسوا نوعا من حجاب الرأس فقط . ومن الطريف ذكره في هذا الباب ان القوانين الآشورية حرمت الحجاب على البغايا حيث كان ارتكاب ذلك من الجرائم الكبرى التي تستحق العقاب الشديد . اما أمر الحجاب بالنسبة الى بلاد بابل فلا يعرف بالضبط لانه لا توجد اشارة الى الموضوع في القوانين البابلية أو في الوثائق القانونية الاخرى . ولعل البابليين مارسوا كذلك نوعا من حجاب الرأس كما فعل الآشوريون والى ذلك اشارت التوراة في موضوع واحد (اشعيا ٤٧ : ١ – ٣) .[١] .

ولما كنا سنذكر بعض الامور الاخرى الاساسية عن المجتمع في كلامنا على الحياة الاقتصادية فنكتفي بما ذكرناه في هذا الباب ، كما ان ما ذكرناها في المواضيع المختلفة السابقة وفي كلامنا على عهد العراق القديم فيه نواح مهمة عن مجتمعات العراق القديم . فبقى علينا ان ننوه بالبيوت التي كان يعيش فيها الناس (وقد تطرقنا الى وصف بعضها) ، ومما يقال بوجه الاجمال في هذا الصدد ان هناك شبها كبيرا بين البيوت المستعملة في العراق وفي الشرق الادنى الى عهد قريب وبين البيوت في العراق القديم ، كما ان اطراد المناخ وعدم وجود تغييرات أساسية وتقلبات عنيفة قد جعلت بيوت السكنى ثابتة تقريبا في أشكالها وتصاميمها في أثناء العصور المختلفة ، ولكن الملاحظ أن سكان العراق الاقدمين قد وفقوا كثيرا في جعل بيوت سكناهم تلائم الاحوال المناخية من حيث تصاميمها ومواد بنائها (اللبن والآجر) ، واول ما نلاحظه في البيوت النموذجية ساحة (حوش) مركزية مكشوفة محاطة بعدد من الحجرات ضوءها وهواؤها بالدرجة الاولى من هذه الساحة ، وكانوا يضعون أنابيب فخار مثقوبة للتهوية (على هيئة ما يعرف بالبادكير) ، والتسقيف عادة بجذوع النخل او باعمدة الخشب ، والغالب في البيوت انها ذات طابق

---

(١) انظر بحث ذلك في :ـ
Driver and Miles, **The Assyrian Laws**

واحد ، ولكن البيوت ذوات الطابقين كانت معروفة أيضا بل أكثر من طابق واحد ، وكانت جدران البيوت تطلى عادة من الخارج والداخل . هذا وقد جاءنا من التنقيبات المختلفة نماذج متنوعة كثيرة من الاثاث المنزلية كالاوانى الفخارية والمعدنية والسرج للاضاءة بالزيت وكذلك بالنفط الخام الذى سموه باسم « نفط الحجر » (واسم النفط معروف بهذا اللفظ فى اللغة البابلية) كما استعملوا المشاعل ولا سيما حملها من قبل الجنود ومواقد النار . وذكرت المصادر المسمارية انواعا كثيرة من الاسرة والكراسى والانسجة المصنوعة من مختلف المواد كالصوف والقطن (والقطن من العهود الاشورية المتأخرة) والكتان والقنب . وبالاضافة الى المصادر المكتوبة عن الاثاث البيتية الاخرى فان التنقيبات قد زودتنا بنماذج عن أدوات الزينة كالمرايا وادوات زينة النساء (أنظر بعض هذه الادوات المصنوعة من الذهب فى المتحف العراقى المملوء أيضا بأنواع الحلى المختلفة) .

الفصل الثامن عشر

الحياة الاقتصادية

مقدمة في خصائص الحضارات القديمة من الناحية الاقتصادية :

لقد نوهنا مرارا في الكلام على نشوء اولى الحضارات في العراق وسير الحضارات فيه بجهود المستوطنين الاوائل في تغلبهم على البيئة الطبيعية في القسم الجنوبي من العراق وكيف ان الزراعة في هذا القسم تعتمد على الارواء الصناعي بالسيطرة على الانهار واقامة السدود وتجفيف الاهوار وقد سبق لنا ان جعلنا هذه المشاكل التي جابهت العراقيين الاقدمين في بيئتهم الطبيعية الصعبة الغنية العامل المهم في ظهور الحضارة الناضجة في القسم الجنوبي من العراق . وقد صاحب نمو هذه الحضارة نشوء الصناعات الاولى ونشوء التجارة الخارجية الواسعة لجلب المواد الخام التي اعتمدت عليها تلك الحضارة كالمعادن والاخشاب والاحجار مما لا وجود له في القسم الجنوبي من العراق . فصارت حضارة العراق القديم تقوم على ثلاثة أركان أساسية وهي « الزراعة والصناعة والتجارة » . وظل هذا الطابع يميز جميع الحضارات التي قامت في وادي الرافدين .

ونحن لو اردنا معرفة الاسباب التي جعلت الحضارات الغابرة تتصف بكونها حضارات « زراعية ، صناعية ، تجارية » لما احتجنا الى جهد كبير في البحث عنها . فالواقع انه مر بنا بعض هذه الاسباب فيما درسناه من تاريخ العراق . ولو اننا كنا مكان العراقيين القدماء لفعلنا بالبيئة التي عاشوا فيها ونعيش فيها كما فعلوا مع الفارق طبعا في تقدم الاساليب الفنية الحديثة وكون العراقيين الاقدمين قد أوجدوا أول حضارة في تأريخ البشر في أرض بكر وحشية لم يستعينوا بسابق يسيرون على خطاه . فهذه التربة

لا تزال كما كانت عليه منذ أن قامت فيها الحضارات منذ فجر التأريخ بل انها زادت في الامكانيات الطبيعية من حيث اتساع رقعة الارض (أنظر البحث الخاص برى العراق) ومن حيث كثرة المياه • فاول شيء كنا نهتدي اليه ، كما أدركه المستوطنون الاوائل قبلنا ، هو ان البيئة التي نعيش فيها تمتاز بخصبها المتناهي ، ولكن يقابل هذا الخصب الذى منحته الطبيعة شح في الامطار في أكثر من نصف الاراضى القابلة للزراعة تقريباء بيد أن الانهار العظمى عوضت عن ذلك ولكن هذه الانهار تحتاج الى السيطرة والتنظيم ولذلك فان اولى الحضارات التى قامت فى هذه البلاد انما قامت على أساس الرى فكانت اراضى ما بين النهرين ، ولا سيما المنطقة الوسطى والسفلى ، شبكة من أنهار الرى • ونظر القوم فوجدوا ان الارض التى يعيشون فيها ينقصها معظم المواد الاساسية فى بناء الحضارة الراقية فالتجأوا ، كما ذكرنا ، الى جلب هذه المواد الضرورية من الخارج من الاقطار المجاورة بالتجارة الخارجية وكانت هذه التجارة فى مبدأ أمرها ضيقة مقتصرة على سد الحاجات الضرورية وعلى التبادل فى المنتوجات الزراعية مع الاقطار التى تكثر فيها المواد الخام • وقد رأيتم فيما سبق كيف ظهرت الصناعات الابتدائية منذ عصور ما قبل التأريخ واتسعت وتعددت الصناعات فى أثناء نمو الحضارة ومن ذلك صناعة الاوانى الفخارية ، والتعدين الذى عرفه العراقيون الاقدمون منذ عصور ما قبل التأريخ كتعدين النحاس وصنع الادوات والآلات المختلفة منه وقد سبق أن ذكرنا ان السومريين الاوائل اتصلوا لجلب النحاس بأقطار نائية ومن ذلك بلاد العرب • وصنعوا البرونز ، وبدأ استعمال الحديد منذ الالف الثانى ق•م واتسعت صناعته منذ أواخر الالف الثانى ق • م • وقد رأينا فى بحثنا عن الاشوريين كيف أنهم استغلوا الحديد فصنعوا منه الاسلحة الثقيلة كالعربات والدبابات والاسلحة الفتاكة • ونذكر كذلك الصناعات المختلفة فى المعادن النفيسة كالصياغة وكذلك الفنون الجميلة فى الاحجار المختلفة وصناعة الاختام الاسطوانية والصناعات المختلفة فى

الاخشاب ، والحياكة والنسيج وقد سبق أن ذكرنا في مبحث الكيماء بعض الصناعات الكيماوية كالتزجيج وسبك المعادن وطلائها وصنع الدهان والاصباغ والصابون والعقاقير والمساحيق والعطور والجعة والمشروبات الروحية المخمرة وصنع الادوات البيتية • ومع ذلك فلا ينبغي لنا ان نقيس هذه الصناعات بمقياس الصناعات الآلية الحديثة ولكنها تخولنا أن نعد العراق القديم بالنسبة الى الحضارات القديمة مركزا صناعيا ومركزا زراعيا أيضاً • ولكن الازدهار الاقتصادي كان يعتمد على التجارة الخارجية •

وبعد هذه المقدمة نتكلم بعض الشيء عن هذه الاركان الثلاثة التي قامت عليها حضارات وادي الرافدين وهي الزراعة والتجارة والصناعة • واذ كنا قد تطرقنا الى بعض الصناعات القديمة هنا وفيما مر بنا من المباحث السابقة فسيكون بحثنا مقصورا على الزراعة والتجارة •

الزراعـــة :

لعل أول شيء بارز في تأريخ الزراعة في العراق هو طغيان شهرة هذه البلاد الزراعية على غيرها مما امتازت به الحضارات التي قامت فيها وظلت هذه الشهرة التأريخية حتى الازمان المتأخرة من تأريخ الحضارة • فقد شبه كثير من كتاب الاغريق والرومان بلاد ما بين النهرين بانها « الدرادو » اي بلاد الذهب والخير في الزراعة • وبالغ بعضهم في المحصول الزراعي الناتج ،حتى ان هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور ، قد قدره بمائة أومائتي مرة • وهذا يذكرنا بتسمية المؤرخين العرب لارض العراق بالسواد لكثرة زرعها وخضرتها • ولكن الشيء المهم الذي ينبغي التنبيه عليه هو ان هذه الشهرة لم تكن لتحصل الا بجهود الانسان وعمله ، ولا سيما في طرق الري والسهر على تنظيم شؤون الزراعة •

والشيء الثاني الذي يمكن قوله عن تأريخ الزراعة في العراق هوامكان تقسيم العراق بالنسبة الى زراعته الى قسمين عظيمين : القسم الاول وقد عرف في تاريخ العراق باسم بلاد « سومر واكد » وكان هذا يمتد من شمالي بغداد

قليلا الى قرب الناصرية جنوبا ، والقسم الاعظم منه صالح للزراعة حيث تقدر الاراضى القابلة للزراعة بنحو (٨٠٠٠٠) كيلومتر مربع - (اى نحو ٣٢ مليون مشارة) هذا عدا المساحات الكبيرة الاخرى التى هى مراع طبيعية[١] ٠ويعتمد هذا القسم فى زراعته على الارواء الصناعى أى على ارواء الانهار ومن الجدير ذكره بصدد هذا القسم من العراق ان الرافدين العظيمين هما اللذان كوناه وهما اللذان يرويانه أيضا ٠ وسنرى مما سنوجزه عن الرى ان العراقيين الاقدمين قد جعلوا هذا القسم من العراق شبكة من الانهار والجداول مما لا نزال نشاهد آثار قيعانها المندرسة ٠ أما القسم الثانى فنستطيع أن نسميه بلاد آشور وهو يشمل معظم شمالى العراق وفيه كثير من الاراضى الصالحة للزراعة، وقسم كبير من أراضيه صعب ، ويعتمد القسم الاغلب منها على الارواء الطبيعى أى على الامطار ولكن فيه مساحات شاسعة ، كالسهل المحصور بين الزابين وبين دجلة يمكن أن تزرع زرعا منتظما واسعا ليس بالاعتماد على المطر فقط بل على الانهار أيضا ٠

وقد يكون من البديهيات اذا قلنا ان الزراعة الجيدة كانت فى الازمان الماضية مثلما هى فى الحاضر ، تتوقف على أمور كثيرة ، وعلى رأس هذه انتظام شؤون الدولة والحكم وحسن الارواء والاعتناء بالانهار والسدود ونوع الارض والجهد والعمل المبذولين على الارض ٠

ويمتاز تأريخ الزراعة في العراق بكثرة ما خلفه لنا العراقيون الاقدمون من وثائق تأريخية عن شؤون حياتهم الاقتصادية بوجه عام وعن شؤون الفلاحة بوجه خاص ٠ فهناك الالوف الكثيرة من المستندات والوثائق التجارية المدونة على ألواح الطين وكلها يتعلق بشؤون الاراضى والزراعة ٠ وجاء الشيء

---

(١) ولا يعلم بوجه الضبط الكمية التى تزرع منها الآن وتقدر بنحو ١٦٠٠٠ كيلومتر مربع (نحو ستة ملايين ونصف المليون مشارة) والمزروع من المنطقة المطرية نحو (٦٠٠٠) كيلومتر مربع (نحو مليونين ونصف مشارة) وتكون نسبة المزروع فى كلا المنطقتين بالنسبة الى الاراضى الصالحة للزراعة الآن نحو ١٨ بالمائة ٠

الكثير عن الزراعة فى شرائع العراق القديم كما مر بكم سابقا ، فنجد حمورابى وقد خصص جملة مواد من شريعته لتنظيم شؤون الزراعة والرى وفيها معلومات مفيدة عن كيفية فلح الارض والآلات المستعملة فى ذلك وعن حقوق الزراع واجور الفلاحين وقسمة الحاصل بين صاحب الارض والفلاح الى غير ذلك من الشؤون الزراعية . ونجد كثيرا من ذلك فى الشريعة التى عثرت عليها مديرية الآثار العراقية حديثا فى تل حرمل . وهناك كثير من الاشياء الطريفة عن الزراعة والفلاحة فى الاساطير الدينية وفى القصص الادبية ، وكان يحلو لكثير من ملوكهم انهم يذكرون فى ألقابهم ادعاءهم الاهتمام بشؤون الزراعة . فنجد « نبوخذ نصر » مثلا بانى الجنائن المعلقة فى بابل ، يفاخر فى تلقيب نفسه «بروى الحقول وفلاح بابل» . ومما يشير الى أهمية الزراعة عندهم انهم خصصوا جملة من الآلهة التى عبدوها لشؤون الفلاحة والزراعة . ويرى الباحثون فى الاديان القديمة ان عبادة آلهة الزراعة والخصب هى أقدم أنواع العبادة فى تأريخ الانسان . وعثر حديثا على بعض الالواح فى نفر ثبت أنها تآليف فى الزراعة على هيئة ارشادات للزراع منذ بذر الحبوب حتى عهد جنيها .

ووجدت حديثا بعض الآثار المهمة وهى تصور لنا المحراث العراقى القديم وهو يكاد لا يختلف عن المحراث الذى يستعمله فلاحو العراق الحديث الا أن المحراث البابلى كان أحسن من المحراث الحديث البدائى ، اذ كان من جملة اجزائه آلة أو أنبوب على هيئة القمع لبذر البذور منه فى اثناء الحرث[1] فى آن واحد . وكان المحراث فى عصور ما قبل التأريخ آلة ساذجة وجدت له نماذج فى بعض القرى القديمة فى العراق من العصور التى سميناها بعصور ما قبل السلالات وهو عبارة عن قطعة من الحجر لعلهم كانوا يثبتونها

---

(١) لقد جاء بعض هذه المحاريث وهى مصورة فى الاختام الاسطوانية (انظر
(1) H. Frankfort, **Cylinder Seals** (1939).
(2) Ward, **Cylinder Seals** (1910), Nos. 69, 108.
انظر كذلك دليل المتحف البريطانى الطبعة الثانية الص ٢٢١

بمقبض من الخشب ، وكانت هذه تكفي لحرث قطعة صغيرة من الارض يوم كانت الزراعة محدودة لا تشمل رقعا واسعة من الارض • ومن آلات الزرع التي جاءتنا نماذج منها من المواقع القديمة في العراق أنواع المناجل المختلفة التي لا تختلف في هيئتها عن شكل المنجل الحديث وقد جاءتنا ثلاثة أنواع منه : منجل من الصوان صنع من قطع عديدة من الصوان المحدد وجمعت كلها وثبتت بالقير مع مقبض من الخشب ، ومنجل مصنوع من الفخار (الا سيما من عهد العبيد) ، ومناجل مصنوعة من المعادن المختلفة مثل النحاس والبرونز ، وقد كثرت هذه في العصور التأريخية عندما كثر استعمال المعادن واتقن فن التعدين في العراق القديم • والى هذه الآلات فلدينا مجاميع كثيرة من الفؤوس المختلفة التي لا شك في ان بعضها كان يستعمل في شؤون الزراعة في الحقول وفي البساتين • ومن الطريف ذكره ان بعض آلات الحفر جاء ذكرها في المصادر المسمارية باللفظ والمعنى المستعملة فيها الآن في العراق مثل « المر » و « المسحاة » و « المنجل » ويوجد الكثير من المصطلحات الزراعية التي جاءتنا عن البابليين فيما يتعلق بالنخيل مثل أسماء التمر وطرق النضج الصناعي (وضع البلح الاصفر في الشمس) والتال و « التبلية » المستعملة الآن في التسلق على اشجار النخيل • ومن الآثار المهمة افريز بناء في المتحف العراقي وجد في معبد في العبيد وقد زين بمشاهد منها مشهد جميل يمثل لنا بعض الشؤون الزراعية كحلب الابقار وخض الحليب في زق كبير (يشبه السقاء المستعمل الآن).[١] ومما يجدر ذكره بصدد الثروة الحيوانية في العراق القديم ان الحيوانات ، مثل البقر والغنم والحمار والفرس والحيوانات الداجنة الاخرى ، كانت تؤلف اساسا مهما في الحياة الاقتصادية عدا أهميتها في الشؤون الزراعية وفي المواصلات ، ومما يقال في الحيوانات الداجنة ان الانواع الاساسية منها كانت معروفة في العراق القديم ، باستثناء الدجاج الذي يرجح أنه دخل العراق ولعله من الهند في

---

(١) ان هذا أقدم مشهد بما يسمى الان (Dairy) اى صناعة الالبان ومستخرجاتها •

الازمان المتأخرة فى العهد البابلى الاخير أو ما قبل ذلك بقليل •

هذا ولا نستطيع ان نقول عن تغيير خصب الاراضى وانتاجها وهل كثر أو قل ، كما اننا لا نستطيع أن نصدق بقول هيرودوتس الذى ذكر أن الانتاج الزراعى يصل فى بلاد بابل الى مائة أو مائتى مرة ، لاننا لا ندرى هل يقصد من ذلك ان الحاصل كان يبلغ هذا المقدار وزنا ام عدا • ومهما يكن من أمر فان الثابت من الوثائق التأريخية القديمة مما جاءنا من الادوار المختلفة ان معدل نسبة المحصول الى البذر كانت تبلغ بوجه عام نحو ٣٠ مرة وزنا ، وقد تصل النسبة الى ٤٠ مرة • وكان هذا يتوقف طبعا على عوامل كثيرة من جودة الارض وحسن الارواء وشغل الارض وانتفاء الا فات الزارعية الخ • وقد تصل النسبة فى ازماننا الحاضرة الى نحو ٤٠ مرة فى أجود الاراضى وتحت أحسن الاحوال ، ولكن المعدل المعتاد هو نحو (٢٠) مرة • فالدونم العراقى الآن (أى المشارة وقدرها ٢٥٠٠ مترا مربعا) ينتج نحو (٢٠٠) كيلو غرام (اى نحو ½ ٧ البوشل) فى الزراعة المطرية ونحو ٢٥٠ كيلو غرام (½ ٩ البوشل) فى زراعة الرى •

ولا تشير الادلة والوثائق التأريخية الى تغيرات كبيرة فى أحوال النبات والحيوان فى العراق القديم والعراق الحديث[١] ، فمن ناحية الحبوب ، اذا استثنينا بعضها مثل الرز ، فان الحبوب الرئيسية فى العراق القديم كانت كما هى فى الزمن الحاضر • ويأتى على رأسها الحنطة والشعير • ونحن مدينون بهاتين الغلتين العظيمتين الى فلاحى العصر الحجرى المتأخر • وأصلهما من الشرق الادنى ، حيث يوجد فيه الشعير والحنطة وهما ينبتان بهيئة برية • والى الشعير والحنطة فاننا نعرف وجود بعض الحبوب الاخرى منذ أقدم الازمان مثل الذرة والدخن والسمسم (واسم الدخن والسمسم باللغة البابلية

---

(١) حول النباتات والاشجار التى كانت معروفة فى العراق القديم وحول الحيوانات انظر
C. Thompson, **Dictionary of Assyrian Botany** (1946).
انظر Landsberger, **Die Fauna des alten Mesopotamien** (1934).

مثل العربية) • ووصفت نباتات الدخن والسمسم بعلوها المتناهى • أما الرز فلم يكن معروفا فى العراق القديم الا فى الازمان المتأخرة ولعله أول ما أدخل الى العراق عن طريق ايران من العهد الاشورى المتأخر وكثراستعماله فى العهد الفارسى الاخمينى • وكان أصله من الشرق الاقصى ومنه انتشر الى الهند ، ويرجح أن الفرس القدماء تعلموا زراعة الرز من بعد غزوهم الهند ، وعنهم دخل الى العراق •

ونشأ فى العراق القديم منذ أقدم الازمان نوعان من الاراضى التى تزرع وهى الحقل (واسمه بالبابلية مثل العربية) لزرع الحبوب وما شابهها وآلاته الرئيسية « المحراث » كما ورد على لسان البابليين ، والبستان لزرع الاشجار المثمرة وآلاتها « المسحاة » أو الفأس ، كما قال البابليون أيضا • ومن صنف البساتين الحدائق العامة ، كالجنائن العامة الواسعة التى غرسها مثلا الملك الاشورى سنحاريب فى نينوى والجنائن التى اشتهرت بها مدينة بابل ، واتخذوا نوعا من الحدائق والبساتين كانوا يزرعونها فى نوع خاص من المعابد خصصوها للاحتفال بأعياد رأس السنة البابلية (انظر البحث الخاص بالمعابد) والمرجح كثيرا ان فن البساتين قد نشأ فى العراق فى عهود قديمة جدا ، ولعله بعد العصر الحجرى المتأخر بعد أن تعلم الانسان الزراعة[1]،وقد سبق أن نوهنا بأن البستان قد ساعدت الانسان كثيرا فى استقراره حيث جعلته يرتبط بالارض أكثر من زراعة الحبوب وكانت العلامة المسمارية التى تقوم مقام كلمة بستان (شار) قد نشأت منذظهور الكتابة الصورية فى النصف الثانى من عصر الوركاء • وقد جاءتنا فى اخبار ملوك العراق القدماء ذكر ولعهم بغرس البساتين نذكر منهم بستان «مردوخ بلادان» حيث دونت أسماء الخضروات والنباتات التى كانت تنبت فيها وكذلك بستان تجلاتبليزر واشور ناصر بال والنخلة ، على ما يرجح ، أقدم شجرة واهم شجرة فى تاريخ العراق•

---

(١) حول موجز تاريخ البساتين انظر بحث المؤلف فى مجلة الزراعة العراقية (عدد مايس ــ حزيران ١٩٥٣) ، وحول البساتين الخاصة بالشعائر الدينية انظر مجلة **Welt des Orient** (1953)

وكانت العادة أنهم يزرعون الفراغات ما بين النخيل بالاشجار المثمرة وقد استطاع البحث الحديث أن يعين كثيرا من أصناف هذه الاشجار مثل التين والكرم والرمان والتفاح والكمثرى والفستق واللوز وغيرها • ومن الاشجار التى جلبها الملوك الاشوريون الى العراق الزيتون • وكذلك القطن الذى يرجح أنه جلب من الهند • ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أن سنحاريب الذى أدخل القطن الى شمالى العراق يخبرنا أنه غرس فى حدائقه الملكية فى نينوى أشجارا غريبة جلبها من أقطار الدنيا المختلفة ومن ذلك شجرة وصفها بأنها تحمل الصوف ويعنى بذلك القطن ، ويماثل هذا القول ما ذكره هيرودوتس حيث يقول ان من بين أشجار الهند شجرة تحمل الصوف بدل الثمر !

وقبل انهاء الكلام على الزراعة فى العراق نقول كلمة مختصرة عن وضع الارض من ناحية الملكية والتوزيع • فكانت ملكية الاراضى فى العراق القديم منذ أقدم العهود بيد الافراد أى كانت الملكية الفردية بخلاف الوضع الغالب فى مصر القديمة حيث الارض ملك الفرعون • والى الملكية الفردية للاراضى فى العراق القديم كانت بعض الهيئات الاجتماعية كالمعابد والقصور (أى الملك والطبقة الحاكمة) تمتلك الاراضى أيضا • وقد جاءتنا وثائق عن كلا النوعين من ملكية الاراضى من عصور فجر السلالات ومن العهود التى أعقبت ذلك • ومما يقال فى ملكية الاراضى بوجه عام ، بنوعيها الفردى والاجماعى ، انها كانت تتغير بالنسبة الى السلالات الحاكمة وبالنسبة الى الفتح والغزو ، فالملك الفاتح مثلا كان يمنح أتباعه اقطاعات من الارض ، وقد جاء تنظيم تلك الملكية والحيازة فى مواد خاصة من شريعة حمورابى • وجرت العادة تحديد الاراضى المملوكة بالحدود وتعيين مساحتها وتثبيت ملكيتها بالسندات المدونة • وقد ميزت شريعة حمورابى بين نوعين من ملكية الاراضى : ملكية مطلقة وملكية حيازة ، وهى ما يهبها الملك أو الحاكم من الاراضى الى الافراد لغرض المنفعة العامة ، فيهب الملك مثل هذه الاراضى الى أفراد معينين

لزرعها واستغلالها ، ولكنها لا يمكن بيعها ولا رهانها ولا نقلها الى مالك آخر الا الى وريث بشرط أن الوريث يقوم بالواجبات المتعلقة بالعناية بتلك الارض واستغلالها • وقد راعت الشرائع القديمة المحافظة على الملكية الفردية بالنسبة الى العائلة التى تمتلكها حتى أنها وضعت ما يشبه حق الشفعة بالنسبة الى الوارثين •

ومن الملكيات الاجماعية ان بعض المدن فى العهد الكشى كانت تمتلك أراضى مشاعة فيما بينها • وشاع فى هذا العهد أيضا مستندات خاصة لتثبيت ملكية الاراضى وتحديدها ، وهو ما سميناه باحجار الحدود (الكدرو باللسان البابلى) • وكانت هذه عبارة عن أحجار مهندمة كبيرة تنقش فى أعلاها بعض الرموز والصور الدينية وتنقش بنصوص كتابية تبين اسم المالك والارض المملوكة وحدودها • ويرجح أن مثل هذه الاحجار كانت تودع فى المعابد لتسجيل الملكية والمحافظة عليها • وكانت الاراضى الغامرة التى لم يشغلها أحد ملك أول من يشغلها ويستغلها • ومن الملكية الخاصة بالاراضى البساتين التى ذكرناها وأراضى المراعى ، ويستطيع المرء أن يقف على شؤون الاراضى وتنظيمها وملكيتها واسعارها من درس شريعة حمورابى ودرس الوثائق التجارية •

النخيل : —

يجدر بنا أن نخصص بحثا موجزا عن النخيل التى اشتهر العراق بزراعتها واختص بها منذ أبعد عصور ما قبل التأريخ • والى أهمية البحث فى النخيل ذاتها سنستفيد مما سنذكره عنها أشياء مهمة عن اعتناء القوم بشؤون الزرع والفلح •

ومن المحتمل أن يكون موطن النخل الاصلى فى الجزء الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية أو انها من أفريقية أو الهند • أما فى العراق فتشير الادلة الآثارية الى ان زراعة النخيل قد بدأت فى القسم الجنوبى من العراق منذ بداية استيطان الانسان

فى العهد الذى سميناه بطور العبيد فى حدود ٤٠٠٠ ق٠م ٠ ولا تقتصر أهمية النخلة على العراق فقط بل انها تحتل المكان الاول فى معظم بلاد الشرق الادنى ،فلقدورد ذكرها فى آداب الامم السامية وما ثرها وآداب العراق بوجه خاص ، فنجدها مثلا تستعمل فى الفنون القديمة وتعتبر شجرة مقدسة عند الامم والشعوب التى اقتبست من حضارات العراق القديم ٠ ونجدها على أهمية عظيمة فى بلاد العرب ، تكثر من ذكر فضلها الآداب العربية فى جاهليتها واسلامها[١] ٠

ومهما كان موطن النخل الاصلى فنستطيع ان نقول ان زراعة النخيل واستغلالها استغلالا كبيرا فى الحياة الاقتصادية انما اختص بها العراق منذ فجر التأريخ فيه ، ولا يزال العراق يعد أعظم وأوسع مركز لزراعة النخيل ولا سيما المنطقة الجنوبية منه حيث نجد اكثف منطقة فى زراعة النخل[٢]٠ وان أقصى ما تمتد اليه منطقة زراعة النخيل فى العراق الى تكريت على دجلة والى عانة على الفرات ٠ وكان هذا هو الحال كذلك فى الازمان القديمة ٠ بيد أن المعتقد ان زراعة النخيل تمتد فى بعض لازمان القديمة الى ما فوق هاتين النقطتين الى جهة الشمال ، اذ يروى التاريخ ان بعض الملوك الاشوريين حاولوا غرس النخل فى المنطقة الشمالية ، ويخبرنا بعض الملوك القدماء ممن حكم فى الفرات الاوسط قرب الحدود السورية العراقية أنهم غرسوا النخيل فى ذلك الاقليم ٠

---

(١) لقد رويت بعض الاحاديث النبوية مما يشير الى اهمية النخل فى بلاد العرب فمن ذلك ما يروى عن النبى (ص) انه قال « نعمت العمة لكم النخلة ، تغرس فى ارض خوارة وتشرب من عين خرارة » ٠ وانه قال « المطعمات فى المحل والراسخات فى الوحل » وفى القرآن الكريم « اصلها ثابت وفرعها فى السماء » الى غير ذلك من المآثر التى تشير الى اهمية النخلة وخطورتها فى الحياة الاقتصاديه فى جميع بلاد العرب وفى حياة الاقوام السامية ٠

(٢) فمثلا يقدر ما ينتجه العراق نحو ٧٥ــ٨٠ بالمائة من تمور العالم ويوجد نحو اكثر من ٢٣ مليون نخلة فى العراق ، وقد يصل علو شجرة النخيل نحو ١٠٠ قدم كما انه تعمر كثيرا (نحو قرنين الى ثلاثة قرون)٠

لقد جاءتنا أخبار طريفة عن زراعة النخل فى العراق من مآثر العراق القديم • فمن ذلك ما يروى عن ان البابليين الفوا قصيدة فى مدح شجرة النخل ذكروا فيها ٣٦٥ فائدة أو منفعة لتلك الشجرة • وهذا يؤيد لنا ماتعرفه عن فوائد النخيل فى زماننا الحاضر وأهميتها الاقتصادية ، فثمرتها طعام فيه كثير من المواد الغذائية (كما أثبت ذلك التحليل الحديث)[١] ثم هى فاكهة لذيذة • والشجرة نفسها مأوى وملبس ووقود ومادة للبناء • ويستخرج من ثمرها منتجات كثيرة « كالدبس » (وهو من الكلمات القديمة وسماه البابليون « دشبو ») وأنواع الشراب والخمور • ويمكن استخراج النشاء والسكر والورق والزيت والشمع والدباغ والاصباغ والصمغ وعدد كبير من المنتجات الثانوية • ويروى لنا الكاتب الرومانى « سترابو » عن فائدة النخل عند البابليين بعبارة طريفة اذ يقول « تزودهم شجرة النخل بجميع الاحتياجات باستثناء الحبوب » •

وليس أدل على أهمية النخل فى حياة العراق الاقتصادية من ان حمورابى قد خصص فى شريعته مواد كثيرة لشؤون النخل والمعاملات المختلفة المتعلقة بها ، ومن ذلك مادة تشير الى أهمية هذه الشجرة ، حيث فرضت عقوبة على من يقص نخلة بدون اذن صاحبها بدفع غرامة قدرها نحو ربع كيلوغرام من الفضة • وهذه غرامة كبيرة بالنسبة الى عرف ذلك الزمان • وتذكر لنا الاخبار أن كثيرا من الملوك الآشوريين كانوا يعمدون للقضاء على الشعوب المعادية الى قص بساتين النخيل عندهم ، فيحرمونهم من قوتهم الاساسى •

وعائلة النخيل أكثر الاشجار تنوعا ، فهى تضم ما لا يقل عن ال ١٧٠ صنفا وما لا يقل عن (١٥٠٠) نوع ويوجد فى العراق نحو ٢٥٠ شكلا من

---

(١) والواقع ان التمر من المواد الغذائية القليلة التى تمتاز بعظم مقدار طاقتها الغذائية ، حيث يحتوى على العناصر الغذائية الاساسية كالبروتين والشحوم والاملاح والكاربوهيدرات ، ويحتوى الرطل من التمر (أى نحو نصف كيلوغرام) على نحو ١٢٧٥ سعرة وهذا يعادل أكثر من ثلث السعرات الضرورية للعامل •

أشكال التمور . وكلنا يعرف أنواع النخيل الكثيرة الموجودة فى العراق الآن وقد جاءنا فى الجداول النباتية القديمة ما يؤيد تنوع أصناف النخيل وأنواعه[١]

ونستطيع من كثرة ما جاءنا من الوثائق المختلفة عن شؤون النخل وغرسه والعناية به ان نستنتج أمورا مهمة عن أحوال النخيل فى العراق . ومما يعجب له ما نجده من الطرق الصحيحة فى غرس النخيل ، كتنظيم البساتين الواسعة التى كانت تشغل مساحات كبيرة من الافدنة ثم المسافات الصحيحة التى يجب تركها بين شجرة وأخرى ، وكذلك طرق التلقيح الاصطناعى ثم مقدار ما تحمله النخلة الواحدة من الثمرة وكيفية تقدير بساتين النخل بعدد الاشجار وليس بمساحة أرض البستان . وجاءتنا المصطلحات الزراعية المختلفة وهى شبيهة بما يستعمله فلاحو العراق الآن فيما يتعلق بشؤون زراعة النخل . فمن ذلك كانت الطريقة المتبعة فى تكثير النخل بغرس « الفسيل » أو التال، وليس النوى وهذه هى الطريقة المثلى المتبعة فى الوقت الحاضر لان الاشجار النامية من أصل النوى الغالب فيها ان معظمها يكون من أشجار « الفحول » أو أنها اذا أثمرت فتثمر ثمرا رديئا . وقد نصت المادة الستون فى شريعة حمورابى على انه « اذا أعطى رجل أرضا الى فلاح بستانى لغرض غرسها بالنخيل فعلى البستانى أن يغرس البستان ويعنى بها مدة أربع سنين . ويتقاسم صاحب الارض والبستانى ابتداء من السنة الخامسة ثمرة البستان مناصفة » فهذه المادة وكذلك الوثائق تشير بوجه واضح الى أن تنمية النخيل كانت تتم بغرس الفسيل أو التال ، فقد حددت المادة المدة التى يمكن للتال المزروع ان يثمر فيها وهى أربع الى خمس سنوات . اما النخيل الذى ينبت من أصل النوى فيحتاج الى زمن يتراوح بين ٨- ١٥ عاما . وأتبع العراقيون الاقدمون فى غرس النخيل الطريقة الصحيحة فى أمر المسافة التى ينبغى تركها بين نخلة وأخرى فكانوا يتركون

---

(١) انظر المراجع فى الحاشية رقم (١) ص ٣٦٠

معدل ٣٠ قدما بين شجرة وأخرى ويغرسون في « الايكر » الواحد نحـــو ٥٠ شجرة[١] . والمعروف من التجارب الحديثة ان كمية التمر وجودته توقفان الى حد كبير على مقدار المسافة الكبيرة بين أشجار النخيل ، وأفضل مسافة نحو ٢٥ قدما . وتشير الوثائق القديمة الى أنهم كانوا أيضا يحفرون تربة البستان ويقلبونها في أزمان مختلفة ، ولا يدعون « الفسيل » (التال) ينمو بكثافة .

ومن الامور المهمة في زراعة النخيل مسألة التلقيح الاصطناعي .فمن البديهيات التي نعرفها الآن وعرفها سكان العراق الاقدمون منذ أقدمالازمان ان أشجار النخيل بخلاف كثير من الاشجار الاخرى تتكون من جنســين منفصلين ـ الشجرة الذكر (الفحال) والشجرة الانثى . والنخلة التي لا تلقح بطلع الذكر ان اثمرت فيكون ثمرها رديئا ولا ينضج النضج الملائم ويكون عادة عديم النوى (ويسميه العراقيون الآن الشيص) . وكذلك كان التلقيح الاصطناعي من أهم الامور التي أعتني بها في العراق القديــم وجاءتنا عن ذلك وثائق مهمة ومن ذلك بعض المواد القانونية في شريعـــة حمورابي ووثائق المعاملات الخاصة بشؤون النخيل ، وتدل هذه الوثائق على أنهم كانوا يراقبون النخيل ابان فصل الطلع ويلاحظون باهتمام ما يظهر من الطلع . اذ المعروف ان الطلع لا يظهر جميعه جملة واحدة ولذلك فلا ينبغي أن يغفل عن بعض الطلع بدون تلقيح[٢] .

الري : ـ

لقد سبق أن المحنا مرارا الى أن الري كان الدعامة الاساسية في حياة العراق الاقتصادية . وبوسعنا أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان عبقرية الانسان وجهده في انشاء الحضارة في العراق يتجليان باجلى مظاهرهمـــا

---

(١) والمتبع في البصرة غرس نحو ١٠٠ نخلة في الجريب الواحد ، والجريب اقل من « الايكر » بقليل .

(٢) انظر بحث المؤلف في أشجار العراق القديم ونباتاته في مجلة سومر (المجلدان ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣) .

فى الارواء الصناعى ، وان نشوء أول حضارة فى وادى الرافدين قد تحقق بعد أن تغلب سكان وادى الرافدين الاقدمون على الانهار وضبطوا الرى فيها بانشاء السدود وحفر الانهار والجداول وتجفيف الاهوار ، فذللوا البيئة الطبيعية الوحشية واستغلوا امكانياتها العظمى بقدر ما كان متوفرا لديهم من وسائل العمل والفن • هذا وقد سبق ان ذكرنا ان ما يزيد على نصف مساحة العراق الزراعية تعتمد فى زراعتها على الارواء الصناعى ، وأنه لولا الانهار والارواء لاصبح هذا الجزء بادية جرداء أو أهوارا ومستنقعات •

وقد حل سكان العراق الاقدمون هذه المشكلة الكبرى بأن انشأواأوسع طرق للرى عرفها العالم القديم واستطاعوا ان يحولوا بجهودهم تلك البيئة الوحشية الى جنة رددت شهرتها الشعوب والاقوام • ولقد درت الجهود التى بذلها سكان العراق الاقدمون لضبط شؤون الرى خيرات البلاد الزراعية وقد عملت الزراعة الواسعة ووفرة القوت على تكاثر السكان وزيادة النفوس والى ذلك فان الانتاج الزراعى لم يقتصر على الاستهلاك المحلى بل كان أهم دعامة فى التجارة الخارجية • ونستطيع أن ندرك الجهود التى بذلها سكان وادى الرافدين الاقدمون فى تنظيم الرى فيما نشاهده الآن من قيعان الانهر القديمة المندرسة التى كانت جداول شقوها من الانهار العظمى ،ونجد هذه منبثة فى جميع أنحاء العراق وقربها الالوف من الاطلال التى كانت فيما مضى مدنا عامرة تقع على تلك لانهار • وكان بعض هذه الانهار جداول كبيرة تربط الفرات بدجلة • فقد استغل القوم ظاهرة طبيعية فى خصائص رافدى العراق وهي ارتفاع وادى الفرات بالنسبة الى دجلة فشقوا أنهارا عظمى من الفرات الى دجلة كانت تروى أراضى واسعة • وقد طغت أخبار شق الانهار والجداول على غيرها من أخبار الملوك وأعمالهم منذ أقدم العهود وكان حفر نهر جديد حدثا هاما يؤرخون به الحوادث • ولو اننا أردنا أن نحصى عدد الانهار والجداول التى ورد ذكرها فى الكتابات المسمارية لاحتجنا الى معجم خاص • وخصصت شريعة حمورابى جملة مواد لتنظيم شؤون

الارواء[١] . وتفسر لنا هذه الحقيقة ما سبق أن ذكرناه مما تشاهده الآن من الوف الانهار القديمة المندرسة أينما سرنا في سهل العراق . ولكن القسم الاعظم من هذه الانهار قد اندرس وبقي الكبير والمهم منها الى العهود العربية الاسلامية ، فاستفاد العباسيون من بعضها بعد تطهيرها وكريها ومن ذلك النهر القديم الذي سموه بنهر « عيسى » . ولما كان دجلة يجري معظم أوقات السنة بين شواطىء عالية دعت الحاجة الى انشاء السدود لتحويل قسم من مياهه الى الاراضي المجاورة . وقد شقت في جنوبي الموضع الذي كان يصب فيه دجلة في عصور ما قبل التاريخ البعيدة (قرب سامراء) أنهار فرعية في كلتا الضفتين . فالى الغرب شق نهر عرف في الازمان المتأخرة بالدجيل والى الشرق من ذلك نهر عظيم هو النهروان . وأنشئت قرب الكوت بعض السدود البسيطة لتوزيع مياه دجلة الى ثلاث شعب يمثل احداها على ما يرجح نهر الدجيلة الذي يعزى حفره الى أحد ملوك مدينة « لجش » (تلو الآن) في حدود ٢٦٠٠ ق.م

وشقت من الفرات الى دجلة أنهار عظمى كان أحدها يخرج من الفرات ويتصل في العصر العباسي بدجلة فوق بغداد . وعرف هذا بنهر عيسى لان عيسى عم المنصور اعاد حفره وكريه ، وكان اسمه في زمن البابليين « قنال انليل » (باتي انليل) ولا تزال آثاره ماثلة قرب خرائب عقرقوف ومن فروع نهر عيسى نهر « الصراة » . ويلي هذا النهر العظيم نهر كبير آخر عرف في زمن العباسيين بنهر « صر صر » يخرج كذلك من الفرات ويقترب من دجلة شمالي موضع المدائن (أي قرب سلمان باك الآن) وهناك نهر كبير ثالث هو نهر « الملكا » أو نهر الملك (واسمه بالبابلية « نار شاري » — أي نهر الملك) وقد استعمل هذا كذلك في زمن الخلافة العباسية ، وكان يقترب من دجلة أسفل المدائن ، والى الجنوب منه نهر « كوثى » (نسبة الى مدينة كوثى البابلية القديمة) ويأتي بعد كوثى نهر الصراة الكبير . وكان يتفرع من

---

(١) راجع بحث ذلك في
Miles and Driver, **The Babylonian Laws,** vol. I.

الفرات فوق بابل بقليل شط النيل العظيم ويمر بمدينة كيش (تل الاحيمر الآن)• وكان نهر الدجيل أيضا يربط دجلة بالفرات ،ولكنهاسد في القرن العاشر ، فسمى باسمه جدول آخر يأخذ من دجلة جنوبي القادسية (قرب سامراء) • وقد تفرعت من هذه الجداول الكبرى جداول فرعية كثيرة جعلت السهل الجنوبي شبكة من الانهار تروى مساحات شاسعة وتعيش خلقا كثيرا وهى الآن أغلبها خراب • وقد بدأ في الازمان الحديثة بشق بعض الانهار من الفرات الى دجلة مثل اليوسفية واللطيفية ولعلها تكون عربونا لازدهار مماثل • ومن الامثلة على كثرة الاخبار الواردة عن شق الانهار أن أخبار ملوك سلالة لجش (في طور فجر السلالات الاخير) ملأى بحوادث شق الانهار واقامة « خزانات » المياه ، ومما لا شك فيه ان شق الانهار واقامة الخزانات والسدود ومصارف المياه انما كانت تتم بموجب دراسات وخطط ومسح قبل الشروع بمثل تلك المشاريع • ومما يؤيد ذلك انه جاءنا من حكام عصر فجر السلالات بعض الصور المرسومة على ألواح الطين تمثل مخططات الجداول والانهار ، ونذكر على سبيل المثال صورة الجدول المرسومة في لوح من عهد «ايا نانم» ومعه صورة خزان تزيد سعته على (٢٢٠٠) «جالون»[١] ومن أخبار شق الانهار ما جاءنا من حمورابي من مشاريعه الواسعة في الري ومن ذلك شقه نهرا عظيما سماه « نهر حمورابي » ودعاه « بثروة البلاد وجالب الماء الغفير الى سومر وأكد » ، وكان هذا نهرا عظيما يأخذ من الفرات بالقرب من « بورسبا » (برس نمرود الآن) ويذهب بعيدا الى « اوما » والى « لارسة » ، حيث ينعطف منها الى جهة خليج فارس[٢] كما أن في رسائله الشيء الكثير مما كان يصدره من الاوامر الى ولاته وعماله يأمرهم بها بكرى الانهار والمحافظة على ادامتها والمحافظة على الآلات المستعملة في الري[٣]•

Delaporte, **The Babylonian and Assyrian Civilization** (1925) 106.

(٢) ذات المصدر **ibid.**

(٣) انظر نماذج من هذه الرسائل في المرجع الآتي :—

Ungnad, **Babylonische Briefe,** 42--44.

هذا ولم يقتصر الامر على ان الانهار التي شقوها من الفرات الى دجلة كانت تستعمل لغرض الارواء فحسب بل انها كانت تخفف من وطأةالفيضان، ولا سيما فيضان الفرات الذى كانت تتركز فيه المستوطنات القديمة اكثرمن دجلة على ما سنبين فيما بعد • والى ذلك فانه لدينا من الادلة الآثارية ما يشير الى أنهم لم يكتفوا بتلك الوسائل لدرء خطر فيضان الفرات وانما قاموا بتأسيس مصارف لاخذ المياه ابان الفيضان والاستفادة منها من بعد ذلك طوال أيام السنة ، ومما لا شك فيه انهم استغلوا بعض المنخفضات الطبيعية القريبة من الضفاف الغربية من الفرات مثل منخفض الحبانية وهور « أبو دبس » وبحر الملح وبحر النجف ومنخفض عقرقوف حيث جعلوها خزانات ومصارف للمياه[١] وكذلك استفادوا من مثل هذه الخزانات لاغراض الدفاع، ويمكن مشاهدة المحار النهرى منتشرا فى أطراف هذه المنخفضات فى الوقت الحاضر •

وهناك نهر عظيم ذكره الكتاب الرومان (ولا سيما اريان) حيث يذكر نهرا كبيرا بسم «بالوكوباس» (أو بالوكوتاس) الشبيه باسم الفلوجة القديم (أى بالوكات أوبلوكات)وان ماءالفرات يصرف فيه فى أيام الفيضان، واذا انخفض مستوى الماء فيلزم سد فم هذا النهر والا فان الفرات يفرغ ماءه فيه ويذكر لنا أيضا أن الاسكندر الكبير أمر بان يبنى سد من الحجارة الصلدة بالقرب من مصب نهر الفرات بنهر «بالوكوباس» للاحتفاظ بالمياه فى فصل الجفاف[٢] ويجعل المؤرخون هذا النهر وهو يأخذ ماءه اما من قرب هيت أو الفلوجة ويسير محاذيا للفرات الى جهة الغرب الى أن ينتهى فى البحر أى أن طولهنحو

---

(١) انظر تقرير « ويلكوكس » عن رى العراق (الطبعة العربية الص ٦ ــ ٥ المشار اليه فى كتاب الدكتور سوسه «وادى الفرات ومشروع بحيرة الحبانية» (١٩٤٤) الص ٨١ فما بعد) •

(٢) انظر كتاب «اريان» المسمى «صعود الاسكندر» :
Arrian, **Anabasis of Alexander**, VII, XXI, 2—5.

(٩٠٠) كم • هذا ولا يعلم من شق ذلك النهر العظيم[١] كما لا يعلم بوجه التأكيد أي الانهار الدراسة الآن ما يمكن ان تكون ذلك النهر • وقد ابتت التحريات الجغرافية الحديثة التي قام بها «الوا موسيل» في منطقة الفرات الاوسط[٢] آثار هذا النهر ببضع كيلومترات جنوب هيت ، ولاحظ ان ضفافه هنا مرصوفة بالحجارة كما شاهد آثار جدار ضخم على الجانب الايسر ، وكذلك رسم مجرى هذا النهر « ويلكوكس » • والمرجح كثيرا أن النهر المندرس الآن المعروف باسم « كرى سعدة » هو أكثر ما ينطبق على وصف ذلك النهر العظيم ، اذ انه يسير بمحاذاة الفرات غربا الى الجنوب قرب مصب نهر الفرات القديم (غرب شط العرب قرب بوبيان) •

ويجدر بنا أن نختتم كلامنا على الري بذكر نبذة موجزة عن نهري العراق دجلة والفرات وهما الرافدان العظيمان اللذان هما عصب الحياة في العراق • ومما يؤثر عن هيرودوتس قوله عن مصر «انها هبة النيل» • ويصح أن نقول عن بلاد ما بين النهرين انها كذلك هبة نهريها العظيمين وروافدهما، والى أهمية الرافدين البالغة في ري العراق وخصبه فان لهما شأنا خطيرا آخر اذ استفادت منهما جميع الحضارات التي قامت في العراق في المواصلات والتجارة،[٣] كما نستدل على ذلك من أخبار بناء الارصفة والموانيء في المدن المهمة •

ولا يقتصر الامر على ذلك فان الرافدين يكسبان لارض العراق أراضي جديدة اذ الرأي السائد كما ذكرنا ان القسم الجنوبي من العراق دلتاغرينية

---

(١) ينسبه بعض المؤرخين العرب (مثل ياقوت) الى «نبوخذ نصر» او الى «أنو شروان» • ويرى بعض الباحثين المحدثين ان «بلوكوباسن» هو مجرى الهندية الآن •

(٢) Alois Musil, **The Middle Euphrates**

(٣) لقد ادركت هذه الامكانيات الخلافة العباسية • ويروى في هذا الصدد عن المنصور انه قال بعد ان اختار موضع بغداد وبدأ ببنائها : « هذا موضع معسكر صالح • هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك • وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك» (طبري ٣ ، ص ٢٧٢) •

كونتها ترسبات الغرين المحمول بالنهرين منذ أقدم عصور ما قبل التأريخ.

وقد خص البابليون الرافدين بالتعظيم وجعلوهما الهين من جمة الآلهة التى تمثل القوى الطبيعية ولا سيما نهر الفرات . وجاء ذكر النهرين فى المصادر المسمارية وقد نعتا بالنهرين الاخوين[١] . وذكرتهما التوراة من جملة الانهار الاربعة التى تخرج من جنة عدن (كما جاء فى سفر التكوين) .

ويمتاز نهر الفرات عن أخيه دجلة بكثرة طوله وتعرجاته وانعطافاته واتساع واديه وعمقه . وبعد أن يتصل فرعا الفرات البعيدان « قره صو » و « مراد صو »[٢] قرب كبدوكية يتبع الفرات فى مجراه طريقـــا جنوبية ويسير متعرجا الى الغرب قليلا حتى يصل الى أقرب بعد له عن البحر المتوسط قرب « كركميش » القديمة (جرابلس الآن) . ويكاد يستمر فى اتجاهه الى ذلك البحر . وعندما يصل الى بعد نحو ١٠٠ ميل عن البحر نجده لحسن الحظ يغير مجراه ويسير الى الجنوب منحرفا الى الشرق ويستمر كذلك حتى يدخل سهل سورية وما بين النهرين بالقرب من « سميساط » (سموســاتة المذكورة فى المصادر اليونانية والرومانية) . ويتصل به فى مجراه الاعلى رافداه المهمان وهما « البااليخ » (أو البليخ)[٣] الذى يروى اقليـــم اديسا القديمة (اى الرها) وحران ويتصل بالفرات اسفل الرقة بقليل والثـــانى « الخابور » (واسمه القديم خبورو وسماه اليونان خابوراس) الى الجنوب بنحو ٩٠ ميلا ويتصل بالفرات بالقرب من قرقيسية . ويأخذ الفرات الى الجنوب من ذلك بالاقتراب من دجلة حتى يصل الى أقرب مسافة من دجلة قرب بغداد حيث يكون عرض الارض ما بين النهرين نحو ٢٠ ميلا . وتصل

---

(١) أنظر Reisner, **Hymnen**, 136, 29

(٢) وهو فرع الفرات الجنوبى وقد عرفه العراقيون القدماء حيث ورد فى المصادر المسمارية باسم (أرصانيا)
(Meissner, **Bab. und Assyr.**, 1, 2)

(٣) واسمه القديم « بليخو » وقد جاء اســمه فى بعض المراجــع اليونانية ، ولا سيما « زينفون » بهيئة « خالسيس » (Chalcis)

هنا الى الاقليم الذى كان يدعى فيما مضى ببلاد أكد ، وتبدأ من هذا الموضوع أيضا آثار الارواء القديمة وهى الانهار العظمى التى ذكرنا انها شقت من الفرات • وتوجد أدلة تأريخية قوية على أن الفرات قد غير مجراه الى جهة الغرب وانه كان يجرى الى الشرق من مجراه الحالى • وبوسعنا ان نعين مجرى الفرات القديم من مواضع أطلال المدن القديمة التى كانت فيما مضى على هذا المجرى ولكنها الآن فى بادية جرداء ومن ذلك نفر والوركاء والسنكرة (لارسة القديمة) ، ولا يزال قاع الفرات المندرس يشاهد الآن قرب هذه الاطلال ويعرف قسمه الشمالى بشط النيل قرب النيل الحديث والجنوبى بشط الكار • والجدير بالملاحظة عن تأريخ الاستيطان البشرى فى وادى الرافدين ما سبق ان لمحنا اليه من أن سكان العراق القدماء قد تحاشوا الاستيطان فى عصورهم القديمة فى وادى دجلة وتركزت السكنى فى وادى الفرات لاسباب واضحة منها أن الفرات أقل عنفا وطغيانا فى فيضانه لقلة الانحدار فى نهر الفرات كما ان منابع الفرات أبعد كثيرا من منابع دجلة والى ذلك فان الفرات يجرى فى ضفاف منخفضة وذات انحدار قليل بعكس دجلة مما كان يسهل الارواء بالسيح وكذلك وفرة المياه فى الصيف فى الفرات لان فيضانه يتأخر عن فيضان دجلة بنحو شهر واحد • وقد ذكرت وجود المنخفضات الطبيعية فى جوانب الفرات الغربية الصالحة لجعلها خزانا لتصريف مياه الفيضان • ولا نعلم بالضبط أصل اسم الفرات ، وقد كان يكتب بنفس العلامات المسمارية التى يكتب بها اسم مدينة « سبار » القديمة (أبو حبة الآن)[١] • ويرجح أن اسمه سمرى وقد عربه البابليون بلغتهم

---

(١) اى بالعلامات المسمارية (UD. KIB. NUN) وتسبقها العلامة الدالة على النهر (ID) وتقرأ هذه المجموعة من العلامات بصور مختلفة مثل (buranun) و (burununa) وذكر لهـا مرادفات بالاكدية منها (Pu - ra - ti) و (Pu - rat - tum) وهذه لا شك محرفة عن الصيغة السومرية • اما دجلة فقد كتبه البابليون بالصيغة (I - di - iq - lat) اما اسمه بالانجليزية (Tigris) فالمرجح انه ماخوذ من الفارسية الفهلوية (Tirgah) التى تعنى السهم او الجارى السريع •

السامية باسم « بورتم » أو « بوارتي » اي الفرات • ولعل الاسم البابلي ومنه العربي « الفرات » مشتق من كلمة « الفرع » • أما دجلة فقد ورد اسمه بهيئة « ادقلات » أو « ادكلات » ، ومن معاني اسمه الاصلي « الجاري » او« الراوي »•
وقد عرف الآشوريون منبع دجلة وعينوه في ارمينية حيث يذكر لنا الملك الآشوري « شيلمنصر » الثالث (القرن التاسع ق•م) انه اقام في عام حكمه الخامس عشر نصبا عند منبع دجلة وانه سار من بعد ذلك الى ينابيع الفرات حيث قرب هناك الضحايا وغسل سلاحه في مياهه • ويمتاز دجلة عن الفرات بكثرة روافده التي تنبع من نجد ايران وتجري الى الجهة الجنوبية الغربية وتتصل بدجلة • وأبعد هذه الروافد « الزابان » ، حيث يصب الزاب الكبير، الذي ذكرته المصادر المسمارية باسم « زابو ايلو » (أي الزاب الاعلى) في دجلة في موضع جنوبي نينوى بنحو ٤٠ ميلا في الموضع المسمى بالمخلط قرب « نمرود » • والى الجنوب من ذلك بنحو ٨٠ ميلا يتصل الزاب الاسفل بدجلة • وقد سمى الآشوريون اسم هذا الزاب بالزاب الاسفل « زابو شوبالو » • والى الشمال من بغداد بنحو ٦٠ ميلا يتصل نهر العظيم بدجلة وسماه البابليون باسم « ردانو » ، وذكره كتاب اليونان والرومان باسم « فسكوس » • ويرجح كثيرا ان دجلة قد غير مجراه الى الغرب من مجراه القديم فمثلا كان يمر في العصور الاشورية بمحاذاة العاصمة الآشورية القديمة «كالح» (نمرود الآن) • وقد وجد المنقبون حديثا آثار رصيف كبير في الجانب الغربي من الخرائب كان ميناء المدينة على دجلة ، ولكن يجري النهر الآن بعيدا عن نمرود حيث يمر بالقرية الحديثة المعروفة باسم «السلامية»• وكان نهر ديالى أهم روافد دجلة الآتية من المرتفعات الشرقية • وقد سماه البابليون باسم « ترناة » ، ويتصل بدجلة جنوب بغداد قبال موضع سلوقية (تل عمر الآن) ويكون ديالى مع دجلة مثلثا كبيرا من الاراضي الواسعة الخصبة كانت تقوم فيها فيما مضى مملكة قديمة عرفت باسم مملكة « أشنونا » ، كما ذكرنا من قبل ، وعاصمتها الآن في الخرائب المعروفة

بنل « اسمر » • وقد جعل أهل هذه المملكة نهر ديالى من جملة الآلهة التى عبدوها[١] •

التجـارة : ـ

لقد قلنا فيما سبق ان الحضارات التى قامت فى هذه البلاد تميزت جميعها باعتمادها على ثلاثة أسس فى حياتها الاقتصادية ، وهى الزراعة والصناعـة والتجارة وقد أوجزنا لكم بعض الاشياء الاساسية عن الزراعة وشؤون الرى ونوهنا ببعض الصناعات القديمة فنذكر الآن الركن الثالث من الحيـــاة الاقتصادية فى العراق وهو التجارة • وشهرة العراق القديم ولا سيما بلاد بابل فى الامور التجارية لم تقل عن شهرتها الزراعية عند الاقوام القديمة ، وقد ذكر ذلك الكتاب اليونان والرومان • والواقع ان الطرق والمعاملات التجارية التى سار عليها سكان العراق الاقدمون قد اثرت فى الشعوب التى

---

(١) وبالنظر لفائدة المقارنة بين وضع النهرين وفروعهما فى الزمن القديم بالمجارى الحديثة، ولتعقدهذه المجارى ولا سيمافروع الفرات نذكر فروع الفرات الحديثة ولاسيما بعداستقرارها بانشاء سدة الهندية(١٩١١ـ١٩١٣)• فعلى مسافة٨ كم الى الجنوب من المسيب يصل الفرات الى سدة الهندية،فيتفرع الى فرعين فرع شرقى هو فرع الحلة وفرع غربى هو شط الهندية (الذى صار مجرى الفرات الرئيسى) ، ويتفرع من شط الحلة فروع أيضا منها شـط الدغارة الذى يصب فى هور عفك وبعد أن يمر فرع الحلة بالديوانية والحمزة والرميثة يقترب من مجرى الفرات الرئيسى شمال السماوة بقليل ويتصل بفرع الهندية • ويتفرع شط الهندية شمالى الكفل الى فرعين ، فرع شرقى هو شط الشامية وفرع غربى هو شط الكوفة ويمر هذا الفرع بالكوفة وأبى صخير والفيصلية ثم يلتقى بشط الشامية فى شمال قرية الشنافية • وبعد مرور شط الكوفة بأبى صخير تتبدد مياهه فى الاهوار والمستنقعات ثم يسمى من بعد ذلك بشط المشخاب وهو المجرى الرئيسى لهذا الفرع من الفرات ثم يلتقى بفرع الشامية وتتوحد عندئذ مياه شط الهندية ، ويمـر الفرات الاصلى من بعد السماوة بالخضر والدراجى والبطيحة والناصرية وسوق الشيوخ ثم يدخل هور الحمار ويمر بقرية الحمار ويخرج من ضفة الهـور الشمالية ويمر بالجبايش والمدينة ويلتقى بنهر دجلة عند كرمة على جنوب القرنة • ويلتقى بدجلة عند القرنة مجرى الفرات القديم الذى تنساب فيه الآن بعض مياه دجلة •

عاصرتهم وفى الشعوب التى جاءت من بعدهم • وان كثيرا من مصطلحات البيع والشراء ومعاملات أساسية فى التجارة قد اقتبستها تلك الشعوب مثل الآراميين والعبرانيين • ومن ذلك طرق البيع كالقبض والتسلم ، وكذلك بعض أسماء الكيل والموازين واسس العقود التجارية •

هذا وقد رأيتم فيما مر علينا سابقا الاسباب التى دعت الى اشتهار العراق بالتجارة الخارجية ورأيتم كيف أننا فسرنا الفتوح الخارجية وتطور نظام الحكم من طور دول المدن الى طور المملكة الموحدة ثم طور الامبراطورية بالحاجات التى شعر بها ملوك العراق القديم الى جلب المواد الخام الضرورية فى بناء الحضارة وكذلك لتصريف الناتج الزراعى والناتج الصناعى خارج العراق • وباستطاعتنا أن نقف على نواح مهمة فى الشؤون التجارية من دراستنا الشرائع المدونة والوثائق القانونية الاخرى الخاصة بالمعاملات التجارية المختلفة • ولعل ابرز شيء يلفت النظر فى هذه الشرائع والوثائق القانونية ان جزءا كبيرا من أحكامها خصص لتنظيم التجارة بجميع أنواع المعاملات المختلفة • فنجد شريعة حمورابى مثلا قد خصصت (١٢٠) مادة من مجموع موادها البالغة (٢٨٢) للمعاملات والشؤون التجارية ، والواقع ان قسما كبيرا من أحكام الاحوال الشخصية فى تلك الشريعة يدخل فى باب المعاملات التجارية • ومثل ذلك يقال فى الشريعة التى عثرت عليها حديثا مديرية الآثار العراقية فى تل حرمل • ومما يسترعى نظر الباحث الحديث فى هذه الشرائع انها عنيت بتحديد الاسعار والاجور ومن ذلك أجور الاطباء والجراحين والبياطرة والملاحين واجور العمل المختلفة واجور السفن[1] • وخصصت شريعة حمورابى نحوا من ٢٦ مادة للشركات وما يتعلق بنقل البضائع والصيرفة وايداع الاموال • ومن هذه الشركات الشركة المعروفة بشركة المضاربة (أى شركة العمولة) وهى أن يشغل تاجر عاملا يعطيه

---

(١) حول الاسعار المختلفة ومقارنتها بالنسبة للعهود المختلفة انظر المرجع السهل الآتى :ـ

G. Contenau, **Everday Life in Babylonia and Assyria (1954)**

رأس مال للمتاجرة ويجعل له حصة فى الربح ، وكان العملاء يقومون فى أغلب الاحايين بالمتاجرة لاصحاب رؤوس الاموال خارج العراق ، وتخبرنا شريعة حمورابى عن أشياء طريفة بالنسبة الى نصيب المرأة بالتجارة وتمتعها بالحرية التجارية فى تلك الازمان القديمة .

ويمكن أن نقول ان أول قانون تجارى صرف هو الذى ظهر فى مستعمرة تجارية أسسها الآشوريون وسط الاناضول . وقد سبق أن سمينا هذا القانون باسم « القوانين الآشورية القديمة » حيث يرجع زمنها الى بداية الالف الثانى ق.م وبالاضافة الى الشرائع المدونة فقد وجد المنقبون مئات الالوف من العقود والوثائق والمستندات التجارية المختلفة فى مدن العراق القديمة ، وهى تعكس لنا نواحى مهمة عن نشاط القوم التجارى وترينا بوجه جلى ان المعاملات التجارية كافة كانت لا تعد قانونية ملزمة الا بعد أن تكتب بأسلوب قانونى . ومن مظاهر اهتمام القوم بالامور التجارية ضبط الاوزان والمكاييل والمرجح كثيرا أن دائرة خاصة أسست وأنيطت بها شؤون الاوزان والمكاييل وفى المتحف العراقى نماذج من هذه الاوزان الرسمية وهى منقوشة بالكتابة الرسمية التى تبين مقدار الوزن القياسى ، والعادة فى هذه الاوزان انها على هيئة البط وبعضها بهيئة الاسود. ومع ان المدفوعات كانت تدفع بوزن الفضة أو المعادن الاخرى المتخذة أساسا للتبادل ولكن مع ذلك لما يعثر على نماذج للموازين المستعملة فى العراق القديم ولا على صورتها ولكن مما لا شك فيه أنهم استعملوا الموازين ومما يدل على ذلك عدا وجوب وزن الفضة وجود فعل «وزن ، يزن» (شقالو ومنه كلمة الشيقل) كما ان الكتابات تشير الى وجود الميزان وقد وردت الكلمة المعبرة عن ذلك بصيغة التثنية مما يشير الى كفتى الميزان . ومما يقال عن المقاييس والموازين القديمة اطراد هذه المقاييس وكانت منسجمة مع نظام العدد الستينى عندهم ، وبهذا الامر فاق سكان العراق الاقدمون على جميع الشعوب القديمة .

ولعلكم تسألون الآن كيف كان يتعامل سكان العراق القديم اى ماذا

كانت واسطة التعامل عندهم ؟ وهل عرفوا النقود ؟ والجواب على ذاك ان العراقيين الاقدمين أوشكوا أن يوجدوا النقود الا أن النقود بمفهومها الحديث لم تكن معروفة عندهم وانما استعملوا المعادن واسطة للتعامل لقياس قيم المواد الاخرى عليها[1] ، ومن ذلك النحاس والفضة والذهب ، فاستعملوا الفضة مثلا على هيئة صفائح صغيرة أو حلقات أو أقراص مثقوبة وهي ذات أوزان معلومة . ويقال انهم كانوا يطمغون مثل هذه القطع المعدنية أحيانا ضمانا لنوعها ووزنها فلا يعيدون الوزن في كل معاملة[2] . وهذه هي فكرة النقود واصل النقود الحقيقية . والمرجح أن بعض الاقوام التي كانت تسكن في آسـية الصغرى ، ومنهم الليديون ، أخذوا الفكرة وحسنوا فيها حيث صار بعض الملوك في هذه الاقاليم يطمغون كتلا معينة الوزن من المعدن برمز الملك أو الدولة ليكون ذلك ضمانالقيمة النقد وامكان صرفه ، وكان ذلك في حدود ٧٠٠ ق.م . وهو الزمن الذي يمكننا عده بداية النقود الحقيقية في تاريـخ البشر ، وتحسن سك النقود أكثر عند اليونان حيث استعملت بعض مدنهم ، ولا سيما مدينة أثينة ، النقود مما كان سببا من أسباب ازدهارها الاقتصـادي في القرن الخامس ق.م. ولعل ما يشير الى أن فكرة النقود من العراق القديم ان اليونان استعملوا بعض الاوزان البابلية ومن ذلك « المنا » (وقدره نحو نصف كيلو غرام في المقاييس البابلية) حيث قسموه كوزن وعملة الى ١٠٠ قسم كل قسم سموه «دراخما» ، ومنه كلمة الدرهم العربية .

ومن البديهي أن أهم الوسائل لازدهار التجارة هي طرق المواصلات ووسائل المواصلات . وقد جاءتنا عن ذلك أخبار لا بأس بها ، ونذكر منذلك

---

(١) وكانت واسطة التعامل قبل المعادن الحاجيات والمقتنيـات الاخرى كالحبوب والحيوانات (قارن الكلمة اللاتينية للثروة والمال (Pecunia) المأخوذة من الماشية (Pecus)

(٢) وقد ذكرت المصادر القديمة ان قطعا معدنية ذات اوزان معلومة مقدار كل منها نصف شيقل كانت متداولة في عهد الملك الاشوري سنحاريب وتسمى « رؤوس عشتار »

(Olmstead, **History of Assyria, (1923), 312**

بعض الامور البارزة المفيدة فمن ذلك أخبار ملوكهم التى تشير الى اهتمامهم بتأمين طرق المواصلات حتى انهم كثيرا ما شنوا الحملات الحربية لاخضاع الاقوام والقبائل التى تمر من بينها الطرق التجارية المهمة ، وبناء الحصون والقلاع العسكرية لضمان ذلك ، وانشاء نظام للبريد أى نقل الاخبار والرسائل • وقد عثر المنقبون حديثا ، كما ذكرنا ، فى منطقة الخابور فى شمالى سورية على حصنين عظيمين بناهما الملوك الاكديون فى منتصف الالف الثالث ق•م للمحافظة على الطرق المهمة التى كانت تربط العراق بسورية • وتحدثنا الاخبار القديمة عن الحملات الحربية التى قام بها ملوك العراق القديم مما مر بنا فى البحث عن الادوار المختلفة من تأريخ العراق ، فقد سبق أن ذكرنا كيف أن سرجون الاكدى قد جرد حملة حربية الى الاناضول لحماية مستوطن أكدى للتجارة انشأ فى كبدوكية فى الاناضول للتجارة بالصوف والفضة •

أما عن وسائل المواصلات فان التحريات الحديثة قد زودتنا باشياء مهمة عن أقدم وسائل للمواصلات عند البشر ، ومن ذلك العربة التى نشأت فى العراق فى عصور ما قبل التأريخ ، من منتصف الالف الرابع ق•م وقد سبق أن ذكرنا ان مديرية الآثار العراقية وجدت حديثا فى تنقيباتها فى اريدو (أبو شهرين) نموذج قارب يعد أقدم ما صنعه الانسان اذ يرجع تأريخه الى عهد العبيد (فى حدود ٤٠٠٠ ق•م) • ومما لا شك فيه ان الملاحة فى العراق نشأت فى جنوبى العراق فى سيف البحر ، اى فى منطقة الخليج • ومن الطريف ذكره بهذا الصدد ان نماذج السفن التى خلفها لنا العراقيون الاقدمون تشبه ما يستعمل فى العراق الآن شبها تاما كما تستعمل القفة والجلود المنفوخة فى الانهر كما تدل على ذلك الصور المنحوتة فى المنحوتات الاشورية • والجدير بالذكر ان كلمة « الملاح » المستعملة الآن فى جميع

الاقطار العربية أصلها من اللغة السومرية[١] . ونستطيع أن نقف على اهتمام القوم بالملاحة من المواد التى خصصت فى شريعة حمورابى لتنظيم شؤون الملاحة وتحديد أجور السفن وجاء فى المعاجم اللغوية المدونة على ألواح الطين أنواع مختلفة من أسماء السفن والعربات . وخلف الرياضيون منهم قضايا رياضية تتعلق بالسفن من حمولتها وسعتها ، وجاءتنا بعض النصوص التى تصف صنع السفن .

وتذكر لنا الاخبار القديمة القوافل المحملة بالمواد الاولية الآتية من جهات الشرق المختلفة بالطرق البرية والمائية . ويفسر لنا هذا كثرة ما يجده المنقبون فى مدن العراق القديمة من الاحجار والمعادن الثمينة المستعملة فى القطع الفنية والصناعية مما لا وجود له فى العراق بل كان القسم الاغلب منه يجلب من خارج العراق ، فقد استوردوا النحاس من جزيرة العرب (من عمان والبحرين) منذ أقدم العصور كما جلبوا بعض الاحجار للبناء ولصنع التماثيل ، وعندما تعلموا صناعة البرونز اضطروا الى استيراد القصدير لخلطه بالنحاس من شرق ايران ومن سورية ومن آسية الصغرى وحتى من أوربة . وجلبوا الفضة والرصاص من جبال طوروس ، والاخشاب من المنطقة الجبلية فى الجهات الشمالية الشرقية ومن سورية ولبنان واستوردوا بعض الاحجار الكريمة مثل حجر اللازورد من الافغان والصدف من خليج فارس .

ونختتم بحثنا عن التجارة فى العراق بذكر اكتشاف خطير اهتدى اليه الباحثون الاثريون حديثا فى تركية (١٩٤٨ ـ ٤٩) ، اذ وجدوا موضعا قديما وسط الاناضول ثبت أنه كان مركزا تجاريا واسعا انشأه الآشوريون فى بداية الالف الثانى ق.م ، وقد أحدث خبر اكتشافه اهتماما عالميا بالغا، وقد وجد فى الموضع الذى يسمى الآن « كول تبه » قرب قيصرية الى الجنوب

---

(١) يتألف اسم الملاح بالسومرية من علامتين مسماريتين تدل الاولى (ما) على القارب والثانية (لاخ) بمعنى (ذهب وجاء) ولعل ذلك من حقيقة استعمال المردى .

الشرقي من انقرة ، وقد حفرت فيه « الجمعية التاريخية التركية » ومن الآثار المهمة التي وجدها المنقبون في ذلك الموضع عدد كبير من ألواح الطين المكتوبة بالخط المسماري والختوم الاسطوانية المستعملة في المعاملات التجارية مما يجده المنقبون في مدن العراق القديمة • وظهر من التحريات أن تلك المدينة التجارية كان يتبعها مراكز أخرى في الاناضول وانها كانت مرتبطة بمدينة اشور لان قسما من ألواح الطين التي وجدت هناك كانت رسائل تجارية تتعلق بادارة هذه الشركة الواسعة وهي الرسائل المتبادلة بين مدينة آشور وبين التجار في الاناضول • ووجد المنقبون أيضا بعض المحلات التجارية والدوائر التي كانت تدار منها شؤون ذلك الموضع وفيها الوثائق التجارية المختلفة وهي تمدنا بمعلومات ثمينة عن تنظيم القوافل التجارية وتمويلها ، وكذلك تنظيم تسلم البضائع وطرق السفر ، وقد يرد في شروط النقل ان « كروانا » معينا يسلم في مرحلة معينة من الطريق الى « كروان » آخر ، كما نجد بعض الوثائق عن حوالات تجارية بطريقة التبادل التجاري أو بارسال كتاب يتسلم حامله بموجبه مبلغا معينا من المال • وكان البريد مستمرا بين شمالي العراق وبين أولئك التجار وكذلك بينهم وبين عملائهم في المستعمرات التجارية الاخرى وتذكرنا هذه المدينة التجارية بما قلناه عن تأسيس مستعمرة قديمة في الاناضول في العهد الاكدي ، ولعل الموضع الآشوري الجديد قد خلف المستعمرة الاكدية القديمة • وقد جاءتنا وثائق تجارية من مدينة نوزي القديمة من العهد الحوري ـ الميتاني وهي تخص عائلة تجارية كانت تؤلف شركة تجارية ، وقد حفظت وثائق معاملاتها لمدة خمسة أجيال تقريبا[١] • ونذكر أيضا على سبيل المثال على الشركات التجارية مصرفا أو شركة تجارية كبيرة كانت في مدينة نفر من بداية العهد الفارسي الاخميني (القرن الخامس ق•م) ، وكان اسم رئيس المصرف « مراشو وأولاده » ، وكانت هذه الشركة تخص عائلة اسرائيلية من بقايا السبي

---

(١) G. Contenau, **Les Tablettes de Kirkuk** (1926).

البابلى ازدهرت فى الحياة التجارية ولا سيما فى عهـــد ارتحششتا الاول (٤٦٤ ـ ٤٢٤ ق٠م) وعهد دار الثانى (٤٢٣ ـ ٤٠٥ ق٠م) ،وقد كشف عن ألواح الطين المسمارية الكثيرة المتعلقة بمعاملاتها المالية ، ويحمـــل بعض الالواح فى قفاه كتابة موجزة بالارامية وبالحبر لتلخيص محتويات الوثيقـة حيث كانت اللغة الارامية منتشرة فى المعاملات التجارية[١] ٠

---

(١) A. T. Clay, **Business Documents of Murashu Sons** (1898).

الفصل التاسع عشر

الفنون

١ - الادب

مقدمـــة

عندما انتقل الانسان الى طور الحضارة في وادي الرافدين ووادي النيل وتوفرت له أسباب العيش والحياة الحضرية شرع ينظر في هذا الكون العجيب ويفكر في الحياة البشرية ومعانيها وقيمها ، فبدأ يحاول التعبير عما خالجه من عن ظواهر الكون ، وسلك للتعبير عن أغراض تفكيره سبلا مختلفة فتارة ينظر الى الاشياء والطبيعة نظرة موضوعية عملية فيستفيد من امكانياتها وتسخيرها له فنشأت المعارف وبذور العلم وطورا كان ينظر الى الاشياء نظرة اسطورية خيالية فيضفي الحياة على الاشياء الجامدة فيعبر عن الحياة تعبيرا خياليا فنيا على هيئة قطعة أدبية أو فنية نسميها نحتا أو تصويرا أو قصة أو اسطورة[١] وهذا هو أسلوب الادب .

وقبل أن ننظر في انتاجهـم في حقـل الآداب نذكـر شـيئا عن طبيعة تفكيرهـم في الحيـاة والكون الذي كـان انتاجهـم الادبي مظهرا

---

(١) ينبغي لنا أن نميز في نتاج الآداب القديمة بين ضربين نسمي أحدهما القصص (Legends) والثاني الاساطير (Myths) فالنوع الاول حقائق أو وقائع وقعت فعلا ولكن رويت بأسلوب الخيال والقصة ودخل فيها الخيال والمبالغة والمثل على ذلك الملاحم الكبرى ، كملحمة جلجامش والطوفان التي ستمر بنا ، والاوديسة والالياذة الخ . أما النوع الثاني فهو نتاج خيالي محض وضع لتفسير بعض حقائق الكون واصل الوجود والاشياء او تفسير الظواهر الاجتماعية ، والمثل على ذلك أسطورة الخليقة البابلية وبعض قصص الطوفان ولا سيما الطوفان عند اليونان .

من مظاهره ووجها من أوجهه • فمما يقال بوجه عام ان تفكيرهم كان بالدرجة الاولى اسطوريا شعريا • وباستثناء موارد قليلة لا يسعنا ان نسمي ما خلفوه لنا «فكرا فلسفيا» أو فلسفة ، مما يستند الى الاستدلال والاستنتاج والنقد والتأمل والنظر فى الاشياء نظرا موضوعيا • ومع أنهم عالجوا فى قصصهم وأساطيرهم قضايا مهمة لا تقل عما كان يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث الا أن تفكيرهم فيها كان اسطوريا خياليا • فكان الخيال والفكر متلازمين• ومع أن الاساطير والقصص معروفة فى آداب العصور الحديثة الا انهم لم ينظروا الى تلك الاساطير على انها متعة أدبية محضة بل كانوا يعتبرون ما فيها من آراء حقائق أو حقائق ميتافيزيقية لتفسير الاشياء • فاذا نظرنا الى الاسطورة القديمة فيجب أن نعتبرها نوعا من الشعر والخيال ولكنها تسمو على الشعر لكونها كانت تعبر عن الحقيقة • كانت تفسر نفس المشاكل الاساسية التى عالجتها الفلسفة اليونانية باسلوب موضوعى مستند الى الاستدلال والتفكير المنظم المنطقى كاصل الوجود والاشياء ، والغاية من وجود الاشياء • ولذلك فاذا كنا سنجد فيما سنذكره من نماذج القطع الادبية من تناقض فى الآراء والمعتقدات فان ذلك متوقع فى التفكير الاسطورى الشعرى ، لان المتناقضات لا تبدو الا للفكر المنطقى الموضوعى الذى يسمو عليه خيال الشاعر الفنان ، ذلك الخيال الذى يكون فيه الحد بين الواقع وغير الواقع مختلط المعالم غير واضح ، كما يكون الحد بين الاحلام واليقظة مختلطا • والواقع ان الاحلام لم تكن بأقل نصيبا من الحقيقة من اليقظة • فكان القوم يحصلون على التوجيه أو التدبير الالهى باتصالهم بالآلهة فى الاحلام كما رأينا فى مبحث الديانة ، وعلى ضوء ذلك ليس من المتوقع أن نجد فى فكرهم ما نسميه بقانون العلية أو السببية الذى هو أساس منهج جميع العلوم الحديثة • انهم لم يتصوروا ان العلاقة بين العلة والمعلول علاقة غير شخصية (impersonal) ميكانيكية تسير باطراد على هيئة قانون عام • فمثلا استطاع نيوتن ان يكتشف قانون الجاذبية من ملاحظته ثلاث مجموعات من

الظواهر الطبيعية تبدو من وجهة النظر البدائي المباشر متباعدة لا رابطة بينها وهي : سقوط الاجسام وحركة الاجرام السماوية وظاهرة المد والجزر ، وكانوا ينظرون الى علل الاشياء واسباب حدوثها من وجهة نظر «من» يحدثها ؟ وليس من وجهة نظر « كيف تحدث » • فمثلا اذا لم يرتفع نهر دجلة كان السبب في ذلك «ان النهر أبى أن يرتفع» لغضبه أو بسبب غضب الآلهة على البشر ، لا بسبب نقص الثلوج والامطار • فمثلا حدث مرة أن المياه لم ترتفع في دجلة في عهد جودية فقصد المعبد وأمضى ليلته هناك ليسترشد بالآلهة عن سبب حدوث هذه الظاهرة ، فظهر له الاله في الحلم بطريقة لم يستطع تفسيرها ولكن الكهنة المختصين بتعبير الرؤيا فسروا له الحلم بان الاله « تنجرسو » يريد منه بناء معبد جديد •

وثمت ظاهرة أخرى تسترعي انتباه الناظر في مخلفات الفكر في حياة سكان وادي الرافدين القدماء تلك هي أن أساس نظرهم الى الاشياء والموازنة فيما بينها كانت تستند بالدرجة الاولى الى مبدأ القياس أو التمثيل (Analogy) وعلى قليل جدا من مبدأ الاستدلال والاستنتاج (Inductive and deductive) ويتجلى مبدأ القياس والتمثيل في السحر وطرق العرافة والكهانة وتصنيفهم للاشياء على أساس التشابه الظاهري ، وتصورهم للسماء بهيئة الارض أو بالعكس ، حتى انهم تصوروا الكون على هيئة مملكة أو دولة تحكمها الآلهة بمراتب ودرجات مختلفة وباسلوب الديمقراطية البدائية قياسا على التجارب البشرية في مجتمعهم ، كما ان مبدأ التشبيه الذي عزوه الى آلهتهم مشتق من هذا الطراز من التفكير • وسنجد من تصفحنا للنماذج الادبية التي سنذكرها هذه المبادىء واضحة ، كما اننا سنجد اشياء أخرى كان يتصف بها الفكر القديم سننوه بها في تعليقنا على تلك النماذج ونكتفي هنا بذكر وجه آخر من طراز تفكيرهم ذلك هو ما يصح أن نسميه بمبدأ الاسم أو نظرية الاسم ، فبموجب هذا الطراز من التفكير لايمكن لاي شيء أن يوجد ما لم يكن له اسم ، فتسمية الشيء بمثابة ايجاد ذلك الشيء • وقد جاء هذا واضحا في اسطورة

الخليقة البابلية انه في البدء « لم تسم سماء ولا أرض » (أي لم تخلق سماء ولا أرض) كما أن الشيء ما دام بلا اسم فهو غير موجود[١] وسنرى في كلامنا على حضارة وادي النيل ان هذا المبدأ موجود في الفكر المصري القديم بوجه واضح ، فالاسم جوهر الشيء وقوته . وكان للآلهة اسماء سرية تكمن فيها قدرتهم وقوتهم وسلطانهم فلا يبيحون بها ، وامتدت الفكرة عند سكان وادي النيل الى أسماء الاشخاص فكانوا يسمون أطفالهم باسمين اسم سري واسم آخر هو الذي يدعى به الشخص . وسنرى في اسطورة الخليقة البابلية ان الآلهة لما اجتمعت في مجلس شوراها وانتخبت الاله مردوخ ملكا عليها وبطلا ليحارب قوى العماء الممثلة بالآلهة العتيقة قد تنازلت له عن اسمائها وألقابها وبذلك حاز الاله مردوخ على القوى التي كان يحوز عليها كل اله . وقد يمكن احراز بعض ما في أسماء الآلهة من القوة الالهية بمجرد كتابة الاسم . وتوسعوا في ذلك بحيث انهم كانوا يرمزون الى الاسماء بالاعداد فمثلا يخبر ناسرجون الاشوري عن قصره في خرسباد بقوله « بنيت محيط جداره بمقدار ١٦٢٨٣ ذراعا وهو رقم اسمي » ، فانتقل ذلك الى مبدأ العدد[٢] . ولما كان الاسم جوهر الشيء وسر وجوده نشأت عندهم فكرة تسمية الاشخاص والاشياء المحببة لهم باسماء ذات فأل حسن ، وتنطبق هذه القاعدة بالدرجة الاولى على أسماء الاعلام كما رأينا ذلك في مبحث الديانة ولكن كانوا يراعون المبدأ نفسه في تسمية الاشياء فمثلا سموا شارع الموكب في بابل باسم «ابر شابو» (ai - ibur - shabu) (أي عسى العدو أن لا يطأه أبدا) وكان اسم احد الجداول التي شقها حمورابي « حمورابي منبع الخير العميم للبشر » وقد يسمون تماثيلهم بجمل مطولة كما فعل « جودية » حاكم لجش .

ومهما كان الامر فان البحث في النتاج الادبي لحضارة وادي الرافدين ذو خطورة خاصة بالنسبة الى تاريخ الآداب البشرية ، لانه يمثل لنا مثل مظاهر التفكير الاخرى

---

(١) قارن ذلك أيضا بالعهد القديم «التوراة» (سفر التكوين ٢: ٥–٥)

(٢) قارن نظرية الفيثاغوريين وافلاطون ، وكذلك فكرة اعطاء الحروف قيما عددية .

التي مرت بنا ، أولى محاولات للانسان للتعبير عن الحياة بأسلوب الخيال الذي قلنا هو أسلوب الادب بوجه عام وأسلوب الشعر والقصة والاسطورة بوجه خاص ولعل أروع ما أظهره البحث الحديث أن يجد الباحثون هذه الآداب الموغلة في القدم وهي تتصف بالميزات الاساسية التي تتصف بها الآداب العالمية المشهورة سواء أكان ذلك من ناحية الاساليب وطرق التعبير أم من ناحية الموضوع أم من ناحية الاخيلة والصور الفنية ، ونستطيع أن نجد في النماذج الادبية التي خلفها لنا العراقيون الاقدمون تلك الميزات وهي تظهر بثلاثة أوجه : أولا : الفكرة التي تدور عليها القطعة الادبية أو القصيدة . وثانيا : الاسلوب الشعري والايقاع الموسيقي الذي يهز مشاعر السامع . وثالثا : أسلوب الشاعر الفني في انتخاب الحوادث والمواقف المؤثرة .

الشعر :-

ونبدأ بالشعر الذي يرجح أن يكون أقدم أنواع النتاج الادبي عند البشر ، وقد نشأ الشعر عند سكان وادي الرافدين الاقدمين من الغناء والقصائد الشعبية ، والمرجح كثيرا أن الغناء هو أصل الشعر في جميع الآداب البشرية[١] . ومع أن البابليين لم يخلفوا لنا نماذج من الغناء الشعبي ، ولكننا نستطيع أن نتلمسه فيما ورد من بين الاشعار المدونة في القطع التي لم تزل تحتفظ بطابع الاغاني الشعبية كبعض الموارد في ملحمة جلجامش . وعلى الرغم من ضياع أشعار الحب وعدم تدوينها أو لانه لم تأتنا نماذج عنها بعد ، بيد أننا نستطيع أن نقف على ما يشبه الشعر الغزلي في بعض التراتيل الدينية التي كانوا يغنون بها في الصلوة الى الآلهة . وبعضها شبيه بـ « نشيد الانشاد » المنسوب الى سليمان في العهد القديم .

والشعر السومري والبابلي ، مثل الاشعار البشرية الاخرى ، كان

(١) ولعل مما يؤيد هذا الرأي ان كلمة « شعر » موجودة في كل اللغات السامية تقريبا وتعني في أصلها الغناء مثل «شيرو» في الاكدية ، والعبرية «شير» ومعناها النشيد والغناء (ومن ذلك «شير هشريم» أي نشيد الانشاد المنسوب الى سليمان) وفي الارامية « شور » .

يخضع لفن خاص من النظم والتأليف ، فمن ذلك تأليفه من أبيات قوام كل بيت من مصراعين (الصدر والعجز) • والعادة في الشعر السومري ـ البابلي ان المصراعين يتشابهان في المعنى والتأليف وكل منهما يتكون من مقاطع ـ من مقطعين الى ثلاثة مقاطع طويلة فهو بذلك شبيه من هذه الناحية بالشعر الافرنجي الذي لا يقاس بالتفعيلات بل بالمقاطع الطويلة والقصيرة[١] ، ويؤلف بيتان من الشعر وحدة في المعنى • ويمتاز النظم في كل من الشعر السومري والبابلي أن الشعر موزون ولكنه غير مقفى ، فهو كالشعر العبراني واليوناني والروماني ، مثل الشعر الانجليزي المعروف بالشعر المرسل ويظهر من قصة الخليقة البابلية ومن ملحمة جلجامش أن القصيدة تنقسم الى وحدات تتكون الوحدة منها من بيتين من الشعر ، والمعتاد في البيت الثاني أن يكون معناه اما مغايرا لمعنى البيت الاول أو مشابها له أو مكملا له • وقد تؤلف أربعة أبيات من القصيدة وحدة في المعنى فتكون القصيدة مجموعة من الرباعيات • وقد يستعمل كتبة الشعر بعض العلامات أو الفواصل بين مصراعي البيت الواحد وبين كل بيت وبيت • وقد تفنن الشعراء في الازمان المتأخرة في فن التأليف والنظم والصناعة التي ادخلوها ، فمن ذلك نوع من الشعر تؤلف فيه المقاطع الاولى من كل بيت في القصيدة بعد جمعها جملة ذات معنى قد تكون اسم الشاعر أو دعاء خاصا للاله الى غير ذلك[٢] •

ومن الميزات العامة في الادب البابلي أنه مثل الآداب القديمة الاخرى قد أثر فيه الدين سواء كان ذلك في اشراك الآلهة في حوادث الملاحم والقصص والاساطير أو في المواضيع والاغراض الدينية كالصلوات والتراتيل والادعية التي تؤلف قسما مهما من النتاج الادبي الشعري فقد كانت الاغاني والتراتيل الدينية مثل أغلب القصص والاساطير تؤلف بالشعر وبالاساليب الشعرية ، اما النثر فقد استعملوه في أغراض أخرى من نتاج الفكر في تدوين الحوادث والتاريخ

---

(١) المقطع الطويل في عرف الشعر الافرنجي Accented Syllable وعكسه القصير •

(٢) يعرف هذا الفن باسم Alliteration أو Acrostic (**Zeitschrift für Assyriologie,** 43 (1936), 32 ff.)

وفى الرسائل الملوكية وفى تدوين أعمال الملوك وتخليدها وفى الحكم والمواعظ والامثال ، وكان هذا النوع من النثر الادبى يخضع أيضا الى أصول خاصة من التأليف والتركيب .

وقبل ان نذكر بعض النماذج الادبية مما خلفه لنا سكان وادي الرافدين الاقدمون نذكر بعض الميزات العامة الاخرى التي يمتاز بها ذلك الادب القديم ، فمن ذلك ما نجده فى القصص والاساطير وشعر الملاحم من التكرار والاعادة ، ويبدو ذلك جليا فى قصة الخليقة البابلية وفى ملحمة جلجامش بوجه خاص وفى معظم القصص السومرية بوجه عام . وتوضيحا لذلك من قصة الخليقة نقول انه لو أرسل أحد الآلهة رسولا ليبلغ أمرا الى اله آخر فان الرسول يعيد جميع الابيات التى قالها الاله المرسل مهما بلغ عددها وطولها ، ونجد ذلك فى ملحمة جلجامش فى مواقف كثيرة مما يبعث الملل والسأم فى نفس القارىء ، ومن الطريف ذكره بهذا الصدد ان الباحثين المحدثين قد استفادوا فائدة عظمى من هذه الميزة اذ استطاعوا أن يكملوا مواطن كثيرة قد انخرمت وضاعت من النص الاصلى فى ألواح الطين ، وثمت ميزة أخرى يلمسها الباحث فى هذه الآداب القديمة يمكننا أن نسميها باستباق الحوادث أو بالاحرى استباق النتائج (Anticipation) . وتبدو هذه الميزة بوجه جلى فى ملحمة جلجامش بوجه خاص وقصة الخليقة بوجه عام ففى ملحمة جلجامش تبدأ الرواية بمقدمة أو ديباجة فى تعريف بطل الرواية والتغنى بامجاده وبما يتفرد به من الحكمة والمعرفة وتنوه أيضا بحوادث الرواية وموضوعها وحتى نتيجتها ونهايتها . وهذا فى الواقع ما نجده فى الملاحم العالمية الكبرى كالاوديسة والالياذة والملحمة الجرمانية المعروفة باغانى « النيبلونك » او « أغانى أرض الظلام »[١] ، ولعل تفسير ذلك ان الناظم انما فعل ذلك ليحرك فى السامع الشوق الى حوادث الرواية .

---

(١) Niebelungenlied وهى ملحمة جرمانية شهيرة فى آداب القرون الوسطى ، وتدور مثل ملحمة جلجامش على « مغامرات « سيغفريد » فى أرض النيبيلونك » مع ملوكها البورغنديين وقتله على أيديهم ثم انتقام زوجته منهم الخ ..

وسيتضح من تلخيص بعض القصص والاساطير الادبية كثرة النسخ التى وضعها القوم فى الأزمان المختلفة للقطع المشهورة ، فمع أن معظم الاجزاء التى جاءتنا عن اسطورة الخليقة وملحمة جلجامش هى من خزانة كتب الملك الاشورى « اشور بانيبال » (القرن السابع ق٠م) فان هذه نسخ عن أصول اقدم معظمها وضع فى العهد البابلى القديم ، واكتشف الباحثون حديثا اصولا سومرية لكثير من القصص الادبية المكتوبة باللغة البابلية (السامية) ، وقد تصرفوا فى بعضها وغيروا فيها مثل ملحمة جلجامش بحيث يمكننا عدها نتاجا بابليا صرفا • واذا كنا لا نستطيع أن نعدد كل ما جاءنا من هذه القصص والاساطير بيد أننا نستطيع أن نصنفها بحسب الاغراض المختلفة التى عالجتها فمجموعة من هذه القصص تدور على الخليقة وأصل الاشياء والعمران وهذه كثيرة متنوعة بعضها قطع سومرية وبعضها بابلية محورة عن السومرية ، ومن ذلك أطول قصيدة فى أصل الكون والاشياء وهى «اسطورة الخليقة البابلية» • ومجموعة أخرى تدور على خبر الطوفان العظيم ، وقد أدمج هذا الخبر فى القصة البابلية فى ملحمة جلجامش ، ومجموعة ثالثة هى قصص تدور على أعمال البطولة والابطال نذكر منها القصص السومرية التى تدور على أعمال جلجامش ومغامراته • وقد جعلت هذه الاعمال مع خبر الطوفان موضوع الملحمة البابلية الكبرى «جلجامش» ، ومجموعة رابعة موضوعها مسائل العالم الآخر وعالم الاموات او « الارض السفلى » ، ومن هذه القصة المعروفة « بنزول عشتار » الى العالم الاسفل ثم قيامتها منه • وجاءتنا من هذه روايتان بالسومرية وبالبابلية ، ومن هذا الصنف أيضا قصة سومرية تدور على نزول صاحب جلجامش المسمى انكيدو الى العالم الاسفل ، ومن المجموعات الادبية المهمة صنف أشرنا اليه وهو صنف التراتيل والاغانى الدينية للآلهة المختلفة • وقد أمتاز هذا الصنف من الادب الدينى بخضوعه الى طراز خاص من التأليف والنظم فالنماذج متشابهة من هذا الوجه بحيث يمكن استعمال غناء خاص باله معين لاله غيره بمجرد تغيير الاسم •

ومع ان معظم الالواح المدونة بالآداب السومرية والبابلية لا يتجاوز عهد تدوينها بداية الالف الثانى ق٠م الا أنهذه الاداب المدونة قد تم أبداعها وتطورها فى منتصف الالف الثالث ق٠م ، **واذا قارنا قدم هذه الآداب بالآداب** البشرية القديمة الاخرى وجدنا انها أقدم من جميع ما انتجه الفكر البشرى فى ذلك الحقل • فبالنسبة الى مصر مثلا لم يأتنا من أدبها شىء من عصر الاهرام ، ذلك العصر الذى ازدهرت فيه الحضارة المصرية ونضجت • ولعله كان للمصريين أدب مدون فى الالف الثالث ق٠م الا انه ، كما قلنا ، لما تأتنا منه نماذج ممثلة حتى الآن **(ولعل ذلك بسبب تلف المادة التى دون** فيها ، وهى ورق البردى الذى هو أكثر عرضة للتلف من ألواح الطين)• واكتشف المنقبون حديثا فى « أوغاريت » (رأس الشمرة) أدبا كنعانيا يرقى تاريخه الى ١٤٠٠ ق٠م٠ اى من بعد زمن الالواح الادبية السومرية والبابلية بأكثر من خمسمائة عام • وكذلك يقال فى التوراة التى تتضمن الادب العبرانى فهى متأخرة جدا فى زمن تدوينها ونشوئها (لا يتعدى زمن تدوينها القرنين السادس او الخامس ق٠م) • ونذكر على سبيل المقارنة أيضا الالياذة والاوديسة المتضمنتين أدب اليونان القديم والملاحم الادبية اليونانية، ونذكر « الريج ـ فيدا » الخاصة بادب الهند القديم و « الافستا » المتضمنة أدب ايران القديم ، فان ما من هذه الآداب القديمة ما قد دون بشكله الحاضر قبل النصف الاول من الالف الاول ق٠م أى أن أدب العراق القديم يسبقها بما لا يقل عن ألف عام • **وثمت ميزة أخرى مهمة تبدو من مقارنتنا** أدب العراق القديم بتلك الآداب القديمة ، **تلك هى أن هذه الآداب التى** سقناها للمقارنة مع أدب السومريين والبابليين قد عانت كثيرا من التحوير والتبديل والاضافة على ايدى النساخ والجامعين والشراح والمفسرين ، ولكن الادب « السومرى ـ البابلى » قد وصل الينا بأصله غير محور كما كتب بأيدى الكتبة السومريين والبابليين قبل ٤٠٠٠ عام[١] •

S.N. Kramer, **Sumerian Mythology** (1944).

ومع هذا القدم الواغل فان السومريين لم يتصوروا انفسهم محدثي عهد في المدنية والحضارة بل كانوا ينظرون الى أنفسهم بصفتهم ورثاء ماض بعيد مجيد ، وقد تخيلوا ذلك الماضي البعيد بهيئة « عصر ذهبي » كان السلام فيه يسود العالم ، فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تنازع الانسان البقاء ، وكان الخير يعم الكون وكان البشر «بلسان واحد يمجدون الاله انليل »[١] . ان هذه الصورة الجميلة المتخيلة التي تصور عهدا متخيلا كان البشر فيه اسعد واكمل من عصرهم الراهن قد انتشرت الى معظم الامم والشعوب ، ولم تتمكن فكرة « التقدم » من الانتشار بين البشر الا في العصور الحديثة ولا سيما منذ القرن التاسع عشر ، ولا يزال كثيرون في العصر الحديث من يرى فكرة « الماضي الذهبي » .

وقبل ان نترك بحث الميزات العامة في أدب العراق القديم نذكر اكتشافا حديثا ذا أهمية وخطورة خاصتين اذ يدل على وعي أدبي وولع في البحث الادبي ، فقد اكتشف من بين ألواح الطين التي وجدت في «نفر» قبل خمسين عاما لوحين أحدهما في باريس (اللوفر) الآن والآخر في متحف الجامعة في فيلادلفية (أمريكة) وهما مدونان بعناوين تآليف أدبية سومرية . ويحتوي لوح فيلادلفية على ٦٢ عنوانا ويحتوي لوح اللوفر على ٦٨ عنوانا ، واذا أخرجنا ٤٣ عنوانا مشتركا فيما بينهما فان اللوحين يزودانا بـ ٨٧ عنوانا لتآليف أدبية وقد أمكن تعيين ٢٨ تأليفا منها بما وجد أصله الكامل في الالواح المعروفة[٢] .

ومما يؤسف له انه يتعذر ايراد نماذج من هذه القصص مترجمة

---

(١) انظر هذه الاسطورة الجميلة في ذات المصدر (ص ٤٥١)

(٢) انظر نشر اللوحين في المرجع الآتي :ـ

(1) S. N. Kramer, "The Oldest Literary Catalogue ...." in **Bulletin of the American Schools of Oriental Research,** No. 88 (1942).

(2) ...., **Sumerian Mythology,** P. 14.

بنصوصها[١] وانما سنحاول تلخيص بعضها ، فاذا فاتتنا الافكار الاصلية ولو مترجمة فسنقف على أغراضها وفحواها ونبدأ من هذه النماذج بـ «اسطورة الخليقة البابلية»[٢] .

١ ـ اسطورة الخليقة البابلية :ـ

ذكرنا فيما سبق ان المفكرين من العراقيين الاقدمين شغلوا بأصل الوجود والاشياء ، فنشأ عنهم مذاهب وعقائد مختلفة حول موضوع الخليقة وقد خلفوا لنا هذه الآراء بما نسميه الآن ملاحم واساطير دونوها على ألواح الطين بالشعر القصصي . وكانت هذه الاساطير متعددة تختلف من حيث المادة والعهد ، وقد جاءتنا من السومريين نماذج من هذه الآداب الا انها لم تأتنا سالمة محفوظة ولكن البابليين الذين ساهموا فى بناء حضارات العراق واخذوا تراثا كبيرا عن السومريين خلفوا لنا نموذجا آخر من أساطير الخليقة . ويعد هذا النموذج أكمل وأطول قصة فى موضوع الخليقة . وتعرف هذه الاسطورة عند علماء الاشوريات باسم «رقم الخليقة السبعة» أو كما سماها البابليون أنفسهم « اينو ما ايليش » (حينما فى العلى) لان أول بيت من الشعر فيها يبدأ بهذه العبارة . وقد ألفت بالشعر البابلى ودونت على سبعة ألواح من الطين مجموع ما فيها ألف بيت تقريبا . وجاءتنا أولى هذه الالواح من خزانة كتب الملك الاشورى « آشور بانيبال » (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م) فى نينوى .

لقد تناولت بحوث العلماء هذه الاسطورة منذ عام **١٨٧٦** فترجمت عدة ترجمات الى اللغات الاوربية ، ولا يزال البحث فيها مستمرا . ومع أن تاريخ

---

(١) لقد ترجمت معظم هذه القصص والاساطير الى العربية ونشرت فى مجلة الآثار العراقية «سومر» ، وذكرت معها أهم البحوث والمراجع التى بحثت فى هذه المواضيع فانظر الاعداد الآتية من « سومر » : المجلد الخامس، العددان ١ و٢ (١٩٤٩) ، والمجلد السادس . العددان ١ و٢ (١٩٥٠) والمجلد السابع العدد الاول (١٩٥١) .

(٢) لقد سبق ان لخصنا فى مبحث الديانة (فى القسم الخاص بالسلوك والاخلاق) قطعتين مهمتين من آداب وادى الرافدين فيلزم الرجوع اليهما .

ألواح الخليقة السبعة من القرن السابع ق٠م ، الا أنه لدينا من الادلة الداخلية (أى أدلة من القصة نفسها) ما يثبت أن زمن تأليف القصة يرجع الى عهد سلالة بابل الاولى ، والى عهد حمورابى بوجه التخصيص • كما يستبان من تمجيد الاله « مردوخ » اله بابل ، وبيان السبب الذى احتل من أجله مكانة سامية بين الآلهة بل صار سيدها وملكها ، وتنازلت له عن صفاتها وألقابها • وأعلاء شأن مردوخ وتمجيده يعنى كذلك تعظيم مدينة بابل واعلاء شأنها على البلدان الاخرى لما أن عظم شأنها فى عهد الملك حمورابى وصارت عاصمة الامبراطورية التى أنشأها ذلك الملك • وموجز القول ان التغيير السياسى الذى طرأ على مدينة بابل اقتضى أن يغير مركز الهها مردوخ فينتقل من اله غير ذى شأن الى سيد الآلهة وملكها • ويرجح كثيرا أن كهنة بابل قد تناولوا القصص والآداب الدينية القديمة ولا سيما السومرية فجعلوها مصدرا لقصة جديدة بعد أن غيروا وبدلوا فيها ولا سيما تغيير بطل القصة الاله « انليل » واحلال الاله مردوخ محله • واليك ملخص القصة :ـ[1]

حينما فى العلى لم يكن للسماء اسم ، وفى الدنى لم تكن الارض شيئا مذكورا • ولم يكن فى البدء غير أبسو (الماء العذب ، أى مياه الأنهار) و « تيامة (الماء الملح) ، وكانت مياههما مختلطة • ولم يكن قد ولد اى من الآلهة ولا ذكرت اسماؤهم ، ثم تولد منهما (من الاله والالهة اللذين يمثلان المياه الاولى) الآلهة الاخرى بأجيال متعاقبة أولها الهان هما «لخمو» و «لخامو» ثم بعد مرور دهور طويلة جاء الى الوجود الهان آخران هما « انشار » و «كيشار» ، اللذان ولدا الاله «آنو» بعد مرور أزمان طويلة • وقد صار « آنو » غريما ونظيرا لآبائه الآلهة العتيقة ، وجاء من بعد ذلك الآلهة الحديثة الاخرى مثل « ايا » الذى كان متحليا بالمعرفة والحكمة والقوة اكثر من آبائه ، وبعد حين تحزب جيل الآلهة الحديثة وأساؤا الى آبائهم الآلهة

---

(١) حول الدراسات الاصلية راجع ثبت المصادر فى آخر الجزء والتلخيص الذى اثبتناه مستند بالدرجة الاولى الى الترجمة العربية فى مجلة سومر (المجلد الخامس ١٩٤٩) الص ١١ فما بعد •

العتيقة ولاسيما الى أمهم « تيامة » وأبيهم «أبسو». لقد أرادت الآلهة الحديثة أن تستبد بشؤون الكون وتنظمه وفق أهوائها . كانت تمثل الحركة والعمل فى حين ان الآلهة العتيقة تمثل السكون والركود والعماء[١] ، فاساء فعلهم « ابسو » أكثر من أمهم تيامة فعزم على ابادتهم جميعا وارجاع نظام الكون الى سابق عهده وكاد ان يفتك بهم على الرغم من معارضة زوجه « تيامة » وفى اللحظة الحاسمة يعلم الاله « ايا » بالخطة المبيتة فحزم أمره والتجأ الى سحره المقدس فألف أقوى رقية وقرأها على الماء (أبسو) فاحل فيه السبات فكبله وقتله وابتنى فى جسمه (فى المياه) بيته[٢] فسكن فيه هو وزوجته. وولد للاله وزوجته ابن هو « مردوخ » الذى كان على أتم ما يكون من كمال الخلق فسر به أبوه وفضله على غيره وعلا قدره على من سواه من الآلهة[٣] ، وكان خارق القدرة وبطل الآلهة الحديثة حيث تصل الأسطورة هنا الى مكان حرج هو ان « تيامة » زوج أبسو عزمت على الانتقام من الآلهة الحديثة لمقتل زوجها وأخذت تعد العدة لذلك فخلقت انواعا كثيرة مخيفة من العفاريت والشياطين والافاعى وسلحتها باسلحة فتاكة وأمرت عليها أحد الآلهة العتيقة هو « كنكو » وجعلته زوجها وزودته بالسحر واودعت عنده ألواح القدر ، وهيأت جمعها للبدء بحرب الآلهة . وفى هذا الموضع أيضا نجد « ايا » يكتشف للمرة الثانية الخطر المحدق بالآلهة الحديثة . فخاف وذهب الى جده « أنشار » واخبره بما اعتزمت عليه « تيامة » من افناء الآلهة ، فلما سمع الاله الشيخ بذلك ثار ثائره و « ضرب فخذه وعض شفتيه» وامر «ايا» أن يذهب لقتال تيامة ولكنه جبن لانه خاف من جموعها وكذلك انهزم الاله «آنو» منها . واذ استطاع الآلهة فى الازمة السابقة

---

(١) العماء ترجمة كلمة (Chaos) وهو المصطلح الذى اطلقه اكثر الباحثين فى اسطورة الخليقة ويريدون به جريا على ما قال به بعض فلاسفة اليونان المادة الاولى المضطربة المشوشة التى كانت اصل جميع الاشياء .

(٢) ولذلك يسمى معبد الاله ايا ب « اى ــ ابسو » .

(٣) مردوخ اله بابل الشهير وبطل القصة ، ولكن كما ألمحنا سابقا كان بطل القصة الاصلى الها آخر هو « انليل » .

أن يحلوا المشكلة بصورة فردية بقيام اله واحد بالامر فانه فى هذه الحالة اقتضى الامر أن يعملوا متحدين جميعا • فاجتمعوا فى مجلس الشورى المقدس (ندوة الاقدار) ، وحاولوا ارسال جملة آلهة للصلح مع تيامة ولكن جهودهم ذهبت سدى وفى ندوة الاقدار مرة أخرى اجتمع الآلهة فى وليمة أكلوا فيها وشربوا وغنوا وزال خوفهم ، وقرروا انتخاب بطل من بينهم ليتولى عنهم النزال ، فانتخبوا الاله مردوخ وجعلوه ملكا عليهم • فجلس هذا وسط الآلهة حيث اجمعوا على جعل كلمته لا ترد وامره لا يبدل وفوضوه السلطة المطلقة على جميع الكون وزودوه بالاسرار الالهية الكامنة فى اسمائهم والخاصة بهم ولكى يمتحنوا قدرته وسلطته الجديدتين وضعوا رداء فى وسطهم وقالوا لمردوخ قل كلمة فسيختفى الرداء وبكلمة أخرى سيعود الرداء ففعل واذا بالرداء يتلاشى[١] وبكلمة أخرى عاد الرداء • فلما رأى الآلهة فعل « كلمته » فرحوا وسجدوا له قائلين « حقا ان مردوخ ملك ! » فزودوه بالصولجان والتاج واعطوه سلاحا لا نظير له فى حربه مع تيامة وصنع هو قوسا وسهماعجيبين وصنع أيضا شبكة وأمر الرياح الاربعة ان تسكن فى مواضعها وركب عربته المرعبة المخيفة تجرها مخلوقات مدمرة • ولما تقابل الاله مع تيامة بدأت هذه تتلو سحرها ولكن لم تؤثر فى مردوخ وبعد تبادل كلمات السباب نشر الاله شبكته واصطادها فيها ، واطلق الرياح الشريرة فدخلت فى جوفها فانتفخ بطنها فبقره وذبحها وحاولت جموعها أن تهرب ولكن مردوخ لم يدع أحدا يفلت من يده فجمعهم فى شبكته ومعهم قائدهم « كنكو » فاخذ منه ألواح القدر وختمها بختمه واحتفظ بها فى صدره • ثم رجع الى تيامة وهشم رأسها وقطع مجارى الدم من جسمها فتصاعد منه

---

(١) من الباحثين من يرى ان سبب انتخاب الرداء لامتحان قوة مردوخ السحرية اعتبارات ادبية فنية حيث ادخل ناظم الاسطورة نوعا من الصناعات اللفظية ولا سيما الجناس اللفظى المشتمل عليه اسم « مردوخ » ، المكتوب بمقطعين من العلامات المسمارية يعني المقطع الاول « مار » وضع ، او خلق أو أفنى ويعنى المقطع الثانى « دوك » رداء أو لبس رداء الخ •

الدم مع الرياح ، ولما رآه الآلهة سروا وهتفوا ممجدين باسم مردوخ • ثم قسم جسمها قسمين جعل النصف الاعلى منه سماء ومن نصفه الاسفل أرضا ، وعين في السماء مناطقها وبروجها ومواضع الآلهة وبروج الكواكب ووقت الاوقات والفصول • ثم رأى مردوخ من بعد ذلك أن يخلق مخلوقا هو الانسان ليعبد الآلهة • فأشار عليه «ايا» قائلا : ليضح أحد الآلهة لكي يخلق البشر • لتجتمع الآلهة كلها وليقدم الاله المذنب • وبعد أن جمع مردوخ الآلهة سألهم : من حث «تيامة» على الثورة ؟ ليضح الاله الذي سبب ذلك • فأجابه الآلهة : ان «كنكو» كان كل السبب • فقيده الآلهة بالاصفاد وقدموه الى الاله «ايا» فأهدر دمه وخلق الآلهة الانسان من دمه ليعبدهم • وبعد أن كمل خلق الانسان أسس الآلهة « ايساكلا » معبد الاله « مردوخ » في بابل واجتمعوا فيه بعد تمامه في حفل مقدس ورتلوا بمجد مردوخ ومنحوه أهم ألقابهم وأسمائهم المقدسة ، فصار يجمع في شخصه اكثر صفاتهم وتنتهي الملحمة في الرقيم السابع الذي خصص ليكون ترتيلا وصلاة لمردوخ[١] •

استنتاجات من اسطورة الخليقة البابلية :ـ

(١) يوجد تشابه وتناظر واضحان بين اسطورة الخليقة البابلية وبين رواية التوراة (سفر التكوين ١ : ١ ـ ٢ : ٣) فكلا المصدرين يشير الى وجود عماء مظلم من الماء فصل الى سماء وأرض ، وتتشابه الكلمتان المستعملتان للعماء في كلا المصدرين وكانت هذه المادة الاولى في القصة البابلية أصل الاشياء وهي مؤلفة من عنصرين من الماء العذب (العنصر المذكر) ومن الماء الملح (العنصر المؤنث) وقد جسم البابليون هذين العنصرين من الماء وجعلوهما الها والهة وهما « ابسو » و « تيامة » عدوهما اصل الآلهة الاخرى واصل جميع الاشياء • فتكون هذه المادة الاولى عند البابليين ذات صفة ثنائية أي كانت مادة والها في الوقت نفسه • وعلى ذلك فالمادة أزلية أي انها وجدت منذ الازل ولم تخلق ، وكانت الها في الوقت نفسه ،ونجد هنا اختلافا جوهريا

---

(١) انظر الكلام على عيد رأس السنة البابلية في مبحث الديانة •

بين العقيدة البابلية وبين الاديان السماوية ولا سيما ما نصت عليه التوراة والقرآن ، حيث وجود الله ازلي يسبق وجود المادة وهو الذي خلق المادة .

(٢) وبوسعنا ان نستشف من وراء الاطار الاسطوري لرواية الخليقة البابلية أحوال العراق القديم ولا سيما الاحوال الجغرافية في بداية تكوين أولى الحضارات البشرية فيه . فالمياه الاولى والصراع والاحتراب بين الاله مردوخ و « تيامة » و « ابسو » (وهما الالهان اللذان يمثلان المياه الاولى) ، وتغلب مردوخ عليهما في الحرب بين الجيلين من الآلهة ، ثم احلال النظام بدل الفوضى وخلق الكون وتشييد المعابد كل ذلك وغيره يعكس لنا صراع العراقيين الاوائل مع بيئتهم الطبيعية وتغلبهم عليها وانشاء العمران والحضارة فقد رأينا ان القسم الجنوبي من العراق كانت تغمره مياه البحر ثم تكونت بمرور القرون اليابسة من الغرين والطمى المحمولين بمياه الرافدين . هذا وان اسم «تيامة» يعني البحر مثل كلمة «تهامة» العربية .

ولقد سبق أن نوهنا باستنتاج آخر مهم هو ان هذه الاسطورة تعكس لنا ايضا الاحوال الاجتماعية والسياسية في العراق القديم في أولى مراحل تكوينه الحضاري في العهد الذي سميناه بالعهد الشبيه بالكتابي أو التأريخي حيث كان نوع من نظام الحكم الديمقراطي البدائي كما يستنتج ذلك جليا من هذه الاسطورة اذ تصور لنا الكون بهيئة دولة يحكم فيها الآلهة حكما اشوريا ، وتصور لنا الاسطورة أيضا أصل الملك ، حيث انتخبت الآلهة في اثناء الازمة الحادة التي حلت بها الاله مردوخ ليكون بطلها وملكا عليها وتنازلت له عن سلطانها. وثمت أمر آخر تعكسه لنا هذه الاسطورة هو العنف الذي تمتاز به البيئة في وادي الرافدين كما أن عملية الخلق والتكوين لم تتم بهدوء بل بصراع وكفاح بين الآلهة وسنجد عكس هذه الصورة تماما في تصورات سكان وادي النيل الاقدمين في اساطير الخلق عندهم حيث تمت عملية الخلق بهدوء.

٢ ـ ملحمة جلجامش والطوفان :ـ

جلجامش من أبطال القصص فى تأريخ العراق القديم ، وقد ورد اسمه فى ثبت ملوك الوركاء ، فى عهد سلالتها الاولى التى لا نعرف عنها شيئاسوى اسماء ملوكها ، وقد صار بعضهم ، مثل جلجامش موضوعا لقصص وملاحم شعرية • ومما يرجح كثيرا أن هؤلاء الملوك قد حكموا فى العراق ، فى مدينة الوركاء قبيل عصور فجر السلالات أو فى بدايته •

اشتهر اسم جلجامش فى آداب العراق القديمة منذ اقدم عهود التأريخ وصار موضوعا لعدة ملاحم وقصص سومرية وبابلية ، وكلها تدور حول وصف أعماله والمغامرات التى قام بها ، وأعمال البطولة الخارقة التى تقرن به ، حتى صار أشبه ما يكون بأبطال اليونان فى عهد الاشعار الهومرية ، وقد أصبح فى الواقع مثلا يحتذى به عند أبطال الامم الاخرى ولا سيما « هرقل » ، والاسكندر ذى القرنين فى المآثر العربية ، ونمردو الوارد فى التوراة •

وكانت أشهر القصص والملاحم التى تدور حول اسم جلجامش وأعماله الملحمة المشهورة بقصة « جلجامش » التى يؤلف خبر الطوفان جزءا منها ، كما سيتضح ذلك من تلخيص القصة • ان هذه القصة أطول ملحمة شعرية فى الادب البابلى ، وقد كتبت على اثنى عشر لوحا من الطين مجموع ما فيها نحو ٣٥٠٠ سطر وقد وجدت مثل ألواح قصة الخليقة البابلية فى مكتبة «اشور بانيبال» الشهيرة فى نينوى ، ووجدت نسخ منها من عصور أقدم من العهد البابلى القديم) مما يدل على قدم هذه الملحمة ، وقد صارت منذ أن اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى الآن موضوع اهتمام الباحثين والمترجمين من ابناء الغرب •

سيتضح من موجز القصة أنها أقرب ما تكون الى الجمع الادبى المؤلف من عدة قطع مختلفة ، ولكنها جمعت جمعا أدبيا فنيا لتكون وحدة على هيئة

ملحمة فمن هذه القطع القصص التي تدور على مغامرات جلجامش وصاحبه «انكيدو» ، وقد جاءتنا من هذه نماذج من القصص السومرية كما ألمحنا الى ذلك من قبل ، وأدمجت في الملحمة أيضا قصة الطوفان التي يرجح ان تكون موضوعا مستقلا بنفسه وقد جاءتنا عنه روايات أخرى سومرية[١] . وقد وفق المؤلف في جمع هذا الموضوع ولحمه مع القسم الاول الذي يخص أعمال جلجامش ومغامراته . وهناك قسم ثالث من الالواح التي تخص ملحمة جلجامش وهو اللوح الثاني عشر الذي يؤلف قصة لا علاقة لموضوعها

---

(١) والذي يعجب له أن قصصا عن الطوفان وجدت عند اغلب الامم والاقوام ، فقد احصى الباحثون وجودها فاستنتجوا انها منتشرة في قارة آسية وجزر المحيط الهادي وفي كلتا القارتين الامريكتين (فيما قبل العهد الاوربي) ،ولكنها قليلة نسبيا في قارة اوربة واقل منها في القارة الافريقية . ومع كثرة قصص الطوفان وانتشارها فانها تختلف فيما بينها اختلافات كثيرة ، كما ان قسما منها اساطير وضعت وضعا لتفسير بعض العوارض الارضية كالمنخفضات الواسعة في البلاد التي وضعت فيها تلك الاساطير . وبخلاف ذلك قصص الطوفان البابلية التي كانت بالاصل وقائع حقيقية حدثت في طيات الماضي البعيد ورويت بالروايات الشفهية فشوهت معالمها التأريخية، وكذلك الحال في رواية التوراة عن الطوفان التي تشبه الروايات البابلية شبها يجعلها ترجع الى حادثة واحدة نعتقد أنها حدثت في العراق اي انهما ترويان خبر طوفان واحد يرجح كثيرا أنه وقع في القسم الجنوبي من العراق في نهاية العهد الذي سميناه بعهد جمدة نصر في بداية الالف الثالث ق.م ، كما تؤيد ذلك دلالة التنقيبات الحديثة حيث وجدت آثار ترسبات من الطوفان تنفصل بين دوري جمدة نصر وعصر فجر السلالات وذلك في بعض مدن العراق القديمة ومنها « كيش » والوركاء و « شروباك » (فارة الآن) . وكانت المدينة الاخيرة موطن نوح الطوفان البابلي « اوتو ــ نبشتم » . وورد ذكر الطوفان أيضا في اثبات الملوك السومرية التي قلنا انها رتبت سلالات الملوك الحاكمة الى قسمين ، ملوك ما قبل الطوفان وملوك ما بعد الطوفان . وقد جعلت هذه الاثبات حادثة الطوفان قبل سلالات الملوك الذين حكموا في عصر فجر السلالات . وهذا يؤيد دلالة التنقيبات التي أشرنا اليها . اما سبب الطوفان فلا يعسر علينا ادراكه ولا سيما في بلد تكثر فيه الفيضانات كالقسم الجنوبي من العراق . ولكن كان الطوفان الوارد في ملحمة جلجامش حدثا عظيما وقع قبيل تغلب الانسان على الانهار بما أنشأه من السدود واعمال الارواء . (أنظر مجلة سومر المجلد السابع ١٩٥١ ، العدد الاول) .

بموضوع الملحمة العام ولم يوفق المؤلف أو المؤلفون فى جمعه مع القطعتين الاخريين حيث يدور على وصف العالم الاسفل أو عالم الارواح كما رآه «انكيدو» صاحب جلجامش والملحمة بوجه عام نتاج أدبى سامى (بابلى) على الرغم من استناد كثير من حوادث الملحمة الى ما يضاهيها فى الادب السومرى الذى لعله اتخذ أساسا وأصلا لنتاج أدبى جديد .

ملخص القصة :ـ(١)

« تبدأ القصة بوصف بطل الرواية جلجامش فتذكر حكمته وخبرته ومعرفته باخبار الازمان الغابرة مما قبل الطوفان وانه سافر أسفارا بعيدة ، وكل ذلك استباق لحوادث الرواية فيما بعد ولا سيما اسفار جلجامش ومغامراته وذكر الطوفان . . وتصف الرواية اعمال جلجامش فى مدينة الوركاء وكيف أنه بنى أسوارها ومعبدها المقدس « اى ـ انا » وهو عمل لم يضارعه فيه أحد من الملوك الذين أتوا من بعده .

وكان جلجامش بطل الآلهة على أتم ما يكون من الصورة والخلق ، فقد صنعته الآلهة أحسن صنعة واجمل مثال ، قوى الجسم هائل الخلقة جسيم التركيب ثلثاه اله وثلثه الباقى بشر .

أخذ جلجامش أهل الوركاء بالعنف والاضطهاد فلم «يترك ولدا لابيه» «ولم يترك الزوجة لحبيبها» . فاستغاث الناس بالالهة ، فاستمعوا لشكاتهم واستمع « آنو » العظيم لهم فقال للالهة « ارورو » انت يا « أرورو » قد خلقت جلجامش فاصنعى غريما ونظيرا له فامتثلت « ارورو » لامر آنو فغسلت يديها واخذت طينا وعجنته و « بصقت » فيه . وصنعت منه بطلا قويا هو (انكيدو)، وكان هذا ماردا يغطى جسمه الشعر ، وشعر رأسه كالمرأة . وكان وحشا لا يعرف البشر ولا حياة البشر يرعى العشب والنبات مع الغزلان ويرد الماء مع وحوش البرية . وبينما كان يرد الماء مرة رآه أحد الرعاة فهالته خلقته

---

(١) انظر المراجع فى آخر الكتاب .

وشكله وخاف خوفا شديدا ، فقص هذا الراعى على أبيه ما شاهده فنصحه أبوه أن يذهب الى جلجامش ويخبره بخبر هذا الوحش ولمح له بطريقة اصطياد هذا الرجل الوحش بواسطة امرأة يرسلها جلجامش • فلما سمع جلجامش خبر (انكيدو) من الراعى قال : انطلق يا أيها الراعى واصطحب معك بغيا ، وعندما يأتى الوحش لورد الماء ، فلتخلع ثيابها ولتعمل على اغوائه، وستبدل وحشيته • فسار الراعى ومعه البغى الى المواضع التى يتردد عليها (أنكيدو) وتربصا وروده ثلاثة أيام عند مورد الماء ، فوقع (انكيدو) فى حبائل المرأة وعاش معها ستة أيام وسبع ليال ، وتغير حاله من بعد ذلك حتى أنه « نسى الموضع الذى ولد فيه » ، وذهبت وحشيته ونفرت عنه الغزلان والوحوش التى كانت تألفه ، ولم يستطع أن يجرى معها ويجاريها بالركض ، فرجع الى البغى وارتمى عند قدميها فقالت له « ألا تعلم يا أنكيدو انك مثل اله • فعلام تهيم فى البرية مع الوحش ؟ فتعال أذهب بك الى الوركاء حيث المعبد الزاهر ، مسكن آنو وعشتار ، وحيث جلجامش ذو الحول والقوة » وما أن سمع انكيدو ذلك حتى أسلم قياده الى المرأة لتأخذه الى الوركاءمصمما على أن ينازل جلجامش ويغلبه حتى يكون هو القوى بين الرجال •

وعندما أشرف (انكيدو) والمرأة على أبواب الوركاء اجتمع الناس ليشاهدوا لقاء البطلين جلجامش وانكيدو • ووقف انكيدو فى باب المدينة متحديا جلجامش فنشبت بين الاثنين معركة عنيفة تصارعا فيها و (نخرا كالثورين وحطما اركان الباب • واهتز الحائط) • وبعد جهد تمكن جلجامش من (انكيدو) وطرحه على الارض ، وعندها هدأ جلجامش وذهبت سورة غضبه ، وأقر انكيدو بتفوق غريمه ، واعجب البطلان كل منهما بالآخر ، فصارا صديقين حميمين •

وبعد نقص فى نص الملحمة نجد جلجامش يعتزم على القيام بسفرطويل يذهب به مع صديقه الى غابات الارز ليحصلا على الشهرة والمجد • وبعد أن أعد البطلان عدة السفر وتسلحا بأسلحة هائلة بدءآ بحملتهما الى غابات

الارز • وبعد سفر شاق طويل وصل الاثنان الى مدخل الغابة التي يحرسها الغول (خمبابا) أو (خواوا) الذي عينه الاله (انليل) لحراسة الغابة المقدسة • وقد قتلا اولا الحارس الذى عينه (خمبابا) فى المدخل ثم دخلا الغابة واوغلا فيها حتى بلغا موضع (خمبابا) نفسه ، فذعر جلجامش وشل من الخوف فاستغاث بالاله (شمش) فأنجده هذا بأن ارسل الرياح العاتية وسلطها على (خمبابا) ، فسكن فى مكانه واستسلم وأخذ يتضرع لجلجامش ليبقى على حياته ولكن جلجامش لم يرحمه بل قطع رأسه • ورجع البطلان من بعد ذلك الى مدينتهما •

وعندما وصلا الى الوركاء تهيآ للاحتفال بنصرهما وبالعودة من مغامراتهما ولبس جلجامش الحلل الزاهية وصقل سلاحه ، ولما أن رأته الالهة عشتار أعجبها حسنه وأحبته فعرضت عليه أن يتزوجها واغرته بما ستغدق عليه من الهبات السنية وانها ستجعل (ملوك الارض وحكامها وأمرائها ينحنون له)• ولكن جلجامش رفض طلب عشتار ولم يقتصر على ذلك بل انه أهانها فى رده وعيرها بما جلبه حبها من الدمار والهلاك على عشاقها السابقين • فكان من جملة ما قاله لها : أنت قصر يتحطم فيه الابطال •• أنت قار يلوث حامله، وقربة تبلل من يحملها •• فأى من عشاقك من أبقيت على حبه •• تعالى أفش لك قصة عشاقك •• «فمن اجل «تموز» زوج صباك قد أمرت بالنوح والبكاء كل عام[١] • وقد احببت طير « الشقراق » المرقش فلطمته وكسرت جناحه • وذا هو يندب فى البساتين والاحراش : جناحى ! جناحى ![٢] »

---

(١) يشير هذا الى العيد السنوى الخاص بالنوح على «تموز» اله الخضار والنبات والربيع ، وقد اعتقدوا فيه أنه ينزل الى عالم الاموات الاسفل فى كل خريف ويظل هناك حيث يقوم ويرجع الى الحياة مع بشائر الربيع • وتوجد قصة بابلية تصف نزول عشتار الى العالم الاسفل لارجاع حبيبها تموز الذى مات بسبب حبها •

(٢) ان الشقراق وهو طائر يكثر فى العراق الجنوبى ، يخرج فى اثناء طيرانه فى موسم اللقاح صوتا يشبه اللفظة البابلية « كفى » اى جناحى • ولعل صوته وشكل طيرانه هو الذى أوحى للبابليين بهذا الخيال الطريف •

وعندها استشاطت عشتار غضبا فصعدت الى السماء الى حضرة أبيها « آنو » واستعدته على جلجامش وألحت عليه بأن يخلق لها ثورا مقدسا تقضى به على جلجامش وهددته بأنها ان لم يفعل ذلك فستحطم باب العالم الاسفل أى عالم الاموات فيخرج منه الموتى وينافسون الاحياء وعند ذلك رضخ « آنو » لطلبها وخلق (ثور السماء) ، وانزله الى مدينة الوركاء فأخذ يفتك بسكان المدينة وأحل الذعر والهلع فى نفوسهم وسقط المئآت من رجال الملك وقد مات بعضهم ذعرا من خواره • وهنا انبرى له البطلان يصارعانه حيث تصف لنا الملحمة مشهدا أشبه ما يكون بمصارعة الثيران فى اسبانية • وقد تمكنا منه وقضيا عليه • ولما رأت عشتار ذلك ملكها الغضب فلعنت جلجامش فاجابها (أنكيدو) بأن قطع فخذ الثور وقذف به فى وجهها • وكان الثور عجيبا ، قرناه من حجر اللازورد • وقد حزنت عشتار على الثور وجمعت (نساء المعبد) واقامت النوح عليه • وسار البطلان فى شوارع المدينة محتفلين بنصرهما وقد تملك جلجامش الزهو والغرور وصار يسأل عذارى الوركاء وهن مجتمعات مع الناس فى الاحتفال (من الامجد بين الابطال ؟ ومن زين الرجال ؟) فيجبنه مع الجماهير (جلجامش الامجد بين الابطال ، جلجامش زين الرجال) •

والى هنا كان كل شيء يبدو على ما يرومه البطلان ، ولكن أقدار الآلهة خبأت لهما غير ذلك • وبدأت الرؤى والنذر تنذرهما بما سيحل بهما من « المصائب » ولا سيما العاقبة التى قررت احلالها بانكيدو جزاء على قتله « خمبابا » و « ثور السماء » • فرأى انكيدو مما رآه فى الاحلام[1] ان

---

(١) وكان مما رآه انكيدو انه نزل الى عالم الارواح الذى وصفته القصة بأنه « الدار التى لا رجعة لمن يدخلها ، والطريق الذى لا رجعة منه ، والدار التى حرم سكانها من النور حيث التراب والطين طعامهم وقوتهم » الخ • وهذه صورة كئيبة تصورها البابليون عن عالم الموتى ولكنهم لطفوا منها فى اساطير اخرى ورد فيها ذكر « العالم الاسفل » كما ألمحنا الى ذلك فى مبحث الديانة •

الآلهة اجتمعوا فى «مجلس الشورى» ليقرروا أى من الاثنين يجب أن يموت. فوقع الحكم على «انكيدو» المسكين. اما جلجامش فقد أبقى عليه لعله بسبب أن ثلثيه من مادة الآلهة. وأعقب ذلك أن «انكيدو» مرض وهو فى ريعان الشباب. فاضطجع فى فراش المرض مدركا قرب نهايته، وأخذت تتوارد عليه الخواطر ويتذكر حياته السعيدة الماضية يوم كان خلى البال يرعى مع الغزلان والوحوش وحزن على مجيئه الى حياة البشر والحضارة، فلعن الصياد الذى جلب له (المرأة) ولعن المرأة التى اغوته على المجيء الى المدينة وناجى نفسه بهذه اللعنات قائلا : (تعالى أيتها البغى فاقدر مصيرك الذى لن ينتهى الى الابد. ليكن الشارع مأواك وظل الحائط مسكنك. سيلطم السكران وجنتيك) الخ. وبعد أن مات انكيدو حزن عليه صاحبه حزنا ممضا وصار ينوح عليه ويندبه ليل نهار (كما تنوح المرأة)، حتى انه ابى أن يودعه اللحد معللا نفسه بعودة صاحبه الى الحياة، وبعد أن يئس دفنه دفنا يليق به، ولكن الحزن ظل يلازمه فهام على وجهه فى البرارى يندب صديقه خائفا من المصير الذى سيؤول اليه، وتملكه الخوف من الموت ولم يجد عزاء فى كل ما انجزه من أعمال وامجاد.

وهنا صار يفكر بوسيلة للتخلص من الموت، ولكن كيف يتسنى له نيل الحياة الخالدة ؟ وهنا ذكر قصة جده «اوتو - نبشتم» الذى يعيش فى بقعة نائية فى البحار البعيدة، وكان قد حصل على الحياة الخالدة فعزم على شد الرحال الى جده مهما كلفه الامر ليسأله عن سر الحياة الخالدة. فيبدأ جلجامش فى سفر طويل شاق، ونجده يصل أول ما يصل اليه جبالا اسمها «ماشو» يرجح أن تكون جبال لبنان وتنعتها الملحمة بانها الجبال التى تمر من مدخلها الشمس فى سيرها اليومى، ويحرس ذلك المدخل مخلوقات غريبة مركبة من انسان وعقرب كانت نظرتها «موتا محتما». ولما

أبصر جلجامش « الرجل ـ العقرب » وزوجته خاف خوفا شديدا ، ولكنه تشجع وانحنى امامهما ، وفطن الرجل العقرب الى ما فى جلجامش من مادة الآلهة فرأف به وسأله عن مقصده من المرور من مدخل الجبل فاخبره هذا انه جاء من أجل جده « اوتو ـ نبشتم » ليسأله عن الحياة والموت فيعجب الحارس من كلامه لانه لم يسبق له أن رأى أحدا يعبر مسالك هذه الجبال . وأخيرا سمح لجلجامش بالمرور فيشرع هذا بالسير مسافات طويلة وهو فى ظلام دامس ، ويصل قرب النهاية الى بستان عجيبة أشجارها تحمل الجواهر والدر المتألق على نحو ما فى قصص ألف ليلة وليلة ويصل من بعد ذلك الى ساحل البحر (ولعله البحر المتوسط) ويجد عند ساحله «حانة مقدسة» تقيم فيها احدى الآلهات . ويدخل جلجامش الى الحانة فيبث صاحبتهاسره ويشكو لها مصابه ويطلب منها أن ترشده كيف يصل الى « اوتو ـ نبشتم » . فتنصحه صاحبة الحانة بالعدول عن مسعاه وتفوه بكلمات حكيمة اذ تقول له : « الى اين أنت تسعى يا جلجامش ؟ فالحياة التى تبغى لن تجد . اذ ان الآلهة لما خلقت البشر ، قدرت الموت من نصيبهم واستأثرت بالحياة . فيا جلجامش لتكن بطنك ملآى ، ولتكن مبتهجا ليل نهار . واجعل كل يوم من حياتك يوم فرح وسرور . وأرقص وألعب ليل نهار . ولتكن ثيابك نظيفة ، واغسل وجهك واسبح فى الماء . ودلل الطفل الذى يمسك بيدك . وافرح الزوجة التى بين أحضانك . وهذا هو نصيب البشرية » . ومع ذلك فقد ألحف جلجامش فى السؤال فارشدته صاحبة الحانة الى ملاح «اوتو ـ نبشتم » . فذهب جلجامش الى الملاح الذى اقتنع بان يصحبه معه فى سفينته وقد مخرت بهما (مياه الموت) التى عبراها بطريقة طريفة بان قطع جلجامش جملة من (المراريد)[١] فاذا ما دفع باحدها يرميه فى الماء ويأخذ آخربدله وهكذا الى أن وصلا الى الساحل الذى يعيش فيه (اوتو ـ نبشتم) ، فيسأله هذا عن سبب مجيئه ويعجب لما شاهده على جلجامش من الحزن والاسى

---

(١) جمع مردى وهو المستعمل الآن عند الملاحين فى العراق .

فيجيبه جلجامش بما حل به ويقول له : « يا اوتو ـ نبشتم ! كيف لا تذبل وجنتاى ويمتقع وجهى ؟ ويحزن قلبى وتتبدل هيئتى ، ويصير وجهى وجه من انهكه السفر الطويل ... فان صاحبى وأخى الصغير الذى صاد حمار الوحش فى البرية والنمر فى البادية ... أنكيدو صاحبى ... الذى تغلب على جميع الصعاب ... قد أدركه مصير البشر ! فبكيته سبعة أيام وسبع ليال ولم يهن على دفنه فى القبر حتى وقع الدود على وجهه ، فافزعنى الموت حتى همت على وجهى فى البرارى ، فالنازلة التى حلت بصاحبى تثقل كاهلى .. صار صاحبى الذى أحببت ترابا . أفلا أضطجع مثله ضجعة لن أقوم منها أبدا ؟ » ... وبعد كلام آخر يصف به جلجامش ما عاناه فى الوصول اليه يجيبه « اوتو ـ نبشتم » ! « قال اوتو ـ نبشتم لجلجامش ... هل بنينا بيتا يقوم الى الابد ؟ وهل ختمنا عهدا يقوم الى الابد ؟ وهل تبقى البغضاء فى الارض ابد الآبدين ؟ .. لم يكن خلود منذ القدم ، ويا ما اعظم الشبه بين النائم والميت ! الا تظهر على وجههما هيئة الموت ؟ وهكذا العبد والسيد لما ينتهى اجلهما » . فسأل جلجامش اوتو ـ نبشتم الخالد كيف صار اذن خالدا وهو مثله بشر بل يبدو أضعف منه . وهنا يبدأ اوتو ـ نبشتم يقص عليه قصة الطوفان الذى حصل من بعده على الحياة الخالدة .

قصة الطوفان كما يرويها اوتو ـ نبشتم[١]

قال (اوتو ـ نبشتم) لجلجامش : ساطلعك يا جلجامش على اسرار خفية وانبئك بسر من اسرار الآلهة . كنت أعيش فى شروباك المدينة التى تعرفها الواقعة على الفرات . ولقد عزم الآلهة العظام على احداث الطوفان[٢] ،

(١) منقولة بتصرف عن الترجمة الحرفية فى مجلة « سومر » مجلد ٦ عدد ٢ (١٩٥٠) ، اللوح الحادى عشر الاسطر ٨ فما بعد ، وتوجد قصة سومرية عن الطوفان (انظر
Ancient Near Eastern Texts, 42 ff.

(٢) فى قصص أخرى عن الطوفان كان السبب فى ذلك آثام البشر وخطاياهم .

وكان الاله (ايا) في مجلسهم فنقل حديثهم الى كوخ القصب (اى مسكن اوتو ـ نبشتم) وقال يخاطبه : يا كوخ القصب . اسمع يا كوخ القصب وتأمل يا حائط ! يا رجل (شروباك) قوض بيتك وابن لك سفينة واترك ما تملك وانج بحياتك وخذ معك الى السفينة بذرة كل مخلوق حى . ولما ادركت ذلك قلت لـ (ايا) الهى . يا الهى سأعمل بكل ما أمرتنى به ، ولكن بماذا سأجيب أهل مدينتى ؟ فاجابنى (ايا) هكذا قل لهم : ان (انليل) يكرهنى فلن استطيع العيش فى مدينتكم بعد الآن ، وسأنزل الى مياه(الابسو) واعيش مع (ايا) الهى . اما انتم فسينزل عليكم المطر مدرارا . وسيمطركم الموكل بالزوابع مطرا من قمح[١] فجمعت الناس حولى وشرعت بصنع السفينة واقمت هيكلها ، وانشأت فيها ست طبقات سفلى فقسمتها بذلك الى سبع طبقات وقسمت طبقاتها الى تسعة أقسام وجهزتها بما تحتاج اليه وبالمؤن . وحملت فيها كل ما أملك ووضعت فيها بذرة كل مخلوق حى ، وادخلت فيها أهلى وذوى قرباى ، وحيوان البرية ووحوشها وجميع الصناع . وحل الوقت المعين فأرسل الموكل بالزوابع مطرا مهلكا من السماء . وتطلعت الى الجو ، فاذا هو مخيف لا يمكن النظر اليه . فدخلت السفينة واغلقت بابها وعندما لاح أول خيط من نور الصباح أتت غيوم سود من الافق البعيد وارعـد الاله (أدد) فى داخلها وبلغت رعوده عنان السماء ، وانقلب النور الى ظلمة ، وهبت العواصف العاتية يوما واحدا وحلت بالناس كالحرب العوان ،وصار الناس لا يعرفون من السماء وانكسرت السدود وقد هبت العواصف ستة أيام وست ليال وانهمرت الامطار فغطى الطوفان الارض وذعر حتى الآلهة من الطوفان فانهزموا الى سماء (آنو) ، واقعوا كالكلاب وصرخت عشتار مثل امرأة فى المخاض ، وانتحبت سيدة الآلهة بصوت شجى وقالت: تحولت الخليقة القديمة الى طين لاننى أمرت بالشر فى مجلس الآلهة ، وصار البشر الذين ولدتهم مثل بيض السمك يملأون المياه . » ولما كان

---

(١) هنا تورية لخداع أهل المدينة . ووجه التورية انه استعمل كلمة معناها من المشترك تعنى قمحا وهلاكا .

اليوم السابع خفت شدة العاصفة والطوفان وسكن البحر وهدأت الزوبعة ·
ففتحت كوة من سفينتي فسقط النور على وجهي ، وتطلعت الى البحر فكان
كل شيء هادئا ، وقد استحال البشر جميعا الى طين · فانحنيت وبكيت وبعد
مسيرة اثنتي عشر ساعة مضاعفة استوت السفينة على جبل (نصير) الذي مسك
السفينة ولم يدعها تتحرك طوال سبعة أيام واطلقت في اليوم السابع حمامة
فذهبت الحمامة ثم عادت الى لانها لم تجد موضعا تحط عليه ، ثم اطلقت
السنونو فذهب وعاد الي لانه لم يجد موضعا يحط عليه ، ثم اطلقت غرابا
فذهب الغراب وكانت المياه قد انحسرت فاكل وحام وحط ولم يرجع الي ·
ثم أطلقت كل شيء الى الرياح الاربعة وقربت قرباناً ، فلما شم الآلهة رائحة
القربان الذكي اجتمعوا حول ما ضحيت كأنهم الذباب · وقالت الالهة
عشتار يا أيها الآلهة : « كما انني لا انسى عقد اللازورد الذي في عنقي
فسأتذكر هذه الايام ولن انساها[1] · فليقترب الالهة من القربان الا
«انليل» الذي أحدث الطوفان بلا روية فأهلك البشر » · وعندما وصل
أنليل ورأى السفينة غضب غضباً شديداً لان بعض البشر نجا من الهلاك ·
وانبرى له الاله « ايا » ، وكلمه وقال : يا أيها البطل يا أعقل الآلهة ، كيف
جاز لك ان تحدث الطوفان بلا روية ، فلتحمل المذنب وزر خطيئته ، ولا
تفرط في الشدة على المذنب فتهلكه ولا تلن له حتى يفلت من زمامه » · ثم
صعد انليل الى السفينة واخذ بيدي واخرجني مع زوجتي فسجدنا له ثم
وقف بيننا ولمس ناصيتنا وباركنا بقوله : لم يكن اوتو ـ نبشتم حتى الآن
سوى انسان ولكن ليكن الآن اوتو ـ نبشتم وزوجه الهين مثلنا · وسيعيش
اوتو ـ نبشتم بعيداً عند (فم الانهار) ، فأخذوني واسكنوني في هذا الموضع ·
أما أنت يا جلجامش فمن ذا الذي سيجمع الآلهة من أجلك حتى تجد
الحياة التي تبغي ؟ هلم امتحنك ! لا تنم ستة أيام وسبع ليال» · ولكن جلجامش

(١) يرى بعض الباحثين في هذا المشهد ما يضاهي ما جاء في التوراة
من أن«قوس قزح» كان علامةللعهدالذي حصل عليه نوح بعدم حدوث الطوفان
في الارض ·

بدلا من ذلك غط فى نوم عميق • فقال اوتو – نبشتم الى زوجته متهكما « انظرى الى هذا الرجل الذى ينشد الخلود ! » فلما استيقظ جلجامش حزن وتوسل الى اوتو – نبشتم ان يدله الى ما عسى أن يفعل ، وفيما كان موشكا على الرجوع الى بلاده صفر اليدين اشفقت عليه زوجة « اوتو – نبشتم » وتشفعت له عند زوجها فرق هذا لحاله وكلم جلجامش قائلا :
« ساسر اليك يا جلجامش بامر خفى وساطلعك على سر من اسرار الآلهة: يوجد نبات شوكه مثل شوك الورد يخز يديك وهو ينبت فى غور البحر فان ظفرت بهذا النبات حصلت على تجديد الشباب والحياة • فربط جلجامش برجله حجارة ثقيلة وغاص فى أعماق البحر ووجد ذلك النبات العجيب وعزم على اخذه الى مدينته لينميه ويستفيد منه الناس فسر جلجامش وشرع يسير راجعا الى مدينته ، وبعد حين شاهد فى طريقه بركة ماء بارد فنزل فيها ليستحم وليزيل عنه وعثاء السفر • وبينما كان فى الماء شمت الحية شذى ذلك النبات العجيب فاختطفته ، وحصلت بواسطته على قدرة تجديد الشباب اذ كلما ادركها الهرم نزعت عنها جلدها فتجدد شبابها • فجلس جلجامش وبكى وانهمرت الدموع على وجنتيه وعاد الى مدينته وقد اعتقد بتعذر الحصول على الحياة الخالدة فأخذ يشغل نفسه وينسى همومه فيما قام به من تجديد بناء المدينة واقامة أسوارها العالية • ونجده فى قصة أخرى من قصص جلجامش يقوم بأسفار بعيدة ليخلد له اسما مع اسماء الآلهة المكتوبة فى « أرض الحياة » •

هذا وقد سبق ان ذكرنا ان اللوح الثانى عشر من القصة يكون موضوعا أدبيا قائما بذاته ، ولا علاقة له بسياق حوادث الرواية اذ بينما يكون «انكيدو» صاحب جلجامش قد مات فى اللوح السابع الا انه يكون حيا فى اللوح الثانى عشر ويأمره جلجامش بأن ينزل الى العالم الاسفل ليرجع له آلتين صنعهما جلجامش من خشب ولكنهما سقطتا منه فى العالم الاسفل ، وبعد أن ينزل انكيدو الى ذلك العالم يتضرع جلجامش الى الآلهة بان تقيمه

من عالم الارواح لينبأه عن حال أهل العالم الاسفل فيصعد شبحه ويصف له ذلك العالم بصورة قاتمة عن حال أرواح الموتى حيث « يكونون كالمسجونين طعامهم التراب والطين » ولكنه يلطف من تلك الصورة الجاهمة بان يصف له حال بعض الموتى ممن يعاملون هناك معاملة خاصة فيجهزون بالماء والقوت ولا سيما من مات وخلف له ذرية من الاولاد ومن مات فى الحرب ميتة الابطال (كما سبق أن ذكرنا فى مبحث الديانة) .

ويتضح من موجز القصة أن فكرة الملحمة الاساسية التأمل فى مسألة الموت والخلود وحتمية الموت وان لا سبيل للبشر ان يحصلوا على الخلود ، ومع أن حقيقة الموت واضحة عند كل انسان الا أنها مع بداهتها كانت ولا تزال موضع الحيرة فى قرارة كل نفس بشرية . لقد قدر الموت على البشر أجمعين ، لان الآلهة لما خلقت البشر قدرت عليهم الموت واستأثرت بالخلود والحياة الابدية ، هذه هى الحقيقة التى جاهد مؤلف الرواية فى البرهان عليها بطريقة مؤثرة . فذاك جلجامش على الرغم من ان ثلثى جسمه من مادة الآلهة وعلى الرغم من قوته الخارقة وان أمه الهة لم يحصل على وسيلة للخلود فيتخلص من مصير البشر . ولم يقتصر الامر على انه اخفق فى الحصول على الخلود بل انه فشل حتى فى الحصول على ذلك النبات الاكسير الذى يجدد الشباب . واذا كان الامر كما برهنت عليه القصة فكيف ينبغى للانسان أن يسلك فى هذه الحياة ؟ هل يسلك السلوك الذى اشارت به صاحبة الحانة أى سلوك التنعم واللذة أو يسلك السلوك الذى قام به جلجامش عند وصوله الى الوركاء بعد رجوعه خائبا يائسا من مغامراته ؟ اى الانهماك بالاعمال الاجتماعية وتخليد الانسان نفسه بالعمل الصالح . ولعل الجواب الصحيح على ذلك أن القوم وفقوا بين النوعين من السلوك .

٣ ــ اسطورة (أدابا) :

نذكر أسطورة ثالثة اشتهرت فى العالم القديم حتى ان نسخا منها وجدت فى مصر بالخط المسمارى واللغة البابلية فى عهد العمارنة . وتعرف هذه

الاسطورة باسم « ادابا » ، وهي تعد على قدر عظيم من الاهمية بالنسبة الى آراء القوم باصل الشر وطبيعة الانسان ، كما ان بطل الرواية نفسه يرى بعض الباحثين فيه أنه « آدم » أبو البشر حتى ان اسمه البابلي يكاد يكون كلفظ آدم . وملخص الاسطورة ان «أدابا» كان يعيش صيادا في الجزء الجنوبي من العراق قرب سواحل البحر في اريدو ، وقد أحبه الاله « ايا » ومنحه المعرفة والحكمة والقوة . وفيما كان يصيد السمك في احد الايام هبت الريح الجنوبية فقلبت قاربه . وقد جسم البابليون الريح الجنوبية بهيئة طائر ضخم ، فمسك «أدابا» الريح وكسر جناحيه ، فسكن الريح ولم يهب فعلم «آنو» ، كبير الآلهة بالامر ، وأصدر أمره بان يؤتى بأدابا أمامه ليحاكمه فخاف عليه صديقه الاله «ايا» ولا سيما انه خشى ان الآلهة ستعرف من صديقه انه كثير المعرفة وهو أمر لا ترغب فيه الآلهة ، فلا تريد أن ترى بشرا يعرف مثل الآلهة . فعمل الاله الصديق على تخليص « ادابا » فارشده الى ما يجب أن يفعله ويقوم أمام الآلهة في السماء ، وجعله يلبس ثياب الحداد ويضع على رأسه الرماد عندما يقترب من باب السماء . واذا ما سأله الالهان الحارسان عن سبب حزنه فعليه ان يجيب بانه انما فعل ذلك لان الهين قد تركا الارض وجاءا الى السماء ، وكان يقصد بهذين الالهين الحارسين اللذين يحرسان باب السماء ، فكسب بذلك صديقين في السماء . وبالاضافة الى ذلك فان الاله «ايا» أوصى « ادابا » بأنه اذا قدم له الاله « آنو » كسوة فيستطيع أن يلبسها ولكنه اذا قدم له طعاما فلا ينبغي له ان يأكله لانه سيكون طعام الموت . وعندما صعد «أدابا» الى السماء عمل بوصايا «ايا» فكسب اولا الالهين الحارسين وصارا صديقين له ورافقاه الى السماء السابعة الى حضرة «آنو» كبير الآلهة وكان أول شيء عرفه هذا الاله ان «أدابا» يعرف أكثر مما يلزم لبشر مثله أن يعرف ولاسباب غير معروفة قرر الاله «آنو» ، لعله بسبب وساطة الالهين الصديقين ، أن يكمل هذا البشر فيطعمه طعام الحياة وشرابه علاوة على ما يتحلى به من المعرفة ، أي انه عزم على ان يجعله خالدا . ولكن

يا لسوء حظ «أدابا» فانه ابى ان يأكل مما قدم له من طعام الحياة على الرغم من الحاح الاله عليه . وعند ذلك غضب الاله وقال : «لقد ابيت ان تأكل من طعام الحياة ، فارجع الى الارض لينالك الموت» وهكذا يفشل هذا البشر في نيل الحياة الخالدة ، كما فشل جلجامش في ذلك . ونستطيع ان نستشف من هذه الاسطورة فلسفة البابليين في مصير الانسان وما قدر عليه من الموت، فقد فسروا مصدر الموت والشر في ذلك من الانسان ويشاركه في ذلك الاله الذي نصحه خطأ .

٤ – اسطورة « ايتانا » :

اسم بطل هذه الاسطورة «ايتانا» الذي ورد ذكره من جملة ملوك سلالة كيش الاولى التي كانت أول سلالة حكمت من بعد الطوفان كما جاء في اثبات الملوك وقد لقب في هذه الاثبات بالراعي ، وصور في جملة اختام اسطوانية وهو على ظهر نسر صاعد الى السماء[١] . وقد جاءت الينا الاسطورة التي سنلخصها وهي مدونة باللغة البابلية على ألواح من العهد البابلي القديم ومن العهد الاشوري الوسيط أيضا . وموجزها انه كان عهد في تاريخ البشرية لم يكن عندهم نظام الملوكية حيث لم تعين الآلهة لهم ملكا فكانت شارات الملك من تاج وصولجان مودعة في السماء لدى الاله «آنو» . ثم هبطت الملوكية من السماء . وتكون الاسطورة مخرومة في هذا الموضع ولكن سياق الحوادث يشير الى انه كان من بين الملوك القدامى بعد نزول الملوكية ملك في كيش اسمه «ايتانا» ، وكان هذا عقيما لم ينجب ولدا يخلفه في الملك ، فعم الاضطراب في البشر اذ خاف الناس من عواقب خلو منصب الملوكية بينهم وتعرضهم بسبب ذلك الى الشر . ففكر « ايتانا » في الامر واهتدى بعد التفكير الى وسيلة تمكنه من الحصول على ولد له بان يتشبث بجلب نبات خاص بالولادة موجود في السماء . فتضرع الى الاله الشمس (شمش) بان يمكنه من ذلك فدله هذا

---

(١) انظر
H. Frankfort, **Cylinder Seals** (1939), 138 — 39, Pl. XXIV.

الاله على نسر سيساعده فى بغيته وابلغه ان يعبر الجبال واذا وصل الى موضع معين وجد حفرة فيها نسر مهيض الجناح لا يستطيع الحراك فاذا ما انقذه «ايتانا» فانه سيساعده فى الحصول على ذلك النبات . ففعل «ايتانا» بما أمره به الاله ووصل الى الموضع الخاص ووجد النسر سجينا فى الحفرة المعينة فعمل ايتانا على تخليص النسر . اما سبب وجود النسر مسجونا فى هذا الموضع فتروى لنا الاسطورة ان أمرا وقع بينه وبين الحية (او الثعبان) وهو انهما عقدا عهدا فيما بينهما بأن يكونا صديقين فلا يعتدى احدهما على الآخر ، وعقدا شركة فيما بينهما بأن يقتسما ما يحصلان عليه وحلفا من اجل ذلك بالاله الشمس وظلا على ذلك الحال متضامنين ، حافظين للعهد الذى قطعاه باسم الاله (شمش) ، ولكن سول للنسر أن يخون العهد طمعا بصغار الحية وعلى الرغم من تحذير ابنائه له من مغبة خيانة العهد والحنث بالقسم الا انه ركب رأسه وسطا على فراخ الحية واكلها ، وعندما عادت الحية الى عشها وجدته مخربا لا اثر فيه لصغارها فبكت امام عشها ، وكشفت عن فاعل الشر فذهبت الى الاله الشمس تشكو النسر عنده فحكم لها الاله ودلها على طريقة لعقاب النسر بأن تذهب الى موضع فى الجبل وستجد هناك ثورا وحشيا مربوطا اعده لها الاله ، وعليها ان تبقر بطنه وتختبأ فى بطنه ، وستاتى الطيور لتأكل من الرمة ومعها النسر . ففعلت الحية ذلك واختبأت فى جوف الثور وجاء النسر وحط ليأكل على عادة هذه الطيور الجارحة ، فما كاد ينقر نقرة حتى مسكته الحية ، ولكن هذا بدأ يبكى ويستعطفها ان ترحمه فتطلقه ولكن الحية لم تسمع له لان الاله (شمش) هو الذى اوقع عليه العقاب ، ولكنها لم تقتله بل نتفت ريشه وكسرت جناحيه ومخالبه ورمته فى حفرة ليموت جوعا وعطشا . وبعد حين سمع الاله شمش لاستعطافه واخبره بانه سيرسل له رجلا يخلصه وهذا هو «ايتانا» الذى كما رأينا جاء اليه وخلصه واشترط عليه فى ذلك ان يصعده الى السماء ليجلب «نبات الولادة» . فركب على ظهره وبدأ بالصعود تدريجيا الى السماء ، ومع ان الكتابة مخرومة فى

النهاية الا ان ما بقى منها يصف لنا كيف كانت الارض تبدو بعين «ايتانا» عندما كان يطير ويرتفع قليلا قليلا نحو السماء فكانت الارض تبدو كالتل والبحار كمياه الجدول ، وبلغا مرحلة صغرت فيها مناظر الارض واختفت من عينيه ، حتى كادا يبلغان سماء «آنو» ويبدو ان النسر وايتانا خافا من التحليق علوا أبعد فهبطا مسرعين ولا يعلم مصير بطل الرواية ، ولكن الظاهر ان ايتانا يصل الى الارض سالما وانه انجب خليفة له فى الحكم .

ان هذه الاسطورة أقدم محاولة فى احلام الانسان فى الطيران وفيه ايضا باب جديد من الادب لم نصادفه فى النماذج التى اوردناها لادب وادى الرافدين القديم ذلك هو القصص على السنة الحيوانات والبهائم على نحو ما هو موجود فى أدب الهند القديم مما جاء فى كتاب «كليلة ودمنة» الشهير . والواقع من الامر ان هناك قطعا أخرى من هذا النوع من الادب فى حضارة وادى الرافدين مما يعرف باسم الـ (fables) . ولم يقتصر الامر فيه على الطيور والبهائم بل حتى بالنسبة الى الشجر كالمفاخرة بين شجرة الاثل (Tamarisk) وبين النخل[١] . كما ان معرفتنا قد ازدادت بباب آخر من أدب وادى الرافدين القديم ، هو الامثال والحكمة ، فقد ترجمت جملة قطع باللغة البابلية من هذا النوع[٢] ، ووجدت حديثا ألواح سومرية فيها مجموعات من الامثال والحكم السومرية ولكن هناك صعوبة خاصة فى فهم معنى هذه الامثال حتى لو عرفت من الناحية اللغوية لقصر مثل هذه الامثال وتركيز معناها كما ان الامثال تكون عادة مستندة الى حادثة أو حالة قيلت بسببها فلا نعرفها كما هو مألوف لدينا فى الامثال العربية فمن هذه الامثال السومرية المكتشفة حديثا[٣] نذكر أمثلة واضحة :ــ مثل «فى المدينة المهملة

---

(١) أنظر ترجمة تلك القطعة فى :ــ
Ancient Near Eastern Texts, 410 ff.

(٢) ذات المصدر الص ٤٢٥

(٣) حول هذه الامثال السومرية الجديدة أنظر
S.N. Kramer in **Bullt. Un. Museum,** vol. 17, No. 2 (1952) 39. ff

المتهاونة يصير الجابي تاجرا» و«لا تطلب الحياة من تنجشزيدا اله الموت» و«المال مثل الطير لا يعرف له موطنا ثابتا» ومثل «اذا أباحت المدينة لكلاب الصيد فيها ان تمكث داخلها تحكم الثعلب فيها» ومثل «اولى للفقير ان يموت» فانه ان ملك الخبز عدم الملجأ ، واذا كان عنده ملح عدم الخبز واذا كان لديه بيت فلا يكون عنده فراش» . ومن الامثال البابلية : «لا كسب بلا تعب» و«لقد ارخيت الشبكة ولكن الاصفاد محكمة»[١] ، و« اذا لم تنضب بئرى فعطشى غير كثير »[٢] و « لقد اوقف المعبد قبل أن يبدأ ببنائه»[٣] و«النهر الذى باتجاه الريح يجلب الماء الوفير» . و «اذا احس بدنو أجله قال لآكل جميع ما عندى واذا تعافى قال لاقتصد »[٤] و « قد تدوم الصداقة يوماً ولكن العبودية دهراً» و « الرجل ظل الاله والعبد ظل الرجل ولكن الملك على صورة الاله» و « اذا ضرب النحل عض يد الرجل الضارب »[٥] .

٣ - الفن

اذا أهملنا الصور والنقوش التى صنعها انسان العصر الحجرى القديم (ولا سيما فى اسبانية وفرنسة) بصفتها لا تعد فنا لان ذلك الانسان البائد قد صنعها مدفوعا بالسحر ، فبوسعنا ان نجعل ظهور طلائع الفن عند البشر فى وادى الرافدين ووادى النيل منذ نهاية العصر الحجرى المتأخر . وظهرت هذه الطلائع فى ربوع الشرق الادنى فى العصور التى أعقبت العصر الحجرى المتأخر التى سميناها بعصور ما قبل السلالات أو فجر الحضارة وقلنا عنها انها كانت بمثابة تمهيد او مقدمة لظهور الحضارة الناضجة فى كل من العراق

---

(١) قارن المثل فى (عاموس ٥ : ١٩) والمثل العربى « كالمستجير من الرمضاء بالنار » والمثل الانجليزى « من المقلاة الى النار » ؛

(٢) أى من قبيل المثل « لا يعرف قدر الماء حتى تنضب البئر »

(٣) قارن ما جاء فى التوراة (١ ملوك ٢٠ : ١١)

(٤) قارن (اشعيا ٢٢ : ١٣)

(٥) أنظر أحدث ترجمة للامثال البابلية فى المرجع الآتى :—
(Ancient Near Eastern Texts, 114 ff.)

ومصر في بداية الالف الثالث ق • م ، ومن ذلك بداية الفنون الجميلة التي ظهرت في كل من هاتين الحضارتين فيما بعد • فقد ظهر في الادوار الاولى من تلك العصور التمهيدية فن صبغ الفخار وتزويقه بأصباغ ورسوم جميلة وقد عمت صناعة هذا الفخار الملون الجميل جميع انحاء الشرق الادنى ، وكانت الاساليب متشابهة بوجه العموم ، مع اختلافات محلية تميز فن كل قطر من الاقطار • وبلغت صناعة الفخار المزوق أوجها في عصر حلف الذي صنع فيه العراقيون الاقدمون وسكان سورية اجمل واقدم اوان مزينة في تأريخ هذا الفن ، سواء أكان ذلك في دقة الصنع ورقة الفخار وجمال الاشكال أم في الاصباغ الكثيرة الزاهية التي استعملت في الاناء الواحد • وظهرت في أواني الفخار من عهد «حلف» بداية رسم الاشكال الحيوانية والنباتية والزخارف • واذا علمنا أن مثل هذه الاواني الرقيقة المنتظمة قد صنعت باليد قبل ان يهتدي الانسان الى صنع «دولاب الخزاف» حق لنا أن نعجب من الذوق الفني الذي تظهره لنا صناعة هذا الفخار • واستمرت صناعة الفخار الملون في العهد الذي أعقب عصر حلف ، أي عهد «العبيد» ، وان كان فن الفخار في هذا العصر لا يضاهي ما كان عليه في عصر حلف • ولكن ظهرت في عصر العبيد بدلا من ذلك اولى الابنية العمارية العامة ، بحيث يصح ان نعد بداية فن العمارة منذ عهد العبيد • وكان أول ما ظهر من فن العمارة الابنية الدينية العامة حيث ظهر المعبد في العراق ، ووجدت نماذج منه في شمالي العراق ، وجنوبه وبوجه خاص المعابد التي كشف عنها في اريدو «ابو شهرين»[1] ، وبوسعنا ان نشاهد في هذه المعابد الخصائص العامة الاساسية التي امتازت بها معابد السومريين والبابليين في العصور التأريخية • وظهور المعبد في عهد العبيد له خطورة خاصة في تأريخ الحضارة والفن بوجه خاص ، فقد ارتبطت به نواح عديدة من حياة القوم الاجتماعية والفنية ،

---

(١) انظر (ص ٥٨ فما بعد) من هذا الجزء

وسوف نرى من عرضنا لتأريخ الفن كيف ان الفنون الاخرى من نحت الى رسم الى عمارة كانت ذات علاقة ونقى بشؤون الآلهة والمعابد التى تعبد فيها ناهيك عن ان حياة القوم الاجتماعية كانت تدور على المعبد . وقد اعطى الباحثون فى نشوء عناصر الحضارة المختلفة للمعبد اهمية خاصة بجعله اهم العوامل التى أثرت فى ظهور تلك العناصر . ولقد استعمل العراقيون الاقدمون الطين مادة للبناء فى أقدم ابنيتهم ، وقد صنعوا بيوتهم اولا من الطين وذلك فيما قبل طور العبيد ثم صنعوا من الطين آجراً غير مطبوخ (وهو اللبن) لتشييد المعابد والدور ، ومع معرفتهم بالآجر المطبوخ فى العهود التى تلت عهد العبيد فان العراقيين الاقدمين ظلوا يستعملون اللبن فى بناء معابدهم الى آخر العهود التأريخية . ومما يقال فى هذا الصدد ان الاحوال الطبيعية فى السهل الجنوبى من العراق لم تساعد من حيث موارده ومواده على نشوء عمارة ضخمة بالحجر .

وحدثت فى عصر الوركاء ، ولا سيما فى منتصفه الثانى ، تطورات واختراعات مهمة فى الحضارة بوجه عام والفن بوجه خاص ، ففى فن العمارة ظهرت أوائل الابنية الشاهقة التى سميناها «بالزقورة» او الصرح المدرج والتى اختصت بها حضارات العراق القديم الى آخر أدوارها . وقد بدأت هذه العمارات فى المنتصف الثانى من عصر الوركاء ببناء معبد شيد فوق قمة مصاطب صناعية من البناء ، وقد امدتنا التنقيبات التى أجريت فى الوركاء والعقير بنماذج من هذه المعابد المدرجة . ففى العقير شيدوا معبدا صغيرا جميلا فوق مصطبتين من البناء الواحدة اصغر من الاخرى ، وكان يرقى الى المعبد المشيد فوق المصطبة العليا بسلالم ، وقد زينت جدران المعبد العالى برسوم حيوانات ورسوم بشر ملونة تعد اقدم تصاوير جدارية[1] فى تأريخ الفن ، وكانت عادة تزويق الجدران بالرسوم والاصباغ محاولة لتجميل مادة البناء الفقيرة وقد ظلت عادة صبغ الجدران الى العهد الكشى والعهود الاشورية

---

(1) Frescoes

ولكن اضيف اليها تزيين الجدران بالمنحوتات واستعمال الآجر المموه بالمينا والتزجيج كما فى قصر سرجون الثانى فى خرسباد وكما فى باب عشتار فى بابل • وبدأ استعمال المنحوتات لتزيين الجدران منذ عصور فجر السلالات ، وزينت واجهات معبد العقير الذى ذكرناه وكذلك المصاطب التى شيد عليها بصفوف من المخاريط والمسامير الطينية المفخورة وكذلك كان المعبد العالى الذى وجد فى الوركاء • وكانوا يلونون رؤوس تلك المسامير بأصباغ مختلفة ويثبتونها فى الجدران بأشكال مختلفة ، كالمربعات والمثلثات وهذه اقدم نماذج لفن «الفسيفساء» فى تأريخ العالم • وقد وجد فى معبد الوركاء آثار أعمدة من اللبن مزينة كذلك بالفسيفساء ، والاعمدة مكونة من أنصاف اسطوانات واتخذت للتسقيف والزينة فى آن واحد وكذلك يقال فى المعبد الابيض الذى عثر عليه فى الوركاء • ومن الاختراعات المهمة التى وصل اليها فن العمارة فى عصر الوركاء نشوء القوس والعقادة ، فقد جاءنا نموذج من قوس صحيح[١] من «اريدو» (ابو شهرين) من عصر الوركاء • وظهور فن العقادة فى هذا العهد القديم ذو اهمية خاصة بالنسبة الى تأريخ فن العقادة وأصله • اذ جرت عادة المؤرخين على ارجاع اصل العقادة والقبة الى الفن الرومانى •

وقد ظهرت القبة المعقودة فى عصر فجر السلالات فى أبنية المقبرة الملوكية التى كشف عنها فى أور • ومن الامور الفنية الجديدة التى ظهرت فى الوركاء «الختوم الاسطوانية» التى ظهرت منذ النصف الثانى من عصر الوركاء • وفن الختوم الاسطوانية خاص بحضارات العراق القديمة • وقد استعملها العراقيون بكثرة فى جميع أدوار تاريخهم • وبرعوا فى نقشها بصور ورسوم مختلفة براعة مدهشة ، وقبل أن تظهر الاختام الاسطوانية كانوا يستعملون ختوما منبسطة ، وهى أقراص من الحجر دائرية او مستطيلة تنقش برسوم مختلفة ولكنها مختصرة مبسطة «يطمغون» بها أحيانا أفواه

---

(١) True Arch

الجرار المسدودة بالطين لتكون بمثابة ختم لضمان عدم الاخلال بالمحتويات ، ولكنها استعملت كذلك بهيئة حروز لغايات سحرية ودينية • أما الختوم الاسطوانية فكانت تستعمل لختم العقود وألواح الطين المختلفة • وقد استخدموا لنحت الختوم الاسطوانية أحجارا مختلفة بعضها من الاحجار الثمينة ، كحجر اللازورد وحجر «الدم» (الهمتايت) وحجر اليشب **(Jasper)** والعقيق (Agate) **وحجر الحية** (Serpentine) وتدل طريقة نقشها بصور معكوسة واتقان تلك الصور على مهارة فنية بالغة • وكانوا ينقشون بعض هذه الختوم بكتابات قليلة يذكر فيها أحيانا اسم صاحبها والقابه ، لانها كانت بمثابة توقيع لصاحب الختم • اذ كانوا بعد الفراغ من كتابة العقود والمقاولات والرسائل أحيانا ، يدحرجون الختم الاسطوانى على لوح الطين وهو طرى فيترك طبعة بالصور المنقوش بها •

ولقد تنوعت الاختام الاسطوانية فى أشكالها وفى المشاهد والمواضيع المنقوشة بها واختلفت باختلاف الادوار التأريخية • ولكن مما يقال فيها بوجه الاجمال أنها ذات أهمية خاصة من الناحية الفنية ، عدا عن انها مصادر مهمة من مصادر معرفتنا بعقائد القوم الدينية والحياة اليومية ، لانها كثيرا ما تنقش بمواضيع مأخوذة من الآداب الدينية والاساطير وكذلك من حياة الافراد اليومية كالولائم والاعياد والشعائر الدينية المختلفة • وقد جاءتنا مجموعات كبيرة من الاختام الاسطوانية من مختلف الادوار • وفى المتحف العراقى وحده مجموعة تربو على الاربعة آلاف ختم اسطوانى •

وقبل أن ينتهى عصر الوركاء ظهر فى العراق فن جميل هو فن النحت ، فقد جاءتنا من أواخر هذا العهد ومن العهد الذى أعقبه ، وهو «جمدة نصر» نماذج جميلة من فن النحت على الحجر • من بين ذلك قطعة فنية من حجر البازلت (نوع من الاحجار البركانية) نحتت بمشهد يمثل صيد الاسود فى العراق القديم[1] وعلى الرغم من وجود هذه المسلة المنحوتة فى

---

(١) وجدت فى الوركاء وهى الآن فى المتحف العراقى •

طبقة من البناء في الوركاء تعود الى عهد جمدة نصر ، ولكن المرجح انها صنعت في عهد الوركاء وظلت مستعملة في عهد جمدة نصر • ومع قدم هذا النحت واتصافه بالسماجة بوجه عام فان فيه قوة في التعبير ، ويمكننا ان نتبع فيه وفي القطع المنحوتة الاخرى ، الخطوط الاساسية لفن النحت الراقي الذي ظهر في عهد ازدهار الحضارة السومرية في عصور فجر السلالات • ومن القطع الفنية النفيسة التي وجدت في الوركاء (من طبقة تعود الى عهد جمدة نصر) اناء من حجر المرمر كبير الحجم يبلغ طوله اربع أقدام هو الآن من أنفس آثار المتحف العراقي • وقد زين هذا الاناء من الخارج بمشاهد منحوتة بالنحت البارز تمثل موكبا من الكهنة العراة وهم يحملون سلال القرابين الى معبد «اي ـ اناء في الوركاء وفي الموكب يشاهد بعض الآلهة ويرجح كثيرا انها تمثل الالهة «اينانا» (أو انانا أي عشتار)•وقد نحتت هذه الاشكال بمهارة فنية فيها واقعية التعبير ، ونستطيع ان نجد في هذا الاناء الاشكال السومرية الممثلة في المنحوتات السومرية المجسمة التي ظهرت فيما بعد • ووجد المنقبون في الوركاء من طور جمدة نصر رأسا منحوتا نحتا مجسما من الرخام يمثل فتاة هو الآن من الآثار النفيسة في المتحف العراقي ، ليس لانه أقدم نحت مجسم في تأريخ الفن ، بل لما يتصف به من الجمال الفني ودقة التعبير في الملامح البشرية • ومن الفنون الفرعية الثانوية التي جاءتنا من عهد جمدة نصر مجموعات نفيسة من الاحجار الصغيرة المنحوتة بهيئة حيوانات وطيور مختلفة ، كانت تستعمل على ما يرجح حروزا أو أجزاء من قلائد • ومهما كانت الاغراض التي استعملت فيها فان نحتها والدقة في التعبير والتمثيل تشير الى مهارة فنية وصحة في المشاهدة وتناسب في الاعضاء • وقبل أن يبدأ العراقيون الاقدمون بفن النحت على الحجر كانوا يستعملون الطين لتمثيل الصور الآدمية والحيوانية وهذه هي صور الطين أو دمى الطين[١] التي كانوا يفخرونها بعد أن يضعوها بقوالب على

---

(١) Terra Cotta Figurines انظر حول ذلك المرجع الآتي :ـ
E. D. Van Buren, **Clay Figurines of Babylonia and Assyria** (1930).

الغالب • وبلغوا فيها مهارة ملحوظة ، وقد بدأت صور الطين منذ أقدم العهود ، من أواخر العصر الحجرى ، وظلت مستعملة الى أواخر ايام الحضارات القديمة في العراق • وكانت ، مثل الاختام الاسطوانية ، متنوعة الاشكال والمواضيع ، بعضها يمثل الآلهة وبعضها صور للشياطين والعفاريت كما تصورها القوم ، كما انهم صوروا الحيوانات المختلفة والطيور والاسماك ، وبلغت هذه الصور من مختلف العهود مئات الالوف ، وهى الى أهميتها الفنية ذات قيمة خاصة فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والدينية •

الفن فى عهد ازدهار الحضارة السومرية :

يقع عهد ازدهار الحضارة السومرية فى العصور التى سميناها بعصور فجر السلالات ، وقد سبق ان ذكرنا تقسيم عصور فجر السلالات الى ثلاثة أدوار تدعى عادة بعصر فجر السلالات الاول والثانى والثالث ، ويمتاز كل منهما بميزات خاصة من العمارة والآثار ومظاهر الحضارة الاخرى• ومما يقال فى حضارة السومريين الاولى فى عصر فجر السلالات ان الفنون التى نشأت فى عصور ما قبل السلالات قد نضجت وكثرت عناصرها ومقوماتها فى عصر فجر السلالات • واذا استثنينا الآثار الدقيقة وأوانى الفخار التى يتميز بها عصر فجر السلالات الاول ، فان هذا العهد فى الحقيقة دور انتقال بين عهد جمدة نصر وعصر فجر السلالات الثانى • فقد ظلت فيه بعض الاشياء التى اختص بها عهد جمدة نصر كالاوانى المصبوغة • ولم يستعمل فيه «اللبن» الخاص بعصور فجر السلالات وهو الآجر (المستوى-المحدب) الذى كان من الخصائص العمارية التى لازمت البنايات فى عصور فجر السلالات •

وفى نهاية عصر فجر السلالات الاول ظهرت عمارات عامة بالاضافة الى المعابد التى شاهدنا ظهورها فى العبيد • وكانت هذه العمارات العامة بهيئة قصور مهمة ، مما يشير الى ظهور الطبقات الحاكمة من الامراء والحكام• كما ان المعابد فى الدور الثانى من عصر فجر السلالات قد صارت ابنية

وعمارات مهمه زينت بالفنون الجميلة ، كالآنية المنحوتة المزينة ، واهم من ذلك المنحوتات الكثيرة التي نحتت نحتا مجسما (Sculplture in the Round) كما انه بدأت معرفتنا بأسماء المعابد بالنسبة الى الآلهة التي شيدت لها . فقد شيد في تل أسمر (عاصمة مملكة اشنونا) معبد فخم للاله «آبو» ، اله الخصب ، وقد اودع فيه كنز من المنحوتات المجسمة ، من بينها تماثيل تمثل الاله وزوجه وتماثيل أشخاص وكهنة . وكثرت المنحوتات المجسمة من هذا العهد وجاءتنا أمثلة كثيرة منها كما كثرت المنحوتات البارزة التي كانت تنحت على ألواح من الحجر لتزيين جدران المعابد . ووجد معبد آخر من أبنية هذا العهد (معبد الالهة شاره في تل اجرب في منطقة ديالى) زودنا كذلك بنماذج من المنحوتات وكمية كبيرة من رؤوس الصولجانات المصنوعة من الحجر . ومما يلاحظ في فنون النحت بوجه عام انه كان يجري وفق قواعد وقيود معينة ، اولا سيما في تماثيل الآلهة حيث المبالغة في الاعضاء وتمثيل العيون ، وكانوا لا يهتمون بالتمثيل الواقعي الطبيعي بل بالفكرة المجردة بالطريقة الهندسية ، بخلاف فن الاغريق الذي اهتم بجعل التمثال حيا متحركا واقعيا فكان الفن السومري بذلك أقرب مايكون الى الفن المعروف الآن «بالتأثيري» (Impressionism) [١] وشذ الفنانون في تمثيل الافراد حيث نجحوا في التمثيل الواقعي الطبيعي نوعا ما ولا سيما في الوجه ، وكذلك يقال في الالواح المنحوتة نحتا بارزا بمناظر تمثل الحياة الاعتيادية تمثيلا بارعا واقعيا . ونستطيع ان نتابع النحت في أطوار التأريخ المختلفة في العراق ، فنجد ان لكل عصر ميزات وقواعد كان يسير بموجبها الفنان ، كنحت الاشخاص والآلهة والافراد الآدميين . كما ان هذه المنحوتات كانت لاغراض دينية بالدرجة الاولى حتى تماثيل الافراد فان هذه كانت توضع بالدرجة الاولى في المعابد لتمثيل اصحابها دائما أمام الآلهة وكان تمثال الشخص في الواقع فيه من القوة والحيوية كما في الشخص الذي

---

(١) ونلاحظ في التماثيل السومرية مبادىء اخرى من الفن الحديث مثل الطريقة المعروفة بالتكعيبية .

بمثله ، ولذلك كان الملوك والامراء يسمون تماثيلهم بأسماء مطولة كما كانوا ينقشونها بنصوص كتابية يوصونهافيها بانتذكرهموتشفع لهمأمامالآلهة وتنوب عنهم أمامها • كما ان تماثيل الآلهة التى كانت توضع فى حجرة الهيكل المقدسة كانت تتجسد فيها روح الاله بالذات ، وكانت مثل هذه التماثيل ثمينة يسرفون فى تزينها بالاحجار الكريمة والذهب ، ولكن الذى يؤسف له انه لم تأتنا منها بعد الا نماذج قليلة • واذا كان الفنان مقيداً فى نحت تماثيل الآلهة والاشخاص الا انه استعمل حريته وعبقريته فى تمثيل الحيوانات • فقد جاءتنا من المنحوتات الاشورية قطع تعد من القطع الفنية فى تأريخ الفنون فى جميع الازمان ومن بين ذلك تمثال «اللبوةالمحتضرة» والاسد الجريح حيثمثلا تمثيلاصحيحافقد عبرالفنانعن ألم الحيوانالجريح بتعبير يبعث علىالدهشة والاعجاب ،ومنالامثلة علىذلك تمثيل صيد الاسود الذى أغرم به الملوك الآشوريون ، ومناظر الخيل والحمر الوحشية التى صورت بحركة وعنف وبمهارة بحيث يحق لنا ان نضعها فى مصاف فنون العالم الممتازة •

واشتهر الدور الثالث فى عصر فجر السلالات بالقبور الملوكية التى وجدت فى أور وقد زودتنا بكنوز لا تثمن عن الفنون السومرية فى هذا العهد وتخص بالذكر منها النفائس الفنية من أوانى الذهب وخناجر الذهب والخوذ المصنوعة من الذهب واشهر هذه الخوذ الخوذة الذهبية العائدة الى الامير السومرى «مس كلام دك» المعروضة فى المتحف العراقى وكذلك القيثارات الذهبية ورؤوس الحيوانات المسبوكة من النحاس والبرونز ، وكل ذلك يدل على ما وصل اليه فن الصياغة وسبك المعادن • وبرعوا فى فن التخريم براعة مدهشة كما يشاهد فى غمد الخنجر الذهبى المعروض فىالمتحف العراقى وكانوا يصنعون قبضات خناجر الذهب منحجر اللازورد (Lapis lazuli) • ومن الصناعات الدقيقة التى برع بها السومريون فىعصور

فجر السلالات فن التطعيم أو التكفيت[١] وقد بدأ هذا الفن الجميـــل فى عصر جمدة نصر • فكانوا يطعمون الحجر والاخشاب وغيرها من المواد بمواد أخرى جميلة كالمحار والصدف وحجر اللازورد والبلور بألوان مختلفة • وكان الفنان يؤلف من هذه الاحجار التى يطعم بها المواد الاخرى أطرزة وأشكالا بديعة ، كالاشكال الهندسية ، ومناظر الحرب والحوادث الاسطورية والحفلات الدينية ، كما يشاهد فى مقدم القيثارة الذهبيـــة المعروضـــة فى المتحف العراقى • وبمناسبة ذكر هذه القيثارة ننوه قليلا بفن الموسيقى كما تدل عليه مثل هذه الآلات حيث وجدت ايضـــا صـــور للطبول والابواق والاجراس والصنوج•هذا ولا نعلم كيف كانت الانغام الموسيقية ولكن وجدت بعض ألواح الطين بعضها بهيئة اسطوانات مثقوبة فيها بعض الرموز الغريبة التى رأى بعض الباحثين فيها انها «نوطة» موسيقية وان احداها تمثل النغمة الخاصة بترتيلة سومرية خاصة بخلق الانسان[٢] • ونذكر كذلك القطعة النفيسة التى وجدت فى أور والتى تسمى «راية اور» ، وقد مثلت فيها مناظر الجيش والعربات الحربية ، وفى المتحف العراقى قطع نفيسة من فن التكفيت أو التطعيم بعضها ألواح لعب جميلة الصنع •

ومن الابنية المهمة التى جاءتنا من عصر فجر السلالات وزودتنا بأشياء نفيسة عن الفنون السومرية معبد وجد فى تل العبيد ، شيد الى الالهة «نن ـ خرساك» فى زمن الملك السومرى «آنيدا» ثانى ملوك سلالة اور الاولى • وقد زين هذا المعبد بنماذج من عمد الفسيفساء المصنوعة من الصدف وتماثيل من أسود مصنوعة من النحاس المسبوك ، ومن ذلك طائر مقدس يمثل عادة برأس أسد وجسم صقر وقد وقف برجليه على وعلين وهذا هو الطائر المقدس المسمى «ام ـ دوكد» الخاص بالاله « ننجرسو » وقد اتخذ شعاراً لمدينة لجش ،

---

(١) (Inlay Works)

(٢) انظر بحث المؤلف فى مجلة سومر المجلد الثانى (١٩٤٦) بالانجليزية وكذلك انظر المرجع الآتى :ـ

F.W. Galpin, **Music of the Sumerians** (1937)

وزين المعبد بأفاريز جميلة تمثل مشاهد من حياة السومريين ، حيث نجد فيها صور الابقار والاوز ، ومشهدا جميلا يمثل حلب البقر وصنع اللبن وخضه وتصفيته •

وقد زودتنا التنقيبات التى أجراها الفرنسيون فى «لجش» (تلو) بنفائس وكنوز من الفنون السومرية فى عصر فجر السلالات ، من ذلك المنحوتات الجميلة التى سبق ان أشرنا الى بعضها ، مثل « نصب النسور »[١] العائد الى «اياناتم» الذى خلد فيه انتصاره العسكرى على المدينة المجاورة المعادية «اوما» (تل جوخه الآن) وكذلك قطع أخرى من المنحوتات منها القطعة العائدة الى مؤسس سلالة لجش «اور-نانشه» وقد مثل فيهـا هذا الملك وعائلته وحاشيته • وجاءنا كذلك تمثال ، فاقد الرأس ، يمثل احد ملوك هـذه السلالة وهو «انتمينا» • وكانت العادة المتبعة فى اكثر المنحوتات العائدة الى الملوك انها تنقش بعض الكتابات لتخليد أصحابها فتذكر القابهم واعمالهم كما هو الحال فى القطع الفنية التى تعود الى أمراء لجش • وبالاضافة الى المنحوتات الجميلة من هذه المدينة فقد جاءتنا منها ايضاً نماذج قيمة من أوانى الفضة المنقوشة واسلحة النحاس والقطع الفنية المطعمة • ومن القطع الفنية من هذا العهد الوعاء الفضى العائد الى ملك لجش « انتمينا » وقد نقش على سطح الاناء بطريقة التكفيت نسر ناشر جناحيه وهذا هو الطائر الذى قلنا انه خاص بالاله «ننجرسو» وتعد صورة النسر أصل الشعارات المتخذة حتى الرمز الذى يزين شعار الولايات المتحدة ، ونذكر كذلك الكبش الذهبى المصاد فى الايكة[٢] •

لم تقتصر حضارة عصر فجر السلالات والفنون الجميلة التى نشأت فيها على مركز تلك الحضارة فى القسم الجنوبى من العراق (القسم المعروف

---

(١) او نصب العقبان (Stele of the Vultures) وهو الآن فى متحف اللوفر (باريس) •

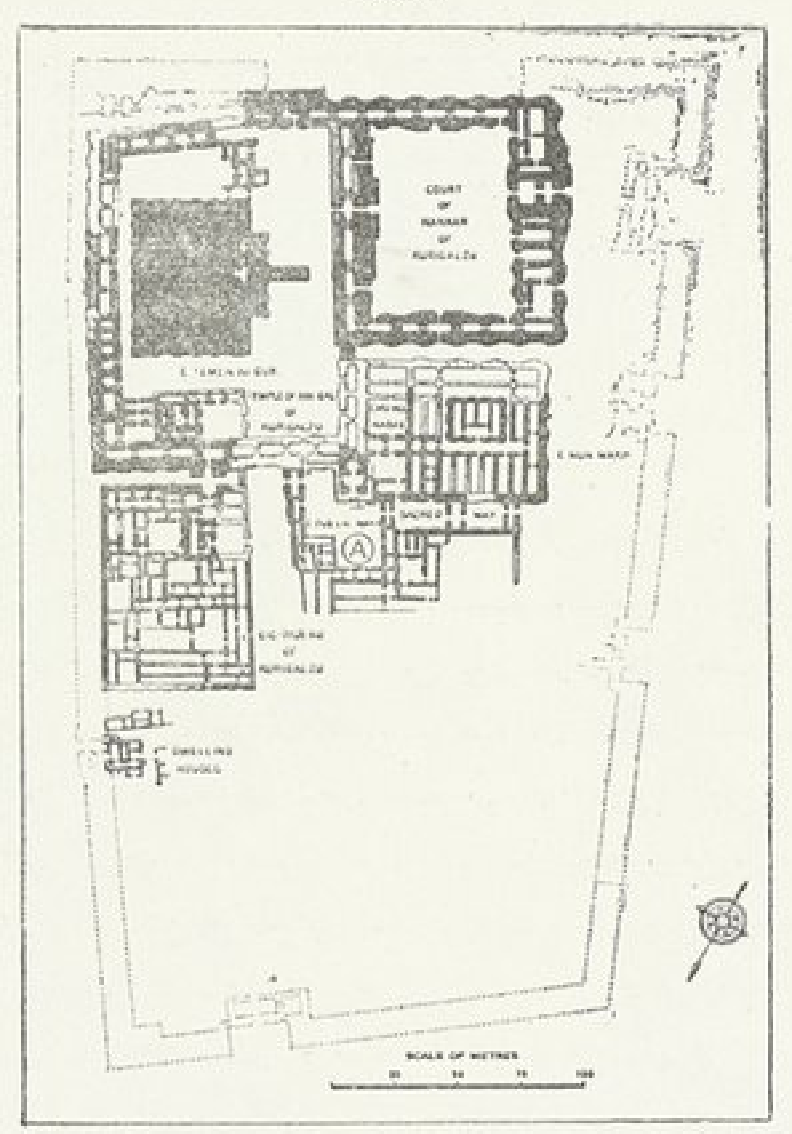
(٢) ويسمى (Ram Caught in a thicket) وقد وجد فى المقبرة الملكية فى اور (انظر (Woolley, The **Sumerian Art**)

بلاد سومر) بل انتشرت الى الشمال كما تشير الى ذلك الآثار الفنية التى وجدت فى مدينة آشور من عهد فجر السلالات ، ووجد مركز مهم للحضارة السومرية فى بلاد سورية فى المدينة الشهيرة التى تعرف بتل الحريرى الآن (مارى القديمة) ، فقد وجدت هنا آثار الحضارة السومرية ومن بينها الفنون ولا سيما المنحوتات والصرح المدرج والاختام الاسطوانية وغير ذلك من عناصر الحضارة السومرية •

الفن فى العصر الاكدى وفى العصور الاخرى :ـ

بعد أن ذكرنا بعض الاشياء العامة عن الفن فى عهد ازدهار الحضارة السومرية ، واخذنا فكرة عن الخطوط الاساسية لخصائص ذلك الفن العامة، نبدأ بذكر أشياء موجزة أخرى عن الفن فى العصور التى أعقبت عهد فجر السلالات وسوف نكتفى بذكر لمح موجزة لان البحث المسهب يتطلب الخوض فى آثار العهود التاريخية المختلفة من جهة ، ومن الجهة الثانية فان الفكرة التى أخذناها عن الفنون العراقية القديمة فى عصر فجر السلالات تكفى لفهم روح الفن فى العصور الاخرى حيث سارت على خطا الحضارة العراقية الاولى ، وقد استمرت أنواع الفنون التى ذكرناها فى العهودالتاريخية التى أعقبت عصر فجر السلالات مع ما يحدث فيها من التغير فى الطراز وفى التأكيد على بعض النواحى الفنية دون النواحى الاخرى ، ومع ما كان يحدث للفن بوجه عام من تطور وجدة او تدهور وركود بسبب الفتوح والعوامل المختلفة الاخرى كنشوء السلالات الجديدة •

فقد دخلت مثلا أشياء جديدة فى فن النحت فى العصر الاكدى الذى أعقبعصر فجر السلالات ، بحيث يصح اعتبار ظهور نزعات جديدة فيه وابرز هذه النزعات الجديدة التمثيلالحيوى القوى ، وكذلك النزعة الدنيوية والروعة الفنية مما لم يكن موجودا فى عصور فجر السلالات ، ويشاهد ذلك جليا فى «نصب النصر» العائد الى الملك الاكدى «نرام ـ سين» الذى ذكرناه فى موضع آخر من الكتاب • وأول ما يجلب الانتباه فى النحت البارز



حارة المعابد المقدسة في اور ، حيث الزقورة والمعابد المختلفة ضمن السور المقدس (لاحظ فن تخطيط المعابد في عهد سلالة اور الثالثة)

المزين به هذا النصب نوع من التحرر من قيود الفن السابقة ومحاولة الفنان رسم المناظر بحسب بعدها وقربها من المشاهد ، وهو ما يعرف بفن المنظور (Perspective) كما نشاهد قوة وحيوية في التعبير في نحت الاشخاص وقد بلغ فن النحت في عهد «نرام ـ سين» ذروته فيالابداع. ومن القطع الفنية

النادرة رأس النحاس الاكدى الشهير الذى لعله يمثـــل «نرام ـ سين» أو سرجون (انظر ص ١٢٥) • ونذكر ايضا نصا آخر لنرام سين وجد فى ديار بكر (وهو الآن فى متحف الشرق فى استانبول) ، وعثر ايضا على منحوتات فى بعض المجازات الجبلية فى شمالى العراق نخص بالذكر منهـا المنحوتة الموجودة فى المجاز الجبلى المسمى «دربندى گاوور» فى جبال قره داغ[١] •

وتنطبق نفس الميزات الفنية التى ذكرناها على فن نقش الاختام الاسطوانية حيث الدقة فى التعبير والقوة والحيوية • اما عن العمارة فى العهد الاكدى فلا يمكننا أن نقول شيئا عنها لانه لما يعثر على نماذج منها ممثلة باستثناء جملة دور سكنى فى بعض المواضع القديمة كما ان الفخار لا يتميز بشىء فنى بارز •

وعلى الرغم من ظلمة العهد الكوتى الذى أعقب سقوط السلالة الاكدية ، فان السلالة السومرية التى قامت فى لجش قد حفظت لنا الكثير من مآثر الحضارة السومرية ، فى الآداب وفى النحت والفنون الاخرى ، وقد جاءتنا من احد ملوك لجش المشهورين فى ذلك العهد وهو «جودية» جملة تماثيل بالنحت المجسم تمثل الملك ، وفيها دقة فى التعبير ، ولا سيما التعبير عن ملامح الملك تعبيرا طبيعيا ، وبوسعنا أن نعد «جودية» من أقدم ملوك العالم ممن شجع الفن وأغرم به • ومما يقال عن عهد سلالة لجش الثانية انه كان عهد انتعاش فى الفن السومرى والمآثر السومرية كالآداب كما تشهد على ذلك مآثر جودية من تماثيله وكتاباته التى يعدد فيها الاشياء الفنية التى جهز بها المعابد التى جدد بناءها فى لجش • وعلى الرغم من قلة الآثار الفنية ، ولا سيما المنحوتات ، التى جاءتنا من زمن سلالة أور الثالثة فان النماذج القليلة تشير الى استمرار المآثر الفنية • ونخص بالذكر قطعة كبيرة من الحجر منحوتة بمشهد دينى يمثل الملك «اور ـ نمو» ، مؤسس السلالة وهو يقدم سكب الماء المقدس ازاء اله القمر «سين» الخاص بمدينة أور • ويتسلم الملك من الاله الاوامر المقدسة

---

(١) انظر

(C.J. Edmonds in **Geogr. Jour.,** LXV (1925), 63 ff.; S. Smith, **Early Hist. of Assyria,** 96 ff.

لتشييد الصرح المدرج فى «أور» اى الزقورة التى كانت من اعظم العمارات الفخمة فى أور • وقد سبق أن نوهنا بهذا الأثر حيث توجد منه نسخة فى المتحف العراقى وقد صور بطريقة متحركة بمرحلتين ، فالمرحلة الاولى يشاهد فيها الاله جالسا فى الحقل الاول وامامه الملك وهو يسكب الماء المقدس ويتسلم الاوامر من الاله لبناء معبده العالى وفى الحقل الاسفل نشاهد الملك وقد تسلم من الاله الاوامر ومعها أدوات البناء كالخيط والفأس والشاقول وهويسير فى طريقه لانجاز العمل •وكان عهدسلالة اور الثالثةمن أعظم عهود العراق القديم فى فن العمارة والانتاج الفنى على الرغم من قلة القطع الفنية التى جاءتنا منه ، والى كثرة الابنية التى قام بها ملوك السلالة فان آثارهم الشاهقة لا تزال قائمة فى اور الآن وبوجه خاص البرج المدرج كما وجدت بعض العمارات من عهدها كالقصر والمعبد اللذين شيدا فى تل أسمر لتقديس الملك « جميل ــ سين » (شو ــ سين)(١) •

ومن الامور العامة التى تذكر عن الفن فى عهد سلالة اور الثالثة شبه أساليبه بالعهود التالية وبوجه خاص أساليب العهد الذى سميناه بالعهد البابلى القديم ، كما لا يمكن تمييز الفن فى عهد سلالة بابل الاولى وعهد حمورابى عن فن عهد «ايسن ــ لارسه» ، وان القطع الفنية التى جاءتنا قليلة ، باستثناء فن العمارة كالمعابد التى وجدت فى مواضع ديالى مثل اشجالى وتل حرمل • وعدا مشهد النحت البارز فى مسلة شريعة حمورابى فلا يوجد عندنا نماذج لفن النحت من سلالة بابل الاولى الا قطع قلية مثل الرأس المنحوت من حجر «الغرانيت» الذى يظن أنه يمثل حمورابى نفسه •

واذا ما أتينا الى العهد الكشى فلا نجد طرازاً فنياً مميزاً خاصاً بالكشيين ، اذ الواقع ان هؤلاء كانوا بعيدين على المآثر الفنية فساروا على المآثر القديمة وكذلك تأثروا بالفنون الاخرى فى الاقطار المجاورة وبوجه خاص مصر فى عهد العمرانة ، كما انهم ساروا فى العمارة

(١) Frankfort et al, **The Gimil - Sin Temple and the Palace of the Rulers at Tell Asmar** (1940).



منحوتة بارزة تمثل الملك « آشور ـ ناصربال » وهو يصطاد
(من نمرود ـ القرن التاسع ق. م)

فى المدن القديمة مثل أور والوركاء على الاساليب السابقة تقريبا ، ووجد من العهد الكشى فى الوركاء معبدا بناه «كره انداش» للالهة عشتار (انانا) (فى حدود ١٤٤٠ ق. م) ، ووجد حديثاً فى الموضع نفسه نصب منحوت من الحجر يمثل الهة وفيه كتابة سومرية تذكر اسم الملك «نازى مرتاش»[١] كما انا نوهنا سابقا بالحفريات التى قامت بها دائرة الآثار العراقية فى عقرقوف (دور ـ كوريكالزو)[٢] حيث كشف عن المعابد وعن جزء من قصور المدينة ووجدت بعض القطع الفنية التى أنارت لنا جانبا عن الفن فى هذا العهد ، ومن ذلك فن العمارة حيث ظهر ان تخطيط القصور فيه شبه كبير بالقصور الحثية فى شرقى الاناضول[٣] ، ولعل الشىء المميز فى الفن الكشى الذى لم

(١) اكتشفت هذا الاثر بعثة التنقيبات الالمانية عام ١٩٥٥ وهو الآن معروض فى المتحف العراقى .

(٢) انظر تقارير للمؤلف بالانجليزية عن نتائج التنقيبات فى :
Iraq, Supplement, 1944, 1945, 1945

(٣) يعرف هذا الطراز من العمارة الخاص بالقصور باسم « بيت ـ خلانى » وقد قلده الاشوريون انظر حول ذلك :ـ
(1) Frankfort **The Art and Architecture of the Ancient Orient**

يكن معروفاً قبل ذلك جدران الآجر المنحوتة بأشـــكال ناتئة معمولة من الآجر ، وقد وجدت لذلك نماذج في الوركاء (من عهد كره انداش) وكذلك في عقرقوف • وقد طبق هذا النوع من فن العمارة من بعد نحو الف عام في بابل (في العهد البابلي الاخير) ، كما ان الكشيين استعملوا في تزيين جدران قصورهم طريقة نقشها برسوم آدمية وهندسية ونباتية كما وجد ذلك في عقرقوف وكانت هذه العادة موجودة سابقا ولا سيما في القصور التي عثر عليها في مدينة ماري (تل الحريري) وهي القصور التي دمرها حمورابي[١]، ويمكن عد الصور الجدارية التي وجدت في منطقــة القصور في عقرقوف تقليدا للنحت الاشوري البارز الذي كان يزين قصور الملوك الاشوريين • واشتهر العهد الكشي ايضا بالمنحوتات البارزة الموجودة في احجار الحدود وهي الامثلة الوحيدة على فن النحت الكشي • ووجدت كسر من منحوتات ضخمة من حجر الديوريت احدها تمثال الملك كوريكالزو في عقرقوف في التنقيبات التي قامت بها مديرية الآثار العراقية ، كما وجدت مجموعة من صور الطين التي تمتاز بالحيوية ودقة التعبير ، ووجدت أيضا في الموضع نفسه قطع فنية من صياغة الذهب النفيسة •

ومما يقال عن فن العمارة في العصور التأريخية التي أعقبت عصر فجر السلالات جسامة العمارات وضخامتها بالقياس الى العصور السابقة • فمن ذلك الابراج المدرجة الشاهقة أي الصروح المدرجة (الزقورات) التي كانت افخم الابنية التذكارية العامة فبعد ان كانت هذه العمارات بسيطة مكونة من طبقتين فوقهمامعبد صغير فيأواخر عصور ماقبل التأريخ ، أصبحتفيالعصور التالية مكونة من عدة طبقات ضخمة ، واتسع حجمها وزاد ارتفاعها وكثر عددها في المدن المهمة • ومثل ذلك يقال في المعابد التي كانوا يشيدونها في الارض قرب «الزقورة» فبعد ان كانت صغـيرة بســيطة في عصــور فجر السلالات اتسعت في العصور التالية وتعقدت واصبحت مكونة من مرافـق

---

(١) انظر مجلة Syria, XVIII (1937)

كثيرة معقدة والحقت بها بنايات خاصة مقدسة كثيرة للكهنة والكاهنات ولحفظ السجلات وللتدريس والتدوين ، ونشاهد الاتجاه الى الضخامة والاتساع فى الابنية المخصصة الى الملوك ، أى القصور الواسعة كما أبانت التنقيبات التى أجريت فى المدن المختلفة ، ووصلت تلك الضخامة أوجها فى عهود الآشوريين الاخيرة حيث بلغت سعة قصورهم الالوف الكثيرة من الامتار المربعة وتعددت مرافقها ، وزينت بمئات الاميال من ألواح الحجر المنحوتة بالمناظر والمشاهد المختلفة التى تمثل نواحى متعددة من حياة الملوك وحملاتهم الحربية ومشاهد دينية •

الفن الاشــورى :ــ

مما يذكر عن تأريخ نشوء الفن الاشورى وتطوره اننا نستطيع أن نعين زمن ولادته فى القرن الرابع عشر ق • م ، منذ أن استقلت بلاد آشور وقوى كيانها بعد ان ضعفت الامبراطورية المصرية والحثية ، اما ما قبل هذا العهد (فى العهد الاشورى القديم) فكان الفن الاشورى مقتبسا كليا تقريبا من الفن البابلى فى الجنوب ، ولكن منذ القرن الرابع عشر (أى منذ العهد الاشورى الوسيط) بدأ يتميز بشخصيته وميزاته الخاصة ليس فى طرازه وأساليبه بل فى مواضيعه ، ولا سيما المواضيع الدنيوية لشؤون الدولة واعمال الملوك • أما فى المواضيع الدينية فقد حافظ على المآثر القديمة • وبوسعنا الوقوف على الخصائص المميزة فى الفن الاشورى منذ زمن الملك «توكلتى ـ ننورتاه الاول (١٢٥٠–١٢١٠ ق • م) مثل المشــاهد المنحوتة التى تمثل الشؤون العسكرية كالملك مع جنوده والعربات الحربية ، ومثل استعمال الآجر المزجج ، وهو طراز استعمل أخيرا فى بابل فى العصور المتأخرة ومثل استعمال رمز «الشجرة المقدسة» فى الفن ، واخذ الفن الاشورى طابعه الخاص أخيرا فى العهد الاشورى الحديث او الاخير (١٠٠٠ ق • م ـ ٦١٢ ق •م) ، حيث مثلت مشاهد الحروب والشؤون الملكية الاخرى مما كان يزين قصور الملوك ، وفيها التفصيلات المتنوعة عن غزوات الملوك ومشاهد صيدهم ودكهم للمدن

والحصون وتهجير السكان وسوق الاسرى والتمثيل بهم وقاطرات العربات والدبابات الحربية ، وبوسعنا ان نقرأ فيها تطور أساليب القتال وآلات الحرب والاسلحة • ويمكننا درس الفن الاشورى فى هذا العهد بتقسيمه الى ثلاث فترات ممثلة بالنسبة الى الملوك المشهورين فالطور الاول يمثله عهد الملك «اشور ناصربال» الثانى (٨٨٣ ـ ٨٢٤ ق • م) وعهد ابنه شيلمنصر الثالث حيث جاءتنا منهما قطع فنية ممثلة مما كان معروفا سابقا وكذلك من التنقيبات الحديثة التى تمت فى نمرود (كالح القديمة) والطور الثانى يشمل النصف الثانى من القرن الثامن ق • م ويمثله خير تمثيل عهد الملك تجلاتبليزر الثالث وشيلمنصر الخامس وسرجون (٧٤٢ ـ ٧٠٥ ق • م) ، ويمثل الطور الثالث حكم سنحاريب واشور بانيبال[١] •

وأغرم الآشوريون بنحت التماثيل الضخمة من الحجر ، بعضها يمثل أشخاصا من بينهم الملوك أنفسهم وبعضها يمثل الحيوانات الضخمة ولا سيما الثيران المجنحة التى بلغت زنة بعضها أربعين طنآ• وكانت هذه حيوانات مركبة، رؤوسها رؤوس بشر واجسامها أجسام ثيران أو أسود مجنحة ، وهى عندهم من نوع «الملاك» الحارس وكانوا يضعونها فى مداخل القصور ومداخل المدن • وقد وجدت منها نماذج كثيرة فى «نينوى» فى مداخل المدينة المقدسة وفى خرسباد ، وهى المدينة التى شيدها الملك سرجون الثانى لتكون عاصمة له • وقد نقب فى هذه المدينة فى منتصف القرن الماضى كل من «بوتا» (Bota) و «بلاس» (Place) من متحف اللوفر فى باريس فوصلا الى نتائج مهمة ، اذ كشفا عن المدينة وما فيها من فن العمارة الراقى والمنحوتات المجسمة والبارزة التى زينت بها مدينة سرجون •

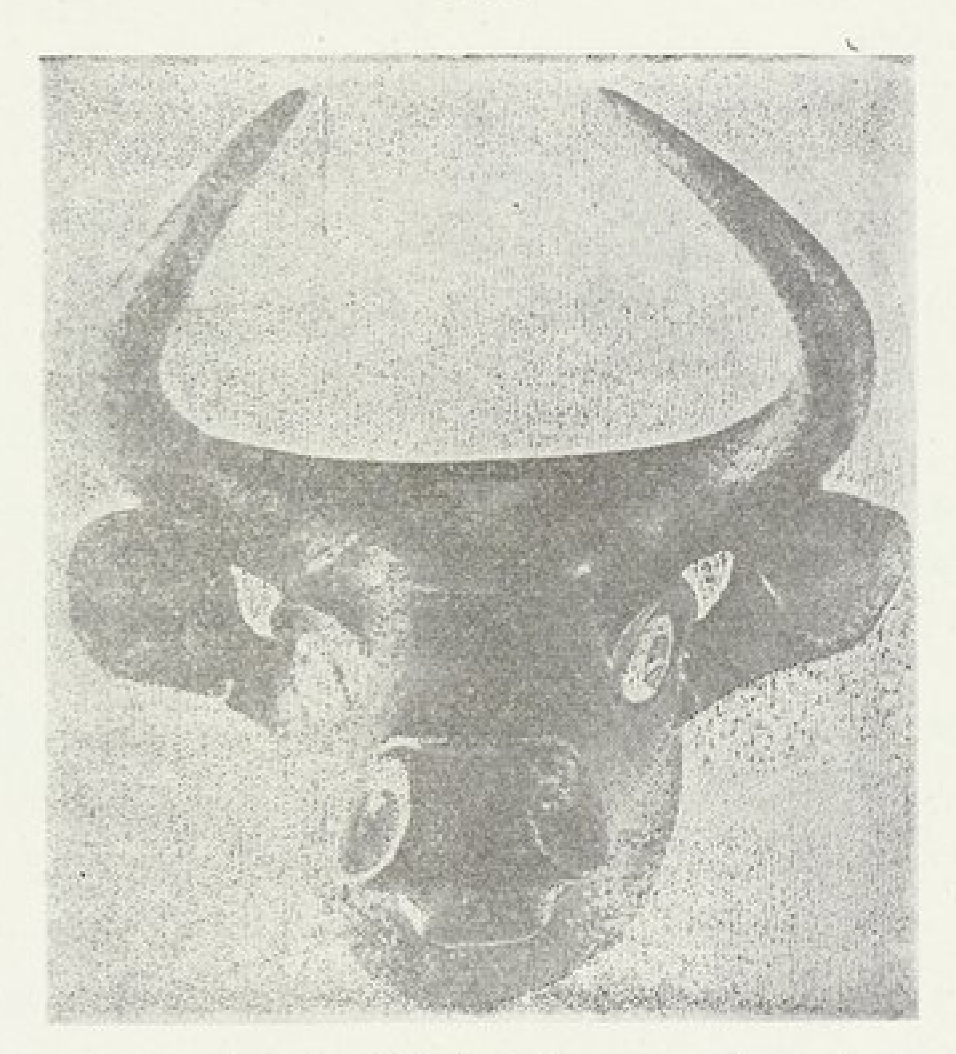
وقد كشف فى قصر سرجون عن نماذج أخرى من الفنون من بينها الآجر المزين بالميناء الملونة وقد صورت بطريقة المينا الملونة صور مختلفة على

---

(١) انظر احدث البحوث فى الموضوع فى المرجع الآتى :ـ
Frankfort, **The Art and Architecture of the Ancient Orient** (1954)

غرار ما وجد فى جدران باب عشتار فى بابل من زمن نبوخذ نصر الثانى •
وجاءتنا نماذج أخرى من الآجر المزجج بالمينا من العهد الآشورى الحديث صور
فى بعضها رسوم أشخاص تعد قطعا ممتازة • كما وجدت فى قصر سرجون
نماذج من صور كانت تزين جدران القصر الملكى • وقد أخبرنا «سرجون»
فى كتاباته الرسمية انه استعمل فى تزيين قصره «الذهب والفضة والنحاس
وحجر الرمل الاحمر وحجر «البريجه» والرخام والعاج وخشب الاسفندان
والبقس والتوت والارز والسرو والصنوبر والزيتون والبلوط» وزينه من
الداخل بالمينا الزاهية المموهة بها ألواح الآجر المزججة وطليت السقوف
بطلاء أبيض من «البورق» ونصب قرب الابواب تماثيل ضخمـة من المرمر
والعاج تمثل بقرا تحمل ما يشبه كؤوس الازهار التى تستند اليها الاعمدة •
وقد سبكت تماثيل كثيرة من الاسود والثيران من البرونز •

وقد اشتهر سنحاريب بن سرجون ، كما ذكرنا فى تأريخ الآشوريين،
بذوق مدنى وفنى حفزه على تجميل العاصمة نينوى • وعمد الى جلب المياه الصافية
لشرب المدينة من موضع شمال نينوى قرب منبع نهر الكومل من مضيق جبلى
فى (بافيان) فبنى لجلب المياه قناة مبلطة طولها خمســون ميلا ، وقــد ربط
الوديان العميقة بقناطر من الحجارة البيضاء لجريان الماء • وقد نحت عنـد
المنبع على وجه الحجر الشاهق صورا كبيرة للآلهة وسجل فيهـا أعماله
العظيمة • وشرع فى بداية حكمه بتجديد بنايات العاصمـة المعظمـة نينوى
لتليق بأن تكون عاصمة الامبراطورية الواســعة فى زمنه • وقد صور لنـا
سنحاريب تشييد البنايات الضخمة ولا سيما قصره فى منحوتات ذلك القصر
فنشاهد فيها مئات الالوف من العمال ، وكان أغلبهم اسرى وهـم يقلعون
الطين لعمل الملايين من اللبن لانشاء مبانيه • وقد وجد المنقبون فى قصـر
آشور بانيبال قطعا من المنحوتات البارزة التى يعد بعضها من القطع الخالدة
فى تأريخ الفن كالاســد الجريح واللبؤة المحتضرة ومشاهد صيد الخيـل
الوحشيــــة •



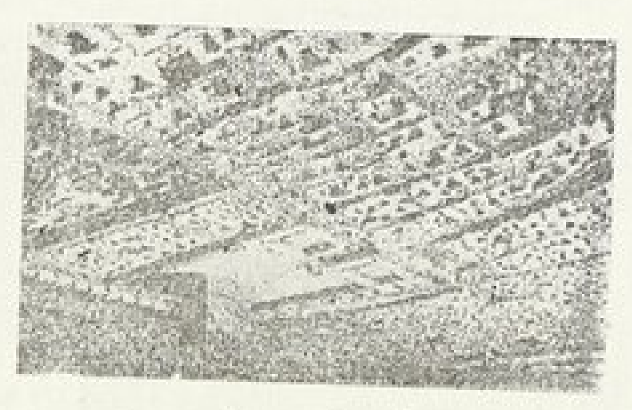
نموذج من الفن من عصر فجر السلالات وتمثل الصورة راس ثور مسبوك من النحاس وقد طعمت عيناه بالصدف

ومثل ذلك يقال عن الابنية الفخمة التي شيدت في بابل ولاسيما الابنية التي اقامها الملك الشهير «نبوخذنصر الثاني»، نذكر من ذلك قصره الفخم الذي كان مؤلفا من عمارات كثيرة تتمركز حول أربع ساحات كبيرة ، بلغت احداها المسماة بقاعة العرش ٥٢ × ١٧ مترا ، وقد وجد فيها في نهايتها ما يشبه المحراب على طراز محاريب المعابد وهو موضع عرش الملك • وقد بلغ ثخن الجدران نحو ٥ أمتار وطليت بالصبغ الابيض وزينت جدران الساحة بالآجر المزين



اناء نذرى منحوت من الحجر يمثل موكب الهة وكهنة يحملون القرابين
(وجد فى الوركاء من بقايا جمدة نصر ولكن يرجح انه يعود الى
عصر الوركاء فى حدود ٣٥٠٠ ق ٠ م)

بالميناء وفيها العمد المزينة (وتبلغ مساحة القصر نحو ٦٠٠ × ٩٠٠ قدما) ٠
ووجد فى الزاوية الشمالية الشرقية من القصر الجنوبى بناء ضخم قوامه
اربع عشرة حجرة معقودة ، كل سبعة منها على جانب من رواق بين الصفين
من هذه الحجرات ، ووجدت فى هذا البناء آثار آبار ، ويرجح أن يكون هذا
البناء هو موضع «الجنائن المعلقة» التى عدها الاغريق من عجائب الدنيا ٠



صورة أهم المواضع فى مدينة
بابل ولا سيما حارة المعابد

ويتألف السور الخارجى لمدينة بابل من ثلاثة جدران ضخمة أولها مشيد من الآجر المبنى بالزفت وثخنه ٧٫٨١ مترا ويليه خندق من الماء ثم جدار آخر ثخنه ٣٫٥٢ مترا وبعد مسافة نحو ١١ متر يأتى الجدار الداخلى المبنى من اللبن وثخنه نحو (٧) أمتار • ولعل أروع بناء لا تزال آثاره ماثلة فى خرائب بابل باب عشتار المشهور الذى شيده نبوخذ نصر الثانى ، وكان شارع الموكب يمر من هذا الباب الضخم • وقد زينت جدران الباب بحيوانات مصنوعة من الآجر المزين بالميناء بألوان زاهية على طراز ما وجد فى القصور الآشورية من العهد الآشورى الاخير •

واذا كنا لا نستطيع ان نسهب فى القول عن الاوجه المختلفة للفنون فى حضارة العراق القديم فاننا نختتم بحثنا بايراد بعض الملاحظات العامة مما يصدق على الفن فى حضارة وادى الرافدين ووادى النيل •

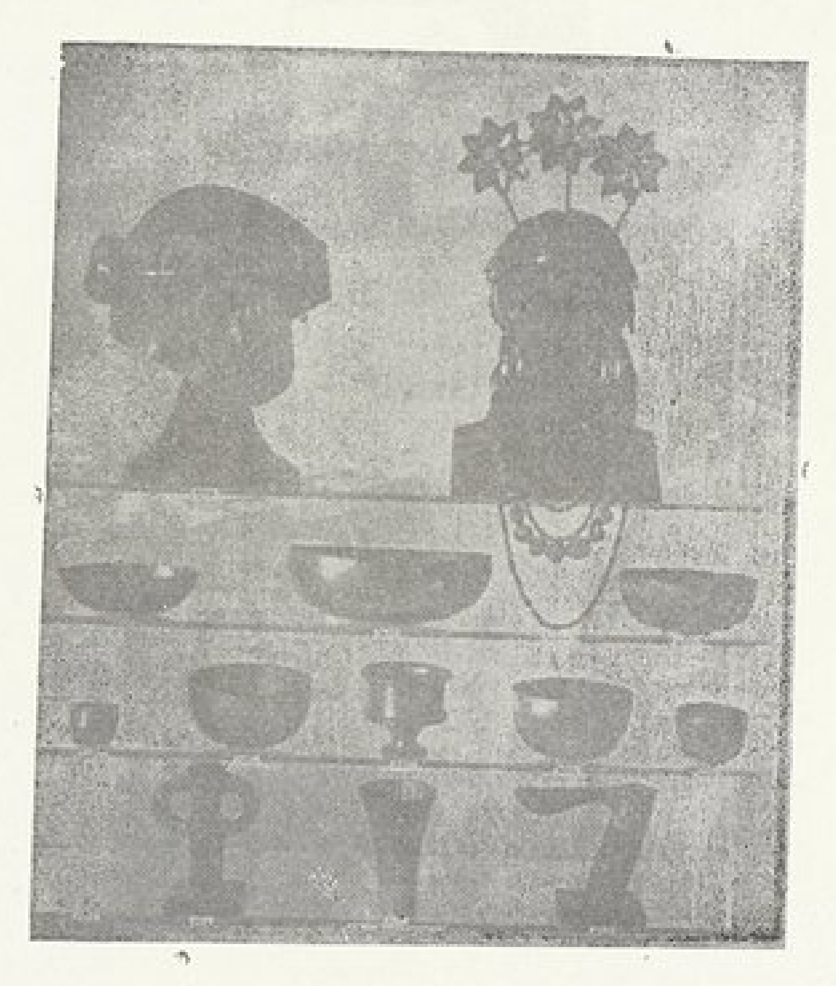
فأول ما يجب على الباحث ان يلاحظه عن الفن فى هاتين الحضارتين هو الزمن الطويل الذى عاشته كل منهما ، ويزيد ذلك على ثلاثة آلاف عام •وقد جاءتنا من عهودهما المختلفة نماذج من الفن من فروعه المختلفة • وللفن فى هاتين الحضارتين خطورة خاصة فى التراث البشرى بالنسبة الى فنون



أسد بابل الشهير الذي وجد في قصر نبوخذ نصر الشمالي . وعلى
الرغم من شهرة هذا الاثر فانه مجهول المغزى والاصل والعهد
الذي يرجع اليه بوجه التاكيد . ولعله من الغنائم الحربية
التي جلبها نبوخذ نصر من الخارج

الحضارات الاخرى . فمثلا نجد الباحثين الثقات في الفن اليوناني يؤكدون القول ان اليونان لم يبدأوا بنتاجهم الفني الراقي الا بعد ان اتصلوا بحضارة مصر وحضارة العراق . وملخص القول فان لفن هاتين الحضارتين فضل السبق والبدء .

ومن الامور العامة التي تذكر ما نجده من الوهم والضلال الشائعين ، من ان الطابع الغالب في هاتين الحضارتين ، ومن ذلك الفن طبعا ، هو السير والاطراد على وتيرة واحد أو الجمود بدون تغيير وتطور . وهذا من قبيل وصف بعض الغربيين للشرق «بالشرق الذي لا يتبدل ، واذ كنا لا نستطيع ان نبحث في أصل هذا الوهم ، فنكتفي بأن نقول ان جميع الحقائق التي نعرفها عن حضارات العراق ومصر وجميع ما نعرفه عن الفن فيهما يناقض هذا الرأي المضلل.انما الذي يصح قوله هو ان لكل حضارة روحاً تميزها أو كما يقول «شبنكلر» لها نغم أو لحن هو جزء من موسيقى الحياة .



مجموعة نفيسة من الادوات الذهبية التى وجدت فى المقابر الملكية فى اور (عن المتحف العراقى)

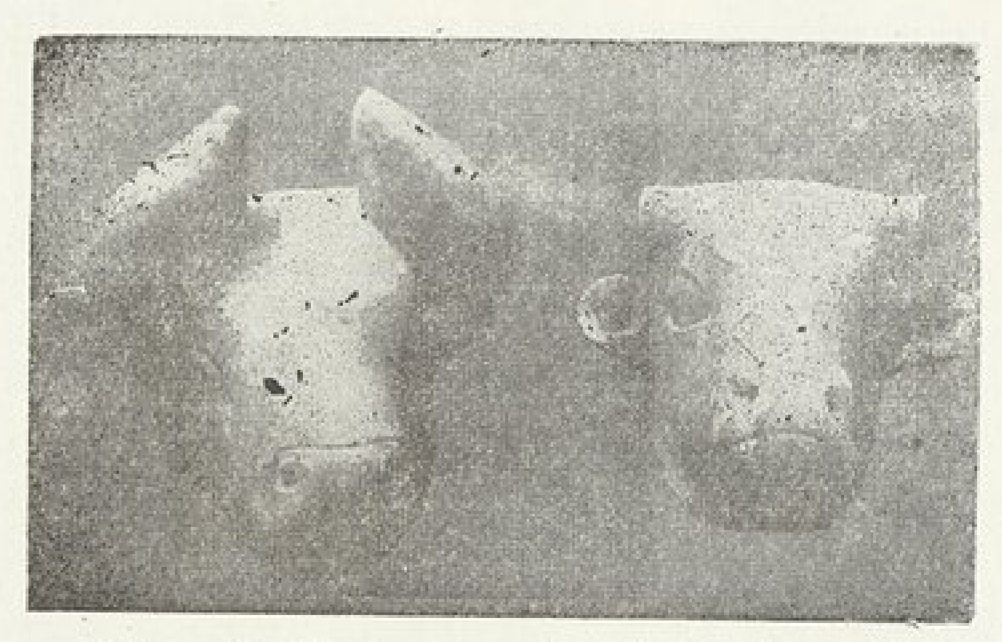
فيظهر الفن وهو متصف بتلك الروح العامة ومعبر عن ذلك النغم الخاص وكأنه ثابت لا يتغير .

ومما يجدر ذكره كذلك عن الفن فى كلتا الحضارتين هو انه لكى نستطيع ان ندرك النتاج الفنى فيهما ونقدره على الوجه الصحيح يجب علينا ان ندرسه بنفسه وعلى ضوء الروح العامة للحضارة التى هو جزء منها ، فلا نقيسه بعرف الفن الحديث ولا نقيسه ايضا، كما كان يفعل الاوربيون الى زمن



كاهن أو حاكم سومرى من عصر فجر السلالات الثانى (٢٨٠٠ ق٠م)

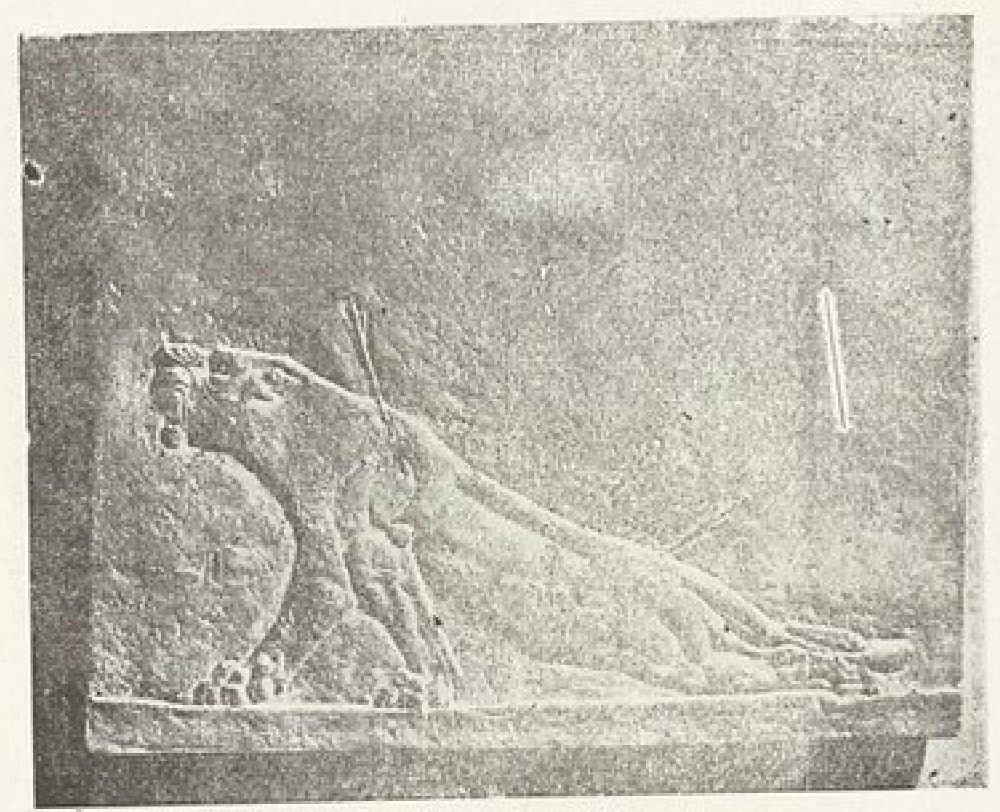
حديث ، على فن آخر نتخذه معياراً للجودة والسمو (كالفن اليونانى) ، سواء أكان ذلك من ناحية الحوافز أم من ناحية الاساليب الفنية: ولتوضيح ذلك نسوق المثل الآتى: وهو اننا نعرف ان هناك اسلوبين اساسيين لتمثيل الاجسام ذات الابعاد الثلاثة فى السطح المستوى : فالاسلوب الاول طريقة فن المنظور (Perspective) ، وهى الطريقة التى شاعت فى الازمان الحديثة وبموجبها تصور الاجسام المرئية كما تبدو لعين الرائى فى الفراغ ، وأما الاسلوب الثانى فهو الطريقة الهندسية • وهى على النقيض من الاولى تمثل الاجسام المجسمة كما هى ، لا كما تبدو للرائى • وبالنظر لشيوع فن المنظور فى العصور الحديثة صرنا كثيراً ما نحكم على الفن الذى لا يستعملها على انه فن ساذج لا يستحق ان يعد من الفنون الراقية ونجد مثل هذا الحكم الخاطىء على فن التصوير ، فى كل من حضارتى العراق ومصر القديمتين حيث لا نجد فيهما أسلوب المنظور وانما نشأ هذا الاسلوب على ما نعلم لاول



نماذج من المنحوتات المجسمة من عصور فجر السلالات • لاحظ قوة التعبير والحيوية في التمثيل مما يميز تمثيل الحيوانات
(عن المتحف العراقي)

مرة في حضارة اليونان • ولذلك فنحن لا نستطيع أن نقدر نفائس كثيرة من ذلك الفن ان نحن التزمنا بهذه المعايير الحديثة وجعلناها مقاييس مطلقة للحكم على فن الرسم في جميع الادوار • واذا نظرنا الى فن النحت في حضارتي العراق ومصر وجدنا ان الفنان قد وفق غاية التوفيق في التمثيل الواقعي • وهنا لا نستطيع ان نعزو هذه الجودة الى ان فن النحت اسهل من التصوير باعتبار ان النحت مجسم يمثل الابعاد الثلاثة •

واذا نظرنا الى الفن في حضارتي مصر والعراق على انه جزء لا يتجزأ من هاتين الحضارتين ودرسناه على ضوء الروح العامة لكل منهما فهمنا ذلك الفن فهما صحيحا ونجونا من التورط بأحكام خاطئة كقول البعض مثلا ان الفن في الحضارة المصرية اقتصر على الاموات وعبادة الاموات من الفراعنة مستدلين على ذلك بان جميع ما جاءنا من نماذج الفن المصري انما وجدت في



نحت بارز يمثل لبوة جريحة ، ويعد من القطع الفنية الخالدة (من قصر اشور بانيبال فى نينوى ، من القرن السابع ق ٠ م)

المقابر ٠ هذا صحيح ، ولكن اذا كان نتاج الفن قد شغل مثل تلك المكانة السامية فى عبادة الاموات ، أفليس هذا برهانا قاطعا على أهمية الفن فى حياة الناس ؟ فلو وجدنا مثلا مشهدا من حياة الريف المصرى منقوشا فى جدران أحد القبور ، فلا يقتصر معنى ذلك على الرغبة فى تصوير منظر مألوف للميت فى حياته الاخرى ، بل كذلك يعنى شغف هذا الميت فى حياته بالفن ، ومما لا شك فيه ان السبب لهذا الخطأ هو اغفال علاقة الفن المصرى بالحضارة التى نشأ فيها ولا سيما علاقته الوثقى بالعقائد الدينية التى طغت على تلك الحضارة ، وبوجه خاص الاعتقاد بحياة أخرى ، وهو اعتقاد واضح قوى طبع الحضارة المصرية بطابعها الخاص ٠

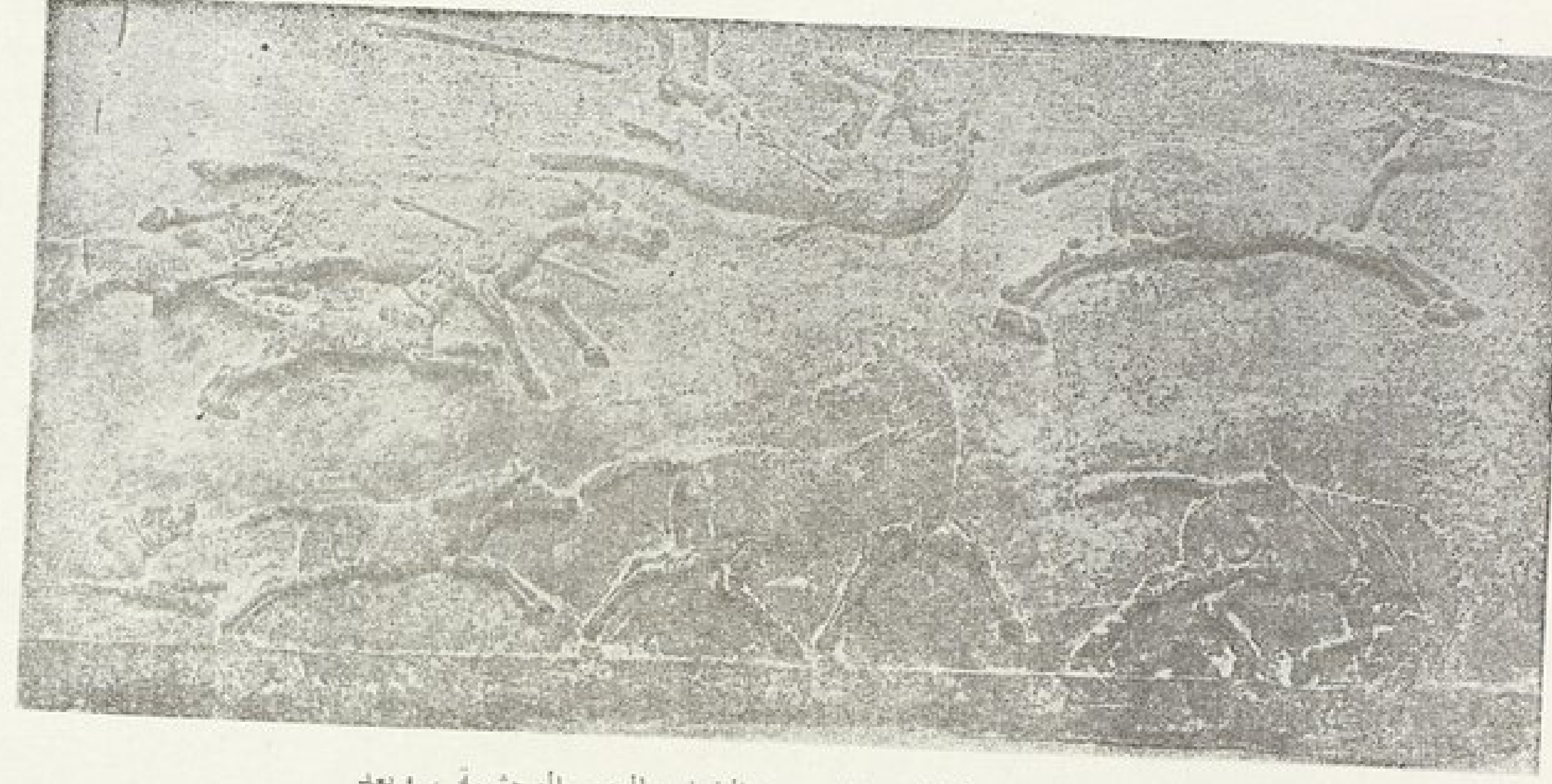


مجموعة من الفؤوس معظمها من عصور فجر السلالات والعهد الاكدي

ومما يوضح لنا العلاقة الوثقى بين الفن وبين مقومات الحضارة الاخرى ما يمتاز به الفن في حضارة مصر والعراق من التقيد والسير بموجب عرف فني أكاديمي • ومنشأ ذلك خضوع الفن الى متطلبات الدين والسياسة أي الدولة والى القيود الفنية • والدين والدولة شيئان متلازمان في هاتين الحضارتين • وبتعبير آخر كان الفن فنا رسميا وليس فنا فرديا • فلا معنى لبحثنا عن بعض الشعارات والمبادىء الحديثة في ذلك الفن كقولنا «الفن لاجل الفن» • فمثلا نجد ان فراعنة مصر استخدموا فن النحت لتخليد هيئآت أجسامهم كما استخدموا فن العمارة في تشييد اضخم عمارات في تأريخ البشر ، وهي الاهرام للمحافظة على جسد الفرعون من البلى بعد الموت • وتفردت الحضارة

الآشورية بأن ملوكها استخدموا الدعاية استخداما واسعا لا نعرف له مثيلا بين الامم الاخرى ، فاستغلوا الفن كذلك ونحت لهم النحاتون مشــاهد حروبهم وغزواتهم ودكهم الحصون والمدن وسوقهم شعوبا برمتها أسـرى وغير ذلك من المشاهد الممثلة على ألواح الحجر التى بلغت عشرات الاميال فى قاعات قصورهم وحجراتها •

ومن الطبيعى ان يسير مثل ذلك الفن الرسمى وفق قيود او عرف من الاساليب والطرق الفنية ، مما يحد من حرية الفنان • ولكن لو انعمنا النظر فى الامر الفينا ان الفنانين وجدوا ، على الرغم من قيود العرف ، مجالا للتوفيق بين تلك الاساليب المفروضة عليهم ، وبين التعبير عن شعورهم الفنى واشباع حسهم بالجمال والابداع • ومما يلاحظ بوجه عام فى فن العراق القديم انه كان اكثر حرية بالقياس الى الفن المصرى ، وانه كان اكثر منه قوة وعنفا • ومن الامثلة على الحرية او التوفيق بين العرف وبين انطلاق الفنــان ، ان الفنان فى العراق القديم اذا كان قد حرم التعبير الحر فى نحت الاجسـام الآدمية ، فانه وجد نفسه غير مقيد فى اظهار حريته الفنية فى نحت الحيوانات فقد استطاع ان يمثلها تمثيلا حرا طبيعيا • وقد خلف لنا قطعا نفيسة فى هذا الباب ، ويحق لنا ان نعد بعض هذه القطع من القطع الفنية الخالدة فى تأريخ الفنون البشرية • ووجد الفنان مجالا آخر فى حرية التعبير ، حتى فى نحت الصور الآدمية وهى التى قلنا ان قيود العرف تطغى عليها • فمع ما فرض عليه من الاسلوب الخاص فى تمثيل الاشخاص ، بأوضاع خاصة ، الا ان حرية التعبير تركت للفنان على ما يبدو للتعبير عن ملامح الوجه • وقد وفق فى ذلك توفيقا يستحق الاعجاب ، كما سبق ان نوهنا بذلك من قبل •



مشهد من النحت البارز يمثل صيد الخيل والحمر الوحشية ، ويعد
عذا النحت الاشورى من القطع الفنية الخالدة فى قوة التعبير
وتمثيل الحركة (من قصر اشور بانيبال فى نينوى القرن السابع ق . م)

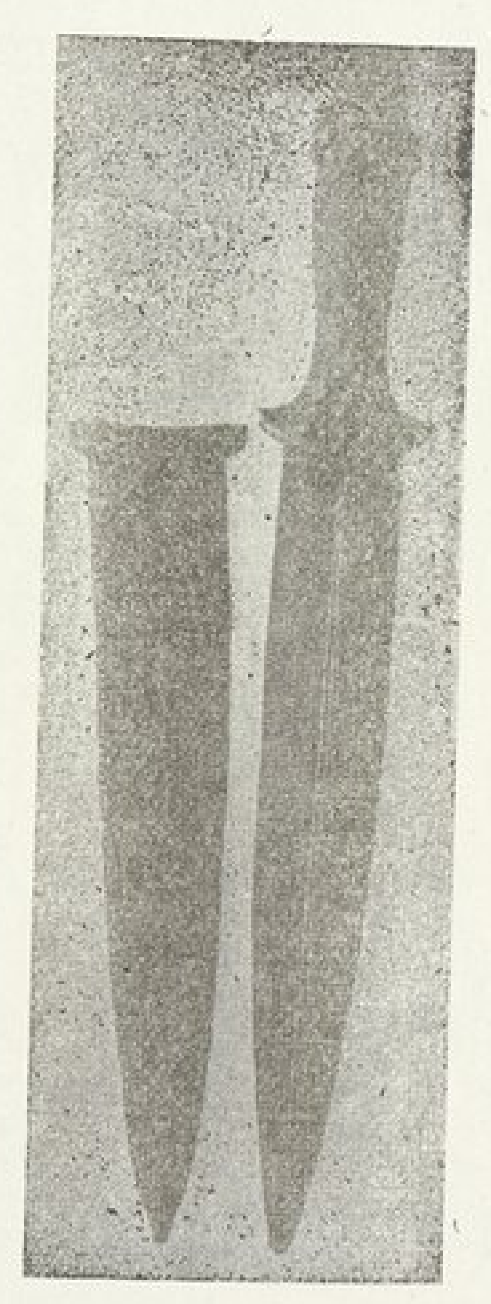


نحت بارز يمثل أسدا جريحا ، وهو مثل الشكل فى ص ٥٠٣ من
القطع الفنية الخالدة (من قصر اشور بانيبال فى نينوى
من القرن السابع ق . م)

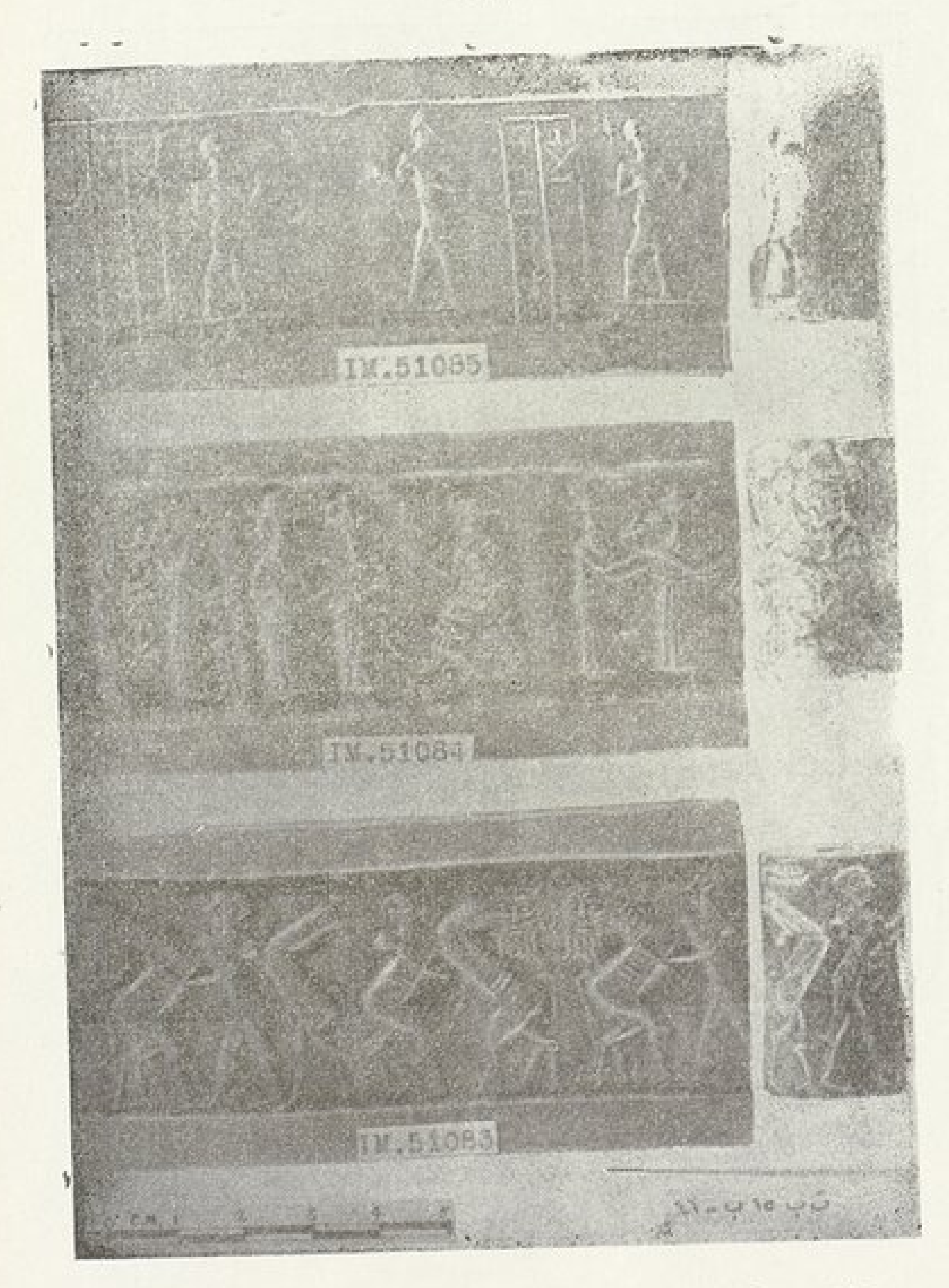


قطعة فنية نفيسة معمولة بطريقة (التكفيت) وهي تزين مقدمة
قيثارة ذهبية مما وجد في القبور الملكية في أور

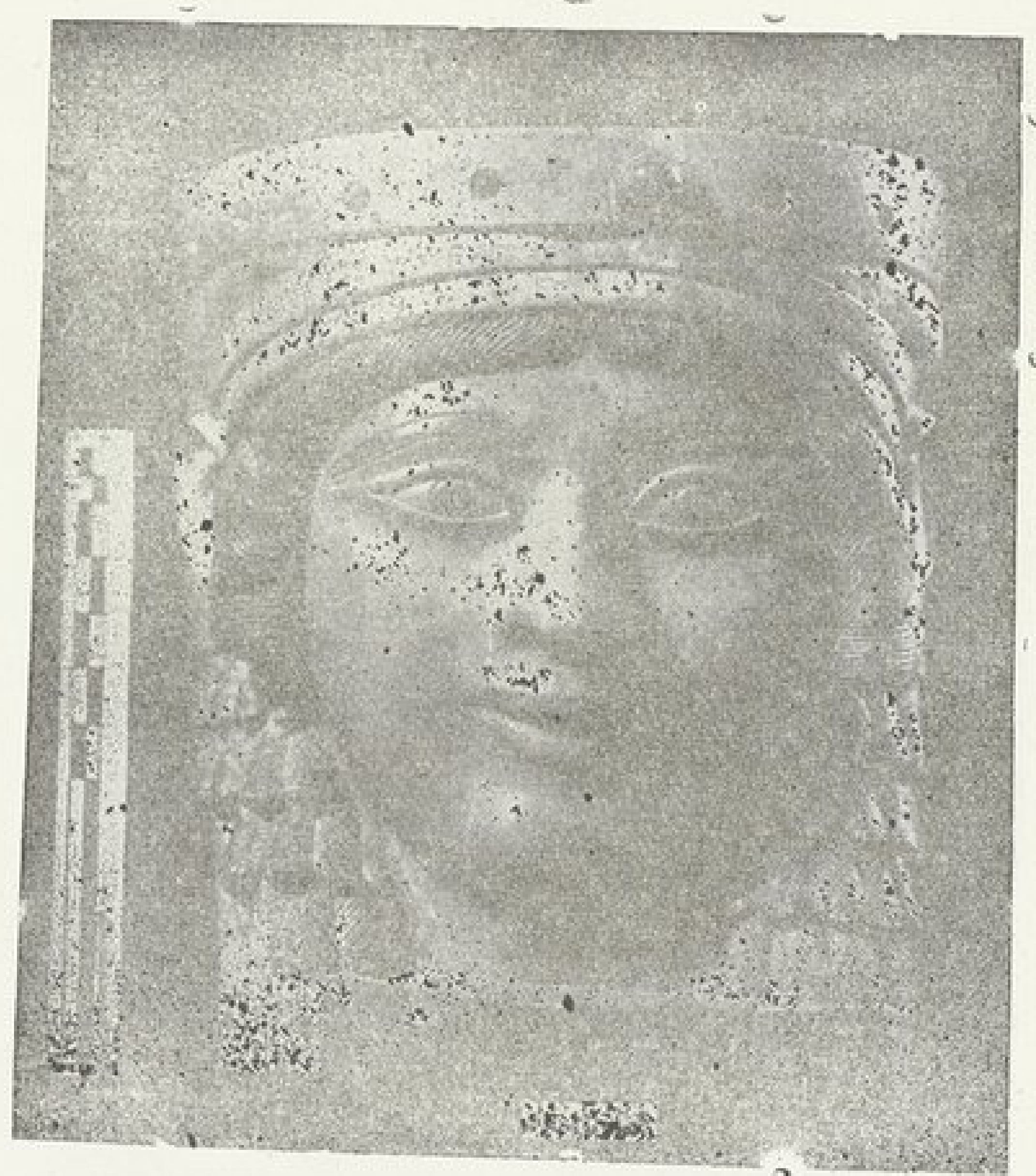
مشهد منحوت بالنحت البارز يمثل الملك اشور بانيبال فى صيد
الاسود (من نينوى من القرن السابع ق ٠ م ٠ فى المتحف البريطانى)



خنجر مصنوع من الذهب وقبضته من حجر اللازورد وغمده مصنوع
من الذهب بطريقة التخريم (من المقبرة الملكية فى أور من عصر
فجر السلالات الثالث ٢٦٠٠ ق ٠ م)



نماذج من الخواتم الاسطوانية التى امتازت بها حضارة وادي الرافدين



قطعة فنية نفيسة من العاج وجدت فى أثناء التنقيبات الحديثة (١٩٥٣)
التى قامت بها البعثة الاثرية التابعة لمعهد الآثار البريطانى
فى العراق ، فى موضع نمرود «كالح» القديمة ٠ لاحظ
دقة التعبير والصناعة الراقية فى العاج ، وقد
وجدت نماذج أخرى ثمينة من فن النحت فى العاج

مراجــــع مختــــارة

بالاضافة الى ما ذكرناه من المصادر المستشهد بها في هوامش المتن يجد القارىء في الثبت الاتي أهم واحدث مراجع في مواضيع الكتاب .

مراجع الفصل الاول

١ ـ عن التاريخ ومنهج بحثه

(1) **An Outline of Modern Knowledge** (London, 1932) ch. 19.

(2) R. G. Collingwood, **The Idea of History** (1935).

(3) Langlois & Seignbos, **An Introduction to the Study of History** (English Transl. London, 1912).

(4) Vincent, **Historical Research** (New York, 1929).

(5) Fling, **The Writing of History. An Introduction to Historical Method** (Yale, 1926).

(6) Bernheim, **Lehrbuch der Historischen Methode** (Leipzig, 1894).

(7) Shotwell, **The History of History** (Columbia Un. Press 1939).

(8) R. Flint, **History of the Philosophy of History** (1893).

(9) J. G. Droysen, **Grundriss der Historik** (Jena, 1858).

(10) **Encyclopaedia of Social Sciences** under "History", "History . Study".

٢ ـ عن كتابة التأريخ عند العرب

(11) "Theory and Practice in Historical Study" in **Social Science Research Council,** Bulletin, 54, (New York, 1946).

(12) D.S. Margolioth, **Lectures on Arabic Historians.**

(13) F. A. Rosenthal, **A Study of Moslem Historiography** (1952).

٣ ـ مصادر عربيـــة :ـ

(١٤) أسد رستم ، « مصطلح التأريخ » **(١٩٣٩)** .

(١٥) حسن عثمان «منهج البحث التأريخي » **(١٩٤٣)** .

(١٦) مقالات للدكتور حسن عثمان في مجلة الرســـالة : ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ (آب ، تشرين الاول **١٩٤١)** .

ومجلة الثقافة : ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١١ (تشرين الثاني ـ شباط ١٩٤١) .

٤ ـ عن تأريخ التنقيبات فى العراق :ـ

(17) **Reallexikon der Assyriologie,** I (Ausgrabungen).

(18) W. Budge, **Rise and Progress of Assyriology** (1925).

(19) V. Christian, **Altertumskunde des Zweistromlandes** (1940).

(20) S. Lloyd, **Foundations in the Dust** (1946).

(21) André Parrot, **Archéologie Mesopotamienne** 2 vols. (1946 — 53).

(22) G.E. Daniel, **A Hundred Years of Archaeology** (1950).

٥ ـ عن أدوار التأريخ القديم وطرق ضبطها :ـ

(23) Van der Meer, **Chronology of Western Asia** (1947).

(24) S. Smith, **Alalakh and Chronology** (1940).

(25) Ann Perkins in Ehrich, **Relative Chronology in Old World Archaeology** (Un. of Chicago Press, 1954).

(26) **Bulletin of the American Society of Oriental Research,** No. 88 (1942).

(27) F.E. Zeuner, **Dating the Past** (1946).

(28) ...., "Archaeological Dating by Radioactive Carbon" **Science Progress,** April, 1951, 225 ff.

(29) W.F. Libby, **Radioactive Carbon.**

(30) F. Jonson in **Supplement to American Antiquity** (July, 1951).

(32) Albright in BASOR, 99 (1945), 9 ff; BASOR, 126 (1952), 24 ff. ; 127 (1952), 27 ff. ; **Orientalia,** V (1948), 125 ff.

(33) Goetze in BASOR, 122 (1951), 18 ff; 127 (1952), 21 ff.

(34) E. Cavaignac in **Reveu d' Assyriologie** XL (1945-6) 17 ff.; 149 ff.

(35) A. Poebel, "The Assyrian King List from Khorsabad" in JNES, I, (1942), 247 ff; 490 ff. ; II (1943, 56 ff.

(36) Bowton in **Iraq,** VIII (1946), 94 ff; JNES X (1951), 184 ff.

(37) Weidner in **Archiv für Orientforschung,** XV (1945—1951) 85 ff.

(38) Toynbee, **A Study of History,** vol. X (1954).

الفصل الثانى

(1) Braidwood, **Prehistoric Men** (1948).

(2) J. S. Myres, **The Dawn of History.**
(3) D. A. E. Garrod, **The Palaeolithic of Southern Kurdistan** (1930).
(4) Burkitt, **Prehistory** (1924).
(5) O. Menghin, **Welt Geschichte der Steinzeit** (1939).
(6) Dorothy Davidson, **Men of the Dawn.**
(7) Childe, **What Happened in History** (1941).
(8) ...., **Man Makes Himself** (1935).
(9) ...., **New Light on the Most Ancient East** (1952).
(10 Will Durant, **Our Oriental Heritage. The Story of Civilization** (1943).

(١١) مجلة سومر مجلد (١٩٥٠ - ١٩٥١)

(12) Braidwood, **The Near East and the Foundations of Civilization** (1952).
(13) ...., **Antiquity,** XXXIV (1950), 190 ff. ; **American Jurnal of Archaeology** (1949), 50 — 1.
(14) **Journal of the Near Eastern Studies** vol. II (1943), vol. IV

مراجع الفصل الثالث

١ - مراجع عامة

(1) André Parrot, **Archeologie Mesopotamienne** 2 vils.
(2) G. Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952).
(3) A. L. Perkins, **The Comparative Archaeology of Mesopotamia** (Chicago, 1949).
(4) H. Frankfort, **The Birth of Civilization in the Ancient Near East** (1951).
(5) V. Christian, **Altertumskunde** ... (1939).
(6) Scharff & Moortgat, **Aegypten und Vorderasien.**

٢ - مراجع خاصة ، بالدرجة الاولى النشرات الصادرة عن نتائج الحفريات فى المواضع التى وجدت فيها آثار أطوار فجر الحضارة :ـ

أ - حسونة :

Sumer I, (1945), 59 ff. ; **Illustrated London News** II August, 1945, 163—165 ; **Journal of the Near Eastern Studies,** IV, 4

(1945), 255 ff. ; **Sumer,** III, 1 (1947), 26 ff. ; **Sumer,** VI, (1950) 93 ff.

ب ـ مطارة

Sumer IV (1948), 134 ff. ; **Journal of the Near Eastern Studies** (1952), 1 ff.; BASOR, 124 (1951), 12 ff., **Illustrated London News,** 15 December, 1951, 992 ff.

جـ ـ سامراء :

E. Herzfeld, **Die Ausgrabungen van Samarra,** V, Die **vorgeschichtlichen Toffereien** (Berlin, 1930). ;

Braidwood et al in **Jour. of the Near Eastern Studies** III (1944) 147 ff. ;

د ـ تل حلف :

M. F. van Oppenheim, **Tell Halaf** I. Die **Prehistorischen Funde** (Berlin, 1943).

هـ ـ الاربجية :

M.E.L. Mallowan & Rose, **Prehistoric Assyria, The Excavtions at Tall Arpachiyah** 1933 (Iraq, II, 1935, 1 ff.)

أنظر المراجع العامة حول المراجع الاخرى التى وجدت فيها آثار طور حلف وسامراء والعبيد وغيرها •

و ـ العبيد وأريدو :

R C. Thompson, **The British Museum Excavations at Abu Shahrain in Mesopotamia** (1918);

Hall in the **Proceedings of the Society of Antiquaries** XXXI (1919);

Hall, **A Season's Work at Ur, Al-'ubaid and Abu-Shahrain,** 1930.

Hall, & Woolley, **Ur Excavations** I, Al-'ubaid (1924).

F. Delougaz, in **Iraq** V, (1938), 1 ff.

ز ـ أريدو :

Sumer, III (1947), 84 ff. ; IV (1948), 115 ff; **Illustrated London News,** 31 May, 1947 ; 11 September 1948.

ح ـ الوركاء :

جملة تقارير عن مواسم الحفريات الاحد عشر (**منذ ١٩٢٨**) نشرت منذ عام ١٩٣٠ فى :

U V B, I 1930, 2 (1931) 3 (1932), 4 (1932) 5 (1934), 6 (1935), 7 (1936) 8 (1937), 9 (1938), 10 (1939), 11 (1940).

Falkenstein, Archaische Texte aus Uruk (1936).

ط ـ جمدة نصر :

Field Musum Anthropology Memoirs, I

Mackay, **Report on the Excavations at Jamdet Nasr** 1931.

الفصل الثالث والرابع

(1) G. Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952).

(2) ...., **What Happened in History** (1946).

(3) John. A. Wilson, **The Burden of Egyppt** (1950).

(4) H. Frankfort, **The Birth of Civilization** (1948).

(5) Braidwood, **The Near East and the Foundations of Civilization** (1952).

(6) **The Legacy of Egyppt** (1942).

(7) André Parrot, **Archéalogie Mésopotamienne** 2 volumes (1946 — 1953).

(8) Scharff & Moortgat, **Agyppten und Vorderasien im Altertum** (München, 1950).

(9) S. Lloyd & Fuad Safar, "Tell Hassuna" ... in JNES, IV (1945); **Sumer,** I (1945) ; vol. VI (1950), 93 ff.

(10) E. Herzfeld, **Die Ausgrabungen von Samarra** vol. V (Berlin, 1930); Braidwood et al in JNES, vol. III (1944).

(11) A.L. Perkins, **The Comparative Arachaeology of Early Mesopotamia** (1949) ; Moortgat in **Der Alte Orient** (1945).

(12) M. von Oppenheim, **Tell Half** (Berlin, 1943).

(13) M.E.L. Mallowan & Rose, **Prehistoric Assyria. Excavations**

at Tall Arpachiyah, 1933 (**Iraq** vol. II 1935).
(14) R. C. Thompson, **The British Museum Excavations at Abu Shahrain** in 1918.
(15) Woolley, **Excavations at Tell El Obeid, Antiquity Journal** IV (1924).
(16) Hall & Woolley, **Ur. Excavations, I Al-'Ubaid** (1927).
(17) **Sumer** I (1945), III (1947) P. 3, PP. 43, 84 ff., 219 ff. ; ILN, 3, May (1947) **Sumer,** IV (1948), 115 ff. vol. V (1949), 97 ff. VI (1950), 27 ff.
(18) H. De Genouillac, **Fouilles de Telloh,** I (1934), Parrot, **Tello** (1948).
(19) A. J. Tobler, **Excavations at Tepe Gawra,** II (1950).
(20) Speiser, **Excavations at Tepe Gawra.**
(21) UVB, I, (1930) 2 (1931), 3 1932) 4 (1933), 5 (1934) 6, (1935), 7 (1936), 8 (1937), 9 (1938) 10 (1939) 11 (1940).
(22) Falkenstein, **Archaische Texte aus Uruk** (1936).
(23) Field **Museum Anthropology Memoirs,** I.
(24) Mackay, **Report on the Excavations at Jemdet Nasr** (1931)
(25) Field & Martin, **Painted Pottories from Jemdet Nasr** (1935)
(26) Langdon, **Pictographic Inscriptions from Jemdet Nasr** (1928).

الفصل الخامس والسـادس

(1) Adré Parrot, **Archéologie Mésopotamienne,** 2 vols. (1946 - 1953).
(2) Jwlius Levy, "Studies in the Historic Geography of the Ancient Near East" in **Orientalia** 21 (1952), 265 ff.
(3) G. M. Lees & N. L. Falcon, "The Geographical History of the Mesopotamian Plain" in **Geographical Journal,** vol. CXVIII, Part 1, March (1952).
(4) **Cambridge Ancient History,** vol. I
(5) Frankfort et al, **Presargonic Temples** (1942).
(6) Frankfort, **Archaeology and the Sumerian Problem** (1932). 1932).
(7) André Parrot, **Archéologie Mésopotamienne,** vol. II (1953) PP. 308 ff.

(8) Gelb, **Hurrians and Subarians** (1944).
(9) E. Speiser "Hurrians and Subarians" in Jour. of Amer. Orient. Society (1948).
(10) G. Childe, **New Light on the Most Ancient East** (1952).
(11) Frankfort, **The Birth of Civilization in the Near East.**
(12) Braidwood, **The Near East and the Foundations of Civilization.**
(13) Deimel, "Die Sumerische Tempelwirtschaft ..." in **Analecta Orientalia,** II (1931).
(14) A. Schneider, **Die Sumerische Tempelstadt,** (1920).
(15) Frankfort, **Kingship and the Gods.**

مراجع عامة عن تأريخ العراق بوجه عام (من الفصل السابع فما بعد)

(1) Olmstead in **the Amer. Jour. of Sem. Lang and Lit,** vols XXXIII, 283 ff. ; XXXV, 65 ff. ; xxxvi, 120 ff ; xxxvii, 212ff; xxxviii, 73 ff.
(2) W. L. King, **Sumer and Akkad** (1910).
(3) ...., **History of Babylon.**
(4) Olmstead, **History of Assyria** (1923).
(5) S. Smith, **Early History of Assyria** (1928).
(6) **Cambridge Ancient History** (1923), vol. I—III.
(7) "Assyrien", "Babylonien" in **Reallexikon der Assyriologie,** vol. I.
(8) Lukenbill, "The Last Centuries of Babylon History in **Amer. Jour. of Sem. Languages and Litratures,** vol. 42, 280 ff.
(9) Breasted, **Ancient Times.**
(10) Hall, **Ancient History of the Near East** (1939).
(11) Will Durant, **The Story of Civilization. Our Orintal Heritage** (1942).
(12) G. Contenau, **Manuel d'Archéologie Orientale** vols. I—IV (1927 — 1947).
(13) Hrozny, **Histoire de l'Asie Antérieure** (1947).
(14) Jastrow, **The Civilization of Babylonia and Assyria** (1915).
(15) Dlaporte, **Babylonian and Assyrian Civilization** (1925).
(16) Meissner, **Babylonien und Assyrien,** 2 vols. (1920 — 24).

(18) Carelton, **Buried Empires** (1939).
(19) E. Meyre, **Geschicnte des Altertum** (1926).
(20) Scharff & Moortgat, **Egypten und Vorderasien.**
(21) Von Soden, **Der Aufsteig der Assyrerreiches** (1937).
(22) Brockelmann, **Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen.**
(23) J. W. Swain, **The Ancient world. Empires and City — States of the Ancient Orient and Greece Before 334 B.C.**
(24) Rostovitzeef, **History of the Ancient World** (1930).
(25) Olmstead, **History of the Achaemenian Empire.**

الفصل الثانى عشر والثالث عشر (الديانة)

المراجع العامة المذكورة بوجه عام ولا سيما رقم ١٥ ، ١٦ والمصادر الخاصة الآتيـــة :-

(1) E. Dhorme, **Les Religions de Babylonie et d'Assyrie** (1945).
(2) Frankfort, **Kingship and the Gods** (1948).
(3) S. H. Hooke, **Babylonian and Assyrian Religion** (1953).
(4) Frankfort, Jacobsen et al, **Intellectual Adventure of Early Man.**
..............., **Before Philosophy** (1951).
(5) Jastrow, **The Religion of Babylonia and Assyria** (1898).
(6) Frankfort, **The Problem of Similarity in Ancient Near East** (1950).
(7) Gaster, **Ritual, Myth and Drama in the Ancient Near East** (1950).
(8) K. Tallqvist, **Akkadische Götterepitheta** (1938).
(9) A. Deimel, **Pantheon Babylonicum.**
(10) L.W. King, **Babylonian Magic & Sorcery** (1896).
(11) C. Thompson, **Semitic Magic** (1908).
(12) Pallis, **The Babylonian Akitu Festival** (1926).
(14) Thureau - Dangin, **Rituels Accadiens** (1921).
(15) C.J. Gadd, **Ideas of Divine Rule in Ancient East** (Scweich Lectures, 1945).
(15) S. Langdon, **Babylonian Menologies and the Semitic Calendar** (Saveich Lectures, 1933).

(16) G. Meier, **Die Assyrische Beschwörungssammlung Maqlu** (1937).

(17) F. R. Kraus, **Die Physiognomischen Omina der Babylonier** (1935).

(18) Contenau, **La Magie chez les Assyriens et les Babyloniens** (1947).

(19) Fossey, **La Magie Assyrienne** (1902).

(20) Muller, **Das Assyricsh Ritual** (1937).

(21) E. Behrens, **Assyrische Babylonische Briefe kultischen Inhalts** (1906).

(22) R. Campbell, **The Devils and Evil Spirits of Babylonia.**

(23) E. Ebeling, **Tod und Lehen nach den Vorstellungen der Babylonier** (1931).

(24) M. Jastrow, **Die Religion Babyloniens und Assyriens** (1912).

(25) Luckenbill, **"The Temples of Babylonia and Assyria"** in AJSL, XXIV, 291 ff.

(26) Zimmern in **Zeitschrift für Assyriologie,** XXXIX (1930),

(27) Price, "Some Observations on the Financial Importance of the Temple in the I. Dynasty of Babylon", in AJSL, XXXII, 250 ff.

(28) Luckenbill, "The Temple Women", in AJSL, XXXIV, 1 ff.

(29) Frankfort et al, **The Gimil - Sin Temple.**

(30) Andrea, **Das Gotteshause,** (1930).

(31) Delougaz & Lloyd, **Pre-Sargonic Temples in the Diyala Region.**

(32) Delougaz, **The Oval Temple.**

(33) Meissner, **Bab. & Assyr.** II, 72 ff.

(34) V. Müller, in JAOS (1940), 151 ff.

(35) A. L. Oppenheim, "The Significance of the Temple in the Ancient Near East", in **Biblical Archaeology** vol. 7 (1944), 54 ff.

(36) E.D. Van Buren, "Foundation for a New Temple" **in Orientalia,** vol. 21 (No. 3), 1952), 293 ff.

(37) H. Lenzen, "Die Entwicklung der Ziggurat" in **Zéit. für Assyriologie,** vol. 48 (1944), 238 ff.

(38) Parrot, **La Tour de Babel et les Ziggurats** (1949).

الفصل الرابع عشر (الشرائع والقوانين)

(1) Driver & Miles, **The Assyrian Laws** (1935).

(2) ...., **The Babylonian Laws,** 2 vols. (1952).

(3) S. N. Kramer, "Ur — Nammu Law Code" in **Bul!t. of Un. Museum,** vol. 17, No. 2.

(4) E. Szlechter, "Apropos du Code d'Ur-Nammu" **R A,** 47 (1953), 1 ff.

(5) Steele, "Libit - Ishtar Law - Code" in **Amer Jour. of Archaeology** vol. L II (1948).

(6) Archiv Orientalni, XVIII, 1—2 (1950), 525 ff. vol. XVII (1948).

(7) Sumer, III2 (1947), IV (1948).

(8) Koschaker, "Cuneiform Laws" in **Ecyclopaedia of Social Sciences** IX, 213 ff.

(9) Harper, **The Law Code of Hammurabi.**

(10) Kohler und Ungnad, **Hammurabi's Gesetz.**

(11) Deimel, **Codex Hammurabi (1930).**

(12) W. Eilers, **Die Gesetz Stele Hammurabis** (1932).

(13) P. Gruvilhier, **Introduction au Code de Hammurabi** (1938).

(14) A. van Praag, **Droit Matrimonial Assyrio-babylonien** (1945).

(15) Schorr, **Urkunden des altbabylonischen Zivil - und Prozessrechts** (1913).

(16) M. David, **Die Adoption in altbabylonischen Recht.**

17\. A. Walther, **Das altbabylonische Gerichtswesen.**

(18) M. David & E. Ebeling, **Assyrische Rechtsurkunden.**

(19) Kohler & Ungnad, **Assyrische Rechtsurkunden.**

(20) Koschaker, **Babylonisch - Assyrisches Bürgschaftsrecht.**

(21) L. Waterman, "Business - documents of the Hammurabi Period" in AJSL, XXIX, 145 ff. ; 288 ff.

(22) Kohler & Peiser, **Aus dem Babylonischen Rechtsleben.**

(23) E. Cuq. **Études sur le droit Babylonien, les lois Assyrien et ...... les lois hittites.**

(24) W. Eilers, **Gesellschaftsformen in altbabylonischen Recht.**

(25) D. H. Müller, **Die Gesetze Hammurabis und ihr Verhaltnis zur Mosaischen Gesetzgebung** sowie zu den XII Tafeln.

(26) S. Oettli, **Das Gesetz Hammurabis und die Thora Israels.**

(27) Ebeling, **Keilschrifttexte aus Assur Jurisdischen Inhalts.**
(28) Pohl, "Neubabylonische Rechtsurkunden" in **Analecta Orientalia,** 8.

الفصل الخامس عشر (المعارف اللغوية والتأريخية والجغرافية) •

(1) J. J. Gelb, **A Study of Writing** (1952).
(2) G. Contenau, "Les Débuts de l'Ecriture Cunéiform et les Monuments figurés in **Rev. d. Etudes semt. et Baby.** 1940, 56 ff.
(3) C. R. Driver, **Semitic Writing** (Schweich Lectures 1940).
(4) R. Labat, **Manuel d'Épigraphie Akkadienne** (1952).
(5) A. David, Remarques sur l'Origin de L'écriture Sumerienne" in **Archiv Orientálni,** XVIII, No. 3 (1950).
(6) W. Wright, **Comparative Grammar of the Semitic Languages** (1890).
(8) G. Ryckmans, **Grammaire Accadienne** (1944).
(9) King, **First Step in Assyrian.**
(10) Delitzsch, **Assyrische Lesestücke.**
(11) A. Poebel, **Grundzüge Sumerischen Grammatik** (1923).
Gadd, **Sumerian Reading Book** (1924).
(12) Jestin, **Le Verbe Sumerien** (1946).
.............., **Abrégé de grammaire Sumérienne** (1951).
(13) Falkenstein, **Grammatik der Sprache Gudeas von Lagash,** 2 vols. (1949 — 1950).

حول اثبات العلامات المسمارية (Syllabaries)

(14) Luckenbill, "The Chicago Syllabary" in AJSL, XXXIII, 169 ff. **ibid.** XXXVI, 154 ff. ; XXXVIIII, 153 ff.
(15) CT (Cuneiform Texts of the Brit. Museum), vols. XI, Pls. 1—13, 14 — 28, 29—41 vol. XII, XXXV, Pls. 1—8.
(16) **Reveue d'assyriologie,** XXVIII, 117 ff. ; 147 ff.
(17) L. Matoush, **Die lexikalischen tafelserien der Babylonier und Asyrier** I-II (1933).
(18) Van der Meer, **Syllabaries A,B, from the Herbert Weld Collection (1938).**
(19) Landsberger, **Ana ittishu** (1937).

(20) Meissner "Dritte Tafel der Serie Harrahubbullum" in MVAG (1913).

(21) Landsberger, **Die Fauna des alten Mesopotamie nach der 14. Tafel der Serie HAR-RA hubullu** (Leipzig, 1934); See **also Jour. Ner East, Studies,** IV, (No. 3, 1945), 152 ff.

عن طرق تأريخ الحوادث

(22) Jacobsen, **The Sumerian King List,** 147 ff.

(23) S. Langdon, **"The Sumerian word for year and Origin of The Customs of Dating by events"** in R. A., XXXII, 13 ff.

(24) "Datenlisten" and "Eponymen" in **Reallexikon der Assyriologie,** II.

(25) A. B. Mercer, **Sumero — Babylonian Year Formulae** (1946).

(26) Van der Meer, **Chronology of Western Asia** (1947).

(27) Taha Baqir, "Date - formulae of Ishbi - Irra" in **Sumer,** IV, (1948).

............, "Date - Lists and Date - formulae from Tell Harmal" in **Sumer,** V (1949).

عن المعارف اللغوية والتأريخية والجغرافية

(28) Meissner, **Babylonien und Assyrien** II (1925) 324 ff.

(29) Jacobsen, The Sumerian King List.

(30) E. F. Weidner, "Die grosseköniglisten aus Assur" in A F O, 3 (1926), 66 ff.

(31) Kraus, "Zur Liste der âltesten Könige von Babylonien" in **Zeit. für Assyriologie** 16 (50) (1952), 29 ff.

(33) A. Poebel, "Khorsobad King - List" in **JNES** (1942).

(34) O. Schroeder, **Keilschrifttexte aus Assur Verschiedenen Inhalts,** No. 10—12, 182,26.

(35) **Mitt. der Vorderas. Gesell.,** XXVI, 2, 11 ff.

(36) **Beiträge zur Assyriologie,** II, 205 ff.

(37) **Cuneiform Texts** (in the Brit. Museum), XXXIV, 44.

(38) Rawlinson **Cuneiform Texts** II. R, 50, 53 No. 2 IV, 36, No. 1 ; Ct. XXII, 48—49.

(39) Goetze in J C S, VII, 2 (1953).

(40) W. F. Albright, "Babylonian Geographical Treatise on

Sargon of Akkad Empire" in **Jour. of Amer. Orient. Soc.** vol. (45), 193 ff.

(41) Thompson J. Oliver, **History of Ancient Geography** (1948).

(42) L. W. King, **Chronicles Concerning Early Kings of Babylonia.**

الفصل السادس عشر (العلوم الرياضية والطبيعية)

(1) E. T. Bell, **The Development of Mathematics** (1945).

(2) Thureau - Dangin, **Mathématiques Babyloniens** (1938).

(3) O. Neugebauer, **Mathematische Keilschrifttexte** 3 vols.

(4) O. Neugebauer & A. Sachs, **Mathematical Cuniform Texts** (1945).

(5) Neugebauer, **The Exact Seiences in Antiquity** (1950).

(6) Hilprecht, **Mathematical, Metrological and Chronological Tablets.**

(7) Barton, "On the Babylonian Origin of Plato's Nuptial Number" in **Jour. of Amer. Orient Soc.** 29, 210 ff.

(8) Thureau - Dangin in **Revue d'Assyriologie,** XXIX, 1 ff., 22 ff., 59 ff. XXV, 115 ff., XXVI, 43 ff., xxxi, 61 ff., xxxii, 188 ff., xxviii, 195 ff.,

(9) H. Lewy, "Studies in Assyrio-Babylonian Mathematics" in **Orientalia,** 18 (1949), 40 ff.

(10) Taha Baqir in **Sumer,** VI, 1—2 (1950), VII, (1951).

(11) Drenkhahn in ZA, 16, (50) (1952) 151 ff.

(12) Bruins in **Sumer,** VIII, IX

(13) P. Luckey, "Beitrage zur Erforschung der Islamischen Mathematik", **Orientalia,** 22, No. 2 (1953, 166 ff.

(14) Van der Waerden, "Babylonian Astronomy" in JNES, vol. x (1951), 20 ff.

(15) CT, XXXIII, Pls. 1—9, 10—12.

(16) Thureau - Dangin in **RA,** XXVIII, 85 ff.

(17) O. Neugebauer, "The History of Ancient Astronomy-Problems and Methods" in **JNES,** IV (1945), 1 ff.

(18) O. Neugebauer in **Jour. of the Cuneiform Studies,** II - 3

(19) A. Sachs in **ibid.** VI, No. 4, 146 ff.

(20) A-T-Olmstead in AJSL, LV (1938), 113 ff.

(21) R.C. Thompson, **Assyrian Herbal** (1924).
(22) ...., **Dictionary of Assyrian Botany** (1949).
(23) ...., **Dictionary of Assyrian Chemistry and Geology.**
(24) Gadd, & R. C. Thompson, "A middle - Babylonian Chemical Text" in **Iraq,** III, 87 ff.
(25) G. Contenau, **La Médecine en Assyrie et en Babylonie** (1938).
(26) Küchler, **Assyr. Bab. Medizin.**
(27) Lutz in AJSL, XXXVI, P. 67 ff. ... ...
(28) R. C. Thompson, **Assyrian Medical Texts** (1923).
(29) Meissner, **Babylonien und Assyrien,** II, 28 ff.
(30) Fossey in **Reveue d'Assyriologie,** 40 (1945-6), 109 ff. 113ff.
(31) S.H. Ernest, **A History of Medicine.**

الفصل السابع عشر (الدولة والمجتمع) (تنظر المراجع الخاصة بالشرائع والتاريخ العام) •

(1) H. Frankfort, **Kingship and the Gods** (1948).
(2) R. Labat, **Le Caractère religieux de la Royauté Assyro - Babylonienne** (1939).
(3) C. J. Gadd, **Ideas of Divine Rule in the Ancient East** (Schwich Lectures, 1945).
(4) Miessner, **Babylonien und Assyrien,** vol. I
(5) Jacobsen, "Primitive Democry in Ancient Mesopotamia" in JNES, II (1943), 159 ff.
(6) I, Engnell, **Studies in Divine Kingship in the Ancient Near East** (1943).
(7) E. D. van Buren, "The Sacred Marriage in Early Times in Mesopotamia", **Orientalia,** XIII (1944).
(8) Luckenbill, **Ancient Records of Assyria.**
(9) E.D. van Buren, "Homage to a Deified King" in **ZA,** 16 (50) 1952, 92 ff.
(10) G. Contenau, **Everyday Life in Babylon and Assyria** (1954).
(11) L. J. Heuzey, **Histoire du Costume dans l'Antiquité Egypte, Mesopotamie (Paris, 1935).**
(12) Mendelsohen, **Slavery in the Ancient Near East** (1949).

(13) A.L. Oppenheim in **Bullt of Amer. Soc. of Orient. Research,** No. 93 (1944), 14 ff.

(14) P. Koschaker, "Eheschliessung und Kauf nach Alten Rechten" in **Archiv Orientálni,** XVIII (1950). 210 ff.

(15) A. van Praag, **Droir Matrimonial Assyrio - Babylonien** (1945).

(16) Brooks, "Some Observations Concerning Ancient Mesopotamian Women", in **AJSL,** XXXIX 187 ff.

(17) C.H. Gordon, "The Status of Woman as Reflected in the Nuzi Tablets" in **Zeit. für Assyriologie,** 43 (1936), 146 ff.

(18) M. David, **Die Adoption in Altbabylonischen Recht** (1927).

(19) L. Oppenheim, **"Orientalia,** 14 (1945), 239 ff.

الفصل الثامن عشر (الحياة الاقتصادية) (تراجع المراجع التاريخيـــة السـابقة وبوجه خاص المراجع الخاصة بالشرائع) ٠

(1) G. Contenau, **Everyday Life in Babylon and Assyria** (1954).

(2) N.I. San Nicolo in **Orientalia,** 17 (1948) 273 ff. ; 20 (1951) 129 ff.

(4) A. Salonen, **Die Wasserfahrzeuge in Babylonien** (1939).

(4) R. J. Forbes, **Notes on the History of Ancient Roads.**

(5) ...., **Metallurgy in Antiquity** (1950).

(6) J. L. Kelso, "Ancient Copper Refining" in BASOR, No. 122 (1951) 26 ff.

(7) A. H. Quiggin, **A Survey of Primitive Money** (1949).

(8) Sir. W. Willcocks, **The Irrigation of Mesopotamia** (1911).

(9) ...., **The Restorations of the Ancient Irrigation Works on the Tigris** (1903).

(10) W. A. Macfadyn, **Water Supplies in Iraq** (Geological Department, No. 1, 1938).

(11) **Report on the Development of Mesopotamia with Special Reference to the River System** (Simla Government Press, 1917).

(12) A. B. Bucklay, **Notes on the Irrigation in Mesopotamia** (1919).

(١٣) طه الهاشمي «مفصل جغرافية العراق» (١٩٣٠) ومختصر الجغرافيـة (١٩٣٣) ٠

(١٤) عبدالمطلب أمين «مبادىء السوق وجغرافية العراق (١٩٤٦)» الدكتور احمد سوسة «تطور الرى فى العراق» (١٩٤٦)، «وادى الفرات» ١٩٤٤ - ١٩٤٥.

(15) M. G. Ionides, **Regime of the Tigris and Euphrates** (London, 1937).

(17) **Hand Book of Mesopotamia** (Great Britain Naval Staff, 1918).

(18) F. E. Cole, **Dust Storm in Iraq** (1938).

(19) Buxton et al "**Survey of Iraq Fauna** (by the members of Iraq Expeditionary Force 1915—1919" **Jour. Bomby Natural History Soc.,** Nos. 27, 28, (1920—1922).

(20) E. Gusst, **Notes on Trees and Shrubs of Lower Iraq** (Department of Agriculture, No. 26, 1932).

(21) Lane, **Babylonian Problems** (1921).

البساتين والزراعة

(22) Andrea, "Die Kültische Garten" in **Welt des Orient** (1953), 485 ff.

(23) V. H. W. Dowson, **Dates and Date Cultivation of Iraq,**

(24) A. H. Pruessner, "Date Culture in Babylonia" in **AJSL,** XXXVI 213 ff.

(25) H. Danthine, **Le Palmier - Dattier et les Arbores sacres** (1937).

(26) R. C. Thompson, **Dictionary of Assyrian Botany** (1947), P. 308 ff.

(27) ...., in JRAS (1923), 233 ff.

الفصل التاسع عشر (الفنون)

١ - الادب :

(1) J. B. Pritchard, **Ancient Near Eastern Texts** (Princeton, 1950).

(2) Alexander Heidel, **The Epic of Gilgamesh** (1947).

(3) ...., **The Babylonian Story of Creation** (1951).

(4) S. N. Kramer **Sumerian Mythology** (1944).
(5) Langdon, **Babylonian Wisdom (1924).**

ويجد القارىء فى المراجع الاربعة الاولى أحـــــدث التراجم الى النصوص الادبية كما يجد الاشارات الى البحوث الاصليـــة السابقة وقد ترجمت بعض هذه النصوص الى العربية فليراجعهــــا القارىء فى مجـلة سومر مجلد ٥ جزء ١ و٢ (١٩٤٩) ومجلد ٦ جزء ١ و٢ (١٩٥٠) ومجلد ٧ جزء ١ (١٩٥١) .

٢ ـ الفن

(6) Gardner, **Art through the Ages.**
(7) Woolley, **The Sumerian Art** (1933).
(8) A. Moortgat, **Fruehe Bildkunst in Sumer.**
(9) H. Frankfort, **The Art and Architecture of the Ancient Orient** (1954).
(10) ...., **Cylinder Seals** (1937).
(11) E. Borowski, **Cylinders et Cachets Orientaux,** I (1942).
(12) Edith Porada, **Corpus of Ancient Near Eastern Seals in North American Collection of P. Morgan Library** (1948).
(13) Ward, **Cylinder Seals of Western Asia** (1910).
(14) H. R. Hall, **Babylonian and Assyrian Sculpture in the British Museum.**
(15) G. Contenau, **Manuel d'Archéologie Orientale.**
(16) Frankfort, **Ssulpture of the Third Millennium from Tell Asmar and Khafaje** (1939).
(17) ...., **More Sculpture from the Diyalah Region.**
(18) **Ecyclopédie Photographique de l'art, 1.**
(19) Andrae, **Coloured Ceramics from. Assur.**
(20) C. J. Gadd, **Stones of Assyria (London,** 1936).
(21) E. A. W. Budge, **Assysian Sculpture in the Brit. Museum** (London, 1914).
(22) L. W. King, **Bronze Reliefs from the Gates of Shalmaneser** (London, 1915).
(23) A. Paterson, **Assyrian Sclupture in the Palace of Sinacherib** (1915).

